الدكتور سمير ليلو الطائي
DR. SAMIR L. ATTAEI

مقدمة في

تاريخ العنف السياسي

(قراءة جديدة في الفكر السياسي العراقي)



مقدمة في تاريخ العنف السياسي

" قراءة جديدة في الفكر السياسي العراقي"

تأليف

د. سمير الطائي

1431 هـ ـ 2010 م

دار دجلة

الإهداء

إلى الشعب العراقي

إلى الشعب العربي في كل مكان .

فهرس الجزء الأول

الفصل الأول

تاريخ حضارة وادي الرافدين القديمة

الفصل الثاني

تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام

الفصل الثالث

عصر فجر الإسلام

الفصل الرابع

عصر الخلفاء الراشدون

المقدمة

لا شك ان ماحدث في العراق من تغيير سياسي منذ نيسان 2003، افرز العديد من الحقائق والتساؤلات حول الاحداث والاوضاع التي اعقبت ذلك التغيير، والتي لم تكن في الحساب بتقدير المتفائلين على الاقل، ممن كانوا يعتقدون ولهم الحق في ذلك ان مجرد زوال النظام الدكتاتوري العدواني وبأي طريقة كانت، من شأنها ان تعيد البلاد الى وضعها الطبيعي اللائق بين دول العالم، لما تمتلكه من ثروات وامكانات وطاقات في جميع النواحي. خاصة وأن العراق كان موطن اول الحضارات في العالم حيث بدأ التاريخ من سومر من خلال إختراع الكتابة، وبعد كل ذلك الظلم والقهر الذي تكبده، وعانى منه الشعب العراقي بمختلف فئاته وطوائفه وقومياته.

لكن واقع الحال كان غير ذلك التوقع، وحصل مالم يخطر ببال الكثيرين، فأن اعمال السلب والنهب والحرائق وتحطيم البنى التحتية للبلاد، وماتلاها من مسلسل القتل والاغتيال والدمار والاساليب الوحشية المتبعة في تنفيذ تلك الاعمال،اصبح امرأ يفوق التفسيرات البسيطة التي يطلقها البعض، والتي تصب في مجملها بأن هناك اخطاء مورست من قبل الأمريكان والحلفاء والقوى الوطنية العراقية التي تولت زمام الامور، او وجود تدخل خارجي لأفشال مشروع الاصلاح، او مايعتقد البعض بوجود مايسمى بنظرية المؤامرة وغير ذلك من التفسيرات التي قد يكون قسم منها صحيحاً لحد ما وفي جوانب معينة، ولكنها لاترقى إلى الوصول الى الاسباب الحقيقية بعمق وتفسير فلسفي يأخذ جميع جوانب المشكلة بنظر الاعتبار بما في ذلك الإرث التاريخي للمجتمع.

لاشك في ان هناك امثلة عديدة حصلت في مناطق اخرى من العالم من خلال حصول تغييرات مماثلة، ولكن ليست بالحدة والحجم الذي حصل في

العراق ولايزال يعيش معنا يوميا رغم الخطوات التي تقدمت بها العملية السياسية لحد الان.

لذلك فقد دعت الحاجة للمزيد من الدراسات والبحث والتقصي العلمي الدقيق من اجل زيادة المعرفة عن طبيعة المجتمع العراقي، ومحاولة الاقتراب من فهم مايدور ببال الفرد العراقي والعربي، هذا الفهم الذي يقود بالنتيجة الى معرفة الاسباب المؤثرة في سلوك الانسان الرافديني خاصة والانسان العربي عموما. وبأعتقادي ان اول ما يمكن البدء به هو العودة لتقليب صفحات الماضي ودراسة المواريث التاريخية المؤثرة، والتي تبعث موجاتها في عقل الانسان لتتحكم في سلوكه وتصرفاته وفهمه لما يدور حوله. ومن اجل ذلك لابد من العودة لألقاء ضوء بسيط على الظروف والاحداث المهمة والمؤثرة التي مرت على البلاد والتي القت بضلالها في رسم سلوك وعادات ومفاهيم وخلفت ورائها مجتمعا أسيرأ لماضيه، لما لتلك الاحداث من اهمية في توارثها داخل العقل الباطن، تبرز وتنشط في سلوكه ونمط حياته كلما سنحت الفرصه لها بالظهور.

ان دراسة المواريث التاريخية يعتبر احد الجوانب الهامة في فهم الانسان العراقي من جميع الاتجاهات والتي تهدف بالنتيجة الى وضع الخطط الستراتيجية الناجحة من قبل المسئولين ومن اجل الوصول بالبلد الى بر الامان والازدهار، وتعويض ما فاتنا من فرص العيش الرغيد، من خلال السير في ركب الحضارة الحديثة اسوة ببقية دول العالم، والذي اصبح عبارة عن قرية صغيرة لا يمكن الانعزال عنها، او وضع حواجز من شأنها ان تبقينا نعيش في عصر متأخر غير العصر الذي نحن فيه الآن، كما يحلم بعض المتشددين والمتعصبين في ذلك للأسف الشديد. وهنا تبرز اهمية العودة لتقليب الماضي من اجل فهم هؤلاء المتشددين ونظريتهم المقاومة للتغير، ويساعد في كيفية التعامل معهم بأقل خسارة.

لقد كان يظن الكثيرون ان ماحصل في العراق في الماضي القريب هو مجرد نتيجة عرضية لأخطاء حصلت في الفترة القريبة الماضية، فقد قدر البعض ان الانتكاسة كانت قد بدءت منذ تسلم البعث للسلطة، بينما يذهب اخرون الى انها بدءت بالانقلابات العسكريه منذ عام 1958 وذهب اخرون الى انها بدءت منذ نشوء الدولة العراقية الحديثة عام 1921 وقال اخرون انها بدءت بأول انقلاب عسكري لبكر صدقي عام 1936 في العهد الملكي، فيما ذهب اخرون الى ابعد من كل ذلك، أذ انهم قالوا ان السبب في ما نعاني منه يرجع الى بداية وضع الحجر الاساس للدولة الاسلامية في القرن السابع الميلادي، وهكذا بدأنا نبتعد شيئا فشيئاً في التوغل في الماضي من اجل اكتشاف الاسس الخاطئة التي قادتنا الى مانحن عليه الان.

ومن اجل الاجابة على السؤال الكبير وهو لماذا سبقونا؟. ولم يسبقنا الغرب فحسب بل سبقنا الغرب والشرق والشمال والجنوب والدول المحيطة بنا.

إنه امر مؤسف ولكن لابد من فهم الاسباب الحقيقية اولاً، لكي يسهل وضع الحلول الناجحة والخروج من هذا الوضع المزري تماماً.

ومن اجل معرفة المؤثرات الحقيقية لابد لنا من مراجعة تاريخية منذ بدأ الانسان العيش في هذه المنطقة ومنذ ان نشأت اول حضارة كانت الأساس في حضارات البشريه جمعاء.

ان كل حقبة تاريخية تقودنا لتقليب حقبة ابعد من خلال تسلسل المواريث المؤثرة في نتائج ماحصل في كل مرحلة. لذلك توجب علينا مراجعة تأريخنا باكمله.

وعلى الرغم من ان مثل هذه الدراسة تحتاج الى جهود كبيرة من قبل معاهد متخصصة لهذا الغرض، الا ان ذلك لايمنع من محاولة الاقتراب من دراسة اولية للمواريث التاريخية ابتداءاً من الحضارات القديمة. لذلك فقد تناول هذا الجزء من الكتاب الذي يشمل اربعة فصول متواضعة ومختصرة، الاول يخص

المواريث التاريخية لحضارة وادي الرافدين القديمة بينما يشمل الفصل الثاني دراسة تاريخية متصلة لمنطقة الجزيرة العربية برمتها في عصر ما قبل الاسلام او ما يسمى بالعصر الجاهلي. كما يشمل الفصلان الثالث والرابع عصر فجر الاسلام، بدءأ بالدعوة النبوية الشريفة وعصر الخلفاء الراشدين، كجزء اول من كتاب سوف تحوي الاجزاء الاخرى منه على دراسة المواريث التاريخية للعصور التي تلت ذلك.

ولا يمكن اعتبار الكتاب من الكتب التاريخية الصرفة، رغم سردنا لبعض الاحداث التاريخية بشكل تفصيلي خاصة في الفصلين الثالث والرابع، لأنني ببساطة لست مؤرخاً، ولكن لابد من الاعتماد على مصادر تاريخية موثوقه من اجل استنباط حقائق معينة تصب في خدمة الوصول الى فهم المواريث التاريخية المؤثرة في حياتنا في الوقت الحاضر.

ان ما تم التطرق اليه من احداث تاريخية يمكن اعتبارها بمثابة مقتطفات لعناوين تاريخية واسعة لامجال لتفصيلها هنا. وقد ركزنا بشكل خاص على موروث العنف السياسي وترسيخ اشكال نظم الحكومات الشمولية ومنع الحريات وتأثير المعتقدات الدينية، بجانب المواريث الاخرى التي تخص السلوك والنشاط الاجتماعي والاقتصادي وغيره. ومن اجل الوصول الى الحقيقة توخينا في طرحنا لبعض المواضيع الحساسة الموضوعية والصراحة، وما على القاريء الا ان يعود الى المصادر والمراجع المؤشرة للتأكد والاستدلال وللتوسع في استيعاب بعض المواضيع التي لم تأخذ حقها في الشرح المفصل لخفايا الاحداث التاريخية، والتي حاول بعض المؤرخين اخفائها او عدم الولوج في تفاصيلها. لقد كلفتنا هذه الدراسة جهداً كبيراً من خلال البحث والتقصي في العديد من المصادر التاريخية، وحاولنا صياغة بعض النتائج التي نأمل ان تنال اهتمام المختصين، وتفتح الشهية لهم للبدء في اغناء هذا الموضوع في زيادة التأليف والبحث للوصول الى فهم اوسع للأنسان العراقي والعربي عموماً.

ولابأس في نقد جميع ماوصلنا اليه بأسلوب موضوعي يصب بالنتيجة في الوصول الى الحقيقة، وبناء قاعدة معلومات تعيد النظر في الاحداث التاريخية المؤثرة على حياتنا في الوقت الحاضر.

اننا لسنا وحدنا في العالم من يمر بأزمات ومحن عصيبة فقد حصلت تجارب عالمية عديدة، قد تكون اكثر مرارة عما يجري عندنا، وقد تم التغلب عليها وتجاوزها، وذلك من خلال زيادة فهم المجتمعات لمشكلاتها من جميع الجوانب. لذا علينا ان نأخذ بنظر الاعتبار كل تلك التجارب وان نفكر بعمق بعد قراءة كل المعطيات المتوفرة للوصول الى حلول بعد كل هذه المخاضة الصعبة التي يمر بها الشعب العراقي ولايزال يعاني منها الى هذا اليوم، ولابد لنا من البدأ في تعريف اهم المصطلحات التي نريد معالجتها في الدراسة لتحديد مانهدف اليه عند انطلاقنا لكل مصطلح يرد وكما يلي:

الموروث التاريخي :

انه كل ماهو عالق في اذهان الناس من احداث مؤثرة بشكل ملحوظ وماتنتج عنها من افكار عبر فترات زمنية طويلة في تاريخ المجتمع الأنساني، والتي قد تمتد الى تاريخ قديم جداً. اذ ان سلوك وعادات الانسان لما قبل ظهور التاريخ (قبل الكتابة)، قد تكون مطبوعة في عقل الانسان والتي ترجع لممارسات كانت اعتيادية لديه، عندما كان يعيش في الكهوف والغابات. ولاتزال تمارس بشكل أو بأخر دون الانتباه الى جذورها التاريخية ونشأتها الأولى بالتحديد. ان السلوك والعادات المطبوعة في عقل الأنسان منذ القدم تصبح جزءاً من كيانه الحالي، وتكون في الغالب محدده لسلوكه وطريقة تفكيره، وتعاملـه مع محيطه الحالي لحد كبير. ومن بين ذلك ماهو سلبي وأيجابي، ومايهمنا هنا هو

الموروث السلبي لدينا من أجل الوصول الى معالجته، واهم موروث سلبي لدينا هو موروث العنف السياسي.

العنف السياسي:

هو الوسيلة القسرية التي تفرض رأيا او حلاً أو موقفاً موحداً. وهو يجسد التطرف الفكري والمثالية العقائدية في منطق "الاعتقاد الجازم" لكل طرف بأنه هو صاحب "الحق المطلق" دون غيره من الناس. وهو بهذا المعنى يقوم بإلغاء حق الغير او الغاء وجوده كليا. ويتراوح في مداه مابين التعذيب النفسي بما في ذلك الوعيد والتهديد وأستخدام لغة الشتيمة وتحقير الغير. وبين التعذيب الجسدي بدءأ بالضرب ولغاية القتل بأشكالة المختلفة. وتعتمد درجة الميل نحو التنازع او التعاون في اطار المجتمع الواحد على مدى تطوره الحضاري او بعبارة اخرى درجة تطور عقله، فأن نمو وتطور العقل البشري عبر التاريخ يأتي بالدرجه الاساس في تحديد سلوك ذلك المجتمع في كل مرحلة من مراحل التاريخ المختلفة. ولايمكن تجاهل حجم هذا التطور الناجم عن سلسلة المعطيات والظروف المحيطة بذلك المجتمع. أن درجة تطور العقل البشري هذه تعتمد على عوامل عديدة لامجال لذكرها هنا، الا ان المهم هو ضرورة الأخذ بنظر الاعتبار درجة النضج الذي وصل اليها العقل البشري في كل حقبه تاريخية وفي كل مجتمع.

صفة التنازع البشري:

تجد صفة التنازع بين البشر منطقها في ثلاثة امور...

اولاً: الحاجات البشرية التي تكون غير متناهية.

ثانياً: الموراد البشرية المحدودة.

ثالثاً: أختلاف العوامل الوراثية والبيئة المناخية المكونة لشخصية الفرد والمجتمع.

من هنا تأتي اهمية دراسة الموروث التاريخي للمجتمع وبالذات لأنسان بلاد وادي الرافدين في لعب دوره الاساسي في سلوكه المتسم بالعنف السياسي المتأصل. لقد اصبح العنف السياسي هوالسمة المتأصله لدينا رضينا أم ابينا. ولابد من زيادة الفهم لتاريخ وجذور تلك الصفة من اجل الوصول الى معالجات ناجعة. لقد اصبحت حالة العنف السياسي متميزة تجسدت بأعلى درجاتها في العراق عبر فترات زمنية طويلة كانت ابرزها فترة حكم الحزب الواحد والفرد الواحد الماضية، حيث كانت أعنف فترة مرت بكل تاريخ العراق القديم والحديث ومن أجل معرفة ذلك لابد لنا من زيارة سريعة للتاريخ القديم والحديث. بقدر يكفي لزيادة فهمنا لظاهرة العنف السياسي في العراق اولاً، وتوفير وألقاء الضوء على سلوك وعادات وتقاليد إنسان وادي الرافدين القديمة ثانياً.

إن اتخاذ المنهجية التاريخية في البحث يكشف لنا عن الأصول الأساسية الموروثة منذ أقدم العصور وبذلك تكون دراسة التاريخ بكل جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ضرورة لازمة لفهم التاريخ الحديث وفهم حاضر الإنسان ومعاناته، فالتاريخ بمثابة الذاكرة للجنس البشري وضميرها، وبالتالي فإن زيادة المعرفة في أصول وجذور المشاكل التي يعاني منها المجتمع حاضراً لا يمكن أن تقترب من الدقة والصواب في الاستنتاج دون اتباع المنهجية التاريخية للمشكلة.

الجزء الأول

من العصور القديمة إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين

الفصل الأول

تاريخ حضارة وادي الرافدين القديمة

1. المعالم الفنية:

يقصد بالحضارة القديمة لبلاد وادي الرافدين تلك الفترة الممتدة منذ عصر فجر السلالات الثلاث قبل أن تبدأ من 3000 سنه ق.م وبعد عصور ما قبل التاريخ (أي ما قبل الكتابة) ولغاية سقوط بابل عام 480 ق.م تقريباً.

نتناول باختصار الجوانب الفنية المؤثرة وذات المعالم الواضحة في موضوع بحثنا عن المواريث التاريخية لسكان المنطقة. لقد تركت حضارة وادي الرافدين آثارها على الحضارات البشرية اللاحقة والمعاصرة، فكان سكان وادي الرافدين من الأوائل الذين اكتشفوا الزراعة [1]، والكتابة، ووضعوا أسس الرياضيات وعلم الفلك وتوصلوا إلى نظرية فيثاغورس الإغريقي قبل توصله إليها بمئات من السنين. وصنعوا الفخار وأدوات البناء، وكانت لديهم صناعة البرونز والذي سمي العصر باسمه (العصر البرونزي) لما قدمه هذا المعدن من أدوات ومميزات خاصة في حياة الإنسان مكنته في تذليل العديد من المعوقات التي كانت تواجهه قبل ذلك الاكتشاف. كما كانوا السباقين في اكتشاف واستخدام الخيول ومارسوا الفروسية، وبنوا أول مجتمع سياسي منظم (المدن السومرية والسامية والأكدية) والتي كانت تعرف بالدويلات السومرية والسامية الصغيرة والمتصارعة فيما بينهما في فترات زمنية معينة [2]. لقد كشفت الآثار التاريخية في كهوف المنطقة الشمالية الجبلية عن وجود الإنسان القديم منذ زمن لا يقل عن 120 ألف سنة حيث كانت هناك

---

(1) طه باقر، (مقدمة في تاريط الحضارات القديمة)، بغداد، 1986، 32.

(2) طه باقر المصدر نفسه 195 ـ 197، 236 ـ 243.

كهوف في منطقة كردستان العراق تحوي أثارا للإنسان القديم المتجول وغير المستقر في ذلك الحين. ومنذ أكثر من عشرة آلاف سنه وبعد أن أخذ الإنسان فن العيش في مناطق مكشوفة بدلا من الكهوف الضيقة، وبعد أن استطاع أن ينقل البشرية من عصر جمع القوت إلى عصر إنتاج القوت، وأصبحت كردستان العراق بؤرة الثورة الزراعية القديمة[1]، كما فعل ذلك قدماء السومريين في الجنوب، ومع انتشار القرى الزراعية في بلاد وادي الرافدين.

لقد بدأ الاستيطان في الجنوب بحدود 5000 ــ 6000 سنة ق.م وبرزت جهود الأوائل ممن استوطنوا السهل الرسوبي بتحويل بيئة وحشية من الأهوار والمستنقعات والأحراش والبادية الجرداء إلى بيئة زراعية مروية ومعطاء، بحيث أن هذه المنطقة شخصت في التوراة بجنة عدن، وذكر فيها النهرين التوأمين دجلة والفرات ضمن أربعة انهار تنبع في الجنة، وذلك من خلال ما كان يدور في ذهن الإنسان في ذلك العصر من مثالية العيش على ضفاف هذين النهرين[2] ولا بد من الإشارة هنا إلى أن اكتشاف حبة الشعير والقمح في بلاد وادي الرافدين كانت تعتبر طفرة كبيرة في حياة البشرية، لما لعبته من دور فعال في استقرار ذهن الإنسان وتكوينه للمجتمعات المدنية الصغيرة التي تعرف بالمدن. ولما تشكله تلك الحبة من قابلية على الخزن لمدة طويلة من الزمن دون الحاجة إلى التنقل وترك مكان العيش يومياً إلى أماكن أخرى بحثا عن لقمة العيش التي تحقق له البقاء والمحافظة على وجوده في هذه الدنيا، وبالتالي فقد استطاع الإنسان من خلال ذلك الاكتشاف أن يستقر ويفكر بتنظيم حياته وحياة عائلته ومجتمعه البسيط ضمن

---

(1) جورج رو (العراق القديم) ترجمة حسين علوان حسين، دار الشؤون الثقافية العامة/ الطبعة الثانية بغداد، 1986، 29 تقى الدباغ حضارة العراق، ج1 30.

(2) وليم ويلكوكس (من جنة عدن إلى عبور نهر الأردن)ترجمة محمد الهاشمي.

الأسرة والعشيرة ثم تطورت بعدها إلى القبيلة المكونة من عدد من العشائر وهكذا ليشمل المدينة. إن عملية التحضر والمدنية لم تأتي جزافا بل كانت نتيجة لتأمين الحاجة الأساسية للإنسان وهي الغذاء، والذي يستطيع من خلالها التفرغ للتفكير بالأمور الحضارية الأخرى بعد استقراره وشعوره بالأمان من خلال خزنه لمؤونة الغد. ولابد من الإشارةهنا أيضاً إلى حضارات أخرى نشأت في أجزاء أخرى من العالم فقد كان اكتشاف حبة القمح في مصر سبباً لنشوء حضارة وادي النيل، وحبة الرز في الصين والذرة في أماكن أخرى وهكذا. وقد انتقلت وتمازجت الحضارات الإنسانية القديمة في كافة أرجاء المعمورة بعد استقرار الإنسان وحصوله على الاطمئنان على موارده الغذائية أولاً. لقد برزت جهود الأوائل من السومريين في الزراعة والموارد الأساسية التي بنوا عليها حضارتهم في منطقة مابين النهرين (دجلة والفرات) من خلال توفر الماء والأرض الخصبة والشمس وفي ظروف الافتقار إلى مواد الحضارة الأخرى من أخشاب وأحجار ومعادن، والذي أدى لنمو الأعمال التجارية التي استمرت أهميتها لتشكل مجالاً حيوياً مهماً لنمو الحضارة التي عرفت فيما بعد بحضارة وادي الرافدين القديمة.

لقد نشأت الحاجة إلى الأخشاب وتطورت التجارة بين بلاد الرافدين ومنطقة شرق البحر الأبيض المتوسط (سوريا، ولبنان وفلسطين حاليا) لتوفر الأخشاب لديهم وكانوا يبتدعون طرقا عديدة في توصيل تلك الأخشاب الثقيلة إليهم ومبادلتها بمواد متوفرة لديهم.

كما نشأت وتطورت الحرف والصناعات بحكم نمو واستقرار الإنسان في المدن بدلاً من السير والتجوال والخوف من الغد وتوفير وتأمين حصوله على قوته اليومي، كما كان يفعل الإنسان القديم غير المتحضر قبل اكتشافه الزراعة، وبالأخص زراعة الحبوب القابلة للخزن وعدم تعرضها إلى التعفن والتلف لفترة طويلة من الزمن أو لموسم كامل على الأقل.

وكما يقول الأثاريون أن المدينة لم تبدأ في التاريط إلا بعد ما أكتشف الإنسان الزراعة. فقد كان الإنسان قبل ذلك يلتقط القوت من الشجر أو يقتنصه من على الأرض، وكان متجولاً لا يعرف الاستقرار.

أن زراعة الحبوب تحتاج إلى تدبير خطة وانتظار وادخار. فالزارع يعمل في يومه ويأمل أن يحصد لغده. وهو مضطر أن يصلح الأرض ويشق الترع ويحرث ويبذر ويروي ويحصد ويجمع ويخزن الحبوب في مكان آمن. وهو بالتالي يحتاج إلى أن يفكر في الغد ويستعد لهذا الغد، وكذلك أصبح مضطراً لبناء المساكن ودراسة الفلك لكي يزرع بالمواسم الملائمة للزرع ويحصد في الوقت المناسب للحصاد وهكذا...

وقد بدأ في اختراع الكتابة فالزراعة تدعو إلى الاستقرار في الأرض والاستقرار يؤدي إلى بناء بيت دائم، وهذا البيت يحتاج إلى تسجيل حساباته المعقدة لئلا ينساها، والى ضبط ديونه لئلا تنكر، وهي تدفع إلى مراقبة النجوم والشمس والقمر لكي يضبط بها مواسم البذر والحصاد وما إلى ذلك[1]. وكل هذه الأمور تؤدي بالنتيجة إلى دفع الإنسان نحو إتقان العلوم والفنون بشتى أنواعها وهكذا نجد أن السلسلة في بناء الحضارة في بلاد وادي الرافدين لم تكن بناءا على رغبة الجماعة أو لكي يكونوا متميزين عن غيرهم في مناطق أخرى، ولكي نقول عنهم بعد آلاف السنين كم كانوا عظماء؟ إن خطوات نشوء الحضارة التي بدأت بالزراعة وتبعتها الحاجة إلى المعرفة بالهندسة والحساب والفلك والحاجة إلى التدوين والمحافظة على ما هو مكتوب بالفخار والتزجيج قد ساق الإنسان خطوة أخرى إلى الأمام نحو الفلسفة والتي تؤدي بدورها إلى الشك والتساؤل والقلق. لقد

---

(1) عبد الوهاب حميد رشيد (حضارة وادي الرافدين) دار المدى للثقافة والنشر 2004 سوريا دمشق، ص35.

استقر السومريون قبل حوالي 3500 سنه ق.م في المنطقة الجنوبية من وادي الرافدين[1] وكونوا حضارة عريقة تعرف بالحضارة السومرية وكان أشهر ما فيها الكتابة المسمارية والفخار حيث كانت تكتب على صفائح وأسطوانات من الأطيان الناعمة جداً، والتي كانت متوفرة في المنطقة الرسوبية الناجمة عن تراكم الأطيان بعد ترسبها أيام الفيضان لدجلة والفرات، وكانت تستخدم طريقة في الحفر بآلة حادة مثلثة الشكل من الحجر الصلب عرفت الكتابة باسمها وأطلق عليها اسم الكتابة المسمارية نسبة إلى المثلث الحاد المستخدم في الأداء[2] ويفخر الطين بعد ذلك ليبقى الحفر عليه ثابتاً.

إن اكتشاف الكتابة لم تكن بين ليلة وضحاها بل مرت بأدوار عديدة وبمئات السنين فقد ظهرت في بادئ الأمر على هيئة صور رمزية ولا صوتية. ولقد سميت الحقبة التي شهدت ظهور الكتابة في مراحلها الأولى بـ (الدور الشبيه بالكتابي) وهو دور يتميز بكون الكتابة في أطوارها الأولى ومحدودية استعمالها وانتشارها، وقد أطلق المختصون بالمسماريات تعبير (النصوص البدائية) (Prim Archaic) على رقع الطين التي تعود إلى هذا الدور الممتد من 3000 ــ 2600 ق. م.[3]

لقد مرت الكتابة في هذا الدور (الشبيه بالكتابي) بثلاثة مراحل مهمة من التطور هي:

1. الطور الصوري: أي التعبير عن الشيء برسم الصورة المصغرة له.
2. الطور الرمزي: أي استنباط معاني جانبية من صورة الأصل كاستخدام العلامة الدالة على الشمس للتعبير عن معان ومشتقات كل ما هو مضيء منها مثلاً (لامع،

---

(1) طه باقر (مقدمة في تاريط الحضارات القديمة) ص 36ــ241.

(2) عبد الوهاب حميد رشيد حضارة وادي الرافدين ص112.

(3) فاضل عبد الواحد (العراق في التاريط) تأليف أحمد صالح العلي، الفصل التاسع، دار الحرية للنشر والطباعة (1983) ص 272.

ساطع، مشرق) وبالمثل التعبير عن كلمة يوم لأن شروق الشمس وغروبها يمثلان يوما.

3. الطور الصوتي: وفيه استخدمت العلامة ليس من أجل معناها الصوري أو الرمزي وإنما من أجل صوتها فقط. وبهذه الوسيلة أمكن كتابة أسماء الأعلام والأشياء على هيئة مقاطع صورته. وقد صاحب هذه التغييرات في مدلول العلامات تغييرات في الشكل أيضاً. إذ أخذت العلامات تفقد شكلها الصوري بصورة تدريجية نتيجة عوامل عديدة لعل من أبرزها أن المادة المستعملة للكتابة، وهي الطين غير ملائمة لرسم صورة الأشياء، ولكنها ملائمة جداً لكتابة العلامات بشكل خطوط مستقيمة، وذلك بضغط رأس القلم قليلاً على وجه الرقيم. وبذلك صارت العلامات تتكون من خطوط مستقيمة أفقية وعمودية ومن زوايا مائلة. كما أن القلم المثلث أعطى هذه الخطوط رؤوساً تشبه المسامير، ثم أن عدم توصل سكان بلاد وادي الرافدين إلى الكتابة الهجائية كان عاملاً معوقاً اضطرهم إلى استخدام أعداد كبيرة جداً من العلامات المسمارية. وقد بلغ عددها في العصور الأولى من تاريط الكتابة ما يزيد على 3000 علامة، ولكنها لم تلبث أن اختزلت بمرور الزمن حتى أصبحت في نهاية عصر فجر السلالات الثاني (2600 ق. م) في حدود 800 علامة فقط. وقد انتشر الخط المسماري وصار وسيلة للتدوين في منطقة سومر وأكد وحتى خارج حدود بلاد الرافدين، مما أوجد روابط وثيقة في نقل كثير من المفاهيم والمعتقدات الدينية والنتاجات الأدبية والثقافية، وكان أعظم إنجاز حضاري قدمته بلاد الرافدين في تاريخها القديم، أفادت منه شعوب الشرق الأدنى عموما الذي كانت لديه أقدم وسائل التدوين التي توصل إليها الإنسان للحفاظ على تاريخه وتراثه ومنجزاته.

ويجدر الإشارةهنا إلى أن الخط المسماري في بلاد الرافدين قد استعمل في تدوين لغتين أساسيتين هما :

1. اللغة السومرية: وهي لغة ظلت محكية في بلاد سومر وأكد ثم استبدلت بعد سنة 2600 ق. م إلى اللغة البابلية التي كانت لغة الآموريين حكام البلاد الجدد. وأخذت السومرية بالاضمحلال تدريجياً كلغة محكية في المجتمع بعد هذا التاريط.
2. اللغة الأكدية وفروعها البابلية والآشورية: وتمثل الفرع الشرقي من لغات الجزيرة في حين كانت الكنعانية والعبرانية والفنيقية والآرامية تمثل الفرع الغربي منها.

ويمكن الرجوع إلى المصادر المختصة في مجال نشأة اللغات للمزيد من المعلومات عن كيفية انتقال اللغة إلى بقية البلدان ومنها الأوروبية من خلال الانتقال بمراحل اللغة اللاتينية وهناك العديد من المفردات لا زالت متشابهة ما بين تلك اللغات. (انظر طه باقر ــ من تراثنا اللغوي القديم ــ كذلك لمحات من تراث حضارة وادي الرافدين في الحضارة اليونانية (1980)).

وهكذا تم معرفة الكثير عن التاريط القديم من خلال تلك اللوحات المحفورة والتي تم العثور عليها ضمن الآثار المكتشفة، ومكنت من ثروة كبيره في استعادة ومعرفة أصل الحضارة عبر القرون.

إن من بين تلك المعلومات كانت القوانين والمعارف السائدة في ذلك الحين ومن بين المعلومات أيضاً كانت قائمة باسماء أصباغ وألوان ملابس كانت تستخدم للنساء مما يدل على أنهم استخدموا تلك الألوان لصباغة ملابسهم، وهناك أدلة من خلال العثور على ملابس وأزياء كانت مدفونة من قبل الملوك الذين كانوا يدفنون مع حاجاتهم في تلك القبور، والتي بقي جزء يسير جداً منها (والتي استخدمت بطريقة الصدفة من قبل ملوك الفرس والذين جاءوا للمنطقة بعد فترة طويلة من الزمن، كما ورد ذلك في أقوال

هيرودتس* أحد أشهر الكتاب الإغريق الذين دوّنوا الكثير عن ترحالهم القديم). وهذا دليل واضح على أنهم صنعوا آلات الحياكة والخياطة واكتشفوا الأصباغ الثابتة من أصل نباتي وحيواني لملابسهم[1]. كما أن من بين تلك القبور التي عثر عليها والتي كانت تابعة للملكة شبعات (ملكة تدمر) في الجانب السوري حيث كانت تحوي على جميع الحلي الذهبية والقلائد الحمراء البراقة والملابس الصوفية الملونة بألوان متعددة، مما يدل على أنهم استخدموا الصوف والكتان للأغراض الملبسية قبل اكتشاف القطن. ومن الأمور التي تستحق الذكر هنا هو استخدام السومريين للصابون، فقد وجد في العراق وبالقرب من مدينة صغيرة كانت تعرف باسم تيلو والتي تطورت بعدها في العصر البرونزي إلى مدينة (لكش) لوحه مسمارية مفخورة يعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنه ق.م تدل على استخدام السومريين للصابون. وتوجد هذه اللوحة الآن في المتحف التركي في اسطنبول. إن هذه اللوحة تعتبر من أقدم الأدلة على حقيقة استخدام مادة الصابون. ومما يدل على أنهم استخدموا الزيوت النباتية وخاصة زيت الزيتون وعرفوا مادة الصودا الكاوية المستخدمة في هذه الزيوت لأغراض صناعة الصابون كما تدل أيضاً على أنهم استخدموا مادة الصابون لأغراض مختلفة منها تنظيف الملابس مما يدل على أنهم اكتشفوا ألواناً ثابتة لملابسهم بحيث تمكنهم من غسلها دون أن تفقد من شكلها ورونقها بعد الغسل، وهذا يتطلب أيضاً اكتشاف طرق في تثبيت تلك الألوان على الملابس وذلك باستخدام مواد كيميائية مساعدة لهذا الغرض.

---

* هيرودتس ـ هو من مواليد إحدى المدن الساحلية على بحر أيجه الجنوبية في آسيا الصغرى (تركيا حاليا) والتي كانت تابعة للبيزنطيين (الإغريق) وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد وهو من أشهر ما كتب عن التاريط القديم ودوّن في رحلاته لمنطقة الشرق الأوسط تعتبر من أشهر وأهم المصادر التاريخية لدى المؤرخين.

(1) Bayer Farben Revue (Notes on the history of dyeing) No.8 (1965)

لقد عرفت صناعة الصابون في بلاد الرافدين في حين لم تكن هناك دلائل واضحة لوجود مثل هذا الاستخدام في مناطق معروفة من العالم كاليونان حتى وقت متأخر. فلا يوجد دليل على مثل هذا الاستخدام في حضارة الأغريق والرومان في تلك الفتره.

ولا بد لنا من ذكر اكتشافهم للألات الموسيقية كالقانون والقيثارة التي اشتهرت فيما بعد وتوجد لها اثار في العديد من المناطق العالمية مما يدل على عمق حضارة وادي الرافدين وقدمها في العديد من المجالات. وفي حوالي عام 2700 ق.م اصبحت القبائل الآمورية هي السائدة في تلك المنطقة والتي جعلت بابل عاصمة لها وكانت بابل مدينة صغيرة مطلة على نهر الفرات، والتي عرفت مملكتهم بالملكه البابلية الأولى. وقد اتسعت بعد ذلك لتكون امبراطورية بابلية مشهورة لتشمل ضفتي كلا النهرين على يد الملك الكبير والمشهور باسم حمورابي الذي عاش في الأعوام 1792 ـــ 1750 ق.م[1]، ذلك الملك المشهور بمسلته المعروفة بكونها أشهر لائحة قانونية تشرع في التاريط والمعروفة بمسلة حمورابي والمحفوظة الآن في متحف اللوفر بباريس (النسخة الأصلية) ولابد من الإشارةهنا إلى أنها ليست أول لائحة في التاريط كما هو شائع، بل هناك لوائح أخرى قبله كما سيأتي ذكرها لاحقاً وجاءت بعد ذلك أقوام أخرى كالكلدانيين والاموريين والاشوريين، والذين جاءوا من الشمال الغربي حيث كان عهد اخرمن عهود أقامة حضارة عريقة تلت الحضارة البابلية الأولى. بينما أقام الآشوريون امبراطوريتهم في شمال العراق وبسطوا سيطرتهم على منطقة الشرق الأدنى برمتها بما في ذلك الشام وفلسطين وجزءاً من مصر في بعض الأحيان وأقاموا حضارة عريقة[2]، وكان أشهر ملوكهم هو آشور بانيبال والمعروف لدى الأغريق باسم (ساردونابولس). ان أشهر ما قام به هذا الملك هو

---

(1) طه باقر، مقدمة في التاريط... 481 ــ 482.

(2) طه باقر، المصدر السابق.. 406 ــ 430.

تأسيسه لأول مكتبة في العالم وفي التاريط القديم، التي كانت منظمة على اسس رصينة. لقد احتوت هذه المكتبة على عدد من المنحوتات المسمارية المجمعة على رفوف منتظمة مع لائحة بالمحتويات وقائمة المراجع. ان هذه المجموعة من اللوائح الفخارية المكتوبة بالخط المسماري المتداولة في لغة بلاد الرافدين تعد من اعظم ماحفظه التاريط لنا من مادة مفيدة للأنسانية في العالم أجمع. لقد اكتشفت اكثر من 100.000 رقيم بعضها يعود إلى 2000 سنه ق.م[1] ولاتزال الترجمات مستمرة إلى يومنا هذا، لمجموعة من المخطوطات. لقد اشتهر الاشوريون ايضا بالثور المجنح، حيث كانت قصور ملوكهم تزين بالعديد من الثيران المجنحة الضخمة المنحوتة من الحجر الذي كان متوفراً في المنطقة وبأحجام كبيرة ايضاً، بينما كان الكلدانيون وهم من الأقوام السامية أيضاً في جنوب شرق بلاد الرافدين متحدين مع سكان منطقة الوسط وكان الاخمينيون في الشرق (بلاد فارس) في صراع مع الاشوريين في الشمال، وقد تمت السيطره على نينوى (العاصمة) في عام 606 ق.م حيث احتوت مناطق اواسط الفرات والجنوب تضم أمبراطورية بابل الثالثة وعاد البابليون إلى مجدهم في حين بقي الشمال تحت حكم الاشوريين وملكهم ساكوريس[2]. لقد اصبحت أمبراطورية بابل الثالثة ذات اهمية كبيرة جداً أيام حكم الملك المشهور (نبوخذ نصر الثاني) الذي اشتهر بالعنف للأعوام بين 605 ــ 562 ق.م وأشتهر في برج بابل وبقيامه في حملات مشهورة ضد اليهود في فلسطين والمعروفة بالسبي البابلي وأسر منهم العديد، وجاء بهم إلى بابل، وأستقر عدد منهم منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا بينما عاد قسم منهم إلى فلسطين على يد كورش احد ملوك الفرس (الأخمينيين) الذين استطاعوا احتلال بابل واجتياح المنطقة برمتها إلى مصر.

---

(1) Bayer Farben Revue، المصدر السابق.

(2) عبد الوهاب حميد رشيد (حضارة وادي الرافدين) دار المدى، 2004، ص 79.

ومن أبرز ملامح الحضارة البابلية الباقية إلى يومنا هذا هو طريق المعبد المؤدي إلى قصر الملك الموجود حالياً في منطقة بابل[1]. وكذلك باب عشتار والتي نقلت إلى برلين ولاتزال موجودة هناك، وتعتبر دليلاً قاطعاً على مدى أنتشار أستخدام التصاميم الملونة في ذلك العصر. ويتميز التصميم المعماري المستخدم لدى الأمبراطورية البابلية الجديدة من خلال الاستخدامات الواسعة لألوان السيراميك المتنوعة في تزيين واجهات الأبنية الخارجية دليلاً على ماتوصل اليه القوم من فن في مجال صناعة الزجاج والسيراميك الملون. لقد ترك البابليون ارثاً ثقافياً وحضارياً واسعاً نقل إلى مناطق عديدة من العالم لتنشأ حضارات اكثر غزارة وتطوراً عن سابقاتها وكان من بينها الحضارة الأغريقية والرومانية. إن من يتطلع في الاثار التاريخية لتلك الحضارات وحسب التدرج الزمني كما هو معروض في متاحف اثينا باليونان ومتاحف روما وغيرها يجد بوضوح ان اسلوب النحت والأدوات المستخدمه كانت في البداية مشابهة تماماً لما كان عليه الحال في بلاد الرافدين وحصل ان تطورت إلى منحوتات أكثر تعقيداً ودقة بمرور الزمن وكأنها سلسلة واحده من عمل الجنس البشري الواحد. أن عمل الجنس البشري الموحد هذا لايمكن أن يتكامل ويبنى بناءاً فوقياً دون ان يتدرج في هيكل بناء فوقي موحد ومستند واحداً على الأخر.

وهكذا سقطت بابل على يد كورش كما ذكرنا وهو قائد الأمبراطورية الفارسية في الشرق وكان ذلك بحدود عام 480 ق.م[2] والذي استولى على كافة ارجاء منطقة الشرق

---

(1) يجدر الإشارةهنا أن القصر الملكي البابلي تعرض للعديد من الحملات المدمرة عبر فترات زمنية متعاقبة ولم يبقى منه إلاالنزر اليسير حالياً.

(2) فاضل عبد الواحد علي (من ألواح سومر إلى التوراة) دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية (2000)، ص 25.

الأدنى، واستمرت سيطرة هذه الأمبراطورية إلى القرن السابع الميلادي، اي إلى حد ظهور الإسلام وكان من بين اشهر ملوكهم سيروس وداريوس وكوركيوس وغيرهم. وكانت تلك الدوله في صراع دائم مع الأغريق، وقد جاء الأسكندر المقدوني الذي يعرف بالأسكندر الكبير ليسلك طريق الحرير نحو الشرق ليصل إلى الهند، بعد أن أستكمل إحكامه على بلاد وادي النيل (مصر) وقد استطاع هذا القائد المشهور في التاريط بقوته وجبروته ان يقهر الفرس وان يحتل المنطقة بأسرها في الفترة ما بين 356 ـــ 323 ق.م. وقد اخذ الأغريق العديد من الغنائم من شتى انحاء الأمبراطورية الفارسية التي مروا بها وكان من بينها بابل التي لم تنج من هذا الغزو ولكنهم استعادوا بعدها سيطرتهم عليها الا انها تقلصت هذه المرة لتشمل الجانب الشرقي من المنطقة فقط.

بينما بقي الجانب الغربي المطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط تحت السيطرة البيزنطية (الإغريق)، وبقيت المعارك الدائرة بين الفرس والإغريق لفترات طويلة تارة يندحر فيها الفرس واخرى يندحر فيها الإغريق حتى ضعفت الإمبراطوريتان في القرن السابع الميلادي بعد ظهور الإسلام على الساحة العالمية.

وأخيراً نقول ان المعالم الفنية لحضارة وادي الرافدين تزخر بها العديد من متاحف التاريط القديم العالمية والعراقية، يمكن الرجوع اليها والى المراجع التفصيلية التي لامجال لنا هنا من الخوض في تفاصيلها ومعرفة مفرداتها بدقه.

2. الحياة الاجتماعية والقوانين والأفكار في بلاد وادي الرافدين:

لقد أوجدت الزراعة متسعاً من الوقت للانسان لأن يتأمل ويفكر وينظم حياته نحو الاحسن، وبالتالي فقد تطلب نمو المجتمع وتعقد الحياة الاجتماعية إلى سن قوانين منظمة للعلاقات والتعاملات بين الناس، فشهدت الألفية الثانية قبل الميلاد صدور قوانين عدة سومرية وبابلية مثل قانون أور ـــ نمو وقانون لبت ـــ عشتار وقانون

أشنونا وقبلها جميعاً اصلاحات أور ـ كاجينا والتي حرم فيها تعدد الزوجات وفرض عقوبة الرجم على المرأة المخالفة [1]... الخ وظلت هذه العقوبة سارية المفعول إلى فترة زمنية ليست بالقصيرة، وأخيرا صدور شريعة حمورابي والتي سبقت قانون النبي موسى (عليه السلام) بعدة قرون ومنها الوصايا العشرة المعروفة عند المسيحيين ايضاً كما هي الحال عند اليهود وكان بضمنها عقوبة الرد بالمثل (العين بالعين والسن بالسن... الخ) وقطع يد السارق وغيرها من العقوبات التي كشفت موادها انتحال القانون العبري (اليهودي) للكثير منها، ولتعطي دليلاً اضافياً بأن جزءاً من التوراة المدون حالياً والمتداول إلى يومنا هذا... ماهو الا صياغة معدلة من (ملحمة الخليقة البابلية) مع القوانين السومرية والبابلية الأخرى ومنها قانون حمورابي الذي مر ذكره والتي كانت سائدة في ذلك الحين في تلك المنطقة [2].. وكما ورد في كتاب بوتيرو*.

لقد أوجد السومريون وطبقوا نظرية الحق الالهي المقدس للملك الحاكم قبل ان يوجدها توماس هوبز (Thomas Hobbs) " The Divine Right Of King " (1588 ـ 1679) وهذا النظام الالهي يشكل أصل نظام الحكم في حضارة وادي الرافدين القائمة على الملكية الوراثية والتفويض الالهي المقدس الذي نشره توماس هوبز[3]، ولكن بأسلوب آخر حديث. ونظراً لأهمية الملك بأعتباره مصدر رفاه شعبه وأن أي شر يلحقه يضر بالبلد، وعليه تمت حمايته بمختلف الطقوس.

---

(1) ساكز، هاري " الحياة اليومية في العراق القديم " (بلاد بابل وأشور) ترجمة كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (2000) ص 167.

(2) جان بوتيرو (ولادة اله التوراة والمؤرخ) ترجمة جهاد حواشر، عبد الهادي عباس دار الحصاد للنشر والتوزيع سوريا دمشق (1999).

(3) عبد الوهاب حميد رشيد (الديمقراطية والتحول الديمقراطي) السويد (2000) ص: 31.

لقد كانت بلاد ما بين النهرين ومنذ أقدم العصور، ملتقى شعوب مختلفة. فما أن استقر بها السومريون وبدأوا فيها بناء حضارة زاهرة حتى اجتاحتهم جماعات الآموريين السامية الأصل. والتي خرجت من الجزيرة العربية واستقرت بعد تنقلات عديدة، في بلاد ما بين النهرين حيث سيطرت على سومر والبلدان المجاورة لها. وقد أصبحت بابل البودقة التي انصهرت وتمازجت فيها الحضارات السومرية والسامية. وكان للساميين الفضل في إحلال لغتهم محل اللغة السومرية وهي أكثر منها طوعية ومرونة، فمكنت الفكر من الانطلاق خطوة إلى الأمام[1].

لقد حدد ماسون أوسيل أثر بلاد الرافدين في الفكر العالمي وأرجعه إلى ما يلي:

1. نظرية الزمان المبنية على النظام الكوني وكثير من المعارف الناجمة عن رصد النجوم ومراقبة الأفلاك، وتقديس الشمس التي أصبحت أساساً للديانات الفلسفية الشمسية المنتشرة في سوريا ونجد والمتغلغلة في الفكر اليوناني القديم من جهة، ومن جهة أخرى في الفكر الهندي القديم عن طريق إيران المتصلة ببلاد الرافدين أيضاً.
2. الاعتقاد بالقضاء والقدر المسيطر على نظام الكون وعلى المصير الإنساني: وهذا القدر هو ناموس إلهي يسيّر كل كائن ويعين اتجاه تطوره، وقد أخذ اليونان هذه الفكرة وجعلوا منها (الكلمة المولدة)، كما أخذها الهنود فأصبحت عندهم (المرسوم الإلهي).

إن دراسة تطور الفكر الإنساني التي تعنى بالعلاقات الظاهرة والخفية التي تربط المظاهر المختلفة لهذا الفكر عند الشعوب تبدو لأول وهلة بعيدة كل البعد بعضها عن

---

(1) حنا الفاخوري وخليل الجر (تاريط الفلسفة العربية) ج 1، دار الجيل، بيروت (1993)، ط 3، ص 21.

بعض، وما هي في الحقيقة، سوى اتجاهات مختلفة لمفاهيم أساسية تطورت في البيئات المختلفة، واتخذت أشكالاً خاصة وفقاً للظروف المعينة التي رافقت تطورها، والعناصر الجديدة التي دخلت عليها هنا وهناك. ولكن على الرغم من كل ذلك التطور والمساهمات الفكرية لبلاد ما بين النهرين إلا أن نمط التفكير الذي جاءت به حضارة وادي الرافدين لا مكان فيه متميزاً عن الدين، من حيث فلسفتهم وتفسيرهم للظواهر الطبيعية.

ولذلك لم يتمكنوا من وضع نظرية عميقة عن الكون، ولم تكوَن الفلسفة عندهم نظاماً من التفكير مستقلاً قائماً بذاته يكون نتاج العقل الخالص. وعلى الرغم من وصول بعض فرقهم ومفكريهم إلى نظرية ما في المعرفة كما أسلفنا إلا أن تلك المعرفة كانت محدودة تقوم على أساس الذوق والكشف لتلبية احتياجاتهم الآنية في تلك الحقبة من الزمن، ولا تستند على أساس العقل والمنطق، كما فعل اليونانيون أيام سقراط وأفلاطون وأرسطو والذين بنوا قاعدة راسخة تمكن الأجيال القادمة من التواصل في إعلائها وبنائها، والبناء الثابت والرصين عليها[1].

لقد بنى السومريون والاكديون والبابليون (سرجون/حمورابي) الدولة الوطنية الموحدة بعد ان كانت مدن مبعثرة وأهدوا للبشرية القوانين المنظمة للحياة الاجتماعية (شريعة حمورابي) والذي شكل القانون العبري بعد ذلك وأمتدت آثاره للحضارة المعاصرة، هذا بعد أن ولدت هذه الأرض اول حاكم مصلح في تاريط البشرية الا وهو الحاكم أور ـــ كاجينا (2400 ق.م) كما أوردناه. وكتبوا اول الملاحم البطولية الحية وأعظمها وهي ملحمة كلكامش الشهيرة التي دونت بصيغتها البابلية قبل 2000 سنه

---

(1) محمد عبد الرحمن مرحبا (من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية) عويدات للنشر والطباعة، بيروت (2000)، ج 1، ص 62.

ق.م[1]. وأبتدعوا القصص على لسان الحيوانات قبل أيشوب الأغريقي بأكثر من الف عام وأسسوا نظاماً شاملاً للدين شكّل أساس الديانات الرئيسية في العالم وعلموا البشرية العطلة الاسبوعيه (السبت البابلي)، الذي تمسك به اليهود ليصبح جزءاً من ديانتهم وطقوسهم يقدسونها إلى يومنا هذا. وما كلمة السبات والثبات وغيرها من المفردات العربية ألا مشتقات من كلمة السبت البابلي الذي حرم فيه العمل من قبل البابليين اولاً وأعتبروه بمثابة الراحة التي يجب ان يتمتع بها الإنسان الذي يعمل طيلة أيام الأسبوع الأخرى، ومن الجدير بالذكر هنا إلى أن تقسيم الأيام إلى سبعة أيام في الإسبوع والاشهر إلى ثلاثين يوماً في الشهر واثني عشر شهراً في السنة وحتى اليوم إلى 24 ساعة ما هي إلا تقاسيم سومرية أو رافدينية في الأصل. وتركوا أول كتاب مقدس (ملحمة الخليقه البابلية) لديانة عالمية شكلت مصدراً رئيسياً للديانة اليهودية وديانات الشرق المختلفة. فهناك العديد من القصص والأساطير في هذه الملحمة مشابه لما جاء في التوراة القديم وبالذات مع قصص اسفار التكوين والطوفان وايوب وغيرها كما أن هناك تشابة كبير في الطقوس والمراسيم الدينية مع العديد من ديانات الشرق عموماً كالبوذية والهندوسية والكمفوشية والزرادشتية والمانوية والتي جاءت بعدها أو أن تكون متمازجة فيما بينها وأخذت بعضها من بعض من خلال اختلاط الحضارات القديمة.

لقد قام مجتمع بلاد الرافدين اساساً على طبقتين رئيسيتين لامجال للمقارنة بينهما هما الأحرار والعبيد، ضمت الأحرار فئات وشرائح عديدة منها الطبقة الحاكمة والمتنفذة، ومنها الطبقة المحكومة (عامة الناس) وكان هذا هو التقسيم الاجتماعي الذي ينظم علاقات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية منذ بداية تكوين التجمعات السكانية المدنية المتحضرة والتي جاءت كمرحلة متقدمة عن مرحلة المشاعية البدائية الذي كان

---

(1)عبد الوهاب حميد رشيد (المصدر السابق): ص: 167.

يعيش بها الإنسان منفرداً في الكهوف. وقد جسد كلاً من القصر والمعبد، مركز الثقل السياسي والأقتصادي والأجتماعي والديني لمجتمع وادي الرافدين، فالملك نائب (ممثل) الآله في حكم ارضه ومخلوقاته، والكاهن والعالم والمفسر لإرادة الآله والوسيط بينه وبين الناس شكلا معاً مصدر السلطة والأمتيازات (الحقوق).

لقد كانت تلك السلطة اكثر تسلطا مما هو معهود في عصرنا ضمن مفهوم الدكتاتورية المتداول. وكلما اقتربت العلاقة من القصر و المعبد، كلما زاد الاقتراب من الحاكم وازدادت السلطة والأمتيازات وكلما ابتعدت باتجاه عامة الناس زادت التبعات إلى حدود السخرة والعبودية*.

إن النظام الأجتماعي الذي كان سائداً في بلاد الرافدين كان نظام الأسرة الأبويه، فالأب هو رأس الأسرة وشأنه في ذلك شأن الملك في مملكته[1]. وهو مسؤول عن اعالة اسرته وله الحق في بيع او رهن أحد أو كل افراد اسرته. وتصل العقوبة بالأبن العاق إلى العبودية.

وكان ضرب الزوجة عادة بابلية تقرها القوانين البابلية والآشورية أيضاً، واولوية التفضيل في الأنجاب للذكور والرغبة عند الأب جامحة ان يكون الطفل الأول ذكراً - والابن البكر- الوريث الشرعي وحامل اسم الأب وشجرة العائلة وكان يرنو إلى هذا الأمل العظيم الأب الملك والأب الفلاح على حد سواء.

---

* من هنا لابد لنا ان نتذكر نظام صدام حسين المقبور ذو الطابع العشائري والذي كان قائماً على اساس السلطة والنفوذ وبالتدرج حسب نسبة القرابة من القصر والمتمثل بعشيرته وأقاربه والحلقات المحيطة به بالتدرج حسب مدى القرابه منه، ومايعتقده من درجة الأخلاص له، وكما كان سائداً منذ اقدم العصور.

(1) عبد الوهاب حميد رشيد (المصدر السابق): ص 135.

كما تماثلت نسبياً عادات الزواج والطلاق والتبني والأرث والوصايا والعلاقات الجنسية مع الكثير من القيم السائدة في المجتمع الشرق أوسطي لحد الأن.

فمثلاً ان تقليد التحجب بالنسبة للمرأة مورس من قبل الأشوريين للتمييز بين النساء السيدات والنساء العبيد. وكذلك شاع الزواج الأحادي مع امكانية اتخاذ زوجة شرعية ثانية، علاوة على الخطبة إذا ماتمكن له ذلك من خلال قدرته المالية ونفوذه في المجتمع[1]. ان جوانب عديدة من حياة المواطن العادي الاجتماعية في ربوع بلاد الرافدين، بقيت كما هي تقريباً منذ اربعة الأف سنة ولحد الأن دون ان يطرأ عليها تغيير جذري اما البيت البابلي والذي كان قلعة وأستقرار الرجل، فقد كان يماثل البيوت الشرقية الموجودة في يومنا هذا (القديمة والمنقرضة في بعض محلات بغداد القديمة)، والمكونة من: الحوش والتنور وصفوف الغرف لتحقيق مطلبين هما الأستقلال (العزلة عن الخارج) لاسيما فيما يخص عدم انكشاف نسائه على الخارج اولاً والوقاية من حرارة الشمس المحرقة في الصيف ثانيا[2].

3. صعوبات الحياة في بلاد وادي الرافدين:

عُرفت منطقة وادي الرافدين ومنطقة الأهوار جنوب العراق والتي كان يقطنها السومريون الأوائل في قديم الزمان بصعوبة الحياة بسبب حرارة الجو الخانقة وشدة تطرف نهري دجلة والفرات من حيث وقت فيضانهما في مواسم غير مناسبة للزراعة، وقوتهما المدمرة، علاوة على الجهود الضخمة التي تطلبتها أعمال تجفيف الأراضي، وكذلك نسبة الملوحة الناجمة عن تجفيف تلك الأراضي، حيث ان التبخر السريع للمياه بعد الفيضان او حتى بعد هطول أمطار غزيرة في بعض السنين، فإن ارتفاع المياه

---

(1) ساكز، هاري المصدر السابق ص: 13.

(2) ساكز، هاري المصدر السابق: 204 ـ 205.

الجوفية والمحتوية على نسبة عالية من الأملاح تصعد إلى السطح لتغطي كافة الأراضي بالأملاح البلورية البيضاء التي تمنع الزراعة في العديد من المناطق وعلى وجه الخصوص في الجنوب من العراق[1]. وهذا يقلل من كفاءة الأراضي المحيطة بالأنهار من حيث الناتج الزراعي ويؤدي إلى هجرة المزارعين إلى أراضي اخرى أقل ملوحة الموجودة على ضفاف الأنهار ومن هنا ظهرت الحاجة إلى الري. ومن هنا بذل سكان بلاد الرافدين جهوداً شاقه لترويض هذه البيئة القاسية وأنعكست أثار هذا الصراع البشري مع الطبيعة في ظهور اول المجتمعات السياسية من خلال بذل تلك الجهود في تحويل بيئة وحشية عنيفة من الأهوار والمستنقعات والأحراش إلى بيئة معطاء. يقول طه باقر (استاذ تاريخ العراق القديم) بهذا الخصوص ما يلي: (لا يسع المرء المتتبع لتاريخ هذه الحضارة إلا أن يقدر ما بذله سكان العراق القدماء من جهود جبارة للسيطرة على نهري دجلة والفرات وهي من أشد انهار العالم عنفاً). ويذكر جاكنتا هاوكس[2] في كتابه (الحضارة): (ان الزائر لمنطقة سومر، مهد الحضارة، في الصيف، حيث لم يتبدل المناخ منذ الألف الرابع ق.م قد يصاب بالدهشة والرعب بسبب صعوبة العمل في ظل الحرارة الخانقه)، كما قال كيفن يونغ في كتابه المشهور (عودة إلى الأهوار)[3]: (تشكلت هذه الحضارة العظيمة في ظروف غير ملائمة على حافة الأهوار - وحتى في وسطها - حيث تصل درجة الحرارة في الصيف إلى 120 درجة فهرنهايت (50 درجة مئوية) مصحوبة برطوبة كثيفة تجعل التنفس فضلاً عن العمل البدني، أمراً صعباً بل وفي غاية

---

(1) طه باقر (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة) ص: 26.

(2) (First Great Civilization (Jacqnetta Hawkes London (1971) p — 23

(3) كيفن يونغ (العودة إلى الأهوار) ترجمة حسن الجنابي دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الأولى دمشق 1998، عن طه باقر (المصدر السابق) ص: 35.

الصعوبة). إن الاختلاف المتضاد لهذه البيئة الطبيعية بين الهدوء والانتظام، وبين العنف والتدمير له انعكاساته على مواصفات ومقومات تلك الحضارة من الناحية الفنية والدينية والأدبية والسياسية والاجتماعية. إن الأفكار والمعتقدات تتأثر بالتاكيد من المحيط البيئي للإنسان بشكل كبير، وكما جاء في النظريات والفلسفات الحديثة في القرن التاسع عشر الميلادي، بأن الأفكار والنظريات التي ينتجها الإنسان ما هي الا انعكاساً للظروف والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين البشر في كافة المراحل التاريخية. وبالتالي فإن الأفكار والمعتقدات والتقاليد التي ندرسها حالياً ما هي إلا بناءاً فوقياً ونتاجاً للظروف والأحوال المعيشية التي عاشها وعانى منها المجتمع خلال مراحل حياته التاريخية وهكذا نجد ان الأفكار والمعتقدات والتقاليد التي نشأت في بلاد وادي الرافدين ماهي الا انعكاساً لتلك البيئة القاسية الظالمة بما فيها من حرارة الشمس وخطورة فيضانات الأنهر.

4. تطور العقيدة الدينية في حضارة وادي الرافدين:

إن الاختلاف المتضاد في البيئة الطبيعية بين العنف والتدمير الحاصل نتيجة الفيضانات المدمرة لدجلة والفرات وفروعهما الأخرى قديماً قد انعكست بنفس المواصفات تقريباً في المقومات الحضارية لبلاد وادي الرافدين حيث تحققت عملية خلق الكون (حسب عقيدتهم الدينية) من خلال صراع طويل وحرب رهيبة في السماء بين عدد كبير من الآلهة التي كانت تعمل في الظلام وقبل خلق الإنسان والشمس والأرض وغيرها [1]. كما ورد في (تاريط الخليقة البابلية) ان البيئة القاسية وآثارها المدمرة في الفيضانات كانت عاملاً مهماً في تدمير تلك الحضارة التي نشأت فيها اولاً. لقد ساهمت تلك الظروف في زوال وتحجيم تلك الحضارة للحد الذي عجزت عن تقدمها وأزدهارها

---

(1) عبد الوهاب حميد رشيد (حضارة وادي الرافدين) 88.

ونموها بشكل تسلسل تدريجي منسجم مع تطور الحضارات العالمية الأخرى وبالذات حضارة الغرب المتميزة والتي نعيش في كنفها الأن، رغم قدم حضارة وادي الرافدين. على الرغم من أن الحضارة اليونانية أخذت كثيراً من البابلية ثم طورتها. لقد تجسدت حصيلة الفيضانات المدمرة والملوحة القاتلة للزرع وتحول مجرى النهرين في واحدة من نتائجها الخطيرة في ظاهرة متكررة، وفي ترك مناطق الأستيطان القديمة والأنتقال إلى أرض جديدة لشق وبناء مشاريع ري جديدة، وبما رتبتها هذه الظاهره من التأثير بأتجاه عدم الأستقرار السكاني والسياسي كما شكلت عوامل كمنت فيها جذور الحرب الأهلية والوحدة السياسية على حد سواء. ويعتقد ان هذين الخطرين (الملوحة والفيضانات) هما سر ذلك التشاؤم المتواصل الذي يميز فلسفة سكان بلاد الرافدين القدماء. وبالعلاقة مع الواقع يعد وادي الرافدين أرضاً خصبة ومتطورة إقتصادياً ومفتوحة على الخارج، مما يؤدي إلى تعرضها إلى هجمات الأقوام الكثيرة من مناطق وأرجاء متعددة حولها والى غزوات عنيفة وأختلاط السكان مع أناس يختلفون في الطباع والعادات ومايتبع ذلك من عنف وتدمير وتطور وتبدل في التكوين الاجتماعي ــ السياسي، وبروز ذلك في أختلاف سير تلك الحضارة، وعدم تمكنها من الخروج إلى أطار أوسع في التطور، كما هو عليه الحال في حضارات لمناطق أخرى من العالم. ونستشهد بذلك مايقولة لي أوينهايم في كتابه الشهير عن (بلاد مابين النهرين) بما يلي: (أننا نعرف بأن جميع مدن ما بين النهرين الكبيرة والصغيرة قد دمرت لمرات عديدة بواسطة الحروب) [1] ويذكر التاريط تفصيلاً عن تلك الحوادث والحروب المدمرة التي أدت إلى أنقراض مدن بأكملها وحضارات لم يبق منها سوى الأثار المكتشفة حديثاً، ولولا المعاول والفؤوس التي بدءت في القرن التاسع عشر

---

(1) لي اوينهايم (بلاد ما بين النهرين) ترجمة سعدي فيض عبد الرزاق، وزارة الثقافة والاعلام بغداد، (1981) 272.

الميلادي للتنقيب عن آثارنا ماكان لنا أن نعرف شيئاً عن تلك الأقوام وعن أصولنا وماضينا الا النزر اليسير. ومن الأمور التي لايمكن تجاوزها بهدف فهم جذور العنف السياسي في العراق هي دراسة العقيدة الدينية لبلاد وادي الرافدين، هذه الدراسة التي تعتبر جزءاً من دراسة حضارة وادي الرافدين القديمة، والتي لاتزال تعيش معنا بهذا القدر أو ذاك ضمن معتقداتنا الدينية وسلوكنا وقيمنا الاجتماعية على الرغم من مرور أكثر من خمسة الأف عام على نشوء تلك الحضارة، والتي كانت من أنضج الحضارات في ذلك الحين أي قبل ثلاث الاف سنة من الميلاد، لقد نشأت تلك الحضارة وماتت في أحضان الدين، ذلك ان القوم عاشوا في الدين كما يعيش السمك في الماء يزودهم بالأوكسجين الروحي والفكري، وهكذا شكل الدين وعاء الحضارة لبلاد وادي الرافدين وروح المجتمع. وفي هذا المجال نستشهد بقول جورج روو الذي قال[1] (لم يلعب الدين دوراً كبيراً بمثل ما لعبه في أي مجتمع قديم بالمقارنة مع بلاد وادي الرافدين لأن الإنسان في هذه البلاد كان يشعر على الدوام بأنه يعتمد كلياً في استمراره بالوجود على إرادة الآلهة). وهذه الآلهة التي تجسدت في العوامل الطبيعية ذاتها (حسب عقيدتهم) بكل مواصفاتها، من خيرٍ وشر كان يواجهها الإنسان يومياً في حقله وعمله وحياته الاجتماعية. وأرتباطاً بكثرة الظواهر الطبيعية ــ الكونية، كثرت آلهة سكان بلاد الرافدين، فحسب العلاقة مع عقيدتهم بوجود قوى خفية في مختلف الظواهر الطبيعية، الكونية ـ فمثلاً أن ظهور الشمس كل صباح وأختفاءها في المساء وظهور القمر في ليالي بشكل متكامل والكواكب والنجوم والسماء والأرض والهواء والأمطار والأنهار والمياه والنباتات بل حتى الخمر والشعير قد جسدت لكل هذه الأمور آلهة معينه.

---

(1) جورج روو المصدر السابق 128.

وشبه القوم تلك الآلهة بالبشر فخلعوا عليها جميع الصفات البشرية، فهي حسب معتقداتهم تأكل وتشرب وتتزوج وتفرح وتحزن وتمرض وتحب وتكره وتغضب وتحقد وتنمو وتنتقم وتتخاصم وتتحارب وتجرح وحتى تموت احياناً، وتذهب إلى العالم الأسفل اي تشبه الآلهة بالبشر في هيئتها العامة وحواسها وعلاقاتها الاجتماعية وسلوكها وكافة تصرفاتها، عدا أنفرادها عن البشر بالخلود والقدرة الخارقة.

وباختصار كانت الآلهة تمثل افضل الجوانب البشرية أسوؤها موضوعة في ميزان ما فوق بشري (خارق). وتبعاً لذلك، صورت الآلهة بأنها تعيش كما يعيش البشر في مجتمع تحكمه قوانين وضوابط محددة، وعلى رأس هذا المجتمع رئيس الآلهة (الملك ـ او الأب) يساعده في ادارة شؤون مجمع الآلهة وهو عدد من الآلهة الكبار. وان المجتمع البشري عبارة عن نسخة مطابقة للمجتمع الألهي السماوي، وان مايقع من احداث في السماء كانت في اعتقادهم تقابلها أحداث مماثلة في الأرض. فقد كان الأعتقاد السائد في ذلك الحين بالنسبة لتفسيرهم للكوارث الطبيعية على سبيل المثال، بأن هناك معركة كبيرة قد حصلت في السماء بين مجموعة من الآلهة المتخاصمة ادت بالنتيجة إلى غضب بعضها على الأخر وانعكست في الأرض بهيئة كوارث طبيعية كالفيضان أو الحريق أو الجراد أو ألأمراض السارية أو الزلازل... الخ. والأكثر من كل هذا هو الموت الذي كان يدعو الإنسان في كل مناطق العالم بالتمسك بالمعتقدات الدينية.

وهناك تفاصيل دقيقة عن تطور وتبلور تلك المعتقدات في ذلك الزمان من خلال ترجمات العديد من المخطوطات القديمة باللغة السومرية أو البابلية إلى لغاتنا نجدها في كتب التاريط القديم لا مجال في الولوج بها هنا[1]. والمهم أن الإنسان في مجتمع تلك الحضارة كان معتمداً على الآلهة اعتماداً كلياً في عقله وعمله وحياته وزراعته، فعند

---

(1) خزعل الماجدي (الدين السومري)دار الشرق للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، عمان (1998).

حصول القحط مثلاً كان الملك الأشوري يكتب بنفسه إلى نوابه من الحكام، ليقيموا مع الكهنة والناس الصلاة للآلهة من أجل انزال المطر. وهذا يذكرنا بما هو معمول الأن بصلاة الأستسقاء عند الإسلام[1].

لقد كان القوم في بلاد الرافدين يعتقدون أن رضى الآلهة عنهم يجلب لهم المطر وكل مايبتغون، وكانوا بذلك يؤدون الصلاة بأمانة وصدق لأنها تشكل حلقة الصلة بينهم وبين الآلهة لكي تستجيب لهم مايطلبونه في الأرض. والألهة حسب معتقدهم عبارة عن قوة خارقة خالدة وهي بالتالي مصدراً لكل شي ومحرك لكل الأحداث التي يعيشونها وتدور حولهم. وهكذا تبلورت لديهم فكرة ان تلك القوى الخارقة تتجسد في القدرة على الخلق، وتقوم على النطق بالكلمة، فعندما يقول الأله لشي ما (كن) فيكون. وهنا يذكر كريمر في كتاب (عالم السومريات)[2]: ان فلاسفتنا السومريون طوروا مبدءاً صار فيما بعد عقيدة في كافة انحاء الشرق الأدنى، وهذه العقيدة قائمة على مبدأ القوة الخارقة والمسئولة عن الخلق والكامنة في الكلمة الألهية. فكل ماعلى الاله الخالق ان يفعلة وفقاً لهذا المبدأ هو أن يضع خططه، وينطق بالكلمة (كن) ويعلن الأسم الذي يريده في خلق جميع ماحولنا وفي خلق الإنسان نفسه بكلمة واحدة. كما تتجسد القوة الألهية في القدرة على تحديد هيئة المخلوق وصفاته الجسدية والروحية، اي تعيين جوهره وقواه البدنية والعقلية وسلوكه من خير وشر وفي القدرة على رسم مصير المخلوق مسبقاً (النصيب والقضاء والقدر)، أي يوم ولادة المولود، فترة حياته، طبيعة الأحداث اليومية التي ستواجهه، مكانته الاجتماعية والوظيفية والمالية والصحية وفي القدرة على منح

---

(1) عبد الوهاب حميد رشيد (المصدر السابق) 93.

(2) خزعل الماجدي (متون سومر)، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان (1998) ص 257.

المخلوق وسائل يستطيع من خلالها تنظيم مجتمعه وبناء حضارته (النواميس الألهية)، والتي قيل انها بحدود مائة ناموس، تتقدمها الملوكية والتاج والصولجان، بالإضافة إلى عدد من المهن والقيم الأخلاقية الطيبة والسيئة وتمكينه من معرفة إرادةالآلهة وفق علامات كونية طبيعية وبشرية وحيوانية تتطلب الفحص والتفسير وبقراءة الطالع والتنبؤ (الفال) والسحر. ويمكن استخلاص الكثير من الطوالع من ولادة الكائنات الحية وغيرها من الظواهر الطبيعية والبشرية ـ الحيوانية ـ فالتشوه الخلقي عند الإنسان المولود أو الحيوان (حيث لم يكن وارداً في عقيدة بلاد الرافدين ان تمنع الآلهة ولادة اطفال معوقين أو مشوهين). والتصدع في بيت وهو في طور البناء كل ذلك وغيرة عبارة عن طوالع سيئة لاعلاقة لها بالألهة. وهناك ما لا يحصى من الظواهر والحركات الغريزية وحتى الصرخات وحركات المجئ والرواح للحيوانات والطيور الداجنة والبرية فضلاً عن حركات النجوم والكواكب ومظاهر الكون الأخرى، والتي كانت محل دراسة الكهنة الذين كانوا مختصين ويسكنون المعابد التي شيدت من أجلهم. في ذلك الزمان، وما تزال اثارها باقية دون غيرها من الأبنية الأخرى، وهذا يدل على درجة تمسك القوم بأمور الكهنة ومنزلتهم الرفيعة لديهم. أن من يقرأ (ملحمة الخليفة البابلية) والتي جاءت من أصول سومرية قبلهم يعرف جيداً حكاية الخليقة وسفر التكوين لدى البابليين، حيث تحكي قصة وقوع حرب رهيبة طويلة جداً وقعت بين جيل الآلهة الحديثة (الأبناء) من القوى الخيرة وبين قوى الشر من جيل الآلهة القديمة (الأباء) وبعد انتصار القوى الخيرة على قوى الشر خلقت الآلهة الحديثة الأرض والسماء والشمس والقمر والكواكب والهواء والعواصف والأمطار والمياه والموارد، ثم قررت ان تخلق الإنسان من التراب ودم اله شرير (او من التراب والماء في بعض الأساطير القديمة الأخرى) ليكون هذا الإنسان عبداً للألهة، يقوم على طاعتها ويعمل في أراضيها ويزودها بمتطلباتها من النذور والقرابين ليكسب

رضاء آلهته ويحقق الصحة والنجاح والمركز الأجتماعي وطول العمر ويحتفظ بأستمرار بالألهه و بالأله الحامي (الملاك الحامي الرمز) معه، والمسئول عن حمايته ضد الأخطار المحدقة به طيلة فترة حياته، والأ فأنه سيثور ويغضب وينتقم إذا عصاه وبالتالي قد يتخلى عنه الهه الحامي ويكون عرضة لهجوم الشياطين والعفاريت المنتشرة حوله في كل مكان وتسبب له الكوارث والأمراض والقحط وقصر العمر... الخ. من هنا ورثنا اصل القرابين ونحر الذبائح في العديد من المناسبات إلى يومنا هذا استمراراً للتقليد المتبع لدى أقوام بلاد الرافدين القدماء (السومريين والبابلين والأشوريين وغيرهم) لقد كان البابليون يبالغون كثيراً في نحر الذبائح يومياً ويقدمونها إلى رموزالآلهة المنحوتة لديهم لتعود فتأكلها الكهنة في الليل دون علم الرعية من العامة بذلك الأمر. لقد آمن سكان بلاد الرافدين القدماء بوجود الأرواح الشريرة والأرواح الخيرة فعلى سبيل المثال هناك اسطورة جاءت في النص السومري (أن سبعة ألهه شريرة {مجموعة من العفاريت} شقت طريقها نحو قبة السماء وتجمعت غاضبة حول هلال إله القمر) وفي هذا النص كانت الآلهة تتعامل مع المعضلة ولكن للناس دورهم حين يحدث الخسوف وذلك بالمساعدة على طرد تلك العفاريت التي سببت الخسوف اذ يتم نصب نوع من الطبلة (النقارة) في ساحة المعبد ويتم قرعها والنداء بصوت عال لفك القمر من محنته وهذه العادات ظلت تمارس لدى الناس حتى بعد أن أكتشف البابليون سبب الخسوف من خلال تقدمهم في علم الفلك وأستطاعوا حساب الكسوف والخسوف بدقة إلا أن ممارسة سلوك ديني معين لفترة طويلة من الزمن يصبح من الصعب جداً تغييره حتى وأن أنتفت الحاجة اليه وهكذا أستمرت ممارسة دق الطبول في ليالي خسوف القمر مطبقة إلى حد أوائل القرن العشرين في العديد من المدن والقصبات والأحياء الشعبية العراقية، عندما كان النساء والأطفال يهرعون إلى السطوح عند خسوف القمر ومعهم ما كان متاحاً من ادوات المطبط النحاسية

وغيرها يضربون بعضها ببعض ليحدثوا أصواتاً عالية من أجل تخويف العفاريت وطردها وتحرير القمر منها * . ومن الحقائق التي أدركها القوم في ذلك الحين هي حتمية الموت على الإنسان وأستحالة نيله الخلود، وأن التفتيش عن الخلود لا بد ان يأتي من خلال العمل كما جاء في ملحمة كلكامش الشهيرة، والتي تتركز بالدرجة الأساس على أن سر الوجود للأنسان يكمن في عمله بعرق جبينه. وكان في ذلك حكمة عالية للقوم إذا ماأدركوها فعلاً. وقد اختلفت في ذلك المفهوم عن حضارة وادي النيل العظيمة، والتي انشغل أهلها وفلاسفتها كثيراً في تفسير الموت، وكان أعتقادهم السائد بالنسبة للملوك على الأقل بأن الموت للأنسان ينقله إلى العالم الأخر ليعود بعدها بنفس الهيئة، وبالتالي عليه ان يهئ كافة مستلزمات العودة مما يحتاجه في الحياة الثانية من أكل وشرب وأدوات مطبخ وخدم وغير ذلك، وقد أنشغلوا كثيراً بالتحنيط وفن تحنيط الجثث بعد موتها مباشرة، وكان بناء الأهرام هدفاً لأبقاء تلك الجثث بكامل حيويتها، من خلال مرور تيار قوي يحدثه البناء العالي والفتحات الهوائية الجانبية التي تحدث تياراً هوائيا قويا، ومن خلال مرور ذلك التيار على حوض من الزيت والمواد الكيميائية الخاصة بالمحافظة على البروتين المكون لجسم الإنسان لأكبر فترة زمنية ممكنة، وقد نجحوا في ذلك بشكل مذهل جدا، ولاتزال الأهرام محط أعجاب الأمم والأجيال العديدة. أن عملية بناء الأهرام من قبل المصريين القدماء لم يكن أمراً اعتباطياً أو انهم بنوا ذلك لكي نقول عنهم بعد الأف

---

* ونذكر البسته البغدادية المعروفة إلى عهد قريب لدينا ومحتواها ياحوتة (يا لمحتوتة هدي كمرنا العالي وأنكان ما تهدينا أضربك بالسكينة الخ) لقد عاصرنا تلك الطقوس أيام الصغر.

ونعود هنا لنذكر بأن هناك العديد من التقاليد والعادات الموروثة تمارس إلى يومنا هذا كانت قد جاءت الينا من أصل تاريخي قديم يعود إلى عصر السومريين والبابليين والأشوريين الذين عاشوا في بلاد ما بين النهرين منذ آلاف السنين

السنين بأنهم كانوا عظماء بما فيه الكفاية بل أنهم كانوا منشغلين جداً في التفكير بالموت ومبدأ العودة إلى الحياة ثانياً، وكيفية المحافظة على الأجسام بعد موتها لكي تبقى إلى ان تعود ثانياً حسب أعتقادهم. بينما أدرك ملوك بلاد الرافدين القدماء حتمية الموت على الإنسان وأستحالة نيله الخلود. فالألهة جعلت الموت من نصيب الإنسان منذ بدأ الخليقة بينما أستأثرت لنفسها هي بالحياة الأزلية الخالدة. وعند الموت (انقطاع أخر نفس للإنسان) تخرج روحه لتذهب إلى العالم الأسفل - عالم الأموات وعالم اللارجعة - بينما يعود جسمه إلى التراب، وفي هذا العالم المظلم الذي يلفه الغبار والتراب، ويعدم فية الهواء والضوء لاتجد أرواح الموتى ما تعيش عليه سوى مايقدم لها من نذور وقرابين. وإذا لم يتذكرهم أحد من أهلهم وأقاربهم فسوف يعودون إلى الأرض على هيئة أشباح مؤذية للأنسان الحي والذي لايزال محيطاً حول الأموات. وهكذا يحدث الشئ نفسه عند عدم دفن الميت أو عدم أداء الطقوس الدينية اثناء الدفن وبعدة من صلوات وذبح قرابين. ووفق هذه العقيدة يصبح الإنسان بعد الموت في عقلية بلاد الرافدين القديمة أقل شأناً مما كان علية رغم ضألته وتفاهته في الحياة الدنيا. وعليه لا وجود لمفهوم الثواب والعقاب في الآخرة حسب عقيدتهم لحد تلك الفترة الزمنية من تاريخهم القديم (وسوف نأتي إلى كيفية تطور العقلية الدينية في مكان أخر من الكتاب على كيفية نشوء فكرة الثواب والعقاب لما يقوم به الإنسان من أعمال في دنياه ويتلقى القرار بالثواب أو العقاب في الحياة الثانية في فصل آخر من هذا البحث). لقد كانت الآلهة في بلاد الرافدين القدماء (السومريين والبابليين على وجة الخصوص) آلهة حسودة وطاغية لأبعد الحدود، حيث انها خلقت الإنسان لخدمتها فقط، وليس هناك مايسمى ثواباً للأنسان لما يفعله من خير وعطاء لأجل خدمة تلك الآلهة. ولكن بالمقابل يوجد هناك عقاب فقط إذا لم يقم بواجباتة كاملة أتجاهها.

ومـن خـلال هـذا الأعتقـاد نسـتنتج أن القـوم أعتقـدوا بـأن الإنسـان مركـب مـن عنصرين أولهما حسي مادي منظور وهو الجسد، وثانيهما غير منظور وهـو الـروح والـتي أطلق عليها السومريون كلمـة (كَدم GIDM) [1] كما صور القـوم روح الميـت علـى هيـأة مخلـوق بجنـاحين مـن الـريش. وقـد تصـور السـومريون ايضـاً بـأن الـروح تتجسـد في دم الإنسان فقط وتسري في جميع انحاء جسده، وعندما يتوقف الدم عن الجريان، هذا يعـني أن الروح قـد انفصلت عـن جسـده وبالتـالي بـرد جسـمه ولم يعـد لـه أي حركـة. وهكـذا حرموا منذ ذلك الوقـت تنـاول شـرب الـدم لمـا تتجسـد فيـه مـن روح قـد تكـون شـريرة، وتنتقل لشاربه ليتمثل فيه كل الشر أو يساق إلى الهاوية، بينما لم يكن ذلـك مطبقـاً لـدى اقوام أخرى في افريقيا مثلاً، وربما يفسر هذا أعتقادهم في قدرة هذه الأرواح على التنقـل السريع، فقد أخذ العـرب في عصـر الجاهليـة هـذا المفهـوم وصـوروا روح الميـت علـى هيئـة طائر أطلقوا عليـه اسـم (الهامـة). وحـين تعـود هـذه الـروح لشـخص مقتـول مـثلاً يهـيم الطائر (روح المقتول)، في حالة عدم أخذ ثأره من قاتله، وهو ينعق (أسقوني، أسقوني)[2] وهنا يكمن اصل الثأر القبلي عند عرب الجاهلية أنطلاقاً من هذا المعتقـد كأحـد العوامـل المـؤثرة والفعالـة في عمليـة أخـذ الثـأر للمقتـول. ولاتـزال أثـار هـذا الأعتقـاد تشـكل أحـد العوامل المؤثرة في التمسك بأخـذ الثـأر لـدى العشـائر العربيـة إلى يومنـا هـذا مما يعطـي دليلاً أخر على تـأثير المواريـث التاريخيـة في سـلوكنا وعاداتنـا الحاضـرة، والـتي لابـد مـن زيادة الفهم والمعرفة عن جذورها لكي نستطيع بالتـالي أيجاد السبل والوسـائل الكفيلـة بمعالجتها بالطرق الناجحة.

---

(1) طه باقر (مقدمة في أدب العراق القديم، جامعـة بغـداد، كليـة الآداب، دار الحريـة للطباعـة بغـداد 1976).

(2) نائل حنون عقائد مابعد الموت في حضارة وادي الرافدين (1986) 110 ـ 111 بشأن مفهوم الثأر لدى عرب الجزيرة هامش 18، عبد الوهاب حميد رشيد المصدر نفسه 92.

لقد تميزت الحضارة السومرية منذ نشأتها في عصر فجر السلالات القديمة بالعلاقة مع خصائصها السياسية بالظهور على أساس عدة دول ومدن حضارية مستقلة عن بعضها البعض ولكل منها حدودها وأسوارها وأسرتها الحاكمة والاهها الحامي (الوطني) ونظمها وقوانينها. وقد شكلت دول المدن السومرية هذه أولى الأنظمه السياسية المعروفة كما ذكرنا سابقاً، وكان ذلك مايصطلح عليه بـ (دولة المدينة). وكان ذلك العصر يدعى بعصر القضاة حيث كان الأمر والنهي في النزاعات التي تحصل داخل تلك الوحدة المحددة من التجمع السكاني البسيط يحل من قبل شخص واحد مختار ويكون أقوى وأكفأ وأكبر سناً من بقية الناس في المدينة. وبالعلاقة مع عقيدتهم الدينية في ذلك الحين، فإن مايحدث في السماء يقع في الأرض بمقدار مناسب ومشابه كما ذكرنا سابقاً. لذلك فإن الآلهة خلقت البشر لخدمتها وطاعتها وأن المدينة بما فيها من أرض وموارد ومحاصيل زراعية هي (مُلك) الالة الحامي، وأنه أختار من بينهم حاكماً لتمثيله في الأرض وتنفيذ أوامره وتعظيمه، وبعد أن أزداد التجمع السكاني في المدن وأزداد الأقتراب بين المدن بعضها لبعض أزدادت الحاجة لأختيار ملك على عدد من تلك المدن، لكي تستطيع الدفاع عن المنطقة برمتها وبالتالي لأرضاءالآلهة في أدائها الجماعي. وهكذا برز عصر الملوك المتمثل بنفوذ الملك وسطوته على مدن ومساحات أوسع من القضاة. وقد كانت من أولويات واجبات الملك قيادة شعبه لرفع شأنه ومنزلته أمام الأله الحامي (الوطني) ذلك لأن هذا الأله الحامي سيرتفع شأنه أمام مجمع الآلهة السماوية وسيعم الخير على الجميع من خلال هذا التقرب والنصر الذي يحرزه القوم على أعدائهم. وهذا يجسد بالتالي رفع شأن مدينته أو مدنه ورفع منزلتهم بين الملوك. كما أن نظام الملوكية في بلاد الرافدين قام أصلاً على أساس ديني وأن العلاقة بين الملك والألة الحامي تتمثل في أن انتصار الحاكم في الحرب يعزز دورالآلهة ومنزلتهم ورضاهم عن مدينته، ومن هنا يلاحظ مثلاً أن الملوك الآشوريين الأقوياء الذين بسطوا سيطرتهم على أمبراطورية

شاسعة من نهر النيل إلى بحر قزوين في الشرق من امثال أشوربانيبال لايعتبرون أنفسهم أكثر من عبيد متواضعين يسعون لأرضاء آلهتهم (آشور) وهنا ربما كان أحد المبررات الرئيسية ذات الجذور الدينية العميقة لظهور نزاعات وصراعات (عنف) بين دول المدن المختلفة، والتي استمرت بصورة متصاعدة في مراحل لاحقة من حضارة بلاد الرافدين سواء أكان هذا الصراع ناجماً عن الدفاع عن أرض الأله من الهجمات المعادية أم بهدف توسيع أرض الإله الحامي من خلال الفتوحات العسكرية. وعامل التبرير للحملات العسكرية الدامية هذا لاينفي بطبيعة الحال الدوافع الاقتصادية ورائها بقدر مايمنحها زخماً اضافياً أكبر كترجمة عملية لهذا الصراع. ولاشك أن كل عمل عسكري يحتاج إلى فكر ومعتقد قوي يستطيع أن يعطي للمقاتل معنوية وزخم قتالي عالي، وهكذا نجد أن فكرة الأله الحامي أنما استغلت لصالح الملوك كمحصلة نهائيه. من هنا ايضاً تبدء المنافسة والتناحر بين المدن وأنظمتها السياسية القائمة التي نشأت على العقيدة الدينية بهدف الأستحواذ على الأراضي الزراعية ومصادر المياه وطرق التجارة الموصلة إلى المواد الأولية وبقية الموارد، ولاسيما أن أبتلاع مدينة لأخرى كان يعكس حسب عقيدة القوم، احداثاً مرادفة في السماء، ومن هنا ايضاً صار النظام الألهي المقدس (النظام الملكي) الأقل استقراراً في بلاد الرافدين بسبب كثرة الحروب والنزاعات على الموارد المحدودة، خاصة وأن تزايد السكان السريع يجعل من عملية توزيع الموارد المحدودة تلك، ليس بالأمر الهين مما ينشأ عنها نزاعات وحروب، إلى درجة كان يطلق عليها بعض المؤرخين بأن ماكان يحدث في بلاد الرافدين عبارة عن حرب اهلية مستديمة بين المدن الصغيرة تلك. كما أن العقيدة الدينية لأنسان بلاد الرافدين في ذلك الحين قد رسمت اشكالاً معينة من التصرفات والممارسات من أجل ارضاءالآلهة وأخرى لاترضي الآلهة وتكون عرضة لجلب غضب وأنتقام الآلهة على القوم بأكملة، وبالتالي فقد حرص القوم على ارضائها لتحاشي غضبها المؤدي بالنتيجة إلى انزال الشرور والأمراض بهم أن لم يفعلوا ذلك. وهكذا أصبح المعتقد

الديني وبالاً على القوم وجلب لهم المأسي دون أن يشعروا بذلك. وكما أنهم حرصوا على تقديم القرابين لأرواح موتاهم لأعتقادهم بأنها تحقق الراحة والأستقرار لروح الميت في العالم الأسفل، وأهتموا كذلك بالمراسيم والطقوس الدينية الخاصة بدفن موتاهم لكي يمنعوا خروج روح الميت عليهم بهيئة شبح مخيف يلحق الأذى بالناس جميعاً، وهكذا بقي الإنسان في ذلك العصر يعيش في خوف دائم من الهاجس الألهي الجائر وآلهة غير مبالية بهم، وبملاحظة أنتصار الشر على الخير دوماً، وبالتالي أستمرت حياة التشاؤم وأصبحت تلك النظرة سائدة من خلال الأعتقاد بأن حياة الإنسان ليست ذات جدوى أن لم تكن تافهة نظراً للصعوبات التي كان يعاني منها الإنسان من حر شديد وكوارث طبيعية لم يكن ليهتدي بعد إلى حلها أو فهم أسبابها الحقيقية. أن الاعتقاد السائد في ذلك الحين بأن أرتكاب ذنب معين أو خطيئه تنجم عنها أضرار جسيمة سواء على المدينة التي يقترف اهلها الذنوب أم على الشخص المذنب، فالإله الشخصي قد يتخلى عنه ولايدافع عنه فيما بعد ولايحميه من المخاطر المحيطة به، وبالتالي يصبح عرضة لهجمات الشياطين والعفاريت، وكذلك حال المدينة المذنبة إذا تخلى آلهتها الحامية لها عنها، فأنها تصبح مفتوحة أمام الأعداء وعرضة لأشكال المصائب والويلات والخراب بمعنى ان زوال المدينة (الدولة) والتي تساوي القرية في عصرنا الحاضر يقع على عاتق أهلها ممن تخلوا عن واجباتهم تجاه أله المدينة فهجروهم آلاهتهم وتركوها أمام الأعداء لتدميرها. وهكذا كان ألأعتقاد السائد بأن مدناً بأكملها قد دمرت بسبب عدم رضاءالآلهة عن اهلها، وهناك العديد من القصص المذكورة في كتبهم المقدسة تعطي مثلاً على ذلك وهناك قصص مشابهة في التوراة و العهد القديم في سفر النبي لوط مثلاً. لقد ولدت تلك المعتقدات وما أرتبط بها من هاجس الموت والبؤس والحرمان والمرض والحزن وهموم الحياة العامة، عناصر الكآبة والقلق والخوف والتشآؤم وعدم الأطمئنان وغياب الأستقرار النفسي والمعيشي. هذه الظروف أحاطت بأنسان بلاد الرافدين خاصة عندما كان يشعر

بضعف ادائه لواجباته والتزاماته أتجاه الآلهة. وكان يتلقى بنفس الوقت الضربات والمصائب التي لايستحقها أصلاً وبدون أن يعي أسبابها بدقة. ولم يكن التشاؤم لدى أنسان وادي الرافدين حالة عرضية لليأس بل كان ميتافيزيقي الأصل في تفكيره غيبياً بشكل مطلق كمنت جذورة في الآلهة ذاتها التي تجسدت في عناصر الطبيعة والكون وحملت ذاتها عناصر الخير والشر وأصبحت مصدراً للحياة والكوارث معاً فالأنهار والرياح والأمطار مثلاً، وهي الجالبة للخير والحياة يمكن ان تتحول مرة واحدة إلى قوى شر مدمرة تهلك الزرع والإنسان والحيوان، وبمواجهة هذه الظواهر الطبيعية (الالهية) القاسية، وجد القوم انفسهم بلا حول ولا قوة، ولفهم القلق الشديد أزاء ترقبهم لغد غير مضمون تجاة حصيلة جهودهم وحياتهم الغير مضمونة، فكانت حياة الإنسان وعائلته ونتاج حقله وماشيته ومستويات الأنهار والفيضانات وتوالي الفصول المختلفة وحتى الكون ذاتة تحت رحمة القضاء والقدر على الدوام وكان لاحول ولاقوة للأنسان، إلا أن يطلب المغفرة من الآلهة عن ذنوب لم يرتكبها اصلاً. فإذا بقي البشر أحياء، وإذا عادت الحياة إلى الحقول بعد لهيب الصيف وإذا استمر القمر والشمس والنجوم والكواكب في حركتها، فإن كل هذا يتحقق بإرادة الآلهة التي تقرر مصائرهم ومصائر الكون المحيط بهم سنوياً ولهذا السبب كانت تجري عندهم احتفالات هائلة سنوياً وفي العديد من المدن، ففي بابل بالذات كان يجري في مطلع كل ربيع احتفالات تشمل تلاوة ملحمة الخليقة، وأعادة تثبيت الملوك، وتتوج أخيراً باجتماع الآلهة الذين يقضون في المصائر (للسنة الثانية) وعندئذ فقط يصبح بوسع الملك العودة إلى مقره والفلاح إلى حقله والحرفي إلى ورشته وهكذا[(1)*].

---

(1) ساكز هاري المصدر نفسه 227 ـ 228.

* لقد استمرت الاحتفالات السنوية في مطلع كل ربيع وامتدت في أرجاء واسعة ولا ندري من أخذ من الآخر هذا التقليد الذي اصبح ما يعرف بعيد نوروز عيد الربيع في الحادي والعشرين من آذار في =

كذلك يستعيد سكان بلاد الرافدين ثقتهم بما حولهم وبأمكان العالم كله ان يستمر بالوجود بإرادةالآلهة المسترضاة لعام أخر أيضاً. وكانت تلك المراسيم السنوية تجري بمثابة الحجيج عندهم. إذ كانت فكرة الحج المطبقة في العديد من الأديان في الشرق تنطلق اساساً من فكرة تأسيس عقد ولاء وتراضي بين الإنسان والأله الحامي والمسؤول عن رعاية مايدور حوله من ظواهر طبيعية وكونية (ولاتزال أحدى الطوائف العراقية العريقة في القدم وهم الصائبة يحتفلون إلى يومنا هذا بعيد الخليقة في شهر أذار من كل عام احياءاً لتلك الذكرى) ولكن هناك أختلافات من حيث درجة التشاؤم والفرح التي يتصف بها كل دين وحسب طبيعة المنطقة ودرجة عطاءها وظروفها، ففي المقارنة بين أنسان وادي الرافدين وأنسان وادي النيل المصري هناك فرق ملحوظ على نحو مايقول جورج روو وكذلك جورج كونتينو والذي ورد ذكره سابقاً حيث قال (إذا كانت حياة البابلي شاقة مثل حياة المصري فأنها لم تستطع أن تحطم بشاشته الطبيعية ومرحه اثناء عمله اليومي، غير أن انسان بلاد الرافدين كان غريباً عن الضحك، ويبدو أنه لم يتعلم كيف يلهو) [1][2] وفي مثل هذه العقيدة التي جعلت الإنسان في مرتبة العبد على أفضل افتراض، خضع أنسان بلاد الرافدين في عقله وجسده وحياته إلى ثلاثة أشكال من القوى المسيطرة عليه سيطرة لامجال للتخلص منها: ـ الأولى: هي خضوعه لقرارات

=

كل عام وتمسك الإيرانيون و الأكراد والعرب في جنوب العراق بهذه الأعياد إلى يومنا هذا، ولحد فترة قريبة كانت الاحتفالات الربيعية بالعيد الذي يعرف أحياناً بدورة السنة وقد يطلق عليه العامة بنفس الكلمة باللغة الفارسية (سن زة بدر) حيث يخرج الناس إلى البساتين والأرياف ويعملون الأكلات الخاصة ويشعلون الشموع احتفالا بذلك العيد الذي كان أصلاً في بابل لتجديد العهد بين الناس والآلهة باعادة الحياة والخير للجميع في السنة المقبلة وأنه حقا تقليد تاريخي ينبغي الاحتفاظ به كذكرى تاريخية مهمة.

(1) جورج روو (العراق القديم) الطبعة الثانية (ترجمة حسين علوان حسين) بغداد (1977) 27.

(2) طه باقر (مقدمة في تاريط الحضارات القديمة) بغداد (1989) 36.

القدر التي لا ترد ماتقررها الآلهة وهي التي تحدد الخطوط العريضة والتفصيلية لحياته، والثانية: هي الخضوع لسلطة مطلقة يمارسها الملك بأعتباره نائباً للألهة في أرضه وأن طاعته وتلبية أحتياجاته أمراً محتوماً لامجال من الأفلات منها. والثالثة: وهي خضوعه لوهم هجوم القوى الشريرة والمتوحشة غير المنظورة من الشياطين والعفاريت المحيطة به من كل جانب، والتي تترقب الفرصة لمهاجمته في كل لحظة، ولا مجال لإنكار الأخيرة لأنها ملموسة وحاصلة فعلاً في الظروف القاسية التي كان يعيشها أنسان بلاد الرافدين في ذلك العصر. وهكذا قادت هذه العوامل الثلاثة المسيطرة على عقل أنسان بلاد الرافدين (الآلهة، الملك، الشياطين) إلى خضوعه، وبالتالي خضوع عقلية القوم للغيبيات، متضمنة مسلمات دينية وطقوس سحرية متداخلة معها. ولابد لنا أن نستشهد هنا بما جاء به جورج كونتينو في هذا الصدد (لقد كانت الآلهة العنيفون المسارعون للغضب لا يكفون عن المطالب التي يبتزونها من البشرية والتي كانت تخص كل عمل من أعمال الحياة الدنيوية في شبكة من ألتزامات خالية من الرحمة. من أمثال تصوير العالم وهو مأهول بالعفاريت والأتنه (جمع تنين وهو الحيوان الخرافي الذي تصوره البابليين كرمز لقوة الشر) التي تطارد فرائسها الطبيعية المعادية لها. وحياة في الأخرة أكثر شقاءاً من الحياة الأرضية[1]. ذلك الفزع هو الأنطباع عن الشقاء المستور الذي كان يخلفه الدين في ذلك العصر والذي كان لا يرحم، والذي كان بالنسبة لسكان بابل لايدينون به فحسب بل أصبحوا أسرى له وأصبحت تلك المعتقدات مصدر شقائهم وتعاستهم. وهكذا كان على أنسان بلاد الرافدين دوماً سواء أرتكب خطيئة بقصد أو دون قصد أو حتى لم يرتكب أي خطيئة أصلاً عليه أن يتوجه أثناء التزاماته الدينية اليومية (الصلاة مثلاً) نحوالآلهة طالباً المغفرة من ذنوب ربما لم يرتكبها أصلاً، وكان يتلو الصلاة والتعاويذ للعديد من المرات يومياً بل تتعدى ذلك إلى طوال وقته أحياناً

---

(1) جورج كونينو (الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور) 500.

سواء كانت في الليل أو النهار حسب طبيعة الإنسان ودرجة مخاوفه وشدة أعتقاده بالألهة. وكان التكرار في العبادات التي يتلوها يومياً تزيد من درجة أطمئنانه بالنجاة من المصائب المحيطة به. ولابد لنا أن نذكر هنا أحدى التعاويذ السومرية المعروفة والتي كان يتلوها السومري التائب وحسب ماجاءت في المصدر السابق وكما يلي (أيهاالآلهة أن أخطائي وإساءاتي كثيرة جداً وأن البشر خرس لايعرفون شيئاً وأن الإنسان مهما بلغ مركزه فهو لايعرف شيئاً؟ سواء آتي اثماً أم خيراً فإنه لا يعرف شيئاً). ومن مفارقات الأمور أن مثل هذه التلاوة الموجودة في كتابهم المقدس مثل (ملحمة الخليقة البابلية) وغيرها مكررة في عدد من الكتب المقدسة التي كانت منتشرة في الشرق، وفي ذلك الحين وما بعده مثل كتاب الزرادشت لدى الأكراد والفرس في ذلك الوقت، وكتب دينية أخرى معروفة.

مما يدل على أن تلك المفاهيم والقيم هي الأكثر ملائمة وتقبلاً لعقول الناس ضمن معطيات المرحلة وطبيعة ماتقدمه الأرض من خيرات وكوارث طبيعية في آنٍ واحد في منطقة الشرق الأدنى برمته. لقد تضمنت ملحمة الخليقة البابلية مضامين فلسفية واسعة، أذ وضعت الخلق، ليس بأعتباره بداية التكوين بل نهايته، وليس عملاً غير مبرر حيث قررت الآلهة ولم يكن من قرار اله واحد، بل كانت نتيجة معركة كونية هائلة بين وجهي الطبيعة (الخير والشر) (النظام والفوضى) وكشفت بين امور أخرى وجوب خدمة البشر للالهة، وشرحت سبب تواجد عنصر الشر لدى البشر المخلوقين من دم اله شرير كما اسلفنا. يقول جورج روو بهذا الصدد ما يلي: (إذا كانت قصيدة: حينما في العلى... الخ قد بقيت تتلى من قبل الكهنة في بابل كل عام، ففي اليوم الرابع من الأحتفالات للسنة الجديدة طوال الفي سنة تقريباً، كان يشعر البابليون فيه بأن القتال الكوني لم ينتهِ تماماً والى الأبد وأن قوى الشر والفوضى لاتزال مستعدة على الدوام لتهديد ومنازلة النظام الكائن المستديم للألهة الخيرة. وكان أعتقاد نهاية العالم يشكل أحد المخاوف الكبيرة التي جعلت أنسان بلاد الرافدين يعيش في قلق مستمر من توقعات حصول

الكارثة الكبرى أكثر من غيرة من الناس في مناطق بعيدة أخرى، وبينما كان أنسان بلاد الرافدين هدفاً مستمراً لهجمات الشياطين والعفاريت (الجن) في كل لحظة متوقعة كان عليه اتباع ماتكشفه طوالعه والعمل على تحريك تلك السيئة منها، وهذا قد يتطلب منه تعديل حياته سواء بالعلاقة مع عمله ورزقه أو عائلته وعلاقاته الاجتماعية وغيرها)[1]. من هنا أصبح أنسان بلاد الرافدين ضحية أوهام وخرافات، تائهاً منقاداً لتصورات الأخطار (الخرافات) الشديدة التي يتخبط فيها، وكان عليه دوماً أن يكشف طالعه ويميز بين الخير والشر تجنباً للمصير المؤلم الذي ينتظره كل يوم وكل لحظة ولكن في مقابل ذلك كان المجتمع السومري أبعد مايكون عن البدائية، بل كانت حياته الاجتماعية في المدن السومرية راقية بالمقارنة مع المناطق الأخرى في ذلك الحين. وقد سادت حياته التنظيم المتكامل وعرف الشعب السومري بأنه كان صارماً في عمله وجهده وذا عقلية (بيروقراطية) ترك الألاف من السجلات والقسائم والعقود وخلف حضارة معطاء مفتوحة. ويقول جورج كريمر في كتابه (التاريط يبدء من سومر) {كان السومريون يتمسكون بالطيبة والصدق، وبالقانون والنظام، وبالعدل والحرية، وبالأستقامة والصراحة، وبالرحمة والشفقة، وكانوا يمقتون الشر والكذب والفوضى والأضطراب، والظلم والقهر والآفعال الآثمة والأيذاء والقسوة وعدم الشعور}[2]. وهكذا بقيت مشكلة العنف في العراق ممتدة خلال الحقب التاريخية التي تلت ذلك في أطار بيئة اجتماعية تقوم على الوحدانية والغيبية، السرية المطلقة والعنف، هذه البيئة التي ولدت في أحضان الحضارة السومرية في بادئ الأمر، تلتها حضارة البابليين والآشوريين وغيرهم من الأقوام الذين أستوطنوا في تلك المنطقة أو بالقرب منها، وأستمرت المراحل التالية بما تخللتها من غزوات. ولابد لنا قبل التطرق إلى تلك المراحل بأختصار أن

---

(1) لي أوينهايم (بلاد ما بين النهرين) (المصدر السابق نفسه) 339.

(2) عبد الوهاب حميد رشيد (المصدر نفسه) 107.

نناقش ماورد من أفكار ومفاهيم موروثة تاريخياً في عقول الناس في بلاد الرافدين، لم نكن نعرف عنها شيئاً الا بعد أن تمكن المستشرقون الأجانب (الأوربيين على وجه الخصوص) من التنقيب والحفر بين الأتربة والصخور للتفتيش عما كان يدور في ذهن الأقدمين من أفكار كانت في عقلنا الباطن ولم نكن نعرف منشأها وأصلها دون الرجوع اليها. أن التصفح في طيات التاريط يمهد لنا السبيل لزيادة الفهم عن أمور عديدة، وسلوك وعادات نجهل التعامل معها وفهم جذورها. أن ماورد من أفكار ومعتقدات كانت سائدة في الماضي في بلاد الرافدين قد شكلت أساساً لكل الأفكار والمعتقدات التي تلتها. وبالتالي لابد لنا من مناقشة أنعكاس تلك المعتقدات والأصول الدينية على الواقع الحالي لأنسان بلاد الرافدين قبل الأنتقال إلى مرحلة اخرى لأغناء مايستحقه الموضوع من مناقشة ولكن قبل ذلك لابد لنا من نقل بعض الأساطير والقصص والملاحم التي خلفتها حضارة وادي الرافدين لكي تكتمل الصورة عن أصول الفكر الديني في الحضارات القديمة.

5. أساطير خلق الكون ـ الإنسان لحضارة وادي الرافدين:

علنا نقترب أكثر لفهم الإنسان الرافديني القديم من خلال قراءة الاساطير والملاحم المدونة منذ الآف السنين والمترجمة إلى لغتنا الحاضرة عن طريق المصادر المتخصصة في الأدب الرافديني.

والأسطورة هي القصة الخيالية التي تعبر عن تصورات الاقوام في البيئة البدائية وتدون من قبل الكهنة لتسود في الاعتقاد لأغلبية السكان ولفترة زمنية طويلة. إن الاساطير تعبر عن المرحلة الزمنية من تطور العقل البشري وعن الادوات والالات المستخدمة والعلاقات الاجتماعية السائدة والنظم السياسية وعلاقة تلك النظم مع بعضها البعض في المناطق المجاورة، وبالذات في المجتمعات الزراعية البدائية.

إن أقدم ملحمة مكتشفة للخليقة هي (إسطورة المعول) التي سادت في الالف الرابع ق.م، وظهرت بدايتها الأولى في الاقسام الشمالية المعتمدة على الزراعة الديمية (المطرية)

خاصة المناطق المتذبذبة الامطار. فما دام الهواء هو العنصر الفعال في حركة الامطار لذلك صار لـ (أنليل) ـ إله الجو ـ دور كبير في حياة القوم وأصبح في نظرهم هو خالق الكون والبشر. والمعوَل هذا هو أول إكتشاف آلي للإنسان إستطاع من خلاله ان يعتمد على الزراعة في حياته وإستقراره وبناء مدنه وحضارته. وقد كان سلم الحضارة الأول الذي شكل حاضنة لحضارة وادي الرافدين القديمة، تم بناء مجتمع متكامل ولفترة زمنية طويلة طبقاً لفلسفة القوم المنسجمة مع ظروفهم في ذلك الوقت.

تذكر القصيدة قيام أنليل بفصل السماء عن الارض، ثم خلق الإنسان ووضع في يده المعوَل للعمل وخدمةالآلهة وتنص الاسطورة كما يظهر في هذا المقطع:

فحفر شقاً في الأرض...

وخلق المعوَل...

ووضع بدايات البشر في الشق...

وعندما بدأ البشر يظهر كالحشيش في الأرض...

كان الإله أنليل ينظر مرتاحاً إلى شعبه السومري.

..... الخ.

تشير هذه الملحمة بوضوح لبداية إنتشار الزراعة. وهي الملحمة الوحيدة التي تقول بظهور الإنسان مثل الحشيش من باطن الارض وتعكس مفهوماً زراعياً صرفاً لحضارة وادي الرافدين التي قامت في مراحلها على الزراعة المطرية خلال الفترة 8000 ـ 5000 ق.م[1].

وكذلك تشير الاسطورة إلى ان السومريين هم ابناء أولئك الرواد الذين خرجوا من كهوف الشمال (كردستان) ونقلوا البشرية من عصر جمع القوت إلى عصر إنتاج القوت

---

(1) خزعل الماجدي، (متون سومر) (المصدر السابق نفسه) ص 168.

(الزراعة المطرية). ثم إنتشروا لغاية الجنوب (زراعة الري)، ونقلوا البشرية من عصر ما قبل التاريط إلى عصر التاريط (إختراع الكتابة).

وتجسد إسطورة (إله الشعير (أشنان) و (النعجة)) ـــ التي يعتقد بظهورها قبل الانتقال إلى القسم الجنوبي من البلاد ـــ بدايات الحياة الزراعية الصرفة بما في ذلك تدجين الحيوانات.

والطريف فيها أنها لا تخلو من أفكار عصرية عن طبيعة البشر الاوائل وأصل الإنسان (القرد). فبعد ولادة آلهة الأنوناكي العظام، حيث لم تخلق النعجة بعد ولم يُخلق أشنان إله الشعير، كيف كان حال البشر الاوائل؟ تقول الاسطورة كما يظهر في المقطع:

البشر الاوائل لم يعرفوا أكل الخبز...

ولم يعرفوا إرتداء الملابس بعد...

وكانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم...

ومن القنوات يشربون الماء [1]... الخ.

أخذت أهمية عناصر البيئة الطبيعية موقعها في حضارة وادي الرافدين بالتغير مع الانتقال من الزراعة المطرية (الشمال) إلى الزراعة المروية (الجنوب)، وبدأت قدسية (أنليل) ـ اله الجو ـ بالتراجع لصالح (انكي) ـ اله المياه السطحية والجوفية ـ وذلك لأن الأمطار لم تعد نافعة في الجنوب لإتمام ري الشعير إلى نهاية الموسم.

ومن هنا ظهرت (أسطورة اله (أنكي) أوالآلهة (تنماخ) (وهي تنسب خلق الإنسان ـ (أنكي) وتعبر عن مجتمع زراعي يقوم على الري الصناعي وأعتمدت المقومات المتاحة في بلاد سومر، وتكشف عن غضب صغارالآلهة لتحميلهم مشاق العمل تحت سياط الآلهة

---

(1) فوزي رشيد (حضارة العراق) ج1 ص 167 ـ 168.

الكبار، فجاء خلق الإنسان حلاً لهذه المعضلة: ــ (أن يكون مصيره العمل) وكان الخالق أو الآمر بالخلق هو (أنكي)[1]...

بدأت مكانة (انكي) بالتراجع أيضاً بعد منتصف الألف الثالث ق.م، وذلك حين ظهور آفة الملوحة والتصحر وهجرة الأرض والمدينة في بلاد سومر، حيث لوحظ كيف أن هذا العامل شكل أحد العوامل الرئيسية في فقدان بلاد سومر لسلطتها السياسية لصالح سلطة بابل التي بدأت أهميتها بالتعاظم منذ عام 2000 ق.م. وأصبحت في حدود 1800 ق.م مركز السلطة السياسية في بلاد الرافدين. هذه التطورات السياسية دفعت كهنة بابل لأحداث تطوير في قصة الخلق تتناسب ومكانة حضارتهم ومكانة كبيرالآلهة لديهم والمدعو (مردوخ) ــ إله بابل ــ فظهرت (ملحمة الخليقة البابلية)[2].

تعتبر هذه الملحمة من أبرز القصائد الشعرية في الأدب الديني وواحدة من أكثر الروائع الأدبية في محتواها وقدمها وشهرتها. تعرف أيضاً بقصيدة (أنيوما أيلش) ــ حينما في العلى ــ نسبة إلى فاتحتها. وهي تظم أكثر من الف بيت شعر، وأسبغت عليها صفة القدسية مثل (الكتاب الديني)، أذ كانت تتلى أثناء احتفالات رأس السنة في مدينة بابل وعلى مدى حوالي الف عام.

تذكر الأسطورة انه في البداية لم يكن هناك سوى العماء أو الهيولي ــ المياه الأزلية: الاله (أبسو) ــ المياه العذبة ــ مذكر.. والاله (تيامات) ــ المياه المالحة ــ مؤنث.. وبعد أمتزاجهما تولد جيل من الآلهة. وعن طريق الزواج ولدت أجيال جديدة من الآلهة أشتهر منهم الثلاثة الذكور الكبار (آنو، أنليل، أنكي) وبعد أن تكاثر عددالآلهة وأخذ ضجيجهم يقض مضجع أبيهم الكبير (أبسو)، قرر الأخير تصفيتهم لينعم بالراحة.

---

(1) فوزي رشيد (المصدر السابق نفسه) ص 172 ــ 173.

(2) فوزي رشيد (المصدر السابق نفسه) ص 174.

يذهب أبسو يصحبه وزيره (حمو) الى تيامة شاكياً همه ويخبرها بقراره، لكنه يجد معارضة من تيامات[1]:

ولما سمعت (تيامات) ذلك غضبت وصرخت بزوجها...

أدركت في قلبها مايبيت (أبسو) من شر وخاطبته:

(علام ندمر ما أوجدناه بأنفسنا

حقاً أن صنيعهم يسبب الألم

ولكن لنصبر على ذلك ونتحمله عن طيب خاطر).

أستمر (أبسو) في خطته بمعاونة وزيره بتصفية جيل الآلهة الحديثة بعد أستبعاد (تيامة) من الخطة. ولكن جيل الالهه الحديثة أدركوا نواياه قبل تنفيذ خطته، فأصابهم الرعب والهلع ولاذوا بـ (أنكي) المتبحر بالمعرفة والحكمة لحمايتهم.

عمد (أنكي) إلى قوته السحرية فعمل تعويذة سحرية شلت حركة (أبسو) ثم قتله وأنتزع منه تاج الألوهية وسجن وزيره (حمو). وهنا أشتد حمق (تيامة)، وأنتفضت لأخذ ثأر زوجها. فولدت جيشاً من العفاريت على رأسهم (كنكو) الذي أصبح قائد جيشها وزوجها. وأثناء هذه الفترة الطويلة ولد لـ (أنكي) أبنه (مردوخ) الذي سيلعب دوراً هاماً في الأساطير البابلية.

أتصف (مردوخ) بالحكمة والثقافة (وكان أعجوبة منذ ولادته... وكان هيكله هائلا...).

وبعد أن أدركت الآلهة الخطر المحدق بهم وجبن كبارهم مثل (آنو، أنليل، أنكي) عن مواجهة (تيامات) وجيشها المرعب، علاوة على فشل محاولتهم الصلح معها، وافق (مردوخ) على أقتراح الآلهة أضطلاعه بهذه المهمة الخطيرة ومنازلة (تيامات)، ولكنه

---

(1) طه باقر، (مقدمة في أدب العراق القديم) ص 71 ــ 75.

طلب مقابل ذلك أن يتبوأ السلطة العليا المطلقة على جميع الآلهة. وهذا الأمر أقتضى أجتماع الآلهة وعقد مجلس الشورى (مجلس الأنوناكي) لمنحه الصلاحيات المطلوبة.

ولما أنتظم عقدهم في وليمة عامرة بالطعام والشراب وذهب عنهم الخوف بتأثير ماأحتسوة من خمر جيد، أقاموا منصة لـ (مردوخ) وأتفقوا بالأجماع على نقل سلطاتهم وزعاماتهم اليه، وفوضوه تقرير المصائر والأقدار وصارت (أرادته لا ترد ولا تبدل) وتوجوه ملكاً عليهم وعلى جميع الكون، وهتفوا قائلين (حقاً مردوخ ملك) وقدموا له الخضوع والولاء والطاعة بصفته ملكهم، وقلدوه شارات الملوكية والسلاح الذي لايقهر وحرضوه على قتال (تيامات).

هيأ مردوخ أسلحته للنزال الرهيب، تتقدمها أسلحته السحرية: العاصفة والبرق والنور الوهاج ومجموعة مخلوقات مخيفة، علاوة على أسلحته التقليدية الضخمة: الشبكة والقوس والسهم. أقترب (مردوخ) من جموع (تيامات) بقيادة (كنكو) فصعقت من جلال الوهيته المرعبة وأسلحته الفتاكة وهربت تلك الجموع، عدا (تيامات) التي ثبتت أمامه، وقبل النزال تبودلت الشتائم بينهما. وعندما تقدمت تيامات لمنازلته، نشر مردوخ شبكته فأصطادها، ولما فتحت فاها لأبتلاعه ساق في فمها الرياح الشريرة، فمنعها من أطباق شفتيها من شدة الرياح التي ساقها ولم تستطيع أطباق شفتيها عليه. وسلط عليها الرياح فأنتفط جسمها وعندئذ رشقها بسهم في فمها الفارغ فأصاب قلبها وقضى عليها، ووقف على جثتها منتصراً. قبض على أتباعها وسجنهم وأنتزع من قائد جموعهم (كنكو)، لوح الأقدار وختمه بختمه وعلقه على صدره. ثم عاد إلى جثة (تيامات) فشق جسمها نصفين متطابقين، صنع السماء من أحدهما والأرض من النصف الآخر. وبعد أن عين للألهة الكبار (آنوا، أنليل، أنكي) الأجزاء التي يحكمونها من الكون وحدد أماكنهم في السماء قرر تقسيم الآلهة إلى مجموعتين: الأولى والأكبر في السماء والأخرى في الأرض.

أما الإنسان فإن (مردوخ) يأمر بخلقه، ولكن الخالق الحقيقي وحسب الأختصاص بقي لـ (انكي) ومادة الخلق هنا هي الطين: التراب ودم آخذمن الاله (كنكو ـ الشرير) بعد ذبحه. كما بقي هدف ودوافع خلق الإنسان نفسه نتيجة شكوى صغارالآلهة من عناء العمل المضني تحت ضربات سياط الآلهة الكبار، وإيجاد بديل (الإنسان) للعمل وخدمة الآلهة [1]. وعرفاناً بفضل مردوخ وبطولته عمل آلهة الأنوناكي (مجمع الشورى للآلهة) طوال عام واحد في تشييد بيت يليق بمقامه، فأقاموا معبده العظيم (أي ـ ساقلا) في بابل. وبعد أن تم تشييد ذلك أجتمع الآلهة في عمل وليمة عُزفت فيها الموسيقى وقدمت الجعة ورتل الآلهة بمديح مردوخ وتمجيده وتنازلوا له عن أسمائهم وصفاتهم، فصار لـ (مردوخ) خمسون أسماً من الأسماء الحسنى، وتنتهي القصيدة بترتيل يرتل تمجيداً لآلهة بابل في عيد رأس السنة من كل عام.

بموجب هذه الاسطورة البابلية تكون المادة الأولى ذات طبيعة ثنائية، إذ كانت مادةً وإلاهاً في نفس الوقت، أي أن المادة أزلية منذ البدء... هذا على خلاف الاديان الرئيسة حيث أن وجود الخالق الازلي سبق وجود المادة التي أوجدوها [2] لكن معرفتهم الثنائية لطبيعة المادة، رغم أنها تشكل فكراً معاصراً قامت على فلسفة ميتافيزيقية لم يكتب لها التحرك والتطور في غياب منهج التفكير العلمي.

لقد وردت أساطير خلق أخرى كثيرة تستحق الذكر منها: (أسطورة أصل الآلهة). وقد تم ترتيب الآلهة في شكلها البابلي على هيئة زوجين ذكر وأنثى والاتصال الجنسي بينهما يتم بزواج الولد من أمه وقتل أبيه، وزواج الاخت من اخيها وقتلها لأمها [3].

---

(1) فوزي رشيد (المصدر السابق نفسه) ص 175.

(2) جورج بوبيه شمار ص 381 ـ 398.

(3) المصدر السابق نفسه ص 92 ـ 94.

وفي (أسطورة الهبوط) التي تنتمي إلى مجموعة أساطير أنليل (إله الجو) وترد في صيغ عديدة تتضمن معاشرته لـ (ننليل) ـــ قبل أن تصبح زوجته ـــ فجاءت نتائج هذه المعاشرة ولادة المطر والفيضان وخصوبة الأرض وأخصاب العائلات البشرية. وفي صيغة أخرى يقوم أنليل بأغتصاب ننليل ويحكم من قبل مجلس الآلهة بالنفي إلى العالم الأسفل (الأرض) (وهنا لا بد من الإشارةإلى ما جاء في سفر التكوين في الديانه اليهودية من هبوط آدم من الجنة إلى الأرض السفلى ــ تشبه الأسطورة البابلية) .

وتشير إلى أنحدار مركز (أنليل) من مرحلة الأنتقال من الزراعة المطرية في الشمال إلى الزراعة المروية في الجنوب. وفي صيغة ثالثة تتم الخطبة والزواج ويطلق أنليل عليها لقب سيدة الهواء. من الملاحظ هنا ان عملية الأنتقال من الزراعة المطرية إلى الزراعة المروية تعتبر بالنسبة لهم عقوبة لما يعاني المزارع من مشقة في الأرواء وهكذا ذهب خيالهم إلى الصراع الألوهي الحاصل في السماء مصدر الأمطار (حسب عقيدتهم)، وهكذا أستمرت المفاهيم حول السعادة والراحة الناجمة عن هطول الأمطار من السماء وبالتالي ترفع الأيادي للدعاء دائماً بأتجاه السماء بأعتباره مصدر الخير ومقرالآلهة في مجتمعهم الزراعي...

وفي أسطورة (أنكي و ننخرساك): فيها وصف لأرض دلمون ـــ (البحرين حاليا): غزيرة المياه عالية الخصوبة، كثيرة الخيرات، ذات زرع وحقول وبساتين، والتي جعلها أنكي أرضاً طاهرة.. وتتحدث الأسطورة عن حصول جماع بين أنكي والألهة ننخرساك ثم مجامعته لأبنته، ثم حفيدته... وهكذا في ظل ولادات سريعة. وفي آخر جماعه بأبنة لحفيدته تلد ثمانية أنواع من النباتات والأشجار. وعندما شاهدها (أنكي) أراد معرفة ماهيتها فأمر رسوله (أسيمود) ــ ذات الوجهين ــ أن يقطعها ويأكلها، وعندئذ غضبت (ننخرساك) ولعنت (أنكي) وأحلت به الأمراض. ومن خلال وساطة ناجحة للثعلب

تحضر (ننخرساك) لمجمع الآلهة في دلمون وتشفي (أنكي) من علله بعد أن غفرت له أساءته (وأخذته وأجلسته على فرجها) فعاد أنكي وتبوأ مركزه السامي بين الآلهة[1].

وتتحدث (أسطورة أنكي وتنظيم الكون) عن قيام (أنكي) ـــ إله المياه والمعرفة والحكمة ـــ بجولة في أقاليم الأرض المعروفة لديهم آنذاك والتي تبدأ من بلاد سومر وتنتهي في البحر وأخذ بتنظيم أحوال الارض وأنهارها وبحارها، فملأ نهري دجلة والفرات بالمياه العذبة والاسماك، وأوجد احراش القصب والآجر والحيوانات، ومن أجل تنظيم المجتمع البشري نصب الهاً لكل ناحية من نواحي النشاط الحضاري فمثلاً خصص للأشراف على الفلاحة والزراعةالآلهة (إينمكدو) والخضار والغلال الآلهة (أشنان) والماشية والرعي الاله (دموزي) ــ تموز.. وهكذا.

وتتطابق (أسطورة تمجيد عشتار) مع عصر ما قبل التاريط والعصور التاريخية المبكرة، وتتضمن محاولة أعادة هيبة (آنو) ــ اله السماء ـــ من قبل كهنة (الوركاء) ـــ وهي أقدم مدينة سومرية في جنوب العراق وكانت مركز عبادة (آنو): .

تتناول الأسطورة كيف أن (آنو) أشرك أبنته الآلهة (عشتار) في تاجه بعد فترة حب طويلة لها. وأعترافاً بجميلها رغب أن يرفعها إلى درجة المساواة معه بناءاً على نصيحة مجمع الآلهة، وأمر أن يكون أسمها بعد الزواج منها (أنتو) ــ صيغة المؤنث لـ (آنو). وبعد أن مَجَدت (عشتار) وبُجلت أحتلت مكاناً مهماً في السماء حيث مقر (آنو)، ثم شخصت بالكوكب السيار (الزهرة) [2] وأصبحت رمزاً للجمال والحب لدى البابليين. وفي (أسطورة نقل النواميس الألهية إلى الوركاء) قصة تحايل عشتار ــ أنانا لحيازة (النواميس الألهية) من أنكي ــ أيا المختص بحيازتها، ونقلها لمدينتها الوركاء ــ أوروك، والتي تشكل العناصر

---

(1) طه باقر (المصدر السابق) ص 89 ــ 90.

(2) جورج كونتينو، المصدر السابق، ص 333.

الأساسية للحضارة والمدنية من بينها: السيادة والألوهية ونظام الحكم والتاج والصولجان ووظيفة الكهانة والصدق والخداع والتزوير والفن والموسيقى والعداوة والبغضاء والصلاح والعدل والطوفان والجماع والبغاء وطائفة من الحرف والصناعات التي كانت متداولة لديهم كالنجارة والحدادة والبناء والحياكة... ونجاحها في مهمتها بعد أن أكثرت له في الشراب [1]. تدل الأسطورة على كيفية إنتقال القوة والإقتصاد من مدينه إلى أخرى أكثر تطوراً.

وتحدثت (أسطورة ننورتا) عن الكفاح الذي خاضه الأله ننورتا أبن أنليل ضد قوى الشر وأنتصاره عليها. وقد منح الصخور التي حاربت معه أحسن الأسماء (الرخام واللازورد الفيروز والمرمر... الخ) وظلت تلك الأنواع من الصخور تستخدم في الأبنية ذات القدسية لدى الإنسان لفترة طويلة، وكذلك تستخدم في زخرفة القصور والمعابد ومواد التماثيل والهياكل الخاصة بالآلهة، بينما أعطى الصخور التي حاربت ضده أردأ الأسماء فصارت تستعمل في بناء عتبات الأبواب وتدوسها الأقدام.

وتعود أسطورة (تعويذة الولادة ــ خلق الإنسان) السومرية الأصل إلى عصر أنكي وتتضمن جوانب من آراء القوم في خلق الإنسان من قبل (مامي) ــ اله الخلق. وبطلب من أنكي والآلهة الأخرى تم خلق الإنسان من الطين (التراب) بعد خلطه بدم أحدالآلهة المضحى به لهذا الغرض. وهي تشبه في هذه الناحية (ملحمة الخليقة البابلية) والتي أصبحت مصدراً للعديد من القصص والروايات الدينية في الشرق وتعبر أسطورة (تعويذة وجع الأسنان) عن عصرالآلهة الكبار (والتي تنص على أن الخلق جرى على النحو الأتي: بعد أن خلق الآله آنو السماء، خلقت السماء الأرض وخلقت الأرض الأنهار والجداول والقنوات وخلقت الجداول الأهوار وخلقت الأهوار الدودة)... وبعد ذلك ذهبت الدودة

---

(1) طه باقر، المصدر السابق ص 91 ــ 92.

للآلهة شمش وأنكي تشكو لهم وتقول (مإذا تعطيني لطعامي؟ وماتعطيني لأمتصه؟) (أجابها أنكي سأعطيك التين والزيتون والمشمش) ولكنها لم تقتنع وقالت (وماجدوى التين الناضج أو المشمش بالنسبة لي؟ أنا أريد أن تضعني في الأسنان وتجعل مسكني اللثة لكي أمتص دم الإنسان وأقرض اللثة وآكل جذورها) ووافق أنكي على أقتراحها هذا. وعلى ضوء هذا المعتقد أخذ الكهنة يعمل تعويذته للمريض الشاكي المأ في أسنانه أو لثته والتي تتضمن (لأنك قلت هكذا للإله يادودة فليحطمك الأله أيا... الخ).

وهناك العديد من الملاحم الأخرى كان أشهرها على الأطلاق ملحمة (كلكامش) وهي تبحث عن حقيقة الموت المطلقة وعن معرفة سر الخلود من رجل الطوفان. وتجمع هذه الملحمة عدة أساطير منها: ملوكية كلكامش وصداقته لغريمه أنكيدو ومغامرتهما، ثم موت أنكيدو ورحلة كلكامش بحثاً عن الخلود وقصة الطوفان وأخيراً موت كلكامش.

أن قصة الطوفان هي قصة حية تتكامل مع ملحمة كلكامش. وقد ورد خبرها في قائمة الملوك السومرية، حيث تضمنت أن الطوفان جرف البلاد بعد حكم مدينة (شروباك) ــ تل فارة الواقعة على بعد 40 ميل جنوب شرق مدينة الديوانية جنوب العراق وأعتبر هذا الحدث حداً فاصلاً بين عهدين متميزين في تاريط وادي الرافدين: أي ما قبل وما بعد الطوفان. كما أن ما يذهل القارئ الصورة الحية لشخصيات الآلهة التي تضفي عليها صفات الإنسان البدائي والصراحة في وصف هيجانها وغضبها [1].

ومن الناحية التاريخية تشكل القصة الأكثر قِدماً، إذ إستقرت فكرة الطوفان في وجدان العالم القديم. والمعتقد أنها ترجع في أصولها إلى الفيضانات العارمة للنهرين (دجلة والفرات). وذهب الباحث الأثري المعروف (وولي) الذي نقب في أور إلى أحتمال وقوع هذا الطوفان في حدود 4000 ق.م كما أستنتج العالم الفرنسي (مورغان) الذي

---

(1) جورج كونتينو المصدر السابق ص 329.

ترأس بعثة التنقيب في سوس (الشوش حاليا) في بلاد عيلام (إيران). أن قصص الطوفان تخلد ذكرى فيضان حدث بدرجة من الجسامة لايمكن نسيانها وذلك في آخر عصر جليدي يرجع تاريخه إلى 8000 سنه من الآن[1].

وجدت قصة الطوفان في ثلاث روايات رئيسية تتشابه في خطوطها العامة والعديد من تفاصيلها. وقد بدأت في أصلها كمأثرة أدبية سومرية، ثم ضمنت اليها أو عدلت وطورت وأخرجت بصيغة بابلية، كما هو عليه الحال في العديد من آداب الحضارة في بلاد وادي الرافدين.

وأولى تلك الروايات وبطلها (زيوسيدرا) الذي أنقذ البشرية من طوفان شمل الأرض كلها (حسب عقيدة القوم) والثانية وبطلها (أوتو ــ نبشتم)، والثالثة وأكثرها تفصيلاً وبطلها (أثراحاسيس) الذي يقوم بدور مشابه في إنقاذ البشرية.

كانت عقوبة الطوفان في رواية أثراحاسيس آخر سلاح تلجأ اليها الآلهة للحد من تكاثر البشرية التي أخذت ضوضائهم وضجيجهم تقض مضجع الآلهة وتحرمها من الراحة والهدوء، ويظهر أنليل ــ اله الجو/الرياح، المحرض على قيام الآلهة بمجموعة خطوات متلاحقة كان الغرض منها فتك البشرية وأهلاكهم. ففي المرة الأولى أقنع أنليل الآلهة بأنزال الأمراض والأوبئة وفوضت ـ (نمتار) (الأله المسئول عن الأمراض والأوبئة) ـ بتنفيذ تلك المهمة، فأنتشرت الأمراض في البلاد وأخذ يلتهم الناس ألتهاماً. وعندئذ أستنجد أتراحاسيس بـ أنكي/أيا لتخليص الناس من هذا الهم. وقد جاءت توصية أنكي اليه ببناء معبد للأله نمتار وتقديم الهدايا والنذور له ليرفع نمتار يده عنهم. وبمرور فترة زمنية أخرى وتكاثر أعداد الناس من جديد وأزدياد صخبهم وضجيجهم، قرر أنليل أن يعاقبهم بالجفاف والقحط والمجاعة. وهكذا أصدر أوامره للآلهة: أدد لحبس

---

(1) جورج كونتينو المصدر السابق ص 330.

المطر، أنكي لمنع المياه الجارية، نيسابا ــ الهة الحنطة لمنع محصول الحنطة من النضج. وهكذا حلت المجاعة بين الناس لمدة ستة سنوات متوالية (وهذه فكرة مشابهه للحلم الذي راه النبي يوسف (ع) في مصر في قصة يوسف).

فلم ينبت الزرع، وسادت المجاعة وفتكت الأمراض بالناس، وأصبحت الأجسام ضامرة، وتوقفت الولادات وأصاب الناس الجرب وتشوهت ملامحهم (أتخذوا من البنت عشاء لهم وأتخذوا من الولد غداء لهم لكنهم لم يشبعوا حتى ألتهم كل جار جاره. وكان الناس أحياء لكن على حافة الموت) [1] ولكن هنا يبادر أنكي مرة أخرى إلى الأشفاق على الناس وأنهاء مصيبتهم فيسمح بتدفق المياه من العمق، وبهذا التصرف عرض نفسه لغضب أنليل الذي صمم هذه المرة أن تؤدي جميع الآلهة القَسَم لأرسال الطوفان وتدمير الأرض ومن عليها.

وبتحريض من أنليل صدر قرارهم لأفناء البشر بتسليط الطوفان عليهم بعد أن أجتمع الثلاثة الكبار (أنو ــ أنليل ــ أنكي)، ولكن أنكي بادر منذ البداية إلى الوقوف إلى جانب البشر، ونقل قرارالآلهة بشكل غير مباشر لـ أوتو ـ نبشتم أذ وجه ندائه كما يلي:

(ياكوخ القصب! ياكوخ القصب! أسمع ياكوخ وأفهم ياحائط، يارجل مدينة شروباك يأبن أوبار ــ توتو قوّض بيتك وأبنِ لك فلكاً. تخلَ عن مالك وأطلب النجاة. أنبذ الملك وأنجُ بحياتك، وأحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة، والسفينة التي تبني أضبط قياسها ليكون عرضها مساو لطولها، وأختمها جاعلاً إياها مثل مياه الـ (آبسو).

ولما سمع رجل شروباك (أوتو نبشتم) صدع للأمر، وفهم قرب حدوث الفيضان وكيف يتصرف، وصنع السفينة بمساعدة أهل المدينة في سبعة أيام وجهزها بالمؤن والمتاع وأدخل من كل حي بذرة علاوة على أهل بيته وذوي قرباه.

---

(1) طه باقر (المصدر السابق) 258.

كما عين الأله شمش له موعداً بقوله (حينما ينزل الموكل بالعواصف أمطار الموت والهلاك في المساء فأدخل السفينة وأغلق بابها). ولما حان الوقت المحدد سقط المطر المهلك (فولجت السفينة وأغلقت بابي...) وفي هذه الأثناء أخذ كل من أله السماء والأرض دوره في أطلاق الفيضان ليصل إلى أقصى حالاته من رعود مزمجرة تصل عنان السماء وزوابع وأمطار غزيرة، علاوة على أطلاق مياه العمق، فدمرت المساكن والأبنية والسدود، وساد الظلام الداكن وصار الأخ لايبصر أخاه والناس لايميزون من السماء (حتى الآلهة أرتعدوا من شدة الهول فأخذوا يتراجعون إلى الخلف حتى وصلوا سماء آنو. (السماء السابعة).

أستمر الطوفان ستة أيام وسبع ليال، وفي اليوم السابع هدأت الأوضاع، ونظر أوتونبشتم من فتحة صغيرة في سفينته إلى الجو فرأى السكون المطبق وقال (رأيت البشر وقد أستحالوا جميعاً إلى طين فسجدت وأنهمر الدمع على وجهي). أستقرت السفينة على جبل فمسكها الجبل ولم يدعها تجري. وباشر رجل الطوفان في معرفة مدى أمكانية الخروج من السفينة والعودة إلى الأرض، فأخرج حمامة وأطلقها فما لبثت أن عادت لأنها لم تجد محطاً لها، وحصل للسنونو نفس الشئ في المحاولة الثانية، وفي المرة الثالثة أطلق الغراب فطار ولم يعد بعد أن وجد مكاناً يحط به. وحالما تأكد رجل السفينة من أمكان العودة إلى الأرض، أخرج مافيها وقربت القرابين وسكبت الماء المقدس على قمة الجبل... وكدست أسفلها القصب والآس والأرز فشم الآله شذاها، وتجمعوا حولها كأنهم الذباب. ولما وصل أنليل قال غاضباً للألهة (عجباً كيف نجت نفس واحدة وكان المقدر أن لاينجو بشر من الهلاك؟ أجابه (ننورتا) بقوله (من ذا الذي يستطيع أن يقوم بهذا الأمر غير أيا...) وهنا قال أيا مخاطباً (أيها البطل أنت أحكم الآلهة، فكيف لم تبصر فأحدثت طوفاناً! حمل صاحب الخطيئة وزر خطيئته والمعتدي إثم أعتدائه، ولكن في العقاب تساوى فيه المذنب والبريء لئلا يمعن في المخطئ في الشر... أما أنا فلم أفش سر الآلهة ولكن جعلت أوتو — نبتشم يرى رؤيا فأدرك سر الآلهة، والآن تدبر أمره وقرر مصيره. هدأ أنليل ولان وخفت

سورة غضبه ثم دخل السفينة وجعل رجل الطوفان وزوجته يسجدان أمامه ولمس ناحيتهما وباركهما قائلاً: (لم يكن أوتونبشتم قبل الآن سوى أحد البشر، ولكنه منذ الآن هو وزوجته مثلنا نحن الآلهة وسيعيش أوتونبتشم بعيداً عن فم الأنهار).

وهكذا أصبح رجل الطوفان واحد من الآلهة وعاش طويلاً. وهنا يوجه أوتونبشتم كلامه إلى كلكامش حين قصده الأخير ليسدي له النصيحة في الحصول على الخلود الأزلي: من سيجمع الآلهة من أجلك لتنال الحياة الخالدة؟ تعال أمتحنك (لاتنم ستة أيام وسبع ليال) (وهي المدة التي مكثت فيها السفينة في البحار أثناء الطوفان). لكن كلكامش أخذته سنه النوم حال جلوسه، فألتفت بطل الطوفان لزوجته قائلاً: (أنظري وتأملي هذا الإنسان القوي الذي ينشد الحياة قد غلبه النوم). فاقترحت عليه زوجته أيقاظ كلكامش ليعود أدراجه من حيث أتى، لكن أوتونبشتم حذرها قائلاً: (لما كان الخداع سمة البشرية فأنه سيخدعك. فأخبزي له أرغفة من الخبز وضعيها عند رأسه، بعدد الأيام التي ينام فيها وأنشريها على الجدار). ففعلت مأأمرها. ولما كان الرغيف السابع لايزال على الجمر لمس أوتونبشتم كلكامش فأستيقظ وقال له (لم تكد تأخذني سنه من النوم حتى لمستني فأيقظتني. أجابه أوتونبشتم) ياكلكامش عدَ أرغفتك ينبئك المؤشر على الحائط عدد الأيام التي نمتها. عندئذ يئس كلكامش... وأمر رجل الطوفان ملاحه أخذ كلكامش ليغتسل ويبدل ثيابه ويعود به إلى مدينته أوروك. وقبل أن يهما بركوب سفينة العودة تشفعت له زوجة بطل الطوفان عند زوجها بأن لايدعه يعود خائبا لبلاده. فكشف له أوتونبشتم سر نبات شوكي عجيب ينبت في أعماق البحر له خاصية سحرية في تجديد الشباب وأطالة العمر. نجح كلكامش في العثور على ذلك النبات وفرح وقال لرفيقه الملاح أنه سيحمله معه إلى أوروك ويشرك الناس معه ليأكلوه، وسيكون أسمه (يعود الشيط إلى صباه كالشباب). أما هو فسيأكل منه في أواخر أيامه حتى يعود إلى شبابه. ولكن أثناء توقفهما في الطريق تسرق الحية منه هذا النبات وتأكله، فتنزع جلدها حالاً وأصبحت

تجدد شبابها كل عام. وهكذا أتخذت صورة الحية رمزاً للتطبيب والشفاء والحياة. وفي الغرب تم أخذ الحية رمزاً للدواء من خلال الأسطورة اليونانية الشهيرة المشابهة لما جاء في ملحمة كلكامش من حيث الهدف. ويصبح ربط هذه الأسطورة بأسطورة العداء الذي أستحكم بين الحية وذرية حواء وأدم بعد حادثة أغواء حواء وطرد آدم وحواء من الجنة. أو الشيطان المتمثل بالحية وذلك من خلال إقناعهما أن يأكلا من الشجرة المحرمة[1].

حزن كلكامش بعد أن ضاعت عليه الفرصة الأخيرة لحصوله على الخلود. لكن في حديث له مع صاحبة الحانة التي تفتح عين كلكامش على طريق آخر لخلود الإنسان من خلال مايتركه خلفه من عمل طيب ينفع الناس. وفي ختام هذه الملحمة ترد قصة (موت كلكامش) والتي ترمز لاعتقاد القوم بحتمية الموت للبشر مهما حاولا التشبث بالحياة وعليهم الاستمتاع بها. ورغم قلة ماتبقى من النص الأصلي فهي تلقي ضوءاً ساطعاً على جانب مهم من معتقدات القوم عن عالم الأموات والتي تختلف تماماً عما كان عليه الحال في حضارة وادي النيل كما أوردنا سابقاً.

هكذا كانت الاساطير المدونة والتي تعبّر عن تطور الأفكار السائدة في حضارة وادي الرافدين القديمة وعن حياتهم وما يدور بينهم من علاقات اجتماعية وتقاليد. وقد يبدو لنا عند قراءتها وساذجة الا أننا نقرأ تلك الحكايات بعد آلاف السنين توصل الإنسان خلالها إلى كم هائل من المعلومات العلمية وأصبح واسع الأفق إلى درجة كبيرة. أما في العصر القديم (السومري والبابلي و الآشوري) فقد شكلت تلك الأساطير خطوة متقدمة جدا إلى الأمام بالمقارنة مع عصور قديمة سابقة، ففي العصور الحجرية الأولى عندما كان الإنسان يعيش متنقلا وينام في الكهوف كانت الرسومات الرمزية للحيوانات المفترسة وغيرها من الأدلة التي تعكس تصورات الإنسان القديم أكثر تخلفا وتدل على ضعف أفقه

---

(1) طه باقر، مقدمة في أدب...ص 125.

ومداركه بالمقارنة مع القصص والأساطير السومرية مثلاً، ويجدر الإشارةهنا إلى أن ذلك العصر كان متميزا بالاساطير الخرافية وكان هناك تشابه كبير بين الأساطير التي كتبها الصينيون والهنود القدماء. كما أنها في تشابه كبير أيضا مع أساطير مصر واليونان والرومان التي اكتسبت شهرة كبيرة في عصرنا الحديث بعد أن ذرست واعطيت الكثير من الاهتمام، واستخلص من خلالها الكثير من الدروس فهم الماضي، على العكس مما نحن عليه من ضعف في الاهتمام بذلك التراث من الاساطير. وباختصار كان وازع الخوف من المخاطر المحيطة بالإنسان الرافديني هي الصفة المميزة والمحفزة لكل تلك الأساطير. لكن المعرفة الإسطورية تعتبر من أهم المعارف التاريخية التي تعكس أنماط السلوك والفكر في المجتمعات القديمة.

وأخيراً فإن ملحمة كلكامش على جانب كبير من الأهمية في تصويرها تصويراً مؤثراً جوانب مهمة من حضارة وادي الرافدين، فهي منجم زاخر لاستقاء أوجه ومقومات أساسية عن أحوال العراق القديم، كعقائد القوم الدينية وآلهتهم وآرائهم في الحياة والكون وأحوالهم الاجتماعية وجوانب مثيرة من حياتهم العاطفية وعلاقاتهم الاجتماعية وتركيب أقدم مجتمع متحضر في تاريط العمران البشري. كما يجد صورة ممثلة عن البداوة المتاخمة لحضارة وادي الرافدين وكيفية تدرجها في حضيره تلك الحضارة[1].

---

(1) طه باقر (ملحمة كلكامش) دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد (2002).

7. خلاصة الفصل الأول:

يمكن أن نستخلص من تاريط الحضارة القديمة لبلاد وادي الرافدين والتي كانت من أقدم الحضارات في العالم النقاط الرئيسية التالية:

1. لقد نشأت حضارة وادي الرافدين القديمة من خلال أكتشاف الإنسان للزراعة وكان من بين معالمها الرئيسية الكتابة، والفخار، وسن القوانين الخاصة بتنظيم الحياة، والمدن، وقد تطورت العقيدة الدينية إبتداءاً من شكلها البسيط من خلال معاناة الإنسان من الكوارث الطبيعية والفيضانات للأنهار والهجمات الخارجية، إلى أن وصلت إلى مرحلة تدوين ملاحم وأسفار كانت أساساً للعديد من الديانات التوحيدية اللاحقة، الا أنها أصبحت تشكل قيوداً وأسباباً في تحجيم وعرقلة تقدم وأزدهار تلك الحضارة عن طريق أعتمادها السحر والميتافيزيقية في التفكير ومعالجة المشاكل المحيطة بها، وأبتعادها عن المنهج العلمي السليم المعتمد بالتفتيش عن السببية. ولم يكن للعقل أي أهمية في فلسفتهم الحياتية، لأنه من إختصاص الآلهة حصراً.
2. أن الأرث الثقافي الخاص بمفهوم السيطرة والتسلط السلطوي (الدكتاتوري _ أو الشمولي) الراسط في عقلية الفرد الشرق أوسطي والعراقي بالذات تمتد جذوره في الموروث الثقافي منذ عصور الحضارة الرافدينية القديمة، والنابعة من فكرة أن الحاكم أو الملك يستمد سلطته من الأله الحامي، والذي كان يمثل الأله في الأرض في ذلك العصر. وظلت فكرة الحاكم المستبد يُخدم من جميع الناس وفق مفهوم أن حياة الناس ووجودهم مستمدة من وجوده هو ورضاءه عنهم. وتوارث تلك السلطة إلى الأبناء والأحفاد قد أصبحت أرثا متئأصلاً إلى فترة طويلة من الزمن يصعب التخلص منها وكانت سبباً للعديد من المعاناة والكوارث والقصور السياسي في المنطقة.

3. أن حالة الخوف والتشاؤم الموروثة في عقول الناس في بلاد الرافدين والناجمة عن معاناة الإنسان من الكوارث الطبيعية والظروف المناخية الحارة والتسلط الدكتاتوري السلطوي ومفاهيم القضاء والقدر ضمن العقيدة الدينية للقوم في ذلك الحين، قد أصبحت سمة مميزة من سمات شخصية الفرد العراقي التي تعايشت معه عبر الآف السنين. وقد أستطاعت النيل من طموحاته وتطلعاته في التقدم والأستمرار في بناء حضارته المتميزة. ومنعت وصوله نحو الخطوط الأمامية بين الشعوب الأخرى والحضارات البشرية الأخرى التي أصبحت متميزة عن حضارته بكثير علماً بأن حضارة وادي الرافدين كانت الأقدم. أن سمة الخوف والتشاؤم في شخصية الفرد العراقي أصبحت مرابطة له عبر التاريط وحددت من تقدم وأزدهار الحضارات التي تلت الحضارة الرافدينية القديمة من خلال تحجيم القدرة على أتخاذ القرارات الصائبة وتأطير الطموح في التقدم والأزدهار في البلاد.

الفصل الثاني

تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام

لما كانت بلاد الرافدين جزء من الجزيرة العربية، ومن أجل اكتمال الصورة عن مواريثنا التاريخية لابد لنا من ألقاء ضوء بسيط على تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام على أعتبار أن ما كان يجري في المنطقة ككل، ينعكس مباشرة على جميع انحاء المنطقة ومنها بلاد الرافدين بالأضافة لذلك فإن وفرة المصادر التاريخية للمنطقة تتيح فرصة أسهل للدراسة والبحث الشامل والمترابط. أن موجات الهجرة من الأقوام السامية والتي قدمت من الجزيرة العربية[1] واليمن ومناطق محيطة بهما إلى بلاد الرافدين ضمن موجات كانت في غالبها ناجمة عن حروب بين القبائل المتصارعة في الصحراء الشحيحة من الموارد الطبيعية وبالتالي فإن نزوح تلك القبائل إلى ضفاف نهر الفرات أولاً، عبوراً إلى ضفاف دجلة ثانياً تجعلها تجد ماتحتاج اليه من ماء ومايتيسر لها من عشب يكفي ويشجع في بقاءها دون الأكتراث بالعودة إلى مناطقها الأصلية التي نزحت منها أي من عمق الصحراء داخل الجزيرة العربية[2] ولايعود الا القليل من القبائل المهاجمة والأكثر توحشا[3]. وهكذا أصبح العراق ومنذ زمن بعيد قبل دخوله في الإسلام في

---

(1) احمد سوسة (حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين) سلسلة دراسات 214، دار الرشيد للنشر (1980).

(2) تشير بعض المصادر التاريخية إلى حصول ثغرات تبوغرافية جسيمة في الجزيرة الغربية فلم تكن صحراء جرداء منذ البداية، لكن ذلك جاء نتيجة لتغيرات مناخية في المنطقة منها نقص المياه والأمطار تسبب في التصحر والقفر،أخذ في التوسع شيئاً فشيء إلى أن وصل إلى ما نحن عليه الآن عبر آلاف السنين.

(3) ستيفن هيمسلي لونكرينك (تاريط العراق بين عام 1900 ــ 1950) ترجمة جعفر الخياط.

غالبيته من العرب، بينما بقيت الأقوام الأخرى القادمة من المناطق الشمالية والشرقية محصورة في مناطق محددة في الجانب الشرقي من دجلة، وفي الشمال حيث المرتفعات والجبال التي لا تتلائم وطبيعة البدو القادمين من الصحراء في الجزيرة العربية. لذلك ولكي تكتمل الصورة عن مواريثنا التاريخية، لا بد لنا من مناقشة طبيعة الحياة الاجتماعية وتطور المعتقدات الدينية والجوانب الاقتصادية خلال الفترة التي تلت سقوط بابل ولغاية ظهور الإسلام في الجزيرة العربية، والتي تقرب من عشرة قرون، أذ أن المنطقة بحد ذاتها مترابطة جغرافياً ولايفصلها حاجز طبيعي أو سياسي يمنع من الأتصال بين الأسر والقبائل التي كانت تعيش فيها ولم تكن هناك حدود سياسية واضحة كما هي علية الأن في منطقة الشرق الأدنى فقد كانت القبائل الصحراوية تنتقل أينما تجد هناك عشب وماء يكفي لبقاءها وتتجول في جميع أرجاء الجزيرة العربية مروراً بالعراق ثم تمتد أحياناً لتصل إلى أواسط أسيا من دون أن تحتاج لموافقة سلطة مركزية بالتنقل.

أن المعتقدات والعادات الاجتماعية في الجزيرة العربية قد تأثرت بشكل كبير في حضارة وادي الرافدين بحيث يمكن أعتبارها جزءاً مكملاً لتلك الحضارة. أن تاريط العرب قبل الإسلام موضوع شائك وطويل ويحتاج للعديد من المؤلفات. وأن ما كتب بأعتقادنا من المراجع الهامة نخص بالذكر منها (المفصل في تاريط العرب قبل الإسلام (للدكتور جواد علي[1] والذي أحتوى على 12 جزأ بالأضافة للأخرين أمثال د.محمد عابد الجابري في دراسته عن (العقل السياسي العربي)[2] وكتاب (تاريط العرب) لفليب حتي وغيرهم.

---

(1) جواد علي (المفصل تاريط العرب قبل الإسلام) مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد (1965).

(2) محمد عابد الجابري (العقل السياسي العربي) مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت شباط (1990)

وكل مانحتاج اليه هو الجانب الأقتصادي والعلاقات الطبقية التي كانت سائدة لغرض فهم طبيعة التطور الفكري والديني للمجتمع والمنسجمة مع طبيعة تلك العلاقات وظروفها المناخية والجغرافية، وبالتالي زيادة الفهم عن مواريثنا التاريخية وسلوكنا المتأثر بتلك المواريث في عصرنا الحاضر.

ولذلك سوف نقتصر بالإشارةلأهم النقاط التي تهم موضوعنا:

1. الزراعة والرعي يشكلان نمط الحياة الاقتصادية في الجزيرة:

مما لاشك فيه أن الزراعة تعتمد بالدرجة الأساس وعلى الأقل في العصور القديمة التي نحن بصددها على وفرة المياة والأمطار وخصوبة الأرض، ولما كانت الجزيرة العربية متميزة في نقص الأمطار، فقد أصبحت الزراعة فيها محدودة جداً، ومقتصرة على مناطق محددة في الجنوب (اليمن) وبعض الواحات في الوسط، ولكنها قد تكون مزدهرة نسبياً في شمال الجزيرة (والمقصود هنا بلاد الشام وأرض الرافدين).

لكن الرعي الذي يعتمد على عناصر مختلفة عن الزراعة كأستئناس الحيوان وتطور الأدوات المعدنية بالأضافة للزراعة كجزء مطلوب في تغذية الإنسان والحيوان معاً، أن هذه العوامل كبيرة الأهمية لكون أن عالم الزراعة سيبقى بلا تطورات جذرية في حين أن أستئناس الأبل والخيول وجلب المواد الحديدية التي كانت من أسهام الأقوام الأكثر بربرية في المنطقة مثل أقوام الهكسوس الذين عاشوا في الجانب الغربي من الجزيرة وكانوا ملوك الرعاة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وأحدثوا الكثير من الخراب، مما أدى بالفعل لتحول التأثير الأكبر في التاريط إلى الرعاة على حساب المزارعين. أن أنتشار الحديد والخيل وتغلغل الأبل في الجزيرة العربية، قد أهل المناطق الأكثر أتساعاً وصحراوية فيها بأن تتمتع بأستقلالها شبه المطلق في مناطقها الصعبة والوعرة.

وقد حاول الرومان مرة واحدة غزوها في حملة عسكرية عندما عرفوا أن بلاد اليمن تدفع ضريبة إلى السلطة الفارسية في إيران، فأصيبوا بكارثة كبيرة في تلك الحقبة التاريخية وعادوا بخسارة كبيرة ولكن البيزنطيين والإغريق، هم الذين استطاعوا التقدم لاحتلال المناطق الساحلية الغربية، وظلوا مسيطرين على الجانب الغربي الشمالي أي بلاد الشام وفلسطين، بينما كان الجانب الشرقي من نصيب الأمبراطورية الفارسية (الإيرانية) لفترة طويلة من الزمن. وخلاصة القول فإن اقتصاد المنطقة كان مبنياً على القليل من الزراعة بينما سادت بعض الصناعات الحرفية البسيطة والتجارة فيما قبل غزو الهكسوس في الجانب الغربي من الجزيرة العربية، والتي تلت ذلك الغزو بقرون عديدة والذين طردوا من مصر أيام الفراعنة وانتشروا في الصحراء وعلى الأخص الجانب الغربي منه، فقد ظهر فيها أقوام الرعاة الآخرين وأشهر تلك الأقوام هم الآراميين والكنعانيين والعبرانيين والذين كانوا ممهدين لظهور العرب جنساً ولغةً في تلك المنطقة. وكل تلك الأقوام هم من أصول سامية هاجرت من الجزيرة العربية.

وأذ كانت الزراعة لاتنفصل كلياً عن الرعي في حقبتها الأولى، الا انها أحدثت أنفصالاً واضحاً حين تمكن الرعاة من الأسئناس بالحيوانات ذات الأهمية القصوى في تطورهم، وبالذات رعاة الخيول والأبل، تلك الحيوانات المتكيفة تماماً مع الطبيعة الجغرافية للمنطقة، والتي تستطيع الصمود أمام قطع المسافات الشاسعة من الأراضي القاحلة، وقد فتح لها أفاق أخرى في ممارسة التجارة ونقل البضائع بين الجنوب والشمال وبالعكس، وبالتالي وفر المزيد من الثروة التي ساعدت على النمو والبقاء والسيادة لتلك الأقوام. لم ينفصل الرعي عن الزراعة، فحين تتواجد الظروف المائية الكافية كان يمكن الجمع بين الأقتصادين، إلا أن الأنفصال الكبير قد حدث ووجدت المساحة الأكبر لتطور الرعاة وهي الجزيرة العربية المتميزة بنقص مواردها المائية خاصة في المناطق الوسطى التي تعتبر مركز المنطقة كلها. ومن الملاحظ أن الممالك العربية التي كانت تقطن في

الجزيرة العربية كانت ذات طبيعة أمومية [1] وليست أبوية كما ذكرنا في الفصل الأول بالنسبة لسكان بلاد الرافدين أيام السومريين والبابليين. إلا أن صفة الأمومية لاتنطبق على المناطق الساحلية في اليمن والحجاز والبحرين وعمان، تلك المناطق التي كانت أقل رعوية من الداخل (داخل الجزيرة العربية)، وذلك بسبب نشوء المدن الزراعية فيها. إلا أن العمق الرعوي هو الذي كان يتحكم في الحركة التاريخية للعرب حيث لم تستطع أية مدينة أن تفرض نفسها على الرعاة الأشداء عبر منطقة هائلة الأتساع.

ويمكن ملاحظة بدايات التطور الحضاري لدى العرب الشماليين القيسيين في (مدائن صالح) [2] ولدى المناذرة والغساسنة في العراق والأنباط في الأردن وفي الشريط الساحلي الغربي الحضاري للحجاز، والذي تناثرت فيه المدن التعدينية حيث كانوا يصنعون السيوف والرماح وبعض الأدوات الزراعية البسيطة، إلى أن جاءت سيطرة مكة (مركز الجزيرة) تتويجاً سياسياً وأقتصادياً طويل الأمد. ومن خلال أنتعاش التجارة بين شمال وجنوب الجزيرة كما سنأتي عليه لاحقا

2. الفروع الأخرى من الاقتصاد (التجارة والحرف البسيطة):

لما كانت المدن في مشرق الجزيرة العربية وبلاد الرافدين قد تشكلت من القرية الزراعية التي كان المعبد ثم القصر هما شكلا التطور السياسي الديني المهيمن فيهما كما

---

(1) أمومية: المقصود بالأمومية هي أن تكون الأم مسؤولة عن نشأة الأطفال ويرجعون بالتسمية اليها نظراً لكثرة تنقل الأب وعدم مكوثه كثيراً مع بقية أفراد عائلته وتلك احدى سمات الحياة الرعوية الأولى في الجزيرة العربية قبل الإسلام بفترة طويلة.

(2) تقع مدائن صالح في محافظة العلا في المملكة العربية السعودية حالياً وهي شمال المدينة المنورة فيها أثار هائلة لمدينة متروكة، ويعتقد أنها كانت مزدهرة لغاية القرن الثاني قبل الميلاد ومنذ ذلك الحين أصبحت مهجورة ولايسكنها أحد وهناك آثار مماثلة في واحة الإحساء حيث لا تزال تحتفظ ببعض الأبنية الأثرية القديمة.

ورد في الفصل الأول، فإن الزراعة في المشرق الخصب قد ساعدت في تشكيل السلطة السياسية التي سيطرت على خريطة المدن والمجتمع أقتصادياً أيضاً، وذلك من خلال فائض الزراعة، ومن ثم الحرف والتجارة التي شكلت الحياة الاجتماعية والثقافية المختلفة فيهما.

ولكن الزراعة لاتمثل تشكيلة أقتصادية، أجتماعية متكاملة مثلها مثل الرعي والحرف، فهي مهن وعمليات أنتاجية وتوزيعية متعددة، على الرغم من أن الزراعة حرفة واسعة وتشكل المصدر الأساسي للأنتاج خاصة عند تواجد الأنهار الكبرى (مثل دجلة والفرات) والتي أنتجت أوسع الحقول الزراعية ودعت الدولة للهيمنة المطلقة عليها، بسبب الصعود السريع للأجهزة الاقتصادية والسياسية فخضعت الحرف والتجارة للتطورات الحاصلة في الزراعة، مستفيدة من فيضها بل ومؤثرة عليها، الا انهما خضعتا للتطور في النتيجة النهائية، فعلى طريقة توزيع الفائض الزراعي يتحدد التطور الحرفي والتجاري. فقد كانت الطبقة المسيطرة تتسلم الفائض الزراعي بصورة عينية نقدية، ثم تركزت الفوائض بشكل نقدي شبه كلي في تطور التاريط، حيث أصبح بالأمكان تحويل النقد إلى أي بضاعة أخرى.

أن التبادل السلعي بالنقد قد أحدث تطوراً تاريخياً مهماً، أذ تركزت الفوائض بشكل نقدي، وعبر تسليمه تكونت مؤسسات الدولة، والتي لاتعتبر بمثابة خزانة لتراكم أنتاج الفلاحين من الموارد الزراعية فحسب، بل لأستغلالها لأغراضها الخاصة وبحجة الدفاع العسكري عنها سواء أكانوا حقيقين أم ضمن الأوهام الدينية التي كانت سائدة من طرد للشياطين والعفاريت كما أسلفنا (أنظر الفصل الأول).

وبالتالي نجد أن التجارة والحرف البسيطة السائدة كانت تلعب دوراً مستقلاً في تطور الأقتصاد، فهما مترابطان بفائض الزراعة التي تتحكم بها الخزينة الملكية، والتي تغدو مشروعاتها الاقتصادية والاجتماعية رهناً ذاتياً للحكم المطلق، ويتم التحكم بها

وفقـاً لرغباتهـا وأفكارهـا وقوانينهـا... الخ. وهكـذا تصبـح الزراعـة التابعـة للطبيعـة بالدرجة الأساس ذات طبيعة شبه مطلقة تهيمن على الحرف والتجارة مـن خـلال تحكـم الأسرة الحاكمة أو القصر مما يلحق هاتـان المهنتـان إلى التبعيـة للطبيعـة وأقـدارها أيضـاً وبالتالي وكأن كل شئ يتعلق بالحاكم المطلق، الذي هو نائب الأله الحامي.

أن شكل الأدارة للمجتمع الزراعي البدائي في ذلك العصـر كانـت تتركـز علـى ذاتيـة الحكم ولاتنفصل مطلقاً عن طبقته، وهي أيضاً مـرتبطـة في مـراحـل تطـور تلـك الذاتيـة وصراعاتها، كما أنها تلعب دوراً حاسماً في تطـور تلـك المملكـة أو الأمبراطوريـة، فمـثلاً إذا كان الحاكم قد توحد بالأله وغدا جزءاً منه أو أمتداداً اسـريا أو تجسيداً نورانيـاً لـه، فـإن ذلـك سـوف ينـتـج عنـه سـيطرة شـاملة للحـاكم علـى المدينـة والرعيـة، وبالتـالي المملكـة والأمبراطورية وهكذا كانت أدارة الحياة الاقتصادية متماشية مـع نمـط وأسلوب التطـور في تلك المرحلة التاريخية. أن الحاق التجارة بالقصر كانت قد فقدت قدرتها علـى تفكيـك الملكيـة الزراعيـة العامـة الشـاملة، فـرأس المـال الكـبير لاينمـو الا عـبر الأربـاح المتراكمـة والناجمة عن التجارة بالمواد المهمة والثمينـة الـتي يسـتخدمها القصـر، ومـن ثـم القصـور الملكية المتعددة والبذخ للطبقة الحاكمة كلها من الحاشية المحيطة بالملـك والكهنـة (رجـال الدين في ذلك الوقت) وكبار التجار... الخ.

ولهذا فإن رأس المال لايتعامل علمياً بالحرف وأدواتها وآلاتها، الا إذا كانت مـؤثـرة في أنشاء قصر أو عمل مركز رصد للحاكم أو قبر يخلد فيه أسمه، كما حصل في بناء الأهرام في مصر وبناء الزقورات و المعابد في بلاد الرافدين... الخ. مـن هنـا أصبحت العلوم والمعـارف الإنسانية عبارة عن مجموعة متضائلة من المعارف المفككة غير المترابطـة بعضـها بـبعض، وتفتقـر إلى المنهجيـة العلميـة الـتي تـساعد علـى غربلـة المعلومـات وتنميتهـا للوصـول إلى مراحل متقدمة من شأنها أن تحدث طفرة في حياة ذلك المجتمع.

وهكذا ظلت الحياة مقصورة على النحو المذكور ثم ضعفت وأضمحلت شيئاً فشيئاً وأندثرت تحت التراب والأنقاض ونشأت فوقها أجيال أخرى إلى أن وصلت اليها بعثات الأستكشاف الحديثة لتنقب عنها وتعرف عنها الجزء اليسر الذي نحن بصدده.

3. نمو الرعي في الجزيرة العربية وأثره في الحالة الاجتماعية والاقتصادية:

لقد كان الرعي أساس تشكيل الفائض الأقتصادي في المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية كما كانت الزراعة تشكل فائضاً أقتصادياً أساسياً في المناطق الحضرية منها وعلى حافات الأنهار والواحات البسيطة في شمال الجزيرة كما أسلفنا.

وعلى الرغم من أن الفوائض بالنسبة للرعي قليلة ومحدودة، ألا أنها تظهر وتتدفق على المدن والأسواق. فالرعي لن يكون سوى ملحق أخير بأقتصاد المدينة حيث يسيطر الحاكم المطلق، ويقوم بتبادل السلع التي ينتجها من قطعانه مستبدلاً بها سلع ضرورية كالمواد الغذائية والملبوسات والأسلحة. ولم تكن لتلعب دوراً الا في المدن الصحراوية والقرى التي تمد الرعاة بالوسائل التي تجعلها تستطيع التغلغل أكثر فأكثر داخل الصحراء بدون عناء أو كلل، وخاصة رعاة الأبل الذين يتم تعيين طرقهم بواسطة الأنتشار الواسع في الصحراء وتنمو القبائل الأشد فقراً وتوحشاً كنتيجة لذلك الأنتشار.

أن هؤلاء الرعاة ذوي التجمعات الأكثر تضاداً مع بذخ المدينة ومراكزها الكبيرة قد ازدادت احتياجاتهم للأبناء من الرجال خاصة بعد أتساع قبائلهم وانتشارها في مساحات شاسعة، إلا أن ذلك أدى بالنتيجة إلى أشتداد الفقر والحاجة في مستوياتهم التحتية، في حين انفصل رؤساء القبائل والعشائر عن البقية الباقية من الأبناء الجدد بعد حين من الزمن ليكونوا طبقة ارستوقراطية خاصة تشكل مصدراً آخر لأستغلال الرعاة. ولكي يستطيع هؤلاء الزعماء أن يحولوا القبائل إلى شرطة سياسية وعسكرية للدويلات

الصغيرة المتآلفة على هيئة عدد محدد من القبائل أو حتى جزء من قبيلة أنفصلت عن القبيلة الأم لظروف ما.

وقد تم بذلك تشكيل خفر لقوافل التجارة كحراس القوافل التجارية عبر الصحراء وقد يتحولون هؤلاء الحراس أنفسهم إلى لصوص وقطاع طرق، فيشنون الغارات على القبائل الأخرى أو المدن العامرة في الثراء. وهكذا نشأت على مر السنين عادة السلب والنهب عند العرب القدماء خاصة منهم الرعاة في الصحراء، وأصبحت جزءاً من كيانهم الأقتصادي والأجتماعي وتوارثته الأجيال وترسخت في العقول، وأصبح جزءاً من البطولة والفروسية التي يفتخر بها بعض افراد تلك القبائل، وكان واضحاً في أقوالهم وأشعارهم في عصر الجاهلية حتى أنها أصبحت تأخذ أسماء أخرى مقبولة بعض الشيء كالحصول على الغنائم في الحرب أو الغزو، وأصبحت مهنة لبعض القبائل التي لاتجيد أي مهنة أخرى سوى السلب والنهب وأصبح بذلك معروفاً عن تلك القبائل بأن كيانها ووجودها وتخصصها معروف ومقرون بتلك المهنة.

ولاينفرد في ذلك بعض العرب في الجزيرة لوحدهم في مثل هذا السلوك فإن جميع سكان الصحاري في العالم يمتهنون تلك المهن ويتصفون بنفس الصفات تشتد وتخف حسب شحة الموارد الطبيعية وقساوة المحيط، ففي الصحراء المنغولية مثلاً تكون الظروف المناخية أكثر شدة من حيث البرد مما تنعكس على سلوك القاطنين هناك بنفس القدر من القسوة والقهر ويكونون أكثر شدة في القتال وأكثر تحمساً للسلب والنهب[1].

أن الطبيعة الصحراوية في كل بقاع العالم سواء أكانت في الصحراء العربية أو في أواسط آسيا أو في أمريكا الشمالية أو أستراليا وفي شتى أنحاء العالم، تفرض عليهم نفس

---

(1) د.علي الوردي (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) بغداد (1965) مطبعة العاني ص 83.

الطبيعة البدوية نظراً لشحة الموارد الطبيعية. ولا بد من الإشارةهنا إلى الأختلاف في طبيعة المناخ غير الصحراوي في المناطق الأوربية حيث أن كثرة هطول الأمطار وتوزيع الثروة على أساس توزيع الأمطار بالتساوي قد نشأ عنها تطورَ تاريخي مختلف تماماً عن المناطق الصحراوية. ومن الأنصاف الإشارةهنا أيضا إلى أن السلب والنهب الذي أصبح جزءاً من سلوك أجتماعي للعربي أتصف في الوقت نفسه بالكرم والجود لما يبذله من سخاء وكرم عندما يأتي اليه الضيف المحتاج. وأصبح هناك هدف آخر للسلب والنهب لدى القوم وهو توزيع الغنائم على بقية أفراد القوم، وبالتالي يعود اليه بالفخر والأعتزاز لهذا العطاء السخي.

أن سهولة الحصول على الثروة تؤدي بالنتيجة إلى سهولة أعطاءها وصرفها في آن واحد. كما أن العربي أصبح يقدر أن مثل تلك المواقف قد تكون ديناً أو رصيداً لجهد بذله في يوم ما، قد يحتاجه في أيام أخرى تضمن له عطاءاً ومالاً أكبر. ومهما كانت عمليات التخلخل الأجتماعي داخلها، ومهما ظهر بها من صعاليك ومتمردين وقتلة ومهما أستغلهم رؤسائهم، فالوحدة القبلية أقرب للتكوين البيولوجي منها للتكوين الأجتماعي، فإن القبيلة التي تكونت وتحجمت في الصحراء وقاست وصمدت لقسوة تلك الصحراء المضنية، قد غدت بمثابة الرحم الطبيعي للفرد في الجزيرة العربية. أن الحياة الاجتماعية في جميع أطوارها وأشكالها لابد أن يتوازن فيها جانب التعاون وجانب التنازع فألى جانب السلب والنهب هناك عطاء وكرم من أجل استمرار الحياة في الصحراء القاسية. أن القبائل العربية من خلال هذه الوحدة الصخرية أصبحت قوة أجتماعية منظمة في مواجهة مدن مستغلة ومفككة أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة للقبائل المنتشرة في عمق الصحراء.

أن القبيلة تعتبر أشبه بوحدة عسكرية متنقلة قادرة على الترحال والصمود في أقسى الظروف المناخية والاقتصادية، وهي قوة موحدة قتالياً وجاهزة وتمتلك مواردها

وأستقلالها الروحي والمادي. وهي لهذا السبب أصبحت مؤثرة في مواجهة المدينة بما فيها من مصالح متباينة خاصة عندما تبدأ مؤسسات المدينة بالتفكك والضعف، وتصبح الأمور أكثر خطورة عندما تتآلف القبائل وتتحد لتكون قبيلة كبرى. لذا أصبحت القبيلة الكبرى هذه هي الوحدة الاجتماعية الكبرى للعديد من القبائل المتحالفة مع بعضها البعض.

وهذه القبائل تضم في تكوينها الداخلي العشائر المتحالفة ايضاً، وتكون تلك العشائر في كثير من الأحيان متحالفة ومتقاربة في الأسر، من حيث الحسب والنسب والمصالح الاقتصادية التي تربطها بعضها ببعض. وهكذا هو التنظيم الأجتماعي والأقتصادي الذي أستدام فترة طويله من الزمن في شبه الجزيرة العربية والى يومنا هذا، دون أن يمسه خلل أو تغيير جذري يمسح منه الطابع المتميز بل وأكثر من ذلك فقد ترك لنا مواريث في العقول أثرت كثيراً في سلوك وعادات وطرق تفكير غير منسجمة مع تطور العصر، بعد أن تغير كل شيء وأصبحت الحياة الصناعية الحضارية مزدهرة في العالم الآخر (العالم الغربي على وجه الخصوص).

ولا بد لنا هنا أن نذكر ما قاله المؤرخ فليب حتى[1]: (أن الغزو ينفع البدو في حياتهم الصحراوية اذ أن القتال الذي يجري يقلل من عدد الأفواة الآكلة. وأن سكان البادية هم في حياتهم الأعتيادية على حافة مجاعة دائمة لمحدودية المياه والموارد الأخرى ولهذا صارت نزعة القتال عندهم كأنها حالة ذهنية مزمنة. أن القتال في البادية هو بمثابة صمام الأمان يمنع سكانها من التكاثر فوق الحد المكافيء لمواردهم الشحيحة. فما دام سكان البادية بوجه عام لايستطيعون تكثير تلك الموارد فيها بطرق الأستصلاح وأستخدام الطرق الحديثة في زيادة الثروة كما هو معمول في عصرنا الحديث فالطريق المفتوح أمامهم أذن هو أن يقللوا من العائشين عليها).

---

(1) Philiph Hitti (History Of The Arabs) (P. 280 _ 281).

وهذا يحدث عادة في معارك الغزو حيث يسقط القتلى فيها بين حين وآخر. لذا فإن هذه الظاهرة تدخل ضمن أطار التوزيع الطبيعي للكائنات، وهي تنطبق أيضاً على جميع الكائنات الحية، فمثلاً أن البُرك المائية التي تكثر فيها التماسيح عندما يزداد عدد تلك التماسيح بالتكاثر غريزياً وأن عدد الأسماك التي تتغذى عليها تبدء بالتناقص، تجد أن كبار التماسيح الأقوياء تخرج إلى اليابسة وتتقاتل مع بعضها البعض لكي يقل العدد ويستمر الجنس (التماسيح) بالبقاء على قيد الحياة ضمن تلك الظروف الصعبة، لأن التزايد المفرط وغير المتوازن مع كمية الغذاء اللازم للبقاء يصبح مشكلة تهدد بأندثار تلك الكائنات، فبدلاً من حصول الهلاك المحتم لكل المجموعة بسبب نقص الغذاء يصبح القتال أداة للأنتقاء والبقاء [1]، وفي الجانب الآخر فإن البدو الرحل يحتقرون المهن وكل من يكسب رزقه بعرق جبينه فهم يحتقرون الحائك والحداد والصانع والصقال والدباغ والحلاق وغير ذلك [2]. يقول الأستاذ حافظ وهبه بهذا الخصوص مايلي (أن البدو إذا أرادوا تحقير أنسان وسَبهُ بكلمة تكون مجمع السباب أن قالوا له ياأبن الصانع)[3] بينما يقول السيد عبد الجبار الراوي (أن الغزو محمدةٌ عند البدو وتمجيد ولاذم فيه ولانقيصة، وهو يختلف أذن عن الخطف والأبتزاز والسرقة. وكثيراً مايتطوع الرجل القوي للغزو، ويلقي بنفسه في المهالك، ويبذل من ماله وشباب قومه أضعاف مايربح من الغزو. وذلك لكي يفوز بالسمعة الحسنة في أندية القوم حيث سيتغنى بمديحه الشعراء ويلهج بذكره الناس)[4].

---

(1) برنامج تلفزيوني في محطة (BBc) بعنوان (الصراع من أجل البقاء) 2004.

(2) علي الوردي (المصدر السابق) 158.

(3) حافظ وهبه (جزيرة العرب في القرن العشرين) 132 م/ القاهرة (1964) علي الوردي المصدر السابق 62.

(4) عبد الجبار الراوي (البادية) 242 علي الوردي (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) 63.

وهكذا نجد أن البدو الرحل الذين يعتمدون على الرعي والقتال من أجل السلب والنهب بعضهم لبعض من القبائل والمدن المنتشرة في مسافات متباعدة في المناطق الصحراوية من الجزيرة، هي السائدة على الزراعة والحرف الصناعية البسيطة جداً بالأضافة إلى التجارة في الآونة الأخيرة بين تلك المناطق المتباعدة، والحاكمة في شكل وهيكل التنظيم الأداري والسياسي وعلى نمط الحياة الاجتماعية والعلاقات بين القبائل خلال تلك الفترة من الزمن. بالأضافة إلى بروز التجارة مع العالم الخارجي، فقد أمتدت التجارة التي كان مركزها مكة إلى الدولة الرومانية والبيزنطية شمالاً و إلى الهند شرقاً. وكانت واحدة من أهم أسباب بروز دور مكة، ومن فيها من قبائل أشهرها قبيلة قريش تأخذ مركزاً ومكانةً قيادية مرموقة بين أطراف الجزيرة المترامية كافة من خلال ممارستها مهنة التجارة.

4. تطور الوعي الديني عند ظهور الرعاة على مسرح التاريخ العربي:

لعل واحدة من أهم المواضيع التي نتناولها بشأن المواريث التاريخية المؤثرة على حياتنا في الوقت الحاضر هو تطور الوعي الديني في المنطقة، لما لهذا التطور من أهمية بالغة في رسم معالم الحياة والحضارة وسير الأحداث التاريخية منذ أقدم العصور ولحد الآن.

لقد تباينت التطورات الدينية بين القسمين الحضاريين في الجزيرة العربية الأول: القسم الزراعي المتمثل في شمال الجزيرة العربية (بلاد النهرين/دجلة والفرات وبلاد الشام وفلسطين) والقسم الثاني الرعوي المتمثل في وسط وجنوب الجزيرة العربية (عدا اليمن). وكما أنقسمت الجزيرة إلى قسمين أقتصاديين في كلا الجانبين، ألا أنهما لم يكونا متضادين بشكل مطلق، فالجانب الرعوي والذي تمكن من التحول إلى قرى ومدن صغيرة، وبالتالي يتمدن ويتحضر ويتأثر بما تنتجه المدن المستقرة من معطيات مادية وروحية، ولكن تبقى هناك تباينات واسعة قائمة مع كل ذلك التحضر والتمدن.

فعلى سبيل المثال نجد أن أقوام الهكسوس في احتلالهم لمصر قديماً كانوا من بين ما يعبدون الإله الشيطاني فيها (اله الواحد المدعو ست ولعلها مشتقة من سيت (شيت) اله الشر المصري والتي اشتقت منها كلمة شيطان) متوجهين إلى مايشبه التوحيد الديني الخاص بهم (إله الخير). ورافضين شبكةالآلهة المصرية المعبرة عن حشود العالم الزراعي المسالم. وهكذا تميز ملوك الرعاة في ذلك الزمان عن غيرهم من المزارعين في المعتقد الديني، وبدأت بوادر التوحيد تتبلور وتأخذ حيزاً ضمن المعتقدات الدينية السائدة في ذلك الحين، والتي كانت معتمدة على تعددالآلهة. فقد كانت هناك العديد من الأقوام المتمسكة في عبادتها للأوثان، بأعتبارها واسطة للوصول إلى الخالق الأعلى، وكان قسم منهم يعبدون الشمس والقمر والكواكب والنجوم أو أن يجعلون منها رموزاً مرئية يتشبثون في التمسك بها من أجل حمايتهم من الأخطار المحيطة بهم، ومن الشياطين غير المنظورة. ومنذ ذلك الحين بدء الإنسان بالتفكير بالفلسفة لتفسير ما يدور حوله من ظروف وأحداث كونية وطبيعية بدلاً من الأعتماد على السحر والأساطير التي ترسمها له الكهنة.

وقد تطور العقل البشري لمرحلة متميزة بحيث أصبح هناك مساحة في الدماغ قادرة لتفسير مايدور حوله بتعمق وبأفق أوسع بمرور الزمن ومن خلال الأحتكاك بالأقوام الأخرى المحيطة بهم. يقول الكاتب المصري المشهور سلامة موسى في كتابه عن (نظرية التطور وأصل الإنسان (بهذا الخصوص مايلي) (أن خروج الإنسان من الوثنية إلى التوحيد نشأ عند الأمم التي لاتحسن صناعة البناء والتماثيل والأصنام، ولذلك ظهر بين الأمم البدوية التي تعيش في الخيام مثل الهكسوس والإسرائيلين والعرب. والأغلب أن الهكسوس هم أول من آمن بأله واحد يجدونه في كل مكان يدخلون اليه ولايحتاجون إلى تمثيله في صنم يرهقهم حمله ونقله. أما الأمم المتحضرة فكانت تجيد صناعة الأصنام، وتنحتها من المرمر فتخلب أفئدة المتعبدين وكانت لها هياكل ثابتة عليها كهنة ولها

أوقاف. فكان من الصعب جداً أن تروج بينها فكرة التوحيد)[1] وفي الحقيقة فإن أول ظهور للتوحيد في المنطقة هو التوحيد الأخناتوني ذلك الفرعون والفيلسوف المصري (أخناتون) الذي يعتبر من أوائل الموحدين في التاريط، وكان ذلك تعبيراً صادقاً عن حلم هؤلاء الرعاة المشردين، ولكي يمكنهم من تأسيس دولة خاصة بهم ترعى شؤونهم السياسية وتحميهم من المخاطر، وقد ظهر بعدها توحيد العبريين في منطقة فلسطين الكبرى، لدى بني إسرائيل الذين كانوا يمتهنون الرعي في بادئ الأمر، وقد انتشروا داخل الجزيرة العربية برمتها.

ولكن كل تلك الأفكار التوحيدية لم تكن بدرجة النضج التي نعرفها الآن من أن الله واحد أحد خالق كل شيئ، بل كان التوحيد مقتصراً على أن الآله الواحد خالق ذلك القوم لوحدهم دون غيرهم، وهو المسئول عن حمايتهم دون غيره من الآلهة. وقد جرى التوحيد المطلق المعروف لدى الأديان السماوية عبر فترة زمنية طويلة أتخذ خلالها جملة من مراحل التطور في الفرضيات والاستنتاح. وقد كانت الأفكار التوحيدية في بادئ الأمر تهدف من ورائها غايات سياسية معينة. فالقبائل اليهودية (العبرية) كانت تعتبر من الأمم الرعوية لادخل لها بالزراعة، ومن هنا نجد الأمثلة الملموسة في تضاد الأمم الرعوية مع الأمم الزراعية. فالقبائل اليهودية عبر توحيدها كانت تحاول أولاً: أن تشكل سلطة سياسية وفكرية داخلها، وعبر التفافها حول اله واحد والذي كان يدعى بالألة (يهوه)[2]. وثانياً: تريد أن تستقل لوحدها في كيان خاص لايخضع لسيطرة الدول المجاورة الذين

---

(1) سلامة موسى (نظرية التطور وأصل الإنسان) نشر الياس انطون الياس المطبعة العصرية ــ مصر 228.

(2) عبد الله خليفة (الاتجاهات المثالية في الفلسفة الإسلامية) دار المدى للثقافة والنشر، دمشق (2004).

كانوا في خصام دائم معها كالكنعانيين الذين كانوا يقطنون بلاد الشام والآشوريين والبابليين الذين أسسوا امبراطوريات ضخمة في بلاد الرافدين من جهة الشرق، بينما المصريون أيام الأمبراطوريات الفرعونية كانوا يحدونهم من الجنوب الغربي، وكانت منطقة فلسطين تعتبر منطقة صراع دائم بين كلتا الأمبراطوريتين المذكورتين وموضعاً مستهدفاً لهما. وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا بعد من التخلص من عبادتهم للآله أيل (اله الكنعانيين) وبعل (اله الفينيقين) خاصة، وأن الفينيقيين الذين كانوا يعيشون على أمتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط كانوا يتفننون ويجيدون نحت الآلهة على الصخور والمرمر بدقة متناهية، تبهر العقول لازال قسم منها في المتاحف الأوربية الشهيرة. بينما كانت آلهة بلاد الرافدين المتعالية والتي كانت مسئولة عن الخصب والهيمنة على الموارد الزراعية والتحكم في توزيع مواردها (كما أسلفنا في الفصل الأول) لاتتعدى أحجاراً بسيطة منحوتة بأشكال غير دقيقة.

إن آله اليهود الجديد (يهوه) كان اله المدينة التي لم تتشكل بعد، أي اله الرعاة الحالمين بتشكيل دولة من نوع مثالي يصعب تحقيقة في ذلك العصر. وحين قام الأله بذلك عبر تشكيل الدولة ومؤسساتها، نجد أن التوراة (أو التلمودآنذاك) كان يشكو دائماً في بداية الأمر من ملوك إسرائيل الذين لم ينفصلوا كلياً عن أيل، وتقاليد الشرق الأدنى ذات الطابع التعددي في الآلهة، وبالتالي نستطيع القول بأن الأله الرعوي قد عاد إلى منطقة أيل أيضاً[1]. وذلك يعود إلى منطقة فلسطين التي كانت تتصف بالخصب الزراعي بعد أن كانت معتمدة على الرعي. لقد ظهر التناقض في المعتقد عندما أزدادت ممارسة

---

(1) الكتاب المقدر (العهد القديم والعهد الجديد) إصدار دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط بيروت، لبنان (1995) ص 333.

الزراعة لدى العبريين (اليهود) وأبتعدوا نسبياً عن الرعي. أن ظهور اليهود من جهة الشمال والعرب من الجنوب على مسرح التاريط في منطقة الجزيرة العربية كان أحد المؤشرات على صعود وسيطرة الرعوية القبلية. وقد سيطرت الحياة الرعوية في الشمال والجنوب على كل المناطق الزراعية والصحراوية على حد سواء. صحيح أن الرعاة كانوا في البداية يظهرون قوتهم عند حصول هجمات كاسحة ضمن مناطق مختلفة من الجزيرة، كما حصل من قبل الهكسوس والقيسيين العرب على المناطق الزراعية، وذلك لحاجة الرعاة إلى تلك المناطق لاستغلالها للرعي أو الإستقرار.

فقد أورد العديد من المؤرخين والباحثين في مؤلفاتهم عن العرب واليهود، أن هؤلاء كانوا من أوائل الرعاة، ونجد أنهم لأول مرة أستطاعوا أن يشكلوا جسماً أجتماعياً وسياسياً مستقلاً أنبثق داخل هذا التكوين في جميع مفرداتة الثقافية عبر فترة زمنية طويلة، ولابد من الإشارةهنا إلى أن القبائل اليهودية تمكنت من تكوين دولتين مستقلتين بعد ذلك بعدة قرون. إلا أن تلك الدولتين (المقصود: دولة الشمال والجنوب اليهوديتان المعروفتان في منطقة فلسطين الكبرى في التاريط القديم)، كانتا لا تفلحان في الصمود على مسرح الصراع في المنطقة، بسبب وقوعهما بين دولتين كبيرتين وقويتين أيضاً كما أسلفنا. (دولة بلاد الرافدين شمالاً ودولة الفراعنة المصريين جنوباً) ونعود هنا لنجد أن الأله الرعوي الذي يتحول إلى اله بيد الدولة من دون أن يستطيع الأفلات من التقاليد السائدة في المنطقة ككل آنذاك. وأنطلاقاً من مبدأ ينص على أن كل كيان سياسي لدولة، لابد له من فكر ومعتقد وفلسفة ثابتة يستطيع من خلالهما فرض وتسير أمورها وتثبيت وجودها في عقول الناس وعقول الأقوام المجاورة، ويستطيع أن يدوم لفترة تتناسب وصحة تلك الأفكار مع الظروف المحيطة بها، وضمن المرحلة التاريخية من تطور العقل البشري، من خلال مامتوفر من معطيات علمية تم التوصل اليها في ذلك الحين. وكما أوضحنا أيضاً في الفصل الأول، كيف أنبثقت الدولة بمؤسساتها وكيف تم بناء المدينة

في المنطقة الزراعية عبر نماذج مدن بلاد الرافدين أيام السومريين والكلدانيين وغيرهم، وفي منطقة بلاد الشام ايضاً حيث كانت تلك المدن متمثلة في وحدة صراع مستمرة بين الأله المتعالي الذكوري المسيطر، وبين بقيةالآلهة الذكورية والأنوثية الأقل تعاليا وسيطرة لدى الكنعانيين (حسب أعتقاد القوم في ذلك الزمان). فإن هذه الوحدة كان يشدها قطبا الدولة المسيطرة المتعالية، وأقتصاد زراعي بتقاليده الأسطورية التي تمنع الأنفكاك بين القطبين المتنازعين. ولذلك فإن اله (أشور) وهو رمز لآله الشمس لدى الآشوريين في الشمال، كان لاينفصل عن الأله تموز في الجنوب لدى البابليين.

وهكذا بالنسبة لبلاد الشام فإن الاله (آيل) (الكنعانيين) لايلغي الاله (بعل) (الفينيقيين) كما أن الأله رع لايلغي الاله أوزوريس (لدى المصريين).

بينما كان الإله (يهوه) (اليهود القدماء) يحاول أن يلغي وجود آيل وبعل على أعتبار أن الأله يهوه ينتمي للرعاة، بينما تنتمي بقيةالآلهة إلى الخصب والزراعة. وهكذا كان هناك صراع وتصادم بتواجد تلك الآلهة مع بعضها، وبشكل خاص فإن كراهية الألة بعل (الفينيقيون) كانت أشد لكونها تتجسد في التقاليد والطقوس الفلاحية الصرفة، حيث أن الأله (بعل) يتصف بسعيه من خلال ذيله الطويل أن يعوض عن الأستعباد والدونية من دون أن يمتلك القدرات البشرية والمادية الكافية في تلك المرحلة التاريخية، بالمقارنة مع ماكان عليه الحال لدى الأقوام الرعوية. لذلك تميزت تلك الفترة من تاريط الديانة اليهودية بظهور سلسلة من الأنبياء والذين جاءوا بعدد من المعجزات التي ساهمت بدحر تعددالآلهة ودعم أفكار الأله (يهوه). إلا أن ذلك كان محصوراً في منطقة محددة بينما كانت الأفكار الوثنية الأخرى السائدة في منطقة بلاد الرافدين أكثر قوة من الناحية الفنية، ولذلك فقد تم أعتبار الأسر البابلي (السبي البابلي الأول) لليهود أن المعتقدات الدينية (والتي تعتبر بعيدة عن التوحيد) كانت سبباً للكوارث والنكبات التي حلت عليهم بسبب عدم تمسكهم بخدمة آلهتهم بالشكل المطلوب، دون أن يخطر ببالهم أن

وقوعهم على طريق مرور الأمبراطوريات العملاقة في ذلك الحين (البابلية والمصرية)، ومحاولتهم التمييز والتفرد الألهي ضمن قدراتهم البشرية القليلة والمحدودة، (كان عدد اليهود من بني إسرائيل قليلاً في ذلك الوقت مقارنة مع بقية الأقوام في المنطقة) كان السبب وراء كل تلك الكوارث المتلاحقة عليهم. لقد كانوا دائماً عرضة للعديد من الهجمات المتلاحقة من قبل الأمبراطوريتين البابلية والآشورية والتي كانت تتكرر لفترات زمنية متتالية بدون أنقطاع.

وهكذا نجد أن فكرة التوحيد التي نشأت بادئ الأمر لدى الأقوام الرعوية والتي لاقت مقاومة شديدة من قبل الأقوام الزراعية المستقرة في المدن والثابتة قد أخذت فترة طويلة من الزمن في بلورة وترسيط الأفكار الأكثر تطوراً وملائمةً للعصر ليس فقط في منطقة الشرق الأدنى بل في مناطق مختلفة من العالم ضمن فترات تاريخية متقاربة مما يدل على أن نمو العقل البشري كان يسير بوتيرة واحدة في كل أرجاء العالم.

ففي الوقت الذي كانت تنمو وتتبلور الأفكار التجريدية عن الأله الواحد في الجزيرة العربية عن طريق الرعاة، الذين يتجولون في الصحراء ويعيشون في الخيام ولايوجد لديهم طموح في الأستقرار في مكان واحد، وتطوير ذلك المكان وبناءه والوصول بالحضارة إلى الأزدهار والتقدم بشكل منسجم مع العصر. كانت هناك شعوب وأقوام مجاورة في الشرق قد توصلت إلى وضع يتسم بالأستقرار ويشجع على نمو الأفكار الفلسفية المتطورة في أمور المعتقدات الدينية والجوانب التشريعية المهمة في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومن بين تلك المعتقدات كانت هناك الزرادشتية التي ظهرت في المناطق الشمالية من بلاد النهرين (الرافدين) وكذلك في منطقة أيران الشرقية منها والشمالية إلى الهند والصين، بينما ظهرت البوذية والكمفوشية في المناطق الأبعد منها. وكل تلك الأفكار كانت توحيدية بشكل أو بآخر وقبل ميلاد المسيح بمئات السنين رغم أنهم كانوا يقدسون النار ويقدسون أمورا أخرى لكنهم في النهاية يعبدون الله

رغم أعترافهم بأن التعاليم التي جاءت بها تلك الديانات ليست سماوية (أي لم تكن منزّلة بوحي من السماء حسب ادعائهم).

ولا مجال للتطويل في شرح كل تفاصيل تلك الديانات، إلا أننا سنأخذ الديانة اليهودية منها على سبيل المثال نظراً لكون تلك الديانة كانت واحدة من بين ثلاثة ديانات سماوية تعتبر من أشهر الديانات التي ظهرت في الشرق الأدنى، ولكي تكون الصورة واضحة عن كيفية تطور الديانات وعلاقتها بتطور المجتمع من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وعلاقتها بطبيعة الأرض والظروف المناخية للمنطقة. وماورثناه من طقوس وتعاليم وتشريعات متشابهه إلى يومنا هذا.

5. نشأة الديانة اليهودية القديمة في الجزيرة العربية :

كما أسلفنا فإن الأله الرعوي المحمل بعناصر القوة الرمزية من بني إسرائيل وهو يخرج من مصر على (يد النبي موسى عليه السلام)، وبتقاليد الزراعة المصرية داخل منطقة زراعية أخرى أكثر خصوبة من الأولى (فلسطين). لايستطيع الأنفكاك من شريط العالم الأخضر بتقاليده الطقوسية الأكثر تعبيراً عن نفسها في العزلة والعيش في الصحراء وأستثارة التقاليد الحربية حتى يقتحم الأرض (الموعودة). أن هذا المحرك الرعوي قد أنتج الآلهة شبه المجردة، (التفكير التجريدي — البعيد عن التفكير المادي الملموس) على الرغم من أن المرحلة الفكرية في ذلك العصر لم تكن قادرة على تجسيد الأله الا بشكل حسي[1] مما اضطرهم إلى إعطاء صفات للإله الواحد الأحد تشبه صفات البشر كي يتقبلها عامة الناس[2].

---

(1) عبد الله خليفة ــ المصدر السابق نفسه.

(2) ول ديورانت (قصة الحضارة) جزء (13) ترجمة جامعة الدول العربية، القاهرة (1964).

فالرعاة مثلهم مثل الفلاحين لا يستطيعون الوصول إلى التجريـدمرة واحـدة وفي فترة زمنية قصيرة، خاصة وأن الأله المجرد غير ممكن تشكيله في المرحلة الدينية الأولى في المشرق لأن العلاقة بين القائد السياسي (النبي أو الملك) والجمهور الأمـي تتطلب ترابطاً وثيقاً يتيح للقائد تحريك الجسم الرعـوي الـذي يـتم تدريبـه وتوجيهه داخـل المنطقـة الزراعية لغرض احتلالها والتسلط عليها، ولهذا السبب فإن تشكيل ورسـم الآلهـة المجـردة أمر غير ممكن وغير مفيد في بادئ الأمر. الا أنه لابد مـن وجـود أخـتلاف عـن آلهـة الأمـم المجاورة المعادية لهم، وبالتالي لا بد ان يكون هناك وجود لهذه الآلهـة ضـمن أمـلاء الفضـاء الفكري المتاح لكي يختلف عن كل الآلهة المجسدة والمنظورة. وفي هـذا الصـدد يقـول جـان بوتيرو في كتابـه عـن ولادة آلـه التـوراة[3] (لـيس الآلـه (يهـوه) هـو الألـه الوحيـد الحق في المطلق ولكنه الوحيد بالنسبة لبني إسرائيل كما كانوا يعتقدون. فهو الوحيد الـذي يهـتم به بنوإسرائيل من دون بقيةالآلهة الموجـودة، فهـم يعتـبرون أن الألـه (يهـوة) هـو الخـالق الوحيـد. وأن هـذا الألـه خلافـاً لكـل ماكـان متعـارف عليـه يجـب أن لايتصـوره أحـد وأن لايحاول أحد مـن أعطائـه شـكلاً معينـاً أو صـفة معينـة حتـى في مخيلتـه. وكـان ممنوعـاً لديهم أن يُعطى شكل العجل الذي كان معمولاً به قبـل ذلـك للألـه بعـل. ويكفـي فقـط أن نقول أنه موجود وأنه أله ويتوجب أجلالـه لـيس فقـط بتكـريس أوقـات معينـة حصـراً لذكره بل لخدمته أيضاً).

وخدمته قبل كل شيء تتطلب أحترام الأخرين من ناحية حياتهم وأموالهم وذلك يتطلب أيضاً أقامة العدل والأخوة مع الآخـرين ـ ولـو أن الآخـرين ليسوا سـوى بقيـة مـن إسرائيل ، فإن ذلك يـرضيه (أي يـرضي اله يهوه).

وبـذلك أرتبطـت بـني إسـرائيل بيهـوه وفـق المفهـوم العميـق والعـالي الـذي شـكل الأنبياء عن هذا الأله وعن العهد.

وكما يعتقد المؤرخون أن النبي موسى (ع) قد ظهر بحدود عام 1250 ق.م أيام الفرعون رمسيس الثاني فرعون مصر. وهكذا ظهر التجريد في المعتقد الديني في الجزيرة العربية، والتي كانت في بادئ الأمر تتأرجح بين التجريد (غير الملموس) والملموسية وذلك من خلال المهمات السياسية المطلوبة لنمط الأله المطلوب لدعم تلك المهمات والمستوى الفكري (تطور العقل البشري) لحملة تلك الأفكار والمدعوين لتنفيذ تلك المهمات.

أن هذه الانفصالية غير ممكنة للشعب العادي، واذ تحدث العملية شبه التجريدية للآلهة فهي لا تدوم طويلاً، سواء غاب النبي لفترة وجيزة أو أسس خلفاؤه مملكته عند غيابه[1] .

أن الرعاة أنفسهم مرتبطون بالتقاليد الزراعية الأقوى حضوراً، فمتى ماأتجهوا نحو الأرض لزراعتها، يجدون أنفسهم أنهم بحاجة إلى المحصول الوفير الذي كان مرتبطاً حسب معتقداتهم القديمة بالألهة الملموسة، ومدى خدمتهم وأدائهم لواجباتهم أتجاهها، وفي آن واحد فإن الرعاة مرتبطون أيضاً بالفضاء الفكري للمنطقة، والمتسم بالتجسيم المادي للآلهة والتجسيم ليس سوى تعدديةالآلهة التي تعكس تعدد مستويات السلطات في العالم القديم المفكك أقتصادياً، سواء على مستوى المدن أم على مستوى القبائل والعشائر والأسر المنتشرة في المنطقة العربية في ذلك الحين.

وكانت معتقداتهم أن كل هذه الآلهة تخلق آلهة مضادة وهي الشياطين والعفاريت، فإن وجود الأبيض لابد من أن يقابله وجود أسود شرير، وقد نشأت الدولة المستبدة في هذه المنطقة عبر تجاوز هذه التقسيمات وعبر السيطرة عليها. فإذا كان الأله يهيمن بشكل علوي ويترك شبكةالآلهة الأقل أو السلطات المحلية المختلفة تعمل وتستقل ذاتياً،

---

(1) جان بوتيرو (المصدر السابق) 75.

فإن ذلك يمهد ويتيح للوحدة والتعددية والأختلافات والصراعات بين الآلهة، وهذا يشكل أمكانية تبرير الصدامات والتباينات في العالم الأرضي الذي هو حسب الوعي السائد في ذلك الوقت لايمتلك أمكانية تشكيل مصائره بنفسه، وأنما يعتمد على القدر الألهي وعلى خرق هذا القدر عبر مساعدة آلهة أخرى. فيمكن رد مختلف تباينات الوضع الإنساني إلى وجود اختلافات علوية ما بين الآلهة نفسها [1]. وهكذا كانت تدور الأفكار التجريدية في المجتمع الرعوي، وكما ذكرنا في الفصل الأول عن الواح القدر التي كانت تكتب وتقدم في بدء موسم أحتفالات الربيع (إحتفالات الخصب) في بابل كل عام معبرةً عن مقادير الأنتاج الزراعي الذي يقدمه الناس (الفلاحين) والذي يحدد مصائر الناس لسنة كاملة غير قابلة للنقص، وقد يتخلل في هذا اللوح طوفان أو هجوم أجنبي أو خير عميم.

وفي الواقع فإن الأقدار لاتعرف الا بعد حصولها لتكتب لاحقاً، ولكن هذه الطريقة توضح الحالات التجسيمية التعددية للوعي الديني. ومع صعود الأله الواحد المسيطر بشكل مطلق على الوجود تدريجياً أم دفعة واحدة، فإن هذه الأمكانية للصراع والتباين الآلهي البشري تزول أيضاً، حيث يصبح الوجود من صنع اله واحد، وبالتالي فلا يوجد تباين بين البشر من حيث نسبة المحصول الزراعي، إلا أن ذلك التفكير قد واجهآنذاك خللاً كبيراً في تفسير كيف أن الأله الواحد يمكن أن يخلق الخير والشر في آن واحد. ولكن الإيمان بالقضاء والقدر ظل راسخاً لديهم وكان سبباً في تأطير أفكارهم وعدم قدرتهم على تطوير حياتهم المستقبلية[2].

وهكذا تولدت فرق وعدد من الفلسفات التي كان قسم منها يفضل اله الخير عن اله الشر أو أعداء اله الخير من الشياطين والعفاريت. لقد شجعت الضرورات السياسية

---

(1) عبد الله خليفة ـ المصدر السابق.

(2) ول ديورانت (قصة الحضارة) ج (14) ترجمة محمد بدران، جامعة الدول العربية، القاهرة.

فرض تلك الفلسفات، ففي مصر في عهد أخناتون حيث أراد أن يُجهز على سلطة الكهنوت ويمركز السلطة في يديه، مما دعته إلى تعميم عبادة الأله آمون، مثلما قادت الضرورة القبائل اليهودية إلى عبادة اله واحد مخصص لها. لم يكن ليصبح الأله الكوني الوحيد في بادئ الأمر بل كان اله بني إسرائيل .

ولكن تفاقم الهزائم والكوارث الطبيعية التي حصلت عبر مئات السنين والتي هزمت مشروعهم السياسي، فوّجه اليها حاخامات الشعب اليهودي نحو الأله الواحد خالق ومسئول عن جميع مايحيط بهم وجسدوا هذا الأله الواحد تجسيداً مطلقاً لحلم زال. وهكذا فإن توجيه الأمور نحو وجود اله واحد لابد من أن يعيد النظر في الأرث الديني التعددي والتجسيمي السابق، ويزيل كل عوامل الصراع الألهي السياسي ويمركز السلطة في ذات واحدة وسلطة واحدة مطلقة، وهكذا ومنذ ذلك الحين بدأت تتبلور فكرة الأله الواحد، وتتجه نحو التجريد أكثر فأكثر نظراً لحاجات الشعوب للتمركز السياسي وتكوين دولة واحدة.

أن الحاجة تدفع لبروز وعي بالأله الواحد المجرد لتذويب الوحدات السياسية والاقتصادية المتباينة في بودقة واحدة ولتشكيل دولة موحدة قوية وتجميع السلطات في يدها. ولكن تجميع السلطات في لحظة تاريخية ما، لابد أن تقود في لحظة أخرى إلى تفكيك هذه السلطة المركزية. فتتراوح صورة الأله بين لحظتين متضادتين: التجريد الأقصى والوحدانية وبين التعددية والملموسية المباشرة. وقد عانى الفلاسفة الأقدمون الكثير في التوفيق بين هذين المتناقضين منذ أن بدأ الإنسان التمسك بالتفكير الفلسفي وترك السحر والشعوذة. ففي التجريد الأقصى تقع صورة الأله في العزلة عن الوجود المادي وأستحالة معرفة كيف تتم العلاقة بين المجرد الكلي والأشياء الملموسة، وفي التعددية والملموسية تقع صورة الأله في دائرة الأمتداد والحركة والتجسيم وبأختصار كيفية الربط بين الأشياء الملموسة وخلقها من قبل قوة خلقية غير ملموسة.

أن الرعاة وهم يريـدون تشـكيل دولـتهم لحـاجتهم الاقتصادية بـذلك مـن خـلال الحاجه للتوسع في الرقع الجغرافيـة للأسـتفادة مـن ذلـك في الرعـي في مسـاحة أوسـع، قـد أخـذوا يسـتعينون بفكـرة الألـه الواحـد تعـبيراً عـن الرغبـة في الدولـة الواحـدة، وحيـث يقتحمون البلاد الزراعية يريـدون الأحتفاظ بهـذه الوحدانيـة الـتي يـرفضها سـكان تلـك المناطق.

إن صورة الآلهة المطلق تظهر أذن ولاتزال في طور التجسيم ولم تتبلور بشكل مجرد بالكامل لكونهـا تمثـل تطـوراً في نمـو الأسـاطير السـائدة لحـد تلـك الفـترة الزمنيـة، والـتي لايمكن أن تكون من نتاج الفكر المجرد مـرة واحـدة، أن الأسـطورة العبريـة والـتي تشـكلت بناءاً على رغبة في تشكيل دولة واحدة، واله خاص بها انمـا تحتـك وتتصـارع مـع أسـاطير الأمـم المجـاورة (السـومرية والبابليـة) مـن جهـة والمصـرية مـن جهـة أخـرى. ثـم يقـوم مثقفوها بالأستفادة من الأرث الرافديني ووادي النيـل ليغنـوا بهـا صـورة آلهـتهم الفقـيرة روحياً، فمثلاً يأخذون مـن هـذا الأرث الرافـديني مسـألة الخلـق الأول لأبـي البشـر وقصـة الطوفان لنـوح وأيـوب وغيرهـا مـن القصـص الموجـودة في كتـاب ملحمـة الخليقـة البابليـة وملحمة كلكاش وغيرها من الكتـب المدونـة والعناصـر وهكـذا، وتلغـى تعدديـة الآلهـة بمـا يتفق مع مركزية السلطة ووحدانيـة الآلـه ثـم يعـودوا بهـذا الأرث إلى فلسطين ليبـدءوا بشكل جديد ضمن أسفارهم [1] * المذكورة في التوراة القديم الأول (التلمود).

لقـد كـان اليهـود مـن بـني إسـرائيل سـاميين مـن جهـة ممـا سـهل لهـم الأمتـزاج بالكنعانيين، الذين كانوا يقطنون منطقة الشام قبلهم، والذين وجدوا أن لديهم العناصر

---

(1) * الأسفار المتكاملة بما فيها من تسلسل وأحكام وتفاصيل كما جاءت في الكتب المقدسة القديمة كذلك انظر طه باقر (ملحمة كلكاش وقصص أخرى) دار الشؤون الثقافية العامة ـــ بغداد (2002) يقارن فيها خبر الطوفان في التوراة مع الملحمة، الملحق السادس (ص 246).

المرغوبة لهم وهي بحالة الكمال نوعما، بينما كانت بذورها وبداياتها على حالتها البدائية لديهم فقد وجدوا كنزاً كبيراً من الطقوس والواجبات والأساليب المتبعة في العبادة والتحريم جاهزة ليكملوا عليها.

انهم أخذوا كل شئ من الكنعانيين والبابليين ماعدا تمسكهم الشديد بالأله يهوه وأيمانهم به وما تبع ذلك وبخاصة التحالف الذي قطعوه على أنفسهم كأساس لعلاقتهم مع الجيران. وهكذا تفاعل العنصران الروحي والوراثي من جهة والثقافي المكتسب حديثاً من جهة أخرى واللذان تفاعلا وأديا إلى تقدم بني إسرائيل في حياتهم الجديدة في فلسطين نوعما بالمقارنة مع حالتهم أيام كانوا في مصر الفراعنة. ومثال على ذلك فإن حلم التوحيد في منطقة المشرق العربي ونبذ الماضي المتشرذم والهيمنة الأجنبية التي كانوا عليها أيام كانوا في مصر وكذلك أستعادة آن وأيل ورع وغيرها من الآلهة المعروفة قد قدمت لهم شيئاً مشجعاً للبحث والتنقيب في أيجاد سبل ومعتقدات أخرى أكثر تطوراً، ويمكن أن يُثبت كيانهم أكثر. ففي بعض الحالات كان العاملان متجانسان وتوافقا بالواقع وبدون أشكال فأغنى كل منهم الاخر، فمثلاً في مجال قواعد التصرف الجماعي والتشريع كانت الالتزامات الاجتماعية التي يعترف بها بنو إسرائيل بوصفهم حلفاء (يهوه) تتلخص بشروط العهد أي بعض القواعد الواردة في الوصايا العشر (التي جاء بها النبي موسى عليه السلام) وهي في الواقع عبارة عن مواقف تجاه الاشياء أكثر مما هي قواعد سلوكية، ولكنهم عندما تبنوا حياة أجتماعية أكثر تعقيداً ومختلفة الاتجاه توجب عليهم أن يتعلموا توفيق مبادئهم القديمة مع طريقة حياتهم الجديدة والحالات الطارئة التي تفرضها الظروف، بالاضافة إلى ما تفرضه كل حضارة تعرف الكتابة في ذلك الحين.

وقد تحتم على كل من ينتمي إلى بني إسرائيل أن يخضع نفسه وسلوكه ورغباته وغرائزه إلى الشريعة المشتركة. إن أساس الشريعة الراسخة هو وجود الله فوق الناس أجمعين (أنه الله الواحد الأحد والكلي الوجود، والقديس المقتدر، وأصل كل حياة والذي

لا شريك له). إن كل من يدنس اسمه مآله الموت، فعلى بني إسرائيل ألا ينطقوا باسمه باطلاً، وأن يلتزموا بكتمانه، وعليهم حتى في صلواتهم وطقوسهم الدينية التي كانوا يؤدونها يومياً بجانب حائط المبكى أن يبدلوا اسمه (يهوه) باسمه ليحل محله (أدوناي) وتعني (الرب) باللغة العبرية.

ومن المبادئ البديهية الواردة في التلمود البابلي والكتاب المقدس (العهد القديم) وجود إله عاقل قادر على كل شيء. والله كما يصفه التلمود إله متصف صراحة بصفات البشر فهو يحب ويبغض ويغضب ويضحك ويبكي ويحس بوخز الضمير ويلبس العمائم، ويجلس على عرش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفي الدرجات يقومون على خدمته، ويدرس التوراة ثلاث مرات في كل يوم. وهناك بعض الصفات المتناقضة فمثلاً كان غضوباً ووديعا، دموياً ومسالما، معانداً وذا نزوات ورحيماً ولكن الويل لمن لا يمتثل لصوته، لأنه سيرزح تحت لعناته... وهكذا فقد بقي التوصيف يأخذ إلى حد ما طابع البشر مثلما كان السومريون والبابليون يصفون بها آلهتهم. ويعود السبب في ذلك هو أن العامة من البشر لا يمكن أن يتقبلوا إلهاً بغير تلك الصفات في ذلك العصر. ويعترف رجال الدين (الحاخامات) بأن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض إلى حد ما، ويقولون (إننا نستعير له صفات من خلقه نصفه بها لنيسر بذلك فهمه، وكما جاء في التلمود) وإذا لم يكن في مقدور العامة أن يفكروا إلا على أساس الصفة المادية فليس الذنب واقعاً عليهم. وهم يصورون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة، السارية فيه كله، تمده بالحياة، تسمو عليه وتلازمه في وقت واحد، تعلو على العالم، ولكنها مع ذلك حالة في كل ركن وفي كل جزء من أجزائه. والحضرة الإلهية الكونية المسماة بالسكينة (السكن) تكون حقيقة بنوع خاص في الأشخاص المقدسين وفي الأماكن والأشياء المقدسة، وفي ساعات الصلاة والدرس، لكن هذا الإله القادر على كل شيء رغم هذا إله واحد كما يردد اليهود (شمع يسرائيل أدوناي الوهينا أدوناي واحد (أي) اسمعي يا إسرائيل، الله إلهنا، الله واحد).

ويقول التلمود (الناس كلهم أبناء آدم ولكن الإنسان قد خلق أولاً وله ذنب كذنب الحيوان وكانت وجوه الناس إلى عهد أخنوخ[1] شبيهة بوجوه القردة)*.

ويتكون الإنسان من جسم وروح، فروحه من عند الله وجسمه من الأرض، والروح تدفعه إلى الفضيلة والجسم يدفعه إلى الخطيئة أو لعل دوافعه الشريرة قد أتت إليه من الشيطان، ومن هذا العدد الهائل من الأرواح الخبيثة التي تكمن حوله في كل مكان. بيد أن كل شر قد يكون في نهاية الأمر خيراً.

ولولا شهوات الإنسان الأرضية لما كاد الإنسان أن يتناسل، وفي إحدى الفقرات من التلمود: (تعال نعز الخير لآبائنا، فإنهم لو لم يأثموا لما جئنا نحن إلى هذه الدنيا). والخطيئة من فطرة الإنسان ولكن ارتكابها ليس موروثاً، وقد قبل اليهود عقيدة سقوط الإنسان ولكنهم لم يقبلوا عقيدة الخطيئة الأولى ولا الكفارة الإلهية. فالإنسان في رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه هو من ذنوب، وإذا ما لقى من العقاب في الحياة الدنيا أكثر مما يبدو أنه يستحقه على ذنوبه، فقد يكون ذلك لأننا لا نعرف مقدار هذا الذنب أو قد يكون هذا الإفراط في العقاب نعمة كبرى تؤهله للخير العميم في الدار الآخرة (سفر أيوب).

ولهذا يجب على الإنسان أن يبتهج لكثرة ما يصيبه من سوء. أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان، وغير الآثم بحق لا يموت الإنسان أبداً فالموت دين على البشرية الآثمة لباعث الحياة جميعها[2].

---

(1) أخنوخ ــ هو النبي إدريس في الإسلام.

* انظر عزيزي القارئ أوجه التشابه بما جاء في التلمود البابلي والأساطير السومرية والبابلية القديمة التي أشرنا إليها في الفصل الأول (ص 47). مما يدل على أن نظرية تطور الإنسان لم تكن بعيدة عنهم.

(2) ول ديورانت (قصة الحضارة) ج (3) من المجلد (14)، طبعة 2 جامعة الدول العربية، ص 18.

ولم يقل كتاب العبرانيين المقدس إلا الشيء القليل عن خلود الثواب والعقاب. فقد صوروا النار على أنها جهنم (Ge Hinnom) أوشاول (كان وادي هنم كومة من الأقذار في خارج مدينة أورشليم تظل النار متقدة فيه لمنع الأوبئة، أما شاؤل فقد كانت مكاناً مظلماً تحت الأرض يذهب إليه جميع الأموات). وقسموها كما قسموا السماوات إلى سبع طبقات تتدرج في درجات العذاب، أما الجنة فهي في السماء السابعة وكانوا يسمونها جنة عدن (Gen Eden) وكانوا يصورونها في صورة حديقة تحوي جميع المسرات الجسمية والروحية، فخمرها من كروم احتفظ بها منذ الأيام الستة التي خلق فيها العالم، والهواء فيها معطر بالروائح الزكية والله نفسه سيجتمع بالناجين من العذاب في وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه، بيد أن بعض أحبار اليهود يعترفون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر، لكنهم كانوا يلبسون العمائم كي تكسبهم القدسية وتطرد عنهم الجن والشياطين وما يأتي منهم من شرور.

ومن الجدير بالذكر هنا أن التلمود قد أجاز تعدد الزوجات: (يستطيع الرجل أن يتزوج أي عدد من النساء يشاء، ولكن يوجد فقرة ثانية تحدد عدد الزوجات بأربع وتطلب فقرة ثالثة إلى من يريد أن يتخذ زوجة ثانية أن يطلق زوجته الأولى، إذا أرادت هي الطلاق، فنظام تعدد الأزواج هذا عادة يهودية قديمة وكذلك يطالب اليهودي أن يتزوج من أرملة أخيه، وإذا رفض الأخ الزواج منها فلها أن ترميه وتحقره أمام القوم، قبل أن تتزوج من رجل آخر بعيد عنها.

وجملة القول فإن قوانين التلمود الاجتماعية بوجه عام من وضع الرجال وأنها تحابي الذكور محاباة بلغ من قوتها أن بعثت في نفوس إجبار اليهود الفزع من قوة المرأة وهم يلومونها، كما يلومها الآباء المسيحيون، لأنها أطفأت (روح العالم) بسبب تشوف (حواء) المنبعث عن ذكائها. وكانوا يروون أن المرأة (خفيفة العقل) [1] .

---

(1) ول ديورانت (قصة الحضارة) المصدر السابق نفسه ص 38.

لقد كان عليهم كتابة هذا الاثراء في واجباتهم التي يرافقها شئ من التخفيف. أما بالنسبة للشرق الادنى القديم (بلاد الرافدين) فكان تدوين اصول السلوك أمراً مألوفاً منذ نهايات الالف الثالث قبل الميلاد.

وهناك دلائل عديدة عما أقتبس اليهود من الكنعانيين من حضارة، أضافت اليهم قوة ومنعة في ذلك العصر وهكذا دوّن اليهود منذ ذلك الحين كل تراثهم القديم في (التلمود) [2] ذلك الكتاب الضخم الذي جُمعت فيه أحاديث اليهود القدماء وأحكامهم. وقد ظهرت أبان السبي البابلي جماعة أطلق عليها سوفريم (وتعني الكتاب بالعربية) وهم الذين أولوا أهتماماً بكتابة التوراة والاحكام الدينية الاخرى، ومهما قيل ويقال عنه فأنه جزء من تراث أنساني أستطاع أن يحافظ على نتاج فكر وثقافة لاتقتصر على جماعة معينة بل هي ملك للبشرية جمعاء. بالاضافة لأنه ولدت من رحمها العديد من الديانات والتشريعات التوحيدية في المنطقة كالمسيحية، وكذلك كانت تنهل منه العديد من المؤلفات الادبية خارج نطاق الكتب الدينية، (القصصية ذات الطابع الكلاسيكي المشهور) والمتعاقبة عبر التاريط، والتي كانت جزءاً من أسباب تمكين البشرية من الوصول إلى ما وصلت اليه من تقدم وقهر للطبيعة. أن من أبرز كتب التلمود كان للكاتب النبي (عزير) الذي عاش في القرن الخامس ق.م. ولعله كان من أبرز الشخصيات التي ظهرت في أوساط اليهود في ذلك العصر بعد النبي موسى (ع) حيث عقد العزم على أثراء شريعة موسى من خلال أستخراج نصوص من كتاب العهد القديم والتي تعني بمتطلبات المجتمع اليهودي في عصره. وكانت خطواته تلك البداية للسُنة الشفوية، ثم أصبح بعد عزير أسلوب جديد في تفسير وتأويل النصوص الدينية تسمى (مدراش) ومعناه البحث والتتبع، لأن العلماء تتبعوا على ضوئه المعاني الكاملة في التوراة بغية وضع حلول في جميع المشاكل والمستجدات. لقد بدء منذ ذلك الحين علم التأويل والتفسير بما يتلاءم مع متطلبات العصر، خاصة بعد الاطلاع على الفلسفة اليونانية ومحاولة التوائم بينهما.

وينقسم التلموذ إلى ستة أقسام تتضمن (63) رسالة في (523) فصلاً وهذه الأقسام هي كالتالي:

1. كتاب زراعيم، أي البذور أو الزراعة: ويتضمن القوانين الخاصة بالأرض والزراعة.
2. كتاب موعد، أي العيد أو الموسم: ويتضمن الأحكام الدينية والفرائض الخاصة بالسبت والاعياد والايام المقدسة.
3. كتاب نزيقين، أي الأبرار: ويتضمن جزءاً كبيراً من الشرائع المدنية والجنائية.
4. كتاب ناشيم، أي النساء: ويتضمن الأحكام والنظم الخاصة في الزواج والطلاق وما يعرف بقانون الأحوال الشخصية.
5. كتاب قداشيم، أي المقدسات: ويحتوي على الشرائع الخاصة بالقرابين وخدمة الهيكل.
6. كتاب طهاروت، أي الطهارة: ويتضمن الأحكام الخاصة بما هو طاهر ونجس وما هو حلال وحرام من المأكولات والمشروبات وغيرها.

ومن الجدير بالذكر هنا ان كل المحرمات التي ذكرت عند اليهود تتشابه مع ما موجود في الإسلام. مثل تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك[1].

علماً بأن كل كتاب من هذه الكتب يتألف من عدة رسائل. وكل تلك الرسائل قد أنقسمت إلى قسمين الأول دوّن من قبل علماء اليهود في فلسطين، والثاني من علمائهم في بابل من الذين أستقروا بعد السبي البابلي ولم يغادروا بلاد النهرين حتى بعد مجئ الفرس وبعد أن أعطاهم قائدهم كورش الأذن بالعودة إلى فلسطين. علماً بأن أول طبعة للتلمود ظهرت بالنص العبري والتي جاءت على يد شخص يدعى (دانيال يومبرغ) في مدينة البندقية في ايطاليا، وتم طبع التلمود البابلي في الأعوام 1520 ــ 1523 م بينما طبع التلمود الفلسطيني في الأعوام 1523 ــ 1524 م ويقع التلمود البابلي وفقاً لتلك الطبعة في (5894) صفحة وترجم إلى العديد من اللغات كان أحد تلك الترجمات باللغة

الأنكليزية وتقع في (18) مجلداً ـ طبعة لندن ـ وهي محفوظة في المكتبة البريطانية في لندن. ويتألف التلموذ من عنصرين أساسيين: أحدهما (هالاخاة) وتعني الطريق والأسلوب وهي عبارة عن تعاليم دينية للحياة الصالحة والأخرى (الهغادا) أي الحديث وهي عبارة عن أحاديث الربابنة التاريخية والخلقية والدينية التي تهدف إلى بناء شخصية المؤمن بالعقيدة اليهودية عبر الأمثال والعبر والقصص المشتقات من تاريط وسير حكمائهم وعظمائهم ومن خلال وصف أنواع الثواب والعقاب في هذا العالم والعالم الأخر. ويذكرأن الكثير من تلك الأحكام أقتبست من كتاب الخليقة البابلية وكتب الاديان الاخرى المتعايشة معهم في المنطقة كالافستا (زرادشت) وغيرها. كما ان التلمود أعتبر وثيقة تاريخية مهمة أسندت اليها أديان أخرى جاءت إلى الجزيرة العربية فيما بعد كالمسيحية والإسلام وأبسط دليل على ذلك هو أوجه التشابه في أحكام وتعاليم وقصص الانبياء [1] وأشعارهم في كل تلك الديانات. وقد تكلف التلمود بأعتباره دائرة معارف غزيرة المحتوى بالحفاظ على الديانة اليهودية، وأضحى مصدراً مهماً من مصادر التشريع اليهودي، ولكونه يتضمن الطعن بالنبي عيسى (ع)، فقد رفضه المسيحيون وأعلن زعماء الكنائس في القرن السادس الميلادي عن مخالفتهم له، مما أثار حفيظة المسيحين جميعاً إلى أن قام أحد اليهود الذي أعتنق المسيحية وبتحريض من البابا عام 1239م بحرق كتاب التلمود، ومنذ ذلك الوقت أصبح حرقه أمراً رائجا إلى ماقبل صدور أول طبعة له [2]*.

---

(1) صباح زنكنة (قصة كتاب ظهور التلمود وأسباب حرقه (مقالة في جريدة الصباح العراقية عدد 488 في 2005/3/1 الثلاثاء.

* أن كتب قصص الانبياء المؤلفة من قبل اعلام الإسلام المشهورين تستند في تفاصيلها على القصص الواردة في التوراة دون الإشارةإلى المصدر، وخاصة تلك القصص التي لاتتوفر تفاصيلها في القرآن الكريم.

لقد مرت الديانة اليهودية بمراحل عديدة من التطور، إذ انها دامت طويلاً وعانت الكثير من الاضطراب في زمن الشباب الأول، ولكنها بعد سقوط بابل بدأت تأخذ بالانتشار بأرجاء واسعة في منطقة الشرق الادنى خاصة وأن اليهود أصبحوا أقل عرضة للأضطهاد والتنكيل.

ففي زمن السبي كانوا يأملون فقط في العودة إلى وطنهم والاستقلال، وعندما تحرروا وعادوا إلى موطنهم أو عاد القسم الأكبر منهم كان عليهم أن يعترفوا بأن الاله قد أوفى بوعده بعد أن تأثروا كثيراً بفترة الالام والشقاء الطويلة. وكانوا قد أصطدموا بالامبراطوريات الكبرى، فتحطموا وعرفوا حجم شعبهم الصغير، شعب لايستطيع القيام بنفسه بأي دور في عالم أخذت أفاقه تتوسع يوماً بعد يوم. ومنذ أن ظهر لهم النبي أشعيا الثاني ذلك المفكر الديني المبدع والذي أعاد التراث وتمسك بفكرة التوحيد. بأفتراض الاله السمو الكامل المنفصل عن كل ماهو مخلوق، وان الوجود في العالم الفوق روحاني التي قادت إلى معرفة حقيقة ووحدانية الله، وان الله خالق كل شعوب الارض من اشوريين وبابليين ومصريين وميديين وفرس وعبريين. بعد أن أنتفت الحاجة للعلاقة الوثيقة مع (يهوة) والعهود والمواثيق المبرمة معه من أجل اليهود فقط وأصبحوا موحدين وإلههم (أدوناي) كما ذكرنا. كما ظهر أرميا الذي عانى الكثير من الآلام والتي أعتبروها تكفيراً لخطاياه وخطايا الاخرين، وكان ذلك قبل ظهور السيد المسيح (ع) بفترة قصيرة نسبياً. وقد تميزت فترة أنتهاء السبي بالاهتمام بالتشريعات الدينية، والتطبيق الدقيق للنص المكتوب والذي يفترض أنه يعبر عن إرادة الرب بالذات. وهكذا تبلورت المعتقدات الدينية لدى اليهود وبشكل خاص بعد أن عادوا من السبي وقاوموا غزو الاسكندر المقدوني عام

336 ق.م والمد الهليني* أكثر من أي مجموعة أخرى في الشرق الأدنى. ومن الجدير بالذكر هنا إلى أن الاسكندر الكبير (المقدوني) هذا كان تلميذا للفيلسوف اليوناني (أرسطو). لقد جاء الاغريق بمفاهيم أخرى غير متوافقة مع الفكر التوراتي، تلك الافكار التي كانت تسمى بالانسيه[1] (humanism) التي جاءت بها الفلسفات الاغريقية المعروفة، الا انها توافقت مع المسيحية التي انبثقت من رحم اليهودية، والتي تمسك بها الرومان بعد فترة طويلة من الزمن وساعدوا في ابقائها ونشرها إلى مناطق بعيدة عن الجزيرة العربية.

لقد تميزت الفترة التي تلت غزو الأسكندر المقدوني بعد عام 336 ق.م بالأستقرار والتطور الفكري بالنسبة للدولة العبرية، وظهور عدد من المفكرين والأنبياء أمثال أشعيا الثاني وأرميا وكذلك فلاسفة اليهود في الاسكندرية بمصر أمثال فيلون وأفلوطين وغيرهم. وبدءوا بوضع الأجوبة على العديد من التساؤلات، التي كانت تتبادر لأذهان الناس عن الفرق بين من يتبع التعاليم الدينية ويسير بالأتجاه الصحيح في الحياة حسب ماتطلبه تعاليم الديانة اليهودية، وبين من يسير بأتجاه الشر ويؤذي الأخرين، ووضعوا تفسيرات لكل ما جاء في التلمود بالشكل الذي ينسجم مع المنطقة ولا يختلف عن المفاهيم الفلسفية التي دخلت المنطقة من اليونان بعد غزو الاسكندر لها.

---

* المد الهليني ـ أو العصر الهليني الذي يمتد من فتح الاسكندر للشرق عام 336 ق.م. وحتى الفتح الإسلامي والهلينية (Hellenisme) من هيلين Helene أي يوناني، وتعبر عن طابع الفكر والحضارة على أثر فتوح الاسكندر للشرق وامتزاج الفكر اليوناني بالروح الشرقية.

(1) الأنسية ـ أو الإنسانية تلك الأفكار الفلسفية التي تدعوا إلى القيم الأخلاقية الإنسانية الذاتية (دون الحاجة لأن تغوص دينيأمن قبل الاله وما على الإنسان إلا أن يطبقها لإرضاء الله دون تحكيم العقل والضمير الإنساني الذاتي، وذلك من خلال الأخوة الإنسانية) أي أن العلاقات بين البشر قائمة على العقل. حسب تفسير المفكر المغربي محمد آركون.

وحيث أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية لم تتغير كثيراً في المنطقة وذلك في طبيعتها الزراعية والرعوية، لذلك بقيت الأفكار الدينية متأثرة ومتشابهه مع الكثير من طقوس العبادة والتراتيل والمراسيم والأعياد الدينية مع المعتقدات الدينية الوثنية التي كانت سائدة لفترة طويلة رغم كل التطور الوارد ذكره في مجال التوحيد.

ولكن التطور الكبير الذي ظهر في الديانة اليهودية على يد الفيلسوف اليهودي فيلون (25 ق.م ــ 4 ب.م) المصري (من أسيوط) وعاش في الاسكندرية في القرن الأول الميلادي، الذي اتسمت فلسفته بالدرجة الرئيسية بما يعرف بالتأويل (allegories) في تفسير بعض القصص الواردة في التوراة، والتي تتعارض مع الحقائق المنطقية التي جاءت بها فلسفة اليونان بعد الغزو الذي قام به الاسكندر الكبير للشرق عام 336 ق. م.

وكان يعتقد أن الكتب السماوية التي جاء بها الرسل والأنبياء إنما تخاطب الناس جميعاً بلا استثناء، وليس لنخبة خاصة تستطيع أن تفهم حقائق الكون وتتقبلها في ذلك العصر الفقير بالمعرفة والنضج الفكري. ولهذا فهي تلجأ إلى الرموز واستعمال المجاز ضناً بالحقيقة على غير أهلها وشداً لها لغرض فهم الأمثلة والصور والرموز التي تقرب الحقائق إلى إفهام الناس جميعاً، فيأخذ العامة بظاهر النصوص، ويجدون فيها مقنعاً والكفاية. أما المتخصصين في العلوم فيتناولونها ويأخذون بجوهر معانيها وبذلك يستخرجون ما في التوراة من فلسفة كانت ستظهر عارية منها لو أخذت بنصوصها حرفيا.

إن التأويل في نظر (فيلون) ممكن على أن نعرف كيف نؤول نص التوراة في ضوء الفلسفة. فمن الضروري تأويل النصوص التي تثبت الله ــ إذا أخذنا حرفياً ــ ما لا يليق به من صفات وأحوال كالتجسيم والكون في مكان والكلام بصوت مع النبي موسى (ع) والغضب والندم...إلخ فالله كما يقول (فيلون) لا يستفزه الغضب ولا يندم ولا يتكلم بحروف وأصوات، وليس له من مكان يقر فيه. وعندما يعرض (فيلون) لقصة خلق الله

للعالم في ستة أيام ينفي عن الله الحاجة إلى مدة زمنية يخلق فيها العالم، ولكن موسى (ع) لا يسعه إلا أن يستعمل الله التي نفهمها نحن البشر في عصره ليصف لنا العالم الذي خلقه وترتيبه ومنزلته بعضه من بعض. فمن السذاجة الاعتقاد أن العالم خلق حقاً في ستة أيام أو في فترة من الزمن أقل أو أكثر من ذلك. وهذه القصص إنما يراد بها الوصول إلى فهم العامة بأن الله هو الواحد الذي خلق الكون بالشكل الذي نحن فيه. وفي تأويله لسفر التكوين (العهد القديم) يؤكد أن أول ما خلق الله العقل السماوي الذي يحيا بالعلم والفضيلة، ثم خلق الله على مثاله عقلاً أرضياً يرمز به لآدم. ثم تفضل عليه بنعمة الإحساس الذي يرمز لحواء، فانقاد العقل للحس واستسلم للشهوة التي يرمز لها بالحية. ثم تأس النفس على ما فرطت في جنينه الله وتندم، فيجيء نوح (ع) الذي يرمز للعدالة ويقع الطوفان رمز للتطهير التام. ثم يمضي فيلون فيقول (أن كل ما وصف الله به في التوراة أنه موجود بلا كيف ولا صفة، وكل ما جاء به التوراة من تشبيهه بالحوادث فيجب تأويله وحمله على غير ظاهره النصي).

والله لفرط علوه عن العالم ولعظم الهوة بينهما، فإنه لا يؤثر في العالم تأثيراً مباشراً وإنما هو يؤثر فيه بمجموعة من الوسطاء أو القوى الإلهية، وهم سفراء الله ورسله، كما أن النفس لا تبلغ إلى الله إلا بالوسطاء أيضاً، وهؤلاء الوسطاء يختلفون بعضهم عن بعض تبعاً للأعمال التي يقومون بها وهم: اللوغوس (أو الكلمه) وهو أشبه بمثل أفلاطون، إذ هو النموذج الذي يخلق الله العالم على صورته ومثاله. ويصفه فيلون بكل صفات الكمال من حق وخير وجمال ويليه الحكمة الإلهية (أوسوفيا) التي يتحد بها الله لينتج عن اتحاده بها هذا العالم وكثيراً ما يطلق عليها فيلون اسم (أم العالم) وقد يصفها بأنها (روح الله). ومن الوسطاء أيضاً الملائكة والجن، وهم كائنات نارية أو هوائية لا يعصون الله ولا يخالفون أمره. وهؤلاء الوسطاء يتوسطون كذلك بين النفس الإنسانية والله. فتطهير النفس بالزهد والعبادة لا يزال يصعد بها من وسيط إلى وسيط حتى تبلغ

الوسـيط الأعلـى اللوغـوس أو الكلمـه. ولا يـتـم الـتطهير أو الصـعود والعـودة إلى الله إلا بالمجاهدة والتصفية والعلم والنجاة بالنفس من هذا العالم المتناهي عالم الوهم والخيـال، عالم المادة ومصدر الشر.

وغاية الإنسان إنمـا هـي الوصـول إلى الله والاتحـاد والفنـاء فيـه. وهـذه الاتحاديـة في أعماق الروح الإنسانية بنوع من التجدد الداخلي والإشـراق النفسـي والطمأنينـة المطلقـة والسكينة العظمى، وهـي الحالـة الـتي لا يمكـن تحديـدها بالألفـاظ، إذ يضـيق عنهـا نطـاق النطـق، وإنمـا تعـرف بالـذوق، والكشـف وفيهـا لا يبقـى شـاهد ولا مشـهود ولا عـارف ولا معـروف. هناك البهجة العظمى والسعادة القصوى[1] ....

هذا وقد ظهر عـدد مـن فلاسـفة اليونـان عاشـوا في الاسـكندرية بمصـر عـدا فيلـون مـنهم نومنيـوس (Numenius) ويوسـيبيوس (Eusebius) وأمونيـوس (Ammonius) وأشهرهم على الإطلاق أفلوطين شيط الاسكندرانيين الذي وصف بالشخصـية الـتي تعبـق بالروحانية وثني لكنه في الحقيقة مسلم بلا نـبي الإسـلام، ومسـيحي بـلا مسـيح. وكلـهم حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين فما في الدين لا ينـاوئ الفلسـفة ومـا بـين الفلسـفة لا يناوئ الدين بعضه بعضـاً، وقـد شملـت نـزعـة التوفيـق هـذه بـين الأنبيـاء أنفسـهم، فقـد حاول أمونيوس التوفيق بين مـا جـاء بـه موسـى وعيسـى (عليهمـا السـلام)[2]. وإذا جـاء فيلسوف التأويل الأول فيلون في القرن الأول الميلادي فمـا بالـك عزيـزي القـارئ بالحاجـة للتأويل في عصرنا بعد كل ما حصل من تطور في علم الطبيعة والإنسان والفلسفة؟ وبعد

---

(1) محمـد عبـد الـرحمن مرحبـا (مـن الفلسـفة اليونانيـة إلى الفلسـفة الإسـلامية) عوينـات للنشـر والطباعة، بيروت (2000) ص 225 .

(2) أوليري (علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العـرب) (الترجمـة العربيـة) عويـدات للنشـر والطباعـة، بيروت، ص 28 .

كل ما يحصل حالياً من عنف وقتل بسبب الفهم الخاطئ للآيات القرآنية الشريفة وبعد كل ما حصل من تقصير المسافات بين الأمم والشعوب والأديان المختلفة من خلال وسائل الإتصال والتكنولوجيا المتطورة؟

6. الأديان التوحيدية في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام* :

لم يكن الإسلام أول من أدخل التوحيد عند العرب كما يتوهم الكثيرون في ذلك. فقد كان مايعرف بعرب الجاهلية موحدين، وكانت هنالك خمسة أديان موحدة في الأقل منتشرة في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام وهي اليهودية والمسيحية والحنفية والدهرية والصابئة عدا اليزيدية والزرادشتية في شمال بلاد الرافدين. وربما تعود مهمة هذا التوحيد إلى قوة الرعاة، الذين أتاحت ظروفهم في الجزيرة المحكمة الأغلاق أن يتكاثروا فيها ويتطوروا. ولاتوجد منطقة رعوية تمتلك مثل هذه الخصائص الفريدة، أن تقترب من المناطق الحضارية المركزية وتستوعب منجزات تلك الحضارات وتنآى عن سيطرتها.

أن عشرة قرون من الأحتلالات الأجنبية المتتابعة للمشرق العربي الذي أخذت تتشكل فيه جذور العروبة والتي أمتدت من عمق الجزيرة حتى بوادي الشام، لم تظهر فيه قوة محلية قادرة على طرد الغزاة. وقد أصبحت السيطرتان البيزنطية والفارسية عبئاً ثقيلاً على المنطقة، فمنذ سقوط بابل على يد كورش ملك الفرس وماتلاها من حروب بين الأمبراطوريتين الفارسية والإغريق (البيزنطيين) كانت ساحتها الرئيسية هي الجزيرة العربية وخاصة القسم الشمالي منها. وكانت الفوائض المالية والزراعية والرعوية تذهب إلى العاصمتين الفارسية والرومانية لتهدرها في البذخ والحروب. ولهذا

---

* يقصد بالفترة قبيل ظهور الإسلام هي الفترة التي سبقت البدء بالدعوة الإسلامية وتتمثل في أواخر القرن السادس الميلادي.

فإن المناطق الرعوية والريفية كانتا تعيشان في أزمة أقتصادية خانقة، فعلى سبيل المثال كانت عائلة هاشم بن عبد مناف القريشية تعيش حياة فقر ومتفاقمة الديون في مكة في بادئ الأمر [1]، في حين كانت مكة مركزاً أقتصادياً رئيسياً في الجزيرة.

لقد أخذت الجزيرة العربية ومنذ زمن بعيد أرثا ثقافياً خاصاً للقبائل والشعوب السامية الشمالية والجنوبية وقد كان الاحتكاك بين الجانبين كبيراً وعميقاً على مر التاريط. فعلى سبيل المثال ظل مفهوم كلمة آن وتعني السيد والذي ظهر في حوض بلاد الرافدين قبل القرن الرابع ق.م وظل وصفه للقوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء (الله بمفهومنا الحالي) مترسخاً في ذهنية تلك الحضارة لأكثر من الفي عام، وفي العصور المتأخرة ساد هذا المفهوم في المنطقة العربية عموماً. ويذكر المؤرخون أن مختلف أنحاء المشرق العربي قد التصقت فيها كلمة او مقطع من كلمة آن و آيل مثل ظهران وجيزان وغمران وكذلك سعد آيل وثيم آيل وغيرها، تجسيداً لمفهوم الأله المجرد الواحد. ونستطيع أن نلاحظ أن ثمة قوة مقاومة للأحتلال البيزنطي (الإغريق) والفارسي عبر الحركة الفكرية التي تشكلت من المخاض الأجتماعي السياسي الطويل في المنطقة على مدى عشرة قرون، إلا أن تلك الحركات الفكرية المتمثلة بالحركات الدينية المختلفة، لم تكن مؤهلة لخلق تلك الوحدة. وهكذا بدأت تتناءى وتتبلور الحاجة لظهور حركة دينية موحدة تستطيع القيام بدور توحيد كل أنحاء الجزيرة العربية، وأقامة كيان سياسي مستقل بعد أن بدأت علائم أضمحلال وضعف كلتا الأمبراطوريتين، من خلال أنتهاء دورهما في السيطرة تاريخياً. ولابد لنا هنا من أستعراض لبعض الحركات الدينية الرئيسية التي كانت منتشرة في الجزيرة في تلك الفترة القريبة من عصر فجر الإسلام أي

---

(1) شاكر النابلسي (المال والهلال (الطبعة الأولى، دار الساقي بيروت ــ لبنان (2002)، 48.

في القرن السادس الميلادي تحديداً، وبأختصار [1] وفيما عدا اليهودية التي تطرقنا اليها كانت هناك ديانات توحيدية متفرقة وكما يلي:

1ـ 6 الحنيفية:

وقد عرفت منذ زمن طويل في الجزيرة العربية ويقول بعض المؤرخين أنها لم تظهر قبيل ظهور الإسلام بل كانت راسخة قبل ذلك بكثير والدليل أن كعب بن لؤي بن غالب (أحد أجداد الرسول الأولين) كان من الأحناف[2]. وكان الحنفيون على ملة أبراهيم موحدين يعبدون الله وحده ولا يشركون.

ولم تكن الحنيفية فرقة واحدة أو عقيدة واحدة ولكنها كانت مجموعة من التيارات أختلفت في ما بينها. وهناك قواسم مشتركة عقائدية كثيرة بين الحنيفية والمسيحية واليهودية. ويقول بعض المستشرقين أنها كانت مذهباً نصرانياً، بينما أجزم آخرون بأنها تأثرت بطقوس يهودية رغم عدم أيمانها بجوهر الديانة اليهودية. وبالتالي نفهم أن الحنفية عبارة عن نزعة عرفت بها طائفة ولم تكن بعيدة عن التأثر بالمسيحية واليهودية على السواء. وأن هذه الطائفة كانت في شك وحيرة [3].

أن أول ما يلفت النظر في النشأة الحنيفية التوحيدية في الجزيرة العربية أنها نشأت في مجتمع زراعي ـ رعوي (يمامة نجد). وليس في مجتمع تجاري كالمجتمع المكي الذي أصبح غارقاً في تلك الفترة بالأوراق التجارية والملذات ومتع الحياة، والذي يتعارض كلياً مع الحنيفية على الرغم من أن معظم أفراد الحنيفية كانوا من الأسر الغنية المثقفة والتي كان بأمكانها شراء الكتب السريانية والعبرية والطواف والسفر خارج الجزيرة العربية بحثاً عن المعرفة والحكمة المكتسبة من البلاد المتقدمة نسبياً مثل العراق والشام.

---

(1) شاكر النابلسي المصدر السابق 108.

(2) عبد الله العلايلي المصدر السابق 44، 45.

ولايشير المؤرخون إلى وجود صحف أو كتاب متخصص بالحنيفية إلا أن أهم القواسم المشتركة بينهم وبين الإسلام مثلاً، هو الدعوة إلى التوحيد، والأقرار بالربوبية والأذعان للعبودية، وعبادة خالق واحد وحج البيت وأتباع الحق والمناداة بالأصلاح الأجتماعي والخلقي، وعدم القيام بالأعمال المنكرة والنهي عن وأد البنات، وعدم أكل لحوم قرابين الأصنام وتحريم أكل الميتة ولحم الخنزير والأختتان وقطع يد السارق وتحريم الزنا وتحريم الربا... الخ.

ولكن رغم كل ذلك فقد كانت الحنيفية تفتقر إلى قيادة شجاعة وحصيفة وخبيرة بشؤون قريش ومكة والجزيرة العربية عموماً.

2ـ 6 الصابئة[1]* المندائية:

كانت الصابئة في أصلها فرقة دينية بابلية قديمة بارزة عبدت الأجرام السماوية وما تحوي السماء من نجوم وكواكب، وقد ظهرت كذلك في اليمن منذ أيام بلقيس حيث كان الدين الرسمي في تلك الفترة من تاريط اليمن. وأن أسم الصابئة يعود إلى صابئ بن لامك شقيق نوح. وبذا كانت الصابئة من الموحدين بالله الواحد أيضاً.

أن الصابئة كانت جماعة من بين سكان مكة من الذين جاءوا اليها عن طريق التجارة مع بلاد الرافدين أي أنهم كانوا أصلاً في بلاد الرافدين قبل ذلك بكثير. ومن القواسم المشتركة مع الإسلام هو الصوم شهر في السنة بالامتناع عن المأكل والمشرب أثناء

---

(1)* أسم الصابئة يعود إلى صابئ بن لامك شقيق النبي نوح وبذا كانت الصابئة من الموحدين بالله أيضاً ـ شاكر النابلسي (المال والهلال) 121. سوف نأتي بتفصيل أكثر حول كيفية إطلاق التسمية على هذه الفئة في الجزء الثاني من الكتاب.

النهار والصلاة خمس مرات كل يوم[1] والوضوء قبل الصلاة وأداء الحج وتقديم الأضاحي وأداء الزكاة وتحريم أكل لحم الخنزير وجواز الطلاق. ولاتزال الطائفة (الصابئة المندئيين) تعيش في جنوب العراق وبغداد محافظين على طقوسهم الدينية الموروثة منذ أيام البابليين. أما المندائية فقد جاءت من درجة تمسكهم بالاغتسال بالماء خاصة أثناء أداء طقوسهم الدينية حيث لا يزالون يذهبون إلى ضفاف الأنهار ومجاري المياه الأخرى بثياب بيضاء ويغمرون أنفسهم في المياه كجزء من طقوسهم الدينية.

3ـ 6 الدهرية:

وكان يطلق عليها أسم الزنادقة. والزنديق هو القائل ببقاء الدهر (الزمن) وهم من أتباع ماني وكان من بينهم من قريش كبار الأغنياء كأبي سفيان وعقبة ابن معيط والنظر بن الحارث والعاصي بن وائل والوليد بن المغيرة وغيرهم[2]. وهي فرقة أشبه ماتكون اليوم بالعلمانية، وكما يقول محمد الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) بأنهم كانوا ينقسمون إلى ثلاث فرق وهي:

1. مجموعة أقرت بالخالق والخلق الأول ولكنها أنكرت البعث.
2. مجموعة أقرت بالخالق والخلق ولكنها أنكرت الرسل.
3. مجموعة أنكرت الخالق والبعث وقالت بالطبع المحيي والدهر المنفي[3].

---

(1) كانوا يعبدون الكواكب السيارة الخمسة: المشتري والزهرة وزحل وعطارد والمريط. كان الصابئة يتوجهون لكل كوكب بصلاة في كل يوم، فيصبح المجموع خمس صلوات كل يوم. أنظر (قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم 240.

(2) شاكر النابلسي (المال والهلال) 104.

(3) محمد الشهر ستاني (الملل والنحل) 360 جزء 3.

وعلى الرغم من أختلاف هذه المجموعات الثلاث وتباينها بوجود الخالق وبنكران البعث والرسل الا أنها كما يبدو أنتمت إلى تيار فكري عقلاني علمي، وكان أشهر قادتهم في الجزيرة العربية الحارث بن قيس. وكانت تنفي الغيب أيضاً وتعتبر أن الزمان هو السبب الأول للوجود، وهذا الزمان غير مخلوق وغير نهائي، وأن المادة لاتفنى، وأن الدهر قديم، وبذا وقفت الدهرية ضد الديانات السماوية وضد الوثنية في آن واحد. ولايوجد من المصادر الا النزر اليسير عن عقائد تلك الفلسفة العربية، وفي الأغلب أن جذور هذا التيار الفكري قد استمدت من الفلسفة اليونانية التي تمثلت بفلسفة أرسطو بشكل خاص وقولة (بقدم العالم) وأستبعاده لفكرة الخلق وأن العالم لايحتاج إلى خالق، وكل شئ فيه أزلي أبدي، لايفتقر إلى خالق يخرجه إلى حيز الوجود. وأن العالم موجود منذ الأبد وسيظل موجوداً إلى الأبد. وأن الزمان لابداية له ولانهاية، وذلك لأن كل آن منه له قبل وبعد فلا آن أحق بالزمانية من آن). ولابد من الإشارةهنا إلى أن أرسطو كان يعتقد أيضاً: (أنه لا بد من التوقف عند محرك أول تكون عليه جميع الحركة ولاعلة له، وهذا هو المحرك الأول أو علة العلل وهو الله). وبالتالي فهذا الرأي مطابق لأقوال الدهريين العرب وفلسفتهم. وهذا دليل واضح على أتصال العرب بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والكردية وأطلاعهم عليها بفضل التجارة المكية والتي أسهمت في تكوين عوامل أقتصادية وفكرية وأجتماعية منها:

1. وجود العنصر الطبيعي المتعارض مع العنصر الغيبي.
2. تأثير الثقافة الفارسية واليونانية على الثقافة العربية
3. تطور الأوضاع الاقتصادية في مكة والمدينة وفي الحجاز بصفة عامة في القرن السادس الميلادي وتحولة من مجتمع زراعي — رعوي، إلى مجتمع تجاري مدني.

الا أنهم لم يكونوا منتشرين بكثرة في الحياة العربية ولم يكن لهم أهتمام في سلطة أو تنظيم سياسي، وبالتالي يمكن القول أن مثل تلك الأفكار لم تكن بمقدورها أن تنبت

وتستمر بالبقاء طويلاً في بيئة الجزيرة العربية في ذلك الزمان. ومما يجدر الإشارةاليه هنا أن الزنادقة ظهروا في العهد العباسي الأول من بين المسلمين الذين لم يدخل الإسلام إلى قلوبهم وهم الساسانيون. وكان يسمى أحياناً (زند) وتطلق الكلمة على أتباع ماني ومزدك خاصة[1]. ويقال أيضاً أن المانوية المشتقة من الزرادشتية كانت هي الأخرى متأثرة بالفلسفة اليونانية. وهكذا يمكن القول أن الزنادقة هم أتباع كتاب الزند والمتأثرين بالزرادشتية، بينما كانت الكلمة تطلق في العصر الإسلامي على كل من يلجأ في تفسير بعض أحكام الإسلام إلى كتاب الأبتساق (الزندبستا) وهو كتاب زاردشت.

4 ـ 6 المسيحية:

أما المسيحية فقد كانت إبنة التطور الفكري والسياسي للمنطقة الشرق أوسطية والتي هي الجزء الشمالي للجزيرة العربية (فلسطين) ولكنها لم تستطيع أن تنمو وتترعرع في أجوائها. بينما أستطاع مثقفون ينتمون للحضارة الأغريقية والرومانية أن يحولوها إلى أستجابة فكرية لحاجات الأمبراطورية الرومانية في التوحيد والتجميع. ومن هنا تغلغلت المسيحية في العالم المسيطر والبلد المهيمن والبلدان المهَيمَن عليها والمنهوبة من قبلهم، ولم يعد ثمة فرق بين من يستغل ويتلقى العذاب، ومن يقوم بالأستغلال والتعذيب، عبر مجموعة من الأفكار التي راحت تنمو وتتجدد لصالح توليفة من الأنسجام، والتوفيق بين الأطراف المتصارعة المختلفة، سواء عبر أفكار تتجاوز اليهودية المحصورة، أي عبر الغاء (الخطيئة) الأصلية الذي يعني تجاوز اليهودية وأستيعابها، ومن خلال نشر ثقافة اللاعنف والتسامح، بحيث يشكل مخرجاً تاريخياً لنظام العبودية المتعدد الألوان بين الغرب والشرق، وتستعيد الزراعة دورها التاريخي ويتم تخفيف العبودية... الخ.

---

(1) كارل بروكلمان (تاريط الشعوب الإسلامية) ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي الطبعة السابعة، دار العلم للملايين بيروت (1977) 184.

وهكذا فإن المسيحية عبر تطورها الخاضع لهيمنة الثقافة الأغريقية والرومانية، أنفصمت حينذاك عن الحاجات السياسية والاجتماعية الملحة للجزيرة العربية، وغدت وعياً سياسياً يتجه لتغيير بؤرة السلطة في العاصمة السياسية للأمبراطورية (روما). وغدت تخفيفاً من الهدر الألهي التعددي الوثني وتركيزاً له وإختزالاً لبذخه، فصار إنتصار التثليث موظفاً للحاجات السياسية للأمبراطورية أكثر منه للشعوب خاصة المشرقية ولشعوب شمال أفريقيا المستغلة كذلك. وكان تغلغل المسيحية في عالم الغرب الزراعي أكثر منه في عالم المشرق الرعوي. من هنا تظهر مرة أخرى أهمية طبيعة الأرض الزراعية والمناخ في أن تلعب دوراً في أنتشار الأفكار التي تدعو إلى اللاعنف، وتحول دون أنتشارها في مناطق نشأت فيها أصلاً. وذلك بسبب الأختلاف في البيئة والمناخ في المنطقة الأوربية (إيطاليا) مثلاً بالمقارنة مع الجزيرة العربية، والمتمثلة في نقص مياه الأمطار وأنتشار التصحر والرعي، بالأضافة إلى الأقتتال والسلب والنهب بين القبائل، والذي أصبح جزء من مهنة وسلوك يصعب التخلي عنها، وعلى الرغم من حصول الأنشقاقات الفكرية حول كينونة السيد المسيح (ع) والسيدة مريم العذراء وكجزء من حالة المطالبة بالأنفصال عن الأمبراطورية الرومانية، إلا أن المسيحيين العرب وغيرهم من الأجزاء التي كانت خاضعة للأمبراطورية الرومانية، لم يكونوا قادرين على مواجهة القوة العسكرية القوية لدى الرومان الذين إتخذوا المسيحية منهجاً فلسفياً لتسيير دولتهم وسيطرتهم على مناطق واسعة من العالم. وعلى الرغم من إنتماء عدد من القبائل العربية إلى الديانة المسيحية في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية، إلا أن الديانة المسيحية لم تنتشر وتلقى الرواج الواسع بشكل يؤهلها أن تلعب دوراً هاماً في توحيدها فكريا وسياسيا واقتصاديا، لأسباب أهمها أنها كانت تشكل منهجا فلسفيا للدولة المهيمنة الرومانية في ذلك العصر، بالأضافة لأيغالها بمنهج التسامح غير المنسجم والطبيعة الصحراوية في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

5ـ 6 الأيزيديه [1]* وغيرها من الديانات الأخرى المتفرقة :

لابد من الإشارةإلى وجود ديانات توحيدية أخرى كانت منتشرة في المنطقة الشمالية من بلاد الرافدين ومنها الأيزيديه. وهي ديانة توحيدية للأكراد في لغتهم وكان الوصف الشائع لهم بوجه عام أنهم من عبدة الشيطان الذين يسمونه (ملك طاووس) لكن الأصح هو أنهم موحدون، تلك العقيدة القائلة بوجود اله واحد في الكون. وهم يستعطفون في عبادتهم الروح الخبيثة معتقدين أن تلك الروح هي مَلكَ هبط من السماء وسيعود في المستقبل إلى حالته السابقة، ويمارسون بالأضافة إلى ذلك طقوساً دينية يمكن تتبعها وأرجاعها في الأصل إلى عبادات الأشوريين في نينوى [2].

بالإضافة إلى كل تلك الديانات فكانت هناك ديانات توحيدية أكثر أنتشاراً في شمال العراق وهي الزرادشتية التي كانوا يعتبرونها من الديانات المقرونة بعبدة النار والحقيقة أن الزرادشتية التي كانت منتشرة في بلاد فارس وشمال العراق هي ديانة توحيدية وأنما يقدسون النار ويوقدونها في كل مناسباتهم وطقوسهم الدينية. كما يفعل الكثير من الديانات التوحيدية الأخرى في الشرق، وخاصة المنتشرة منها في الهند، وتجدر الإشارةهنا إلى أنه لايزال يتدين قسم ضئيل من الأكراد بالديانات الزرادشتية إلى يومنا هذا. ولهم كتابهم المقدس والذي يعرف بالآفستا يدعوا الإنسان إلى عمل الخير وتجنب الشر والتوحيد وفيه العديد من قصص الأنبياء وأسفار التكوين المشابهة لما جاء بالكتب السماوية المعروفة الأخرى ولابد لنا قبل الانتقال إلى مواضيع أخرى إلى ذكر فئة دينية أخرى لدى الأكراد والمعروفة بالكاكائية وترجمة هذه الفئة باللغة العربية تعني

---

(1) الأيزيدية: الكلمة مشتقة من كلمة يزيد وتعني اله الخير لدى الأشوريين.

(2) مس بيل (فصول من تاريط العراق الحديث) ترجمة جعفر الخياط الطبعة الثانية ـ وزارة التربية والتعليم (1971) 157.

(الأخوان). ويعيش الكاكائيون في منطقة بالقرب من خانقين في شمال شرق العراق كما أن هناك عدد منهم في سوريا ولبنان وأيران، وتتميز هذه الفئة بالغموض وعدم وجود مصادر وبحوث عنهم، ألا أنني ومن خلال محادثات (شخصية) مع أناس يتصفون بالكاكائية في تلك المنطقة، تمكنت من معرفة أن هذه الفئة حديثة العهد وتعود بدايتها إلى عصر خلافة الأمام علي أبن أبي طالب (ع) الإسلامية في الكوفة، وذلك عندما أقنع بعض الناس من أداء الزكاة والجزية إلى بيت مال المسلمين تبرع قسم من الفتوة (الشقاواة بالمصطلح العراقي العامي) لأن يساعد الدولة بجمع المال للمسلمين بالقوة وأستخدام الهراواة الغليظة وكان هؤلاء الناس يتصفون في مظهرهم بطول الشوارب تعبيراً عن القوة وتخويف الناس. ولكنهم مقابل ذلك إستطاعوا أن يحتفظوا بالكثير من العادات والطقوس الدينية القديمة المتأصلة لديهم منذ الآف السنين كذبح الديك في مناسبات محددة وغير ذلك. ونتيجة لعزلتهم عن المدينة والعالم الخارجي، فقد أستمرت طقوسهم ومعتقداتهم الغامضة تمارس إلى يومنا هذا ولكن على نطاق ضيق، وتعتبر ديانتهم من الديانة التوحيدية أسوة ببقية الديانات الأخرى. لقد قاموا بجمع الضرائب من الناس من أجل أن يغض النظر عنهم في أداء طقوسهم الدينية القديمة دون أحراج.

7. الظروف المساعدة على ظهور ديانة جديدة في الجزيرة العربية:

لقد أخذت الأتجاهات التوحيدية تنمو في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام وذلك بسبب تعاظم المصالح المشتركة للقبائل وتنامي العلاقات الاقتصادية والفكرية بينهما. وكانت العبادات الوثنية التي سبقتها في القدم قد عبرت عن مصالح مستقلة للقبائل المتباعدة عن بعضها البعض وكانت غير قادرة لأن تستجيب لعلاقات التوحيد الأجتماعي والسياسي المتصاعد في عصر قريب للقرن السادس الميلادي. أن شبكةالآلهة الوثنية في مكة عبَرت عن مكانة مركزية منهارة للمرأة فقد سيطرت الآلهات الأنثى:

اللآت والعزى ومناة على القبيلة الألهية، ولكن الآلهة الذكورية (هبل) كان يتمتع بمكانة خاصة، غير أن سيطرة الآلهات الأنثوية كان يمثل تناقضاً كبيراً مع تنامي العلاقات الأبوية الذكورية القوية في المنطقة العربية، ولم يكن ثمة شيء من المرحلة الأمومية سوى بقايا أسماء، وكانت جميع أسس الحضارة قد تشكلت بين القبائل المسماة بالعدنانية، وهي التي كانت ضاربة* في البداوة بخلاف القبائل القحطانية التي أستقرت في اليمن وكوّنت دولاً. غير أنها لم تستطع القيام بالتوحيد السياسي للمنطقة لأسباب تتعلق بالبنية الزراعية المفككة، وقد ضعفت الزراعة مع أنهيار سد مأرب وأنتشار الكثير من القبائل اليمنية (القحطانية) للأرتحال والبداوة من جديد. لقد لعب أنهيار سد مأرب دوراً كبيراً في تاريط العرب القديم وكان نقطة تحول مهمة في أنتشار العرب في الجزيرة برمتها. و قد وضع هذا أساساً للتقارب بين التجمّعين العربيين الكبيرين (عدنان وقحطان)، إلا أن التمايز القبلي ظل لفترة طويلة يلعب دوراً مهماً في المزيد من التدهور لغالبية سكان المنطقة، وزاد في أستمرار الحروب الأهلية العربية، بالأضافة لما سببته حروب الأمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية فيما بينهما، والتي أنعكست على زيادة تدهور الحالة المعيشية للسكان، خاصة في المناطق الشمالية من الجزيرة العربية (العراق والشام).

لقد تضخم عدد القبائل الرعوية في الجزيرة، وأصبح العدنانيون (القيسيون) القوة الكبرى فيها وتشكلت لهم مدن هامة، خاصة مكة التي لعبت دوراً توحيدياً تجميعياً، وكان موقعها المميز قادراً على توحيد الجزيرة وقبائلها. لقد كان العرب في وضع أستقبال طويل للمؤثرات العربية الشمالية منها خاصة، حيث التفاعل الطويل

---

* ضاربة ـ يرمز بهذه الكلمة لأنتشار القبائل في منطقة الجزيرة العربية وتعني المنطقة أو الحيز الذي تشغله القبيلة.

بـين الشـمال والجنـوب مـروراً بـالمركز المعـروف (مكـة). أن تصـاعد الأفكـار التوحيديـة السياسية في المنطقة الشمالية من الجزيـرة العربية قـد بـدأ يتـدفق بسـبب تـدفق الرعـاة المستمر الذين أخذوا يجعلون المنطقـة بدويـة أكثـر فـأكثر، بالأضـافة لمهمـة طـرد الغـزاة، والتي كانـت تنمـو عـبر القـرون. لكـن هـذا الصـراع ظـل مسـتمراً مـن دون حسـم، بسـبب التـداخل بـين البنيـتين الرعويـة والزراعيـة، وعـدم قـدرة المؤسسـات السياسـية علـى الأنفصال الكلي عن الجمهور. لقد رأينا كيف توغلت الآلهـة الشمالية في الجزيـرة العربيـة وكان أندماج أسمي أيل وآن بمناطقهما ومـدنهما وأسمـاء البشـر والآلهـة فيهـا مؤشـراً علـى الترابـط والـتلاحم بـين الجـزءين العـربين، ولكـن تطـور مكانـة الإلـه أيـل (الكنعـانيين) خاصة، قد عبر عن النفوذ الفكري المتزايد للشمال السوري مثلما أخذت الباديـة السوريـة إمتداداً لتدفق الرعاة من الجنوب.

لقد حدثت عملية التجريد الثالثة في التاريط العربي من دون صعوبات هائلة. كما كانت عليه الحال في عمليتي التجريد الأولى والثانية في آمـون لـدى المصـريين ويهـوه لـدى اليهود في مناطق فلسطين وذلك بسبب محدودية الأرث الزراعي وطقوسـه والـدور الكبير الذي لعبتـه القبائل الرعوية فغدت عملية التوحيـد الدينيـة والسياسـية بمثابـة عسـكرة لهذه القبائل وتوجيهها نحو التوسع وتغيير طـابع المنطقـة، وطـرد القـوى الأجنبيـة منهـا وأحدثت عملية تقدم حضاري كبيرة وهكذا ظلت الجزيرة العربيـة وكأنها في حالة تـرقب لظهـور ديـن جديـد يملـي عليهـا احتياجهـا للتوحيـد المتكامـل، ولمَ الشمل وأيجـاد نظـم سياسية قادرة على حل مشـاكلهم الداخليـة، والقضـاء علـى النـزاعـات والحـروب القبليـة، وطرد الغـزاة مـن الفـرس في الجانـب الشـمالي الشـرقي والبيـزنطيين في الجانـب الشـمالي الغربي من الجزيـرة. كما أن ظهور مكة كمركز تجاري مهم في قلب الجزيـرة وبـروز طبقـة التجـار المؤهلـة لوضـع أسـس الأدارة السياسـية قـد سـاعدت كـثيراً في ظهـور كيـان سياسـي عربي موحد وكان ذلك بظهور الإسلام.

8 . الأحوال الاجتماعية في الجزيرة العربية :

إذا انتقلنا إلى أحوال بلاد العرب الشمالية وجدنا الصحراء التي تؤلف الجزء الأكبر من المنطقة، وهي التي تقرر الأحوال الاجتماعية للسكان، ذلك أن مراعيها الشتية لا تكفي الا لأقاتة المواشي الصغيرة والجمل الذي تشبع حاجاته ورغباته في سهولة فائقة والذي يجد فيه العربي قوام طعامه ولباسه، وأذ كانت العناية بهذا الحيوان لاتمكن الا بالرحلة والضرب في المناطق النائية في الصحراء، فقد صار كل تنظيم سياسي قائم على الأستقرار في السكنى هو أمر متعذر على البدوي وصلة الدم هي وحدها التي تعين الفلك الذي تضرب به حياة البدو. فهي تربط الأسر بالعشائر والعشائر بالقبائل وهذه بالشعوب التي لاتزال تعين أنسابها بواسطة قرابة في الدم قد تكون مزعومة تجمع الشعب كله في نظام نسبي يشبه نظام الأنساب عند اليهود القدماء (كبني إسرائيل مثلا) بينما عند العرب تنسب إلى عدنان وقحطان[1] لكن هذا الشعور الأجتماعي لاينتظم الشعب كله، أنه يمتد من العشيرة التي تشمل الأسرة القريبة الضاربة في خيامها جنبا إلى جنب، إلى القبيلة التي تعد بضعة الآلف نفس وتجوب البراري معاً في طلب المرعى، وكل من يتجرئ على التقدم إلى منطقة قبلية غريبة أنما يعرّض نفسه للقتل أو السلب على يد إولئك الأغراب الذين لايعدون أن يكونوا أعداءه. وهو لن ينجو من مثل هذاالمصير الا إذا وُفق إلى أن يلمس ثياب عدوه أو خيمته، أو أن يدخل عليه منزله كما جرت العادة لديهم.

وقد تمنح هذه الحماية للمسافر الغريب طوعاً وعن طيب خاطر. وقد يُضَم أحد أفراد القبيلة رجلاً غريباً إلى عشيرته ضماً لاأنفصام له وبذلك يكون في مقدور القبيلة أن تتمثل في جماعات كبيرة، وتعتبر في أول الأمر دخيلة حتى إذا أنفصمت بضعة أجيال مُنحت جميع الحقوق في الصلة الدموية كسائر أفراد القبيلة. والبدوي كائن فردي

---

(1) كارل بروكلمان (تاريط الشعوب الإسلامية) 17 عن ولهاوزن (1900) JWelhausen

النزعة، مفرط في الأنانية قبل كل شئ[1]، وهذا ناجم عن ظروفه الصحراوية الصعبة. أن الأنانية المفرطة لدى البدوي لاينفرد بها العربي في الجزيرة العربية بل تشمل كافة أنحاء المناطق الصحراوية بالعالم على حد سواء، وهذه الصفة ترتبط بالتنازع على البقاء ويتصف بها كل من يقطن الصحراء من الكائنات الحية بما في ذلك الحيوانات والنباتات على حد سواء فتحاول تخزين الماء والغذاء الكافي للأستدامة لفترة أطول دون التفريط بتلك الموارد. ولاتزال والى وقت قريب تتردد بعض الأحاديث التي تسمح للعربي الداخل في الإسلام في الجزيرة العربية أن يقول في دعائه أثناء الصلاة (اللهم أرحمني ومحمداً ولاترحم معنا أحداً)[2].

إن حالة التقشف التي يعيشها البدوي في الصحراء تفرض عليه أن يكون مفرطاً بالأنانية لضرورة بقائه وأستدامة حياته من خلال الأبقاء على الأجزاء الضرورية اللازمة والمتوفرة بشكل شحيح في الصحراء. ومع ذلك فالجميع متساوون ضمن القبيلة في الحقوق والواجبات التي تنبثق عن العصبية القبلية، فالبدوي ملزم بأن ينصر أخاه في المهمات، وليس له أن يتساءل أن كان أخوه ظالماً أو مظلوماً. وليس من شك في أن هذا الواجب يقع على عاتق العشيرة التي يعنيها الأمر، فلا تنبري القبيلة كلها لمناصرتها الا إذا كانت العشيرة التي يعنيها الأمر ضعيفة وقليلة الحول. ولكن هذا المجتمع القائم على أساس المساواة والحرية العامة يتكشف مع ذلك عن نزاعات متعددة نحو تركيز السلطة، وكان ذلك واضحاً في سلوكهم حتى بعد ظهور الإسلام، حيث أخذت النزاعات الدموية تلعب دورها الفاعل في تركيز السلطة على الأمة بأسرها، ولاتقتصر على القبيلة الواحدة أو القبيلة الكبرى. كما سنأتي علية في الفصل الثالث. لقد وجد الباحثون في المجتمع

---

(1) بروكلمان (المصدر السابق) 18.

(2) كارل بروكلمان (المصدر السابق) 18.

البدوي أن كل قبيلة فيه عبارة عن تفاعل بين عامل التجاذب والتنافر. فالبدوي شديد التعلق بقبيلته حين تصطدم بغيرها من القبائل، وتراه آنذاك محباً لأبناء قبيلته يناصرهم في الحق والباطل وقد يضحي بنفسه أحياناً في سبيلهم، ولكن مع ذلك يشعر أحياناً بشئ من الحسد والحقد والبغضاء لأقاربه، لاسيما إذا لاحظ فيهم تفوقاً عليه أو أمتيازاً، أو شدة في المنافسة، لايستطيع من هظمها وإستيعابها والتعايش معها كحالة طبيعية ناجمة أصلاً من الأختلاف في الخلق بين الناس بعضهم بعضاً من حيث درجة الذكاء والقابلية في أغتنام الفرص التي يطلق عليها تسمية الحظ.

ولهذا نجد أن القبيلة البدوية لاتكاد تكبر حتى تنقسم إلى أفخاذ، وكثيراً ماتقوم الحروب الشعواء بين أفخاذ القبيلة الواحدة، ويصبح كل فخذ منها كتلة معادية لبقية الأفخاذ، ولعلنا لانغالي إذا قلنا أن من أعداء الفرد القبلي أخوة وأبن عمة أحياناً وتنشأ عداوة بينهم وتؤدي إلى القتل لكي يحظى بالرئاسة، وتاريط العرب ملئ بالأحداث التي تعزز هذه المقولة، وحيث أن العشائر والقبائل ترتضي لزعمائها رجالاً أستطاعوا بسجاياهم وكفائتهم أن ينتزعوا أعتراف الناس بتقدمهم عن غيرهم برضى وطيب نفس، وعلى الرغم من أن هذه المرتبة كثيراً ماتنتقل من الأب إلى الأبن فيتعين على هذا الأخير أن يحققها لنفسه بأن يقيم الدليل، مستقلاً على شدة بأسه وقوة مراسه، ولم يكن لهؤلاء الزعماء (السادة) حقوق فعليه على الأطلاق، ولم تكن نزعة الناس إلى الأستماع لهم في المجالس العامة أقوى من نزعتهم إلى الأستماع لغيرهم. أما واجباتهم فهي على العكس كبيرة ومتعددة. أنهم في حالة الحرب خليقون بأن يكونوا أبداً على أستعداد للتضحية بأرواحهم، وهم في حالة السلم خليقون بأن يضحوا بما تملكه أيديهم في خدمة القبيلة وأبتغاء إغاثة المعوزين من أفرادها.

ولكن مهمتهم تتركز في المحافظة على وحدة القبيلة أولاً، والتي كثيراً ماتتهددها المصالح الشخصية بأعظم المخاطر. فالخلافات التي قد تنشب بين أعضاء القبيلة الواحدة

على ملكية لشئ ما تسوّى في المجالس اليومية، أما حين ينشب الخلاف بين أفراد ينتسبون إلى قبائل مختلفة فيلجأ المختصمون إلى رجل مشهود له بالتعقل والحكمة أو إلى أمرأة تمت لها هاتان الميزتان، وكثيراً مايكون الحكم في هذه الحالة إلى كاهن أو عراف، ولكن حُكم الحكَم لا يكون ملزماً للمختصمين الا إذا أرتضاه الفريقان أو حتمه تفوق أحدهما على الآخر في قوته وبأسه (لايزال المثل الشائع لدينا بحكم القوي على الضعيف إلى يومنا هذا).

ولما كان زعماء القبيلة أنفسهم لايملكون القوة التنفيذية أيضاً، فقد إنعدم عند عرب البدو وجود القانون الجنائي، وأمسى من الضروري أن ينزع كل فرد إلى أستخلاص العدالة من قاتل نسيبه أو سالبه بالطرق الشخصية. أما إذا عثر على أحد الأفراد مقتولاً بيد مجهول في منطقة أحدى العشائر، ووقعت الشبهه على أحد أفرادها تقسم العشيرة الأيمان على براءته، وقد يجرح صدق هذا القسم ويبطل فعله بقسَم آخر تقسمه عشيرة القتيل، وأنما يقع الثأر للقتيل على عاتق أقرب الناس اليه. وإذا كانت عشيرة الجاني تنزع في الأعم الأغلب إلى أن تنصره فقد يتولد عن الأنتقام للدم ثأر جديد لايلبث أن يتطاول في الكثير من الأحيان فسيستغرق أجيالاً تتجددفيها النزاعات وتسفك الدماء.

صحيح أن جريمة الدم (القتل) قد يكفر عنها بالديات يقدمها أهل القاتل جمالاً ونياقاً إلى أهل القتيل، وصحيح أن من واجب الزعماء في القبيلة أن يعملوا على أيجاد تسوية بين المتخاصمين من غير أن يملكوا حق فرضها عليهم، ولكن العشائر كثيراً ما لاتنتهي قراراتهم إلى الأخذ بهذه التسويات الا بعد أن تكون قد تفانت ودقت بينها فترة طويلة يستطيعون فيها نسيان ماحصل لهم من مأساة. أما إذا سلم القاتل طوعاً لاكرهاً إلى الطرف الآخر لينزل فيه إنتقامه فعندئذ لايبقى مجال للثأر، ولكن مثل هذا الصنيع يعتبر وصمة للعشيرة فهي تفضل أن تقتل الجاني على أن تسلمه طوعاً ويلحق بها العار. أن حاسة الشرف السامية هذه التي إتسم بها جميع أعمال البدوي هي الأساس الذي ينهض

عليها صرح الأخلاق عنده، ولابد لنا أن نذكر واقعة حصلت في تاريط العرب قبل الإسلام وهي حرب البسوس التي دامت قرابة ثلاثين عاماً لم تكن لتسجل الأسباب والمبررات الحقيقية ورائها بدقة والتي كانت حرباً أهلية بين القبائل الضاربة في عمق الصحراء وكانت تعكس نموذجاً حياً لنمط الحياة والعلاقات الاجتماعية السائدة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ويقال أنها نشأت من أجل ناقة أصابها شيط من بني تغلب بسهم فأدماها، فغضب لها رجل من بني بكر، وأسرع إلى الشيط فقتله، فثارت تلك الفتنة العمياء والتي سقط فيها الألوف من القتلى والجرحى. ومثل هذا القول عن حرب تدعى (داحس والغبراء) وهي لاتقل شهرة عن حرب البسوس. كان سببها المباشر والمعلن أن سباقاً جرى بين حصان عبسي وفرس ذبيانية. فحدث جدال بين صاحبيها مما أدى إلى أن تشترك قبيلتهما وأحلافهما في قتال مرير لايقل شأناً عن قتال البسوس.

يمكن القول أن الأهانة البسيطة التي تؤدي إلى مثل هذه المعارك الطاحنة هي بمثابة شرارة تقع على برميل مشحون بالبارود[1].

أن الحرب والقتال مركب أساسي من الثقافة البدوية في الصحراء، ولهذا كانت الحرب في البداوة دائمة ومتصلة ولاتخمد لها أوار. فهي لاتتوقف فترة الا لتثور بعدئذ. أن القيم البدوية بشتى مركباتها وخصالها تدور حول تمجيد الغزو والغلبة والفروسية والحمية المفرطة التي لاحدود لها. أما البداوة فأنها جوع مزمن ولابد أن يكون فيها تنازع البقاء شديداً، حيث يفنى فيها الضعيف ويبقى القوي الصامد. ويمكن القول أن الحرب هي الأصل في البداوة ومالسلم فيها الا حالة طارئة، وهذا هو سر بقاء المنطقة محدودة التطور والأزدهار عبر التاريط لأن حالة الحرب لاتنتج سوى الخراب والدمار ولاتتم الحضارة الا في ظروف السلم.

---

(1) محمود شكري الألوسي (بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب) الجزء الأول/علي الوردي (المصدر السابق) 68.

ولا بد لنا أن نذكر هنا عن عادة أجتماعية لبعض القبائل العربية قبل الإسلام الا وهي وأد المولود إذا كان بنتاً من أول أيام ولادتها. ويعود السبب الحقيقي وراء ذلك السلوك إلى حالة الفقر والعوز الذي كانت تعاني منه المنطقة الصحراوية القاحلة ذات الموارد المحدودة. أن معرفتهم بأن تلك المولودة ستكبر وتلد وبالتالي تزيد من عدد السكان الذين لايستطيعون إنتاج قوت يكفي لبقائهم على قيد الحياة والأستمرار بالبقاء لذا تجدهم يُقبلون على فعل هذه الجريمة التي حرمها الدين الإسلامي. وقد فعل المصريون في عصر الفراعنة عملاً مشابهاً وذلك من خلال رميهم للأطفال حديثي الولادة في نهر النيل عند حصول القحط ونقص المحصول الزراعي في عدد من السنين التي مرت وحصلت فيها فيضانات مدمرة[1]. وتعطي عادة وأد البنات في الجزيرة العربية قبل الإسلام دلالة أخرى في مدى إعتزاز العرب بالمحافظة على عفة المرأة وشرفها ومنعها من الظهور بين الناس، من أجل أحكام السيطرة على الأنجاب وذلك بتقليص أو السيطرة على الأنجاب بشكل لايؤثر على حجم السكان لأن المرأة هي بمثابة المنجم الوحيد لتكاثر السكان، وأن العناية والسيطرة على هذا المنجم يعني بالنتيجة العناية والمحافظة على إبقاء المجتمع بشكله المعتاد دون أن يتضخم لدرجة تصبح فيه الحروب أمراً لامفر منها، وهنا أيضاً يبرز دليل واضح على أن سلوك وعادات أي مجتمع يصبح مرهوناً بظروفه الاقتصادية ومقدار ماتنتجه الأرض من موارد طبيعية تتحكم في بقاءه.

---

(1) موسوعة الكتاب المقدس (دار منهل الحياة / منصورية المثنى، لبنان (1993) صفحة 68 (سفر الخروج وولادة موسى) {أمر فرعون كل شعبه وقال لهم أطرحوا في النهر كل ذكر يولد من بني إسرائيل وأبقوا كل أنثى} . بالإضافة لذلك كان المصريون يرمون الأطفال في النيل كقرابين للآلهة ويعتبر ذلك أحد الواجبات الدينية المقدسة، ويرمون البنات الجميلات بعد تزينهم ولبسهم ملابس العرائس إلى النيل كي يعرس عليها آلهة المياه الغاضبة، ويتخلصوا من غضب إله النيل.

ويمكن القول أن الغزو هو حاصل ظروف طبيعية واقتصادية واجتماعية ألمت بالاعراب وأجبرتهم على ركوب هذا المركب الخشن، كارهين أو مختارين، فليس للاعرابي للمحافظة على حياته ولتأمين رزقه غير هذا الغزو. وقد بقي يغزو حتى في الإسلام مع منع الإسلام له، ولا يجد فيه مع ذلك غضاضة ولا بأساً.

لقد فرضت الطبيعة على الأعرابي أن يكون محارباً غازياً، فقد حرمته من خيرات هذه الدنيا ومن طيبات ما تنبت الأرض، حرمته من وجود حكومة تحميه وتدافع عنه وحرمته حتى من وسائل الدفاع عن النفس، فجعلته لا يمتلك شيئاً يكن إليه في البوادي ليحمي نفسه من الرياح والسموم ومن أشعة الشمس القاسية ومن الحيوانات الوحشية، وجعلته يقابل المرض بمفرده، ولم يكن أمامه والحالة هذه، إلا أن يتعلم الصبر وأن يصير محارباً غازياً لا يبالي بالنصر أو الخسارة، بالحياة أو الموت. فهو إن خسر هذه المرة حاول تعويض الخسارة بجولة جديدة. وهكذا لأنه إن يئس وجلس واستسلم للزمان أكله جار له يطمع في ماله مهما كان، فهو لابد له من استعداد لغزو جديد. وفي الغالب يكسب النصر من له عدد وافر وكثير من الخيل وفرسان شجعان يأخذون الخصم بمباغتة ومفاجأة.

وللخيل نصيب كبير للغزو لما تتمتع بها من سرعة في الحركة بالمقارنة مع الجمل أو الرجال الراجلة. إلا أن للإبل فضل في تحمل الجوع والعطش ولصلاحيتها على المشي في البوادي، فقد صارت خير وليف للعرب، واشتركت في الغزو والحروب أيضاً. والجمل من الحيوانات القانعة الصابرة، ولولا الجمل لما كان في استطاعة العرب اختراق جزيرتهم والتنقل فيها من مكان إلى مكان. وبفضله اتصل العرب بعضهم ببعض، وقامت المستوطنات في مواضع نائية منعزلة في بلاد العرب وقهر العربي ظهر باديته، وتكونت فيها تجارة برية وطرق برية طويلة يخترقها الجمل بغير كلل ولا ملل، صابر على العطش حتى يصل إلى مرحلة بعيدة فيها ماء، ويتحمل الجمل العطش مدة أربعة أو خمسة أيام في الصيف و 25 يوماً في الشتاء. وقد وردت قصص عديدة في حروب الغزو لدى

العرب قبل الإسلام يمكن الرجوع إليها في المصادر المتخصصة[1] ، أما فيما يخص القوانين والشرائع فقد كان هناك فقه في أهل مكة أكثر تطوراً من أهل المدينة مثلاً. ومهما يكن من أمر فإن القوانين والشرائع هي من بنات المحيط، ومحيط الجزيرة العربية محيط قبلي مجتمعاته صغيرة متباعدة ومشكلاته محصورة في ضمن إطار حياتهم فإن المعضلات القانونية عندهم تكاد تكون محدودة نابعة من ظروف جزيرة العرب في الغالب، ومعالجتها وأحكامها نابعة من هذه الظروف أيضاً فهي وفق معيشة الجاهليين وأحوالهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والزراعية لا يمكن أن تجد فيها ما نراه في قوانين اليونان والرومان في ذلك العصر من تبويب وتعقيد لاختلاف الحياة وتباين المحيط ونوع الحكم الذي كانوا عليه[2] .

يتضح مما تقدم أن المجتمع في الجزيرة العربية قد أصبح في حالة ترقب لظهور منقذ من هذا الوضع والحاجة إلى وضع تشريعات ونظم لأنقاذهم من واقعهم المؤلم والى تكوين كيان سياسي جديد قادر على جمع شملهم وتوحيدهم وتنظيمهم ضمن هذا الكيان وتخليصهم من الهيمنة الاجنبية التي كانت قائمة في شرق البلاد من الفرس وفي غربها الشمالي من الرومان، وبالتالي سيكونون قد وفروا بأقل تقدير مقداراً من الثروة، التي كانت تذهب إلى ذلك المهيمن لأجل تحسين أحوالهم الاقتصادية المتدهورة. وعلى العموم فقد كانت قوانين الصحراء تطبق في مدن الجزيرة كافة. مثل الطائف ومكة والمدينة (يثرب)، إذ كانت تلك المدن مكونة من عشائر مختلفة كما كان يعيش البدو في خيامهم في عمق الصحراء، ولذلك كانوا يعيشون عيش الحرية والاستقلال فلا يطيعون

---

(1) جواد علي (المفصل في تاريط العرب قبل الإسلام) ج 5 دار العلم للملايين، بيروت ط 2 (1978) ص 333.

(2) جواد علي (المصدر السابق نفسه) ص 484.

أحدا، وليس من شك في أن شعور الشرف الذي كان بالغ الحساسية في الصحراء قد وجد مايخفف عنه بعض الشئ في مكة بسبب من المصلحة العامة التي كانت للمكيين في الكعبة المقدسة، والتي كان يؤومها الجميع من كافة الأديان والأرجاء. ومن التجارة التي كانت تعتمد على أزدهارها. وإذ كان كل فرد من أبناء مكة معنياً بهذه الشؤون فقد كانت العلاقات الاقتصادية فيها أكثر تعقيداً. وتفوق العشائر الغنية على العشائر الفقيرة أكثر مما كان عليه الحال في بقية أنحاء الجزيرة. أما في المدينة (يثرب) فقد كانت فيها بعض موارد العيش الرئيسية المعتمدة على الزراعة والعناية بالنخيل، وكانت الحياة الاجتماعية أكثر سذاجة عما هو عليه الحال في مكة، حتى إذا جاء الإسلام فقد كانت الثارات قد وصلت إلى درجة عالية من الدموية بحيث صار الفرد لايكاد يجرأ على مغادرة منطقته المحصنة من غير أن يعرض نفسه لأشد الاخطار. وهكذا أصبحت مكة مركزاً قيادياً مهماً في كافة أرجاء الجزيرة العربية كما أسلفنا، وبدأ قادة ورؤساء القبائل يفكرون جدياً في أيجاد كيان سياسي يتمكن من توحيد كافة القبائل والمناطق المحيطة وأدارة شؤونها. ومن هنا جاء الإسلام ليلبي كل تلك المتطلبات المذكورة سلفاً.

وأن من الانصاف أن نشير هنا إلى وجود صفات وعادات أجتماعية رائعة في الصحراء العربية تم التعرض اليها في كتاب الدكتور علي الوردي عن دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. الا أننا نركز هنا في المواريث التاريخية للعنف السياسي السلبية ونفتش عن أسباب ودواعي السلوك السئ الموروث في عقولنا من أجل الوصول إلى نتائج تقودنا إلى فهم أفضل لمجتمعنا في الوقت الحاضر.

9. الشعر عند العرب قبل الإسلام:

العرب كما أشرنا سابقاً مدينون بأحساسهم أنهم يؤلفون أمة واحدة على الرغم من اختلافاتهم القبلية وحروبهم فيما بينهم، وذلك لمواهبهم الروحية العامة في الدرجة الأولى. فقد ترعرع الشعر عندهم وأزدهر في رعاية الدين إلى حد كبير، فأغلب

الظن أن الشعر عند العرب قد أرتبط ومنذ نشأته الأولى بالدين (قبل ظهور الإسلام)، وليس من شك في انه وجد حافزه الأول في غريزة اللهو والمتعة التي كان يجدها الإنسان البدائي في الصوت والايقاع، فتساعده على أحتمال أعباء ومتاعب الحياة. أن الكلمة الملفوظة لفظا مهيبا (الشعر) أستطاعت في الوقت نفسه أن تضمن للأنسان البدائي الحصول على التأثير المقصود بواسطة قواه الخاصة ليس الا.

وبهذه الطريقة ساعد فن البلاغة القديم على خدمة السحر، الذي لم يكن يتعارض في هذا الطور من أطوار الحياة الفكرية مع الدين في المرحلة التي كان الدين معتمداً على السحر والكهنة.

لقد أصبح الشعر فنا من الفنون المتميزة في الجزيرة العربية إلى درجة انها ربما كانت المجال الوحيد في المباراة واظهار القابليات المتميزة لبعضهم دون الاخر. وفي أوقات الحرب، كانت مهمة لعن العدو تقع على عاتق الرجل القادر على أن يقول الكلمة المناسبة، حتى إذا ضعف الايمان بالقوة تطورت إلى قصيدة هجائية، وأنتقلت من دائرة التناحر بين القبائل إلى دائرة التشاحن بين الاشخاص لتنتهي في أخر المطاف، بوضعها سلاحا مخوفا إلى أن تبتذل فتصبح مورد رزق لشاعر لايخشى الفضيحة والتهديد. ولم يمثل الحب الجنسي في الشعر العربي كما هو عليه الحال لدى الشعوب البدائية الا دوراً ثانوياً. ذلك ان الشاعر الجاهلي كان يصطنعه، في الشعر الفني الذي لم يحفظ لنا غيره، كمقدمة للغرض الذي يقصد اليه، وهو التمدح بنفسه أو الاشادة بمحامد قبيلته أو مدح سيدة أو أميرة، إذا كان شاعراً محترفا. وأنما كانت هذه القصائد تجري على سنن تقليدية مرسومة. فكان الشاعر يستهل قصيدته بالحنين إلى أيامه الصالحة التي سعد فيها بالحب، وقبل أن يبلغ غرضه الحقيقي كان يعمد إلى امتاع سامعيه بأبيات في وصف الطبيعة.

وربما كان النقص في التغني في الحب وتكرسه لدى العرب واحداً من العوامل المؤثرة على أستمرار أحداث التطاحن والحروب، والحق أن العرب قد وفقوا في الابداع

بوصف الصحراء وحيواناتها النموذجية كالجمل الذي أتصلت حياتهم بـه اتصالاً وثيقاً. ولكن هذه اللوحات التصويرية المبدعة نفسها لم تعتمد على الملاحظة الشخصية أيضاً بل أفرغت في قوالب تحدرت إلى الشعراء من الاجيال القديمة.

ومن هنا لم يفسح هذا الفن مجالاً واسعاً أمام الشعراء لأظهار شخصياتهم الا في القليل النادر حيث تكون المفارقة صريحة جداً. ومن أفضل الامثلة على ذلك الشاعر أمرؤ القيس ذلك الملك الضلل الذي سبق لأبائه من كندة (العشيرة العربية اليمانية) أن وحدوا القبائل البدوية الشديدة الشكيمة في الشمال عند بداية القرن السادس الميلادي ووجهوها في غزوات مخربة على الامبراطوريتين الرومانية* والفارسية، والذي أنفق عمره في السعي لأسترداد مجد أسرته هذه إلى أن مات أخر الامر مسموماً كضيف للأمبراطور البيزنطي في أنقرة بأسيا الصغرى (تركيا اليوم).

وكذلك الشاعر زهير أبن أبي سلمى شاعر الحكمة العملية الجامعة، والاعشى المنشد المحترف الذي قاد تطوافه في سبيل التكسب إلى جنوبي غرب بلاد العرب.

ولم يكن أصطناع اللغة العامة للتعبير الشعري وقفاً على الشعراء الفنيين وحدهم، فقد شاركهم في ذلك رعاة هذيل الذين كانوا يضربون خيامهم قرب مكة، فأصطنعوا في أشعارهم لغة تختلف أختلافاً بيناً عن لغة التخاطب اليومي على الرغم من أستمدادها من جميع اللهجات العربية السائدة في ذلك الحين، وفهم العرب لها في كل مكان.

ويبدو أن هذه اللغة الغنائية أو الشعرية التي نجد مثيلها عند كثير من الشعوب البدائية لم تسد في نجد والحجاز فقط، بل أمتدت سيادتها إلى قلب بلاد الرافدين أيضاً.

ثم أنها صارت أم العربية الفصحى التي جعلها الإسلام من خلال أنتشاره لغة

---

* لقد كان العرب يطلقون على البيزنطيين اسم الرومان خطأ وقد أبقينا على هذا الخطأ نفسه في بعض فقرات هذا الكتاب تماشياً معهم.

عالمية في الشرق الادنى وشمال أفريقيا وتحديداً على طول الساحل الجنوبي من البحر الابيض المتوسط بكامله. بعد أن كانت لهجات مشتقة من لغات متفرقة في المنطقة كالعبرية والكلدانية والكنعانية والفينيقية والفارسية... الخ لقد أصبحت البلاغة اللغوية هي السمة الغالبة في تراث المنطقة العربية منذ ذلك الحين، ولايفوتنا أن نذكر هنا القصائد المعروفة بالمعلقات السبعة وهي أشهر ما قالته عرب الجاهلية من شعر في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وفي مكة.

والذي يهمنا في هذا البحث هو الارث الثقافي القديم وما تركه من أثار على سلوكنا الاجتماعي (في العراق وبقية البلاد العربية) لحد الان.

لقد أصبح البيت الشعري أو القصيدة التي تلهب مشاعر الناس أو المثل وحتى العبارة الواحدة ذات الدلالة المؤثرة أصبحت قانوناً ملزماً للناس دون منازع في الالتزام بمعناها وتطبيقها حرفياً، وكأنها دستور منزل من السماء لايمكن مناقشته أو الطعن بصحته (مهما أختلفت الظروف). من هنا يمكن أن تكون الكلمة سيفاً ذو حدين فقد تقود الناس في أكتساب قيم أخلاقية لصالحهم في فترة زمنية معينة، الا انها لايمكن أن تبقى كذلك لكل الازمنة والظروف. ومن هذا المنطق فقد أصبحت البلاد العربية كلها أسيرة بأغلال وقيود صنعتها بنفسها، ولعبت دوراً لايستهان به في تقييد العقول وربما منعها من الانطلاق لغد أفضل. أن الالتزام بالنص في الظرف الذي قيل فيه هذا النص والهدف الاساسي منه، قاد الكثير نحو السير بالاتجاه الخاطئ وقد أساؤا لانفسهم دون غيرهم، من خلال ذلك ألتزمت والالتزام المفرط بالنصوص، مهما كانت من قوة في البلاغة والصياغة اللغوية. ولو امعنا النظر في قوة الصياغات اللغوية لوجدنا أنها لاتعدو مجرد لحن موسيقي مستساغ من قبل السامع وكثيراً ما يكون خالي من العمق الفلسفي الواقعي الذي يصب في صالح الارشاد نحو المثل الاخلاقية العالية، فقد يكون فعلاً لصالح ظرف تاريخي معين ومنسجماً مع شكل وطبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية

والفكرية ومستوى تطور العقل البشري ضمن المرحلة التاريخية التي جاء فيها ولهذا السبب أيضاً بذل العديد من الفقهاء والمصلحين الدينيين في عصرنا مجهوداً كبيراً في أخراج فتوى أن زوال الحكم بزوال أسباب النزول بالنسبة لما جاء في القرآن والسنة النبوية[1]. ومن وجهة النظر المتعلقة بعلم النفس فإن الامم والشعوب تحتاج إلى نوع معين من الفنون في كل مراحل حياتها كحاجتها إلى الماء والهواء، ولابد أن تكون القوة البلاغية اللغوية (الشعرية والنثرية) هي الفن الوحيد المتميز في الجزيرة العربية في ذلك الحين. وبذلك يصبح التمسك به أمراً ضرورياً من أجل أدامة الحياة والاستمتاع بها بقدر أكبر، ومن هذا المنطلق نجد أن الشعوب العربية كلها متمسكة بحفظ النصوص والاشعار العربية القديمة وتتغنى بها، وتعتبر الصفة الفنية المتقدمة عن غيرها من الشعوب دون سواها من أنواع الفنون الاخرى المعروفة كالموسيقى والتمثيل المسرحي وحتى الرسم والنحت وفنون العمارة وغيرها من الفنون التي أزدهرت في مناطق أخرى من العالم حتى في تلك الفترة التي نتحدث عنها. ويعود ذلك بالدرجة الاساس إلى نمط النظم الاستبدادية التسلطية من قبل رؤساء القبائل في المنطقة. ويجدر الإشارةهنا إلى أن عصر فجر الإسلام قد تميز بأضمحلال الشعر أي بمعنى المديح للحاكم، فقد أنتهى دور الشعراء العرب وأعتبره الناس من السلوك والعادات الجاهلية[2]، والتي تخدم السحرة والمشعوذين ولكن بدء دور الخطابة وذلك لتحول المجتمع من نظامه القبلي القديم إلى نظامه الديني الجديد فقد غاب عن الساحة العربية في عصر فجر الإسلام الشعراء المشاهير الذين عرفناهم من أيام المعلقات السبعة قبل الإسلام. إلا أن معاوية أبن أبي سفيان كان من محبي الشعر وبدء يقرب الشعراء ويكرمهم بالمال فعاد من جديد عصر الشعراء العرب في بداية تكوين الدولة الاموية، كما أن يزيد بن معاوية كان هو الاخر

---

(1) أحمد أمين (زعماء الاصلاح في العصر الحديث) دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.

(2) (Nicholson)A Literary History of the Arabs.

مولعاً بالشعر. وقد قال هو في الشعر الكثير ويعتبر واحداً من شعراء عصره كما أنه أغرى الاخطل وأكرمه وقربه منه كثيراً، وكان مسيحياً وهو أحد مشاهير عصره في الشعر وهكذا نجد أن الشعر كان أحد ألوان الفنون التي تنمو وتزدهر عندما يكون هناك حكماً أرستقراطياً مستبداً يحتاج للمدح والدعاية وأكتساب رضى الناس من خلال أسماعهم بالاشعار المنمقة والمستساغة لهم.

لقد عاد العرب في عهد بني أمية إلى الشعر كما كانوا فيه في جاهليتهم من التنافس والتناحر القبلي، وأصبح الناس آنذاك يقضون معظم أوقاتهم في الجدل حول الشعر والشعراء وفي المفاضلة بينهم وكثيراً ماكانوا يتخاصمون وترتفع أصواتهم وربما أهتم الخليفة أو الامير بذلك الخصام فبعث إلى بعض الاخصائيين في الشعر يسأله عن رأيه.

وهكذا أستمر هذا الموروث الثقافي إلى وقت قريب، يستفيد منه الحكام والولاة في أشغال الناس في الجدل حول الشعر تاركين في الوقت نفسه أهم الامور المتعلقة بمصيرهم وتحسين أمورهم الاجتماعية والسياسية.. وفي هذا المجال نذكر قول علي الوردي في كتابه وعاظ السلاطين، (لقد عمل الامويون على إثارة قلوب العرب ضد غيرهم من الاقوام، فصارت دولة عربية شعرية لا تفهم الإسلام إلا على أساس قومي بدوي. وأخذ العرب في تلك الايام يعتبرون ان الإسلام قد جاء للعرب لكي يرفع من مكانتهم بين أمم الارض، وأصبح محمد (ص) في نظرهم بطلاً قومياً من طراز جنكيز خان أو تيمورلنك)[1].

وصار الاعاجم الذين دخلوا الإسلام مؤخراً محتقرين في نظر العرب على عهد الامويين وأخذوا يطلقون عليهم أسماء مستهجنة كأن يسمونهم (النبيط) أو (الحمراء) أو (الموالي). وأنتشر بينهم المثل القائل (ولايقطع الصلاة الا ثلاثة: حمار وكلب ومولى). ولابد أن نذكر هنا إلى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (الخليفة الزاهد) في العصر الاموي

---

(1) علي الوردي (وعاظ السلاطين) ص 268.

قد حاول منع الشعراء من الوقوف في بابه وأعلن أنه لايقبل الشعر ولايقابل الشعراء وأعتبر جوائز الشعراء سرقات من بيت مال المسلمين[1].

وهكذا نجد هنا أرثا كبيراً قد بقى مخزوناً في ذاكرتنا نحن العرب من أحتقار للأجنبي في أعتباره (موالي) وندعوه بالعجمي حسب اللهجة العراقية السائدة إلى يومنا هذا.

كما لا يزال الكثير منا لايستسيغ من الشعر سوى المقفى والموزون على طريقة عرب الجاهلية ويعتبرون الشعر الحديث ليس بالشعر الصحيح حسب مذاقهم.

وأخيراً يمكن القول بأن الشعراء في أيام الجاهلية، كانوا ديوان العرب ووسيلتهم الكبرى في الافتخار القبلي. ولم تهتم امة من الامم بشيء كما أهتمت أمة العرب بالشعر. فكان الشعرسلاحاً ثانياً يساعد السيف في التنازع على البقاء، الذي كان شديداً في حياة الصحراء كما أسلفنا سابقاً.

وربما فضل العرب الشاعر على الفارس، حيث كان الشعر أقوى عون للقبيلة البدوية من الفارس القوي أحياناً، وكان واحداً من أهم أهتمامات قبيلة قريش لمنحها الجوائز للشعراء، وبهذا صار الاعراب ينظرون إلى قريش نظرة أحترام وتقدير.

---

(1) علي الوردي (المصدر السابق نفسه) ص 162.

10. خلاصة الفصل الثاني :

يمكن أن نوجز ما جاء بهذا الفصل بالنقاط الهامة التالية والتي تتعلق بموضوع بحثنا عن المواريث التاريخية:

1. أن شحة الموارد الطبيعية في المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية المتمثلة بقلة الامطار وحرارة الجو العالية، قد ساعد في إنتشار القبائل الرحل والرعاة في مناطق متباعدة بعضها عن بعض، وكان عاملاً رئيسياً في أكتساب حالة الاقتتال والتنافس بين القبائل، والذي أصبح سمة مميزة للحياة في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام. بينما أتخذت القبيلة شكل التنظيم الاداري والاقتصادي والسياسي للناس في ذلك الحين، وهيمنت أدارة الزراعة والحرف والصناعة من خلال القوة القتالية التي تتمتع بها، بالاضافة لأعمال الغزو والسلب والنهب التي أصبحت مهنة تقليدية لدى بعض القبائل المنتشرة في الصحراء وأنطبعت في أذهانهم لتصبح أرثا تاريخياً ثقيلاً يصعب أزالته والى يومنا هذا.
2. أن الديانات التوحيدية التي ظهرت في الجزيرة العربية، بدأت تنمو وتتبلور تدريجيا عن طريق الرعاة، وقد أتخذت أشكالاً متعددة من التجريد، إلى أن وصلت إلى مرحلة متقدمة ملائمة لتكوين كيان سياسي متقدم قادر على الصمود والسيطرة وتنظيم حياة الناس، الا انها لم تستطع ازالة المعتقدات الدينية من حيث الطقوس والواجبات وبعض القوانين التي سبقت مرحلة التوحيد من الديانات الوثنية التي كانت منتشرة في بلاد الرافدين ومصر وغيرها، وأنتقلت لتشمل كل أرجاء الجزيرة العربية وغيرها من المناطق المجاورة، وقد أستمدت العديد من الطقوس والممارسات الدينية من ديانات بلاد الرافدين القديمة وأخذت منها الكثير من التشريعات التي كانت تمارس منذ الاف السنين، أن ذلك أدى إلى

المزيد من القيود والتسلط من قبل الحاكم أو رئيس القبيلة، بأعتبار أن سلطته مستمدة من الاله الحامي، وان خدمته لأستدامة الحياة وصيرورتها، وبالتالي زيادة الاستبداد والتسلط وتحجيم حضارتهم، وقد ساعد ذلك في أستمرار ظاهرة الاستبداد كموروث ثقافي قديم في المنطقة،وزيادة في تقيد العقل ومنعه من الإنطلاق الحر في تفسير الظواهر الطبيعية.

3. لقد كان الشعر والسجع أحد أهم مظاهر الحضارة العربية في العصر الجاهلي وساهم في تطوير وتوسيع المفردات اللغوية وتوحيد اللهجات السائدة إلى أبعد رقعة في المنطقة، بالاضافة إلى المساهمة في ترسيط القيم والمبادئ الاخلاقية السامية، الا انه ساهم في الجانب الاخر في مدح وأدامة الحكم الاستبدادي المبني على أساس أن الحاكم ممثل الاله في الارض، بالاضافة لذلك فإن التمسك بالنص أدى بالنتيجة إلى الابتعاد عن المنهج العلمي في التفكير، وبالتالي ساهم في تقيد المجتمع وتحجيم حضارتهم، والتي لاتزال مطبوعة في الاذهان في عدم التخلي عن النص رغم تغير الظروف والاحوال التي قيل بها هذا الشعر أو ذاك النثر.

الفصل الثالث

عصر فجر الإسلام

لا توجد فترة في تاريخ الجزيرة العربية أخذت من البحث والتقصي والتدوين الدقيق لأحداث أكثر مما أخذته فترة ظهور الإسلام او ما يسمى بعصر فجر الإسلام، فقد إمتلأت المكتبات بالعديد من المصادر والكتب المتخصصة بتفاصيل الاحداث حتى البسيطة منها، وغطت تلك المصادر الكثير من الاحداث اليومية التفصيلية البسيطة منها والمهمة على حدٍ سواء. منها ما هو موضوعي وعلمي يهدف إلى الوصول للحقيقة، ومنها ما هو متحيز لطائفة دون أخرى حسب تفكير وعقلية الباحث أو كاتب الحدث ومنها ما هو من نسج وتلفيق الرواة الذين لا همَّ لهم ولا علاقة لهم بالحقيقة والموضوعية، بل الهدف هو الإثارة والإمعان بالأفكار الغيبية وتكريس الأفكار الميتافيزيقيا البعيدة عن الواقع، وكثيرا ما يقع هؤلاء في مطبات وتناقضات تكشف كذب وتلفيق أقوالهم ومصادرهم من خلال عدم تطابق تلك الاحداث مع بعضها البعض من حيث التواريخ وتعارضها مع المنطق العقلاني المقبول وبشكل ساذج. لقد كتب الشاعر العراقي المشهور معروف الرصافي كتابا بعنوان (الشخصية المحمدية [1] يكشف فيها الكثير من زيف وألاعيب الرواة وتناقضات تلك الروايات التي تسببت في العديد من المشاكل والحروب والى عهدٍ قريب وننقل ما كتبه في آخر كتابه بهذا الخصوص في عبارة مؤثرة تدل عن إنطباعه عما قرأه وسمعه من روايات متناقضة عن تلك الفترة وكما يلي: (أصبحت لا أقيم للتاريخ وزناً ولا أحسب لهُ حساباً لأني رأيته بيت الكذب، ومناخ الظلال

---

(1) معروف الرصافي ـ (كتاب الشخصية المحمدية) أو حل اللغز المقدس، منشورات الجمل/ المانيا (2002).

وتنسجم أهواء الناس، إذا نظرت فيه كنت كأني منه في كثبان من رمال الأباطيل قد تغلغلت في ذرات ضئيلة من شذور الحقيقة). والمقصود بالتاريط هنا هو ما مدون من احداث في عصر فجر الإسلام. ويستند الرصافي في كتابه هذا إلى السيَر والسنن النبوية المشهورة بدقة وحذر شديد من أي تلاعب او تناقض، والتي كتبت باعداد كبيرة ومعترف بها من قبل الجميع، كان اشهرها السيرة الحلبية وسيرة إبن هشام ودحلان والزمخشري وإبن كثير والبخاري والترمذي ومسلم وإبن قيم الجوزي وغيرهما. ولذلك ومن أجل عدم حصول التكرار والخوض بتفاصيل أخذت حقها في الكتابة ننتقي بعض من هذه الاحداث المؤثرة والتي لازالت أثارها باقية لدينا، ونذكر كل ما يتعلق بموضوع البحث من مواريث تاريخية تأصلت ولعبت دوراً أساسيا في حياتنا وفي سلوكنا وعاداتنا الاجتماعية ووضعنا السياسي والاقتصادي العام سواء أكان في العراق أو على نطاق المنطقة الأقليمية برمتها. وسوف نكرس جزءاً بسيطاً منها والمتعلق بالموروث التاريخي للعنف السائد في المنطقة دون غيرها من مناطق العالم في الوقت الحاضر على الأقل، نظراً لأهمية الموضوع، آمل أن تتاح لي الفرصة في البحث عن الموضوعات الاخرى الموروثة والمؤثرة في حياتنا الحاضرة وفي المستقبل، بالاضافة لذلك فإن هذه الفترة المتعلقة بشكل مباشر في الدين، لاتزال حساسة جداً ولا يتقبل العديد منّا مناقشتها والولوج في تفاصيلها، نظراً لشدة موروثنا التاريخي الثقافي المطبوع في الأذهان من عدم تقبل الرأي والرأي الآخر بالمقارنة مع المواضيع الأخرى. لقد أصبح تاريط فجر الإسلام والسيَر النبوية أحد أهم الدروس في كافة المدارس الدينية وأقتصرت دراسة التاريط لدينا في دراسة تاريط فجر الإسلام بالدرجة الأساس، وكل ما كان قبل ذلك عبارة عن عبث وجاهلية ولا داعي للخوض والتحدث به خاصة في المناهج المدرسية، كما يعتقد بعض المغالين والمتعصبين دينياً وقومياً. وهذا خطأ فادح بحق جيلنا والاجيال القادمة، فلا يمكن فهم أي موضوع مهما بلغت أهميته ما لم يتم دراسة الاصل. وطالما كان الهدف هو الوصول إلى الحقيقة،

ومحاولة زيادة الفهم عن المواريث التاريخية الثقافية والسلوك الاجتماعي وما آلت اليه الامور لتصل بنا إلى ما نحن عليه، فلابد من البحث والتقصي خلال كل الفترات التاريخية دون إستثناء. هذا من جانب ومن جانب آخر فإن هناك تفاصيل صغيرة لا أهمية لها، وأن أمر البحث بها وتكرارها قد تضر ولاتنفع لأنها قد تعطي دلالات معاكسة للهدف المطلوب في إظهار القيم والمبادئ السامية المراد ترسيخها، والاقتداء بها في الوقت الحاضر، وكذلك فإن الخوض في التفاصيل الدقيقة للأحداث اليومية في عصر فجر الإسلام وما بعده، إنما تعطي فرصة واسعة للرواة والمشعوذين في إبتداع أنواع القصص والبدع العارية عن الصحة والتي تقود أحيانا إلى المزيد من الاختلاف في المذاهب والطوائف، وبالتالي تزيد الفُرقة بين الناس. وكثيرا ما شهد التاريط معارك وعداوات كان أساسها الروايات التفصيلية لسلوك وتصرفات عدد من الصحابة في عصر فجر الإسلام. والمقصود هنا بعصر فجر الإسلام تلك الفترة الممتدة من بداية الدعوة النبوية الشريفة وطيلة فترة حياة الرسول محمد (ص)، في حين تمتد هذه الفترة لدى بعض الباحثين لتشمل عصر الخُلفاء الراشدين وما بعدها أيضا لتصل إلى فترة أفول الدولة العباسية.

1. عصر تكوين الدولة الإسلامية أو فترة الدعوة المحمدية :

كما أسلفنا في الفصل الثاني، فإن منطقة الجزيرة العربية كانت مهيئة لإستقبال أو ظهور دين موحِد جديد ينقذ البلاد من التشتت والفرقة والحروب الأهلية الدائرة بينهم بشكل مستمر ودائم، خاصة في فترة القرن السادس الميلادي حيث بدأت الإمبراطوريتين العظيمتين الفارسية والرومانية تؤول إلى الإفول، نظراً للتطورات الكبيرة التي حصلت في العالم ودرجة التطور الذي وصل إليه العقل البشري والذي لم يعد يتقبل مثل تلك الأنظمة ودرجة تسلطها وسيطرتها على رقاب المنطقة برمتها. إن حالة الترقب هذه في البلاد العربية قد نشأت أيضاً من خلال ظهور مركز تجاري مهم في قطب الجزيرة العربية وهي مكة بقيادة قبيلة قريش* المتمرسة في التجارة. ولما كانت التجارة بطبيعتها تدعو إلى السفر والإختلاط بالعديد من البلدان والتي توجب على ضوء ذلك الاطلاع على المزيد من الثقافات وإكتساب المعارف الجديدة وتطوير معتقداتهم بما يتناسب وطبيعة المعتقدات السائدة في مناطق مختلفة من العالم. بالاضافة إلى زيادة الثروة التي تمكنهم من التفرغ والتفكير بجميع نواحي الحياة وتطوير واقعهم السياسي. وقد برز العديد من المفكرين في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام

---

* قريش: كان يطلق قبل الدعوة المحمدية وأثناءها وبعدها على مجموعة من القبائل تنتسب إلى فهر وكان هذا يلقب بقريش وهو جدَ قصي بن كلاب بن لؤي بن غالب بن فهر ويقال أنه من العدنانيين جد العرب في الشمال. وعندما سكنت قبائل قريش هذا في مكة وأصبحت لها سلطة عليها صار هذا اللقب يميزها عن القبائل العربية الاخرى، حيث كانت مجموعة القبائل العربية تعيش في مكة بدون سلطة مركزية، وكانت السلطة معنوية نافذة وغير قسرية لشيوخ مجموعة القبائل المشتركة في النسب إلى جد واحد والمتجاورة في السكن. وتشمل مجموع تلك القبائل في عصر النبي محمد اثنتا عشرة قبيلة ترجع في نسبها إلى قريش يمكن الرجوع في تفاصيلها إلى المصدر المشار إليه. (محمد عابد الجابري ـــ المصدر المسابق).

على يد محمد بن عبدالله (ص) هذا النبي العظيم الذي غير وجه المنطقة برمتها في فترة قصيرة ونشر الإسلام في سرعة فائقة لم يسبق لها مثيل. وليس محمد (ص) هو أول من أنكر عبادة الأصنام وأبغضها في بلاد العرب بل أنكرها وخرج عليها رجال كثيرون من عرب الجاهلية قبله[1]. وفي زمانه، وهم الذين يُسمَون في كتب السيرة النبوية الشريفة بالمتألهَين أو المتحنفين وهؤلاء أناس لم يحالفهم الحظ ولم يكونوا بالمقدرة القيادية لعمل شيء يذكر لهم التاريط، كما فعل النبي محمد (ص). ومن بين هؤلاء نخص بالذكر منهم ورقة بن نوفل وعبدالله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل، ولهؤلاء قصص ذكرها صاحب السيرة الهشامية[2] عن إبن إسحق قال: (إجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، وكانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويدبرون به، وكان عيداً لهم في كل سنة يوماً. فقال: فخلص منهم أربعة نفر نجياً، وذكر هؤلاء الأربعة ثم قال بعضهم لبعضٍ: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعضٍ، قالوا أجل فقال بعضهم لبعضٍ تعالوا والله ما قولكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم إلتمسوا لأنفسكم، فأنكم والله ما أنتم على شيء، قال: فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم) وزاد إبن الجوزي عن هؤلاء الأربعة جماعة آخرين منهم أبوبكر الصديق ورباب بن البراء وأسعد بن كريب الحميري وقيس بن ساعدة الأيادي وأبا قيس بن حرمة، فأما ورقة بن نوفل فدخل اليهودية ثم تركها، فدخل في المسيحية وأستحكم فيها واتبع الكتب من أهلها

---

(1) محمد عابد الجابري (العقل السياسي العربي) مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت (1990) ص 201.

(2) سيرة ابن هشام (أبو محمد عبد الملك: السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا وآخرون. دار الكتب العلمية ــ بيروت/ الجزء الأول/ ص 222 ــ 223.

حتى علماً من أهل الكتاب، وقد قالوا عنه أنه لم يدرك البعثة، وأنه آخر من مات في تلك الفترة، وأنه لم يمت مسلماً [1]. وهذا غير صحيح لأنهم ذكروا أيضاً في قصة الوحي أن خديجة أخذت محمد عندما نزل الوحي عليه وأنطلقت به إلى ورقة بن نوفل تسأله حيث قال لها: هذا هو الناموس الذي نزل على موسى، وقال أيضاً: إن هذا لبدء النبوة وأن محمد نبي هذه الأمة. وقال البعض أنه أدرك الدعوة إلى الله ومات مسلماً. وأما عبيدالله بن جحش، وهو إبن عمة النبي محمد (ص) أميمة بنت عبدالمطلب، فقد أدرك البعثة وأسلم وهاجر إلى الحبشة مع من هاجر من المسلمين وهاجرت معه إمرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فلما قدمها تنصر (أي صار مسيحيا)، وفارق الإسلام حتى مات هناك نصرانياً. أما عثمان بن الحويرث فلم يدرك البعثة وقدم على قيصر ملك الروم وتنصر وحسنت منزلته عنده. وأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد ذكروا أنه كان قبل النبوة بفترة قصيرة على دين إبراهيم، فأنه لم يدخل في يهودية ولا في مسيحية وأنه إعتزل الأوثان والذبائح التي تذبح للأوثان، ونهى عن وأد البنات وذكروا أنه كان يحي الموؤدة فإذا أراد احدهم وأد إبنته أخذها من أبيها وكفلها. وذكر أنه بادي قومه بعيب ماهم عليه وإن كان إذا دخل الكعبة يقول لبيك حقاً تعبداً ورقاً، عذت بما عاذ به إبراهيم. وفي سيرة إبن هشام أيضاً عن إبن أسحق: (وحدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: (رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة، وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري)، ثم يقول: (اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته [2]. وفي السيرة الحلبية أن زيد بن عمرو بن نفيل هذا كان

---

(1) معروف الرصافي (الشخصية المحمدية/ 129 عن السيرة الحلبية الجزء الأول/250.

(2) سيرة إبن هشام 1/ 2251.

يوبط قريشاً ويقول لهم: والذي زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيري. حتى أن عمه الخطاب (والد الخليفة عمر) أخرجه من مكة وأسكنه بحراء، ووكل به من يمنعه من دخول مكة كراهة أن يفسد عليهم دينهم، وفي سيرة إبن هشام: (كان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم، فكانت صفيه بنت الحضرمي (وهي زوجته) كلما رأته قد تهيأ للخروج وأراده أذنت به الخطاب بن نفيل عمه واخاه لأمه، وكان يعاتبه على فراق دينه وكان الخطاب قد وكل صفية به وقال: إذا رأيته قد هَم بأمرٍ فأذنيني به. قال: وكان الخطاب قد آذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة، فنزل حراء مقابل مكة ووكل به الخطاب شباباً من قريش وسفهاء من سفهائهم فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة، فكان لا يدخلها إلا سراً منهم فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب، فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم)[1]. فهؤلاء كلهم سبقوا محمد في الخروج على التقاليد الموروثة لا سيما زيد بن عمرو بن نفيل. ولابد من الإشارةإلى أن أباذر الغفاري كان هو الآخر خارجاً على التقاليد الموروثة قبل لقاءه بمحمد، وكان قد جاء من قلب الصحراء يحمل كل تقاليد العربي البدوية ولم يكن له صلة بأهل مكة، ولكن كل هؤلاء لم يكن لهم ما كان لمحمد من عزم وحزم ودهاء وذكاء ومن فصاحة وبلاغة ومن أعوان وعشيرة قوية ومؤثرة، ولم يكن لهم أيضاً ما كان لمحمد من طموح إلى غاية عظمى وأحداث نهضة كبرى. بديهي أن كل تحول تاريخي مهم لا يمكن أن يحدثه فرد من أفراد المجتمع مهما بلغت إمكاناته وقدراته الذاتية ولا بد من تهيأة ظروف وعوامل عديدة، بالإضافة لتلك الامكانات والقدرات الذاتية لكي تكون مجتمعاً، لإنجاح ذلك التغير الحتمي والذي لابد له من الحصول عاجلاً أو متأخراً بعض الشيء. وعودة إلى زيد فقد جاء في كتاب الشخصية المحمدية لمعروف

---

(1) سيرة ابن هشام 299/1 ـ 231.

الرصافي ما يلي: (لا شك أن محمد قد تأثر بزيد بن عمرو بن نفيل وأخذ منه فقد جاء عن عائشة قالت: سمعت رسول الله (ص) يقول: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله، فكان يقول لقريش الشاة خلقها الله عز وجل، وأنزل لها من السماء ماءأ، وانبت لها من الارض الكلأ ثم تذبحونها على غير أسم الله؟ فما ذقت شيئاً ذبح على الغصب حتى أكرمني الله برسالته) [1] وفي البخاري عن عبدالله بن عمر (أن النبي لقي زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن ينزل على النبي الوحي، وقد قدمت إلى النبي سُفرة فيها شاة ذبحت لغير الله، أو قد قدمها النبي إليه، فأبى أن يأكل منها وقال: أني لست آكل ما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر أسم الله عليه) [2]. فهذان الحديثان يؤيدان أن محمد (ص) تأثر بزيد واخذ منه،ولكن الفرق أن زيد وقف عند الخروج على التقاليد القومية، وأن محمد (ص) لم يقف عند ذلك بل جاوز إلى إيجاد تقاليد دينية جديدة أخرى، والى إحداث نهضة عربية عالمية كبرى بواسطة تلك التقاليد الجديدة. لقد كان محمد على علم بامر هؤلاء المصلحين وبخروجهم عن التقاليد الموروثة، كما كان على علم بأنبياء الأولين من بني إسرائيل وغيرهم. وقد حدث اصحابه عن خالد بن سنان العبسي وقال عنه: أنه نبي ضيعه قومه [3]. وخالد بن سنان هذا لم يدركه محمد، وقد ذكروا أن ناراً خرجت من الارض بين مكة ويثرب كادت العرب أن تعبدها، وأن خالد بن سنان نهاهم عن عبادتها، ولعل هذه النار هي بركان هائج في أرض الحجاز البركانية المليئة بالثروات النفطية، ولم يذكروا عن خالد بن سنان أنه تعرض لعبادة الاصنام

---

(1) معروف الرصافي (الشخصية المحمدية) 131 عن السيرة الحلبية 123/1.

(2) صحيح البخاري، (كتاب المناقب)، الحديث رقم: 3540 مسند احمد رقم 5836 عن السيرة الحلبية 123/1 عن معروف الرصافي الشخصية.

(3) السيرة الحلبية 239/3، (السيرة النبوية والآثار المحمدية) لأحمد زين دحلان بهامش السيرة الحلبية 45/3.

وأنكرها ونهى قومه عن عبادتها، كما نهاهم عن عبادة النار آنفة الذكر، مع أن الاصنام كانت آنذاك موجودة في بلاد العرب. أن قول النبي محمد (ص) عن خالد بن سنان بأنه كان نبي أضاعه قومه يدل على أن النبي محمد (ص) يقر بتعريف النبي بأنه (هو كل مصلح ينكر التقاليد الموروثة ويقوم بإصلاحها مهما كلف الأمر). وإنطلاقا من هذا التعريف فإن خروج محمد (ص) قبل النبوة على التقاليد الموروثة، وطموحه إلى معالي الامور والغاية التي يرمي اليها في طموحه، وما كان له من قوة وعزم وثقوب فكر وسعه علمٌ بأخبار الماضيين، إضافة إلى رؤيته وسماعه لجبرائيل الذي هو السفير بين الله وأنبيائه، فقد حصلت فكرة النبوة لمحمد (ص) وجاهر بها وهو في الاربعين بعد تزوجه من خديجة بنت خويلد بخمسة عشر عاماً، فقد تزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكانت له خير معين. وأنما جاءت الرسالة المحمدية في بدايتها لأصلاح قومه ولكنها أصبحت بعد ذلك لعموم الناس وذلك بعد الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة. ولا ريب في أن محمداً (ص) بعد تصميمه على القيام بهذه الدعوة ما كان يفكر به هو وضع الاساس (أو ما يسمى في عصرنا بالدستورأو القانون الاساسي) الذي تقوم عليه الدعوة، وهذا الاساس هو القرآن، والقرآن في اللغة يعني القراءة، أي أن الدعوة تقوم بكتاب يقرأ ويحفظ لا بشعر يروى وينشد [1]. وإذا صرفنا النظر عما في القرآن من قصص الانبياء وأخبار الأولين والشرائع، وجدناه يتكلم عن أمرين عليهما مدار الكلام دائماً وأبداً، أحدهما وحدة الآله وترك الشرك ونفي الأنداد، والثاني الحياة الاخرى وما يتعلق بها من البعث بعد الموت والجزاء والجنة وجهنم. فإن محمداً (ص) جعل هذين الامرين اساساً للدعوة، إذ كان يقول للناس آمنوا بالله وحده لا شريك له، فإن آمنتم فأنتم في الجنة، وإن لم تؤمنوا فأنتم في جهنم فإنكم مبعوثون بعد الموت لا محالة. ولم يفتكر فيما عدا ذلك في

---

(1) طه حسين (الفتنة الكبرى) ص 32 ج 1، دار المعارف بمصر 1964.

أول الامـر بـل تركـه لما تجيء بـه الحادثـات مـن البواعـث والـدواعي وذلـك مـا يسمونه بالمصطلح الـديني بأسـباب النـزول. لقـد كتـب الشـاعر المعـروف معـروف الرصـافي بهـذا الخصوص في كتابه عن الشخصية المحمدية ما يلي: (بعد وضع محمد الاساس في الصورة التي تقوم بها الدعوة، وبعبارة أخرى في الواسطة التي يؤدي بها الدعوة،ومعلوم أن الدعوة إنما تؤدى بالكلام ولكن بأي صورة من الصور الكلامية يصاغ ويسبك كلام الدعوة، أيجعل شعراً منظوماً أم نثراً مسجوعاً، أم ماذا؟ أن هذا هو أهم ما كان يفتكر فيـه محمداً في غـار حراء. وهنا يتجلى دهاء محمد (ص) وما له من فطنة وذكاء. حيث لم يجعله شعراً يروى وينشد بل جعله قرآناً يقرأ ويحفظ. وسواء كان محمد يحسن قرض الشعر أم لا يحسنه، يبعد كل البعد عن دهائه وذكائه أن يجعل الكلام في الدعوة شعراً منظوماً، لأنـه يعلـم أن لو جعله شعراً منظوماً لما كان فيـه إلا كأحـد الشعراء الـذين هـم في زمانـه أكثـر مـن أن يُحصوا، ولما كان له من التأثير في نفوس القوم أكثر من أشعار المتألهين الـذين رآهـم وسمـع شعرهم كزيد بن عمرو بن نفيل وأُمية بـن أبـي الصلت، وغيرهما. وكيـف يجعلـه شعراً منظوماً وقد سمع كثيراً من شعر أمية بن أبي الصلت وفهم مـا فيـه مـن العظـات الدينيـة والصفات الآلهية، وما أنطوى عليه من قصص الأنبياء وأخبارهم حتى قـال عنـه لما سمـع بعض شعره بعد النبوة أنه آمن شعره وكفر قبره. وهو مع ذلك قد علم أن شعر أُمية هـذا لم يقم له قائمة في نفوس العرب أكثر من شعر غـيره مـن سـائر الشـعراء فلـذلك قـد فـرَّ فرارة أن تقوم الدعوة بالقرآن (والكلام هنا للشاعر الرصافي) وقد نجح كل النجاح إذ جـاء بقرآن لا هو من الشعر المنظوم كشعر المتألهين ولا هو من الكلام المسجوع ككلام الكهان[1].

ومهما يكـن مـن أمـر فـإن النتيجـة أن أصـبح هـذا الكتـاب مقدسـا ولا يجـوز المساس بـه أو مناقشة أو حتى قراءة غيره من الكتب. ومن هنا جاء الموروث التاريخي لهذه الامـة والـذي

---

(1) معروف الرصافي/ الشخصية المحمدية/ ص 140، ج 1.

نحن بصدد دراسته والوقوف على كافة الاسباب التي أدت بنا إلى ما نحن عليه من تخلف عن ركب الحضارة الحديثة. وسوف نجد في هذا البحث أصل تلك القاعدة التي بدأت منذ عصر فجر الإسلام ولحد الآن والتي تنص بأنه من غير المحبذ قراءة أي كتاب دون القرآن، وقد ذهب البعض لأكثر من ذلك في إدعاء أن كل ما يحتاجه الإنسان من علوم ومعارف حديثة إنما جاءت من القرآن أو أنها موجودة في القرآن ضمن تفاسير مختلفة وما على القارئ إلا أن يكون بارعاً في النحو ويفسر ما في الآيات من معاني خفية ومتعددة الوجوه تنسجم مع كل ما يحتاجه الإنسان من معارف وعلوم سواء أكانت في الفقه أو في الامورالحياتية المختلفة وفي كل زمان). أن هذا المعتقد كان أحد الاسباب في ترسيط الابتعاد عن التفكير والاكتشاف العلمي وعن تطوير حياتهم في إستخدام إسلوب البحث والتقصي للوصول إلى نتائج تؤدي إلى تطويرالمجتمع إلى الأمام. وهكذا بدأت الهوة بين شعوب الغرب الذين إعتمدوا في حياتهم على فلسفات وأسس واقعية رصينة وبين العالم الإسلامي الذي لا يزال بحاجة إلى التطوير والتقدم في المعارف الحديثة[1]. لقد كان وقع القرآن الكريم في قلوب الناس سواء أكان من العرب أو الاجانب امرلا يوصف. وصحيح أنه أدى دوره المطلوب في إنتشار القيم والمبادئ الإسلامية الراسخة في كافة أرجاء العالم وكان سبباً في إزدهار الامبراطورية الإسلامية لعدة قرون، وكان هذا الابتعاد عن كل قراءة أخرى لكي لا يبتعد الناس عن تلك القيم والمبادئ، بينما وفي الجانب الآخر حصلت إنتكاسة في المقدرة على الابداع الفكري والتقني من خلال ضعف القراءة والاطلاع على نتاجات فكرية أخرى ضمن نتاج الفكر البشري في بقية أرجاء المعمورة. وظهرت مدارس وعلماء متخصصون في تفسير القرآن أدت إلى بروز مذاهب مختلفة وإجتهادات متنوعة محصورة فقط بما جاء في القرآن والسنة النبوية الشريفة. كما ظهرت فئة الباطنية التي

---

(1) طه حسين في الأدب الجاهلي، ص135.

تقـول بـأن الآيـات القرآنيـة لهـا معنـى ظـاهر ومعنـى بـاطن لا يفهمهـا إلا الأئمـة (الإسماعيلية).

2. تطور المعتقدات الدينية لدى العرب بعد الإسلام:

لقد تطرقنا إلى المعتقدات الدينية لدى بلاد الرافدين في الفصل الأول ثـم بـدأنا في الفصل الثاني نستعرض كيفية تبلور المعتقدات التوحيديـة في الجزيـرة العربيـة. ولا بـد لنا هنا أن نذكر بعض التطورات التي جاء بها الإسـلام في العقيـدة الدينيـة السائدة لـدى القوم في ذلك الحين. إذ كان الناس في عصر الجاهلية يعتقدون بوجـود أرواح غـير مرئيـة، منها طيبة ويستنجدونها ويرجون خيرها، ومنها خبيثة يخافونها ويتقون شـرها، وهـذه كانت قد إنتقلت إليهم من بلاد الرافدين والبلدان المجاورة لها، والتي كـانوا يعتقـدون كمـا أسـلفنا في الفصـل الأول بوجـود آلـه خـير وآلـه شـر وكـانوا يشـبهون لهـا رمـوزاً وأحجـار ومنحوتات ليتبركوا بها ويلتمسوا منها الرحمة والشفقة كما كان يعرف بالاديان الوثنيـة. وكـان العـرب في الجاهليـة يعتقـدون بوجـود الارواح غـير المرئيـة ويسـمون الطيبـة منهـا بالملائكة ويسمون الخبيثة منها بالجن والشياطين. وهنـاك إشـارة في القـرآن الكـريم تـدل على ذلـك. وقـد تفـرع مـن إعتقـادهم بالكهانـة، فكـان لهـم كهّـان، وكـان الكـاهن يخـبرهم بالمغيبات[1]، وكانوا يعتقدون أن لكل كاهن تابع من الجن يأتيه بالخبر من السماء. وكـان إعتمادهم في كل أعمالهم وتصرفاتهم على ما يصدر من الكاهن من أفكار عن المستقبل في مسائل الزراعـة والترحـال ونـزول المطـر والـزواج والطـلاق... الخ. وربمـا ظلـت آثـار تلـك الأفكار إلى يومنا هذا، ولكن بنسبة ضئيلة جداً مقتصرة على الاريـاف والمنـاطق المتخلفـة تعليمياً والتي تعرف بأخذ الخـيرة. فلمـا قـام محمـد (ص) بـدعوتهم إلى الإسـلام، رأى مـن

---

(1) محمد عابد الجابري (العقل السياسي العربي محدداتـه وتجلياتـه) المركـز الثقـافي العربـي ص 211 الدار البيضاء (1990).

الضروري لنجاح الدعوة أن يبطل الكهان ويجعل خبر السماء مقصوراً على الوحي الذي يأتيه به جبرائيل كيلا تتقبل العرب شيئاً إلا منه ولا تسمع إلا له. وإلا فمن الصعب أن يجتمع العرب كلهم على الوحي ما داموا يعتقدون بنظيره من الكهان. فمن الطرق المؤدية إلى نجاح الدعوة أن تضمحل الكهانة ويضمحل الكاهن. ولذا أبطل الإسلام الكهانة ومن أقوال الرسول محمد (ص) (أن الكاهن والكهانة والمتكهن في النار)[1]. ولأجل إبطال الكهانة أغلق الإسلام أبواب السماء في وجوه الشياطين، وملأها حرساً شديداً من الملائكة، وجعل الشهب المتساقطة في الجو رجوماً للشياطين ترُدهم عن إستراق السمع، وأخذ الاخبار السماوية كما هو مذكور في القرآن. ويعود السبب في إبطال الكهانة بهذا الوجه الذي لا ينطبق على الحقيقة فإن العرب كانوا يعتقدون بأن الجن التابعين للكهان كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون الاخبار ويأتون بها للكهان، وكانوا يعتقدون أيضاً أن مجرد سماع الجن بكلمة واحدة فقط مما يقال في السماء وفي الاجتماعات الدائرة بين الملائكة الصالحين إنما تكفي لعمل الكثير من الاعمال التي يعجز البشر العادي من إنجازها مهما بلغت قدراته الذاتية. لقد تماشى معهم محمد (ص) في عقيدتهم وجاراهم في عقليتهم ولم يكذبهم وإن كان يعلم أنها خرافة، ولكن إبطالها بخرافة مثلها، ليكونوا إلى القبول والتصديق أقرب. فإن العقلية التي تقبل تلك، لا تمتنع من قبول هذه أيضاً، بخلاف ما إذا سلك في إبطالها مسلك الحقيقة، كأن يقول لهم: أن عقيدتكم هذه باطلة لا ثبوت لها، وأنها كذب لا أصل له، فإنهم عندئذ ربما عاندوا وأصروا على العناد، وإذ يصعب عليهم لأن يتركوا عقيدتهم هذه لعقيدة من جنسها وإن كانت ضدها. ويدل على ذلك أنهم بعد إسلامهم صاروا كلهم يعتقدون أن الشهب (النيازك) أصبحت بعدما بعث محمد، رجماً للشياطين يمنعهم من إستراق السمع، وبأن ذلك من دلائل نبوته ومن علائم صدق

---

(1) صحيح مسلم، (كتاب السلام)، باب تحريم الكهانة. جزء من السنة النبوية الشريفة.

رسالته. ومما يجدر الإشارةاليه هو ان سقوط النيازك والشهب وكان كثير الحصول في الليل في ذلك العصر، وهذه حقيقة علمية أكدها العلماء في هذا العصر، حيث أثبتوا أن الفضاء كان ممتلئا بقطع وأحجار صغيرة منذ الانفجار الكوني الكبير، وأستمرت في السقوط على الارض بأعداد هائلة وهي مستمرة إلى يومنا هذا ولكن بأعداد أقل[1]. وكشف العلماء في عصرنا أن النيازك عبارة عن كتل معدنية مختلفة الاحجام تلتهب نتيجة سرعتها لدى إقترابها من القشرة الارضية وتتأكسد لوجود الاوكسجين في الهواء لتسقط على الارض بعد إتمام التفاعل كحجر أسود من أكاسيد معدنية مختلفة. وقد جعل الإسلام من بعض الجن مؤمنين ومعتقدين بالدعوة الإسلامية. فلما رأى محمد (ص) العرب يعتقدون بالجن إعتقاداً شائعاً بينهم، وأراد أن يستغل إعتقادهم هذا للتفنن في أساليب الدعوة، فقص عليهم قصة إستماع الجن للقرآن وإيمانهم به. وهو لم يقصد بذلك إلا دعوة قومه إلى الايمان بما آمن به الجن، فكأنه يقول لهم: هؤلاء الجن الذين يأتون كهانهم بخبر السماء، والذين تعوذون بهم في أسفاركم، قد أستمعوا القرآن وآمنوا به، وبأنه كتاب أنزل من بعد موسى، يهدي إلى الرشد، فما بالكم لا تؤمنون به ولا تنقادون إليه. وهذا إسلوب ناجح من الأساليب التي سلكها الإسلام لنشر الدعوة. وقد جعل قصة إستماع الجن للقرآن مؤيدة لما جاء في الآيات النازلة في إبطال الكهانة حيث ذكر فيها ما قاله الجن لقومهم حين رجعوا إليهم بعد إستماع القرآن، وذلك بقولهم في سورة الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾[2]. إن تطور العقيدة الدينية في كل مجتمع، لابد وان تأتي بطريقة تدريجية وسهلة ولا توجد قوة أو أديان مهما بلغت من

---

(1) برنامج تلفزيوني علمي في قناة BBC عام 2004.

(2) سورة الجن الآيتان: 8 ـ 9.

قدرات، أن تمسح كل ما موجود من إرث قديم مطبوع في عقول البشر وراسط منذ آلآف السنين، لتبني عليه معتقدات وأفكار جديدة مخالفة كليا لما كانوا عليه في السابق. إن عقل الإنسان ليس مثل أقراص (كاست) الحاسب الالكتروني القابل للمسح والاملاء في أي وقت نشاء كما يحصل في يومنا هذا. إن ما يملئ من افكار في العقل البشري قد يحتاج لأجيال و عقود وأحيانا قرونا عديدة لكي يستطيع أن يجد المبرر والظروف الملائمة لتبديلها، خاصة عندما تكون تلك الافكار ذات تماس بمصالح إقتصادية تمسه في معيشته بالصميم وترتبط بطبيعة البيئة التي يعيشها. وهكذا نجد أن الإسلام قد جاء بأفكار جديدة في التوحيد المطلق وفي البعث باليوم الآخر وفي الجنة والنار... الخ، إلا أنه أبقى على العديد من المعتقدات الاخرى التي كانت سائدة قبل ظهور الإسلام، كما تمسك بالعديد من الطقوس الدينية التي كانت تمارس قديماً من قبل السومريين و البابليين في بلاد الرافدين [1]، مع إدخال بعض التعديلات في الاداء ومواقيت الصلاة والصوم والزكاة والحج، بالاضافة إلى مراسيم الاعياد ودفن الموتى والقبور وغيرها. أما بالنسبة لنحر الذبائح فقد تحولت من نحرها لصالح الآلهة إلى الذبح لوجه الله في المناسبات والاعياد، وعن تعدد الزوجات فقد كانت العادة أن يتزوج العرب العديد من النساء دون تحديد [2]، إلا أنها حُددت باربع أو ما ملكت أيمانهم. وهذا التطور كبير بالنسبة لذلك العصر الذي كانت المرأة فيه تعتبر متعة للرجال فقط. وأهم من كل هذا أنه حرَمَ عادة وأد البنات التي كانت سائدة في الجزيرة العربية في الجاهلية وهناك العديد من القيم الاخلاقية الرائعة والاحكام والشرائع في كافة نواحي الحياة والمعمول بها إلى يومنا هذا، وقسم منها متشابه مع ما جاء به الانبياء الأولون من بني إسرائيل وكانت تمارس تعاليمهم من قبل

---

(1) عبد الوهاب حميد رشيد (حضارة وادي الرافدين) ص 93.

(2) جواد علي، (المفصل في تاريط العرب قبل الإسلام) ج 5 ص 548.

اليهود في الجزيرة كالختان وتحريم أكل الخنزير والميتة والدم والخمر وغيرها. أما عن قطع يد السارق ورجم الزانية والزاني والقصاص بالقصاص أي العين بالعين والسن بالسن فقد سنت منذ أيام حمورابي لدى البابليين أي قبل أكثر من الفي عام من ظهور الإسلام. وأتبعها اليهود الاوائل، وتم تغييرها في زمن متقدم من قبل اليهود ثم المسيحيين، إلا أن الإسلام أعاد العمل بها من جديد في عصر حياة النبي محمد (ص)، بينما أبطلت في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (كقطع يد السارق) لزوال أسباب النزول. أما بالنسبة للحجاب المستخدم للنساء فكانت عادة آشورية كما أسلفنا في الفصل الأول من أجل التمييز بين نساء الاحرار ونساء العبيد، وأستمر العرب في ممارستها حتى بعد الإسلام ولا تزال عادة مميزة لدى المسلمين في أرجاء العالم كافة، وقد بالغ المسلمون المتزمتون في تطبيقها للنساء المسلمات وأصبحت الصفة المميزة للمرأة المسلمة عن غيرها من النساء في عصرنا الحاضر.

3. اقتران الدعوة الإسلامية بالسيف:

لعل من أهم المواضيع الحساسة التي لابد من مناقشتها في هذا الفصل هو إقتران الدعوة الإسلامية بالسيف والتي تميزت بها أكثر من غيرها من الاديان السماوية المعروفة، وذلك نظراً لأن الدعوة الإسلامية لم تقتصر على إتباع دين سماوي فحسب بل كانت من اجل تأسيس دولة او إمبراطورية عظمى تحكم العالم[1]. لقد كان محمد في مكة هو وأصحابه لا قوة لهم على خصومهم من قريش، ولذا كان يدعو الناس إلى الإسلام بالوعظ والانذار عن طريق المسالمة كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[2] فهذه الآية كانت شعاراً

---

(1) معروف الرصافي (الشخصية المحمدية)، 305.

(2) سورة النحل الآية: 125.

للدعوة في مكة، ولكنه لما هاجر إلى المدينة بعد بيعة العقبة الكبرى قويت شوكته، وإشتدّ جناحهُ، بالانصار الذين بايعوه والمهاجرين الذين تبعوه، وعندئذٍ قرن دعوته بالسيف، ليقاتل خصوم دعوته من الكافرين، وتدرج قرار القتال تدرجاً منطبقاً على مقدار ما عنده من قوة حربية، فأول آية نزلت في القتال بالمدينة هي: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾[1]. فهذه الآية تضمنت أمرين: أحدهما الاذن بالقتال أي جعله مباحاً لهم من غير أن يفرض عليهم فرضاً، والثاني أن إذن القتال إنما هو بسبب أنهم ظُلِموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق. فسياق الآية يدل على أن المأذون لهم بالقتال هم المهاجرين لا الأنصار لأنهم لم يُظلَموا ولم يُخرَجوا من ديارهم، على أنهم لا حاجة للإذن بالقتال للأنصار، لأنهم يقاتلون بحكم البيعة التي بايعوا بها محمداً على ان يحموه وينصروه. ويجوز أن يكون الاذن عامَاً للمهاجرين والانصار وإن كان سببه خاصاً بالمهاجرين. كانت هذه خطوة أولى في أمر القتال. ثم تقدم فيه خطوة أخرى فأصبح فرضاً على المسلمين، ولكن لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم إذ قال: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ﴾[2] وهذه هي الحرب الدفاعية. وأستمر الحال على ذلك إلى السنة الثامنة للهجرة. حتى حصل الرسول من القوة والشوكة ما أستطاع به أن يعلن الحرب الهجومية العامة، بأن فرض على المسلمين قتال المشركين كافة، من قاتلهم ومن لم يقاتلهم، وبذلك نزلت سورة براءة التي نبذَ فيها إلى المشركين عهودهم وبرئ منهم وأمهلهم أربعة أشهر، وهي الاشهر الحرم، وأعلمهم أنه وإياهم في حالة حرب مستمرة فيما عدا هذه الاشهر الاربعة ويجدر التذكير هنا إلى أن تلك الاشهر الحرم كان معمولاً بها لدى العرب قبل الإسلام

---

(1) سورة الحج الآية: 39 ــ 40.

(2) سورة البقرة الآية: 190.

بقرون. وهكذا تم التدرج للقتال بأربعة أحكام: (الأول أنه محرم وذلك في أول الأمر حين كان محمد (ص) بمكة، والثاني أنه مأذون به أي مباح وذلك في أول الهجرة في المدينة والثالث أنه مأمور به أي فرض على المسلمين لمن بدأهم بالقتال، والرابع أنه مأمور به أي فرض على المسلمين لجميع المشركين وإن لم يبدأوهم بالقتال في غير الاشهر الحرم) [1] وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة للهجرة، وقد زاد بعضهم حكماً خامساً وهو: أنه مأمور به أي فرض على المسلمين لجميع المشركين مطلقاً، أي حتى في الاشهر الحرم كما ذكره الحلبي في سيرته نقلاً عن الامام الاسنوي [2]. وهناك في الحديث النبوي الشريف عن صحيح البخاري: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وفي لفظ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله، فإذا قالوا عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقهم وحسابهم على الله)[3]. هنا لابد لنا من تعليق حول مدى إتخاذ تلك الآيات والاحاديث النبوية من قبل أشخاص متعصبين جداً أمثال أسامة بن لادن وأيمن الضواهري من الذين يسمون أنفسهم بالقاعدة من حجج وذرائع في غسل عقول البسطاء من الناس وجرهم إلى الاعمال الشيطانية التي يقومون بها من قتل وتدمير للأبرياء، متناسين أولاً وقبل كل شيء الاختلاف في العصر، فكل ما كان في زمان النبي محمد (ص) في القرن السابع الميلادي قد تغير كلياً في عصرنا هذا، بما في ذلك القيم والمفاهيم والاعراف والتقاليد والبيئة التي نعيش فيها. فقد كان القتال في ذلك العصر يشكل جزءاً من كيان الفرد، وكما أسلفنا في فصول سابقة فإن الحروب التي كانت تبدأ من أسباب تافهة وتستمر

---

(1) ابن القيم الجوزي، زاد المعاد ــ الفصل الثاني، غزوات الرسول/ تحقيق شعيب وعبد القادر الارناووط مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

(2) السيرة الحلبية، 2 مغازيه ص 124.

(3) صحيح البخاري، (كتاب الايمان/ رقم 20/ الجهاد والسير رقم 2727، صحيح مسلم، كتاب الايمان رقم 3103، عن معروف الرصافي/ الشخصية المحمدية/ 285.

لتحصد العديد من البشر، إنما كانت جزءاً من صراع البقاء للاقوى في تلك البيئة الصحراوية القليلة الموارد والسبل. لقد تناسوا طريقة الدعوة المحمدية في بدايتها، أيام كان في مكة والى أن تعاضمت وأصبحت بمقدورها تحقيق الانتشار والنصر المؤكد بإستخدام السيف، إذ أن المقابل كان يشكل قوة ضعيفة يمكن إختراقها بسهولة، بينما أصبح أصحاب منظمة القاعدة وكأنهم يصارعون الجبال بقوة هزيلة آيلة للسقوط والخذلان حتماً بسبب بطلانها أصلاً. ومهما كانت أسباب القتال ومبرراته فإن على المرء أن يقدر قوة المقابل ليتصرف بحكمة قبل أن يقدم على أي عمل. فلا يمكن لجماعة ضئيلة أن تحارب العالم بأسره وتحقق النصر كما حقق محمد (ص) نصراً على المشركين قبل ألف وأربعمائة عام. نعود لمناقشة مقاومة محمد (ص) لكفار قريش لكي يتضح لنا مقدار الاحمال الثقيلة التي ورثناها من الاسلاف:

إن محمد (ص) لما قدم المدينة لم يكن له من العرب أعداء يقاومونه غير كفار قريش ولما كانت قريش أهل تجارة، وكانت قوافلهم متتابعة بين مكة والشام ذهاباً وإياباً، وكانت المدينة (يثرب) على طريقهم، لذا كان اول شيء ينبغي فعله للعدو هو أن يقطع عليهم طرق المواصلات، فقد أخذ محمد (ص) يترصد قوافل قريش، فكلما سمع بعير لهم قادمة من مكة أو راجعة من الشام خرج إليها غازياً بنفسه أو أرسل إليها سرية من جيشه. ولم يمر عليه بعد مقدمه المدينة سبعة أشهر إلا وأرسل سرية بقيادة عمه (حمزة) ليعترض قافلة قريش جاءت من الشام تريد مكة [1]، وفي الشهر الثامن للهجرة أرسل سريته بقيادة عبيدة بن الحارث ليعترض قافلة لقريش أيضاً [2] وبعضهم يُقدم سرية عبيدة على سرية حمزة، وهكذا أخذت السرايا تتوالى، إلا أن محمد (ص) أ لم يخرج

---

(1) سيرة ابن هشام 595/2، السيرة الحلبية 152/3.

(2) سيرة ابن هشام 591/2، السيرة الحلبية 152/3.

بنفسه إلا في أوائل السنة الثانية للهجرة وأول غزوة غزاها كانت (غزوة ودان)[1] (قرية بين مكة والمدينة) وقد بلغت غزواته التي خرج فيها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة[2]*، كما بلغت سراياه سبعاً وأربعين سرية. اما جيشه فقد كان مؤلف من سبعين رجلاً في غزوة ودان بينما إزداد تدريجياً إلى أن وصل إلى إثني عشر ألف فارس في السنة التاسعة للهجرة في غزوة تبوك التي كان يريد بها الروم[3]. إن الدعوة عندما إقترنت بالسيف، أخذ عدد الداخلين في الإسلام يزداد مطرداً بإزدياد سيوف الدعوة، فكان كلما قويت شوكته زاد المسلمون زيادة مناسبة لها وكثرُ المقاتلون في جيش الدعوة كثرة تتناسب وقوتها. من هنا نستطيع الاستنتاج من أن الذين دخلوا الإسلام في المدينة في فترة حياة محمد (ص) كان أكثرهم يدخلون فيه خوفاً من السيف، وإن الذين إعتنقوه كمبدأ ذي غاية شريفة قليلون. وهذا ما يؤيده حصول حروب الردة بعد وفاة الرسول، كما سيأتي الحديث عنه لاحقاً. بالاضافة لذلك فكان العرب يهابون القوة ويعتبرون ان الحق مع القوي والعدل مع القوي[4] مهما كانت دعوته، لذلك فقد أنتشر الإسلام بسرعة من خلال إستخدام تلك القوة. أما عن طبيعة الحروب التي خاضها المسلمون في عصر النبي بعد الهجرة إلى المدينة فإن الحرب الدفاعية لم تقع إلا مرتين، الأولى في (واقعة أحد)، والثانية في (حرب الخندق)، وفي ما عدا ذلك كانت الحروب كلها هجومية، أو شبه هجومية. وتكون شبه الهجومية منها عندما يأتي خبر أن جمعاً قد تجمعوا لحرب المسلمين، فيذهب الجيش ولم

---

(1) السيرة الحلبية 135/2 سيرة ابن هشام 591/2.

(2) * هناك العديد من المصادر والكتب المخصصة بعنوان غزوات الرسول يمكن الرجوع إليها لمزيد من التفصيل. هذا وكان مجموع الغزوات في عصر الرسول محمد (ص) خمساً وستون غزوة كان منها سبعاً وعشرون قادها بنفسه. (ول ديورانت ـ قصة الحضارة ج 13).

(3) السيرة الحلبية 71/3، 129/3 ـ 151 (عزوة تبوك).

(4) جواد علي (المصدر السابق) ج 5 ص 485.

يجد لهم جمعاً فيضربهم ويرجع بالغنيمة، كما وقع ذلك في (حرب بني أسد) [1] أي أنهم لم يبدأو القتال فعلاً، وإنما بلغهم أنهم يريدون قتاله. ويمكن تقسيم هذه الحروب إلى قسمين. فالقسم الأول هي حروب إستئصالية كالحروب التي وقعت مع يهود المدينة والتي كانت نتيجتها إستئصال اليهود بالمدينة كحرب بني قريظة، وأما أن تكون بالجلاء كحرب بني النضير وبني قينقاع* وهم من اليهود أيضاً. والقسم الثاني حروب إغتنامية أي لم يكن لها نتيجة سوى الغنيمة[2]، وأكثر الحروب التي وقعت في عهد الرسول كانت من هذا القبيل. فإن السرايا التي كان يرسلها لتعترض قوافل قريش لم تكن إلا للاغتنام. وكذلك حرب بني المصطلق، حتى أن إحدى السرايا إغتنمت مرة أموال مسلمين، وهي سرية زيد بن حارثة إلى جذام [3]. وعلينا أن نذكر أن طبيعة الحروب في ذلك الزمان تختلف عن طبيعتها في زماننا هذا. فقد كان الاجهاز على الجريح، وقتل الاسير، وتثبيت القوم وهم نيام في منازلهم مع نسائهم وزراريهم من الامور المتعارف عليها، والتي لا يستنكرها المحاربون. وعلى الرغم من أن الحروب في زماننا لا تخلو من وقائع وفجائع مستنكرة، إلا أننا لسنا مع الحق عندما نطلب من الحروب في العصور السالفة ان يكون المتحاربون كما هم في عصرنا هذا. لقد كان محمد (ص) إذا أرسل جيشاً إلى قومٍ أمرهم أولاً: أن يدعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا فبها، وإلا قاتلوهم. وكان يقول لهم المقولة المشهورة: (أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً. وكذلك يقول: (إغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم ولا تقتلوا إمرأة ولا صغيراً ولا شيخاً فانياً ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا

---

(1) السيرة الحلبية 164/3.

* بني نضير وبني قينقاع وبني المصطلق هم من أشهر القبائل العربية اليهودية التي كانت تقطن في المدينة المنورة (يثرب).

(2) محمد عابد الجابري ــ المصدر السابق نفسه، ص 116.

(3) السيرة الحلبية 179/3.

بناءاً)[1]. وعلى الرغم من ذلك فقد تمت مخالفة ذلك أحياناً، فلما حاصر بني النضير أمر بقطع نخيلهم وتحريقها، وقام ابا ليلى المازني وعبدالله بن سلام بذلك. فكان أبو ليلى يقطع العجوة وعبدالله يقطع اللبن. وكانت العجوة خير أموال بني النضير وهي أجود أنواع التمور على الاطلاق[2]. وفي الكشاف[3] أن رسول الله سأل من كان يقطع العجوة عن قطعها فقال: قطعتها غيظاً للكفار، وسأل الآخر عن تركها فقال: تركتها لرسول الله. وقد حرق بعض نخيلها أيضا. وقد نزلت من السماء آية قرآنية: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[4]. والخطاب في الآية للمسلمين أي أن الله هو الذي أذن لكم بقطعها. وكذلك فعل في غزوة خيبر لما حاصر فيها حصون النطاة، فأنه أمر بقطع النخيل التي هي لأهل حصون النطاة، فوقع المسلمون في قطعها حتى قطعوا أربعمائة نخلة، ثم نهاهم عن القطع فما قطع من نخيل خيبر غيرها[5]. ولا شك ان نهيه عن قتل النساء والصبيان إنما كان نهياً عن تعمد قتلهم، وإلا فأنه لم يؤاخذ أصحابه على ما كانوا يصيبون من النساء والذراري في البيات. لأن إجتناب ذلك في البيات غير ممكن. فإن جيوشه كانت في أكثر حملاتها تغير على العدو ليلاً وتأتيه بياتاً. ومعلوم أن البيات إسلوب من أساليب الحرب المعمول به قديماً وحديثا، ولكن لا يجوز أن يبيت إلا جيشاً مثله، فأما بيات قوم نيام في منازلهم مع نسائهم وأطفالهم فغير مقبول في العصر الحاضر، إلا أن ذلك كان مألوفاً عند القبائل البدوية، فكان المسلمون في حروبهم الدينية على عهد

---

(1) حديث نبوي متواتر/ عن صحيح البخاري، (كتاب المغازي).

(2) السيرة الحلبية، 265/2.

(3) الكشاف، تفسير الآية الخامسة من سورة الحشر/ الزمخشري جار الله/ الكشاف عن خصائص التنزيل.

(4) سورة الحشر، الآية 5.

(5) السيرة الحلبية: 34/3.

محمد (ص) يفعلون بعدوهم كما يفعل عدوهم بهم أيضاً. وهناك نماذج من الاعمال ذات الطابع القاسي وغير المقبول في عرفنا الحاضر. نورد هنا نماذج منها لكي نلقي الضوء على طبيعة الحياة والتقاليد والعادات السائدة في ذلك العصر، بهدف تبلور فكرة عن الأرث التاريخي المخزون في عقولنا من الماضي وكما جاءت في السيرة الحلبية وسيرة ابن هشام عن عمليات إغتيال زعماء اليهود في يثرب وخيبر وغيرهم وكما يلي:

الأولى: عن قصة أم قرفة وهي إمرأة إسمها فاطمة بنت ربيعة بن بدر الغزاوي، وقرفة اسم أحد أولادها. وخلاصة قصتها أن رسول الله ارسل زيد بن حارثة في جيش إلى بني فزارة فخرجوا إليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى أحاطوا بهم فقتلوهم. وأسرت أم قرفة هي وإبنة لها ذات حسن وجمال. فأمر زيد أن تقتل أم قرفة لأنها كانت تسب النبي. وكان المأمور بقتلها قيس بن المحسر، فربط برجلها حبلين ثم ربطها إلى بعيرين بإتجاهين مختلفين وزجرهما، وقيل فرسين فركضا فشقاها نصفين. قال الحلبي في سيرته وأم قرفة هذه كانت في شرف من قومها، وكان يعلق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم لها محرم. وكان لها إثنا عشر ولداً، ومن ثم كانت العرب تضرب بها المثل في العزة والمنعة فتقول: لو كانت أعز من أم قرفة، وتقول أمنع من أم قرفة، قال: وقد قتل أحد أولادها في إحدى غزوات الرسول. وبقية أولادها قتلوا في خلافة أبو بكر الصديق مع أهل الردة[1].

الثانية: قصة مقتل عصماء بنت مروان اليهودية. فإنها كانت تسب الإسلام وتؤذي النبي في شعر لها وتحرض عليه. فبعث رسول الله عمير بن عدي الخطمي ليقتلها. فجاءها عمير في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من

---

(1) السيرة الحلبية: 3/180. (المصدر نفسه).

ولـدها نيـام وعلـى صـدرها صـبي تـرضـعه، فمسـكها بيـده ونحـى الصـبي عـن صدرها ووضع السيف على صدرها وتحامل عليه حتى نفذه من ظهرهـا. ثـم صلى الصبح مع النبي في المدينة. فقال له رسول الله أقتلت إبنة مـروان؟، قـال نعم فهل على ذلك من شيء، قـال لا يـنطح فيها عنـزان[1] أي الامـر في قتلـها هـين ولا يعـارض فيـه معـارض. إن محمـد (ص) كـان يـريـد أن يكـون مقدسـاً مطاعاً عند أتباعه المسلمين لأن الغاية التي ينـزع إليها لا تنـال إلا بـأن يقدسـه أتباعه ويطيعـوه طاعـةً عميـاء. وكـان يتحمـل كـل الاذى في سـبيل دعوتـه إلا المسبه بما يخرج به عن القداسـة ويجعلـه كآحـاد النـاس. فـإن ذلـك كـان يشـق عليه مشقة عظيمة، فلـم يكـن جـزاء مـن سـبه إلا القتـل[2]. وأعتقـد أن ذلـك التشريع معمول به لحد الآن لدى العديد من المناطق المتعصبة دينياً. والمسبه في واقع الامر ليست من الجنايات التي تستوجب القتل في كافة الشرائع لأنها لا تتضمن سوى هتـك حرمـة المسبوب وهنـاك نـص قرآنـي يقـول: ﴿ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ ﴾[3]. فهتك الحرمة لا يكون جزاؤه سوى هتك الحرمة أيضاً لا القتل.

ثالثاً: قتل أبي عفك اليهودي، وقتل كعب بن الأشرف اليهودي أيضـاً. أمـا كعـب فكـان عدواً لمحمد وكان شاعـراً يهجو محمداً ويحرض عليه، فقال محمد من لنا بـأبن الأشرف فقد أستعلن بعداوتنا وهجائنـا، فقال له محمد بن مسلمة الاوسـي أنـا لك به يا رسول الله هو خالي وأنا أقتلـه، ثـم جمـع علـى قتلـه هـو وأربعـة مـن الاوس هم عباد بن بشر والحرث بن عيسى والحرث بن أوس وأبو نائلة، وكان

---

(1) سيرة ابن هشام، 637/4، السيرة الحلبية، 157/3.

(2) معروف الرصافي/ ا لشخصية المحمدية/ 314.

(3) سورة البقرة، الآية 194.

أبو نائلة هذا أخاً لكعب بن الاشرف بالرضاعة. وكان محمد بن مسلمة قد مكث ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، ألا تقوم به نفسه خوفاً من عدم وفائه بما قال، والظاهر انه بقي هذه المدة يفكر في مكيدة يتوصل بها إلى قتل كعب فلم يجد إلا المخادعة ثم قرر أن يذكر الامر لرسول الله فقال: يارسول الله لابد لنا أن نقول أي نذكر ما نتوصل به من الحيلة، فقال له رسول الله قولوا ما بدا لكم فأنتم في حلٍ من ذل، فأباح لهم الكذب لأنه من خدع الحرب. فتقدموا إلى كعب وكان يقول الشعر فتحدث معه ساعة وتناشدا الشعر وقال له: أني قد جئتك بحاجة أريد أن أذكرها لك فأكتم عني فقال له إفعل قال كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء في بلاء (والمقصود هنا رسول الله) عادتنا به العرب، ورمتنا بقوس واحدة، فقطعت عنا السبل حتى جاع العيال وجهدت الأنفس، وسألنا الصدقة ونحن لا نجد ما نأكل وأني أريد أن تبيعني وأصحابي طعاماً ونرهنك ونوثق لك، فقال لهم ومإذا ترهنوني؟ قالوا نرهنك السلاح، وأرادوا بذلك أن لا ينكر كعب السلاح إذا جاءوا به لقتله، وجاءوا إلى رسول الله وخرجوا من عنده متجهين إلى كعب، فخرج معهم مشياً إلى بقيع الفرقد، ثم وجههم. وقال إنطلقوا على اسم الله، والله معكم، ورجع رسول الله إلى بيته، وأمر عليهم محمد بن مسلمة، وكانت تلك الليلة مقمرة فأقبلوا إلى حصن كعب، فهتف به أبو نائلة، وكان كعب قريب عهدِ بعرس، فوثب في ملحفته، فأخذت إمرأته بناحيتها، وقالت إنك إمرؤ محارب، وأن أصحاب الحرب لا ينزلون في مثل هذه الساعة، فقال لها، أنه أبو نائلة لو وجدني نائماً لا يوقظني، فقالت والله أني

أعرف في صوته الشر، وروي البخاري قالت له إمرأته أين تخرج هذه الساعة، فإني أسمع صوتاً يقطر منه الدم[1]. قال هو إبن أختي محمد بن مسلمة وأبو نائلة، ان الكريم لو دُعي إلى طعنه بليلٍ لأجاب. فنزل عليهم وبدأوا يتماشوا، ثم أن أبانائلة وضع يده على رأس كعب ثم شم يده وقال: ما رأيت طيباً أعطر من هذا الطيب، فقال كعب وكيف وعندي أعطر نساء العرب، وأجمل نساء العرب، ثم مشوا ساعة ثم عاد أبو نائلة لوضع يده على رأس كعب وأستمسك به، وقال لأصحابه إضربوا عدوالله، فضربوه فأختلفت عليهم أسيافهم فلم تغن شيئاً، إذ وقع بعض سيوفهم على بعضٍ ولصق كعب بأبي نائلة وصاح صيحة لم يبق حصن إلا وعليه نار، قال محمد بن مسلمة فوضعت سيفي في ثنيته ثم تحاملت عليه حتى بلغ عانته فوقع، ولما صاح كعب تلك الصيحة صاحت إمرأته ياآل قريضة والنضير مرتين فخرجت اليهود فأخذوا على غير طريق الصحابة فقاتلوهم، قال محمد بن مسلمة وأصيب الحرث بن أوس من بعض أسيافنا في رجله ورأسه ونزف الدم. فتخلف عنا وجاءوا رسول الله آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلّما عليه وخرج إليهم وأخبروه بقتل عدوهم، وفي رواية أنهم حزوا رأس كعب، وحملوا ذلك الرأس وخرجوا يستشهدون، فلما بلغوا بقيع الفرقد كبروا، وقد قام رسول الله يصلي تلك الليلة، فلما سمع تكبيرهم بالبقيع كبّر، وعرف أنهم قتلوا عدوالله وخرج إلى باب المسجد فجاؤا ووجدوا رسول الله واقفاً على باب المسجد. فقال لهم أفلحت الوجوه، قالوا أفلح وجهك يا رسول الله، ورموا برأسه بين يديه، فحمد

---

(1) صحيح البخاري، (كتاب المغازي)، الحديث رقم: 373.

الله على قتله [1]. والذي جرى في قتل كعب بن الاشرف جرى مثله أيضاً في قتل أبي رافع بن سلام بن أبي الحقيق كبار يهود خيبر، وأسير بن رزام اليهودي في خيبر، وقد بعث رسول الله عبدالله بن أنس لقتل سفيان بن خالد الهذلي ثم الليحاني. أما عن قتل أبي رافع سلم بن أبي الحقيق، فقصته هذه غريبة في وجهتين:

الوجه الأول: أن الذين قتلوا أبا رافع، وهم نفر من الخزرج لم ينتدبهم النبي لقتله كما إنتدب رجالاً من الاوس لقتل كعب بن الاشرف، وإنما هم تبرعوا بقتله لينافسوا الاوس الذين قتلوا كعب ويتقربوا إلى رسول الله زلفى، لأن الاوس والخزرج كانا يتنافسان فيما يقرب إلى الله ورسوله فلا تفعل الاوس شيئاً من ذلك إلا وفعلت الخزرج نظيره، وبالعكس، فلما رأت الخزرج أن الاوس قتلوا كعب وتقربوا بقتله إلى الرسول قالوا والله لا يذهبون بهذا فضلاً علينا في الإسلام، وأخذوا يتذمرون من شابه كعب بن الاشرف في العداوة لرسول الله ليقتلوه، فذكروا أبا رافع، وأنتدب لقتله خمسة من الخزرج هو عبدالله بن عتيك و عبدالله بن أنس وأبو قتادة والاسود بن خزاعي ومسعود بن سنان الاسلمي، فجاءوا إلى رسول الله وأستأذنوه في ذلك، فأذن لهم وأمرهم أن لا يقتلوا وليداً ولا إمرأة [2].

والوجه الثاني: هو أن ما فعله هؤلاء الذين تبرعوا بقتل أبي رافع لمجرد منافسة الاوس كان أشبه شيء بفعل اللصوص، ونورده هنا لكي نلقي الضوء على ما كان يجري من سلوك وعادات في تلك الفترة الحساسة من تاريخنا الإسلامي عموماً. ويا لها من غرابة

---

(1) سيرة ابن هشام، 55/3 ــ 57، السيرة الحلبية 160/3 ــ 161، تاريط الطبري 561/2 ــ 265.

(2) السيرة الحلبية: 161/3ــ 163، سيرة أحمد دحلان، 153/2ــ 156.

تدعوا إلى الاستغراب والدهشة بالنسبة لسامع في هذا العصر ولكنها على ما يبدو كانت من الامور المعتادة بلا إستغراب وكما يلي: (خرجوا إلى خيبر فلما أتوا تسوروا دار أبي رافع ليلاً فلم يدعوا بيتا في الدار إلا وأغلقوه على أهله، وكان أبو رافع في علية لها درجة، أي سلم من الخشب يُصعد عليه إلى تلك العلية، فطلعوا في تلك الدرجة حتى قاموا على باب ذلك المرتفع، فتقدم عبدالله بن عتيك لأنه كان يتكلم بلسان اليهود، فأستفتح أي طلب فتح الباب وقال: جئت أبارافع بهدية، ففتحت له إمرأته وقالت: ذاكم صاحبكم فأدخلوا عليه، فلما دخلوا أغلقوا عليهم وعليه باب الحجرة، ووجدوه وهو على فراشه وما دلهم عليه في الظلمة إلا بياضه، فأبتدروه بأسيافهم، ووضع عبدالله بن أنس سيفه في بطنه وتحامل عليه حتى أنفذه وهو يقول: قطني قطني، ويعني يكفيني يكفيني، وعند ذلك صاحت المرأة مما جعلت الرجل يرفع عليها سيفه إلا أنة تذكر نهي رسول الله في قتل المرأة فكف يده عنها، وخرجوا من عنده وكان عبدالله بن عتيك سيء البصر، فوقع من السلم فوثبت رجله وجرحت، وقال بعضهم لبعضٍ كيف نعلم أن عدو الله مات؟ فقال أحدهم أنا أذهب فأنظر لكم، فانطلق حتى دخل في الناس، وقال وجدت إمرأته تنظر في وجهه وفي يدها مصباح ورجال يهود حوله وهي تحدثهم تقول أما والله لقد سمعت صوت إبن عتيك ثم أكذبت نفسي ثم أقبلت تنظر في وجهي، ثم قالت فاضت وآله يهود أي خرجت روحه وقال فما سمعت من كلمة كانت ألذ إلى نفسي منها. ثم جئت وأخبرت أصحابي وقدمنا إلى رسول الله.

أن قتل أبو رافع في بيته وعلى فراشه ومع إمرأته وتسور الدار عليه ليلاً وهو غافل لا يعلم بوجود عدو يريد قتله، فهذا شيء لا فرق بينه وبين ما تفعله اللصوص، سوى أن هؤلاء فعلوا ما فعلوا للمصلحة العامة بينما اللصوص لمصلحتهم الخاصة، والمصلحة العامة هذه تصب في نصرة الإسلام وإعلاء كلمته والمتمثلة بإعلاء الحق والتوحيد. إن هؤلاء النفر الذين قتلوا أبو رافع كانوا في منافسة مع الاوس والتزلف لمحمد

(ص)، إلا أن محمداً (ص) كان يريد في ذلك المصلحة العامة، وبالتالي يكون التزلف إليه بهذه الطريقة يصب في مصلحة المسلمين العامة ونشر الدعوة الإسلامية، فإن شعار الغاية تبرر الوسيلة تنطبق على ذلك تماماً ويبرر فقهاء الدين في وصف الاغتيالات في العهد النبوي بأنها عبارة عن أمر شرعي بتنفيذ عملية إعدام صدرت بحقهم[1]. أما إذا أردنا أن نرى ما فعله خالد بن الوليد لما أرسله رسول الله إلى بني جذيمة بعد فتح مكة مباشر فأنه لم يأمره بقتالهم، وكانوا قد أسلموا، إلا أن النبي لم يعلم بإسلامهم فأرسله إليهم مع ثلثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والانصار ومن بني سليم. وكان بين بني جذيمة وبين بني سليم ذحول، لأن بني جذيمة كانوا قد قتلوا منهم مالك بن الشريد وأخويه في موطن واحد. وقد فعل الكثير من المجازر التي لا مجال لوصفها هنا كانت بحجة أن الامر الصادر أو البلاغ القادم إليه من أحد الأفراد القادمين من الرسول محمد (ص) قد نقل إليه هذا الخبر خطأ حيث كان القصد بأن لا يُقتل فرد من قريش بينما وصله الخبر بقتل كل من تلاقيه. أن الاعمال التي قام بها خالد بن الوليد لا يمكن وصفها هنا ولكن القولَ بأن خالد قد قال به رسول الله بأنه سيف الله المسلول. ولنترك كل هذه التفاصيل ونأتي بقصة مقتل أبي جهل يوم بدرٍ لما لها من دلالات فلسفية مفيدة في سياق بحثنا هذا. ففي السيرة الحلبية: عن معاذ بن عمرو بن الجموح قال: رأيت أبا جهل وقد أحاطوا به وهم يقولون: أبو الحكم (أي أبو جهل) لا يخلص إليه. قال: فلما سمعها عمدت نحوه وحملت عليه، فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حتى طاحت كما بالنواة تطيح من تحت مرضخه النوى، فضربني إبنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جسمي، وأجهضني القتال عنه (أي شغلني وأبعدني) فلقد قاتلت عامه يومي لأستحسها. فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت عليها حتى طرحتها.

---

(1) هادي العلوي (الاغتيال السياسي في الإسلام) دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الرابعة (2004) ص 27.

وبعدما وقع أبو جهل هكذا عقيراً مر به معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق من الحياة. ثم جاء عبدالله بن مسعود [1]. فصار ضبعاً لأبي جهل، لأن أبا جهل كان على حافة الموت بعدما أثخنه معوذ، ولكن إبن مسعود لم يأنف من التشفي بقتل الميت. فعن إبن مسعود قال: رأيت أبا جهل بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه، ثم قلت له هل خزاك الله يا عدو الله، ففتح عينيه وقال: وبم أخزاني أعار على رجل قتلتموه، أي لا عار عليَ في قتلكم إياي، وفي رواية أُخرى أنه قال: لو غير أكار قتلني، والاكار الزراع يعني الانصار لأنهم كانوا أصحاب زرع، ثم قال يخاطب إبن مسعود: لقد أرتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً، أخبرني لمن الدبرة، لنا أم علينا، فقلت: لله ولرسوله قال إبن مسعود: ثم أني إحتززت رأسه، ولما ضربته بسيفي لم يغنِ شيئاً، فبصق في وجهي وقال: خذ سيفي فأحتز به رأسي من عرشي يكون أنهى للرقبة، (والعرش هو عرق في أصل الرقبة) ففعلت ذلك ثم جئت به إلى رسول الله فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبو جهل، فقال رسول الله: والله الذي لا إله غيره، ورددها ثلاثاً ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله فحمد الله ويقال أنه سجد خمس سجدات شكراً.

إن أبا جهل هو من بني مخزوم، وإسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، وكان يكنى بأبي الحكم، فغير النبي كنيته بأبي جهل، وكان أبو جهل من كبار سادات قريش وأشرافهم حتى أن دار الندوة[2]*.كانت لا يدخلها عند المشورة من

---

(1) السيرة الحلبية، 172/2.

(2) ★ دار الندوة: هي أول دار بنيت بمكة، وكانت منزل قصي بن كلاب (جد قبيلة قريش) ثم اتخذتها قريش للشورى، فكانت محل مشورتهم لا يقطعون أمرا إلا فيها (السيرة الحلبية 125/2) والندوة معناها الجماعة، وهي تقع جهة الحجر عند المقام الحنفي الآن وكان بها باب إلى المسجد وهي اليوم غير موجودة لأنها ادخلت في المسجد/ انظر محمد عابد الجابري ـ المصدر السابق.

غير ولد قصي إلا إبن الاربعين سنة، إلا أبا جهل فإنه كان يدخلها عند المشورة وهو شاب دون العشرين، ومن ثم قيل فيه: ساد أباجهل وما طر شاربه ودخل الندوة وما استدارت لحيته. وكان أشد قريش عداوة للنبي بعد أبي لهب (عمّ النبي). ولا ريب أن أثر الانتقام ظاهر في قتل أبو جهل بالنسبة لقاتله الاخير إبن مسعود، وأما بالنسبة للمقتول فإن أثر الإباء والشيم والبطولة كانت ظاهرة في تلك القتلة حين قال أبو جهل لإبن مسعود حين وضع قدمه على عنقه وأراد أن يحترّ رأسه فإن كلامه ذلك كان يدلَ على أنه يفضل الموت بالعز على الحياة الذليلة، وعلى الرغم من كون أبو جهل سيداً في قومه شريفاً في نسبه، إلا أنه كان منحطاً في عقليته، وجامداً على التقاليد البالية السخيفة، ولم يكن يوم بدر إلا قتيل جموده على تلك التقاليد الواهية، وكذلك الامر بالنسبة لغيره ممن إشتهروا بعداوة محمد (ص) من كفار قريش، وإلا فإن محمداً (ص) لم يكن يريد لهم إلا العز والرفعة، وإن يكونوا ملوك العرب والعجم، حيث قال لهم فيما إجتمع بهم عند وفاة عمه أبو طالب وكان من بينهم أبو جهل فقال لهم محمد (ص): (أرضيتكم أن أعطيتكم ما سألتم هل تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم). فقال أبو جهل: نعم لنعطينها لك وعشراً معها فما هي؟ قال: (لا إله إلا الله) وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم دلالة عدم الرضى وقالوا: (يامحمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجيب). لقد منعت التقاليد الموروثة لديهم الكثير منهم من الدخول في الإسلام، بينما أدركها البعض في الآونة الاخيرة، وأستطاع أن يركب الموجة العارمة في التغيير أمثال أبو سفيان بن حرب حيث أعلن إسلامه بعد فتح مكة مباشرة وصار من الاسياد وحافظ على كيانه ونفسه من القتل، من خلال إدراكه بالنتيجة الحتمية لمصيره إذا لم يفعل ذلك. وإستطاع أيضاً أن يحفظ لذريته من الاحفاد أن يؤسسوا للدولة الإسلامية والتي أسست على يد إبنه معاوية حيث تشكلت من خلاله أعظم إمبراطورية في ذلك العصر. أما أبو جهل فذهب فعلاً ضحية جهله وعناده غير المبرر وقتل نفسه

بسيفه الذي كان يعتز به. أن العبرة والدرس في هذه الحادثة هو أن كل من لم يستوعب التطور التاريخي للمجتمع، ويتزمت في تقاليده وعاداته إنما يكون مصيره كمصير أبو جهل. ولدينا في هذا العصر مثال واضح عن صدام حسين الذي أصبح في عزلة تامة عن العالم ولم يفهم مإذا يجري من تطورات فيه. ونذكر هنا الرسالة التي وجهها له الرئيس الامريكي (جورج بوش الاب (حينما أراد منه أن ينسحب من الكويت بعد إجتياحه إياها عام 1990. حيث كان يدعو لإتخاذ موقف من الحكمة وتحكم الضمير بالانسحاب وتجنب ويلات الحرب والخسارة الحتمية المحسومة مسبقاً. إلا أنه أي جورج بوش لم يكن على بيّنة بما في رأس صدام حسين من إرثٍ قديم متراكم منذ الآف السنين يدعوه للتعنت بحجة الكرامة الزائفة، وعدم الاكتراث بأرواح الناس والخسارة التي يمكن أن تلحق بالبلد إذا ما إتخذ قرار عدم الانسحاب والحرب، والذي كان في مقابل كل العالم المتمدن بلا إستثناء تقريباً. فكما ذهب أبا جهل ضحية تعصبه بالتمسك بالتقاليد وقطع رأسه بسيفه المهيأ مسبقاً بالقطع السريع والحاد، ذهب صدام ونظامه بذات الطريقة، كما ذهب العديد من المتزمتين والمتعصبين عبر التاريط، ممن لم يتقبلوا النصح والرأي الأخر. أما أبا جهل فقتل بسيفه وبأمرٍ منه، ربما أدرك مقدار الخطأ الذي إرتكبه في آخر رمقه، إلا أن صدام حسين لم يدرك ما ارتكبه من أخطاء لآخر لحظة من حياته وذلك بسبب الموروث التاريخي الثقيل الذي يحمله في رأسه. وقد تصرف كذلك نتيجة لما يحمله في رأسه من مفاهيم في الكرامة الزائفة تفوق ما لديه من حكمة وعقل منطقي بضمير.

وعودة إلى إستخدام السيف في الإسلام. فقد جاء في كتاب معروف الرصافي عن مسألة الانتقام في الإسلام ما يلي[1]: (أن محمداً نفسه لم يخلُ من حسَ الانتقام في حرب بدرٍ، فأنه لما بلغ دار بني الصفراء مرجعاً من غزوة بدر، أمر بقتل النضر بن الحارث، وفي

---

(1) معروف الرصافي (الشخصية المحمدية 323/2).

السيرة الحلبيـة نقـلاً عـن الامتـاع: أن الـنبي نظـر إلى النضـر بـن الحـارث وهـو أسـير أثنـاء تفقده لجميع الاسرى بعد إنتهاء معركة بدر فقال النضر للأسير الذي بجانبـه: ان محمـداً والله قاتلي، فأنه نظر إلي بعينين فيهما الموت فقال له الاسير: والله ما هـذا منـك إلا رعـب، وقال النضر لمصعب بن عمير يا مصعب أنت أقرب مـن هـذا إلـي رحمـا، فكلِم صـاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه هو والله قاتلي، فقال مصعب: إنك كنت تقول في كتـاب الله كـذا وكذا. وكان المقداد هو الذي أمر بقتل النضر. فلما أمر النبي بقتله قال المقـداد: يـا رسـول الله هذا أسيري، فتولى المقـداد قتلـه فقتلـه، ويقـال أن النضـر هـذا كـان يشـكك في أحاديـث محمد وأنه ذهب إلى الحيرة وإشترى منها أحاديث الاعاجم ثم قدم بها إلى مكة، وكان يشبه تلك الأحاديث والحكايات عن نبأ الأولين بالآيات القرآنية، وكان دائماً يجمع الناس في مكة ليوضح لهم درجة تشابه الأحاديث والحكايات الموجـودة بالآيـات القرآنيـة مـع الاحاديـث الموجودة لدى الزرادشتية أو المانوية وغيرها من الكتب المتداولة في بلاد الرافدين في ذلـك الوقت. ثم أن محمداً لما إرتحل من الصفراء فبلغ عرق الظبيـة (موقـع) أمـر بقتـل عقبـة بن أبي معيط وكما قُتل صاحب أبي خلـف علـى يـد محمـد يـوم أُحـد، وقيـل أن محمـد لم يقتل بيده أحداً غيره. ولا يشـك أن النضـر بـن الحـارث وعقبـة بـن أبـي معـيط لم يقـتلا لكفرهما فحسب. وإلا لزم قتل جميع الاسرى من كفار قريش الذين أسروا يوم بدر، وإنما قُتلا إنتقاماً وتشفياً بقتلهما لما كانا يفعلان بمكة قبل الهجـرة، وقـد نـزلـت الآيـة الكريمـة بخصوص الانتقام في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾[1]. ان البطشة الكبرى هي حرب بدر، وأن صح ما نقول أن حرب بدر كانت حربـاً إنتقاميـة لِمـا فعلته قريش بالمسلمين في مكة[2].

---

(1) سورة الدخان الآية 16.

(2) السيرة الحلبية، 179/2.

ولا بد من الإشارةهنا إلى أن كفار مكة لم يكونوا أقل قسوة من ذلك فتشير المصادر العديدة إلى مقدار ما قاسته الامة المسلمة في مكة والطائف من قسوة على المسلمين، وقد أسهب الكتاب في وصف ذلك في العديد من الكتب لا داعي لتكرارها، ونذكر فقط كيف قُتل ياسر (والد عمار بن ياسر) وزوجته سمية في التعذيب على يد قريش. أن نمط الحياة في الجزيرة العربية كانت متميزة بإستخدام السيف بالشكل الذي يتلائم وهدف التنازع من أجل البقاء في تلك البيئة الصحراوية وفي تلك المرحلة من تطور العقل البشري. ومن المفيد أن نذكر هنا أيضاً كيف أن المهاتما غاندي (زعيم الهند الراحل) ذكر في مذكراته [1] المشهورة أنه قرأ الاديان السماوية كافة ومنها المسيحية واليهودية والإسلام بتفاصيلها وقد أعجب كثيراً في القيم الاخلاقية التي جاء بها الإسلام، خاصة وأن صديقه الحميم محمد علي جناح ذلك المفكر الإسلامي الكبير الذي تأسست دولة باكستان على يده، كان دائماً يحثه بأن يصبح مسلماً، إلا أن إعتراضه على الإسلام كان منصباً في إستخدامه السيف في عصر فجر الإسلام دون أن يدرس طبيعة البيئة التي نشأ بها الإسلام وظروف الجزيرة العربية ومواريثنا التاريخية لكي يعرف السبب وراء استخدام السيف، وبالتالي لم يكن هناك بديل في نشر الدعوة ونجاحها وتحقيقها لكل ما كانت تصبوا إليه، لولا استخدام السيف بالطريقة التي وصفناها. وكم ظهرت دعوات ورجالاً عظام لم يذكرهم التاريط وذهبت دعواتهم أدراج الرياح لعدم استخدام السيف. ويمكن الرجوع إلى السيرة النبوية وغيرها من المصادر من أجل زيادة المعرفة والاطلاع على الحقيقة بتفاصيلها. لم يكن متوقعاً أن يصبح المهاتما غاندي مسلماً، نظراً لنشأته في بيئة مختلفة تماماً عن بيئتنا بالاضافة إلى كونه متدين بالهندوسية، والتي تمنع حتى قتل الحيوان وحتى استخدام المنتجات الحيوانية لخدمة الإنسان كالحليب والبيض. ولابد من الإشارةهنا إلى مفاهيم

---

(1) مذكرات غاندي.

خاطئة كانت سائدة لدينا، من أن الهنود يعبدون البقرة، وفي الحقيقة هذا إفتراء كبير عليهم. وكل ما في الامر أن هناك مصلحين ظهروا في القارة الهندية أوصوا بالعناية بالحيوانات ومنها البقر لأنهم أدركوا أهمية تلك الحيوانات في مستقبل تلك الامة وأن القتل العشوائي قد يتسبب في كارثة كما ظهر لديهم واحداً من المصلحين الكبار واسمه ساندرام[1] كان يوصيهم بعدم قطع أي شجرة. وكان هذا المصلح الكبير في السن قد عاصر مآسي التصحر والموت الجماعي لقومه أيام طفولته وشبابه وفطن بأن السبب وراء كل تلك المآسي كان القطع العشوائي للأشجار وهكذا طرأت لديه تلك الفكرة. فحبذا لو ظهر لدينا مصلح من هذا النمط يوصينا بالعناية بالاشجار والنفط والغاز الطبيعي الذي أصبح جزءاً من كياننا ووجودنا لإنقاذنا من مأساة محتملة بعد تناقص تلك الثروة المعدنية الهامة، فيما إذا لم تستغل بالطريقة الامثل لصالح المجتمع وللاجيال القادمة خاصة بعد كل ذلك الاستنزاف والهدر في الموارد التي كانت تذهب للأغراض الحربية وغيرها من الأمور العبثية التي لا تصب في التنمية المستدامة والمتجددة وتحفظ جزء من الثروة للأجيال القادمة.

أما عن الموروث التاريخي في ممارسة الاغتيال السياسي فقد استخدم هذا الاسلوب في التخلص من الخصم البارز منذ أقدم العصور. ومُورِس الاغتيال السياسي قبل الإسلام بشكل مفرط. وجرت محاولات عديدة في إغتيال الرسول محمد (ص) نفسه طيلة فترة حياته، ولم يتمكنوا منه. وأستمرت هذه الممارسة بعد ظهور الإسلام ظناً منهم أنها أسهل طريقة للتخلص من الاعداء بطريقة تجنبهم عناءاً أكبر في حالة عدم قتل المنافس خلسة. وهكذا نجد أن حركات سياسية مهمة تدَعي بدوافعها الاصلاحية وقيمها السامية، أقتبست هذا الاسلوب في عصرنا الحاضر كمنهج في ممارسة العمل السياسي، وكما فعل

---

(1) برنامج تلفزيوني في محطة (BBC) عام 2002.

ذلك البعث وغيره في العراق منذ ظهوره على الساحة السياسية، وكانت الاغتيالات السياسية تمارس بغزارة أيام بداية التغييرات التي حصلت عام 1958، عندما قامت الجمهورية في العراق والتي أطاحت بالملكية على يد عبد الكريم قاسم، وأستطاعوا أن يُصفوا الاعداء والمنافسين لهم عن طريق الاغتيال والغدر المبرر من قبلهم بعقليتهم الانتقامية الموروثة تاريخيا، ومن منطلق (الغاية تبرر الوسيلة) على إعتبار أن غايتهم هي في قمة السمو (حسب عقيدتهم) وذلك في تحقيق مجتمع عربي إشتراكي جديد. ولكن كانت المحصلة النهائية هو الفشل الذريع،وها نحن نحصد نتائجه. لقد مورس الاغتيال السياسي بشكل مفرط في خلال فترة الحكم الإسلامي أيام الدولة الاموية والعباسية وما تلاها وهناك العديد من الامثال في الاغتيال تمت ممارستها في القيادات العليا بين الاخوة أو الاباء والاخوة جنباً لجنب مع ممارستها للخصوم. ولا تزال عقلية الاغتيال السياسي متغلبه للأسف الشديد، ولا بد من وضع حد لهذا الموروث في عقولنا. وحتى الانقلابات العسكرية التي تروم تغيير أنظمة الحكم، لم تكن سوى وسيلة غدرٍ وخيانة، مورست في منطقتنا العربية والإسلامية بدرجة واسعة تفوق أي منطقة أخرى من مناطق العالم. وأبسط مثل على ذلك أن الهند والباكستان كانت دولة واحدة وعندما إنفصلت وأصبحت دولتان، بدأت الانقلابات العسكرية في باكستان تتوالى تباعاً بينما لم يحصل أي إنقلاب عسكري لحد الآن في الدولة الهندية غير المسلمة. وهذا دليل واضح وملموس في تأثير الموروث التاريخي في إسلوب التخلص من الخصم لدى الدول الإسلامية، بينما نجد في الدولة التوأم وهي الهند ترسيط مبادئ الديمقراطية الحديثة دون حصول إنقلاب عسكري منذ تأسيسها عام (1947). من هنا يمكن القول أن التوسع في المؤسسة العسكرية والتي تصبح مؤثرة في القرار السياسي أمر خطير في البلدان النامية ويجعل أمر الاستقرار في كف عفريت مهما أتخذت من إجراءات وتحذيرات لمنع حصول الانقلابات العسكرية. كل ذلك يرجع للموروث الثقافي في هيمنة الاقوى والاكثر إقتداراً في السيطرة

على زمـام الامـور. لا شـك أن هنـاك عوامـل وأدوات اخـرى تحـرك في حصـول الانقلابـات العسـكرية إلا أن الحاضـنـة الرئيسـيـة كأسـلوب غـدرٍ وخيانـة كـان في المواريـث الثقافيـة التاريخية لبلدان العالم الثالث، ومنها بلادنا التي عانت الامرين من الانقلابات العسكرية في السابق. وفي إعتقادنا أن خطر الانقلابات العسكرية لا تزال قائمة طالما بقيت عقيدتنا وفلسفتنا في الحياة كما هي قائمة على أساس الغلبة للأكثر شراسة وقسوة. وينبغي اتخاذ كل الوسائل والسبل الكفيلة بطي صفحة الانقلابات العسكرية من حياتنا السياسية ليس فقط بالوسائل الإجرائية بـل تربويـاً وثقافيـاً وعلـى كافـة الأصعدة كـي نـبني مسـتقبلاً زاهراً لأجيالنا القادمة ونلحق بركب الحضارة الحديثة.

بقي أن نستقرأ الحكم بالحد (القتل) لكل مـن دخـل الإسـلام ثـم إرتـد عنـه .فقـد جاءت بثلاثة مواقع في القرآن الكريم تشير بما يعني الحكم بالحد لكل مـن دخـل الإسـلام ثم ارتد عنه. ومن خلال النظر لهذا الحكم في عصرنا الحاضر والقيم السائدة فيه لأول وهله نجد فيه عدم مطابقة مع قيم حقوق الإنسان . ولو علمنا أن هذا المبدأ غير معمول به في أي دين أخر عدا الديانه الزرادشتية القديمه التي كانت سائدة في ايران واجـزاء مـن العراق والجانب الشرقي من الجزيرة العربية وانتشرت قبل ميلاد المسيح بأكثر من 500 عام، وكانوا يريدون عملتهم هذه بأن هناك أسماء وتراتيل في الديانه الزرادشتيه لا يجوز البوح بها وأرتداد الزرادشتي قد يضـرّ بهـم كـثيراً ويعرضـهم إلى ضـربات غيبيـه (حسـب عقيدتهم) .

لقد اختلف الفقهاء في الاجتهاد في مسأله الحد للمرتد عن الدين الإسلامي، فهنـاك مـن لا يعتقـد أن الآيـات الـوارده في القـرآن الكـريم تعـني الحـد أو قتـل المرتـد مـن خـلال تفسيرهم للمفـردات اللغويـة الـوارده واخـتلاف المعـاني عمـا هـو عليـه الحـال في عصـرنا الحاضر، فهناك الكثير من المفردات لم تعد تعني نفـس ماكانـت تعنيـه في اسـتخداماتها في القرن السابع الميلادي (هادي العلوي ــ مقالات في مجلة الثقافة الجديدة).أما القسم الآخر

فقد أعتبر أن الحالة التي كانت عليها الجزيرة العربية بعد الهجره إلى يثرب تعتبر بمثابة حرب دائمة، فلو تصورنا أن العشر سنوات التي تمثلت في الهجرة المحمدية قد حصلت فيها (65) غزوة إسلامية قاد محمد (ص) بنفسه (27)غزوة . وهذا يعني أن من يخرج عن الدين الإسلامي مرتدأ بمثابة جندي ينتقل من معسكره إلى معسكر الأعداء وبالتالي الافشاء بالمواقع والأسرار العسكرية الاخرى التي تضر وقد تسبب الخسارة الكامله لرفاقه في القتال .من هذا المنطلق فإن منع الارتداد يقصد به منع الذهاب إلى معسكر الأعداء والمحافظة على حياة المسلمين من خطر محدق في أي وقت، أي أن المرتد يكون بمثابة الجندي الذي يهرب إلى صفوف الأعداء في الحرب، أو الجاسوس لصالح الطرف الآخر.

أما الآن وقد زالت تلك الظروف فلا نجد غير دعوة الفقهاء والمفسرين في عصرنا بالخوض في هذا المجال وايجاد صيغه من الفهم الصحيح لروح القيم الإسلامية السمحه ونبذ روح التشدد من خلال اعادة تفسير الأيات القرآنية لما هو في صالح المجتمع ومنسجماً مع مفاهيم العصر الحديثة.

4. مرغبات الجهاد في الإسلام:

لعل واحداً من أهم الموضوعات التي نعهدها في الوقت الحاضر هي ما جاء في عصر فجر الإسلام من الأسباب التي تجعل الإنسان يضحي بحياته ويدفع بنفسه إلى التهلكة من احل قضية يؤمن بها. ولا بد لنا قبل الخوض بالموضوع أن نعرف معنى كلمة الجهاد، فالجهاد في اللغة العربية معناه: بذل ما بالوسع، وهو من الجهد بمعنى الطاقة، ثم أستعمل في القتال لإعلاء كلمة الله، ويقال: جاهدوا العدو. وهذا مصطلح قرآني يعني قاتلوا العدو. ولما جاءت الدعوة الإسلامية إلى الجزيرة العربية وكما أسلفنا في الفصل الثاني كيف كان القتال يشكل جزءاً من كيانهم وحياتهم البدائية التي تغلب فيها الشجاعة والنجدة، وأن يكونوا ذوي جلادة وصبر على الشدائد وإحتمال المشاق. ولا تشكل

عندهم الحياة الدنيا بذات قيمة، كقيمتها عند أهل الحضارة والمدينة، وبالتالي يكثر منهم الاقدام على المعارك. وإذا ما إنضم إلى هذه الصفات ما كان يرغبهم في الإسلام فيه ما يحلل عليهم ويدعوهم للقتال ويحرضهم عليه فإنها تؤدي إلى مضاعفة القدرة والاندفاع في القتال، وكانت تصب في أمرين: الأول معنوي والآخر مادي.

أما المعنوي: فهو الذهاب إلى الجنة ونعيمها الخالد المقيم، والمفهوم من الاحاديث النبوية أنه ليس هناك طريق يؤدي إلى الجنة تأدية مضمونه بكل سلامة وإطمئنان سوى الشهادة، وهي أن يموت المرء قتيلاً في سبيل الله، فلذا كانت الشهادة أكبر مرغب في القتال. ومن الاحاديث المروية في هذا الباب، قال النبي محمد (ص): (أن للشهيد عند الله خصالاً: أن يغفر له من أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلية الايمان، ويزوج من الحور العين ويجار من وثاب الفر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوهاج من الياقوته ومنهُ خيرٌ من الدنيا وما فيها، يزوج اثنين وسبعين من حور العين، ويشفع في سبعين انساناً من أقاربه)[1] وجاء مثل هذا في رواية أخرى أنه قال يخاطب أصحابه بعد غزوة أُحد: (لما أُصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم من اجواف طير خضر ترد انهار الجنة، وتاكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن منقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يتكلموا عن الحرب فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله على رسوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[2] وجاء في حديث آخر: (لا تجف الارض من دم الشهيد حتى يبتدره زوجتاه كأنهما طائرتان أظلتا فصيليهما ببراح الارض، بيد كل واحدة منهما حلة خير من الدنيا

---

(1) سنن الترمذي، فضائل الجهاد، الحديث رقم 1586، سنن إبن ماجه، كتاب الجهاد رقم 2789.

(2) سورة آل عمران، الآية 169.

وما فيها) [1]، والاحاديث في هذا الموضوع كثيرة فمن أرادها فليرجع إلى كتب الحديث التي تخص الجهاد في سبيل الله، ويجدر الإشارةهنا إلى أن للجنة تأثير عظيم في نفوس المسلمين الاوائل نورد المثال على ذلك أن أم حارثة بن قيس الانصاري جاءت النبي بعدما قتل إبنها يوم بدر وهو غلام، فقالت: يا رسول الله، حدثني عن حارثة، فإن يكن في الجنة لم أبكِ عليه ولكن أأحزن ؟، وإن يكن في النار بكيت ما عشت في دار الدنيا، فقال لها: (يأم حارثة، أنها ليست بجنة ولكنها جنات، وحارثة في الفردوس الاعلى)، فرجعت وهي تضحك وتقول بط بط لك يا حارثة[2]. والاخبار في خطب الرسول محمد قبل غزوات بدر وأحد وحكايات الترغيب في الجنة كثيرة لا حصر لها، ويمكن الرجوع إليها في السنة النبوية المعروفة كما أسلفنا.

أما الترغيب المادي: فهو الغنائم والسبايا، ومن المعلوم أن العرب في العصر الجاهلي كانوا يغتنمون الاموال ويسبون النساء والرجال في حروبهم. فقد استمر الإسلام على هذه العادة الموروثة وأحل لجيوشهم الغنائم، وقد جعل محمد ذلك من خصائصه التي أختص بها وأنفرد دون غيره من قبله من الانبياء والرسل، لأنه عرف طبيعة المجتمع وما كان له أن ينجح لو لم يعمل بذلك كما جاء في هذه النصوص أنه قال: (أعطيت خمسا لم يعطيهن أحد قبلي: أرسلت للناس كلهم عامة، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الارض مسجداً، والتراب طهوراً)[3] فكان يرَغب أصحابه في الغزو بالغنيمة كما قال لعمرو بن العاص لما أرسله في غزوة (ذات السلاسل)، فعن عمرو بن العاص قال: بعث إلي رسول الله فأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي، وقال: (ياعمرو، إني أريد أن أبعثك على

---

(1) سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد، الحديث 2392.

(2) السيرة الحلبية، 162/2.

(3) صحيح البخاري، 419، 323، صحيح مسلم 810، سنن النسائي 429، سند أحمد 2144.

جيش فيغنمك الله ويسلمك)، فقلت: أني لم أسلم رغبة في المال، قال: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[1].

ولما خرج إلى تبوك وتجهز الناس قال للجدَ بن قيس: يا جدَ هل لك في جلاد بني الاصفر. فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجلٍ أشد عجباً بالنساء مني لأني أخشى أن رأيت نساء بني الاصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله وقال له: أذنت لك، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ... ﴾[2] الآية[3] فكانت غنائمهم من حوافزهم على الغزو، ومن مرغباتهم في الخروج للقتال. أما السبايا من الرجال والنساء فكانت كأموال الغنائم تقسم على الجيش أيضاً من ضمن تقسيم الاموال. فتكون السبايا ملكاً لهم أن شاءوا إسترقوهم، وإن شاءوا باعوهم، وأن شاءوا كاتبوهم، وأن شاءوا أخذوا فدائهم إذا إفتداهم أهلهم. ولم تكن إذ ذاك قاعدة متبعة في تقسيم الغنائم، وبعد أن حصلت مشاكل عديدة بين الجنود في تقسيم الغنائم، رأى محمد أنه أمام مشكلة يجب حلها عاجلاً لئلا يتسع الخلاف ويتمادى النزاع، فلم يجد لتلك المشكلة حلاً سوى أن ينزع الغنائم من أيديهم ويجعلها لله ورسوله. وحينئذ يكون الحكم فيها له وحده، وإذا كان الحكم له هان الأمر فأنزل الله من السماء الآية الكريمة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4]. فبهذه الآية نزعها الله من أيديهم وجعلها لمحمد يضعها حيث يشاء. وقال الحلبي في سيرته: فدلت الآية على أن الغنيمة لرسول الله خاصة ليس لأحد من المقاتلين شيء فيها. أما محمد (ص) فأنه لم يخرج عن

---

(1) السيرة الحلبية، 192/2.

(2) السيرة الحلبية، 191/2.

(3) سورة التوبة، الآية 94.

(4) سورة الأنفال، الآية 1.

الشرط الذي شرطه لمن كان له بلاء في ذلك اليوم. فجعل الاسرى لمن أسروهم، وأسلاب القتلى لمن قتلوهم وقسم الباقي على المسلمين بالسوية[1]. وكان سهمه كسهم واحد منهم، إلا أن لمحمد الصفى، وهو يصطفي ويختار لنفسه من الغنيمة قبل القسمة. ولا ريب لأن آية الانفال لم تكن إلا تدبيراً مؤقتاً لحسم النزاع، لأن جعل الغنائم لرسول الله يعطيها من يشاء، وكيفما يشاء، ربما يؤدي ذلك إلى التقول من بعض ضعاف الايمان، فالأحوط هو أن يوضع لتقسيم الغنائم حكماً عاماً يكون معمولاً به في كل وقت حتى يرضى كل واحد بنصيبه ولا يتكرر الخلاف والنزاع، فلا بد إذن من آية أن تنسط آية الانفال. فنزلت الآية الكريمة في تقسيم الغنائم، وهي: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2] فكان الحكم في تقسيمها هكذا: بعد الصفى الذي يختاره رسول الله لنفسه إلى خمسة أقسام: فالقسم الأول وهو خمس الخمس لرسول الله يفعل به ما أحب، والثاني لذوي القربى وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب والثالث لليتامى والرابع للمساكين والخامس لإبن السبيل.

يفهم مما تقدم ان الجنة من المرغبات العامة، لأنها تصلح للترغيب في الإسلام وفي القتال، بخلاف الغنيمة فأنها لا تصلح إلا للترغيب في القتال، ولما كان محمد بمكة قبل أن تكن الحرب ولم تكن الغنيمة، ولكن كان يرغب في الإسلام بالماديات أيضاً من خلال قوله في بيت عمه أبي طالب: (أعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم)[3] لعلمه بإنتصار قضيته وإمتداد دولته لتشمل البلاد العربية وبلاد فارس والروم في ذلك العصر...

---

(1) السيرة الحلبية: 184/2.

(2) سورة الانفال، الاية 41.

(3) السيرة الحلبية، 304/1 ـ 305.

وهناك أمر آخر لا بد من ذكره هنا: كان محمد (ص) يتخذه واسطة للترغيب على القتال لتشجيعهم وتقوية قلوبهم وتثبيت أقدامهم، وذلك عند إشتداد الحرب وحمي وطيسها أو عندما يتراءى له خطر الحالة فيها، وذلك بإمداد الملائكة، وهو يريد بذلك ان يطرد الفزع والخوف منهم كما وقع ذلك يوم بدر حيث خطبهم خطبة حثهم فيها على الجهاد وعلى المصابرة فيه[1] وبشرهم أن الله ممدُهم بالملائكة يقاتلون معهم ونزلت الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[2].

على أن علماء المسلمين أختلفوا في تفسير هذه الآية فكما ذكر الزمخشري في تفسيره: أن الملائكة قاتلت يوم بدر وأن جبريل نزل في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وأن ميكائيل نزل في خمسمائة ملك على الميسرة وفيها علي بن أبي طالب، وكانوا في صور رجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم. بينما قال البعض أنهم لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملكٌ واحد كافٍ لإهلاك أهل الدنيا كلهم، فإن جبرائيل أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط، وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة[3]. ومما يؤيد هذا الرأي أن إمداد الملائكة لم يكن حقيقة يوم بدر مما ذكروه من عدم الامداد بالملائكة يوم أحد، فقال الحلبي في سيرته (وقد نزل قبل أن يخرج النبي إلى أحد قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن

---

(1) السيرة الحلبية، 162/2.

(2) سورة آل عمران الآيات 123 ـ 126.

(3) تفسير الكشاف للزمخشري، تفسير الآية 123 من سورة آل عمران.

يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[1]. وقال: (فلم يصبروا وإنكشفوا فلم يمد رسول الله بملك واحد يوم أحد)[2]. وهكذا الحال بالنسبة ليوم حنين فلم تشترك الملائكة في القتال كما هو واضح في تفاصيل تلك المعركة. وأخيراً ونحن نعيش في القرن الحادي والعشرين وبعد الإندماج بالثقافة الغربية وحصول ذلك التطور العلمي الهائل دون أن تكون لنا مساهمة فاعلة في تطوير بلداننا بأنفسنا، وبالاضافة إلى الكمَ الهائل من العلوم في شتى ميادين الحياة، انما لتحدث صدمة كبيرة في عقول بعض المتزمتين الذين يريدون بنا العودة إلى الماضي ومعايشة ظروف القرن السابع الميلادي رغم كل التغييرات، ويجدون من هذا الإرث التاريخي مادة غنية لتغذية الشباب من الاعمار الحساسة بين سن 14 ــ 20 سنة ليجعلوا منهم مادة سهلة لتنفيذ أغراضهم الارهابية من خلال غسل عقولهم بالاحاديث والآيات التي يفسرونها كما يشاءون. وبالتالي يكون المجتمع بأسره أسيراً لتلك الاعمال الاجرامية البشعة.

أن على المربين وعلماء الدين أن يبذلوا مجهوداً كبيراً من أجل إنقاذ الدين. وذلك في تكريس الجانب المشرق فيه وتوضيح الظروف والمسببات والبيئة التي كان يعيش فيها الأولين. لكي لا ندع المتعصبين يستغلون النصوص ويكرسونها لتهيئة أذهان الشباب نحو العنف. أن عمليات ترغيب الشباب الذين لم تبلغ أعمارهم العشرون عاماً في العمليات الانتحارية التي تقوم بها جماعة القاعدة هذه الايام بما يغسلون به أفكارهم من أنهم سيذهبون مباشرة إلى جنة الفردوس ويكون عشائهم مع الرسول الأعظم، وما إلى ذلك لم تأت من فراغ، وإنما تستند إلى نصوص ومعتقدات كانت سائدة في عصر فجر الإسلام،

---

(1) سورة آل عمران الآيتان 124 ــ 125.

(2) السيرة الحلبية، 163/2.

وبالتحديد بعد الهجرة إلى المدينة. الفرق هنا هو أن الهدف من كل تلك المرغبات في القتال في عصر فجر الإسلام كان سامياً من أجل إقامة دولة وكيان ونشر دين سماوي رائع، ويرقى إلى قمة المبادئ والقيم الاخلاقية الرفيعة. بينما لا وجود لهدف في القتال والدمار الذي يفعله الارهابيون في عصرنا الحاضر، سوى زيادة في حجم الدمار والخسارة والتخلف والاساءة إلى سمعة الدين الإسلامي الحنيف. وعلى الرغم من أن عدد المرات التي ورد فيها ذكر القتال بمشتقاته في القرآن الكريم حوالي (174) مرة[1] وأن لغة الصراع في الإسلام تحريضية شديدة النبرة تذكر القارئ بلغة البلاغات الحربية، إلا أن مؤسس الإسلام كان يستجيب في ذلك لمستلزمات وضعه في مهمته التاريخي. فقد كان المجتمع الجاهلي الذي سبقه مجتمع تناحري لم يعرف السلم إلا كهامش إستغرقته الاشهر الحرم الاربعة في أضيق نطاق. ولم تستطع المسيحية الشرقية التي إعتنقتها بعض القبائل مثل تغلب أن تخلق من البدوي في الجزيرة العربية انساناً مسالماً كما نعهده في عصرنا الحاضر. ولم تستطع كل الأديان التوحيدية الأخرى من توحيد بلاد العرب كما فعل الإسلام.

يقول توينبي في التعصب الديني ما يلي:

(إن من سخريات التاريط البشري أن ينبعث التعصب والاضطهاد عن الاستنارة التي تبث في الدين إدراكاً حسياً بوجود الله وأخوة الجنس البشري. ومناط التفكير ما تبعثه فكرة التوحيد ــ إذ تطبق على الدين ــ في معتنقيها من الرواد الروحيين من روح بلغت درجة رفيعة من السمو تستأهل المجازفة في سبيل سلوك طريق قصير يكفل سرعة نقل فكرتهم إلى عالم الحقيقة)[2].

---

(1) هادي العلوي (الاغتيال السياسي في الإسلام) ص 55، المصدر السابق.

(2) أرنولد توينبي – (المختصر في دراسة التاريط) ج 2 ترجمة فؤاد محمد شبل، مراجعة محمد شفيق غربال، لجنة الترجمة والنشر والتأليف – جامعة الدول العربية، القاهرة، (1966) ص 43.

ومهما يكن من أمر فحينما بُشّر بأي دين ذي سمو روحاني (دين سماوي) تبدت حتماً رذيلة التعصب والاضطهاد وهذه خلقتها البغيضة مثلاً.

إن قيام دين يقال فيه أنه دين حق باضطهاد دين آخر يدعى بأنه باطل، يناقض طبيعة العقيدة الدينية نفسها، لأن الدين (الحق) إذ يلجأ إلى سلاح الاضطهاد، يضع نفسه في المكان الباطل ويتخلى عن مقوماته الأساسية في التوحيد. وثمة على الأقل حالة ناجحة لذكر هذا التسامح المنشود يفرضها النبي محمد (ص) على أتباعه وهو في موضعه الجليل، فإنه قد أمر أتباعه بالتسامح الديني اتجاه اليهود والمسيحيين الذين خضعوا سياسياً للحكم الإسلامي. وقدم محمد (ص) لقاعدة التسامح تفسيراً قوامه أن الأفراد لهاتين الجماعتين الدينيتين غير المسلمتين هم أهل كتاب كالمسلمين أنفسهم. وليس أدل على روح التسامح التي بعثت الحياة في الإسلام منذ البداية، من تطبيق المسلمين مبدأ التسامح الديني على اتباع زاردشت الذين خضعوا للحكم الإسلامي، وإن لم يقل بذلك الرسول الكريم نفسه، لورود نص في القرآن الكريم أن بعض الأنبياء لم تذكر أسمائهم جميعاً: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[1]

وهكذا أيضاً نبذ المسيحيون منازعاتهم فجاءة (بين الكاثوليك والبروتستانت) أبان النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي لا بسبب اقتناعهما بخطيئة التعصب فحسب، بل لإيمانهم بعجز أحدهما عن الإيقاع بالآخر. ولعلهما لم يعودا يهتمان الاهتمام الكافي بالنزاع على الموضوعات اللاهوتية الناشبة بينهما ولا يستمرئان بذل مزيد من التضحيات في سبيلها. وبالأحرى جحد أتباع الكاثوليك والبروتستانت فضيلة الحمية الدينية واعتبروها في ذلك الحين رذيلة. (نأمل أن يأتي اليوم الذي يدرك فيه جميع أبناء الطوائف الإسلامية هذه الحقيقة أيضاً).

---

(1) سورة النساء، آية 164.

ومهما يكن من أمر باعث على التسامح فإنه ترياق فعال ضد التعصب: ذلك التعصب الذي ينزع الإيمان بالتوحيد إلى استيلاده. وانبنى على الإغراق في التعصب، انتعاش الكراهية ضد الدين ذاته. ويتبلور الشعور ضد التعصب في عبارة مشهورة للوكريتيوس (Lucretius) هي: (فظاعة الشر هذه هل الدين يحرض على إتيانها؟؟) كما نجدها عن عبارة فولتير الشهيرة (حطموا المرذول) وفي عبارة جامبتا (نفوذ الكهنة ذلك هو العدو) [1]. نأمل من علماء الدين المسلمين في عصرنا بذل المزيد من الجهد في تكريس الجوانب التي تدعو إلى التسامح ونبذ الرذيلة المتمثلة في التعصب وإلغاء الآخر.

5. شكل نظام الحكم في الصدر الأول للإسلام:

كتب العديد من الكتاب والمؤرخين وعلماء الدين في شكل نظام الحكم الإسلامي في عصر فجر الإسلام ووصفوه بالمثالية من حيث تطبيق العدالة والديمقراطية والحرية وغيرها من الاوصاف التي تنطبق وتطلعات الإنسان في العصر الحديث. وظهرت مؤلفات عديدة تصب في نفس الهدف وبعناوين (الإسلام والديمقراطية) والحداثة في الإسلام...الخ. ورغم سمو الهدف من تلك الدراسات في تكريس الجانب المشرق للإسلام وفي إرشاد الناس إلى طريق الصواب، إلا أننا هنا نبحث في المواريث التاريخية للعنف والاستبداد ونظم الحكم الشمولية (الدكتاتورية) التي إستشرت وتأصلت في منطقة الشرق الادنى عموماً، وعانينا منها الامرين، وما آلت إليه الظروف والاحوال في المنطقة من تخلف عن ركب الحضارة الحديثة، ونبحث عن الاسباب الرئيسية لكل تلك المشاكل والحروب والمآسي التي مرت في المنطقة عموما وفي العراق خصوصا. وأننا إذ نفتش في التاريخ صفحة صفحة من أجل زيادة الفهم في تلك الاسباب وأصل تلك المواريث لا يسعنا إلا أن نسعى إلى الحقيقة كما هي لكي نفهم مشاكلنا بشكل أدق. وربما يعود السبب في إختلاف وجهات

---

(1) أرنولد توينبي – المصدر السابق نفسه.

النظر حول شكل نظم الحكم في عصر فجر الإسلام إلى إختلاف الفهم للمصطلحات المستخدمة كالحرية والديمقراطية والعدالة. فهناك من يعتقد بأن الديمقراطية هي مجرد التشاور بين الاصحاب المهمَين من ذوي الحل والعقد والنفر المحيطين بالحاكم، لذا فقد سعينا وقبل البدء بمناقشة أي موضوع في وضع تعريف لكل كلمة ومصطلح والذي على ضوءه تبنى الدراسة ومناقشتها. لقد سأمنا من التستر وراء الرموز والأوصاف الكبيرة والتي لم توصلنا إلى فهم حقيقي لتاريخنا والى حاضرنا وما علينا إلا كشف الامور ومعرفة الاسباب الحقيقة ورائها لكي نستطيع بالتالي معالجتها بطريقة أسهل وأدق. وعودة إلى تحديد نظام الحكم في عصر فجر الإسلام نقول أن الهدف الاساسي في بناء دولة الإسلام ووضع الاسس والقواعد الضرورية لتسيرها كانت في توحيد الامة من خلال التوحيد الآلهي اولاً وكانت الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وهي رمز وحدة الامة وأساس بناء الدولة الإسلامية في ذلك العصر. وقد كتب طه حسين في تحديد شكل نظام الحكم في الصدر الأول للإسلام في كتابه الفتنة الكبرى[1] ما يلي: (يظن آخرون أن نظام الحكم ايام النبي وصاحبيه قد كان نظاماً ديمقراطياً، وهذا تجوز في الالفاظ وخروج عن الدقائق من معانيها، وقد ينبغي أن نتبين معنى الديمقراطية بالدقة قبل ان نقول أن نظام الحكم هذا كان أم لم يكن ديمقراطياً.

الديمقراطية: لفظ يدل به على حكم الشعب بالشعب وللشعب، أي على ان يختار الشعب حكامه إختياراً حراً، ويراقبهم مراقبة حرة، وليتبين أنهم يحكمونه لمصلحته هو لا لمصلحتهم هم، ويعزلهم أن لم يرض عن حكمهم ولم يطمئن إلى الثقة بهم. كذلك فُهمت الديمقراطية في العصور القديمة عند اليونان، وكذلك تفهم الديمقراطية في العصور الحديثة عند الامم التي تصطنع هذا النظام، على إختلاف فهم كلمة الشعب.

---

(1) طه حسين (الفتنة الكبرى (الجزء الأول 28/3، الطبعة السادسة دار المعارف بمصر 1966.

فهذه الكلمة كانت تضيق في أيام اليونان مثلاً حتى لا تدل إلا على جماعة ضئيلة من المواطنين لهم وحدهم جميع الحقوق يستوون فيها امام القانون، على حين لا تستمع الكثرة الكثيرة من هذه الحقوق بشيء ولا تساهم من أمور الحكم بنصيب، وكان هذا اللفظ يتسع بعد الثورة الفرنسية إلى حيث يشمل عدداً ضخماً من المواطنين يكون لهم الاستمتاع بالحقوق السياسية، لكنه لا يشملهم جميعاً، فهو محدد بملك مقدار المال، أو أداء مقدار معين من الضرائب، أو تحصيل قدر معين من الثقافة، ثم إتسع في آخر القرن الماضي (أي القرن التاسع عشر) حتى شمل المواطنين من الرجال فقط منذ يبلغون الرشد، ثم إتسع في هذا القرن (القرن العشرين) حتى شمل المواطنين من الرجال والنساء حتى يبلغون الرشد. وللديمقراطية بعد ذلك، سواء أكانت ضيقة أم واسعة، نظم مقررة تكفل استمتاع الشعب بحقوقه واختياره لحكامه ومراقبته هؤلاء الحكام).

هكذا فهم طه حسين الديمقرطية الحديثة ونضيف إلى ذلك أن اليونان قد طبقت نظام الانتخابات للحاكم على مدينة أثينا قبل ميلاد المسيح. وعلى الرغم من عدم مشاركة جميع أفراد الشعب في تلك الانتخابات ولا حتى في أي انتخابات كانت تجري في أوربا وحتى بريطانيا التي مارست الديمقراطية والانتخابات الحرة منذ فترة طويلة من الزمن، إلا أن جماعة محددة (طبقة النبلاء) من المجتمع هي التي تنتخب وتشارك بشكل فعال في صنع القرار السياسي لتلك البلدان[1]. ان انتشار مفاهيم الديمقراطية في الغرب والنابعة من استيعابهم لفلاسفة اليونان القدماء كانت سبباً أساسياً في دفع عجلة التقدم، وتطوير شكل الادارة ودفعها إلى التقدم الديمقراطي. ويستطرد طه حسين في وصف نظام الحكم في عصر فجر الإسلام ويقول: (فإذا فُهمت الديمقراطية على هذا المعنى

---

(1) اوستن وني (سياسة الحكم) ترجمة حسن علي الذنون ــ بغداد (1964) عن رأي ادموند برك سنة (1792).

الدقيق، فليس من شك في أن نظام الحكم في الصدر الأول من حياة المسلمين لم يكن ديمقراطياً، فالشعب لم يختر حكامه بهذا المعنى الدقيق، وليس الشعب هو الذي اختار النبي ليبلغه رسالات ربه، وليقيم الامر فيه بالقسط والعدل، ولكن الله أرسل رسوله فأتبعه من اتبعه وخالفه من خالف، وإذا قلنا أن الذين إتبعوا النبي من أصحابه قد أختاروه ليكون لهم حاكماً، فهم لم يختاروه على النحو الذي يُختار بها الحكام في النظام الديمقراطي، وهم لم يكونوا يراقبونه ولا يحاسبونه، وإنما كان النبي يستشيرهم فيشيرون عليه، وليس من الدقة في شيء أن يقال ان حكم أبوبكر وعمركان حكماً ديمقراطياً بالمعنى الدقيق، فليس كل المسلمين قد أختاروا أبا بكر وعمر لأمر الخلافة،، وانما اختارهما فريق بعينه من المسلمين، وهم أولوا الحل والعقد من المهاجرين والانصار، على ما كان بينهم في ذلك من اختلاف أول الامر. ثم لم يكن للشعب، بل لم يكن لهذا الفريق من المهاجرين والانصار، نظام معين مقرر محدد يراقبون به سيرة الخلفاء ويحاسبونهم على ما يأتون وما يدعون وإنما كان الخلفاء يستشيرونهم فيشيرون عليهم، يستشيرونهم مجتمعين حيناً ومتفرقين حيناً آخر، وكان لمن شاء من المهاجرين والانصار أن يشير على الخليفة حسب فيقبل الخليفة منه أو لا يقبل، إذن فلم يكن نظام الحكم في ذلك الصدر من حياة المسلمين نظاماً ديمقراطياً بمعناه الدقيق في الفقه الدستوري عند القدماء أو المحدثين. فإذا أطلق لفظ الديمقراطية على هذا المعنى العام الذي يفهم منه حاجة الحكام إلى رضا الشعب عنهم وثقة الشعب بهم، وأخذ الحكام أنفسهم بأن يسيروا في الشعب سيرة تقوم على العدل والمساواة، وتبرأ من التسلط والاستعلاء فأنت تستطيع أن تقول أن نظام الحكم في الصدر الأول للإسلام قد كان نظام ديمقراطي بهذا المعنى العام الذي ليس له مقاييس ولا معايير ولا حدود)[1]. لقد أصبح تاريط صدر الإسلام من

---

(1) طه حسين (المصدر السابق نفسه) ج1، ص 28.

الازمنة المقدسة لدى المسلمين وأحبوها وظلوا يستسيغون سماع أخبارها المتواترة بدقة إلى درجة أن البعض اعتبرها جزءاً من الطقوس الدينية الواجبة. ومن هذا المنطلق فلا يحبذون أن توصف تلك الفترة المقدسة بصفات غير مستساغة لديهم، لذلك يتشبث الباحثون الإسلاميون في جلب الادلة والبراهين التي تثبت بأن الديمقراطية كانت الاساس في ممارسة السلطة في عصر صدر الإسلام. وعلى الرغم من ان ذلك يصب في صالح المجتمع من خلال تكريس مفاهيم الحرية والديمقراطية لدى الفئات التي تريد أن تتقبل المفاهيم الحديثة في هذا العصر دون الاسلاف. وقد ذهب البعض من هؤلاء في التفكير في بعث مجد الماضي من خلال التكيف والتوفيق بين مفاهيم الماضي (والمقصود هنا عصر فجر الإسلام) وأحدث المفاهيم في العصر الحاضر. إلا أن ذلك لم ينجح من خلال التجارب التي مرت بها البلاد العربية في القرن الماضي وما ظهر من حركات قومية متنوعة آلت معظمها بالفشل. ونحن هنا إذ نكرس في البحث عن المواريث التاريخية المستشرية في عقولنا من موروث العنف والاستبداد في الحكم وعدم تقبل الرأي الآخر إلا بصعوبة، فلا مجال لنا إلا إلقاء الضوء بموضوعية من اجل الكشف عن مكامن الضعف وأسبابه ومسبباته لكي نستطيع التعامل معه بحكمة ونجاح. ويذهب طه حسين في الاستنتاج عن شكل نظام الحكم الإسلامي بما يلي: (لم يكن نظام الحكم الإسلامي في ذلك العهد إذن نظام حكم مطلق ولا نظاماً ديمقراطياً على نحو ما عرف اليونان، ولا نظاماً ملكياً أو جمهورياً أو قيصرياً مقيداً على نحو ما عرف الرومان، وإنما كان نظاماً عربياً خالصاً بيّن الإسلام له حدوده العامة من جهه، وحاول المسلمون أن يملئوا ما بين هذه الحدود من جهه أخرى. ولم يؤذي النبي وصاحبيه شيء كما كان يؤذيهم أن يظن بهم الملك، وهو لم يكن جمهورياً، فلم نعرف في نظم الجمهورية نظاماً يتيح للرئيس المنتخب أن يرقى إلى الحكم فلا ينزله عنه إلا الموت، ولم يكن قيصرياً بالمعنى الذي عرفه الرومان فلم يكن الجيش هو الذي يختار الخلفاء، فهو إذن نظام عربي إسلامي خالص لم يسبق

العرب إليه، ثم لم يقلدوا بعد ذلك فيه، وهذا لا يعنينا مع ذلك من أن نحلله ونتبين دقائقه لنرى إن كان قادراً على البقاء أم كان خليقاً أن يتغير متى تغيرت الظروف التي أحاطت بنشأته ثم بتطوره)[1]. لقد كان النظام سماوياً متصلاً بالوحي الذي إستمر في الاتصال ثلاثة وعشرين عاماً يصابح المسلمين ويماسيهم، وينزل قرآناً مرة، وينطق به النبي حديثاً مرة اخرى، ويجريه النبي بسيرته العملية سُنَة متبعة مرة ثالثة. قد أيقظ في نفوس المسلمين من خاصة النبي ضميراً دينياً قوياً ودقيقاً وحياً إلى أبعد غايات القوة والدقة والحياة، فلم يكن من الممكن أن يتخلص منه المسلم في قول أو عمل أو تفكير، بل لم يكن من الممكن أن يتخلص منه المسلم في يقظة او نوم، فصلته بالرعية إن كان حاكماً، وبالحاكم إن كان رعيه وبنظرائه في حياته اليومية، متأثرة دائماً بهذا الضمير، ويدور مع مقدار ما يكون لضمير الخليفة ورعيته من التأثر بالدين[2]. وبالتالي يمكن الاستنتاج بأن اللبنة الأولى التي وُضعت في بناء الدولة الإسلامية كانت معتمدة على خط الرعية من تولي هذا الحاكم أو ذاك ودرجة ذكائه، وصحوة ضميره ومدى فهمه في تطبيق قواعد واصول العدل والمساواة التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. فإذا جاء حاكماً ظالماً لا يراعي كل هذه القواعد فما عليهم إلا أن يدبَروا لقتله أو القبول بالامر الواقع لحين ما يأتي أجله ويحل محله حاكم آخر عسى ان يكون أفضل من سابقه الآخر. وقد إستمر هذا الموروث التاريخي إلى يومنا هذا وإستمر الناس يقارنون بين الحكام أيهما كان أفضل من يقيَمون الاداء على ضوء ما يتأتى من الحاكم من إستبداد وتعسف ليبدؤا بالترحم على ما فات، رغم كل السلبيات التي يمارسها ذلك الحاكم في أيامه، والامر الثاني والذي لا بد من الإشارةاليه في مسألة وضع اللبنة الأولى في بناء الدولة

---

(1) طه حسين/ المصدر السابق ص 32 ج 1.

(2) طه حسين / المصدر السابق/ 33.

الإسلامية في الصدر الأول للإسلام هو أن هناك مجموعة من الناس كانت متصلة بالنبي محمد (ص) إتصالاً وثيقاً ومنذ اللحظة الأولى من الدعوة، وهؤلاء كانوا قد عُذبوا في سبيل الله في مكة، وهاجروا بدينهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة، والذين آووا ونصروا والذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين لازموا النبي يسمعون له بآذانهم ويكتبون عنه ـ كل أولئك كونوا طبقة متميزة لم تكن ترى نفسها أحق بالامتياز، ولا أجدر بالاستعلاء وإنما كانوا في تواضع تام يُعلي مكانتهم في نفوس عامة الناس. وكان منهم العبد الذي فُتن في دينه حتى صادف من المسلمين من إشتراه وأعتقه، وكان منهم الضعيف الذي أقبل مستجيراً بمكة يعيش في حمى حلفٍ عقدها مع هذا الحي أو ذاك من أحياء قريش، وكان منهم من صرح نسبه وحسن مولده، ولكنه كان قصير اليد قليل المال، فهو في عزة من قومه، ولكنه في ضيق من عيشه يكسب حياته كما يستطيع، وكل هؤلاء سوى بينهم الإسلام في الحقوق والواجبات، ولم يكن الإسلام ينتشر حتى إمتازت هذه الطبقة في نفوس المسلمين إمتيازاً طبيعياً، منذ ذلك الوقت نشأت في الإسلام إرستقراطية قوامها القرب من رسول الله، فأصبح الحكم إلى قريش وحدها، وأصبحت المشورة إلى الانصار، وإذا كان الضمير والمبادئ السامية التي يأمن بها هؤلاء هي الحكم الفصل في سلوكهم فإنها لم تدم طويلاً بعد إنقراض هؤلاء المسلمين الاوائل المقربين إلى النبي بعد أجيال متواترة من الزمن. فإذا لم تكن هناك أسس وقوانين ثابتة تحدد مسار الدولة وشكل الادارة كالنظام الديمقراطي كما أسلفنا، فأننا سنلاحظ الفرق الكبير في سلوك وتصرفات الخلفاء المسلمين بين عصر الصدر الأول للإسلام وعصور الدولة الاموية والعباسية وما تلى ذلك. وإذا كان الكيان الأول صحيحا وصادقا إلا أنه قائماً على أفراد فمن يضمن بقاء هؤلاء الافراد الذين يمسكون زمام الامور من الخلفاء، سيسيرون على نفس المبادئ والمثل في الاجيال اللاحقة ؟؟ وسيبقى سلوكهم وتصرفاتهم الفعلية مطابقة للمبادئ والقيم الاخلاقية المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية. لذا

نجد أن بعض الخلفاء في الدولة العباسية مثلاً كانوا يسعون لإشباع رغباتهم الذاتيـة أكثـر من سعيهم لخدمة الرعَية من الامة المسلمة. ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصـر، فقـد إمتلك الخليفة المتوكل إبن المعتصم في العصر العباسي عدداً من الجواري يزيد على ثلاثة الآف ومنهم من يقول ستة الآف [1]، عدا حياة الترف في المجالات الاخـرى، بينمـا لم يخطـر ببال الخلفـاء الاوائـل أن يتصـرفوا مثـل هـذا التصـرف في حيـاتهم الزاهـدة وهنـاك مثـال أقرب من ذلك، ففي خلافة (عثمـان إبـن عفـان) ظهـر إنحـراف واضـح في السلوك الإداري العام أدى إلى حصـول ثـورة عارمـة وكمـا سيأتي شـرحها. أن هـذا المبـدأ ينطبـق علـى كـل مجموعة جاهدت من أجل تطبيق مبادئ سامية تخدم المجتمع، وتطمح إلى حصول تحول في حياة المجتمع، ولكن الذي يحصل هو أنه سرعان مـا تـؤدي تلـك المجموعـة دورهـا سـواء أكانت قد أنجزت المهمة أم لم تكملها، ليأتي بعـدها جيـل أو جـيلين مـن القـادة تـتغير فيـه الاوضاع، وقد تعـود إلى الـوراء بسـبب عـدم معرفـة أو تحسـس تلـك الاجيـال مـن الاحفـاد بالمبادئ الاساسية بضمير حـي يكـون حـداً فاصـلاً بـين السلوك والتصـرف الفعلـي وبـين المبادئ الموضوعة لهم مسـبقاً. وتكـون النتيجـة إضـمحلال تلـك القضـية الساميـة وفشـلها أحيانـاً. ونذكر هنا ما حصل في مسألة بناء الاشتراكية في روسيا وبقية البلدان المجـاورة في عصرنـا الحالي، وكيف تتابعت الادارات وتغير سلوكهم وحماسهم لقضـيتهم إلى أن آلـت مـا آلت إليه الاشتراكية من تدهور على يد غرباتشوف ويلتسـن رغـم وجـود أسـباب جذريـه أخرى لا يسعنا التطرق إليها هنـا. ومـن هنـا نجـد أن تتـابع الادارات وتعاقبهـا مـع الـزمن تؤدي في كثير من الاحيان إلى الابتعاد عن المبادئ والاسس الـتي قامـت وتأسست بموجبهـا تلك الادارة أو ذلك النظام، وذلك لسببين رئيسيين:

---

(1) كارول بروكلمان (تاريط الشعوب الإسلامية) المصدر نفسه ص 210.

الأول: عدم ممارسة الاجيال اللاحقة لتحكيم الضمير والتقيد بالمبادئ بسبب عدم ممارستهم للنضال الصعب وعدم معايشتهم لصعوباته.

والثاني: هو حصول تطورات وتغييرات جذرية في ظروف المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والفكرية خلال تقادم الزمن وحصول تطور في العقل البشري وتطور حضاري مختلف عن الظروف الأولى التي نشأت فيها تلك المبادئ، ذلك التطور الذي يدعو إلى تغيير في بعض التشريعات الفرعية بحيث لا يتقاطع مع الظروف المستجدة او يصطدم معها او يجعل امر تطبيقها مستحيلاً، لذا نشأت الحاجة في وضع آلية ثابتة لا تعتمد على الخليفة أو الحاكم، ومن هنا جاءت النظم الديمقراطية في إعتمادها على أسس ودساتير ثابتة لا تفسح المجال أمام الحاكم بالاجتهاد والتصرف كيفما شاء وتفرض عليه رقابة صارمة. ولذلك نجد ان البلدان التي طبقت النظم الديمقراطية منذ مدة طويلة قد تميزت بإزدياد قوة ومتانة نظامها بمرور الزمن وعبر الاجيال، وذلك من خلال العناء المتراكم للضوابط والاسس الموضوعة غير المعتمدة على أهواء وأمزجة الحكام والتي تسمى بالدساتير أو القانون الاساس للدولة. وهكذا بدأت الفوارق واضحة في التطور الحضاري الحاصل لدى الغرب، بالمقارنة مع ما نحن عليه في الشرق وفي العالم الإسلامي عموما، والبلاد العربية خصوصاً. إذ أصبح الفرق الحضاري واسعاً بحيث أدى إلى ما يعرف بصراع الحضارات، وأصبحنا نعاني منه الامرين في كيفية مواجهة ذلك التطور ومواكبته والتعايش معه، خاصة بعد أن زالت الفواصل بين الامم وأصبح العالم كله يعرف بالقرية الصغيرة، نظراً لتطور وسائل الاتصال المختلفة، ولا بد من الإشارةهنا في أننا قد بدأنا والحمدلله في وضع الاسس والقواعد الصحيحة لنظام الحكم في العراق حالياً نأمل له النجاح ونأمل أن

يكـون الدسـتور الـدائم مانعـا لسـلوك وتصـرفات الحكـام اللاحقـين غـير المنضبطة، كما كانت في السابق.

6. نشأة القدسية والغلو في عصر فجر الإسلام:

لقد كتب الرصافي في مجال القدسية والغلو في عصر الصدر الأول للإسلام (عصر حياة الرسول محمد) ما يلي: (أن الغاية التي كان يرمي إليها الرسول محمد (ص) هـي مـن الامور التي لا يسعها عمر الإنسان) ويقصد هنا من حيث تطبيقها على الواقع بالكامل، إذن فلأ جل الوصول إلى تلك الغاية يلزم أولاً إحداث نهضة عالميـة كـبرى، وثانيـاً إسـتمرار تلك النهضة مـن بعـده، حتـى تـتم بها الغايـة وكـلا الامـرين لا يمكـن إلا أن يكـون محمـداً مقدساً ومطاعاً لتعذر حصول تلك النهضة، ولو حصلت لأستحال إستمرارها من بعده[1].

لقد ظهر الإسلام في مرحلة العبودية، وكان المجتمع مقسم إلى سادة وعبيـد، وكـان لا بد من التماشي مع طبيعة العقلية السائدة (العقلية الوثنية) في ذلك العصر مع إدخـال بعض التطوير عليها. ولما كانت مسألة القداسة مسيطرة على عقـول المجتمـع ومتجـذرة منـذ الآف السـنين، فكـان لا بـد لأي مصـلح أو حـاكم يريـد أن يوصـل عقيـدة ويـنجح في إيصالها أن يأتي بشيء من القدسيـة، إلا أن الإسلام جاء بأسلوب أكثر تطوراً من السابق (أي من عصر البابلين والسومرين وغيرهـم)، فبـدلاً مـن أن يكـون الملـك البـابلي نائبـاً للآلهـة الحاكمة، يعمل ما يشاء في رعيتـه وتعمـل الرعيـة كلها لخدمتـه، أصـبح الحكـم في عصـر الرسول محمد (ص) هو أنه فرد من عنـدهم حـاملاً لرسـالة سماويـة تـدعوهم للتوحيـد وعمل الخير والطاعة. ولقد أراد محمـداً أن يكـون مطاعـاً ومقدسـاً عنـد أتباعـه المسلمين بهدف إيصال رسالته إلى الناس بالشكل المقبول والمنسجم مع درجة تطور عقولهم، ومـدى تأثير الموروث التاريخي للقداسة في تفكيرهم في ذلك الوقت، ومن أمثال القداسة الـتي كـان

---

(1) معروف الرصافي (الشخصية المحمدية أو سرَ اللغز المقدس) ص 428.

يمارسها المسلمون إتجاه النبي محمد (ص) في حياته من دون أن يمانعهم من ممارستها هي: التبرك بنعليه، أو التهافت على وضوءه أو تلقف بصاقه، ولا يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يتقاتلون على وضوءه، وإذا حلق شعره تقاسموا شعره، وكانوا يغسلون هذا الشعر ويعطوه للمريض فيبرأ[1]، [2] وغيرها من الامور الشائعة والمنسجمة مع عقلية ذلك الزمان. ولم يكتفِ المسلمون في التبرك بكل ما يحيط بالنبي محمد، بل إنتقلت القدسية والتبرك في أتباعه وصحابته وآله من بعدهِ، فإذا كانت النهضة التي يريدها محمد للوصول إلى غايته لا تتم ولا تستمر بعده إلا بذلك، فأنه كان يحرص كل الحرص على ان يتبعوه فيكون قدوتهم المقدسة ومرجعهم الوحيد في كل شيء، لذلك أحتاج الناس وبشدة إلى وجود مرجعية مقدسة يلجئون إليها لكي تكون قدوتهم المقدسة في كل زمان حتى بعد وفاة النبي، وما كان عليهم إلا أن يلجؤا لأطهر الناس وأكثرهم قرباً إلى القداسة وهم آل بيت محمد (ص). الذين يرجع نسبهم إلى إبنته فاطمة والى أقرب الناس إليه وهو علي بن أبي طالب (ع). وهكذا أصبح الشيعة يتبعون آل البيت بعد وفاة الرسول، وأتخذ أهل السنة التمسك والاقتداء بالصحابة على الاغلب وبأقل درجة من التقديس والتبرك بهم. ومن المفيد هنا أن نستدل على ما أخرجه أحمد في مسنده عن عبدالله بن ثابت، قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله فقال له: يا رسول الله، أني مررت بأخٍ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ فتغير وجه رسول الله، فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، فسري عن رسول الله وقال: والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم إتبعتموه لضللتم، ثم أنكم حظي من الامم وأني حظكم

---

(1) زاد المعاد (إبن القيم الجوزي) مؤسسة الرسالة ــ بيروت ج 110/1 فصل في غزوة الحديبية.

(2) السيرة الحلبية 325/3، 88/3، 23/3.

من النبيّين[1]. فأنظر كيف تغيير وجهه لما رأى عمر معجباً بالجوامع التي كتبت له من التوراة لأنه لا يريد أن يراه إلا بالقرآن وحده ولا متبعاً إلا إياه، ولا معتمداً إلا عليه، وكان من طبعه أن يتغير وجهه إذا سمع شيئاً يكرهه أو كلاما يزعجه ويؤلمه، ولكن عمر عرف لماذا تغير وجهه، ولذا بادره بما ينافي أعجابه بالتوراة ويثبت انه لا يتبع إلا محمداً. إذ قال له (رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً) ثم انظر كيف سري عنه وإنكشف ما بوجهه من تغيير لما رأى عمر قد رجع عما قاله، وترك ما جاء به من جوامع التوراة، وكيف قال ما أنه لا نجاح ولا هداية لهم إلا بإتباعه، وأنهم لو كان موسى حاضراً وأتبعوه لضلوا، وأكد له ذلك بما مضمونه (أنتم لي وأنا لكم) ولهذا السبب، اي لكونه يريد أن يكون مرجعهم المقدس ومتبوعهم المطاع في الامور كلها، كان يتغاضى عما يفعلونه أحياناً من إبتدارهم وضوءه. وتبركهم ببصاقه، وأخذهم شعر رأسه، وشربهم دم حجامته، ونحو ذلك من الامور، غير أن غلوهم هذا كان والنبي حي بين أظهرهم، وقد توقف عند هذا الحد ولم يتجاوزه إلى ما هو أعظم، ولكنه بعد وفاته أخذ يتعاظم ويتفاقم كلما مرَ عليه الزمن، حتى بلغ ما يناقض ما جاء به محمد (ص) من كتاب وسنة. ولو افترضنا جدلاً أن كل هذا التقديس والغلو غير صحيح وهو من إختلاق الرواة، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف إذا تضخم هذا التقديس والغلو إلى يومنا هذا إلى الدرجة التي أخذ بعض البسطاء من الناس يسعون لأخذ خيط او شريط من القماش يحتفظون به أو يشافون به مرضاهم من شخص قد تكون له صلة النسب مع رسول الله؟ فلا بد وأن يكون لكلِ سلوك في المجتمع له جذوره التاريخية وأصله الذي نحن في صدد البحث عنه. صحيح أن محمداً لم يرد لنفسه من كل ما جاء به إلا أمراً واحداً وهو الذكر الخالد مع التقديس، لذا قرن إسمه في الشهادة باسم الله، وجعل الدخول في الإسلام لا يتم

---

(1) مسند احمد، مسند المكيين، الحديث رقم 3، 153، مسند الكوفيين الحديث رقم: 17613.

إلا بشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمد رسول الله، مع أن الشهادة الأولى تتم بها الدعوة إلى الله، فهي وحدها كافية لهدم الوثنية وإقامة دين التوحيد، لكنه لم يكتف بها، بل جعل الإسلام لا يتم إلا بالشهادة الثانية معها.

وهنا نورد قصة دخول أبي سفيان للإسلام لما لها من اهمية في هذا الصدد ذلك أن محمداً خرج من المدينة في عشرة الآف يريد فتح مكة، فلما بلغ مَرّ الظهران (موضع قريب من مكة) نزل به فجاءه عمه العباس بأبي سفيان بن حرب حتى أدخله على رسول الله، فقال له رسول الله: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما احلمك وما أكرمك وأوصلك لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عني شيئاً بعد [1]. أن أبا سفيان في كلامه هذا قد إعترف بأنه لا إله إلا الله، ولكن محمداً لم يكتف منه بذلك بل قال له: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال بأبي أنت وأمي، أما والله هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً [2]. وفي الرواية أن بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام كانا مع أبا سفيان لما جاء به العباس. وأن العباس قال يا رسول الله، ابو سفيان وحكيم وبديل قد آجرتهم، وهم يدخلون عليكم فقال رسول الله: أذخلهم، فدخلوا، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم عن أهل مكة ودعاهم إلى الإسلام فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله: أشهدوا أني رسول الله، فشهد بديل وحكيم بن حزام، وقال ابو سفيان ما أعلم ذلك والله، أن في النفس من هذا شيئاً فارجأها (أي أخرَها إلى وقت آخر)، فقال العباس لأبي سفيان: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فشهد شهادة الحق وأسلم [3].

---

(1) السيرة الحلبية، 79/3.

(2) نفس المصدر السابق 79/3.

(3) السيرة الحلبية، 79/3 ــ 80.

لاريب أن إقرار أبي سفيان بالشهادة الثانية لم تكن إلا من الخوف حيث هدّده العباس بضرب عنقه، علماً بان أبي سفيان كان من مجموعة الدهرية كما أسلفنا في الفصل الثاني (انظر الفصل الثاني الاديان التوحيدية في الجزيرة العربية قبيل الإسلام).

ومهما يكن من أمر فإن هذه القصة تدل على أن الإسلام لا يتم بشهادة أن لا إله إلا الله بل لابد مع ذلك من ذكر شهادة ان محمداً رسول الله، وأن إقرار أبي سفيان بالشهادة الثانية لم تكن إلا من خوف حيث هدّده العباس بضرب عنقه، ومن يدري لعله تذكر كيف قُطع رأس أبي جهل بسيفه يوم بدر، وكان أكثر دهاءاً وحنكه من الاخير ففعل ذلك وركب الموجه وفاز بها بعد كل ما عمله من قيادة جيوش قريش في حملاتها ضد المسلمين بادئ الامر. وهكذا صار المسلمون يذكرون محمداً ويتعبدون بذكره في صلواتهم وعلى مآذنهم في كل يوم خمسة مرات ويقيمون الذكر لمحمد في كل مناسبة (كالمواليد والاعراس وغيرها) وبذلك أصبح محمد مقدساً دائماً إلى ما شاء الله[1].

وفي السيرة الحلبية أيضاً عن الزهري قال: نهى رسول الله عن أكل ما يذبح للجن وعلى إسمهم. وأما ما قيل عند ذبحه بسم الله وأسم محمد فحلال أكله، وأن كان القول المذكور حراماً لإيهامه التشريك، وهذا من جملة المحال المستثناة من قوله تعالى (لا أذكر إلا وتذكَر معي)، فقد جاء في الحديث الشريف: أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول لك: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت الله أعلم، قال لا أذكر إلا وتذكَر معي). اقول أن كان ذكر اسم محمد عند الذبح حراماً لأنه يوهم التشريك، فإن ذكر محمد مع الله في قوله: (لا أذكر إلا وتذكَر معي) يلزم أن يكون حراماً لأنه يوهم التشريك أيضاً، غاية ما هناك أنه في الأول تشريك في الذبح وفي الثاني تشريك في الذكر. ولا ريب أن الذكر الخالد مع التقديس الذي أراده محمد لنفسه، قد تم له على احسن ما يرام، إذ صار المسلمون من بعده يذكرونه كما قلنا في صلواتهم الخمس وفي الشهادتين وفي سائر أوقاتهم مقرونا

---

(1) معروف الرصافي/ الشخصية المحمدية ص 441.

بالصلاة والتسليم، إلا أن محمد شعر بأن المسلمين من بعده سيغالون فيه وسيخرجون به إلى ما فوق البشرية وهو لا يريد ذلك، فقال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فأنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله [1]. وكما جاء في موقعين في القرآن، في سورة الكهف، وفي سورة السجدة ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [2]. إلا أن المسلمين أبوا أن يخرجوا به عن ذلك. فقد جاء في القرآن في سورة الاسرآء: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [3]، ومعلوم ان المقام المحمود الذي يَحمَدُهُ القائم فيه ويَحمَدُهُ كل من رآه وعرفه، وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات، ولكن المسلمين إختلفوا فيه حتى حدثت فتنة كبيرة في بغداد بسبب هذه الآية، فقد قال الحنابلة (جماعة أحمد بن حنبل) بمعنى هذه الآية أن يجلسه الله على عرشه، وقال غيرهم: بل المقام المحمود هو الشفاعة العظمى في فصل القضاء، فدام الخصام بين الفريقين إلى أن إقتتلوا وقُتل منهم خلق كثير كما جاء في السيرة الحلبية [4].

وهناك أمثلة عديدة في تضخيم وغلوا المسلمين بعد وفاة الرسول محمد وبحثهم دوماً لإيجاد صيغ ورموز ملموسة لأجل تقديسها والالتماس منها في حمايتهم وتلبية طلباتهم الحياتية المتنوعة. ولذلك لجأ قسم منهم في تقديس المنتمين في حسبهم إلى الرسول، وبالذات الأئمة الأثني عشر من الامام علي بن أبي طالب وابناءه من بعده. واكثر من ذلك فقد اصبح لقبور الائمة قدسية خاصة سميت بالعتبات المقدسة، يقصد لزيارتها من شتى أنحاء العالم الإسلامي.

---

(1) صحيح البخاري، أحاديث الانبياء رقم 3189، الحدود رقم 6328، سن أحمدن سند الشرة رقم 149، 159، 313، 368 رقم 328، سنن الدرامي، كتاب الرقاق رقم 2665.

(2) سورة الكهف الآية 110.

(3) سورة الإسراء: الآية 79.

(4) السيرة الحلبية، 366/3.

ان كل ذلك منسجم مع البيئة الزراعية والرعوية التي يعيشها المسلمون طيلة الفترة المنصرمة ومنذ عصر فجر الإسلام، وأن المفاهيم لا يمكن لها أن تتغير دون تغيير في ظروف المعيشة والبيئة. أن القداسة والمعتقدات الدينية المتميزة لدى البعض من الطائفة الشيعية المسلمة قد أستوطنت وتركزت في مناطق كان السومريون والبابليون والآشوريون يقطنونها وقد تركوا بصمات واضحة في طقوسهم ومعتقداتهم الدينية لدى البعض. لذا نجد أن دور الموروث التاريخي للمعتقدات الدينية في بلاد الرافدين مثلاً، قد حدد شكل الطوائف المسلمة وأماكن تواجدها طبقاً لدرجة تأثير الموروث التاريخي الثقافي في تلك المنطقة دون غيرها من المناطق[1]. بينما نجد الطائفة السنية في تواجد أكثر عند المناطق الغربية والصحراوية المتاخمة للحدود مع البلاد العربية الاخرى وكانت ديانتهم اقرب إلى إسلام الحجاز في التمسك بعمق في التوحيد التجريدي المطلق. ولتلك الاسباب بالذات لم تنفع كل المحاولات التي جرت عبر التاريط سواء في الاقناع والحوار المتبادل بين الطرفين أو بأستخدام القوة والقمع. لقد حصلت عدة أحداث تاريخية في فترات زمنية متعاقبة إستخدم فيها هذا الطرف أو ذاك اساليب مختلفة في فرض سيطرتها على الآخر، وفرض معتقداتها إلا أنها باءت بالفشل، وزادت في الفرقة سوءاً. ولا مجال للتوغل هنا في تفاصيل تلك الاحداث التي دخلت فيها عوامل إقتصادية وإجتماعية عديدة بالاضافة للموروث التاريخي الذي يحمه الطرفان بدرجات متفاوتة.

وخلاصة القول فإن إستخدام القداسة في نشر الدعوة كان فيه أمرين، الأول هو أن الهدف من وراء ذلك كان من أجل الحصول على الطاعة وتنفيذ برامج الدعوة الإسلامية من خلال ذلك إلا أن المسلمين ومن خلال موروثهم التاريخي الثقافي قد بالغوا فيها، وأصبح فيها تشابه لما كان يحصل في العصور الوثنية من إيجاد وسيلة ملموسة للتقرب إلى

---

(1) علي الوردي (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) الطبعة الحديثة (2002).

الله، وأصبحت أيضاً أداة للفرقة من خلال الاختلاف الذي طرأ في وجهات النظر في تفسير الآيات والاحاديث النبوية والستة فيما بعد. والامر الثاني هو أن منع قراءة أي كتاب ديني عدا القرآن، فكما لاحظنا الحديث الذي دار بين الرسول محمد (ص) والخليفة عمر بن الخطاب حول قراءة بعض فقرات من التوراة، فقد منع الرسول محمد (ص) المسلمين ومنذ ذلك الحين من قراءة كل ما يتعدى محيط ما جاء به الإسلام بهدف المحافظة على القيم الإسلامية ومنعهم من الانحراف إلى أديان أخرى، إلا أن ذلك ادى إلى تحجيم الفكر وتحديد افق الثقافة، وظل هذا الموروث مؤثراً إلى يومنا هذا في تحديد أفق الثقافة والاطلاع على بقية القيم والمعتقدات الدينية وغيرها للشعوب الاخرى. وقد تميز الإسلام في ذلك دون غيره من الاديان، ففي المسيحية اصبح كتاب العهد القديم والذي يظم كل ما جاء به الأولين من الانبياء قبل ظهور السيد المسيح (ع) جزءاً من الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) يقتدون به عدا ما هو مخالف لما جاء في العهد الجديد أي في الانجيل من أقوال السيد المسيح (ع). ورغم أن التعاليم السماوية واحدة، ولكن تكرار كل ما جاء به الانبياء إنما يزيد من ترسيط تلك القيم ويعمق من معانيها، وبالتالي ينعكس في سلوكهم وأخلاقهم وتمسكهم في تلك القيم السامية كنتيجة لذلك التكرار. إن مسألة دراسة ما جاء في الكتب السماوية الاخرى لدى المسلمين لا زالت تشكل عقبة كبيرة لإستكمال الفهم للأديان الاخرى، وكيفية التعايش معها في عصرنا الحاضر. ونود ان نشير هنا إلى أن هناك جامعة واحدة فقط في كل البلاد الإسلامية في عصرنا الحاضر تهتم بدراسة كافة الاديان لطلبة دراسات العلوم الإسلامية، وهي جامعة الزيتونة في تونس،. فقد أدخلت دروساً في الاديان السماوية كافة بالاضافة للبوذية والهندوسية والاديان الوثنية الاخرى[1]. نتمنى أن تعم هذه التجربة في بلدان إسلامية

---

(1) العنيف الأخضر (سلسلة مقالات حول الدراسات الدينية في الوطن العربي) جريدة المدى، بغداد 2004
=

وعربية اخرى، من أجل إرساء دعائم الفكر المتنور الواسع عن الأديان الاخرى بالاضافة إلى تعزيز مبدأ التعايش السلمي بين الاديان والطوائف المختلفة في العالم. أن مبدأ الحوار بين الاديان في العالم من شأنه ان يزيد من عمق القيم الإنسانية السامية التي جاءت بها كل الاديان ويعمق من فهمنا للآخر وتعاوننا مع الآخر ويؤدي إلى زوال العداوات والكراهية بين بني البشر كافة. وأنني اتساءل ما الذي يمنع من إدخال مفاهيم الاديان الاخرى ضمن المناهج الدراسية طالما نحن نؤمن بعقيدتنا وصحتها، وقد ترسخت تلك العقيدة عبر ألف وأربعمائة عام بشكل ثابت ليس كما كان عليه الحال في عهد النبي محمد (ص)، وخاصة بعد تلاشي المسافات الثقافية بين الشعوب والامم.

7. الحالة الاقتصادية في عصر فجر الإسلام:

مما لا شك فيه أن الحالة الاقتصادية تعتبر المحرك الاساسي للتغيرات السياسية. ونتيجة لذلك تتغير هي الاخرى، أي أن الحالة الاقتصادية في كل زمان ومكان تؤثر وتتأثر بشكل جذري بالتغييرات السياسية الحاصلة. وقد تم وصف الحالة الاقتصادية في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام في الفصل الثاني، والآن نكشف عما آلت إليه الامور بعد ظهور الإسلام، ولكن قبل ذلك لابد لنا من معرفة الموارد المالية التي تكونت منها خزينة الدولة أو ما يسمى (بيت مال المسلمين) والتي توزع منها الثروة على عامة المسلمين:

تنقسم الموارد المالية للمسلمين إلى أربعة أقسام هي: الزكاة والغنائم الحربية، والجزية والفيء، والفرق بين الغنائم والفيء هو أن الغنيمة كل ما أخذ من العدو قهراً بعد حرب وقتال، والفيء هو ما لم يوجف المسلمون عليه خيلاً ولا ركاباً، أي ما أخذ من

=

(لا أذكر العدد واليوم).

العدو صلحاً بلا حرب ولا قتال. وقد يطلق الفيء أحياناً ويراد به الغنيمة [1]. أما الزكاة، وتسمى الصدقة أيضاً، فهي على اغنياء المسلمين، تؤخذ منهم في كل عام مرة وهي اربعة اصناف من المال، الأول: الزروع والثمار،و الثاني: بهيمة الانعام من الابل والبقر والغنم، والثالث: الذهب والفضة، والرابع: أموال التجارة على إختلاف انواعها.

ولكل واحد من هذه الاصناف نصاب إذا هو لم يبلغه فلا زكاة عليه. فنصاب الفضة مائتا درهم. ونصاب الذهب عشرون مثقالاً، ونصاب الحبوب والثمار خمسة أوسق وهو خمسة أحمال من احمال إبل العرب، ونصاب الغنم اربعون شاة، ونصاب البقر ثلاثون، ونصاب الابل خمسة وهكذا، وتفصيل ذلك موجود في كتب الفقه الإسلامي قد يختلف بعض الشيء في التفسير بين مذهب وآخر. وتسمى الاموال الحاصلة من الزكاة بالصدقات أيضاً، تصرف على ثمانية أصناف من المسلمين حسب ما مذكور في القرآن االكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ ... ﴾ [2]. **أما الاختلاف في تفسير الآية الكريمة، فقد جاء في الفرق بين الفقير والمسكين، فقيل أن الفقير من يجد القوت، والمسكين من لا شيء له، وقيل الفقير هو المحتاج، والمسكين من أذله الفقر أو غير من أحواله. وفي الحديث النبوي الشريف عن صحيح البخاري: (ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، وإنما المسكين الذي لا يسأل ولا يفطن له فيُعطى) [3]. و (العاملون عليها) هم السعاة الذين يقبضونها (أي جباة الضرائب في عرفنا الحاضر) و (المؤلفة قلوبهم (هم أشراف العرب كان رسول الله يستألفهم على أن يسلموا، فيرضط لهم شيئاً**

---

(1) معروف الرصافي المصدر نفسه ص 325.

(2) سورة التوبة، الآية 60.

(3) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، الحديث 1385.

منها (أو يقلص منها بنسب معينة) حين كان المسلمون قلة. (وفي الرقاب) أي المكاتبون من الارقاء، وتتم معونتهم من أموال الزكاة. وقيل هم الاسرى، وقيل تبتاع الرقاب فتعتق. و (الغارمون) هم الذين تراكمت عليهم الديون ولا يملكون من تسديدها، وقيل هم الذين تحملوا الحملات، فتدينوا فيها وغرموا (وفي سبيل الله) أي هؤلاء الفقراء من الغزاة والحجيج المنقطع عنهم الرزق. (وإبن السبيل) هو المسافر المنقطع عن ماله.

وهؤلاء الاصناف الثمانية ينقسمون إلى قسمين: الأول يعطى من أموال الزكاة لاجل حاجته وهم الفقراء والمساكين وفي الرقاب وإبن السبيل. والثاني يعطى لمنفعته للمسلمين وهم العاملون والمؤلفة قلوبهم والغارمون ولإصلاح ذات البين، والغزاة في سبيل الله. ويتضح مما تقدم إن نظاماً عادلاً في توزيع الثروة على المسلمين يجعل للفقراء حقاً من أموال الاغنياء، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾[1]. لذا سميت الزكاة صدقة لأن صدق الرجل في إيمانه وفي عبوديته لله يكمن في أداءه إياها، وإلا فهي حق واجب الاداء لا صدقة. وهكذا إستخدم الدين صدق إيمان الاغنياء في الله واليوم الآخر من أجل دفع ما عليه من اموال بدلاً من الاسلوب القسري في دفع الضرائب المفروضة علينا في عصرنا هذا. ولكن الفقراء أصبحوا أكثر إيماناً من الاغنياء لأنهم المتلقين للمال، ونجد ذلك واضحاً منذ عصر فجر الإسلام إلى يومنا هذا، ومبدأ الزكاة هذا منطبق على مبدأ الاشتراكية، حيث أن الاكثرية من المجتمع هم الفقراء الذين يعيشون جنباً لجنب مع الاغنياء ويشكلون زمرة إجتماعية من الناس تكون بمثابة بنيان واحد، وهم ارباب الحرف وأصحاب الكد والعمل، وهم المنتجون بكدهم وعملهم، ومن ثم صار لهم حق في أموال الاغنياء. وأما الغنائم الحربية فقد أوردنا الكثير عنها في حقل المرغبات في الجهاد. وأما الجزية التي فرضت على غير المسلمين فقد تم العمل بها منذ السنة

---

(1) سورة الذاريات، الآية 19.

الثامنة للهجرة إلى المدينة وبعد نزول الآية الكريمة في سورة التوبة وهي: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[1].

وقد جاء في كتاب معروف الرصافي (الشخصية المحمدية) (ان سبب نزول آية الجزية قالوا أنها جُعلت عوضاً لقريش عما فاتها من المكاسب والارباح بسبب منع المشركين من الحج، وإيضاح ذلك أن الاسواق التي كانت تقام في موسم الحج لم تكن نافعة إلا بالحجاج الذين ياتون من كل الجهات، وكانت قريش تربح ارباحاً طائلة من تجارتها في تلك الاسواق، وكان المشركون يحجون مع المسلمين إلى أن فتحت مكة، وبعد فتحها بمدة يسيرة نزلت سورة براءة، وفيها نبذ النبي إلى المشركين عهدهم، وأعلن الحرب العامة ومنع المشركين من الحج وكما جاء في القرآن الكريم: ﴿ ...إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ... ﴾[2]، فلما رأت قريش أن مشركي العرب مُنعوا من الحج، أخذت تتخوف من مغبة ذلك، وما نتيجته من فوات الكسب والربح في تجارتها التي لا تروج إلا بكثرة الحجيج. فجعلت الجزية عوضاً لها عما يفوتها من الربح، وكما تدل الآية الكريمة التي جاءت بعد عبارة المنع وهي ﴿ ...وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ ... ﴾[3] أي فقراً بسبب منع المشركين من الحج، وما كان لكم من قدومهم عليكم من الارفاق والمكاسب ﴿ ...فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ ... ﴾[4]. أي من عطائه بوجه آخر وهي الجزية).

وفي تفسير الزمخشري عن إبن عباس قال: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف، وقال لهم: من

---

(1) سورة التوبة، الآية 29.

(2) سورة التوبة، الآية 28.

(3) سورة التوبة، الآية 28.

(4) سورة التوبة، الآية 28.

أين تأكلون فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم الجزية[1]. من هنا نجد أن بعض الإسلامين المتطرفين يتغاضون عن أسباب وظروف نزول الآية الكريمة بحق أهل الكتاب في الجزيرة العربية. ويحاولون العمل بها في عصرنا الحاضر، ويعملون أعمالاً إجرامية بحقهم دون الاكتراث بكل التغيرات الحاصلة عبر أربعة عشر قرناً من الزمن. ونود أن نذكر هنا إلى أن مسألة النجاسة هي عبارة عن موروث قديم لدى بلاد الرافدين كما تم التطرق إليها في الفصل الأول. وقد إختلف علماء الدين والفقهاء حول من عليه دفع الجزية، فعند أبي حنيفة النعمان: تضرب على كل فردٍ من ذمي ومجوسي وصابئ وصربي إلا على مشركي العرب وحدهم، بينما عند الشافعي لا تؤخذ الجزية من مشركي العجم أيضا، وفنّد ذلك إبن القيم في (زاد المعاد)[2].

أما مقدار الجزية فعند أبي حنيفة النعمان: يؤخذ في أول كل سنة من الفقير الذي له كسب إثنا عشر درهم، ومن المتوسط في الغنى ضعفها، ومن الكثير ضعف الضعف اي ثمانية وأربعون درهماً. ولا تؤخذ من فقير لا كسب له، وعند الشافعي: يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار فقيراً كان أم غنياً، وكان له كسب أو لم يكن.

أما الفيء فهي كما أسلفنا من الغنائم التي يأخذونها صلحاً بلا حرب ولا قتال. وهي لرسول الله خاصة يضعه حيث يشاء، وصار حكمه حكم الخمس من الغنيمة، حيث تؤخذ لرسول الله ولذوي القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل. بينما يؤخذ الفيء لمحمد فقط. ومثال على ذلك نذكر فدَك وهي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة مرحلتان أو ثلاثة، وفيها عين فوارة ونخيل كثير كما جاء في (معجم البلدان)[3].

---

(1) الزمخشري (الكشاف) تفسير الآية 29 من سورة التوبة.

(2) إبن القيم (زاد المعاد)، 223/3 ـ 224.

(3) ياقوت الحموي: (معجم البلدان) دار صادر ـ بيروت 238/4 ـ 239.

وقد وقعت بين المسلمين بعد وفاة النبي محمد منازعات طويلة من أجل فدك استمرت إلى عهد المأمون.

وقصة هذه القرية ان رسول الله (ص) لما حاصر اهل خيبر وفتح حصونها، ولم يبق إلا ثلاث حصون وإشتد بهم الحصار، أرسلوا إليه ان ينزلهم عن الجلاء، وبلغ ذلك أهل فدك، فخافوا وأرسلوا إلى رسول الله أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك، فكانت فدك ملكاً خالصاً لرسول الله [1] بالمقابل.

وكذلك أموال بني النضير فإنها كانت فيئاً لرسول الله لأنه بعدما حاصرهم مدة يسيرة صالحهم على الجلاء، وإن لهم ما حملت الابل من اموالهم إلا آلة الحرب [2]. وقد إختلف الفقهاء في الفئ هل كان ملكاً لرسول الله او لم يكن؟ كما جاء في مذهب أحمد وغيره، فقد قال إبن القيم: ان هذا النوع من الاموال هو السهم الذي وقع بعده فيه من النزاع ما وقع إلى اليوم، وقال أيضاً: لولا إشكال أمره عليهم لما طلبت فاطمة بنت رسول الله ميراثها من تركته وظنت أنه يورث عنه ما كان ملكاً له كسائر المالكين. ولما علم ذلك الخليفة الراشد أبوبكر الصديق ومن بعده من الخلفاء الراشدين لم يجعلوا ما خلفه من الفئ ميراثاً يقسم بين ورثته. بل دفعوه إلى علي والعباس يعملان به عمل رسول الله حتى تنازعا فيه وترافعا إلى أبوبكر و عمر. ولم يقسم أحد منها ذلك ميراثاً ولا مكنا منه عباساً ولا علياً [3]. وقد جاءت مصارف الفئ مذكورة في القرآن الكريم وذلك في سورة الحشر بقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

---

(1) سيرة ابن هشام (عن إبن اسحاق)، 337/3، السيرة الحلبية، 41/3.

(2) السيرة الحلبية، 226/2.

(3) إبن القيم (زاد المعاد) 220/3 ــ 221.

نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1]

. وخلاصة القول ان الفئ حكمه مثل حكم الخمس من الغنيمة يوزع لأربع جهات هم ذوو القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل فيكون لكل واحد منهم خمس الخمس و يشاركهم فيه غيرهم من المهاجرين والانصار وأتباعهم. وقال عمر بن الخطاب فيما رواه عنه أحمد: (ما أحدِ أحق بهذا المال من أحدِ، والله ما من احد إلا وله من هذا المال نصيب إلا عبد مملوك، ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله، فالرجل وبلاءوه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناؤه في الإسلام والرجل وحاجته، ووالله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء من هذا المال وهو يرعى مكانه)[2]. إن ما تركه النبي من مال وفدك كانت موضع خلاف بين المسلمين لفترة طويلة زادت في الفرقة والجدل والعداوة بين الطوائف إلى وقت قريب.

يتضح مما تقدم أن هناك ثروة كبيرة قد جمعت ومكنت الدولة من النجاح والازدهار وساعد في توزيع تلك الثروات البسيطة من العيش بأمان أكثر، بالمقارنة عما كانوا عليه في عصر الجاهلية، أيام كانت المنطقة غير موحدة وتعج بالقبائل البدوية المتصارعة فيما بينها. ولم يكن الفقير وضعيف الحال أن يجد مكانا له في ضمان العيش

---

(1) سورة الحشر، الايات 7 ــ 10.

(2) ابن القيم (زاد المعاد): 21/3.

والاستمرار بالبقاء خاصة في سنين القحط وتفشي الامراض السارية. ولم يعد لعادة وأد البنات حاجة للاستمرار في ممارستها لتوفر الاطمئنان والضمان في العيش مهما كانت الظروف قاسية في الجزيرة. وبقدر كل تلك المنافع وغيرها كانت هناك مشاكل تولدت للدولة الإسلامية الفتية لم تكن في الحسبان يمكن إدراجها على النحو الآتي:

1. لم توضع آلية معينة في جمع الزكاة حيث لم يكن لديهم حسابات وسجلات بالايراد كما معمول به لدينا في الوقت الحاضر، وكان الامر يعتمد كلياً على الضمير الناشيء من درجة الايمان بالقيم والمبادئ الإسلامية السامية والتي كانت حديثة العهد ولم يستوعبها جميع من دخل في الإسلام، لذلك فإن عملية جمع الثروة إلى بيت المال كانت تشوبها الكثير من الخلل، وتؤدي إلى خلافات وحساسية وعداوات بين الناس.
2. لقد كان جمع المال الوفير مصدر ضعف للدولة حيث أيقظ منافع فردية خاصة كانت نائمة ونبه مآرب كانت غافلة، ولفت اليه نفوس كانت لا تفكر إلا في الدين. ثم خلق حاجات لم تكن معروفة ولا مألوفة. أظهر للعرب سواء أكان في عصر الرسول محمد (ص) وما بعده من أيام الخلفاء الراشدين والدولة الاموية وغيرها، فنوناً من الترف وخفض العيش فأغراهم بها ودعاهم إليها، ثم عودهم إياها، ثم أخذهم بها اخذاً، إلا قلة قليلة جداً إستأثر الدين بهم من دون الدنيا وشغلهم التفكير في الله عن التفكير في المال والمنافع والحاجات[1].
3. لم توضع آلية ومؤشرات ثابتةفي طريقة توزيع الثروة، فإن تحديد الفقير والمحتاج والمسكين وغيره كانت تتم من خلال تقدير وإدعاء الافراد أنفسهم، وهذا يؤدي حتماً إلى نشوء التنافس والحسد مهما بلغ حُسن هذا التوزيع من عدالة وحكمة.

---

(1) طه حسين، (الفتنة الكبرى) ج2 ص 157.

لأن الافراد غير متساويين في المدينة، فمنهم المهاجرون الذين يستأثرون حتماً في الثروة، والانصار وهم أهل المدينة الاصليين يعتبرون أنفسهم أحق من غيرهم في الثروة، ناهيك عن التوزيع القبلي والعشائري الذي كان مستشرياً ومؤثراً في ذلك العصر أكثر من أي فترة أخرى. ولم تظهر أي مشكلة من هذا القبيل في أيام الرسول محمد (ص) ولا في عصر الشيخين، بينما ظهرت واضحاً بعدها في عصر عثمان وما تلاها. يقول طه حسين (أن الابتسام للمال يُغري بالاستزادة منه، والاستزادة منه تفتح أبواباً من الطمع لا سبيل لإغلاقها. وإذا وجد الطمع وجد معه زميله البغَي، ووجد معه زميل آخر هو التنافس، ووجد زميل ثالث هو التباغض، والتهالك على الدنيا وإذا وجدت كل هذه الخصال وجد معها الحسد الذي يحرق القلوب للذين لم يتح لهم من الثراء ما أتيح لأصحاب الثراء. وإذا وجد الحسد حاول الحاسدون إرضاءه على حساب المحسودين، وحاول المحسودون حماية أنفسهم، وكان السرّ بين أولئك وهؤلاء)[1]، وهذا ما سنجده في بحثنا في الفترة التي تلت وفاة الرسول محمد (ص).

4. إن توفر المال بكثرة إنما يدعو للتفكير في المزيد من الاستعداد للتوسع في الفتوحات لجني المزيد من الغنائم والفئ لذلك كانت تصرف الاموال في شراء المعدات الحربية والتدريب وزيادة القدرة العسكرية، والتي لا شاغل للمسلمين الاوائل غيرها، وبالتالي المزيد من الضحايا والمشاكل الناجمة عن سفك الدماء وغير ذلك. إستمرت الفتوحات الإسلامية مشغولة في التوسع والحروب وجني الغنائم، دون الإهتمام بالمعرفة والعلوم وتحسين الاوضاع من خلال إقامة مشاريع ريَ وغير ذلك من المشاريع التي إهتمت بها الدولة العباسية بعد أن توقفت الفتوحات. بالاضافة لذلك

---

(1) طه حسين (المصدر السابق نفسه) ج 2 ص 158.

فإن الفتوحات رغم كونها سمة العصر في ذلك الوقت ولا إعتراض على ذلك، إلا أن تلك الفتوحات أدت إلى زيادة الثروة وأن زيادة مثل هكذا ثروة أدت إلى تكوين طبقة إرستقراطية متميزة من الاغنياء الذين أستأثروا بها لمصلحتهم الخاصة، وإزداد التمايز الطبقي وإزداد الحسد بين الاغنياء وبين من لم تتح لهم الفرصة في الاثراء. وقد ولد ذلك إرثاً ثقيلاً لا نزال نعاني منه من الحسد الذي يحزّ في النفوس بين الاغنياء والفقراء. فالاغنياء لم يأتهم المال عن طريق مهارتهم وذكائهم في التجارة أو مثابرتهم في العمل المثمر وإنما جاء نتيجة لسوء في التوزيع والاستئثار بالثروات القادمة من الامصار والبلدان البعيدة. لقد تغيرت الحالة الاقتصادية للعرب في الجزيرة بعد إنتشار الإسلام لكثرة الموارد التي كانت تردهم من كل مكان، وظهرت طبقات من الغنى والفقر أدت فعلها بالنتيجة بالحالة السياسية بعد وفاة النبي محمد (ص) وما سيأتي ذكره في التفصيل خاصة عند الحديث عن الفتنة التي ظهرت في عهد عثمان والتي كان من أهم أسبابها هو رد الفعل ضد إستئثار قريش بأوفر نصيب من الغنيمة[1]. أن تغيير الحالة الاقتصادية للعرب في الجزيرة بعد الإسلام لم يكن ناجماً عن كثرة الموارد وجني الاموال فحسب بل انها تحولت من منطقة مسيطر عليها إلى أن تكون مركزاً لأعظم إمبراطورية في العالم في ذلك الزمان، وهذا بالتأكيد له مردوداته في إزدهار التجارة في أوسع أرجاء العالم وزيادة متصاعدة في الثروة بالمقارنة عما كان عليه الحال قبيل ظهور الإسلام. وقد نشأت خزينة للدولة تعرف ببيت المال. ولم تكن كل تلك الثروة وكل ذلك التغيير في الحالة الاقتصادية للدولة الفتية ناجماً عن إكتشاف صناعي أو زراعي جديد ولا ثروة معدنية أو نفطية من باطن الأرض مثلاً كما هو عليه الحال في عصرنا الحاضر. ولا إكتشاف أرض جديدة كأمريكا أو إستراليا مثلاً ليجنوا منها الخيرات.

---

(1) محمد عابد الجابري ـ المصدر السابق ص 213.

وإنما كانت كل تلك الثروة وذلك التبدل في الحالة الاقتصادية ناجماً عن إيمانهم بعقيدتهم الإسلامية الرشيدة دون أي تغيير جذري في نمط الحياة العامة.

ولذلك ظل الايمان بالعقيدة أمراً مرتبطاً بالحالة الاقتصادية وبرفاهية المجتمع. وبالتالي أصبح التمسك بالعقيدة الدينية يشكل جزءاً مهماً من كيان المجتمع لابد من الدفاع عنه وعدم التفريط بأي من مفرداته.

وبعد أن إتضح لديهم البون الشائع بين ما كانوا عليه من حالة إقتصادية بائسة أيام الجاهلية وما آلت إليه الامور بعد إسلامهم.

وهكذا هو دائماً الارتباط الوثيق بين المعتقدات والتمسك بها وبين الحالة الاقتصادية والاحوال المعيشية للمجتمع في كل العصور.

وهكذا أيضاً لعبت الحالة الاقتصادية دوراً هاماً في تحديد الخارطة الجغرافية للامبراطورية الإسلامية فيما بعد، عندما توسعت لتشمل البلدان العربية وغير العربية، وذلك من خلال ما كانت تعاني منه شعوب تلك البلدان من ظلم وإضطهاد إقتصادي في ظل نظام العبودية الجائر، وكان الإسلام رحمة بالنسبة لهم بالمقارنة مع كسرى الفرس وقيصر الروم وغيرهم في ذلك العصر.

وهكذا أيضاً يمكن تفسير السؤال الذي يتبادر إلى الذهن أحياناً ألا وهو لماذا لم يستطع المسلمون من نشر ديانتهم في البلدان الاوربية بمثلما استطاعوا من نشره في بلدان المشرق مثلاً؟ فقد أصبح من اليسير الاجابة على هذا التساؤل وذلك من خلال كون البلدان الاوربية تتصف بغزارة أمطارها وخضرة أراضيها بحيث أنها لم تكن بنفس القدر من الحاجة إلى نظم توزيع الثروة بالطريقة الاشتراكية التي جاء بها الإسلام كما أسلفنا في شرحه عن الزكاة وتوزيعها على المحتاجين وغيرهم. بينما أصبحت الديانة المسيحية أكثر رواجاً في تلك البلدان لأنهم اعتادوا عليها وأصبحت جزء من كيانهم السياسي والاجتماعي.

وبينما كانت بلدان المشرق التي تتصف بالصحراوية أو شبه الصحراوية شديدة الحرارة والجفاف وتتصف بنقص الامطار والموارد وبالتالي فإن شعوبهم يصبحوا بأمسَ الحاجة لتوزيع عادل للثروة، وهكذا فقد كان من السهل عليهم تقبل الدين الإسلامي والتمسك به بإعتباره الاصلح لهم وكما سيأتي شرحه في الفصول القادمة.

وأخيراً يمكن استخلاص ما جاء في الفصل بما ورد في كتاب قصة الحضارة: (لقد نجح محمد (ص) في تحقيق غرضه نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريط كله، وقلَّ أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به. وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه، فقد لجأ إلى خيالهم، وإلى مخاوفهم وآمالهم وخاطبهم على قدر عقولهم، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة عبارة عن صحراء جدباء تسكنها قبائل من عبدة الأوثان (على الأغلب) عددهم قليل، كلمتهم متفرقة، بينما أصبحت عند وفاته أمة موحدة متماسكة، وقد كبح جماح التعصب والخرافات بقدر كبير، وأقام فوق المسيحية واليهودية والأديان الأخرى القديمة في بلاده ديناً سهلاً واضحاً وقوياً وصريحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية) [1]، (وهذا ما كانت تطلبه المرحلة بدقة). فيما أشار ابن خلدون في مقدمته عن صفات البدو العرب (بأنهم لا يحصل لهم ملك إلا بصبغة دينية، وسبب ذلك أنهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، لما فيهم من صفات التوحش، والغلظة والأنفة وبُعد الهمة والمنافسة على الرئاسة. فقلّما تتفق أهواءهم وتتحد منازعاتهم، إلا إذا أثرت فيهم دعوة دينية، وحصلت لهم بسببها عصبية جامعة، وتبدلت أخلاقهم، وكان الوازع لهم من أنفسهم، فيسهل عند ذلك انقيادهم واجتماعهم، بما يشملهم من الدين المؤلف لكلمتهم والوازع عن تحاسدهم وتنافسهم فيحصل لهم بذلك التغلب والملك. ومع ذلك

---

(1) ول ديورانت (قصة الحضارة) الجزء 13 – 14 ترجمة محمد بدران (المصدر السابق) ص 47.

فإن البدو من العرب أسرع الناس قبولاً للحق والهدى، لسلامة طباعهم، وبراءتهما من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من صفات التوحش) [1] . وهكذا فقد فعل النبي محمد (ص) في الصدر الأول للإسلام أن ألف قلوبهم ووحد منازعاتهم بواسطة الدين، وشيد لهم أمر الرئاسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وهكذا امتد ملكهم وقوي سلطانهم حتى شمل الأقاليم البعيدة في العصر الأموي والعباسي أيضاً. اما استخدام العنف والقتال في الفتوحات وغيرها فلم تكن سوى نموذج مخفف بالمقارنة عما كان يجري في مناطق أخرى من العالم في ذلك العصر.

إن كل ما ذكر من أعمال عنف حصلت في الصدر الأول للإسلام، لا تساوي شيء بالمقارنة عما كان يجري في الإمبراطوريات الأخرى في العصور الوسطى، وذلك لأن قيمة الإنسان وحياته الدنيوية لم تكن بالمستوى الذي نعرفه في حياتنا في العصر الحاضر، ولم تصل القيم الإنسانية ذلك المستوى ضمن تطور العقل البشري عبر التاريط. إن تقييم كل حدث أو سلوك تاريخي لا بد أن يبدأ من خلال فهم للمرحلة بكل ما تحتويه من أسباب ومسببات اقتصادية واجتماعية وفكرية كانت سائدة في ذلك الظرف التاريخي. وقد ينطبق هذا المبدأ علينا نحن في سلوك وتصرفات نعتبرها طبيعية لتأتي بعدنا بمئات السنين أجيال أخرى تعتبر ذلك السلوك وهذا التصرف أمراً مشيناً وغير مقبول بالقياسات التي تستحدث في المستقبل البعيد .

---

(1) ابن خلدون (المقدمة) ص 151.

الفصل الرابع

عصر الخلفاء الراشدون

ليس الهدف في هذا الفصل سرد حوادث تاريخية مفصلة لأن هذه الفترة من عصر الخلفاء الراشدين لا تختلف كثيراً عن سابقتها في عصر حياة النبي محمد (ص) وتعتبر جزءاً مكملاً وتقع أيضا ضمن عصر فجر الإسلام (وقد أخذت المزيد من البحث والتقصي في كل الحوادث التي جرت لما لها من أهمية) ولكننا سننتقي فقط بعض الأحداث لمناقشتها لما لها من تأثير مباشر في حياتنا الحاضرة من خلال ما تركته من بصمات مؤثرة ظلت عالقة في أذهان الناس على اعتبار أنها البناء الأساسي للدولة الإسلامية، أو ما يسمى بالحجر الأساس للدولة الإسلامية. لذا ازدادت الدراسات والكتب التي تروي الأحداث بتفاصيلها بنفس القدر الذي كانت عليه في عهد الرسول محمد (ص).

وما كاد الرسول الأعظم محمد (ص) أن يلحق بالرفيق الأعلى حتى أحدقت الأخطار بالرسالة التي وقف حياته في توحيد بلاد العرب دينياً وسياسياً. وكانت أول مشكلة تتمثل بمن سيخلف الرسول محمد (ص) في رعاية هذه الأمة لعدم وجود قواعد وأسس وآليات واضحة في الاختيار. وفي المدينة نفسها أحدث نبأ وفاة الرسول الذي لم يتوقعه أحد اضطراباً هائلاً شغل الناس عن كل شيء، حتى عن جثمان الرسول محمد (ص) نفسه، فلم يدفن إلا في اليوم التالي حيث كان راقداً في بيت زوجته عائشة[1]. والحق إن جميع الأحقاد السياسية التي كان النبي كبتها في حياته، وذلك من خلال نفوذه الأدبي القوي لم تلبث أن ذرت قرنها، فمن ناحية كان عدد المنافقين* لا يزال كبيراً جداً في

---

(1) كارل بروكلمان (تأريخ الشعوب الإسلامية) المصدر السابق، ص 83.

* المقصود بالمنافقين هنا هم أولئك الذين أعلنوا إسلامهم بالقول فقط ولكنهم يضمرون السوء للإسلام والمسلمين في قلوبهم.

المدينة نفسها. ومن ناحية ثانية كان الأنصار العريقون يتوقون إلى التحرير من سلطان الأغلبية المتمثل بالمهاجرين، ليصبحوا سادة موطنهم الأصلي كرة أخرى. ولم يكن سوى العمل بما جاء بالقرآن الكريم: ﴿ ...وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... ﴾ [1]. وقد وفق أصحاب الشورى ممن عينهم النبي محمد السابقون، أن اقنعوا الناس بالاعتراف بأبي بكر الصديق (رض)، والذي كان يحظى بنفوذ كبير مع عمر بن الخطاب (رض)، بأن يكون خليفة للمسلمين من بعده، وذلك بعد الاجتماع الذي جرى في سقيفة (بني ساعدة) المشهور ولم يحظ المرشح الآخر عن الأنصار وهو شيط الخزرج ـ سعد بن عبادة ـ لتردد الأوس في منحه التأييد [2] ولم يعد بوسع أحد من الأنصار والمهاجرين إلا أن يبايعوا الأمير الجديد، على الرغم من الخلاف الشديد الذي ظهر منذ ذلك الحين في أحقية الخلافة للإمام علي بن أبي طالب، ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة، وقيل إن هناك توصية واضحة من الرسول محمد (ص) بتلك الخلافة من بعده، وسميت تلك الوصية (حديث غدير خمَ)الذي يقول فيه (من كنت مولاه فعلي مولاه) وهو من الأحاديث المتواترة طبقاً لتخريج الذهبي [3] وذلك في يوم البيعة والذي يعتبر يوم عيد لدى الشيعة سمي بعيد الغدير. ولم تتحقق تلك الوصية باعتبار إن الإمام علي كان لا يتجاوز الخامسة و الثلاثين من العمر وقد تنازل هو أيضاً وبايع الخليفة أبو بكر منعا للفتنة بين المسلمين، إلا أن ذلك لم يمنع من حصول فتنة خفية من عدم قناعتهم بذلك، ولا تزال آثار ذلك موجودة في أذهان بعض المسلمين رغم مرور السنين الطويلة عليها. إلا إنها لم تؤد إلى عمل فعلي في حينها، وقد سارت الأمور على ما يرام نظراً للأخطار والأعباء الثقيلة التي أدركها الجميع، والتي

---

(1) سورة الشورى، الآية 38.

(2) هادي العلوي (خلاصات في السياسة والفكر السياسي في الإسلام) دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الرابعة (2004) ص 54.

(3) إبن كثير (البداية والنهاية) ج 4، ص 214.

تقتضي التعاون والتكاتف بين الصحابة من اجل تجاوز تلك المرحلة.

لقد ظل الجدل قائماً إلى يومنا هذا ولم تحصل القناعات لحد الآن لدى بعض الفئات من المسلمين بأحقية الإمام علي في خلافة النبي محمد،وهذا يدل على مدى إدراكهم بأهمية الخلافة والقيادة المخلصة حقاً لبناء دولة تقوم على أسس العدل والحق والمبادئ الأساسية الأخرى التي جاء بها الإسلام. ولكن الذي مضى قد مضى ولا يمكن إرجاعه، وما علينا سوى دراسة الماضي والاستفادة من الدروس التي خلفها.

1. فترة حكم أبو بكر الصديق وحروب الردة:

إن أهم حدث حصل في عصر الخليفة الأول الذي سار على نهج النبي محمد (ص) وطبق الشريعة الإسلامية من القران الكريم والسنة النبوية الشريفة، هي حروب الردة. فقد حصلت موجة كبيرة من الارتداد عن الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول، ما لبثت أن طغت على الحياة السياسية والاجتماعية في الجزيرة العربية[1]. والواقع إن الدوافع الدينية لم تكن مسؤولة عن هذه الموجة إلا نادراً، وكل ما في الأمر إن بعض العرب رغبوا في أن يتخلصوا من سلطة المسلمين المتعبة في المدينة. وكانوا يرفضون أن يدفعوا الزكاة. وقد استاءوا خاصة بعمال النبي محمد (ص) الذين كان يبعث بهم في السنوات السابقة إلى كثير من القبائل ليعلموهم الدين الجديد ويجمعوا منهم الزكاة. فقد كان هؤلاء مصدر إزعاج في نظر القبائل البدوية التي كانت تتمتع بكامل حريتها واستقلالها في أماكنها الخاصة. وكان النبي قد شغل نفسه في أيامه الأخيرة بأعداد الجيوش للانتقام من البيزنطينين الذين هزموا المسلمين في مؤتة. فوجد أبو بكر نفسه مسئولاً عن إنقاذ خطة النبي الأخيرة هذه، على الرغم من إن الأنباء المخوفة عن شيوع الاضطراب في أنحاء الجزيرة كانت تتواتر على المدينة. وهكذا وجه أبو بكر نخبة من جيوش الإسلام إلى

---

(1) كارل بروكلمان (تأريط الشعوب الإسلامية) المصدر السابق ص 84.

الشمال بقيادة أسامة بن زيد، ولكن أسامة وجنوده قضوا شهرين خارج المدينة للتهيئة وبذلك أصبحت عاصمة المسلمين في مركز لا يساعدها كثيراً على الدفاع عن نفسها. والواقع إن بني أسد وغطفان، النازلين غير بعيد عن المدينة، كانوا أول من أفاد من هذا الوضع، فهاجموا المسلمين. ولكن أبا بكر استطاع أن يثبت لهم ويصدهم عن أهدافهم ريثما عادت حملة أسامة إلى المدينة. وعهد بالقيادة إلى (سيف الله المسلول) المجرب، خالد بن الوليد الذي هزم كلتا القبيلتين عند بئر بزاخة هزيمة حاسمة اضطرتهما إلى الاستسلام في الحال. ومما يستحق الذكر هنا ما حدث من فتنة بني حنيفة في اليمامة والتي كانت اشد خطراً من سابقتها. ففيما كان النبي على قيد الحياة ظهر في تلك البلاد رجل يدعى مسلمة. وأدعى النبوة، بعد وفاة الرسول محمد (ص) وطالب حكومة المدينة بأن تعترف له بحقوق متكافئة مع حقوق الدولة القائمة (أي دولة المدينة). كان مسلمة قد شدد على ناحية الزهد والتقشف تشديداً خاصاً، وخفف من وطأة الصيام وحلل الخمرة، وحض إتباعه على الطهارة والعفة سامحاً لكل منهم بالاتصال الجنسي إلى أن يرزق ابناً ذكراً، فحسب، ويقال إن خطبه تقع في كثير من أصدائها على أفكار مسيحية أو فيها كثير من التشابه مع المسيحية[1] وقد كان لهذا الرجل على الرغم من سذاجته، أثر كبير في نفوس إتباعه حتى إن كثيراً منهم ظل يؤمن به بعد سنوات من سقوطه. ولا ندري لماذا أطلق عليه بعض الرواة اسم (مسيلمة الكذاب)، فأسم مسيلمة هو للتصغير والاحتقار كما كان العرب يستخدمونها للأشخاص الذين لا يكنون لهم الاحترام أما الكذاب فأغلب الظن أنها كانت بسبب مخالفته للتعاليم الإسلامية. وفي شمال الجزيرة أضرمت امرأة تدعى (سجاح) نيران حركة تشبه حركه (مسلمة) بين إفراد قبيلة تميم على

---

(1) محمد عابد الجابري ـ (العقل السياسي العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية ـــ بيروت ج 3، ص 201 (1990).

مقربة من الحدود الفارسية. قد ظهرت بين أخوالها بني تغلب في العراق، وكانت النصرانية واسعة الانتشار هناك، حتى إذا جاءها نبأ وفاة النبي سارت مع عدد من إتباعها إلى أنسبائها من قبيلة تميم الذين كانوا بحكم بداوتهم الخالصة على مستوى ثقافي أدنى من مستوى غيرهم من العرب، فهم يؤلهون الشمس. وتذهب الروايات إلى أنها اتجهت إلى الجنوب، وعقدت حلفاً مع مسلمة، ولكنهما لم يوفقا إلى توحيد قوى إتباعهما في نضال مشترك ضد المدينة. وهكذا لم يوفق الحليفان وافترقا، فرجعت سجاح إلى العراق حيث اختتمت نشاطها العام، وماتت بعد مدة على الإسلام. والواقع انه عندما جاء خالد بن الوليد إلى أراضي تميم تقدم إليه القوم بالطاعة في كل مكان تقريبا، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا مالك بن نويرة سيد بني يربوع من حنظله الذي أرتد عن الإسلام، عقب وفاة النبي مباشرةً. ولكن خالد بن الوليد ما لبث إن طوقه وجنوده فأضطر إلى الاستسلام أيضا وأمر خالد بقتله وقتل جميع إتباعه طمعاً منه في زوجه مالك الجميلة على ما تقول الرواية.

وبعد إخضاع تميم انتقل خالد إلى اليمامة لقتال أصحاب مسلمة وكانوا قد هزموا قوة إسلامية بقيادة عكرمة. وسار مسلمة بعد ذلك إلى إن بلغ حدود اليمامة الشمالية حيث وقعت معركة حاسمة في عقربه، لم تعرف بلاد العرب كلها أعنف منها من قبل[1]. ولكي يلهب خالد طموح رجاله، فقد جعل كلا من المهاجرين والأنصار والبدو يحارب مستقلاً عن الآخر. وكانت قوة مسلمة التي تتألف من بني حنيفة تفوق قوة خالد عدداً. فقاتلت قتالاً شديداً، فأنكشف المسلمون وأشرفوا على الهزيمة. ولكن سخرية بني حنيفة بهم دعتهم إلى أن يبذلوا أقصى ما يستطيعون من جهد، فوقفوا أولاً إلى أن يضعوا حداً لتقدم العدو، وما لبثوا أن ردوه على عقبه شيئاً فشيئاً. فلما رأى بني حنيفة إن الهزيمة

---

(1) كارل بروكلمان ـ المصدر السابق 86.

لابد من وقوعها تراجعوا إلى حديقة واسعة، ابتغاء إن يجدوا في حيطانها المنيعة ما يقوي مركزهم ويقيهم من هجوم المسلمين، إلا أن هذا العمل انتهى بهم إلى الهزيمة، فقد هجم المسلمون على الحديقة وسميت بحديقة الموت بعد ذلك، وفتكوا بأعذارهم فتكاً ذريعاً لم ينج منه أحد، حتى مسلمة نفسه. ومن الجهة الأخرى لم تكن خسائر المسلمين يسيرة في تلك الحرب، ويقال إن عدد المستشهدين من المهاجرين والأنصار وصلت إلى سبعمائة رجل، بينهم عدد كبير من أصحاب الرسول السابقين إلى الإسلام وحفظة القرآن. وهكذا تم القضاء على تلك الردة التي كلفت المسلمين ثمناً غالياً. وأستتب الوضع في الجانب الغربي.

إما في الجانب الشرقي من الجزيرة العربية، وهي المنطقة الساحلية التي تمتد على طول الخليج والتي تم إخضاعها إلى سلطة المدينة قبيل وفاة النبي، فقد جرت محاولة أخرى للتخلص من سلطة المسلمين. ففي هجر، العاصمة، تزعم حركة الردة رجل من نسل المناذرة الذين سبق لهم أن بسطوا سلطانهم على هذه المقاطعات. ولكن العلاء وهو الذي عينه النبي محمد نفسه على تلك المنطقة، أعتصم في حصن يقع إلى الشمال من هجر، وثبت هناك يقاوم المرتدين حتى أقبل خالد بن الوليد لنجدته بعد أن قضى على مسلمة، وسار بنفسه إلى هجر فأخضع الثورة في غير مشقة. أما سكان السواحل والذين كان معظمهم من الفرس فقد أبدوا مقاومة أطول وأعنف. والواقع إن زعيمهم فيروز ظل معتصماً في الزارة الواقعة على ساحل البحر (القطيف اليوم) حتى أوائل خلافة عمر. وعندئذ فقط أستطاع عامل المنطقة، العلاء أن يكرهه على الاستسلام بعد أن قطع عنه الماء.

أما إذا انتقلنا إلى عمان فنجد إن السكان، ومعظمهم من صيادي الأسماك وقرصان البحر، فقد وفقوا بالاحتفاظ باستقلالهم طوال العصور الوسطى كلها تقريباً، حتى عهد سلاطين مسقط الحاليين، وفي ذلك الحين نشبت ثورة على سلالة الجلندي الحاكمة التي سيطرت على تلك المنطقة فأغتنمها المسلمون فرصة للتدخل. وكان الملك عمرو قد دخل

في الإسلام، ولكن الأعراب في الداخل ثاروا على جباة الضرائب الذين وجههم إليهم، بناءاً على طلب من الحكومة المركزية. وطلب أبو بكر إلى عكرمة أن يخف لنجدة الملك فأضطر الأعراب إلى الخضوع لقوات المسلمين المشتركة. وهكذا انتهت حروب الردة في فترة قصيرة بعد وفاة الرسول، وقد تكبد المسلمون وغير المسلمين خسائر فادحة، وكانت حرباً ضروساً لا يستهان بها عبر تأريط الأمة الطويل. أما سرعة انتهاء الحرب فيمكن تفسيرها بمقدار ما استطاع المسلمون أن يلمسوا الفوائد التي حصلوا عليها في دخولهم الإسلام، فقد توحدت الأمة، وصار لها شأن كبير وتحسنت أحوالهم الاقتصادية بشكل كبير، بالإضافة إلى الزخم المعنوي العالي في الإيمان بقضيتهم الدينية والجهاد في سبيل الله والجنة وغيرها من المرغبات على القتال. كما ان الحروب والغزوات التي شنوها في عصر النبي محمد (ص) لم تكن قليلة، فكما ذكرنا أنها كانت سبعة وعشرون غزوة خلال عشر سنوات من الهجرة في المدينة تمت بقيادته، مما اكسبهم خبرة ومهارة عالية على القتال. ولكن لنعود إلى الأسباب الحقيقية وراء حروب الردة لتعلق ذلك في موضوع البحث، فيمكن إن تقسم الأسباب إلى العوامل التالية:

1. إن سرعة انتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة عموماً وباستخدام السيف لا يمكن إن يجعل الجميع مؤمنين بالدين الجديد إيماناً حقيقياً ومن الأعماق. فعلى الرغم من مبررات استخدام السيف لأغراض الدفاع أو للتوسع في نشر الدعوة، فإن ذلك لابد وان يترك الكثير من الضغائن والأحقاد في النفوس ويخلق بيئة من الانتقام والثأر للذين قتلوا أو اضطهدوا بغير ذنب. وكان ذلك لا بد وان يحدث بغياب التحقيق والقضاء وحكم القانون والحاكم كما هو معمول في عصرنا الحالي. بالإضافة إلى تراكم تلك الأحقاد الموروثة منذ العصر الجاهلي.

2. إن الانتصار الهائل الذي حققه النبي محمد (ص) في دعوته إلى الإسلام وسرعة انتشاره قد فتح الشهية للعديد من الذين يجيدون السجع العربي من الادعاء بالنبوة وطرح أفكار جديدة تستهوي بعض الناس. وكما ذكرنا في الفصل الثاني كيف كان عدد من المفكرين ظهروا في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام، فقد استمر هذا الظهور في فترة الدعوة وبعدها. ونذكر منهم أميه بن أبي الصلت الثقفي وقيس بن ساعدة الأيادي، وفي اليمن ظهر كلاً من شعيب بن مهدم وعمرو بن الحجر الأزدي وصالح بن الهميسع وحنظله بن صفوان وأسعد أبو كرب الحميدي، وسجاح التميمية والأسود العبسي وكل هؤلاء كانت لهم كتب موثقة تاريخياً في السجع يمكن الرجوع إليها، كما مفصل في كتاب محمد عابد الجابري ـ العقل السياسي العربي ـ[1]. ولما كانت حروب الردة تتمثل في تراجع وتمرد على مستوى العقيدة. فإن وفاة الرسول محمد (ص) وما تبعها من انقطاع نزول الآيات السماوية بشكل مفاجئ، أحدثت فراغاً كبيراً في عدم التهيؤ وممارسة اتخاذ القرارات الصائبة السريعة حسب مقتضيات الحاجة، كما كان يحدث في السابق. وكان ذلك قد ساعد في حصول فوضى. كما استغل البعض (مثل مسلمة) في كسب الناس لصياغة بعض التعديلات على الفرائض الدينية كأن يجعل الصلاة مرتين في اليوم بدلاً من خمس مرات. وان يحلل لهم الخمر والزنى، وتخفيف بعض أحكام الصيام وغيرها[2]. وكل تلك التعديلات في نظره تستهوي الكثيرون في حينها وبالنسبة للزنى فكان يدعو للعلاقة بين الرجل والمرأة إلى أن تحمل منه طفلاًوعند ذلك يصبح الزواج واجباً دينيا.

---

(1) محمد عابد الجابري ـ (العقل السياسي العربي) ج3. مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت (1990)، ص 200.

(2) المصدر السابق، ص 216.

3. إن عمال الرسول في أرجاء الجزيرة لم يكونوا من الكفاءة والقدرة في إقناع الناس بالدين الجديد وبأحكامه، وقد كانت أسس الدولة قائمة بالدرجة الأساس على درجة الإيمان الراسط في الدين والمعتمد على تحكم الضمير في إحقاق الحق وإنصاف الناس وكسب رضاهم ولكن ذلك لم يحصل، لسبب إن بعض هؤلاء العمال لم يكونوا بداخلهم بمستوى ما يعهد إليهم من مهام، مما أدى إلى اغتنام الفرص لبعض الناس من الانقضاض عليهم حال وفاة الرسول محمد وحصلت الفوضى المعروفة بحروب الردة. إن التوسع الهائل في الدولة وبفترة قصيرة لم تكن كافية لكسب الخبرة والقدرة على اتخاذ قرارات صائبة بالإضافة إلى ضعف الاتصال بين الأمصار والمركز ووجود بعض المنافقين الذين لم يدخلوا الإسلام إلا لمصالح ذاتية خاصة لا صلة لها بالإيمان العميق للمبادئ التي جاء بها الإسلام.

إن القضاء على كل التمرد والعصيان الذي حصل في الجزيرة العربية وفي فترة قياسية قد حفز الخليفة أبو بكر بتوجيه جيوشه نحو الخارج لزيادة الفتوحات. وكان المثنى بن حارثة قد شرع الغزوات في جنوب العراق على الحدود الفارسية فاتحاً الحيرة والتي سقطت في أيدي المسلمين عام 633 م. كما وجه جيشاً بقيادة عمرو بن العاص سنة 634 م للهجوم على جنوب شرق فلسطين والآخر بقيادة شرحبيل بن حسنه للهجوم على مقاطعة موأب (البلقاء في الأردن) حتى إذا تمت هذه الانتصارات للمسلمين في الغرب أسرع خالد بن الوليد من العراق إلى الأردن وتولى أمرة الجيش العليا هناك، ومن ثم سار لمساعدة عمرو. وبينما كانت المعارك تدور في الاتجاه الشمالي الشرقي والغربي من الجزيرة توفي الخليفة أبو بكر في المدينة (رحمه الله)، فتولى الأمر من بعده عمر بن الخطاب وبايعه الجميع بدون مشاكل بعد إن رشح أصلاً من قبل الخليفة الأسبق أبو بكر قبل وفاته ولكن هذا الأمر غير مؤكد حسب الرواة.

2. خلافة عمر بن الخطاب:

كان عمر بن الخطاب من أقوى المهاجرين وأعلاهم مقاماً، وكان يتمتع بسمعة ومقام وجاه في الجزيرة العربية كلها، وقد تميزت خلافته بالتطبيق المتميز لأحكام القرآن والسنة النبوية من حيث تطبيق العدل والحق والمساواة، وحقق انتصارات كبيرة في فتوحاته المتميزة في العراق والشام ومصر. ولا مجال هنا في تكرار تفاصيل ذلك فهي موجودة بغزارة في كتب التأريط الإسلامي يمكن الرجوع إليها لزيادة التفاصيل والمعرفة. ورغم إن سيرة الشيخين قد أصبحت جزءاً من الأسس التي يستند عليها البعض في تسيير أمور الدولة فيما بعد، إلا أن الحق يقال إن المشاكل التي واجهت عمر خلال ألاثني عشرة سنة التي حكم فيها المسلمون لم يكن في ميسوره إن يبتدع نظاما للدولة أشد أحكاماً. وظلت مشاكل النظام الدستوري غائبة عن الدولة الإسلامية إلى يومنا هذا دون إن ينتبه إليها أحد ويبذل مجهوداً متميزاً لوضع ضوابط في اختيار الحاكم عن طريق رضا غالبية الرعية ومحاسبة هذا الحاكم وإقصاءه في حالات الضرورة. ومن المفيد هنا إن نذكر بعض الأمور الهامة التي حصلت في عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، لما لها من أهمية ضمن موضوع بحثنا هذا. فقد نقل اليهود الذين سمح لهم النبي محمد (ص) بالبقاء في خيبر وبقية المناطق، إلى سوريا وظلوا متمركزين في منطقة فلسطين منذ ذلك الحين. وصار كل من يعتنق الدين الجديد عربيا بنعمة الإسلام، فهو يلتحق بإحدى القبائل كمولى من مواليها [1]. وهكذا انتظمت الإمبراطورية الثيوقراطية * التي نشأت بعد وفاة النبي محمد (ص) عن الدولة القومية التي رفع قواعدها بطبقتين متميزتين دينياً، وبالتالي سياسياً. فقد كان المسلمون، بوصفهم الحكام، يؤلفون أيضاً طبقة المحاربين. وإذا

---

(1) كارل بروكلمان (تأريط الشعوب الإسلامية) ص 107.

* الثيوقراطية ــ تعني سلطة الدولة الدينية ــ أي أن الخليفة هو أعلى مرجع ديني في نفس الوقت.

كان العرب يؤلفون طبقة المحاربين فقد كان الأعاجم من الجهة الثانية، هم الرعية، وكلمة الرعية هنا مشتقة من القطيع وجمعها رعايا، كما كان يدعوهم تشبيه سامي قديم كان مألوفا لدى الآشوريين. وفيما كان المسلمون لا يدفعون إلى خزانة الدولة غير الزكاة، كانت الرعية تدفع الجزية لإعانة المسلمين. وكانت الدولة قليلة الاهتمام بشؤون الأعاجم الداخلية. وكان الأساقفة هم الذين تولوا شؤون الرعية في البلدان التي كانت المسيحية منتشرة بنسبة عالية. أما في العراق وبلاد فارس فأحتفظ الدهاقنة أو رؤساء الأقاليم بمكانتهم العليا. ولابد لنا من ذكر حادثة توزيع الغنائم وطريقة التعامل مع السبايا الذين جلبهم المقاتلون بعد معركة القادسية المشهورة إلى الخليفة عمر وكيف تصرف معهم كما جاء في كتاب الرصافي (الشخصية المحمدية) [1] : (لما فتح سعد بن أبي وقاص مدينة طيسفون المسماة حديثاً بالمدائن، والتي كانت عاصمة الدولة الساسانية، أرسلت الغنائم التي اغتنمها جيش المسلمين إلى المدينة، وكان فيها مال كثير من أموال كسرى، ومن جملة ذلك سواراً لكسرى وتاجه ومنطقته، وبساط كبير، وكان هذا البساط بمساحة ستين ذراعاً منظوماً باللؤلؤ والجواهر الملونة على ألوان أزهار الربيع، وكان يبسط كسرى في إيوانه ويشرب عليه إذا عدمت الزهور، وأرسلت مع الغنائم السبايا أيضاً، وهن بنات كسرى، وكن ثلاثا وعليهن من الحلي والحلل والجواهر ما يقصر اللسان عن وصفه. وأمر عمر بن الخطاب بالمال الذي جئن به إن يصب في صحن المسجد، وأخذ يفرقه على المسلمين، وعند ذلك دعا سراقه بن مالك*، وقال له أرفع يديك والبسه

---

(1) معروف الرصافي (الشخصية المحمدية) ص 263.

* سراقة بن مالك هذا كان له قصة شهيرة في مساعدة الرسول في هجرته إلى المدينة وإخفاءه عن أنظار قريش الذين كانوا يبغون اللحاق به والقضاء عليه. وكان سراقه من بسطاء الناس بينما أصبح له شأن عظيم بعد انتصار الإسلام.

السوارين، وقال له الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول أنا رب الناس، والبسهما سراقه. ثم قطع البساط إلى عدة قطع وفرقه بين المسلمين، فأصاب علي بن أبي طالب منه قطعة باعها بخمسين ألف دينار). إن حادثة تقطيع مثل هكذا بساط في ذلك العصر قد يكون عادياً لدى البعض، ولكنه بالنسبة للمختصين من الباحثين في عصرنا خاصة ممن يهمه أمر تأريط صناعة السجاد اليدوي والأصباغ والحياكة فأنها تعتبر كارثة تاريخية لان مثل هذه السجادة كانت تعتبر إحدى المعجزات الفنية الرائعة التي تستحق الدراسة والكشف عن كيفية صناعتها بهذا الحجم وماهية الأصباغ المستخدمة فيها للمحافظة على مجهود فكري إنساني قد يضيف إلى سلسلة المعارف كماً كبيراً من المعرفة والتقنية. وكان بإمكان الخليفة عمر أن يأمر بالاحتفاظ بها رمزاً للعرب على نصرهم على الساسانيين، ولكان قد أغنى المكتبات العلمية العالمية بالكتب التي تنقل تراث الأقدمين وما وصلوا إليه من تقنيات رائعة في مجال صناعة السجاد وصناعة الأصباغ الطبيعية ذات الأصل النباتي والحيواني التي كانت تستخدم للأصواف في ذلك الزمان. إن عملية تقطيع تلك السجادة الثمينة إلى قطع صغيرة قد أضاعت فرصة لا تعوض في بناء قاعدة معرفية وتقنية لحرفة أصيلة مارسها الإيرانيون منذ القدم.

وعوداً إلى توزيع السبايا (فقد جيء ببنات كسرى الثلاث، فوقفن بين يديه وأمر المنادي أن ينادي عليهن، وأن يزيل نقابهن عن وجوههن ليزيد المسلمين من ثمنهن، فامتنعن من كشف نقابهن، ووكزن المنادي في صدره، فغضب الخليفة عمر وأراد أن يعلوهن بالسوط وهن يبكين ولكن الإمام علي قال له: مهلاً يا أمير المؤمنين، فأني سمعت رسول الله يقول: (أرحموا عزيز قوم ذل وغني قوم أفتقر). فسكن غضبه، فقال له علي: إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة، فقال له عمر: كيف الطريق إلى العمل معهن، فقال: يقومن، ومهما بلغ ثمنهن يقوم به من يختارهن، فقومن، وأخذهن

علي، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر، فجاءت منه بولده سالم، ودفع الثانية لمحمد بن أبي بكر فجاءت منه بولده القاسم، ودفع الثالثة لولده الحسين فجاءت منه بولده علي الملقب بزين العابدين)[1]. ويستطرد الرصافي في القول: (إن إساءة عمر بن الخطاب إلى بنات كسرى حين أغلظ لهن في القول والفعل وتقسيمه تلك الغنائم وتفريقها بين المسلمين بعد تمزيقها شر ممزق إذ كان بالإمكان الاحتفاظ بتاج كسرى ومنطقته وبساطه لتكون عند العرب مفخرة لهم من مفاخرهم التاريخية. ولكن عمر لم يكن فيما فعله من بيع البنات وتقسيم الغنائم إلا تلميذاً للنبي محمد (ص)). فقد كان يطبق تعاليم الإسلام وسيرة النبي بدقة، ولم يحرف عنها بأدنى شيء. فكما أسلفنا في الفصل الثالث فإن النبي محمد (ص) قد أباح سبي النساء في حروبه وجعلهن ملكاً تحت رق من سباهن، إن شاء وطأهن، و إن شاء باعهن، وأحل الغنائم لإتباعه، وأوجب تقسيمها عليهم بعد أخذ خمسها لله ولرسوله، كما أسلفنا (أنظر الفصل الثالث ص 169)، فلا لوم على عمر فيما فعله، وربما لو كان علي مكان عمر لما فعل غير ذلك (حسب ما يظن الرصافي على الأقل). أما إن عمر غضب على بنات كسرى لما امتنعن من كشف نقابهن وأراد ضربهن بالسوط، فليس بأمر جلل، لأن المرأة الحرة سواء أكانت من بنات الملوك أم من بنات السوقة بعد إن تكون ملكًا، وتقف موقف الامه، تباع كما يباع المتاع ولا يكون ضربها بالسوط أمراً غريباً. كانت تلك عادات وسلوك القوم في ذلك العصر. وربما تكون غريبة علينا لأننا نقلب الأوراق عبر أربعة عشر قرنا، وهذا الفارق الزمني ليس بالقليل.

الأمر الثاني الذي يستحق الذكر هنا، هو إن الخليفة عمر قد أمر بحرق جميع الكتب الدينية الموجودة ضمن الإمبراطورية الإسلامية من غير القرآن والسنة النبوية.

---

(1) (السيرة الحلبية) ج 2، 45.

ومن بين تلك الكتب كان الآفستا (أو الزندافستا) [1]* وهو كتاب الزرادشتية. كان مكتوبا على جلد البقر أو الجاموس بأحرف من ذهب وباللغة الفارسية، ويتألف هذا الكتاب من 150 إلف قطعة متخصصة في القصص والأحاديث التاريخية للأولين وفيها من الأحكام والتعاليم الدينية يمكن إن تعتبر من الكنوز التراثية الثمينة جدا في تأريط الإنسانية عموما. ويقال إن عمر بن الخطاب بعد فتحه بلاد فارس (أو جزءاً كبيراً منها) وكان يعرف لغة الفرس، استطاع أن يتعرف على جزء من ذلك الكتاب، وقد وجد فيه تشابهاً كبيراً مع ما جاء في أحكام القرآن الكريم ما يبعث الريبة في القلوب، وربما تذكر قول الرسول محمد (ص) له حين جاء به بالحديث عن آيات التوراة التي حدثه بها صديقه وكيف غضب الرسول محمد (ص) لهذا الإعجاب ومنعه من قراءة أي كتاب غير القرآن (أنظر الفصل الثالث ص 180). لقد جاء إحراق الآفستا بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب من أجل المحافظة على الإسلام وإعلاء كلمته ومنع انحراف العرب إلى أديان أخرى فيما لو أطلعوا عليها، ولكن في الجانب الآخر، قد أحرق قلوب الفرس في طمس تراثهم المعتادين عليه منذ ما يقرب من ألف عام وكاد يحرق معه قلوب الباحثين والمؤرخين في الوقت الحاضر لولا الحصول على نسط أخرى من هذا الكتاب، لم يكن في متناول يده. وهي محفوظة الآن في إحدى المكتبات البريطانية في لندن والفرنسية في باريس. ويقال أيضا انه تم إحراق مكتبة في عهده وهي مكتبة الإسكندرية الشهيرة في مصر والتي تعتبر من أكبر المكتبات التاريخية القديمة في العالم كانت تحوي على كتب تاريخية منذ زمن الفراعنة المصريين. بالإضافة إلى كتب فلاسفة الاسكندرية المشهورين. لقد كان القصد

---

(1) * الزندافستا ـ وتعني باللغة الفارسية الكتاب المقدس. ويطلق عليه أحيانا (الزند) أو آفستا طبقا للغات المختلفة من الفارسية والكردية. وكتب قبل 500 عام ق. م تقريبا.

من وراء ذلك ترسيط العقيدة الإسلامية في عقول الناس ونصرة الدين الحنيف. ولم يخطر ببال الخليفة العادل أن يأتي يوم يحتاج إليه الباحثون والدارسون إلى كل تلك الكنوز الفكرية والتي هي ملك لا يعوض لجميع البشر في العالم. إن عملية إحراق التراث الفكري قد تكررت عبر العصور وكانت واحدة من أسباب تخلف العالم الإسلامي.

لقد كان عمر بن الخطاب معروفا بحبه للعرب. فهو أذن بطل قومي وديني من الطراز الأول في تأريط الأمة العربية والإسلامية. و أوصى بالعرب خيراً عند وفاته، وقال عنهم أنهم (مادة الإسلام) ومعنى ذلك انه كان ينظر إليهم نظرة مخالفة لما كانت قريش تنظر بها إليهم. فقريش كانت في ذلك العهد تتعالى على الأعراب، وكانت تعتبر نفسها قوام الإسلام وأساسه الذي بني عليه [1]. وهكذا كان تقسيم المسلمين في عهد عمر مكون من طبقتين: طبقة عليا مؤلفة من أشراف قريش، وطبقة سفلى مؤلفة من سواد الأعراب أبناء القبائل البدوية. أما الأعاجم فلم يكن لهم شأن في ذلك الحين. إذ لم يكن قد دخل منهم عدد كبير في الإسلام آنذاك. ولذا ظل موروث احتقار الأعاجم قائما إلى فترة قريبة في عقول الناس في البلاد العربية. وقد ازداد شدة منذ ذلك العصر والذين كانوا يعتبرونهم موالي، وهي نوع من العبودية بالنسب ولغير العربي من المسلمين. ولكن رغم كل هذا، كانت نقاط مضيئة في عهده وهي: إن عمر بن الخطاب قد أبطل بعض الأحكام الشرعية التي جاء بها القرآن كقطع يد السارق وإبطال نصيب (المؤلفة قلوبهم) من الفيء، وبهذا حرم قريشا من عطاء كانت تنعم به في أيام النبي وأيام خليفته أبي بكر.

إن نصيب (المؤلفة قلوبهم) مذكورة في القرآن ولكنه نسط أمراً صريحا جاء به القرآن وكان تبريره لعمله هذا: إن الرسول محمد كان يعطيهم يوم كان الدين ضعيفاً محتاجاً إلى نصرهم، أما اليوم فقد أصبح الدين قوياً لا يحتاج إلى تأليف قلوب قريش أو

---

(1) الطبري (تأريط الرسل والملوك) ج 5، ص 86.

استرضائهم[1] كما انه أتخذ علياً مستشاراً له، وكان يتعوذ من معضلة ليس لها لعلي وجود[2]. وقد تزوج من أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب. وهكذا تميزت فترة خلافة عمر بالاستقرار وعدم استئثار قبيلة قريش بالثروة دون غيرها من القبائل. كما انه أقصى قادة عسكريين أمثال خالد بن الوليد عن قيادة جيش المسلمين. وقد كان ذلك برسالة تاريخية معروفة وفي الوقت المناسب. وكان ذلك العمل من الأمور الحكيمة التي لابد من عملها لمنع استئثار قائد حقق انتصارات ضخمة، قد تؤدي في نهاية المطاف إلى الاستئثار بالسلطة عن طريق العنف. ومن الملاحظ إن هذا الإجراء معمول به في البلدان الديمقراطية في عصرنا هذا. إذ إن القادة العسكريين في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال يحالون إلى التقاعد حال انجازهم مهمات قتالية كبيرة على الأغلب، مثلما فعل الخليفة عمر مع خالد بن الوليد. إن ممارسة القتال لفترة طويلة من حياة أي إنسان لابد إن يترك آثارها في نفسه تفقده بعضا من قيمه وأخلاقه مهما بلغ من مقدرة، وتصيبه بداء العظمة. وقد يشكل ذلك خطراً على مصير السلطة الإسلاميةآنذاك. وربما كان لعمر علماً بأنه لو لم يفعل ذلك لاستطاع خالد أن يعمل ما يشبه الانقلاب العسكري على سلطة المسلمين.وهكذا يتضح لنا أن عمر قد اجتهد فأجل مهمة المؤلفة قلوبهم الواردة بالنص القرآني بالتفسير الحرفي الدجماتيكي للنص، وأوقف حد السرقة على المحتاج، ثم عطله في عام المجاعه، وعطل التعزير بالجلد في شرب الخمر في الحروب وذلك من خلال ايقاف الحدود في السفر مثل ما فعل حذيفة أيضاً فأوقف الحد على شارب الخمر، وقال : (تحدون أميركم وقد دنوتم من عدوكم فيطمعون فيكم ؟ (وقد أصدر عمر أمره إلى قواده (الا يجلدو أحداً حتى يطلعوا من الدرب راجعين، وكره ان تحمل

---

(1) علي الوردي (وعاظ السلاطين) ص 126.

(2) ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص 76.

المحدودحميه الشيطان على اللحوق بالكفار، وهو بذلك لم يوقف الحد وانما أجله لظروف، حتى تزول هذه الظروف (وهذه كلها اجتهادات لأحكام جديدة، لم تكن من قبل ذلك .... وفيها ظاهره مخالفه لما كان أيام الرسول و أبي بكر. بالاضافة لذلك فهو لم يوزع الأرض الخصبة المتأتيه من الغنائم على الفاتحين كما كان معمول بها في السابق . وقتل الجماعة بالواحد مخالفاً قاعدة المساواه في القصاص، كل تلك الأعمال تدل على ما يلي :

أولاً: أنه استخدم عقله في التحليل والتعليل ولم يقف عند ظاهر النص والتطبيق الحرفي للنص دون الرجوع إلى العقل والتأويل والاجتهاد .

ثانياً: أنه طبق روح الإسلام وجوهره مدركاً ان العدل غايه النص، وأن مخالفه النص من أجل العدل، أصح في ميزان الإسلام الصحيح من مجافاة العدل بالتزام النص، وهذه الروح العظيمة في التطبيق، تخالف أشد المخالفه روح القسوة فيمن نراهم ونسمع عنهم في عصرنا الحاضر وتتناقض مع منهجهم المتزمت، وتوقفهم أمام ظاهرالنص لا جوهره، ونكاد نجزم أنهم لو عاشوا في زمان عمر لإتهموه بالمخالفه لمعلوم من الدين بالضروره، ولقاعدة شرعيه لا لبس فيها ولا غموض، ولحد من حدود الله لا شبه في وجوب اقامته ولرفعوا عقيرتهم في مواجهته بالآيات التي لا يملون تكرارها : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[1]، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[2] دون توقف امام أسباب التنزيل، أو حكمه النص أو العقوبة . وأخيرا نوجه نصيحتنا إلى أولئك المتزمتين أن يراجعوا سيرة الخليفة عمر و يقفوا في تفسير ما ذهب اليه في

---

(1) سورة المائدة، الآية 44.

(2) سورة النساء، الآية 65.

استخدام العقل والاجتهاد في تطبيق الآيات القرآنية خاصه ولم تمضي على وفاة الرسول محمد (ص) سوى سنوات قلائل بينما تفصل بيننا وبين عصر صدر الإسلام أكثر من ألف وأربعمائة عام جرت خلالها العديد من التغيرات في كل مجالات الحياة، تستدعي المزيد من الاجتهاد والمراجعة.

3. مصرع الخليفة عمر:

هذا الرجل العظيم ذو الدور المميز في تأريط العرب والإسلام وصاحب الانجازات الكبيرة المتحققة في عصر خلافته، ليس فقط في مجال التوسع في الفتوحات، بل في مجال تطبيقه لأصول الشرع العادلة، وموائمة بعض النصوص لظروف العصر، قُتل في عام 644 م وهو في غمرة نضاله الجليل في سبيل نشر راية الإسلام. وتشير المصادر المتيسرة إلى إن شخصا فارسياً يدعى أبو لؤلؤة (فيروز) والذي كان يعمل بخدمة حاكم الكوفة ـ المغيرة بن شعبة ـ قد جاء من الكوفة إلى المدينة ليشتكي إليه من شدة الخراج الذي كان يتعين عليه جمعه لسيده في الكوفة، فلم يسمع منه. فما كان الصباح التالي وانتهى الخليفة إلى المسجد ليؤم الناس في صلاة الصبح طعنه الفارسي هذا بخنجر ذا رأسين بطعنتين كانت أحداهما قاتلة[1]، وفي نفس الوقت غطى نفسه بعباءة سوداء وطعن نفسه ومات في الحال، بينما بقي الخليفة لبعض الوقت وتحدث مع الناس إلى إن وافاه الأجل (رحمه الله). لم يعط أحد من الكتاب والباحثين تفسيراً شافياً لهذا الحادث، فقد فسر في أغلب الكتب بأنه عمل ناجم عن حقد دفين بين الفارسي والخليفة لأسباب قومية. وأعتبره آخرون حادثاً عرضياً لا معنى له. ولغرض معرفة الدوافع الحقيقية لابد لنا من تسليط بعض الضوء وراء كل أصحاب العلاقة لما لها من دلالات تخص موضوع البحث. فأولاً من هو المغيرة بن شعبة حاكم الكوفة؟ فقد جاء في كتاب طه حسين في الفتنة الكبرى عن سيرة

---

(1) كارل بروكلمان (تأريط الشعوب الإسلامية) ص 109

هذا الرجل: (إن أمر المغيرة بن شعبة غريب كله، اختلط فيه الخير بالشر حتى أصبح مشكلة من المشكلات. غدر في شبابه بجماعة من أهل الطائف، فقتلهم جميعا بعد إن سقاهم حتى ذهبت الخمر بعقولهم وناموا لا يعقلون، فوثب عليهم فقتلهم. وكانوا أثنى عشر أو ثلاثة عشر رجلا. ولم يستطع إن يعود إلى وطنه في الطائف، فأستاق مالاً كثيراً كان هؤلاء الناس قدموا به من مصر، فمضى به إلى المدينة فأسلم وعرض ما ساق من مال على النبي محمد (ص) فأبى إن يقبله، لأنه نتيجة الغدر وليس في الغدر خير. وسأله المغيرة عن مصيره، وقد أسلم بعد إن فعل فعلته تلك، فقال له النبي: (إن الإسلام يُجبَ ما قبله) وقد نصح للنبي بعد ذلك، وتعرض لأخطار كثيرة في حرب الردة وفي فتح الشام، حتى فقد إحدى عينيه في واقعة اليرموك. ثم شارك في فتح فارس فأبلى بلاءاً حسناً، وقد أمره على البصرة. وكأن إسلامه لم يكن عميق الأثر في نفسه، فقد شهد عليه نفر بالزنى عند عمر، وأوشك عمر إن يقيم عليه الحد، لولا أن جلب أحد الشهود وهو زياد (ابن أبيه) ليشهد إلى جانبه. فأقيم حد القذف على الشهود الآخرين، وعزل المغيرة عن البصرة. وكان صاحب لذة ومسرفاً على نفسه وعلى الناس، كثير الزواج كثير الطلاق، لم يكن يتزوج واحدة ويطلق حين يجتمع له أربع زوجات وحين يريد أن يستزيد، وإنما كان كثيراً ما يطلق أربعاً ويتزوج أربعاً، حتى أسرف المؤرخون عليه بعد ذلك. فزعم الكثيرون انه تزوج ألف امرأة في حياته الطويلة. وزعم المقللون انه تزوج مائة أو تسعاً وتسعين. وتوسط المعتدلون فزعموا انه تزوج ثلاثمائة . وليس من شك في انه كان يؤدي إلى هؤلاء الزوجات مهوراً. وليس من شك كذلك في انه كان يرضي كثيراً منهن على الطلاق السريع. وان ثروته الخاصة لم تكن لتقوم بكل هذا السرف الكثير [1]. فقد كان يعتبر إن بيت المال ملك له ولحاشيته وللمزيد عن تفاصيل سلوك المغيره بني شعبه نورد

---

(1) طه حسين (الفتنة الكبرى) ج 2، ص 201.

(2) أبي جرير الطبري (تاريط الملوك والامم) ج 3 ص (168 ـ 170)

ما يروي الطبري[2] في تاريخه على النحو التالي : عن شعيب عن سيف عن محمد والمهلب وطلحه وعمرو باسنادهم قالو: كان الذي حدث بين أبي بكره والمغيرة بن شعبه أن المغيره كان يناغيه وكان ابي بكره ينافره عند كل ما يكون منه وكانا بالبصرة وكانا متجاورين، بينهما طريق وكانا في مشربتين متقابلتين لهما في داريهما، في كل واحده منهم كوة متقابله للأخرى، فاجتمع إلى أبي بكره نفر يتحدثون في مشربته فجمعت ريح ففتحت باب الكوة فقام ابو بكرة ليصفقه، فبصر بالمغيره وقد فتحت الريح باب كوة مشربته وهو بين رجلي امرأة . فقال للنفر قوموا فأنظروا، فقاموا فنظروا ثم قال اشهدوا قالو ومن هذه، قال أم جميل ابنة الافقم، وكانت ام جميل احدى بني عامر بن صعصعة (المقصود احدى نساء بني عامر)، وكانت غاشية للمغيره وتغشي الأمراء والأشراف، وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها، فقالوا انما رأينا اعجازاً ولاندري ما الوجه، ثم أنهم صمموا حين قامت، فلما خرج المغيرة إلى الصلاة حال ابو بكرة بينه وبين الصلاه، وقال لا تصلي بنا فكتبوا إلى عمر بذلك، وتكاتبوا فبعث عمر لأبي موسى فقال يا أبا موسى اني مستعملك، اني ابعثك إلى ارض قد باض بها الشيطان وفرخ، فالزم ما تعرف ولا تستبدل فيستبدل الله بك،..... ثم خرج أبو موسى فيهم حتى أناخ بالمربد، وبلغ المغيره ان ابا موسى قد اناخ في المربد فقال والله ما جاء ابو موسى زائراً ولا تاجراً ولكنه جاء أميراً، فانهم لفي ذلك إذ جاء أبو موسى حتى إذا دخل عليهم فدفع إليه أبو موسى كتاباً من عمر، وأنه لأوجز كتاب كُتب به أحد الناس، أربع كلمات عزل فيها وعاتب واستحدث أمر، (أما بعد فإنه بلغني نبأ عظيم فبعثت أبو موسى أميراً عليكم ليأخذ لضعيفكم من قويكم، وليقاتل بكم عدوكم وليدفع عن ذمتكم وليحص لكم فيأكم ثم ليقسمه بينكم، ولينقي لكم طرقكم) وأهدى له المغيره وليدة من مولدات الطائف تدعى عقيلة وقال إني رضيتها لك وكانت فارهه وارتحل المغيره وأبو بكرة مع بن كلده وزياد وشبل بن معبد البجلي حتى قدموا على عمر، فجمع بينهم وبين المغيره فقال المغيره (سل هؤلاء الأعبد

كيف رأوني مستقبلهم أو مستدبرهم، وكيف رأوا المرأة أو عرفوها، فإن كانوا مستقبلي فكيف لم أستتر، او مستدبري فبأي شيء استحلوا النظر إلى منزلي، على امرأتي، والله ما أتيت الا امرأتي، وكانت شبهها، فبدأ بأبي بكرة فشهد عليه انه رآه بين رجلي ام جميل وهو يدخله ويخرجه كالميل في المكحله، قال كيف رأيتهما، قال مستدبرهما، قال فكيف استثبت رأسها قال تحاملت ثم دعا بشبل بن معبد فشهد بمثل ذلك فقال استدبرهما او استقبلتهما، وشهد نافع بمثل شهادة ابي بكره، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم، قال رأيته جالساً بين رجلي امراة، فرأيت قدمين مخضوبتين تخفقان، واستيين مكشوفتين وسمعت حفزاناً شديداً قال هل رأيت كالميل في المكحله قال لا، قال فهل تعرف المرأه قال لا ولكن اشبهها، قال فتنح وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد، فقال المغيره اشفني من الاعبد، فقال: اسكت، أسكت الله نأمتك، أما والله تمت الشهادة لرحمتك بأحجارك .

يبدو من الرواية التي تقدم نموذجاً رائعاً ودقيقاً لمذكرة اتهام تفصيلية ويبدو فيها سبب توافر الشهود مقنعاً وهو سبب فرضته ظروف البناء في عصر عمر بن الخطاب (رض)، ويبدو فيه موقف المغيرة ضعيفاً، ويبدو فيه وصف واقعة الزنا مثيراً وأن ضاهرة (ام جميل) كانت شائعة لدى عليَة القوم، ويبدو فيه أيضاً ان الحد كان على وشك ان يقام لولا أن زياداًفي اللحظة الاخيرة تلجلج في جزئيه أورثت شبهه حين قال أنه لم يتحقق من وجهها وأن كانت تشبهها. وزيادة في المعلومات فإن المغيره بعد ذلك كان أحد قاده معاويه، وعندما توطد الأمر لمعاوية، تذكر المغيرة فضل زياد عليه حين تلجلج في الشهاده، فتوسط له لدى معاويه الذي قبل الوساطه فنسبه إلى ابي سفيان وولاه البصرة، ثم أضاف اليه الكوفه، ولقب باسم زياد ابن أبيه، وذكر عنه التاريط من قسوة وبطش وأرهاب بقيت في أذهان الناس لزمن طويل).

هذه نبذة من سيرته تكفي لإعطائنا فكرة عن سياسة هذا الرجل. أما بالنسبة لأبي لؤلؤة، فقد قيل عنه انه أحد مفكري عصره، وكان عالما فيزيائيا اكتشف ما يشبه طاحونة الهواء، وقد كان يعاني من مشقة في حياته، ويأمل من سفره إلى الخليفة عبر

الصحراء وتحمل كل هذه المشقة إن ينصفه الخليفة ويصغي إليه. وعندما لم يلاق ما كان يتوقعه حصل له هذا الشعور بالحاجة للانتقام، خاصة انه كان يتمتع بثقة عالية بالنفس واحترام قومه له وأعتبر عدم إصغاء الخليفة له بمثابة مهانة كبيرة.

يتضح مما تقدم إن أبى لؤلؤة لم يقصد من مجيئه إلى المدينة الانتقام من الخليفة، بل إن هناك مشكلة متفاقمة في الكوفة كان يريد لها حلاً، ولكن نظام الدولة الإسلامية الفتية لم تضع آلية قادرة على حل مشاكل الأمصار البعيدة بصورة صحيحة. ولما حصل كل ذلك لو أن الخليفة قد أرسل شخصاً ثالثاً حيادياً ليطلعه على الوضع في الكوفة ويصدر حكمه بعد ذلك. ولم تنته الحكاية عند هذا الحد فبالإضافة إلى الخسارة الكبرى في مقتل الخليفة عمر بهذه الحادثة فهناك تفاصيل أخرى هي: (كان مع أبو لؤلؤة شخص آخر هو الهرمزان والذي كان نصرانياً وأسلم فلما مات عمر أقبل أبنه عبيد الله شاهراً سيفه حتى أتى الهرمزان فقتله، ويقول الرواة أنه لما أحس عض السيف وقال: لا اله إلا الله ثم أتى جفينه فقتله ويقول الرواة انه لما أحس الموت صلب بين عينيه. ثم أتى منزل أبو لؤلؤة فقتل ابنته. ولم تكد بيعة عثمان إن تتم حتى شاور المسلمون الذين حضروه في أمر عبيد الله بن عمر هذا الذي ثأر لنفسه بنفسه وثأر لنفسه عن غير بينة، فقتل رجلا مسلماً وقتل ذميين بغير الحق ودون إن يخوله السلطان قتلهما. فأما أهل البصيرة والفقه وفيهم علي بن أبي طالب فأشاروا بالقود، لأن عبيد الله قد تعدى حدود الله) [1]. وزعموا إن عمرو بن العاص قال لعثمان: قد أعفاك الله من هذه القضية، فقد حدث ما حدث وليس لك على المسلمين بسلطان. ويقول المؤرخون إن عثمان قال: (أنا ولي الهرمزان وولي من قُتل على يد عبيد الله، وقد عفوت وأدفع دية من قتل من مالي إلى بيت المسلمين) [2]. وقد أثار هذا العفو سخط بعض المسلمين لأن من يعفو عن عبيد الله كونه

---

(1) طه حسين، المصدر السابق، ص 65، ج1.

(2) طه حسين (الفتنة الكبرى) الجزء الأول، ص 66.

ابن خليفة ولأنه قتل مسلماً أعجمياً حديث العهد بالإسلام وآخرين من أهل الذمة. ففي هذا العفو ما يشبه أن يكون تمييزاً بين المسلمين، تمييزاً بين العربي والأعجمي. والله لم يفرق بين المسلمين فيما ضمن لهم من حرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم مهما يكن إباءهم ومهما تكن أجناسهم. وفي هذا العفو ما يشبه أن يكون إهداراً لدماء أهل الذمة على ما تقرر لهم في الدين من الحرمة ورعاية الحقوق ولو ترك الأمر على هذا النحو وأبيح لأبناء الخلفاء وأمثالهم من أبناء كبار الأنصار والمهاجرين إن يثأروا لأنفسهم بأنفسهم، يتبعون في ذلك شهواتهم ونزواتهم، ولا يرفعون أمرهم إلى السلطان، ولا يقيمون البينة على أصحاب ثأرهم لفسد الأمر وضاع العدل، وكانت الفوضى وطمست آيات الدين). هذا ومن الملفت للنظر إن المؤرخين والباحثين لم يعلقوا على مقتل ابنة أبو لؤلؤة بأي تعليق مما يدل على درجة احتقار المرأة في ذلك العصر حيث لم يدفع أحد دية على قتلها ولم يوجهوا لوماً على أحد. ربما يكون هذا الحادث واحداً من الأسباب التي أدت بأن يكون يوم مقتل الخليفة عمر بن الخطاب عيداً شعبياً لدى الفرس قديماً، يضاف إلى ما فعله الخليفة من إحراقه لكتابهم المقدس (الزندافستا) وما جرى لهم بعد فتح العراق وبلاد فارس من سبي وتقتيل. وقد استمرت مراسيم الفرح تقام كل عام والى وقت قريب. ولم تكن تلك المراسيم نتيجة عداء عابر قومي أو طائفي كما يزعم البعض، بل كانت لها أسبابها وجذورها التاريخية العميقة، وإلا لماذا عمر دون غيره من الخلفاء الراشدين الذين قتلوا غدراً. إن الكره أو المحبة لا يمكن إن تبنى على جهل أو بدون أي سبب ومهما تغاظى عنها الكتاب والباحثون فلابد وان تظهر الحقيقة في يوم ما. ولابد إن يكون لكل فعل رد فعل. وان مشاعر الناس لا تأتي من العدم. وبغض النظر عن جواز حصول تلك المراسيم من عدمها فإن ذلك هو الحال.

4. خلافة عثمان بن عفان:

لم يكن في ميسور عمر إن يتخذ أي إجراء في ما يتصل بمن يخلفه. وكان أبو عبيد ابن الجراح وهو أقرب الناس إليه بعد أبو بكر - قد توفي قبله، وليس بالإمكان إن نجزم ما إذا كان عمر نفسه هو الذي عين على فراش الموت أهل الشورى الذين فصلوا في المسألة بعد وفاته. وأجتمع للنظر في انتخاب الخليفة الجديد كلا من صهري النبي علي وعثمان وثلاثة من أقرب أصحابه إليه - عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص.أما طلحه الذي كان من المفروض أن يشترك في المؤتمر كعضو سادس فلم يكن في المدينة آنذاك وكل هؤلاء هم من العشرة المبشرين بالجنة[1] ⋆ . وقد اتفقوا بتخويل عبد الرحمن بن عوف في حسم الموقف بين إن يختار علي أو عثمان وكان في سؤاله الحاسم إلى الطرفين في إن يلتزم كلا منهما في حكمه بالقرآن والسنة النبوية وسيرة الشيخين، فلم يوافق الإمام علي بالالتزام في سيرة الشيخين. فوقع الاختيار على عثمان بن عفان الأموي الذي كان أقل الأعضاء شأنا بالمقارنة مع الآخرين[2]. وهكذا تولى الخلافة عثمان الذي أوصل الأمويين إلى القمة. لأن عهده كان في الواقع عهد أسرته وعشيرته[3]. فلقد ترك تصريف الشؤون لنسيبه مروان بن الحكم في المدينة، وعين أقرباءه حكاما على جميع الإمارات الرئيسية. ومن هنا رأى أصحاب النبي القدماء - الذين أثروا ثراءاً ضخماً أثناء الفتوحات والذين اقتنوا بالإضافة إلى أملاكهم الأصلية في حكمه، أملاكا مثلها في الطائف. وأدركوا إن مكانتهم القديمة توشك أن تضيع على يد هذه الأسرة التي تسعى إلى إن

---

(1) ⋆ إن العشرة المبشرين بالجنة الذين أوصى بهم الرسول محمد (ص) هم: علي وعمر وأبو بكر وعثمان وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد ابن نفيل.

(2) طه حسين (الفتنة الكبرى) الجزء الأول، ص 63

(3) كارل بروكلمان (تأريط الشعوب الإسلامية) ص 111.

تسيطر على كل شيء. وقد حاولوا بادئ الأمر إن يحرروا الخليفة من سلطان أسرته فباءت محاولاتهم بالفشل. وعندئذ أعلنوا الخصومة شخصياً. وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجد عثمان نفسه في المدينة وليس من حوله سوى نفر من الأصدقاء. خاصة بعد إن وقفت عائشة (زوجة الرسول) في جانب خصومه، وكذلك أستطاع أعداء الخليفة إن يستثيروا العرب في كافة الولايات، فانقلبوا على عثمان. وكان الوضع يتدهور وينذر بثورة عارمة ضده. فقد ملكت قلة قليلة من المسلمين أرض الأقاليم، ونشأت الملكيات الضخمة في عهد عثمان، أدت إلى انقسام الناس إلى شيع وأحزاب، ونتيجة لهذا النظام الذي استحدثه عثمان سواء أكان عن رأيه هو أو رأي مشيريه، أو كنتيجة طبيعية لاختلاف نمط الحياة بصورة تدريجية عما كانت عليه الحال أيام الرسول محمد (ص) والشيخين.

ولم تكن هذه النتيجة سياسية فقط بل كانت لها نتائج اجتماعية أيضاً. فقد بلغ نظام الطبقات غايته بحكم هذا التحول. فوجدت طبقة ارستقراطية عليا ذات مولد وثراء ضخم وسلطان واسع. ووجدت طبقة البائسين يعملون في الأرض، ويقومون على مرافق هؤلاء السادة. ووجدت بين هاتين الطبقتين المتباعدتين طبقة متوسطة هي طبقة العامة من العرب، الذين كانوا يقيمون في الأمصار ويغيرون على العدو ويحمون الثغور، ويذودون عمن وراءهم من الناس وعما وراءهم من الثراء. وهذه الطبقة المتوسطة هي التي تنازعها الأغنياء ففرقوها شيعاً وأحزاباً، والذي يتتبع تأريط المسلمين، يلاحظ إن الصراع الأول إنما كان بين الأغنياء ثم بين الطبقة الوسطى والأغنياء. فأما الطبقة الثالثة، طبقة العاملين في الأرض والقائمين على المرافق المختلفة، فلم يظهر أمرهم إلا بعد ذلك، ولها قصة أخرى [1].. فالفتنة في عصر عثمان إنما كانت عربية، نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء

---

(1) طه حسين (الفتنة الكبرى) الجزء الأول، ص 109.

الأغنياء. ولم يكن نظام عثمان هذا يذاع ويسرع الأغنياء إلى الانتفاع به، حتى ظهر الشر، وظهر في الكوفة قبل إن يظهر في أي مكان آخر. وظهر في مجلس سعيد بن العاص حاكم الكوفةآنذاك. فقد كان سعيد قد تخير وجوها معينة من الناس ليدخلوا عليه دون غيرهم من العامة، وليسمروا عنده في الليل. فقال ذات يوم: إنما السواد ـ سواد الكوفة ـ بستان قريش فتغاضب القوم، وكانت كثرتهم من اليمانية، وردوا عليه في ذلك رداً غليظاً، وقالوا له: إنما السواد في إفاءة الله علينا، وما نصيب قريش منه إلا كنصيب المسلمين. وغضب صاحب شرطة سعيد، لأن القوم ردوا على الأمير، فقاموا إليه فضربوه حتى أغمي عليه. فقطع سعيد سمره واحتجب عن هؤلاء الناس، فلزموا مجالسهم وأنديتهم، وأطلقوا ألسنتهم في سعيد وعثمان وقريش، وتسامع الناس بهم واجتمع بعض الناس إليهم. فكتب سعيد إلى عثمان ينبئه بأمرهم، ويذكر انه يخافهم من الفتنة. فأجابه عثمان إن يسيرهم إلى الشام، وكتب إلى معاوية يأمره بلقائهم واستصلاحهم. وهكذا اخرج سعيد هؤلاء الناس إلى الشام بأمر من عثمان. والشيء المهم هو إن سعيد قد نفى هؤلاء الناس عن أرضهم. ولم تقم بينة على أن هؤلاء الناس من القراء الصالحين وأصحاب البلاء في الفتح، قد حاربوا الله ورسوله أو سعوا في الارض فساداً، فهم لم يخلعوا يداً من طاعة، ولم ينكروا سلطان عثمان ولا سلطان واليه عليهم. وإنما كانوا يشهدون الصلاة مع هذا الأمير ويؤدون ما عليهم من حق. وكل ما في الأمر إنهم انتقدوا الأمير في بعض قوله، فما كان ينبغي أن يعاقبوا عليه. إن خروج هؤلاء الناس عن أرضهم بقوة السلطان، وإرسالهم إلى دار غربة لا يطمئنون إليها ولا يسكنون إلى أهلها، وسلبهم حريتهم إنما كانت عقوبة بغير حق ألقت بضلالها على وضع الدولة الإسلامية عموماً. ولم ينته الأمر إلى هذا الحد بل إن معاوية لم يقبلهم في الشام وأعادهم إلى الكوفة وبعد مراسلات بين سعيد وعثمان وهؤلاء الناس اضطر عثمان إلى عزل سعيد واختار الناس أبو موسى

الأشعري، ووافق عثمان على ذلك، وحصل شيء من الاستقرار ولكنه لم يدم إلا قليلاً، كانت تلك واحدة من الشرارات التي أنذرت باندلاع الفتنة ضد عثمان. إن هذه الحادثة البسيطة في الكوفة تعطي صورة عن حالة النظام في ذلك العصر، ومدلولاتها: أولاً: إن الولايات البعيدة التي كان يحكمها عمال الخلفاء، كانوا من غير أهالي تلك الولايات ولا يعرفون كثيراً عن طبائع الناس هناك، وثانياً: إن الاستئثار بالأرض والأموال، قد خلق نظاماً مقسماً إلى طبقات غنية ومتوسطة وفقيرة ينذر بالمشاكل العديدة لعدم الشعور بالرضا لتقسيم الثروة. وثالثاً: إن العصبية القبلية والتحيز بالإحكام لصالح القبيلة قد ظل متحكماً بشكل رئيسي في القرارات السياسية والاجتماعية والذي لا يزال متحكماً في عقول الحكام وأصحاب الشأن بدء في إفراز سلبياته عليهم. وكان في ذلك ابتعاد عن روح ومبادئ الإسلام الحقيقية. وهنا لابد من الإشارةإلى إن تلك المشاكل كانت تظهر للخلفاء دون قصد أو تخطيط مسبق من قبلهم. فإن مشكلة الثراء لقبيلة دون أخرى إنما كان نتيجة طبيعية لتوسع رقعة الدولة الإسلامية وأداء الفرائض والغنائم الناجمة من الفتوحات، بالإضافة لازدهار التجارة بين مختلف الأقطار والأمصار. إن حجب الثروة لجماعة دون أخرى قد تكون ناجمة عن الفرق في القدرات والخبرات والطاقات العقلية بين البشر، وهذا أمر طبيعي في كثير من الشعوب، ولكن كان غريبا بالنسبة للدولة الإسلامية الفتية والحديثة التكوين. إما استئثار قبيلة قريش بالثروة دون غيرها، فمن الواضح إنها مارست التجارة في العصر الجاهلي، واكتسبت خبرة في ذلك وكانت تحكم الجزيرة بالإضافة لانتساب النبي محمد (ص) إليها مع اغلب أصحابه. ولكن ذلك كان مخالفا للمبادئ الإسلامية وقد كان سبباً للفتنة الكبرى التي حصلت كما سنرى في الفقراة القادمة.

5. مصرع عثمان والفتنة الكبرى:

لابد لنا من سرد ملخص عن مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض)، لعلنا نقترب أكثر في تصور شكل الحياة الاجتماعية السائدة في ذلك الحين. وتفاصيل الأمر إن الجيش المحارب في إرجاء متفرقة من الأمصار، اخذوا يدركون شيئاً فشيئاً إن صخب السنوات الأولى من الفتح الإسلامي قد انتهى، وإنهم عملوا ما يتنافى مع مصالحهم الشخصية عندما تركوا الحكومة المركزية في المدينة تستأثر بجميع الغنائم العقارية، وذلك إن هذا الوضع قد مكن الدولة من الاستقلال بنفسها عن الجيش الذي تدين له بكل شيء، بعد إن تفردت بتوزيع الأجور الواجب دفعها، وصارت قادرة على الضرب على أيدي مثيري الشغب بالكامل. إن روح الاستياء كانت تعبر عن نفسها بين الحين والآخر عن طريق الهجوم على صندوق المال الإقليمي وسلبه، وعن طريق الاحتجاج على إرسال الأموال الفائضة إلى العاصمة بوجه خاص. وفي سنه 655 م أعلن زعماء الأمصار بان مجال النضال الفعال في سبيل الإسلام بات في المدينة المنورة أرحب منه في المقاطعات النائية الواقعة على حدود الإمبراطورية[1]. واندلعت قوة تتألف من ألف شخص في الكوفة وكان على رأسهم مالك الأشتر الذي كان مواليا للإمام علي شخصياً، ضد سعيد رغم إن عثمان قد استبدل سعيد برجل آخر هو أبو موسى الأشعري والذي يرضى عنه الكوفيين. وفي مصر لم يتورع عثمان من خلع عمرو بن العاص فاتح مصر وتعيين نسيبه عبد الله بن سعد بن أبي سرح حاكماً مكانه، على الرغم من إن النبي محمد (ص) قد أهدر مرة دم هذا الأخير واشتدت النقمة على عثمان في مصر وانضم عمرو في تشجيعها بالإضافة إلى محمد ابن أبي حذيفة وهو ابن أبي بكر بالتبني ومن شيعة علي المتحمسين. وفيما كانت إحدى المعارك البحرية الكبرى (معركة ذات الصواري) تدور على الشاطئ البلقاني بين

---

(1) كارل بروكلمان ــ المصدر السابق، ص 113.

الأسطول المصري و البيزنطيين في عهد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني، انسحب الناقمون من المعركة على ظهر إحدى السفن زاعمين إن جهاد الحق قد انتهى، ولما كانت السنة التالية سار جمع من العرب إلى المدينة ليشن هناك حرباً ضد العدو الداخلي. وفي سنه 656 م بلغ هؤلاء أبواب المدينة فإذا بمعظم أهل المدينة وأهالي أمصار أخرى، قد جاءوا من كل صوب يقفون إلى جانبهم، مما يدل على درجة استياء الجميع من عثمان الذي كان سيد أقوى إمبراطورية على وجه الأرض في ذلك الحين. وكان لا يملك في قصره جيشاً يدافع عن نفسه ضد الناقمين عليه. ومن هنا تعين عليه إن يباشر بالمفاوضات مع خمسمائة ثائر منهم فوفق لإقناعهم بالانسحاب واعداً إياهم بالعمل على إنصافهم وتحقيق مطالبهم. ولكن الأمويين لم يلبثوا إن اطلعوا رؤوسهم ثانية، وحملوا الخليفة على أن يؤكد في خطبة الجمعة التالية: أن المصريين إنما رجعوا إلى بلادهم لأنهم وجدوا أنفسهم على ضلال. فأستاء أهل المدينة لذلك حتى أنهم عيروا عثمان ورجموه بالحجارة فسقط مغشيا عليه، وحمله القوم إلى خارج المسجد الذي لم تطأه قدماه بعد ذلك قط. وتجمهر المدنيون حول منزل عثمان ورفضوا إن يتزحزحوا من أماكنهم ورجع معهم المصريون أيضاً، مدعين انه قد وقعت رسالة في أيديهم من عثمان إلى والي مصر يأمره فيها بالفتك بحاملي الرسالة عند وصولهم إليه. علما بأن الخليفة أنكر تلك الرسالة التي وضعت نصب عينيه. وطلبوا منه إن يستقيل ما دام من الممكن إن يجري مثل هذا العمل من دون علمه، ولكن عثمان رفض إن يحقق هذا الاقتراح الجريء. فحاصروا منزله حيث لم يدافع عنه غير نفر قليل من أنسبائه وبعض العبيد والموالي. وأستمر الحصار هذا مدة أربعين يوماً، وحال الثائرون بين عثمان وبين الماء، حتى أشتد الظمأ عليه وعلى أهله وعياله وحتى أشرف عليهم ذات يوم فذكرهم بأنه أشترى بئر رومة بأمر النبي

وجعلها سقاية للمسلمين، وأدخل إليه علياً شيئاً من الماء العذب[1]. وأشتد الكرب وشاع القتل وعظم البلاء، وجعل عثمان يشرف على الثائرين بين حين وحين فيعظهم ويحذرهم ويخوفهم الفتنة وردوه رداً عنيفاً وقد أجتمع القادرون على القتال من بني أمية، وأنضم إليهم شباب من أبناء المهاجرين، فدخلوا الدار وقاموا يحمونها ويحمون عثمان من الثائرين، وكان بينهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابنا علي ومحمد بن طلحه. وأمر عثمان عليهم عبد الله بن الزبير، وتقدم إليهم في إن لايقاتلوا. ثم جاءت الإنباء بأن أمداد العراق قد دنت من المدينة، وبان أمداد الشام قد وصل إلى وادي القرى. ويقول الرواة إن أهل الدار هم الذين بدؤا فناوشوا الثائرين. وقد رمى أحدهم بسهم من الدار فقتل واحداً منهم. وقال الثائرون لعثمان أدفع إلينا قاتل صاحبنا فنغير منه فقال عثمان: ما أعرف له قاتلاً فأدفعه إليكم. ثم حجزت بينهم ليلة منكرة. فلما أصبحوا هجم الثائرون على الدار يحرقون الأبواب، وخرج لهم أصحاب الدار يقاتلونهم، فأشتد القتال وجرح عبد الله بن الزبير وصرع مروان بن الحكم حتى ظن به الموت وقتل آخرون. واقتحمت الدار على أهلها وفي إثناء ذلك فتح عمرو بن حزم بابه وأنفذ من الخوضة أولئك النفر الذين انتهوا إلى عثمان فقتلوه (رحمه الله). وخرج خارج فأذن بالناس: لقد قتلنا أبن عفان ثم فتحت الأبواب ونهبت الدار ونهب بيت المال، ولم يتفرق الناس إلا وقد وقعت الواقعة وكانت الفتنة وصب على المسلمين بلاء عظيم. وتحدث الرواة بأن سعد بن أبي وقاص دخل على عثمان قبل إن يقتل، وسمع منه ثم خرج يطلب عليا حتى لقيه في المسجد، فقال له هلم يا أبا الحسن، إن خليفتك قد أعطى الرضا فأقبل فأنصره واسبق إلى الفضل في نصره. وإنهما ليتناجيان حتى جاء النبأ بقتل

---

(1) طه حسين (الفتنة الكبرى) ج 1، ص 212.

عثمان[1]. ودفنت امرأة عثمان ـ نائلة الكلبية ـ التي أصيبت هي الأخرى بجراح ـ جثة الخليفة الصريع في سكينة الليل يساعدها بعض الأصدقاء، وأرسلت بعض أصابع نائلة مع ثياب ملطخة بالدماء تابعة للخليفة عثمان إلى ابن عمه معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، والذي تمسك بها بعد ذلك في خطبه على المنبر ليستثير بها حماس الناس للأخذ بثأر الخليفة. وهنا أصبح المثل الشائع بقميص عثمان إلى يومنا هذا. حيث ثار عدد ممن لديهم أغراض مختلفة بحجة الأخذ بثأر عثمان والاقتصاص من قتلته[2]. أما الثائرون فقد تفرقوا دون أي مكسب سياسي محدد أو تغيير في نظام حكم كانوا يصبون إليه مسبقاً. ويشبه د.طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى ما حدث في هذه الفتنة في أول صدر الإسلام بما حدث في آخر الجمهورية الرومانية من هذه (اللاتيفونديا) التي أضاعت الجمهورية الرومانية. وهذه بعينها أضاعت الخلافة الإسلامية الراشدة. ففي ايطاليا ملكت قلة قليلة من الرومانيين أرض ايطاليا، فأنقطع الناس إليها وأصبحوا أحزابا وشيعاً. و ملكت قلة قليلة من المسلمين أرض الأقاليم، فأنقطع الناس إليها وانقسموا بينهم شيعاً وأحزاباً[3]. ولكن الفرق إن الرومانيين استطاعوا إن يغيروا النظام بشكل واضح ويضعوا نظاماً محله أصلح إليهم من السابق، إلا أن ذلك لم يحصل في البلاد الإسلامية. وهذه الحالة استمرت بعد ذلك في العديد من الأحداث التي حصلت بها فتن وثورات، ونذكر هنا ما حصل في العراق على سبيل المثال فقد ثار الثائرون في عام 1920 ضد الاحتلال الانكليزي للعراق، وعندما وافق المحتلون لتشكيل دولة مستقلة لم يجد أحد يختارونه لإدارة البلاد، وذهبوا يستنجدون بالشريف حسين شريف مكة لإرسال

---

(1) طه حسين (الفتنة الكبرى) ج 1، ص 214.

(2) كارل بروكلمان المصدر السابق ــ ص 114.

(3) طه حسين (الفتنة الكبرى) ج 1، ص 109.

ابنه فيصل ليكون ملكاً عليهم. كما لم يأت الثوار من الجيش العراقي عام 1958 ببرنامج واضح ومؤثر يؤدي إلى تغيير نمط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد، وكان جل اهتمامهم أن تزال الملكية دون نضوج خطة واضحة لما بعد هذا التغيير. وهكذا كانت المشاكل التي بقينا نعاني منها إلى الآن. فكان الثائرون على عثمان مثلهم مثل الثائرين على غيره ينهون مهمتهم بقتل الحاكم وترك الأمور مضطربة دون قيادة أو أهداف محددة يجنون ثمارها في الحال. وبقي هذا الإرث لدى بعض الناس المطالبين في الوقت الحاضر برحيل القوات الأجنبية قبل استكمال بناء البيت العراقي بصورة كاملة لنيل السيادة الكاملة. هؤلاء لا يبالون في عودة نظام جائر رغم كل القهر الذي أصابهم منه. أن هذا الإرث المتواتر في عدم رسم خطة واضحة بعد كل تغيير قد يكون ناجما من طبيعة النظام القبلي الذي عاش العرب في ظله لفترة طويلة من الزمن وذلك بالانزواء في ظله دون الحاجة الملحة إلى قيام نظام دولة بشكل مختلف عن المعتاد لديهم منذ القدم. وهكذا نجد إن ضعف سيطرة الدولة تؤدي بالنتيجة إلى انتعاش سيطرة وحكم القبيلة وعلى مر العصور وفي كافة إرجاء البلاد العربية. ولعلنا من هنا نقترب من فهم درجة مقاومة التغيير التي نعاني منها في الوقت الحاضر والناجمة من عدم حصول تخطيط مسبق لكل حركة تغيير سواء أكانت على شكل فتنة أو انقلاب عسكري أو ثورة شعبية أو غير ذلك. إن التخطيط المسبق والذي يضمن مستقبل أي تغيير في المجتمع كان يتعارض مع العقلية القبلية والبداوة الموروثة لدى المجتمع الزراعي الرعوي قديماً ولا تزال آثاره واضحة ومؤثرة في مجتمعنا الشرق أوسطي عموما في الوقت الحاضر.

6. خلافة الأمام علي بن أبي طالب:

تمت البيعة في الخلافة لعلي في المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام. وظهر إن الأمور قد استقامت لعلي في الحجاز والكوفة والبصرة ومصر عدا الشام التي كان يحكمها

معاوية ابن عم عثمان. وقد أصبح علياً إماماً للمسلمين بايعه من حضر المدينة من المهاجرين والأنصار، حيث لم يبق من أصحاب النبي من ذوي الحظوة في الخلافة سواه وطلحه والزبير. كانت بلاد المسلمين مضطربة وتفاقمت فيها مشاكل يصعب حلها. ولا نريد الخوض في كل التفاصيل والأحداث التاريخية لتلك الفترة فقد استوفى الكتاب والباحثون العديد منها نخص بالذكر منهم عباس العقاد ومحمد عبده وطه حسين وأبن حجر وأحمد أمين وأبن خلدون ومحسن الأمين وعلي الوردي ومحمد عابد الجابري وآخرون. لذا سوف ننتقي بعض الأحداث المؤثرة والتي تخص موضوعنا في الإرث التاريخي التي خلفتها تلك الأحداث.

مما لا يختلف عليه اثنان إن الإمام علي هو من أبرز الشخصيات الإسلامية التي ظهرت في صدر الإسلام، ولم يكن مجرد خليفة للمسلمين، بل كان صاحب فكر وعقيدة راسخة، عمل من أجل تكريس المفاهيم والقيم الإسلامية، ومن أبرز مؤلفاته (نهج البلاغة) رغم إن جمع هذا المؤلف قد جاء بعد وفاته بكثير وظهرت له تفسيرات مختلفة وعديدة. وكان من أبرز المساهمين في جمع الآيات القرآنية وتوحيدها. وهو يعتبر من أعلام البلاغة والنحو في اللغة العربية وساهم في وضع نقاط فوق الحروف العربية. بالإضافة إلى إنه كان من أعظم المجاهدين في الحروب التي خاضها المسلمون في حياة النبي منها حروب بدر وأحد والخندق وخيبر وحنين. وقد قتل علي جميع من بارزهم كائناً من كان، حتى أشتهر بين الناس في ذلك الحين إن علياً لا يبارز أحداً إلا قتله[1].. [2]. كما إن النبي قد تبنى عليا منذ طفولته الباكرة ورباه في بيته. ولما كبر علي زوجه النبي ابنته فاطمة. وربما كان النبي يرجو أن يأتي له النسل عن طريق هذا الزواج. لذا كان

---

(1) علي الوردي (وعاظ السلاطين) ص 186.

(2) هادي العلوي (خلاصات في السياسة والفكر السياسي الإسلامي) ص 98.

علياً ربيب النبي وزوج ابنته من ناحية وبطل من أبطال الجهاد في سبيل دعوته من الناحية الأخرى. وكان زاهداً وعادلاً ولا يحيد عن الحق مهما كلف الأمر. وأفضل ما قيل عنه: ـ (صدق إيمان بالله ونصحاً للدين وقياماً بالحق واستقامة على الطريق المستقيم لا ينحرف ولا يميل ولا يذهن من أمر الإسلام في قليل ولا كثير، وإنما يرى الحق فيمضي إليه لا يلوي على شيء ولا يحفل بالعاقبة ولا يعنيه إن يجد في آخر طريقه نجاحاً أو إخفاقاً، ولا إن يجد في أخر طريقه حياة أو موتاً، وإنما يعنيه كل العناية إن يجد إثناء طريقه وفي آخرها رضا ضميره ورضا الله [1] (وكان لا يهتم لمغريات الجنة ولا يخيفه عذاب النار فله قول مشهور في هذا المجال (آلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك) [2] هذا الحديث مشهور للأمام علي يدل على انه كان مؤمناً من الطراز الأول وليس لديه طمع مقابل هذا الأيمان.

لعل أول عمل فكر فيه علي بعد تفرغه من مبايعة أهل المدينة هو تغيير العمال في الولايات والذين عينهم عثمان لكي يستتب الوضع ويرضى الثائرين الذين قتلوا عثمان بسبب عماله. وأختار عثمان بن حنيف وهو من أعلام الأنصار على البصرة، بينما أرسل أخاه سهيل بن حنيف إلى الشام وأرسل قيس بن سعد بن عبادة إلى مصر. لكي يرضي الأنصار. أما الكوفة فقد اختار لها عمارة بن شهاب إلا أن أهل الكوفة لم يوافقوا بغير أبو موسى الأشعري، فرجع من حيث أتى. كما اختار علي ابن عمه عبيد الله بن عباس عاملاً على اليمن. وسار عمال علي إلى أقاليمهم لكن سهيل بن حنيف عاد بعد إن وصل إلى منتصف الطريق إلى الشام فقد أرسل إليه معاوية تهديداً صارماً ينذره بالعودة من حيث أتى، بحجة تصميم أهل الشام بأن يثأروا لعثمان، ونصبوا قميصه للناس

---

(1) طه حسين (الفتنة الكبرى) ج 2، ص 16.

(2) محاضرة خاصة عن (الإمام علي) للأستاذ محمد حسين الفرطوسي أستاذ اللغة العربية.

وجعلوا يلتفون حوله ويبكون، وتعالت الأصوات باتهام علي بقتل عثمان من أجل تهيئة الأجواء لقتال علي.

في نفس الوقت كان هناك تحريض آخر للفتنة بين المسلمين ألا وهو إن السيدة عائشة لم تكن مرتاحة لخلافة علي. وكانت مطالبها أن يثأر لعثمان ممن قتلوه، ثم يرد أمر المسلمين شورى بينهم فيختارون لخلافتهم من يريدون عن رضا النفوس. وهكذا تم التهيؤ للقتال متوجهين إلى البصرة وكان مع عائشة كلاً من طلحه والزبير. وهكذا بدأت الكارثة الأولى بوجه علي ولم يمض على توليه أمر الخلافة على المسلمين سوى ستة أشهر. فقد أرتحل طلحه والزبير وعائشة يريدون البصرة ومعهم ما يقرب من ثلاثة آلاف جندي، وصرف علي همه عن الشام وأزمع الخروج ليرد طلحه والزبير وعائشة عما هم عليه، إلا إنه لم يستطع اللحاق بهم، ولذلك أحتاط للحرب فمضى في طريقه وأرسل إلى أهل الكوفة من يستنفرهم لنصره. وباءت كل المحاولات الرامية إلى تفادي الحرب إلى الفشل ووقعت حرباً سميت بحرب الجمل، لأن عائشة كانت راكبة على جمل وأشتد القتال وراح ضحيته طلحه والزبير وعدد كبير من القتلى والجرحى من الطرفين انتهت بانتصار علي وخذلان عائشة إلى أن عادت نادمة إلى المدينة أشد الندم. هكذا كان تفكير القوم باتخاذ قرارات حاسمة مثل قرار الحرب. وكأنهم يذهبون في بادئ الأمر إلى نزهة. وبعد أن تقع المصيبة ويذهب من يذهب فهم يشعرون بالندم ولكن دون جدوى. بالإضافة لذلك فإن النصر الذي حققه جماعة الإمام علي قادهم لأن يكونوا حريصين على أن يضيفوا نصراً إلى نصر. وبدؤا بالتهيؤ لمواجهة خصمهم في الشام، في حين بدء الخاسرون في الحرب والمصرين على الانتقام بالذهاب إلى الشام للمشاركة في المعركة التالية. وهكذا بدأت حرباً تلد حرباً أخرى. ومن الجدير بالذكر إن حرب الجمل التي كان سببها الظاهري الثأر لدم عثمان هو إن قسماً من الذين يطالبون بهذا الثأر كانوا أنفسهم مع الثائرين، حتى طلحه والزبير اللذين قتلا في تلك الواقعة وهم من المبشرين العشرة

بالجنة كما أسلفنا، فأما الزبير فلم ينشط في الثائرين نشاطاً ملحوظاً ولم ينشط في تحريضهم أيضاً ولكن ظل يترقب وهواه مع الثائرين. أما طلحه فلم يكون يخفي ميله إلى الثائرين ولا تحريضه لهم ولا أطماع فريقه منهم في نفسه [1]. ولم تكن عائشة (أم المؤمنين) على وفاق مع عثمان وكانت دائماً تلقي اللوم عليه في محاباته لعشيرته. وقد اختار الطرفان وهم من أحب الناس إلى قلب النبي محمد إن يخرجا من المدينة ليذهبا إلى العراق في قتال ضار لم تكن منه في النهاية غير القتل والدمار وتخليف المشاكل تلو المشاكل ورغم إنهم بايعوا الإمام علي بالخلافة بالمدينة. ولسنا هنا في إن نبحث عن الأسباب وإلقاء اللوم على طرف دون الآخر كما فعل الكثير من المؤرخين والباحثين، لأن هذا خارج نطاق بحثنا وإنما ننتقي بعض الأحداث ذات الصلة بالمواريث التاريخية المؤثرة في حياتنا، وننظر إلى الأسباب المؤدية إلى تلك الأحداث من زاوية حركة تطور المجتمع المرحلية وتأثير مواريثهم التاريخية وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والمناخية على جعل تلك الأحداث تسير بالمسار الذي كانت عليه. وكانت واقعة الجمل هذه مثالاً لما يدور في أذهان الناس في ذلك العصر. فقد كانت الأسباب الظاهرية لتلك المعركة هو القصاص من قتلة عثمان. فلو فرضنا جدلاً إن عثمان قد قُتل من أشخاص محدودة ومعروفة في حين إن العملية جرت من خلال تجمع جمهور كبير يقدر بالآلاف وضمن فترة دامت أربعين يوماً [2]. وكان بالإمكان إن يكون القتلة أي مجموعة تدخل قبل الأخرى لأن جميع الحاضرين كانوا يبغون ذلك العمل. ولو إن القصاص العادل قد أخذ فعله من القتلة الحقيقيين، فهل إن المشكلة التي تسببت فيها الفتنة كانت قد انتهت؟ وكل ما آلت إليه الأمور في عصر عثمان من سوء في توزيع الثروة أو غيرها أو كانت قد وجدت لها حلاً وأصبح كل شيء

---

(1) طه حسين (المصدر السابق) ج 2، ص 7.

(2) طه حسين (المصدر السابق نفسه) ج1، ص 219.

على ما يرام؟ الجواب طبعاً كلا. لذا يمكن القول إن الأسباب الحقيقة وراء تلك الحرب والحرب التي تلتها في صفين بين معاوية وعلي لم تكن القصاص من قتلة عثمان، وإنما كانت في عدم اقتناعهم بتولي الإمام علي الخلافة على المسلمين، لأنهم يعرفونه جيداً كيف كان يريد إن يعيد الأصول والأحكام التي كانت سائدة في عصر النبي محمد وعصر الشيخين الراشدين. وكان متشدداً في إحقاق الحق وإعالة الفقراء وما إلى ذلك من قيم وأخلاق سامية. ولكن العصر قد تغير كثيراً بعد ما يقرب من ربع قرن على وفاة الرسول محمد (ص). لقد بدأ الناس ينظرون لدنياهم بعد إن انهالت عليهم الأموال من كل جانب ولذلك أصبحوا يميلون أكثر نحو من يقودهم إلى المزيد من الفتوحات لكسب المزيد من الثروات من خلال المزيد من الغنائم والجزية وغيرها.

7. معركة صفين:

لعل واحدة من أشهر المعارك بين المسلمين في ذلك الوقت هي معركة صفين التي دارت بين جماعة علي وجماعة معاوية على ضفاف نهر الفرات في منطقة تدعى صفين. فقد صمم الطرفان على إن يخوضا معركة بينهما دون إن تنفع كل الوساطات والرسائل التي دارت بين معاوية والإمام علي من محاولة لمنع سفك الدماء ولكن دون جدوى وتفاصيل تلك المعركة التي دارت في صفين معروفة في كتب التاريط. ولكن الذي يهمنا هنا بعض ما خلفته من آثار في ارثنا الثقافي وعلى هذا النحو:

سار معاوية في جموع أهل الشام حين علم بتأهب الإمام علي للمسير وقدم بين يديه الطلائع أيضاً. وقد انتهى قبل علي إلى صفين. فأنزل أصحابه أحسن منزل، وأرحبه وأقربه إلى شريعة الفرات. ولكن أصحاب علي لم يجدوا على الفرات شريعة يستقرون فيها فأرسل علي سفراءه إلى معاوية في ذلك فلم يضفروا منه جواب وعادوا إلى علي بغير طائل. ثم لم يلبث أصحاب علي أن رؤوا معاوية يكثر من الحرس على شرعة الفرات

ليقهر علياً وأصحابه الظمأ. ولذلك لم يكن بد من إن يقتتل الناس على الماء، وأشتد القتال على الشرعة، حتى أتيح النصر لأصحاب علي فغلبوا خصمهم على مورد الماء. وأرادوا أن يضطروهم إلى الظمأ ويقهروهم به كما كانوا هم يريدون بهم مثل ذلك، لكن علياً أبى عليهم ما أرادوا، وأثار العافية حتى لا يتعجل الحرب قبل الأعذار إلى خصمه وقبل مناظرتهم فيما بينهم من خلاف. وكره كذلك أن يظمأ خصمه والله قد أجرى النهر ليشرب منه الناس جميعاً لا يستأثر به فريق دون فريق. وهكذا أتيح للقوم إن يلتقوا آمنين أياماً، ليس بينهم قتال ولكن بينهم جدالاً شديداً. ثم رأى علي إن يرسل سفراءه إلى معاوية وأصحابه، فأختلف السفراء بين الفريقين دون أن ينتهوا إلى شي يشبه الصلح. فلما استيأس علي من خصمه عبأ أصحابه على راياتهم وجعلت تخرج إلى فرق معاوية، تخرج فرقه في هذا اليوم من أصحاب علي فتخرج لها فرقة من أصحاب معاوية فأقتتل الفريقان نهارهما. وعليّ لا يتجاوز ذلك إلى الحرب العامة رجاء إن ينوب خصمه إلى رشدهم وأن يفيئوا إلى أمر الله ويؤثروا العافية بين المسلمين. ولكن دون جدوى ومضى الأمر على هذا النحو شهراً واستبان للطرفان إن ليس بد من إن يصطدم الجمعان. والملفت هنا إن القوم إذا كفوا عن القتال آخر النهار سمروا، كما تعودت العرب أن تسمر، فتناشدوا الشعر وذكروا المآثر القديمة والحديثة وذكروا بلاء من حسن بلاءه منهم أو من عدوهم في أيامهم تلك[1]. من هنا لابد لنا أن نذكر كيف كان القتال لدى العرب يعد أمراً اعتيادياً وجزءاً من كيانهم ومهنتهم التي اعتادوا عليها منذ زمن بعيد. فبدلاً من تضميد الجراح والاستراحة والتهيؤ لليوم التالي للقتال كانوا يتسامرون ويمرحون في لياليهم بعد القتال في نهارهم. وربما كان هذا السمر يعكس صورة من صور الحياة التي كانوا يعيشونها في ذلك العصر الذي خلف إرثاً ثقيلاً للأجيال التي تلت ذلك والذي نحن

---

(1) طه حسين (المصدر السابق) ج2، ص 73.

نصددها. وهذا يذكرنا ما حصل في العصر الحديث أيام الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات من القرن الماضي حيث كان الجنود العراقيون والإيرانيون في الجبهة الجنوبية مثلاً يتفقون على أوقات معينة (أوقات الصلاة والغداء) لا يرمي أحدهم الآخر بالمدفعية، دون علم كبار آمريهم بهذا الأمر مما يدل على أن الشعبين لا صلة لهما بما اختلف الرؤساء عليه وهم ينفذون أوامر حربية غير مقتنعين بجدواها. وبعد إن سئم الطرفان الحرب المتقطعة الفاترة تعجلوا الكارثة، وتزاحف الجيشان العظيمان فالتقوا صباحاً فأقتتلوا نهارهم كله أشد قتال وأعظمه نكراً وانكشفت ميمنة علي، ثم ثاب بفضل مالك الأشتر ومن ثاب معه من أصحابه فألتئم جيش علي كعهده أول النهار. وأقبل الليل فلم يكف بعض القوم عن بعض وإنما مضوا في حربهم تلك المجنونة حتى استقبلوا صباح يوماً ثالثاً، وحتى ظهر الضعف في جيش معاوية، وهم معاوية نفسه إن يفر، لولا مبادرة من عمرو ابن العاص برفع المصاحف بين الطرفين والدعاء إلى ما فيه أمر الله بالكف عن الحرب وطلب اللجوء إلى التحكيم بين الطرفين. وقد سارع رؤساء الجيش من أصحاب علي يدعونه لقبول ما يعرض القوم. فيأبى عليهم أول الأمر ويبين لهم إن القوم ليسوا بأصحاب قرآن، ولم يرفعوا المصاحف تائبين إلى ما فيها وإنما رفعوها كائدين يبغون خصمهم الفتنة[1]. وقد أشتدوا بالإلحاح على علي بقبول وقف القتال وقد أضطر إلى ذلك كارهاً. وهكذا توقف القتال بعد سقوط أعداد كبيرة من الطرفين. وعلى إن يعقب ذلك تحكيم بين الطرفين، وكما هو معروف فقد كان عمرو بن العاص يمثل معاوية بينما كان أبو موسى الأشعري عن طرف الإمام علي. واجتمع المفوضون من الفريقين فكتبوا صحيفة سجلوا فيها ما أتفق عليه الخصمان من وضع الحرب، وإيثار الحكم واختيار الحكمين وتحديد الزمان والمكان لاجتماعهما وتأمينهما. وعلى الرغم مما

---

(1) طه حسين (المصدر السابق) ص 74.

رواه الكثيرون عن أمر رفع المصاحف على الرماح، إلا أن هذا الأمر غير مؤكد، لأن المصاحف لم تكن متوفرة بهذه الأعداد في ذلك الوقت أولاً، ولأن المصاحف لم تكن مطبوعة كما هو عليه الحال في يومنا هذا على ورق وبحجم صغير قابلة للرفع على الرماح أو فوق الرؤوس[1]، لأن الورق لم يكن قد وصل إليهم. وكان المصحف الشريف قد حفظ في دار الخليفة عثمان بعد جمعه بدقة ولم يستنسط بأعداد كبيرة كما يتصور البعض، ولكن رغم ذلك كانت هناك مكيدة قد دبرت لإنقاذ جيش معاوية من الفناء والعودة إلى الشام منتصرين.

وبعد اجتماع الطرفين المتفاوضين من أجل حل النزاع وجرت مناظرات طويلة ولأيام عديدة. اتفقا على اقتراح لأبي موسى أو عن اقتراح عمرو بن العاص على إن يخلعا من الأمر الخلافة للمسلمين كلاً من علي ومعاوية معاً، وإن يتركا للأمة أمرها شورى بينها تختار له من تشاء. لم يكن قد هيأ كلا من الطرفين أهدافا محددة قبل الاجتماع، وكانت هذه أول مرة تحصل وإن يفض النزاع في قتال لدى العرب بالمفاوضات والحوار، إذ لم تكن لغة الحوار في فض النزاعات قد تبلورت بعد في عقولهم، ولم يكونوا قد هيئوا لها مسبقا كما يجب. وهكذا سارت الأمور ليس فقط في تلك المعركة وإنما في جميع المعارك بعدها وعبر التاريط، وحتى في القضايا الاقتصادية والى يومنا هذا. فكم أضاع العرب من ثروات نفطية هائلة بسبب عدم قدرتهم أو تفوقهم في الحوار مع الشركات النفطية في الغرب ومنذ إن أكتشف النفط لديهم وإلى الآن.... وكم من دماء سفكت دون جدوى، كان بالإمكان حقن وإيقاف إراقتها لو كانت هناك ثقافة حوار وتفاوض يستطيعون من خلالها تفادي كل تلك المصائب. ونخص بالذكر منها ما عانينا نحن في العراق أيام الحرب العراقية الإيرانية، تلك الحرب العقيمة التي راح ضحيتها ما يقرب المليون شخص من كلا

---

(1) كارل بروكلمان ـ المصدر السابق، ص 118.

الطرفين. ولم تكن لتستحق قطرة دم بريئـة واحـدة، عـدا الخسـائر الماديـة الـتي يصعب حسـابها. ومهمـا تعـددت الأسـباب والـدواعي للحـرب إلا إنهـا كـان بالإمكـان حـل كـل تلـك الإشكالات والمعلقات بين الطرفين بالتفاوض. ولكن غياب الحكمة والعقل حال دون ذلـك، وحصل الذي حصل وآلت إلى ما آلت إليـه الأمـور والأحـوال كمـا هـو معـروف للجميـع. ولا يفوتنا إن نذكر المعارك التي جرت في إقليم كردستان العـراق طيلـة فـترة الحكـم الـوطني السابق ومنذ عـام 1946 ولغايـة 2003، فقـد راحـت مئـات الآلاف مـن أرواح الأبريـاء وتم تـدمير البنـى التحتيـة للبلـد وكانـت في غالبيتهـا تكمـن في عـدم القـدرة في إجـادة لغـة التفاوض والحوار البنـاء، وعـدم القـدرة في رسـم الأهـداف المستقبلية ووضـع الموازنـات في الأولويات وبالتالي القدرة في إقناع الطرف المقابل للوصول إلى الحل الأمثل.

وعودة إلى موضوع حرب صفين، فقد كانـت نتيجـة المفاوضـات بـين الطـرفين إن تفرق القوم عن غير شيء كأنهم لم يجتمعوا. وكان الظفر في هذا كله لمعاوية، فقـد رفعـت الحرب عن أصحابه وأتيـح لـه إن يـريحهم، وان يستعد لاستقبال أمـره أشـد قـوة وأمضـى عزماً وأعظم بأساً. وورط أصحاب علي في الخلافة والفرقة واضطرهم إلى الفتنـة وجعـل بأسهم بينهم شديدا [1]. إذ خرج عمرو بن العاص وهو يقول بـأن الاتفـاق تم علـى توليـه معاوية خليفة علـى المسلمين، وعلـى عكـس مـا أتفـق مـع أبـو موسـى الأشـعري مـن تـنح الطرفين عن الخلافة وكانت تلك جوهر المكيدة. وهكذا انتهت حرب صفين لتليها حـرب داخلية أخرى بين المسلمين إلا وهي حرب الخـوارج في النهـروان. فمـا لبـث مركـز علـي في العراق إن تضعضع إلى حد بعيد وهـو لا يـزال في طريـق عودتـه مـن صـفين عنـدما لامـه جماعة من جيشه معظمهم من بني تميم، لوماً عنيفاً على ما أبداه من استعداد للنـزول عند قرار هيئة التحكيم. وكان من رأيهم إن الحكم لله وحده. فانشقوا عن علي وانسحبوا

---

(1) طه حسين (المصدر السابق) ص101،ج2.

إلى قرية حروراء، غير البعيدة عن الكوفة. وانتخبوا أحدهم، عبد الله الراسبي خليفة عليهم، حتى إذا ذاع قرار هيئة التحكيم في الكوفة غادر عدد كبير من أشياع علي البلد كمهاجرين أو خوارج، وانضموا إلى إتباع الراسبي في حروراء. وكان زعيمهم قد أقام معسكراً على طريق بلاد فارس، وعلى جانب قناة النهروان عند مصبها في دجلة. وهنا جرت معركة أخرى تعرف بمعركة النهروان، فقد هجم جيش علي على الثائرين في 17 تموز عام 658 م [(1)] وهزمهم هزيمة شنعاء راح ضحيتها العديد من المسلمين كان من بينهم جماعة من أصحاب النبي المقربين وكانوا من أقرباء أهل البصرة والكوفة معاً [(2)].

يقول طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى) في هذا المجال ما يلي: (ظن علي إن الأمور قد استقامت له فلم يبق إلا أن يرمي جيشه هذا المنتصر أهل الشام، ولكن الشيء الذي لم يكن يفكر فيه علي، ولم ينتبه إليه أحد يومئذ هو إن الآلاف من الرجال الذين قتلوا في النهروان كانوا كلهم من أهل الكوفة وبعضهم من أهل البصرة، وليس منهم إلا من ينتمي إلى عشيرة في أحد هذين المصرين. وكثير منهم كانت عشائرهم في جيش علي ذاك الذي قتلهم. فقد كان عدي بن حاتم مثلاً مع علي في النهروان. وكان ابنه زيد في الخوارج الذين قتلوا. وما أكثر أبناء الأعمام الذين قتل بعضهم بعضاً في ذلك اليوم. وقل ما شئت في البواعث التي دفعت أولئك وهؤلاء إلى إن يقتل بعضهم بعضاً. كانوا جميعا مخلصين في الدفاع عما كانوا يرون إنه حق، وكانوا جميعاً يصدرون عن شعور ديني صادق لا شك فيه. ولكنهم كانوا جميعا ناساً يجدون في قلوبهم ما يجد الإنسان من الحزن على فقد الابن والأخ والصديق (. وبعد كل تلك المعارك وصلت إلى مدارك الناس في العراق إن لا جدوى من القتال بعد كل ما جرى. وكلما كان يحثهم الإمام علي على الجهاد لم يعودوا

---

(1) كارل بروكلمان ـ المصدر السابق، ص 120.

(2) طه حسين (المصدر السابق) ج2، ص 106.

يستجيبوا لندائه. فقد اعتادوا إن يذهبوا للقتال مع غير المسلمين ويعودوا ومعهم الغنائم والأموال والتوسع في سلطان الدولة وفتح مساحات أوسع إلى الدولة الإسلامية، في حين لم يحصدوا من كل تلك المعارك التي خاضوها من الجمل وصفين والنهروان سوى المزيد من الضحايا بين المسلمين والمزيد من الاضطراب في الثغور الشرقية منها والغربية فقد أخذ الروم يطمعون باستعادة الشام وهموا بالغزو فلم يتقهم معاوية إلا بالمال[1].

وهكذا بدأت كفة معاوية تقوى وتتعاظم شيئاً فشيئاً بينما بدأت كفة علي تضعف، رغم إيمان قومه بصحة وصواب رأيه وبأنه مع الحق ومع الله ومع الدين والرسالة السمحاء. من هنا نقول إن المبادئ والقيم الأخلاقية الرشيدة لا تكفي لوحدها إن تقام وتنتصر، وفي مقابلها ومنافسها مصالح اقتصادية ومنافع دنيوية واضحة المعالم. ومن وجهة نظر علي الوردي في كتابه (وعاظ السلاطين) ما يلي: (إن العرب التفوا حول الإمام علي في البداية ورحبوا به عند مجيئه الكوفة كخليفة للمسلمين جميعاً فكان قائدهم وشعار حركتهم الاجتماعية الإصلاحية. إذ استبدت قريش في بادئ الأمر وبالذات في أيام خلافة عثمان الذي كان ينتمي لإحدى أبرز أركان قبيلة قريش العربية وهم بني أمية. وثار العرب الآخرون يطالبون بالعدل والمساواة.

وقد أحست قريش أخيراً بالخطر الناجم عن نقمة العرب عليهم فغيرت سياستها نحوهم وأخذت تستميلهم بشتى الوسائل. وهكذا بدأ العرب ينفرون من علي شيئاً فشيئاً. فهم قد أحبوا علياً أول الأمر لأنه ثار ضد قريش المتعالية عليهم. ولكنهم حين وجدوه يساويهم بالموالي نفروا منه. لقد كان علياً يدعو إلى مبدأ المساواة بين الناس جميعاً، لا فرق بين شريف ومشروف أو بين عربي ومولى[2] (ولكن هناك عامل مهم وهو

---

(1) طه حسين (المصدر السابق) ص109.

(2) أحمد أمين (ضحى الإسلام) ج1، ص 23، عن علي الوردي (وعاظ السلاطين)، ص 205.

الاقتصاد فقد تغير الوضع العام بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عاما على وفاة الرسول، أيام بدء الدعوة الإسلامية وبعد كل تلك الفتوحات والغنائم التي حصلوا عليها. فقد تغير سلطان الدين على النفوس ولم يعد من القوة بالمقارنة عما كان عليه الحال أيام حياة الرسول والشيخين. بينما استأثر سلطان المال والسيف على القلوب والنفوس. وكل شيء يدل على إن علياً، والذين ذهبوا مذهبه في المحافظة على سيرة النبي والشيخين، إنما كانوا يعيشون في آخر زمان الذي غلب الدين فيه على كل شيء. وعلى العكس من ذلك كان معاوية، من دهاة عصره في إغواء الناس بالمال وكسب ودهم ورضاهم. فقد استطاع إن يبسط نفوذه في الشام، وشن حملة على مصر للاستحواذ على سلطانها ونصب عمرو بن العاص مرة ثانية عاملاً عليها. وبدء يتحرش ويطمع في ضم العراق إلى سلطانه، بعد إن أيقن إن علياً قد أخفق في بسط خلافته على كل أقطار الأرض الإسلامية. وفي الحقيقة انه لم يخفق بالمعنى الحقيقي للكلمة لسبب واضح للجميع، ذلك من خلال ما خلفه من مكانة ومنزلة وقيم وأخلاق لا يختلف عليها أثنين. لقد أخفق فنيا لما أراد إن تكون عليه أمور الدولة الإسلامية الفتية من بناء رصين مبني على الحق والعدل والشورى، إلا أنها لم تنجح بسبب عدم نضوج وتقبل الناس في تلك المرحلة الزمنية لمثل هذا البناء. وعادت كما هو معروف إلى عهدها السابق في حكم القبيلة ذلك الحكم التسلطي الاستبدادي القسري. وهكذا استطاع معاوية التخطيط لبناء الدولة الإسلامية المعروفة بالدولة الأموية لتكون أقوى إمبراطورية في العالم في ذلك العصر. وهكذا فقد سيطر الموروث التاريخي في سلوك التسلط وحكم القبيلة وفرض نظم القبيلة والبداوة بما فيها من قسوة وعنف في تسيير أمور الدولة الجديدة، التي أريد بها إن تقام على أسس أخرى أكثر تحضراً وثباتاً. من هنا نستطيع القول بأن هناك سلماً ثابتاً للتطور يعتمد على عوامل عديدة لكي يستطيع إن يتم استيعابه من قبل الأغلبية من الناس ويحقق طفرة مميزة في المجتمع أما المبادئ والأفكار السامية لوحدها فأنها لا تكفي ما لم تتغير معها الظروف

الملائمة والأرضية الخصبة لنموها ونضجها.وهكذا انتهت خلافة الإمام علي الذي كان آخر الخلفاء الراشدين الذين جاءوا لإدارة دولة المسلمين بعد النبي محمد (ص) وذلك عن طريق الاختيار بالشورى. انتهت بانتهاء الجماعة الذين عاصروا النبي وكانوا معه بالحماسة والحس والضمير نفسه ولكن ذلك قد انتهى بانتهاء الجيل كله ليأتي جيل آخر لا يعرف كل تلك الحماسة والزخم في التغير. بالإضافة للمتغيرات في الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي حصلت بعد ما يقرب من أربعين عاما على الهجرة النبوية وما أحدثه الإسلام من تغير في المنطقة عموماً، وما حصل من تغير في الوضع الاقتصادي للمسلمين في الشام خاصة والذين كانوا أشد حماساً من غيرهم في قتال البيزنطيين وكسب المزيد من الغنائم بقيادة معاوية.

8. مصرع الإمام علي ونهاية الخلافة الراشدة:

بينما كان الإمام علي يجاهد في سبيل أصحابه ليحملهم على النهوض معه في حرب الشام لإحقاق الحق وفرض سيطرة الدولة في كافة إرجاءها، ويبعث العديد من الوسطاء من أجل رد غارات معاوية على أطرافه في العراق والحجاز واليمن والتي أصبحت تأتي بشكل متتابع. ويجاهد ضد الخوارج الذين أصبحوا يجاهرونه بالعداء. وبينما كان ينصح الناس ويحثهم لدينهم في خطبه التاريخية المعروفة. كان هناك نفر من الخوارج يخطط للغدر والخيانة بالأسلوب الذي اعتادوا عليه في عمليات الاغتيال السياسي والناجمة عن إرث قديم في التخلص من الخصوم بطريقة العنف التي أشرنا إليها سابقاً. وقد اجتمعوا وائتمروا على إن يريحوا الأمة (حسب عقيدتهم) من ثلاثة زعماء كانوا أساساً في اختلاف أمة الإسلام وهم علي ومعاوية وعمرو بن العاص وأن يثأروا لإخوانهم بقتل علي من جهة أخرى. وهناك قصص عديدة رواها الرواة في عملية قتل الإمام علي إلا أن الأقرب إلى المعقول هو أنهم انتدبوا عبد الرحمن بن ملجم الحميري لقتل علي بينما آخران ذهبا

لقتل معاوية وعمرو بن العاص واتفقوا على يوم معين ينفذون فيه ما هموا عليه، واختاروا ساعة لاغتيال هؤلاء الثلاثة وكان ساعة الخروج لصلاة الصبح في اليوم السابع عشر من شهر رمضان لعامهم ذاك سنة أربعين للهجرة [1]. ولم تفلح خطة قتل معاوية وعمرو بن العاص بينما نجحت في قتل الإمام علي حيث ذهب عبد الرحمن بن ملجم هذا إلى الكوفة وأقام فيها يترقب يوم الموعد وساعته. ثم اقبل في آخر الليل ومعه رفيق له استعانه على ما أراد فأنتظر خروج علي للصلاة، فلما خرج تلقياه بسيفيهما وهو يدعو الناس لصلاتهم كعادته يومياً. فأصابه سيف بن ملجم من جهته حتى بلغ دماغه. ووقع سيف صاحبه في جدار البيت. وخر علي حين إصابته الضربة. وقد أخذ عبد الرحمن بن ملجم وقتل صاحبه وهو يحاول الفرار، وحمل علي إلى داخل داره، فأقام فيها يومين وليلة بينهما. ثم مات في ليلة اليوم الثاني (رحمه الله).

ويروي المؤرخون إن علياً أمر من حوله إن يحسنوا طعام ابن ملجم ويكرموا مثواه، فإن برئ من ضربته نظر، فأما عفا وإما اقتص. وأمرهم إن مات إن يلحقوه به ولا يعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. ويروى عنه كذلك انه كان يردد دائما (لقد فزت ورب الكعبة) والمقصود هنا انه تخلص من كل عناء المسؤولية الموكلة إليه في الخلافة ليذهب مستريحا إلى ربه. وهكذا انتهت خلافة الإمام علي بطريقة الغدر كما انتهت من قبله خلافة عثمان وعمر.

والملاحظ من الإرث التاريخي للعنف السياسي في البلاد، إن ثلاثاً من بين أربع خلفاء راشدين ماتوا غدراً، لتعود الدولة في إدارتها إلى الأسلوب القبلي الوراثي والذي استمر بهدوء نسبي وبدون مشاكل داخلية واسعة. فقد استطاع معاوية إن يعين عماله في الكوفة والبصرة ومصر والحجاز واليمن وتفرغ للتهيؤ لشن حملاته ضد البيزنطيين

---

(1) طه حسين (المصدر السابق (ج2ن ص 166.

من اجل توسيع رقعة الدولة في المزيد من الفتوحات. وفي ذلك كان يحاول تحقيق حلم الرسول محمد (ص) في السيطرة على بلاد فارس والبيزنطيين ولكن حكم الرسول كان بالأسلوب الإسلامي في نشر العدالة والمساواة من خلال نشر دعوة الدين الإسلامي. بينما كان معاوية يتستر وراء ذلك ويبغي المزيد من الغنائم والأموال. لقد مات الإمام علي ولم يمت في قلوب جماعته ودفن في النجف بالقرب من الكوفة وأصبح قبره فيما بعد واحدا من أقدس الأماكن لدى المسلمين وخاصة الشيعة. وأكتسب قدسية بعد وفاته لم يكتسبها إلا قليلون غيره، حتى إن الأرض المحيطة بالمقبرة أصبحت واحدة من أكبر المقابر للمسلمين يرومها الكثيرون لدفن موتاهم. وأكثر من ذلك فقد انتقلت القدسية هذه إلى ذريته من بعده والى يومنا هذا. لم يكن كل ذلك محض صدفة أو اعتباطا، وإنما كان وراءه أمرمهم لما فعله هذا الإمام من أعمال مؤثرة في النفوس، وصلت إلى ما وصلت إليه الحال إلى عصرنا هذا. لقد خلف أرثا كبيراً من القيم والمفاهيم الأخلاقية السامية ظلت تنهل منها الأجيال من بعده، بينما بالمقابل ازدهرت الدولة الأموية ماديا وآلت إلى الأفول ولم تترك ورائها قداسة أو قيم أخلاقية يقتدي بها الناس كما سنرى في الجزء الثاني من هذا الكتاب على الرغم من إنها كانت ضرورة تاريخية فرضتها المرحلة وأدت منافع أخرى في العديد من مجالات الحياة. ولابد من الإشارةهنا إلى إن عمليات الاغتيال السياسي في العصر الراشدي لم تقتصر على الخلفاء الثلاثة بل أمتدت لتشمل شخصيات إسلامية مهمة منها سعد بن عبادة زعيم الخزرج وأحد النقباء في بيعة العقبة التي مهدت لهجرة الرسول محمد (ص) إلى يثرب، وقد تم قتله في الشام في عصر الخليفة عمر بن الخطاب، ومالك الأشتر الذي اغتيل مسموماً وهو في طريقه ليتولى أمر ولاية مصر في عصر خلافة الإمام علي، ويقال إن ذلك كان بتدبير من معاوية [1]. وقد حظى مالك الاشتر هذا بوصية من

---

(1) هادي العلوي، المصدر السابق، ص 52.

الامام علي قبل وفاته وقبل مغادرته الكوفة بالتوجه إلى مصر لأخذ منصبه في إدارة مصر، وكانت تلك الوصية في كيفية الحكم ذات وقع أدبي عميق تدل على مستوى القيم الأخلاقية التي يتصف بها الإمام علي، لا بد من ذكرها هنا لكي تتضح الصورة في خلافه آخر الخلفاء الراشدين. وسواء كتبت تلك الوصية من بعده عن طريق الشريف الرضى أم أنها كانت أصيلة فإن الرجوع إليها يعطي إنطباعاً عن خبرة وتجارب الحكم في تلك الفترة الإسلامية الحرجة:

9. مقتطفات من وصية الإمام علي بن أبي طالب إلى مالك الاشتر

(إعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد عليها دول قبلك من عدل وجور. وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده. فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح. فأملِك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك،فأن الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحبت أو كرهت. واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فأنهم صنفان، أما أخ لك في الدين وأما نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمل والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فأنك فوقهم، ووالي الامر عليك فوقهم، والله فوق من ولاك. وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم. ولا تنصبن نفسك لحرب الله فأنه لا يدأ لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ولا تندمنَ على عفو ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة ولا تقولن أني مؤتمر أمرأ فأطاع فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين، وتقرب من الغير. . الخ).

ثـم يمضـي فيقـول: لـيكن أحـب الأمـور اليـك اوسـطها في الحـق، وأعمهـا في العـدل وأجمعها لـرض الرعيـة. فـإن سـخط العامـة يجحـف بـرضـى الخاصـة وأن سـخط الخاصـة يُغتفر مع رضى العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الـوالي مؤونـة في الرخـاء وأقـل معونـة له في البلاء، وأكره للانصاف، واسال بالالحاف، وأقل شكراً عند العطاء. وأبطأ عذراً عند المنع وأضعف صـبراً عـن ملمـات الـدهر مـن أهـل الخاصـة وأنمـا عمـاد الـدين وجمـاع المسلمين والعدة للاعداء العامة من الامة فليكن صفوك لهم وميلك معهم... الخ.

ثم يقول: لا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعـدل بـك عـن الفضل ويعـدك الفقـر ولا جباناً يضعفك عن الامور ولا حريصاً يزين لك الشر بالجور فإن البخل والجبن والحـرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله. ان شر وزرائك مـن كـان للاشـرار قبلـك وزيـراً، ومـن شاركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فـأنهم أعـوان الاثمـة وأخـوان الظلمـة وأنـت واجـد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهـم ونفـاذهم ولـيس مثـل آصـارهم وأوزارهـم ممـن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثما على إثمه. أولئـك أخـف عليـك مؤونـة وأحسـن لـك معونـة وأحنى عليك عطفاً وأقل لغيرك ألفا.... الخ. ...

ثم يقول: لا تنقضي سُنّةً صالحة عمل بها صدور هذه الأمـة وأجتمعـت بهـا الألفـة وصلحت عليها الرعية ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضـي تلـك السـنن فلـيكن الاجـر لمن سنها. والوزر عليك بما نقضت منها. ..الخ.

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صـلاحه وصـلاحهم صـلاحاً لمـن سـواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال علـى الخـراج وأهلـه. ولـيكن نظـرك في عمارة الأرض أبلغ مـن نظـرك في أسـتجلاب الخـراج لان ذلـك لا يـدرك الا بالعمـارة. ومـن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمـره الا قـليلاً فـإن شـكوا ثقلاً أو علـة أو انقطـاع شـرب أو بالـة أو إحالـة أرض أغمرهـا عـرق أو أجحـف بهـا عطـش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يـثقلن عليـك بشـيء خففـت بـه المؤونـة

عنهم، فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من أجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفعك بهم. .. الخ.

ثم يقول: (إستوصي بالتجار وذوي الصناعات وأوصي بهم خيراً، والمقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فأنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لم يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فانه سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضوتك وفي حواش بلادك. واعلم مع ذلك ان كثير منهم ضيقاً فاحشا قبيحا واحتكار للمنافع، وتحكما في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة. فأمنع من الاحتكار.. الخ.

(لا تطولن احتجابك عن رعيتك فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبةٌ من الضيق وقلة علم بالامور... الخ.

ثم يقول: إن للوالي خاصة وبطانة فيهم إستئثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة فأحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الاحوال.

ولا تدفعن صلحاً دعاك اليه عدوك ولله فيه رضى فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمنا لبلادك. ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن. . الخ.

إياك إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فأنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا احرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها. والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة. فلا تقوين سلطانه بسفك دم حرام فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله.

إياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسك ليمحق ما يكون من إحسان للمحسنين. وإياك والمن على رعيتك

بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك فإن المن يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس.

كانت تلك مقتطفات من وصية الإمام علي لمالك الاشتر يتضح فيها عمق تجربته وعلمه وزهده وعظمته (رحمه الله).

وهناك مقولة أخرى للإمام علي مأثورة وذات مغزى فلسفي عميق تستحق الذكر هنا وهي: (لا تعلموا أولادكم بمثل ما علمتم به لأنهم ولدوا بزمان غير زمانكم (. وهذا يعني أنه مدرك للتطور الحاصل والذي يحصل بمرور الزمن نافياً بذلك كل الحجج الداعية إلى التمسك بنصوص وتعاليم الأقدمين والتي لا تنسجم مع تطور العصر.

10. مناقشة ما ورد في تاريخ حضارة وادي الرافدين :

أن التفاخر بأمجاد الماضي والأدعاء بقدم الحضارة وعراقتها يتطلب منا دراسة ومعرفة مدى تأثير تلك الحضارة على واقعنا الحالي، وتحديد نقاط قوة وضعف النشأة الأولى، وماتبقى من كل تلك الأحداث من موجات ترددية داخل عقولنا وتأثير تلك الموجات في حياتنا الاجتماعية والسياسية والنفسية، سواء أكان ذلك الموروث قد أثر تباعاً في السلسلة التاريخية اللاحقة وما آلت اليه الأحداث التي أوصلتنا إلى مانحن علية الأن، وماهو حاصل ولايزال يعيش فينا وفي عاداتنا وتقاليدنا دون أن ندرك ذلك بالتفصيل. وقد أوردنا العديد من المواريث التاريخية في حضارة وادي الرافدين ولو بشكل سريع جداً وبلمحة خاطفة جداً لأن الغور في هذا المجال يحتاج إلى مجلدات وكتب عديدة ومن يرغب في التفاصيل الدقيقة عليه أن يرجع إلى المصادر المشار اليها في هذا الكتاب، وضمن النظرة السريعة هذه برزت ثلاثة نقاط رئيسية لابد من مناقشتها من أجل الوصول إلى زيادة في فهم المجتمع العراقي وبقدر تعلق الأمر بموضوع بحثنا عن تأثير المواريث التاريخية في حضارة وادي الرافدين القديمة علينا وكما يلي: -

أ . تـأثير نشأة المعتقدات الدينية في فلسفة الحيـاة:

لقـد نشـأت الأفكـار والمعتقـدات الدينيـة في عقـل الإنسـان الـذي كـان يقطـن بـلاد الرافدين منـذ الآف السنين وتـرسـخت في كيانـه وعقلـه وأصبحـت ذات تـاثـير مباشـر علـى حياته وسلوكه اليومي في كل المجالات، مثل حياته الاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسـية ونظرته للأمور والظواهر الطبيعية المحيطة بـه. أن قيـام حضـارة وادي الرافـدين علـى قاعدة دينية جعلت التركيز من قبل العلماء والكهنة في كافة مجالات المعرفة منصبة على كشـف رغبـات الآلهـة وتنفيـذ كـل تلـك الرغبـات لأرضـائهم ولحمايـة النـاس وتـأمين مستقبلهم. وهذا هو السبب الذي جعل التقسيم الحديث للفكر والمعرفة إلى فنـون وعلـوم تطبيقية من جهة وأمور فلسفية مـن جهـة أخـرى، تبـدو غريبـة عـن تصورهم، حيـث أعتبروا كل العلوم ذات أهمية متساوية ولم يستطيعوا ملاحظـة عمليـة النشوء والتطـور من خلال تـراكم المعرفـة والخـبرة لـدى العقـل البشـري عـبر العصـور، كمـا هـو حاصـل في عصرنا الحديث. ومع أنهم عالجوا قضايا لاتقل شأناً وخطـورة عمـا كـان يشـغل الفلسـفة اليونانيـة والفكـر الحـديث، إلا أن تفكيرهـم في معالجتهـا جـاء خياليـاً وشـعرياً وأسـطورياً. وغاب عنهم المنهج الموضوعي الذي تمسك به فلاسفة اليونان من أمثال أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم والذي بني على أساس الأستقراء والأستنتـاج. وقد تمت الإشارةإلى سـبب ذلك من خلال الظروف والمخاطر الطبيعية التي كانوا يعيشون فيها. لقد أسس المفكرون في بلاد الرافدين القدماء علومهم وفنونهم في مبادئ تستند علـى الخيـال ومـا يعـرف بمـا وراء الطبيعة (الميتافيزيقية) وهي بعيدة عن القواعد الفيزيائيـة (الطبيعيـة) الملموسـة فأوصدوا الباب أمام الجهد المثمر عن تفسيرات عقلانيـة لنشأة الظواهر الطبيعية المحيطة بهم. رغم أنهم قدموا للبشر مجموعة من العوامل الأساسـية في التطـور اللاحـق كالفخـار، الكتابة، أسس الفلك والرياضيات والطب لاحقاً وكشفوا الكثير مـن الأجوبـة عـن الأسـئلة التي تخص التساؤل في (متـى و مإذا) يحدث هذا أو ذاك من تلك الظـواهر الطبيعيـة، إلا أن النظرة الفوقيـة (الطوباوية) لتلك الأمور قد منعتهم من أن يتسـاءلوا عـن (كيـف و لمإذا)

حدث هذا أو ذاك من تلك الظواهر ولم يجربوا أبداً تاسيس نظرياتهم في هذا المجال، طالما أقترن أسلوبهم بالتفكير على التركيز في مبدأ التمثيل القياسي، أي تفسير وقوع الحدث بما كان يحدث سابقاً عليه، فعلى سبيل المثال كانوا دائماً يفسرون موت صاحب الدار بعد نعيق الغراب الذي نزل على سطح داره، أذ أن الغراب جاء منذراً بقرب ساعة موت صاحب الدار قبل حصول الوفاة [1] وهكذا حصرت هذه الحضارة العقل البشري وكافة فروع الحياة في مجالات فكرية محددة تحيطها أعداد ضخمة من القيود والمحرمات والممنوعات، لأن الدين هنا أصبح وعاء تلك الحضارة وحاضنتها دون منازع، وعاملاً مستقلاً محدداً ومقيداً لحركة وتطور عناصرها الدنيوية، والتي أصبحت تابعة للدين. وعلى خلاف ذلك تمسك الغرب بالفلسفة اليونانية المبنية على مبدأ (كيف و لماذا) حصل هذا وذاك من الظواهر بأسلوبها المعتمد على تفسير ماهو محيط بهم دون قيود، وهكذا بنيت حضارة الغرب بعد الآف السنين من بداية حضارة الشرق الأدنى، الا أنها شقت طريقها في تحريرها للعقل البشري وراحت تنطلق بلا حدود نحو أكتشاف المجهول ووفرت حرية النمو والتطور لعناصرها الأساسية، وأكثر من ذلك، أصبح الدين نفسه كأحد عناصر تلك الحضارة ومتكيفاً معها وعيناً لها. لقد ارسى فلاسفة اليونان أسس وقواعد الحضارة الغربية الحديثة والتي أصبحت بعد ذلك سمة الحياة كافة وتغلبت على كافة الأفكار الخرافية في جميع أرجاء المعموره، لما أضافت الية تلك الحضارة من بناءٍ فوقي كانت أساساً لكل العلوم والتقنيات الحديثة، وبقي الشرق عموماً ومنطقتنا الشرق أوسطية خصوصاً مقيدة بمفاهيم وأغلال عاشتها في الماضي ولايزال يعاني من ثقلها وتأثيراتها حتى في أستيعابها وتقبلها في الوقت الحاضر. وهكذا اصبحت مساهمتنا في بناء الحضارة الحديثة في مجال علوم التكنولوجيا ضئيلة جداً وتكاد تكون مخزية حسب التقارير المرفوعة حديثاً من قبل هيئة الأمم المتحدة وخاصة التقرير السنوي الذي أثار

---

(1) جورج كونتينو 365 (المصدر السابق). عبد الوهاب حميد رشيد 218 (المصدر السابق).

ضجة كبيرة في 2002 والخاص بمنطقة الشرق الأوسط خاصة بالشأن الثقافي. ان هذا الأمر واضح وبدون الرجوع حتى إلى تفاصيل تلك التقارير فإن الممارسات اليومية والواقع الذي يعيش فيه الشرق الأوسط يعتبر متخلفا جداً عما هو علية الحال في الغرب المتطور. ولو أخذنا نسبة مساهمة علماءنا في الأكتشافات الأصيلة بالمقارنة مع مساهمة البلدان الغربية لوجدنا أنها لاتساوي شيئاً على الأطلاق. ومن هنا أيضاً جاءت الأزدواجية في شخصية وتفكير الفرد في الشرق الأدنى عموماً والعراقي خصوصاً في العصر الحديث، والتي كتب عنها علماء الأجتماع كثيراً وكان أولهم عالم الأجتماع المغربي (ابن خلدون) حينما ركز في مؤلفاته وبالذات (مقدمة أبن خلدون) على تفسير الموروث الثقافي القديم وتقبل الأفكار والمكتشفات الحديثة ذات الطابع الملموس والواضح على الأزدواجية في سلوك وطريقة تفكير الفرد في عصرنا الحديث[1].

كما ركز د.علي الوردي (عالم الأجتماع العراقي المعروف) على تلك الأزدواجية في العديد من مؤلفاته وبالذات في (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) والذي نشر عام 1965. أن تفكير الإنسان في مجتمع بلاد الرافدين القديم والمعتمد كليا علىالآلهة كقوة خارقة وخالدة، وأن سير الأحداث وخلقها جاءت في كلمة (كن) فيكون حسب ماأسلفنا في موضوع العقيدة الدينية لدى بلاد الرافدين، قد ظل مطبوعاً في فكر الإنسان الرافديني والتي منعته من التفكير في كيفية حصول الأشياء بمراحلها المختلفة وكيفية تطوير حياته وحل مشكلاته بنفسه بحرية. فكان لا يتورع في منع وباء أو درء خطر فيضان مثلاً، بقدر أو بآخر ضناً منه في أن ذلك العمل من أختصاص الآلهة، وأن عمله هذا غير مقبول، بل وقد يؤدي إلى غضب تلك الآلهة ولامجال من صد تلك الأخطار سوى الطاعة والقبول بالأمر الواقع وعدم الأعتراض على أرادتها، أما المجال الوحيد في درء تلك الأخطار

---

(1) ابن خلدون (مقدمة ابن خلدون) دار القلم، الطبعة الأولى بيروت (1987) 90.

(حسب أعتقادهم) هو تأدية الواجبات والألتزامات الدينية المناطة بهم حسب تعليمات الكهنة لأرضاء تلك الآلهة المسئولة عن حمايتهم من تلك الأخطار، وهكذا بقيت المنطقة على حالها من دون إقامة سدود منيعة لمنع تلك الفيضانات أو أكتشاف سبل لمنع إنتشار الأوبئة. وهكذا لم تتسلم تلك الحضارة في الصعود بوتيرة واحدة نحو التطور والصمود بوجة كافة المخاطر التي واجهتها، ولم نجد منها نحن في عصرنا الحديث سوى الأحجار والمنحوتات وبعد عناء من الحفر والتنقيب للتعرف على كل معالمها وأبعادها. فبرغم عظمة تلك الحضارة وقدمها وعمقها، الا أنها للأسف الشديد بقيت داخل شرنقتها دون أن تستطيع تحطيم تلك القيود وتحرير العقل.

أن الاعتقاد بالنصيب والقضاء والقدر منذ ولادة الفرد وطيلة فترة حياته والى مماته قد أوصدت بذلك كل طموح وآمال ذلك الفرد والمجتمع برمته في تحسين مستوى حياته وتطويرها نحو الأفضل والتمتع بما فيها من فرح وبهجة. ومن هذا المنطلق أيضا وجدنا أن الإنسان في منطقة بلاد الرافدين كان محافظاً على أسلوبه ونمط حياته وأدوات عمله وطريقة غذائه وملبسه وكل عاداته وتقاليده الاجتماعية منذ الآف السنين ولحد الآن دون حصول تغييرات جذرية ملموسة، وإذا ماحصل وتطور فإن ذلك يعود بالأصل إلى الأقتباس والتقليد من الغرب الأكثر تقدماً من الناحية العلمية والتقنية على الأقل. وهكذا حصل الأصطدام الفكري عندما تواصلت الحضارات وأصبح الأختلاط بالعالم الأكثر تحضراً أمراً لابد منه ولايمكن تجاهله، وذلك من خلال تشابك المصالح وتطور وسائل النقل وبقية وسائل الأتصالات المختلفة، وقد أدى ذلك إلى صراع فكري يعرف بصراع الحضارات مابيننا وبين حضارات قامت على أسس البحث والتقصي والتفكير العلمي المتواصل المبني على السببية والأستنتاج الحر الخالي من القيود، كتلك الحضارات التي قامت في الغرب. وكان نموها متسلسلاً وعبر قرون من أنواع الصراعات والحروب، الا أنها على الرغم من كل تلك الصراعات والحروب، أستطاعت أن تبني صرحاً متيناً لايقبل

الفناء والضمور نظراً لأن ذلك البناء كان مستنداً على اسس متينة وراسخة، بينما بالمقابل أعتمدت الحضارات الشرق أوسطية على أسس ميتافيزيقية بعيدة عن التساءل عن كيف ولماذا؟ وهكذا ضاعت تلك الجهود المضنية التي بذلها السومريون والبابليون القدماء ودفنت معهم تحت التراب بعد كل ماقدمته للبشرية من خدمة في معارف الإنسان البسيطة. أننا أذ نثمن جهود وحضارات الأقدمين لدينا في توصلهم لتلك المعارف والمعالم الفنية المختلفة آنفة الذكر عبر الآف السنين التي مضت والتي كانت ضمن سلسلة تطور العقل البشري عموماً، لابد لنا من الأعتراف بأن ماوصلنا من علم ومعرفة وفلسفة من الغرب كانت الأساس في حصول القفزة الهائلة في نمط وأسلوب حياتنا في العصر الحديث، ولابد لنا من أعادة النظر في بعض مخلفاتنا الفكرية التي كانت قد أعاقت من الأستمرار في النمو والتطور بشكل يضاهي حضارة الغرب الحديثة ومحاولة استيعابها والتخلي عما هو سيء منها والبقاء على ماهو صالح. ولايمكن أن يأتي ذلك الا بأتباع منهج البحث والتقصي العلمي بعيداً عن الغيبيات والميتافيزيقيا المقيدة للعقل بأغلال وسلاسل راسخة.

ب. موروث الفكر الشمولي في السلوك والحكم:

أن أعطاء صفة السلطة الآلهية وتنفيذ أوامرها وتعظيمها، ذلك الأعتقاد الذي أختاره القوم منذ بداية نشأة السلالات السومرية القديمة، والذي كان أسلوبهم المفضل في أدارة وتسيير شؤونهم الحياتية في ذلك الوقت، قد جعل من نظام الحكم الدكتاتوري (الشمولي) المتسلط على رقاب الناس وتوارث ذلك الحكم من الأب إلى الأبناء أمراً راسخاً في الأذهان يصعب أزالته أو أستبداله بنظام آخر، يستمد قوته وشرعيته من قوة الشعب، ويعتمد عليهم في تمشية أمور البلاد الحياتية. في حين جعل فلاسفة اليونان مسألة أرساء أسس الديمقراطية مفهوما ثابتا في كيفية أختيارهم للحاكم قبل أكثر من الفي عام. أن

نظـام الحـاكم الآلهـي القـديم في بـلاد الرافـدين كـان منسـجماً مـع النظـام الأجتمـاعي والأقتصادي القائم علـى أسـاس الأحـرار والعبيـد، وقـد أسـتغل في تسـخير العبيـد لخدمـة الطبقة الحاكمة وأزداد تضخيماً لتلك المفاهيم من أجل المزيد من سيطرة الحـاكم الألهي في بابل، اذ كان يبطش في النـاس بطشاً لايمكن وصفه، وكمثـال علـى ذلـك ماجـاء في قصـة النبي دانيال في التوراة وفي الكتـاب المقـدس (العهـد القـديم) في سـفر النبي دانيـال (عليـه السلام) وملخص مادار هو: أن النبي دانيال كان مقربـاً مـن الملـك نبخـذ نصـر أحـد أشـهر ملوك بابل، وعندما أستطاع ثلاثة من مقربي النبي دانيال من أقناعه بأن يقـدموا علـى الملك نبوخـذ نصـر ويقولـوا لـة بـأن القـرابين الـتي تقـدم يوميـاً إلى الآلهـة أنمـا تـذهب في حقيقة الأمر إلى الكهنة، عندما يتفرغون لها في الليل ويأكلونهـا لوحـدهم بعـد أن يـذهب الناس إلى بيوتهم، فغضب علـيهم ولم يتقبـل ذلـك الكـلام وأمـر بجمـع الحطـب مـن أجـل حرقهم أمام أعين الناس جميعاً عقاباً على مانطقوا به عن الآلهة. ولكـن صـديق لـدانيال أستطاع أنقاذهم من الحرق بطريقة بهلوانيـة فنيـة إنطلت عليهم ودون أن يكشفها أحـد. وكان هذا الشخص المدعو حبقوق نـبياً ايضاً ومـن أحد أنبيـاء اليهود الـذين جـاءوا إلى بابـل كأسرى بعـد السـبي البـابلي. وهكـذا أسـتطاعت المجموعـة أن تثبـت للملـك البـابلي صـحة قولهم من خلال المعجزة الخارقة التي قاموا بها... الخ [1]. وتدل القصة على مـدى القسـوة التي كانت تمارس من قبل الملوك على الناس، وبغض النظر عن مدى صحة القصـة هـذة وغيرها، من حيث حصولها في أرض الواقـع أو كونهـا قصـة مختلقـة، الا أنهـا تعطـي دلالـة واضحة على مدى ممارسة العنف والتسلط المطلق من الملوك علـى النـاس في ذلـك العصـر. أن الخـوف مـن الكـوارث الطبيعيـة كالفيضـانات والتهديـدات بـالقحط وأنتشـار الأوبئـة

---

(1) الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد (أصدار دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، لبنـان (1995).

والتهديدات الخارجية من الأقوام الغرباء الذين كانوا يجتاحون تلك المناطق لأغراض السلب والنهب، قد جعلت أنسان بلاد الرافدين يفتش عن وسيلة في حماية نفسه وعائلته وبالطريقة المتاحة له في تفكيره وذلك باللجوء إلى الألة الحامي. ومن يمثله في أرضه وهو الملك أو الحاكم في تلك المنطقة. وهكذا كانت الأفكار السائدة منسجمة لمصلحة الطرفين، العبيد من جهة والأحرار أو العائلة المالكة من الناحية الثانية، أذ أصبح ولاء الناس وطاعتهم للحاكم أو الملك جزءاً من واجب يؤدونه لغرض حماية أنفسهم من تلك المخاطر. كما ظل الملك يعد العدة ويقود الجيوش من أجل أبعاد الأعداء عن أمته وجلب المزيد من المكاسب والمؤن لعائلته في مقابل ذلك. وهذا الأنطباع ظل راسخاً فينا لأجيال وقرون. ونذكر هنا درجة التنافس التي كانت قائمة عبر التاريط والى فترة قريبة بين العوائل المقربة من السلطة من أجل التنافس والفوز بمنصب الرئاسة، وهذا ماكان يدور في عقل أغلب الحكام المتسلطين. ولابد لنا أن نذكر هنا فترة حكم صدام حسين وزمرته، فكان يحكم بفكرة أن كل شيء يجب أن يسخر للحاكم، وأن مصير الأمة ووجودها يتوقف على وجود قائدها القوي الذي يحافظ عليها من الأعداء. وهكذا ظل الشعب العراقي يعيش فترة خمسة وثلاثون عاماً ضمن هذه الفلسفة كوسيلة لتبرير تسلطه وأشباعاً لرغباته. وظل كذلك يلقن الأطفال لجيل كامل بهذه العقلية أي أن الأمة بقائدها ولايهم إذا ذهبت كلها إلى الفناء والدمار على أن يبقى هو (أي القائد الضرورة) حياً وسليماً ومايدمر أو يخرب يمكن أصلاحة وأعادتة إلى ماكان علية وليقطع لسانه كل من خالفه الرأي أو قام بعمل منافي لما يعتقدة هو لأنه يمثل الأمة وكيانها وهيبتها (حسب نظريته العقيمة)، هكذا كانت قراءة البعث العربي في العراق للتاريط. وهكذا استمد منها قائدهم تلك المفاهيم وكان يجاهر بها علنا فمثلا عندما رفع شعار (من نبخذنصر إلى صدام حسين بابل تنهض من جديد) كان المقصود فعلاً ولو في عقلهم الباطن ان مجد الامة أنما ينبثق دائماً بفعل الحاكم القوي المتسلط. وكان يشعر بالراحة والغبطة حينما يأتي

الناس اليه ليؤدوا ولائهم له ويلقون بالأشعار والمديح والنفاق أمام كامرات التلفزيون. كما كان يفعل البابليون عند تأديتهم مراسيم الصلاة ويقدمون القرابين بما يتوفر لديهم من ماشية وغذاء على أساس تقديمه للآلهة عن طريق نائبه (الحاكم أو الملك) والذي يقدمه بدوره إلى رموزالآلهة من الكهنة والرهبان في المعابد بعد أن يأخذ حصته وعائلته كاملة وهكذا نجد أن حاكماً استحضر سلوكاً وتقاليد وعقلية كانت سائدة منذ الآف السنين في المنطقة لتطبيقها في العصر الحديث.

أن اتخاذ الأصنام في ذلك العصر بمثابة رموزاً لكل اله كانت جزءاً من أساليب جلب الطمأنينة ومنع الخوف المتزايد من الناس حيث كانوا يؤدون الصلاة أمام تلك الرموز ويقبلونها ويتلمسونها ويلتمسون منها الرحمة والشفقة وحتى يبكون من شدة حاجتهم إلى الرحمة والأطمئنان من المجهول، لشدة أعتقادهم بأنها تخبىء ورائها قوة مستمدة من قوة الآلهة، وبالتالي فأنها تعمل كالوسيط لنقل الرسالة والشفاعة إلى الآلهة الحامية. ولتكون شاهداً عليهم بأنهم قد أدوا واجباتهم أتجاهها على أحسن ما يرام. والدليل على ذلك أنهم كانوا يحتفظون برموز تكاد تكون صغيرة لا تتعدى الحصى أو الحجر البسيط في البيوت كرمز وشاهد بحسن وصدق نيتهم ووفائهم أتجاة الآلهة الحامية وتجاة من ينوب عنهم من الملك والكهنة وسكنة المعابد. وهكذا ايضاً قادت تلك المفاهيم البعض بأن كل المصائب التي لحقت بالأمة انما جاءت من ضعف الحاكم مثل سقوط بابل وسقوط بغداد في عصر المغول، ولم يتورعوا في التفكير بنمط علمي وموضوعي عميق للأسباب الحقيقية وراء تلك الكوارث والحروب والنكبات.

ج. موروث فكرة المقدس والمدنس في بلاد وادي الرافدين:

لقد كان الناس في منطقة بلاد الرافدين والجزيرة العربية برمتها تحترم الأحجار وتقدسها أعتقاداً منهم بأن تلك الأحجار تخبئ ورائها قوة خارقة ناجمة من قوة

الشياطين والعفاريت. ومن أجل تجنب شرورها لا بد من العناية بها وتقديسها، ويزداد التمسك بتلك الرموز كلما أزداد ضعفهم أتجاة مخاطر الطبيعة كالأمراض والفيضانات وحصول القحط وشحة المياة في بعض السنين. من هنا نشأت فكرة المقدس الديني والمقدس الدنيوي في بلاد الرافدين، أذ تعبر فكرة أو جوهر المقدس بالطاقة والشحنة أو القوة المركزية المسئولة عن التحكم في المادة وجذبها نحوها وقد عبرت عن هذا الجوهر أديان العصور الحجرية بالقوة السارية غير المشخصة وغير المنظورة حسب فلسفتهم، وهي قوة المقدس الكوني (طاقة الكون) التي يشعر بها الإنسان ولايعرف معناها الا المقربين من تلك القوة، وممن يثبتون للعالم بمعجزة خاصة لا يستطيع فعلها أي أحد. أن قوة المقدس الكوني هذه تأخذ شكل القوة السارية لكنها تتجلى في بعض مظاهرها العظمى في توازن الكون وقوى الكواكب والنجوم وتناغمها، ولهذه القوى مظاهر مضطربة تعبر عن التحول من نظام معين إلى نظام آخر، وتنفض اعباء النظام القديم عنها. ولذلك كانوا يعتقدون بأن الأجرام السماوية كالنجوم والكواكب قابلة للتبديل والولادة وأنها عندما تستنفذ كل طاقاتها المتمثلة في الضوء القادم إلى الأرض فأنها تسقط على الأرض على هيئة أحجار بأحجام مختلفة* . وبالتالي لابد وأن تكون هذه الأحجار الناجمة عن سقوط النيازك بكثرة في ذلك الزمان بأنها ذات قيمة مقدسة (حسب عقيدتهم). كما أن مظاهر القوى المضطربة هذه قد تظهر على الأرض على هيئة فيضانات وعواصف وزلازل وبراكين وغير ذلك من الكوارث الطبيعية. ولم يتمكنوا من تفسير هذه القوة السارية في تلك الفترة، وأزدادوا خوفاً منها ولم يكن بأيديهم مايفعلونه سوى عبادتها وأرضائها لكي لاتعود وتغضب عليهم كرة أخرى.

وفي مقابل العالم الديني المقدس الذي هو عند الإنسان القديم عبارة عن استشعار

---

* كان القدماء يتصورون أن الكواكب والنجوم بنفس أحجامها المرئية بالعين المجردة.

او حدس لطاقة الكون، كان هناك العالم الدنيوي أو المدنَس الذي هو في تماس مع المادة. وهكذا وضع هذان العالمان المتميزان في تضاد شديد، الأول: هو العالم المقدس الذي يسعى الدين لكشفة والتمثل به قدر المستطاع، والثاني: هو العالم المدنس الذي تسعى الدنيا لكشفة والتمثل به، وكان هذا التعارض قديماً وحديثاً، مثار جدل ساخن وتصادم شديد، فقد كان المقدس يعادل القوة والطاقة والمشبع للكيان والفعالية، بينما كان المدنس المتمثل بكل مادة ملموسة يعادل الخواء والمادة التافهة الزائلة والمزيفة. ورغم أننا لانميل لفصل الدين عن الدنيا فهما متداخلان شئنا أم ابينا، ولكننا من أجل الدراسة النظرية وألقاء الضوء على الأفكار الدينية والأفكار الدنيوية وهي تتلاحم وتنفصل ضمن محركاتها أحياناً وتنفصل أحياناً أخرى ضمن قواه الداخلية. فكما أن جوهر الدين يكمن في المقدس فإن جوهر الدنيا يكمن في المدنس وأن نواة وجوهر هذا المدنس تكمن في الجنس البشري. أما الطاقة السارية فهي جوهر المقدس. وقد تكون تلك الطاقة كامنة وغير ظاهرة للعيان، كالمكان المقدس والمعبد والكتاب المقدس في مقابل الأماكن الكونية التقليدية كالبيوت والشوارع والأراضي الزراعية وغيرها من الأماكن الدنيوية المحيطة بنا. وهكذا صار أهتمام الناس في منطقة بلاد الرافدين والجزيرة العربية برمتها يهتم أهتماماً شديداً بالأماكن المقدسة ولايبال بغيرها التي يعتبرها مدنسة. وجاءت تلك المفاهيم ضمن مواريث تاريخية قديمة جداً في عقول الكثيرين منا. وهناك العديد من الأمثلة عن أحداث دموية وكوارث حصلت في التاريط، لأسباب قد تكون ظاهرياً تافهه من وجهة النظر الحديثة للقداسة ودرجة تأثيرها على حياة الإنسان وسعادتة. وهكذا أحتوت بلاد الرافدين أكثر من غيرها من البلدان في المنطقة على أماكن تعتبر مقدسة لايستطيع أحد المساس فيها.

كذلك أنقسم الزمان (حسب أعتقاد البابليين) إلى زمان مقدس أسطوري حصل فيه حدث عظيم مثل بداية الخليقة أو الطوفان (قصة طوفان) كما في نزول الوحي أو

الشهادة في القتال في سبيل الله عند المسلمين... الخ في مقابل زمن تاريخي تقليدي يضج بالأحداث الدنيوية العادية. وتتم أستعادة الزمن الأسطوري المقدس من خلال طقوس الأعياد الدورية التي هي بمثابة استذكار لذلك الزمن، وأعادة تكثيف له وسط تراتب الزمن التقليدي. ومن هذا المنطلق اصبح كل شئ مباح عند الزمن التقليدي المدنس، في حين يحرم عمل الكثير من الفعاليات الدنيوية في أوقات معينة من السنة تعتبر مقدسة لديهم وهكذا تتناظر الرموز السماوية عن الرموز الأرضية، ويتناظر النص المقدس (الكتاب البابلي المقدس) عن بقية الكتب. وكذلك يحمل الملك كتاباً مقدساً لديهم أكثر من غيره من البشر وهكذا. ولقد كان المقدس منذ العصور الحجرية للأنسان القديم أمراً مدهشاً وغامضاً شد فيه الإنسان إلى عالم آخر وجعله يشعر بأنه لايعيش وحيداً في هذا الكون بل أنه مرتبط بجوهر كوني سرعان مايعود اليه ويتحد معه بعد الموت بصور وأشكال مختلفة حسب مخيلة الإنسان القديم في كل منطقة من مناطق العالم، وكانت تلك المعتقدات تتجسد في الرسومات والمنحوتات التي كان يصنعها ذلك الإنسان الحجري في الكهوف والبيوت القديمة جداً. ولم ينفرد بهذا المعتقد أهل الرافدين بل سرى على جميع أرجاء العالم تقريباً. وكان نموذجاً يمثل مرحلة من مراحل تطور العقل البشري ضمن البيئة التي يعيش فيها، وما وفرته تلك البيئة من معلومات وادوات متراكمة حوله، قادت إلى الوصول لمثل هذه الأفكار والنظريات. إلا أن الشيء المميز هنا هو رسوخ الأرث المقدس من حيث المكان والزمان في بلاد وادي الرافدين ليصبح جزءاً من حياتهم ومورد رزقاً لهم إلى يومنا هذا. بالإضافة إلى المكان والزمان المقدس فقد أخذت حروب التوسع بالإمبراطوريات كالإمبراطورية الآشورية شكل القتال المقدس والذي عرف فيما بعد بالجهاد المقدس. أي أن الآلهة تأمر ممثلها على الأرض والمتمثل في الملك أو القائد، ان يخوض حرباً ضد الأعداء، وهي بالتالي حرب مقدسة من أجل إرضاء الآلهة. وهكذا استخدم الأشوريون شتى الوسائل القسرية في تجنيد الناس وإجبارهم على خوض معارك بحجة القداسة، بينما كانت تصب في صالح الملوك والأمراء. وكانوا يستخدمون البشر

كجسور لعبور الآخرين أحياناً ولا يعبهون بالأرواح والخسائر البشرية التي تنجم عن تلك الأفعال، كما يستدل على ذلك من خلال الرسومات المنحوتة على بعض الجدران في مرور الجيوش على جسر من البشر تحتهم. ولم تكن للحياة الدنيا قيمة لديهم في ذلك الوقت وكانت حياتهم مرهونة بأوامر وإرادة الآلهة ولا يمكن لأحد أن يحيد عنها أو يعصيها. وهكذا اتخذ القوم من الحروب المقدسة وسيلة لكسب الطاقة المعنوية المطلوبة للقتال، واستطاعوا من التوسع في إمبراطوريتهم شرقاً وغرباً لتشمل كل أرجاء الشرق الأدنى في غضون القرن السادس قبل الميلاد. ولا بد من الإشارةهنا على ان القائد المغولي (جنكيز خان)، وقد استخدم ذات الأسلوب حينما صعد فوق التل ليقول لقومه بأنه جاء له إيحاء من السماء بخوض الحرب وتوسيع مملكته، وقد استطاع أن يحشد جيوشه وأن يقيم أكبر إمبراطورية عرفها التاريط من خلال إدخال هذه الأسطورة في عقول قومه الرعاة المتوحشين كما سنأتي لتفصيل ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب. أن أول طرق التعامل الجدية مع هذا المقدس الديني كان السحر (الذي هو أول عتبات الدين) وقد كان السحر أما حقيقياً يتضمن وجود قوة براسايكولوجية (قوة الحدس والحواس المخفية في عقل الإنسان والتي تسمى بالحاسة السادسة) والخارقة عند المتعبد والتي تؤثر على بعض قوانين القوة السارية المعتادة لدى الإنسان. أو أن تكون قوة وهمية شكلية يحاول بها الساحر أن يؤثر من خلال منطلق نفسي معين على قوانين هذه القوة. ويستطيع سلوك وتصرف معين أن يقنع الناس المحيطين به بوجود قوة غير أعتيادية يمتلكها هو دون غيرة، جعلت منه انساناً قادراً لصنع شئ ما لا يستطيع غيره أن يفعلة. وبالتالي أمتلك جزأ من القداسة التي يدعي بها. وأن هذة القداسة لم تأت أعتباطاً اليه بل أنها مُنزلة من المقدس الأعلى منه أو الطاقة المسيرة لكل الأمور في الكون. وهكذا كان السحر أول أشكال العلاقة بين الإنسان والمقدس، ولذلك فهو أول قناة للأتصال بين المقدس والإنسان[1].

---

(1) هاري ساكز المصدر السابق 211. عبد الوهاب رشيد المصدر السابق 93.

وتتضمن هذة القناة شحنات أيجابية من الإنسان المقدس (وهو مانسميه بالسحر) وشحنات سلبية إلى الإنسان (وهو مانسمية بالعرافة) وكلاهما كان من وجهة نظرنا العلمية أول شكل من أشكال الشعر، أذ أن الشعر بصورته العلمية أنما يعبر عن ممارسة من تركيب كلمات وجمل ذات وقع موسيقي مؤثر في أذن السامع. وجاءت في مرحلة متقدمة بعد السحر وهي مرحلة الأرواحية وظهورالآلهة فقد تجسدت مرحلة الأرواحية في تلاوة التعاويذ التي كانت وظيفتها طرد القوى الخفية، التي تأتي بالشر إلى البشر والمتمثلة بالشياطين، وأحاطة الشخص المصاب بداء معين مثلاً بسورٍ من الحماية أو الحجاب عن ذلك الشر أو ذلك الشيطان[1].

أن ما يهمنا هنا في هذا المبحث ومن خلال تعرفنا للمقدس وعلاقته بالموروث الفكري لأنسان بلاد الرافدين، هومبدأ عدم التخلي عن الحاكم الظالم المتسلط على رقاب الناس من خلال مايمتلكه من قداسة وقوة سماوية خارقة (حسب أعتقادهم) وماتبقى من هذا الموروث الذي ظل معشعشاً في عقولنا لآلاف السنين مضت، من تاريط هذه المنطقة وربما في مناطق الشرق برمته. فقد كان دائماً يعبر عن الشعب بالرعية وهم خدم مطيعين للحاكم (الملك). ومن الصعوبة بمكان أن يدركوا أن الحاكم ماهو الا بشر مثلهم ويجب أن يكون هو وحاشيته خدماً للشعب ويجب أن يتم أختياره منهم، ويجب أن يتبدل كل فترة زمنية محددة، وبعد أجراء أنتخاب من قبل الشعب. أن تلك المفاهيم الديمقراطية الغريبة عن المنطقة لم تكن من نسج الخيال في مناطق أخرى من العالم وحتى في التاريط القديم. فلو عدنا إلى حضارات في مناطق أخرى وتفحصنا ماكانوا يمارسونه من طرق أختيار لحكامهم، نجد أن اليونان مثلاً كانت تمارس قدراً كبيراً من تلك الممارسات الديمقراطية في عصور ما قبل الميلاد، وهكذا الحال بالنسبة للرومان.

---

(1) المصدر نفسه 213.

ويبدو أن تلك البلدان كانت بعيدة عن المنطقة ولم يكن هناك أتصال حضاري يكفي لنقل تلك الأفكار الا في فترة متأخرة. أن ذلك لايعني أن الملوك والحكام في تلك المناطق كانوا أقل قسوة وظلماً من ملوك وحكام بلاد الرافدين في تلك الفترة، إلا أن هناك أختلاف في الأساليب وطرق العقاب والثواب المطبقة في كل منطقة ضمن المراحل الزمنية المختلفة ويتباينون في طرق أختيارهم وتنصيبهم للحاكم. فقد كان الأغريق والرومان مثلاً يجرون سباقات رياضية عنيفة جداً ليظهروا من هو الأقوى من القوم ليتم أختياره ملكاً عليهم ومثال على ذلك كان الأمبراطور الأغريقي المشهور هرقل الذي كان حاكماً على الأمبراطورية البيزنطية برمتها في بداية القرن السابع الميلادي، والذي أشتهر في قوته الجسمانية الموصوفة بالخارقة كما يمكن أن نضرب مثلاً على كيفية أختيار الحاكم في اليونان عن طريق الأنتخاب وذلك بوضع أنواع من الحصى الصغيرة بألوان مختلفة في صناديق الأقتراع كلاً يمثل واحداً من المرشحين الذين كانوا يعملون الدعاية لأنفسهم بين الناس قبل أجراء الأنتخاب وكانوا يلبسون البدلة البيضاء ويطوفون في المدينة ويَدعون بالكانديدات (أي المرشح). وهكذا بقيت التسمية إلى يومنا هذا عن المرشح لكل شئ كالمرشح للشهادة الجامعية والمرشح لنيل الجائزة وغيرها. وهكذا فهناك أمثلة كثيرة في التاريط يمكن للمتابع الوصول اليها لمعرفة مايدور من خيارات وأحداث أصبحت أرثاً لتلك الأمم لها تأثيراتها السلبية والأيجابية على سير الأحداث في التاريط الحديث. أن الموروث الثقافي لسكان بلاد الرافدين منذ زمن السومريين والبابليين لايكمن في قداسة الحاكم المتسلط فحسب، بل يتعدى ذلك إلى وراثته للأبناء والأحفاد. فكما كان الناس يترقبون ويبدون ولائهم للمقربين من الملك أو الحاكم ومن أولاده وحاشيته، كانوا يعتقدون بأن القداسة المتمثلة بالقوة الألهية، تنتقل هي الأخرى بالوراثة إلى الأبناء، والى اجيالهم القادمة على مر الزمن، وبالتالي فإن الأحترام والتبرك والتقديس كان سارياً لتلك الأجيال من الملوك والحكام والكهنة وبشكل خاص إذا كان ذلك الحاكم مؤثراً بقوة

من خلال فعله المتميز. لقد بقي الناس في بلاد الرافدين يفتشون عبر السنين عن حاكم أو ملك يتسلط عليهم ويقودهم حتى وأن كان بالنار والحديد، ومن هنا جاءت تسمية الراعي والرعية تشبيها للحاكم والشعب والتي ترجع في الأصل إلى راعي الماشية ورعيته من الأغنام والماعز يتحكم بهم كما يشاء ويبيع ويشتري بهم متى ما شاء. أن الأفكار والمعتقدات السائدة لديهم قد أبعدتهم كل البعد عن تصور أن الحاكم يجب أن يكون خادماً للشعب، وأن الشعب هو مصدر السلطات وما إلى ذلك من مفاهيم ديمقراطية كانت قد أخذ بها فلاسفة اليونان القدماء وأستمد منها الغرب وعملوا بها منذ فترة طويلة. وتكرست لديهم تلك المفاهيم بحيث أصبح الفرد الأوربي في العصر الحديث يؤمن بأنه هو السيد في بلاده وأن كل مايدور حوله هو مسخر لخدمته، لا لأذلاله وتحطيم معنوياته. أنه يشعر بأن جميع السلطات الحكومية قد وجدت من أجله ولخدمته وتلبية حاجاته وأنه هو وحده الأهم والأحق في بلده وأن الحكومة وجدت لخدمته. من هذا المفهوم ينطلق الفرد في العالم الغربي ليتفهم أن عليه حقوق وواجبات مثلما منحته تلك السلطات من حقوق وأمتيازات وأستحقاق. وهكذا أصبح الإنسان لديهم حراً في تفكيره وتطلعاته إلى المستقبل وأحترامه للقانون ودفاعه عن كيانه ودولته وأمته التي منحته كل تلك الأمتيازات والحرية. وبالتالي أستطاع أن يبدع ويغور في البحار والمحيطات ويغزو الفضاء وكل تلك الحضارة الحديثة التي نعيش في كنفها بما فيها من علوم وتكنولوجيا مذهلة في كافة المجالات

لقد سخر الحكام المستبدون كل المعتقدات والمفاهيم والنظريات من أجل بقائهم وبقاء سلطتهم باسماء وعناوين مختلفة عبر التاريط. أن القيود وذلك التسلط من قبل الحكام كانت واحداً من أهم أسباب بقاء الإنسان في بلاد الرافدين يعيش بنفس الأسلوب والأدوات والمعدات التي كان يعيشها أجداده منذ الآف السنين دون حصول تغيرات جذرية، ودون أسهام فعال في رفد العلوم الحديثة كجزء من نشاط العقل البشري الشامل على هذا

الكوكب، الا النزر اليسير، وابسط مثال على ذلك ماكان علية الحال في أهوار العراق الجنوبية وغيرها من المناطق. لقد كانت تلك المناطق ذات الحضارة السومرية العريقة عرضة للغزوات تلو الغزوات والحروب المدمرة من مناطق وأطراف بعيدة عنها عبر فترات زمنية متعاقبة، مما زادت في قهره ومعاناته. فكيف له أن يحارب ويقتل و في قرارة نفسه أنه يحارب من أجل الحاكم ومن أجل زيادة ثروتة ومزيدا من القيود على رقابه وهو مضافاً لما تفرضه البيئة من صعوبات ومصائب عليه بالأضافة إلى طبيعة الأرض التي يعيش فيها والمتصفة بالأنفتاح وعدم وجود حواجز طبيعية لمنع الأعداء من الوصول اليها وغزوها. وأخيراً نقول لقد أصبح مفهوم الحاكم المستبد والظالم أمراً مقبولاً ومسلماً به في بلاد الرافدين عبر التاريط وماعلى القوم الا الدعاء بأن يجلب الله لهم حاكماً رؤوفاً وأقل قسوة من سابقه وماعليهم إلا أن يصبروا حتى ينتهي الحاكم الأكثر ظلماً بطريقة ما عسى أن يأتي بعده حاكماً أقل منه قسوة وتسلطاً.

د . موروث حالة الخوف والتشاؤم في بلاد الرافدين :

الأمر الأخطر من كل ماورد هو حالة الخوف والتشاؤم التي يتصف بها الإنسان في بلاد وادي الرافدين والناجمة من العوامل الرئيسية الثلاثة المسلطة على رقابه وهي خضوعه لقرارات القدر التي تقررهاالآلهة، وخضوعة إلى السلطة المطلقة التي يمارسها الملك نائباً لآلهة في أرضه، وخضوعه لوهم هجمات القوى الشريرة والمتوحشة غير المنظورة من الشياطين والعفاريت المحيطة به، بالأضافة إلى مايعانيه من كوارث طبيعية حقيقية كالفيضانات والأوبئة وحرارة الجو المحرقة في الصيف، كل تلك العوامل جعلت من حالة التشاؤم والحزن أمراً ملازماً لشخصية الإنسان في بلاد الرافدين إلى يومنا هذا. وبالمقارنة بالإنسان المصري الذي هو قريب اليه من حيث طبيعة الأرض والمناخ، نجد أن

هنـاك فروقـاً واضـحة وملموسـة [1]، لعـدم حصـول الفـلاح المصـري علـى نفـس الكـوارث الطبيعية التي كان يتعرض لها أنسان بـلاد الرافـدين، حيـث أن فيضـان نهـر النيـل كـان يحصـل في أوقـات محـددة ومعروفـة لديـه. وكـان يسـتعد لهـا ويهـيء لزراعتـه في مواعيـد منسجمة مع فيضانها، بالأضـافة إلى أن الجفـاف وحـرارة الشـمس أخـف في مصـر عمـا هـو عليه الحال في منطقة وادي الرافدين. ولـذلك تمكـن الإنسـان المصـري أن يخلـق حالـة مـن الفــرح والفــن المقــترن بــالأرث الفولكلــوري الغنــائي والــرقص والموســيقى والتمثيــل والأستئناس بالفكاهة والضحك لدرجة مميزة، ونجد الفرق واضحاً إلى الأن في هـذا المجـال بالذات. أن ملازمة الحزن والبكاء في حياتنا في العراق قد أصبح أرثاً واضحاً لدينا حتـى في مناسبات الأفراح، ففي حفلات الزواج والأعراس والمواليد نجد أن العائلة العراقيـة تحـاول أن تستذكر أحزانها القديمة وأحياناً تقيم مراسيم العزاء للأئمة والرموز المقدسة في تلك المناسـبات بـدلاً مـن الفـرح والضـحك في بعـض منـاطق العـراق. ومـن الجـدير بالـذكر أن مواكب العزاء والمراسيم التي تقام بمناسبة عاشوراء أحياءاً لـذكرى مقتـل الأمـام الحسـين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في المناطق الجنوبية والوسطى مـن العـراق مـاهي الا تعبيراً صـادقاً عـن حالـة الحـزن والتشـاؤم الـتي يعـاني منهـا العراقـي والموروثـة مـن أيـام السومريين والبابليين. وقد يكـون أسلوباً مشـابهاً قـد مـورس بشـكل أو بـآخر وبمناسـبات تأريخيـة وقصـص مختلفـة عـبر الأجيـال المتعاقبـة الا أنهـا تحمـل نفـس الطـابع الحـزين والمتشائم. أن رسوخ هذا الطابع المتشائم في عقول الناس قد جعل من الصعب جداً القضاء أو أزالة تلك المراسيم مهما عملت الدولـة مـن منـع أقامتهـا في فـترات زمنيـة مختلفـة مـن تاريط العراق الحديث وذلك باستخدام القـوة العسـكرية، أذ تختفـي لفـترة محـددة وتعـود

(1) جورج كونتينو (الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور (ترجمـة سـليم طـه التكـريتي، وزارة الثقافـة والأعلام بغداد (1979) 501 وكذلك Hawkes Jacquetta p. 186

بعدها كلما سنحت الظروف لذلك بزخم وعنف أقوى وأكثر أتساعاً من السابق. لقد أصبحت تلك الممارسات الوسيلة الوحيدة التي يريح الإنسان فيها عن نفسه ويزيل بها جزءاً من همومه وأحزانه حتى أنهم يتهيئون لها منذ مدة ويبتدعون القصص والأضافات لأجل أطالتها والتوغل في تفاصيل وحوادث محزنة تسهل على السامع من ذرف الدموع بغزارة. وقد أصبحت كذلك مورداً أقتصادياً مهماً من خلال توسيع السياحة وقدوم الناس من أطراف بعيدة إلى مناطق أقامة تلك المراسيم. أننا لسنا في مجال الأعتراض على تلك المراسيم والطقوس الدينية التي تقام حتى الوقت الحاضر، أذ أن هناك مراسيم وطقوس دينية لاتزال تمارس في دول ومناطق مختلفة من العالم بأشكال مختلفة تنبع من تراثهم الفكري القديم، وعلى سبيل المثال لاتزال تمارس والى وقت قريب في بعض القرى في أيطاليا وهي بلد متقدم من الطراز الأول، أذ يأتون بشخص شبيه بالسيد المسيح ويعملون به عملاً مشابهاً لما تم فعله في أيام الرومان بالسير إلى الصليب ويجولون به في أنحاء القرية للتشبيه بالعذاب الذي كان يعاني منه السيد المسيح (عليه السلام) أثناء تلك المسيرة وتمارس هذه الطقوس كل عام ضمن الواجبات الدينية لديهم وكذلك تمارس الطقوس والتقاليد الدينية في الهند والصين والعديد من دول العالم بأشكال مختلفة إلا أن المبالغة في حالة الحزن والتشاؤم الموروثة من قديم الزمان والتي تمارس طقوسها إلى حد الآن في بلادنا، قد حددت من طموح الإنسان ورغبته في التفكير بتحسين حاله وممارسة عمله وطموحه في التطلع إلى مستقبلٍ أفضل. أن حالة الحزن والتشاؤم التي تتسم بها شخصية الفرد العراقي بالذات، كانت ولازالت أحدى العوامل المؤثرة جداً في قدراته لتخطي كافة العقبات التي تواجهه في حل مشاكله اليومية وتحديد طموحه نحو المستقبل، وبالتالي أعتماده الرئيسي على الغير في تغيير نمط حياته. ولذلك نجد الكثير منا ينتظر من يأتي اليه من الخارج لينصحه بعمل ما يكون من شأنه تطوير البلد وتحسينه دون أن يساهم هو في ذلك، أو أن تكون مساهمته

مقصورة على جهد عضلي محدد. أن إنتزاع الحزن والتشاؤم وأحلال الفرح والتفائل منذ الطفولة مروراً بفترة الحداثة والشباب تسهم في زرع الأمل والتطلع لحياة أفضل ومستقبل مفرح وزاهر.

أن نشأة الإنسان ومنذ طفولته وحداثته على الحزن والتشاؤم تخلق محيطاً خصباً لكسب الشباب نحو أعمال العنف التي نشهدها حالياً، وذلك في سهولة أقناعهم من قبل الكبار في تفجير أنفسهم من خلال عمليات غسل الدماغ بأفكار تؤول إلى ان هذه الحياة التي يعيشونها لاجدوى منها ولايوجد فيها مايبهج النفس ويمتعها. ولذلك نجدهم يذهبون بسهولة نحو الهاوية والهلاك معرضين أرواحهم وأرواح غيرهم إلى الفناء. أن حالة الحزن والتشاؤم والتي أصبحت جزءاً من مكونات شخصية الفرد العراقي والموروثة منذ عصور قديمة أنما تقلل من قيمة الحياة الدنيا والتمسك بها والأستمتاع بملذاتها كما يفعل الأوربي مثلا، ومايننتج عن ذلك من سهولة في تضييعها وهدرها بأي شكل من الأشكال، وعدم الأكتراث في تضييع الوقت والفرص السانحة في التقدم والتطور نحو الأفضل. وقد يؤثر ذلك سلبياً في بناء المجتمع على أسس صحيحة وقوية ومحترمة من قبل العالم كله. ولو أننا عدنا إلى علم النفس وتحليل الشخصية، لوجدنا أن حجم الحزن والتشاؤم هذة تؤثر تأثيراً خطيراً على سلب إرادة الفرد ومنعه من القدرة على أتخاذ القرار الصائب، وبالتالي نجد الإنسان غير قادر على أتخاذ قرارات تخص حياته الشخصية ومستقبله ويكون معتمداً على الغير في توجيهه وتسيير أموره. أن حالة الخوف التي ذكرناها سابقاً بالأضافة الى الحزن والتشاؤم التي أصبحت سمة من سمات شخصية الفرد في بلاد وادي الرافدين، قد أثرت على قدراته العقلية وأتخاذه القرارات الصائبة التي يحتاجها ضمن حياته ومعيشته. ولما كان المجتمع عبارة عن مجموعة أفراد فأنه بالتالي يتصف عموماً بصفات تلك المكونات وتكون درجة تطور وتقدم ذلك المجتمع نحو الرقي والأزدهار مرهونة بصفات شخصيات أفراده. لذلك فقد أتسمت حالة الضعف والتدهور

على المجتمع ككل بما في ذلك كافة مؤسساته وأحزابه وفئاته، وبالتالي فقد أدت به لأن يكون عرضة للغزوات من جهات عديدة في التاريط القديم والحديث. كما أن تلك الصفات والسمات كانت أحدى الأسباب الرئيسية في تدهور الوضع السياسي المعاصر وفي مسيرة العراق الحديثة وما المطبات والمهالك التي لانزال نعاني منها إلى يومنا هذا إلا دليلاً على ذلك.

من هنا نوصي المسئولين في العراق أن يضعوا نصب أعينهم وضمن برنامجهم السياسي بعيد ألأمد، كيفية بناء وأعادة بناء شخصية الإنسان العراقي، وذلك باستعادة ثقته بنفسه من خلال برنامج تربوي مكثف أبتداءاً من طفولته مروراً بمرحلة الشباب، وبكل الوسائل المتاحة. وضمان حياة مستقرة آمنة بعيدة عن الخوف والتشاؤم، لكي يستطيع بناء شخصيته القادرة على أتخاذ القرارات الصائبة في حياته الخاصة والعامة. وبالتالي ستكون النتيجة الأبداع والمساهمة في ركب الحضارة العالمية الحديثة عموما، وأستعادة بناء وطنه المخرب، والسير قدماً إلى الأمام اسوة ببقية بلدان العالم المتمدن. لقد كانت الخطوة الأولى الهامة والمبشرة بالخير في هذا الأتجاة هو السير في بناء الديمقراطية والتي يجب التمسك وعدم التفريط بها مطلقاً، حيث أن هذه السكة ستقود بالنتيجة إلى زرع الثقة بالنفس، والبدء بأستعادة الشخصية القوية الواثقة وطرد المخاوف والتشاؤم والحزن الموروث منذ الآف السنين. لقد آن الآوان للمسئولين في السلطة أن يكثفوا من برامج الفرح والبهجة ونبذ برامج الحزن والتشاؤم، وتقليص التحضير والأعداد للأحزان والبكاء في مناسبات تاريخية ذهبت مع الماضي بكل ما فيها من مفاهيم وقيم، ولم يبق لها من مقومات الأستمرار والصعود. لقد آن الآوان بأن نعيد حساباتنا في مواريثنا التاريخية، ونمسح ما هو ضار ومؤذي ومعرقل لمسيرة التقدم والبناء الصحي، ونبقي على ما هو نافع يدعوا إلى الأعتزاز والفخر، ويزيد الثقة بالنفس ويبعد الخوف والتشاؤم ويزرع الأمل في المستقبل. وبالتالي أن يتعلم الإنسان الحب وكيف يحب الحياة

ويحب الناس ووطنه ولايفرط بهذه الحياة التي وهبها الله له مطلقاً. وقد تؤدي حالة الخوف والأحباط لدى الإنسان بالشعور بالأنكسار والهزيمة النفسية والتي تقوده بسهولة لأن يجنح لأرتكاب الجرائم الكبرى. وقد يكون لقمة سائغة وسهلة للأنخراط في صفوف المتطرفين والأرهابيين من خلال حالة الهروب من الواقع المنهزم الذي يعيش فيه أو يتهيأ لة بأنه يعيش فيه.

الخاتمة

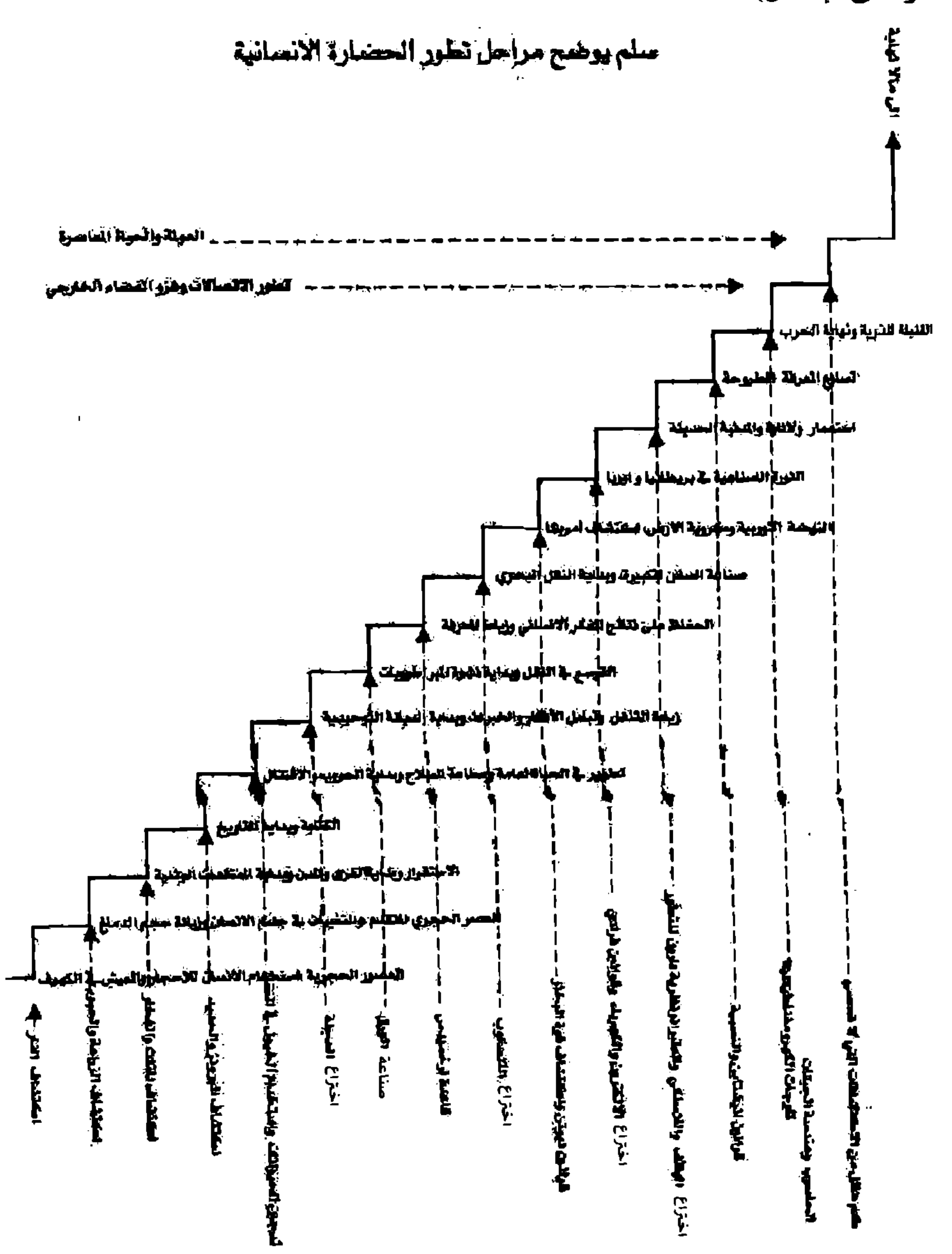
الخاتمة

الخلاصة والاستنتاجات:

لقد تناولنا في هذا الجزء من الكتاب أهم المحطات التاريخية التي تجولنا فيها، منها ما كان سريعاً جداً، ومنها ما هو مفصل بعض الشيء وحسب ما جاء في المصادر المتوفرة. وكان الهدف من ذلك هو معرفة أسس المواريث التاريخية المؤثرة فينا، ولا زالت تعيش معنا في أفكارنا ومعتقداتنا وممارساتنا ـ بهذا القدر أو ذاك ـ بهدف زيادة الفهم للإنسان العراقي والعربي المعاصر ومن أجل الوصول إلى طرق ووسائل نستطيع فيها معالجة والتعامل الأمثل في حل مشاكل البلد. وكانت الجولة السريعة في حضارة وادي الرافدين القديمة، والتي شكلت حجر الأساس للمعتقدات والأفكار للمراحل التي تلت ذلك. ثم تناولنا تأريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام وتأريخ فجر الإسلام أيام الدعوة المحمدية وعصر الخلفاء الراشدين وتوقفنا لهذا الحد، على أمل إن نكمل مواريثنا التاريخية للفقرات التي تلت هذه العصور في المستقبل نظرا لأهميتها. ولا يمكننا إن نضع الاستنتاجات النهائية لكل العصور لعدم تكاملها ولكننا نستطيع إن نؤشر على الاستنتاجات المتعلقة بالفترة التي وصلنا إليها وهي نهاية عصر الخلفاء الراشدين.

وقبل البدء في تلك الاستنتاجات لا بد لنا من الإشارة إلى سُلم تطور حياة الإنسان الحضارية على هذا الكوكب ومنذ البداية. فنلاحظ من هذا السُلم إن كل اكتشاف مميز للإنسان يعطي قفزة في حياته بشكل يميزه عن سابقه من جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ويهيأ لقاعدة من نمط حياة متميزة مرهونة بذلك الاكتشاف. فكما نلاحظ في الشكل (1) إن القفزة العمودية تمثل اكتشاف أو عدد من الاكتشافات العلمية المميزة التي لعبت دوراً بارزاً وأصبحت حاضنة لحقبة زمنية معينة تتميز وتدين لذلك الاكتشاف وهكذا.... فعلى سبيل المثال، إن اكتشاف الإنسان للنار قد مكنه من التغلب على العديد من المشاكل منها حصوله على الدفء، وطهي الطعام بحيث أصبحت تصل إلى الدماغ كميات كبيرة من المواد الغذائية الرئيسية وبصورة أسرع ساعده

في زيادة حجم الدماغ، وتقليص حجم المعدة وزوال الشعر من الجسم وغيرها (من فضائل النار على الإنسان).



ملاحظة: هذا السلم لأغراض توضيحية وليس قياسياً بالنسبة للقدرات الزمنية للتطور

وكان ذلك في العصور الحجرية الأولى (قبل حوالي 450 ألف عام). وبعدها تمكن الإنسان من اكتشاف الزراعة التي مكنته من أن يصنع قوته بنفسه، بدلاً من إن يبقى متجولاً لجني القوت وقد سهل ذلك من تكوين قاعدة أفقية لحياة الإنسان المستقرة في القرى والمدن الآمنة، وكان هذا بدوره عاملاً مساعداً لأن يقوده لاختراع الكتابة واللغة، وبدء يدون ما ينتجه من أفكار لكي لا تضيع عليه، وهكذا فإن كل اكتشاف واختراع مميز يشكل قاعدة من السلوك الاجتماعي ونمط حياة معينة لحقبة من الزمن تتميز بكل صفاتها ضمن حصيلة ما أنتجه من خدمة وتذليل بعض المصاعب التي يعاني منها لقهر الطبيعة. وهكذا استمرت مراحل التطور بشكل سلم تتمثل بالطفرات العمودية التي تمثل الاكتشافات المتميزة، بينما تمثل في المحور الأفقي شكل ونمط الحياة التي كان يعيشها الإنسان في تلك المرحلة. وهذا يقودنا لاستنتاج إن الفكر البشري مرتبط ضمن مرحلة معينة من الزمن بالمعطيات والنتاجات السابقة وعليه إن يتكيف للعيش في كنفها اجتماعياً واقتصادياً وفكرياً. وإذ يعيش الإنسان المعاصر في الدول المتقدمة في أعلى مراحل السلم مستوعباً كل ما قدمته البشرية من نتاج فكري وتقني، ولتوضيح ذلك فإن الطفرات التي تحصل في فترة زمنية قصيرة من عمرالإنسان لم تأت جزافا، أو عن طريق معجزة أو قدرة خارقة، وإنما نتيجة تراكمية للخبرات والممارسات الإنسانية عبر فترة زمنية طويلة أعطت ثمارها بشكل يبدو لنا بأنه فجائي. أن الأفكار تنشأ من خلال الخبرة وتساعد هذه في توجيه الطاقات الطبيعية لكي تحقق الوحدة والتكامل للخبرة. أن الامكانيات البشرية ما هي إلأعوامل واقعية وافتراضات مقصورة على الوعي الذاتي للخبرة، ولا تتعالى عليها، وهذا يعني أنها تعود إلى التواصل الحالي والاختبار الذي يخضع له الإنسان ما بين أعضائه الجسدية والمحيط الذي يعيش فيه. فهي جميعاً جزء من السلسلة الطويلة العريضة للتفاعل (أعمال أو إنجازات أو هزائم أو تأملات جمالية أو إنشغالات ذات فاعلية) في الزمان والمكان من تلك التي تتشكل منها الخبرة. وهكذا فإن سُلم

تطور العقل البشري يبدو لنا وكأنه يحصل من خلال طفرات سحرية ولكن الحقيقة هي أن مجموعة من الأعمال والأفكار تتراكم مع بعضها البعض لتنتج تحولاً نوعياً ملحوظاً. وحسب رأي جون ديوي في كتابه عن (الخبرة والتخيل في فلسفة المثل الأعلى للديمقراطية) يقول[1] : (أن الذكاء ما هو إلا قوة تنبثق من خلال تعاملات طبيعية ثم تعود لكي تحولها إلى واقع مميز عن سابقه. أن عمق الخبرة يمثل الدرجة التي وصلت إليها المشاركة الفاعلة للكائن الحي في إجتياز الظروف وتحويلها وذلك بالانهماك بها كلياً. ثم يمضي فيقول (أن الطبيعة لا مقاصد لها في ذاتها بمعزل عن أنشغال الإنسان بها. ذلك لان الذكاء ظاهرة تخص الإنسان أما العمليات الجارية في الطبيعة في قوة مرنة بامكانها التحرك بتشكيله من الطرق المختلفة وليست آية منها تجري قضاءاً وقدراً. ومع ذلك بما أن المقاصد والغايات تعود إليها الطبيعة، لأن الكائنات الإنسانية هي ذاتها تعود إلى الطبيعة وبذا فإن صياغة الغايات المرتبطة والمثل العليا والنشاطات المدروسة التي تبغي وضع الطاقات الطبيعية لتعمل بأنسجام مع هذه المثل العليا تقوم جميعاً بأستكمال ما لا يعد كاملاً في الطبيعة. ولتوضيح ذلك فإن المغامرة الإنسانية التي يقوم بها الإنسان تعد طبيعية إلا أنها بذلك تغدو منظومات أرقى للطاقات الطبيعية. من هنا يتضح أن الأنجاز الذي يحققه الإنسان بنموه وتقدمه الاجتماعي في مرحلة زمنية معينة يتدخل ليعتمد على الخيار الحر المسؤول والمتخذ بعد تفكير عميق فضلاً عن استناده على الفرص المتاحة التي تهيئها الظروف والوسائل المتاحة. أن الخبرة هي طليعة الطبيعة التي تتغلغل فيها وتتشكل من أفق مليء بالمشاركة الهادفة يتسع بالبحث والتفسير واعادة التفسير للاحداث. أن الامكانيات المفترضة المنبثقة من الفعاليات التي توفرها التفاعلات

---

(1) جون ديوي (الديمقراطية والتربية) فصل عن الخبرة والتخيل ... ترجمة حتكي عقراوي وزكريا يخائيل، لجنة التأليف والترجمة – وزارة المعارف – بغداد (1946).

الطبيعية تقوم بصياغة اهداف ومقترحات جديدة تؤدي إلى توسيع أفق الخبرة ضمن الطبيعة التي يعيش بها المجتمع. أن للخبرة سعة أفق إلى مدى ضمن النوعية المميزة التي يتحلى بها الأفراد في ذلك المجال. وهنا يمكن أن يتدخل الذكاء ليجعل تلك الخبرة أكثر شمولاً وتركيزاً ونفاذا في مجال الطبيعة المحيطة به. أن الذكاء يمثل الافق للغايات المجتمعة القادرة على توسيع مستمر في خريق اقتراح امكانيات جديدة في الوصول إلى نتائج أكثر شمولياً ونفعاً. وهكذا وعلى هذا الأساس فقد استمر التطور التاريخي للانسان ولا يزال مستمراً بوتيره أعلى نظراً لتراكم الخبرة وزيادة الذكاء إلى أن وصل إلى ما نحن عليه من تطور علمي وتقني مميز.

بينما نجد إن الإنسان في بعض الدول المتأخرة لا يزال يعيش في المراحل الأوخئ من السلم المشار إليه ولم تصله كل نتاج فكر الإنسان المعاصر. وفي كل مرحلة من المراحل التي تكلمنا عنها عبر التأريخ يسعى الإنسان لإيجاد فلسفة تفسر له وتجيب عن كل التساؤلات التي تنشأ في محيطه من أجل الاستمرار في رسم نمط الحياة التي يعيشها بشكل أو بآخر. ونلاحظ انه في ضوء ذلك فقد غدت الفلسفة الحديثة تنسجم مع معطيات العصر الحديث في أول إمكاناتها، إلا وهي تحررها من الوصايا الثيولوجيا التي تكاد تهيمن على المؤسسات والعقول في عالمنا العربي عموماً. فكما جاء في كتاب عبد الوهاب حميد رشيد عن حضارة وادي الرافدين القديمة ما يلي: (إن الدين ظاهرة قديمة قدم وجود الإنسان نفسه، التصق بعقله وفكره وممارساته منذ أقدم العصور، وقدم خدمات جليلة للبشرية بتقويم سلوك الإنسان في وقت لم تتواجد بعد الدولة والشرخة والقوانين الضبطية الأخرى. وتشير الدلائل الأثرية للقبور المكتشفة إلى إن أشكالاً من المعتقدات الدينية عاشت مع الإنسان منذ العصر الحجري القديم. وفي العصر الحجري الحديث عندما حلت الزراعة والتدجين محل جمع القوت والصيد وانصبت عناية الإنسان على تغيرات فصول السنة، وأصبحت خقوس الزراعة والخصوبة محور الفكر الديني)، ثم

يستطرد فيقول: (لم يلعب الدين الدور الكبير الذي لعبه في حضارة وادي الرافدين في أي مجتمع آخر قط، لأن إنسان هذه الحضارة كان يشعر على الدوام انه يعتمد في وجوده واستمراره كليا على إرادة الآلهة. بمعنى إن عقيدة القوم كانت تنسب ذات الإنسان إلى العالم الخارجي (القوى الخارقة) في غياب إرادته ـ فكراً وممارسة، بل وأكثر من ذلك لا توجد لفظة سومرية محددة بمعنى ذاكرة أو عقل الإنسان، وان العلاقة بين الفكر والعقل لم تكن قائمة. من هنا غلبت الحصيلة الدينية للقوم وأساخيرهم الغيبيات والخرافات وغلفت أفكارهم الخيالات الجامحة بالهرولة وراء الأوهام من قوى خارقة وشياخين وعفاريت غير منظورة، واتخاذ الطقوس الدينية مرجعاً ومصدراً ومنهجا للكشف عنها وتفسيرها والتعامل معها بما يحقق لهم الحياة الآمنة والسلام الذاتي المنشود. وهذا هو السبب الذي يجعل التقسيم الحديث للفكر والمعرفة متماثلة وذات أهمية متساوية، ولم يستطيعوا ملاحظة عملية نشوء وتطور المعرفة كما هو حاصل في العصر الحديث) [1]، [2]. لقد كانت تلك الأفكار في السلالم الأول من سلم التطور منسجمة مع معطيات ذلك العصر. إما الآن وبعد التطور الصناعي الذي شهده العالم ظهرت نظرية تجري على النسق التالي: (في المجتمع الصناعي العلمي، يضعف الإيمان ويخف التمسك بالشعائر الدينية، لأسباب إن عقائد الدين تصارع مبادئ العلم الحديث التي تتمتع بمكانة كبيرة وتكَون قواعد وأسس التقانة الحديثة، وبالتالي الاقتصاد الحديث أيضاً. ولهذا يضعف الإيمان الديني، وتتدهور مكانته وهيبته مع ارتفاع مقام ونفوذ منافسه) [3]. لقد أصبح الإنسان يقرأ من هنا نظريات ومعادلات رياضية في الهندسة

---

(1) عبد الوهاب حميد رشيد ـ حضارة وادي الرافدين (ص 218.

(2) جورج رو، ص 128 (العراق القديم).

(3) ارنست غيلفر (ما بعد الحداثة والعقل والدين (ترجمة معين افمام، دار المدى للثقافة والنشر. =

والكيمياء عن عمليات تكرير النفط مثلا ليجد أمامه واقعا ملموساً عن كيفية دخول النفط الخام من جهة ليخرج من الجهات الأخرى إلى منتجات نفطية متعددة من خلال تطبيق تلك المعادلات والأسس العلمية الرصينة، ولا مكان للغيبيات والخرافات فيها. وهكذا الحال في جميع المجالات التطبيقية للعلوم الحديثة نخص منها بالذكر مجال الاتصالات مثلا. وبالتالي أصبح العلم هو المتغلب على كل المعتقدات الأخرى،لأنه أصبح يطبق على أرض الواقع، وينتج تقنيات ملموسة لا تقبل الشك. لقد أصبح العلم في المجتمعات الصناعية واقعا ملموساً وليس مجرد كتب تقرأ. بينما بقي مجتمعنا أسيراً للمفاهيم الزراعية التي قامت عليها أول حضارة في العالم وهي حضارة وادي الرافدين، متمسكاً بالأفكار التي تولدت في ذلك الزمان وتطورت بعد ذلك إلى إن أصبحت أديان سماوية ثابتة لا مجال للحوار حولها، أو تطويرها وهكذا بقي عمل بعض المؤسسات في بلادنا العربية اليوم تتخذ توجها إستراتيجياً نحو إغلاق سبل التفكير واستبداله بسيوف التكفير، تلك السيوف التي ليس لها من هم سوى القضاء على الإبداع في كل مجالات الحياة. وأكثر من ذلك أصبحت تريد إن تقضي على الإنسان نفسه عن طريق الانتحار والأحزمة الناسفة. ومن ثم إشاعة الرأي الذي لا يحيا إلا في حياة التشابه والتطابق، ولا يستهدف إلا صناعة عقول جماعية لا تفكر، كما يستهدف استئصال جذور الاختلاف بالرأي، وبالتالي القضاء على أي إمكانية للتقدم المستقبلي. إن إمكان الفلسفة العربية مرهون بالتخلص من وصايا التفكير الهيمني الديني الذي لا يؤمن أصلاً بقدرة العقل في شق سبيله بنفسه. ولذلك فمن اجل التأسيس لإنتاج فلسفي في الفكر العربي المعاصر، لابد من وضعه في سياق عملية أخرى هي التأسيس لمشروع عربي في النهضة والتنوير أولاً. ولابد من الإجابة على الاستحقاقات التالية على نحو فاعل. وثانياً: ضبط العلاقة بين

= دمشق (2001) ص 20.

الفلسفة والفكر وبين الفلسفة والدين والاشتغال على إبداع علاقة متقدمة من التراث الفلسفي والفكر الغربي تاريخياً وراهناً، في ضوء الأسئلة العربية عن الاوضاع الراهنة أي في ضوء الواقع المباشر، وذلك للإجابة عن سؤال، في أي سلم من التطور التاريخي نحن نعيش الآن. لكي نعرف أنفسنا عدد السلالم التي من الواجب صعودها للوصول إلى العالم المتقدم، وما ينبغي علينا عمله من أجل ذلك.

مما تقدم في الفصول الأربعة لهذا الجزء من الكتاب، فقد نشأت أول حضارة إنسانية لدينا، وأستمر الصعود في السلم على ما يرام، ولكن توقفنا كثيراً في أحداها، ولم نتمكن من مواكبة التطور منذ بداية عصر النهضة الأوربية (منتصف القرن الخامس عشر ميلادي)، و أستمر النتاج الفكري والحضاري يصدر ألينا تصديراً شحيحاً. وبقينا نتلقى ما ينتج من فكر علمي من الدول المتقدمة. وبدأنا نتلقف المنتجات التقنية من ثمرات هذا العلم ونبدي دهشتنا فيها وقد أصابنا الإحباط وبدأنا نشعر وكأننا نختلف عنهم، من دون إن ندري لماذا؟ وحتى إن ذلك ولد لدى البعض شيئاً من الحقد والكراهية وصراع ضد الحضارة الأوربية الحديثة وعدم تقبل الحداثة والتنوير. وهنا نورد مثالاً بسيطاً لتوضيح نمط تفكير الأوربي بالمقارنة مع نمط تفكيرنا في البلاد العربية وكما يلي:

ذهب العالم البريطاني كرانت (Dr.Grant الأستاذ في جامعة كامبردج) هو ومجموعة من رفاقه إلى بعثة استكشافية في القرن التاسع عشر من أجل البحث والتقصي عن أصل منابع مياه نهر النيل العظيم في مصر. وقد وصل في جولته إلى مناخق في وسط أفريقيا وجنوبها تتخللها المخاخر من الحيوانات الوحشية والأحراش والأدغال والحشرات الناقلة للأمراض، وتوصل في النهاية إلى نتائج رائعة عن حقيقة منابع نهر النيل من بحيرة فيكتوريا وغيرها من فروع ومداخل عديدة ورسم خريطة لذلك. وبعد انجازه هذا العمل تمرض بمرض الملاريا ورقد في الفراش في وسط أفريقيا، وقال كلمة مأثورة

لرفاقه وهو على فراش الموت: إنني سأموت هنا وأنا مرتاح البال لأني وضعت كل الأحمال التي كانت في رأسي من خلال الاكتشاف والوصول إلى الحقائق التي وجدتها. وهو متيقن أنها ستفيد البشرية، ثم توفي ودفن هناك. هذه القصة البسيطة نوردها هنا من بين المئات بل الآلاف من القصص التي تدور حول حياة المستكشفين في شتى مجالات الحياة. إن ما يفكر فيه الأوربي هو من خلال ثقته بما ينتجه العقل البشري من إبداع، إذ كان يؤمن بثقة مطلقة بقدرات هذا العقل. وهو يعتقد إن قمة السعادة تكمن في تحديه للمخاطر ووصوله إلى نتائج كان يحلم لتحقيقها. ولغرض المقارنة بين ما نحن عليه من فلسفة تقودنا إلى ترك الأمور كما هي وان قيمة عقل الإنسان لا تساوي شيئاً بالنسبة للقوى الأخرى الغيبية. فلم نسمع يوما إن ذهب مصري من ذاته طوعا ليفتش عن منابع نهر النيل العظيم الذي عاش الأجداد على ضفافه منذ آلاف السنين، بل لم يكترث أبناء المنطقة لحل أمور علمية تهمهم وهي أبسط من ذلك كثيراً لأن الإرث الثقافي الثقيل قد حال دون ذلك. وهكذا لم نجد أحداً من بلاد الرافدين أيضاً ذهب ليفتش عن منابع نهري دجلة والفرات من أجل معرفة كيفية التعامل مع هذه المياه التي اعتمدت الحياة بالمنطقة عليها منذ آلاف السنين وأنشأ أول حضارة في العالم بفضلها. إن زيادة المعرفة في موضوع المياه يمكن تسخيرها لخدمة البلد بشكل أمثل وأضمن.

نعود ونقول علينا إن نبني لفلسفة تقودنا إلى :

أولاً : معرفة مكاننا في سُلّم التطور

ثانيا: تعزز الثقة في النفس وفي قدراتنا العقلية وتطلقها لتؤسس مجتمعاً قادراً على حل مشاكله بنفسه وعلى الإجابة عن كل التساؤلات التي تتبادر إلى ذهن الإنسان في محيطه الذي يعيش فيه الآن وبحرية مطلقه.

وهنا ربما يسأل القارئ ومإذا بعد بناء الفلسفة وكيف نضمن إن تكون هذه الفلسفة قد تم استيعابها وتقبلها والعمل بها. الجواب بسيط جداً، وهو إن علينا الاهتمام

بتعليم الأطفال منذ المراحل الأولى وفقا لمنهاج هذه الفلسفة وإبعاد كل ما يحد من تفكير وثقة الإنسان بعقله وقدرات هذا العقل على الإبداع. وترسيخ قيم العصر الحديث والابتعاد عن الأفكار الميتافيزيقيه. إن تقدم كل مجتمع مرهون بتصورات وانطباعات وتلقين الأطفال منذ مراحل نموهم الابتدائية والى مراحل الشباب المتقدمة. إذا لم نكن نستطيع تغيير مفاهيم المجتمع بأكمله، فلابد لنا إن نبدأ بالصغار لكي نضمن نشأتهم على أسس صحيحة، مع مراعاة عدم إهمال الجوانب الحياتية الأخرى كبناء الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان والمرأة....الخ. وعلينا أيضا إن نبدأ في إصلاح أبعد حلقة في المجتمع ألا وهي القرى النائية. ويجب الاهتمام في نواحي الحياة في القرى لأنها كانت في عهد قريب تشكل مصدر تدفق المشاكل إلى المدينة، وان إعادة بناء تلك القرى لتصبح مصدراً من مصادر العطاء للبلد وتعمل على تطويره وبناء اقتصاداً متينا لا يعتمد على النفط كمصدر أساسي للثروة. وبعكس ذلك سوف لن نستطيع التقدم خطوة واحدة. لان مشاكل بلداننا لا تكمن في الأعمار التقليدي وجلب شركات تبني المصانع وتدخل التكنولوجيا وتعمر من واردات النفط. فما لم تتم التنمية البشرية بحيث تنشأ لاستيعاب التطورات العلمية والتكنولوجية الحديثة لا يمكن لنا إن نسير خطوة واحدة إلى الأمام. إن كل دولة لديها إنتاج نفطي كبير تستطيع إن تشتري كل شيء من بناء ومصانع وزراعة ولكن ما لم يتم الاهتمام بالإنسان فإن كل هذا الأعمار سيصبح في يوم ما خردة ما لم يتم بجانب ذلك حصول تنمية بشرية قادرة على استيعاب ما يدور من حولنا من تطور سريع جدا.

وبالتالي إمكانية المحافظة وصيانة هذا البناء وتطويره. لقد مرت بنا تجارب عديدة لم تكن ناجحة بسبب ضعف تشخيص العلة الرئيسية في معاناة هذا المجتمع وعلينا الاستفادة من كل تلك التجارب من أجل الارتقاء إلى أساليب وخرق أكثر نضجاً وعقلانية. وإلا فإن الاعتماد على النفط لوحده كمورد أساسي للثروة سيؤدي إلى حصول كارثة لا سامح الله. وأخيراً إن ما نريد قوله لا يعني الابتعاد عن الدين والهوية بل العكس

من ذلك يمكن التمسك بكل القيم والمبادئ السامية التي تدعو إليها الأديان في خدمة الإنسان، ولكن علينا أولاً إن نستوعب كل ما توصل إليه العلم في العصر الحديث ونضع فلسفتنا في الثقة العالية بقدرات العقل البشري بالإجابة عن كل التساؤلات التي تحيط بنا وحل المشكلات عن طريق البحث والتقصي، ونبذ العنف وإلغاء الرأي الآخر. ولذلك علينا أولاً إن نراجع فلسفتنا ونتساءل لماذا سبقونا؟ وكيف السبيل للالتحاق بسرب الحضارة الحديثة، وبعيداً عن تفسيرات نظرية المؤامرة التي كنا غارقين ومغرمين في إلقاء اللوم لكل مشاكلنا ضمن هذه النظرية التي أصبحت بالية ولا تجدي نفعا. إن تسليطنا لبعض الضوء على الأعباء والأحمال التي يحملها المجتمع الرافديني في رأسه من المواريث التاريخية عبر كل تلك العصور الغابرة تدعو لحاجة ملحة إلى التأسيس لفلسفة حديثة تعطي جرعة أكبر للثقة بالعقل والفكر القادر على حل كل المشاكل التي تواجه المجتمع، وبالتالي الصعود بالسلم لمستوى العصر الحديث عصر القرن الحادي والعشرين أسوة بالعالم المتحضر. ولا بد من الإشارةهنا إلى إن بعض فلاسفة العرب الحديثين أمثال (أبن رشد) قد أشار بوضوح إلى أهمية الاعتماد على العقل والمنهج العلمي في تفسير ما يحيط بنا دون إهمال المعتقدات الروحية والقيم الدينية التي نتمسك بها [1]. وكان ذلك قبل تسعمائة عام (عصر المأمون) ولكن للأسف لم يأخذ بتلك الفلسفة أحد من العرب بينما تمسك بها الغرب بعد ترجمتها في باريس وكان ذلك قبل عصر النهضة الأوروبية بمائتي عام. كما لم يؤخذ بآراء الداعين إلى الحداثة في العصر القريب ومنهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة وغيرهم [2] وربما كان واحداً من أسباب ذلك هو أنشغالهم بادئ الأمر بالوسائل المؤدية نحو أشباع الحاجيات الأساسية للأنسان كالمأكل والملبس والمشرب، نظراً لكون المنطقة التي نعيش فيها ذات طبيعة صحراوية شحيحة الموارد وقاسية

---

(1) ابن رشد (جوامع سياسة أفلاطون).

(2) عبد الوهاب حميد رشيد (العراق المعاصر) دار المدى للثقافة والنشر، دمشق سوريا (2002) 44.

الحرارة وذلك قبل أكتشاف النفط لدينا، بالأضافة لتأثير الموروث التاريخي في التسلط والشمولية مما جعل الإنسان يبتعد عن تحقيق ذاتة من شدة الخوف الذي يعاني منه نتيجة لذلك التسلط. ولم ترتق حاجيات الإنسان الشرق أوسطي بعد للوصول إلى تحقيق الذات في السُلم الهرمي كما جاء في نظرية ماسلو (Maslow's theory)[1]، والذي أدرج الحاجيات التي يسعى الإنسان لتحقيقها بشكل سُلم هرمي بدءاً بالحاجيات المادية الأساسية لتأتي بعدها حاجةالشعور بالأمان ومن ثم الشعور بالأنتماء وصولاً إلى القمة في تحقيق الذات.

وحيث أن الإنسان الأوربي والأمريكي والياباني قد وصل اليها من خلال ماحققته مجتمعاتهم له من ضمان أجتماعي تتبنى به الدولة كل الحاجات الأساسية وفي المستقبل لذلك قد توجه نحو تحقيق الذات وبالتالي حقق أنجازات هائلة في مجال تطوير العلم والمعرفة والتقنية.

لذا فلا بد لنا من التخطيط مستقبلاً من أجل خلق ظروف تساعد في تنشيط الطبقة المتوسطة التي تسعى غالبا لتحقيق الذات من خلال عمل مميز تستطيع أدائه بحرية ويصب في صالح بناء المجتمع المتطور. ومثلما لم يعد الحافز المادي هو الوحيد للعمل المبدع لدى الإنسان في الولايات المتحدة واليابان وغيرها من البلدان المتطورة والتي دعت المستكشف كرانت للذهاب في رحلته إلى أفريقيا كما أسلفنا. فإن علينا أن نضع سياسة مستقبلية تهدف للوصول إلى مجتمع آمن ومستقر لكي ينشط ويتحفز في تحقيق الحاجة السامية للأنسان في تحقيق ذاته من خلال عمل مميز في مجالات الحياة المتعددة وبالتالي سوف تتبلور كل تلك الأعمال لصالح بناء البلد وأزدهاره ولصالح البشرية جمعاء.

---

(1) Maslow، Abrahum، h Motivationand Personality 2nd ed، N ew York، Harper & Row Publishers، (1970) 35 _85.

الجزء الأول

من العصور القديمة إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين

الفهرس

الفصل الثالث

عصر المغول

المقدمــــــة

تضـمن الجـزء الأول مـن هـذا البحـث المتسلسـل بعنـوان العنـف السياسـي في بـلاد الرافـدين (دراسـة في جـذوره التاريخيـة) أربعـة فصـول ابتـداءً مـن تـاريخ حضـارة وادي الرافدين القديمة، والتي كانت واحدة من أقدم الحضارات في العالم. ثم تناولنـا في الفصل الثاني تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، وشمـل الفصـلين الثالـث والرابـع عصـر فجـر الإسلام أو فترة الدعوة المحمدية وعصـر الخلفـاء الراشـدين. وقـد اسـتطعنا أن نضـع بـين يـدي القـارئ بعـض الاسـتنتاجات مـن خـلال مـا تم التطـرق إليـه مـن اسـتعراض سـريع للأحـداث التاريخيـة المهمـة، وتم التركيـز علـى العنـف السياسـي والظـروف والـدواعي الاجتماعيـة والاقتصـادية والفكريـة المؤديـة لتلـك الأحـداث. وكـان مـن بـين المواريـث التاريخية المؤثرة علينا في العصر الحالي تلك المفاهيم المنسجمة مع عصر العبودية والتي كانت تصب في خدمة الحاكم أو الملك، وتسلط الديانات الوثنية والأوهام والأفكار الغيبيـة والخرافية التي كانت سائدة ومهيمنة على عقلية القوم، والـتي جعلتهم يهرولـون طيلـة حياتهم لخدمة الإله والكهنة والملك الذي كان يمثل الإله الحامي بالإضافة إلى وازع الخـوف والتشاؤم التي أصبحت أحدى الصفات المميزة لبلاد الرافدين.

وكيف تبلورت فكرة الإله الواحد والتوحيد والتي لم تستطع هي الأخرى إزالة كل آثار المـوروث الفكـري القـديم الـذي انطبـع في أذهـان النـاس منـذ العهـد الـوثني ـــ عصـر العبودية. وتوصلنا إلى رسم سلم يوضح مراحل تطور الحضارة الإنسانية يتميز بحصول قفزات حضارية في حياته بشكل مختلف عن سابقتها من خلال اكتشافات علميـة مميـزة لعبت دوراً بارزاً وكانت حاضنة لحقبـة زمنيـة محـددة. وقـد وردت تسـاؤلات عديـدة لم يتم الإجابة عليها في الجزء الأول مـن الكتـاب أو البحـث. ونحـن نحـاول الإجابـة علـى تلـك التساؤلات وفك الألغاز والرموز التي ستظهر بوضوح أكثر من خلال استعراضنا للأحداث

التاريخية اللاحقة في هذا الجزء والجزء الذي يليه. وقد تضمن الجزء الثاني من البحث هذا العصر الأموي في الفصل الأول، ذلك العصر المتميز بالفتوحات الإسلامية المترامية الأطراف، وفي الوقت ذاته بطبيعة وشكل نظام الحكم القبلي الوراثي الذي أطاح بمبدأ الشورى وأبقى على النظام القبلي البدائي الذي كان سائداً في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وكان لزاماً علينا أن نستعرض تأثير الموروث التاريخي المتمثل في نظام العبودية على عقلية الناس وسلوكهم وكذلك شكل التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري بالإضافة إلى أمثلة ونماذج عن ممارسات العنف السياسي والحركات والثورات والانتفاضات التي جرت. وهكذا الحال بالنسبة للفصل الثاني والذي تم استعراض الأحداث التي جرت في المنطقة أيام العصر العباسي الذهبي، ذلك العصر الذي نتغنى به ونتفاخر به الآن. وبمنهجية مشابهة لما تم التعرض له في الفصل الأول، ولكن تم التركيز هنا على الأفكار والمذاهب التي ظهرت والتي ما زالت موضع جدل ونقاش إلى يومنا هذا. وقد كان عصر المغول هو خاتمة هذا الجزء نأمل أن نكمل الاجزاء الأخرى إلى أن نصل إلى العصر الحديث الذي نعيش فيه.

لقد آليت أن أنقل بعض الاحداث التاريخية كما هي من مصادرها الموثوقة والمعترف بها من قبل كل الأطراف، وحاولت أن أعتمد في الأعم الأغلب على المصادر الأجنبية الرصينة، على افتراض أنها غير متأثرة أو متحيزة لجهة دون أخرى من خلال هدف هؤلاء الباحثين في الوصول إلى الحقيقة فقط.

ولكون أي منهم غير منتمي لطائفة دون أخرى بالإضافة إلى البيئة العلمية التي نشأ فيها والتي تجعله يميل أكثر إلى الموضوعية والحيادية في الطرح. بالإضافة لذلك فإن المصادر العربية المطابقة لتلك المصادر والمعترف بمرجعيتها الرصينة قد اعتمدت أيضاً دون إضافة أو نقصان من أجل الوصول إلى نتائج موضوعية تخدم البحث في طبيعة وطريقة تفكيرِ الفرد الرافديني، والشرق أوسطي عموماً.

ونحن نعيش اليوم في ظل عالم يحوي على بشر يضعون المتفجرات في بطونهم ويفجرونها على جمع غفير من الناس العزل، لا بد لنا من التوغل في جمع كل المعلومات والاحداث التاريخية من أجل فهم ما يدور في رؤوس هؤلاء بهدف وضع خطة للمعالجة الصحيحة. وقبل البدء بالتفاصيل لا بد لنا أولاً أن نبدأ بتعريف بعض المصطلحات المستخدمة لكي نصل إلى فهم مشترك لما يدور حولها.

لقد وضعت الموسوعة الفلسفية العربية (معهد الإنماء العربي 1986) تعريفاً للإرهاب لا بد لنا من ذكره ونحن نبحث في العنف السياسي.

فالارهاب لغوياً: تشتق كلمة إرهاب من الفعل الثلاثي (رهب) أي أخاف. والرهبة هي الخوف والفزع. وارهبه ورهبه أي أخافه وفزّعة والراهبة هي الحالة التي ترهب أي تفزع وتخوف. أن (الرهبة (لا تدل على حالة نفسية تعانيها أو تعبر عنها ذات معينة أو شخص معين أو جماعة معينة، وبالتالي فهي لا تحمل أي معنى سياسي/ اجتماعي يقوم على العلاقة القائمة بين نتائج الخوف وبين استغلاله بشكل هادف وواع من قبل فاعل الفعل. أما كلمة إرهاب (Terrorism) فهي تسمح باستخراج علاقة بين نية الذات الفاعلة ونتائج الرهبة على الموضوع الذي يتحملها، ولكن المعنى السياسي/ الاجتماعي القائم على طبيعة البواعث والاهداف التي من جرائها يحصل فعل الارهاب لم يظهر إلا مؤخراً

إن الإرهاب السياسي باعتباره ظاهرة اجتماعية إنما يتعلق بمجال الوجود والوقائع والنشاط العملي للبشر، ولا يمكن أن نفهم الارهاب السياسي في مكوناته ما لم نضعه في سياق المنطق التطبيقي للوضع المعين الذي نشأ فيه. كما يجب أن نضعه ضمن الكلية التاريخية التي ينتمي إليها، وهذا يعني أنه لا يمكن فهم هذا الفعل، وتحليله باقتطاع مكوناته من محيطها الديناميكي، وبترها منه بتراً بهدف ابراز كل منها على حدة، بل يجب أن تعتبر بكليتها قوة محركة وملازمة للفعل نفسه، ومتشابكة مع الوضعية السياسية التي لزم عنها الارهاب.

ومن هذا المنطلق علينا بالعودة إلى فهم الجذور التاريخية وراء العنف السياسي من خلال إعادة قراءة الاحداث التاريخية، والصراعات بين البشر، وتحليل أسبابها الاقتصادية والاجتماعية، مع الاخذ بنظر الاعتبار مراحل نمو وتراكم الخبرات في العقل البشري، بالإضافة إلى العامل الجغرافي.

الاستبداد (Tyranny) لغوياً: أستبد برأيه على رأي الآخرين أي قدم رأيه على أنه الصواب دون غيره.. والاستبداد ظاهرة قديمة ومستمرة في التاريط، وله أشكال وأنواع عديدة، ويمكن تعريفه بأنه الانفراد بالأمر ورفض طلب المشورة أو قبول النصيحة حيث ينبغي الطلب أو القبول.

ويأتي على غرور المرء بنفسه أو عدم قدرته على الانفتاح وتبادل الآراء أو عدم إرادته كتم حقيقته لغيره.

وإذا كان الأمر متعلقا بتدبير مصلحة جماعة معينة، فإن الاستبداد يعني التصرف المطلق بشؤون الجماعة بمعنى المشيئة الخاصة والهوى. ولا يبعد معنى الاستبداد عن معاني التعسف والتحكم والاستعباد والسيطرة التامة. ويختلط مفهوم الاستبداد مع مفهوم الطغيان في أكثر النصوص.

فالطغيان بمعناه العام يشتمل على عنصرين لا نجدهما في الاستبداد وهما القهر والجور . فالاستبداد من حيث هو تصرف غير مقيد وتحكمي في شؤون الجماعة السياسية، يبرَز إرادة الحاكم وهواة ولا يعني بالضرورة أن تصرف الحاكم ضاغط بعنف على المحكومين غير مبال بقواعد العدل والانصاف، بينما الطاغية يعني الحاكم الذي يستولي على الحكم بصورة غير شرعية، ولكنه يحكم بموجب قوانين نافذة. ومن هنا نشأت فكرة الحاكم المستبد المتنور، فالاستبداد لا يتنافى في ذاته مع العدل والنور، ولكن تحكم الهوى في التصرف التفردي تبعد الحاكم عن التبصر العقلي في الأمور، وبالتالي عن مسلك النور والعدل (الكواكبي).

وهناك بعض المصطلحات الفلسفية تم التطرق إليها في هذا الجزء من البحث لا بد من تعريفها وهي:

- الاستقراء (Induction): فهو نوع من الاستدلال أو الاستنتاج مباشر وغير مباشر، الأول هو استنتاج قضية من قضية واحدة، وغير المباشر هما القياس والاستقراء. والقياس هو استنتاج قضية من قضيتين لا أكثر ولا أقل. أما الاستقراء فهو استنتاج قضية من أكثر من مقدمتين وليس في الاستقراء يقين، وإنما صدقه صدق احتمال وكلما زاد عدد المقدمات زاد احتمال صدق نتيجته *.

- الاستنباط (Deduction) لغوياً: استخراج الماء من العين من قولهم نبط الماء: إذا خرج من منبعه. ويعني كمصطلح استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة. ويستند الاستنباط إلى مجموعة من التعريفات والبديهيات والمصادرات. ومن هذه جميعاً ننتقل إلى ما يترتب عليها من نتائج وتسمى النتائج بالنظريات. (الجرجاني).

لقد كان هذا الجزء كاشفاً لحقائق تاريخية قلما يتطرق إليها المؤرخون كي لا يتعرضوا لانتقاد أو خدش لمشاعر الناس المغرمين والمتعلقين بحب فترة زمنية معينة أو شخصية تاريخية معروفة، لكننا توخينا الموضوعية وآلينا أن نضع تلك الحقائق أمام أعين الجميع من أجل إيصال الحقيقة كما هي والقارئ حر في أن يأخذ بها أو يرفضها. أو يعدل ويضيف عليها وينتقدها أيجابياً.

لقد تم التطرق للعديد من المواضيع المختصة بكيفية نشوء وتبلور الأفكار والمعتقدات، والمذاهب التي ظهرت خلال الحقبة التاريخية موضوعة البحث والمتمثلة

---

* راجعة الموسوعة الفلسفية العربية، د. معن زيادة، المجلد الأول، ط (1986) المعهد العربي للإنماء ص 59.

بأكثر من ثمانية قرون ابتداءً من العصر الأموي وإلى عصر الدولة الصفوية والعثمانية وسيطرتهما على معظم أجزاء المنطقة. ولم يكن البحث مقصوراً على الأحداث التي حصلت في بلاد الرافدين فحسب بل شملت أحداث تاريخية شرق وغرب المنطقة ولمديات بعيدة. والسبب في ذلك واضح وهو أن الأحداث التاريخية المهمة مترابطة لا يمكن فصل بعضها عن بعض. فإذا أصبح العالم الآن يشبه قرية صغيرة بفضل تقدم وسائل الاتصال، فإن العالم في كل وقت مضى على هذا الكوكب واحد، ولا يمكن فصل احداثه التاريخية عن بعضها.

كان الإنسان منذ القدم متنقلاً لا يعيقه حاجز مروري أو (سمة دخول) أو بروتوكلات رسمية في اختياره المكان الذي يرغب العيش فيه. وقد حاولنا قدر الإمكان التركيز على كل ما يختص بتاريخنا ليس فقط كحدث تاريخي بل من خلال تاثيره علينا كموروث راسط في عقول الناس في الوقت الحاضر.

وأعطينا تواريط الأحداث بالسنين الميلادية كما هو مستخدم في أغلب مناطق العالم مع اعتزازنا بالتاريط الهجري المعمول به في البلاد الإسلامية فقط، وذلك لكي نسهل على القارئ المقارنة بين ما كان يجري عندنا مع ما هو حاصل في تلك الفترة في مناطق أخرى من العالم البعيد. كما وضعنا بعض الاستنتاجات من خلال ما تم استعراضه من أحداث تاريخية ومناقشة بعض الأفكار والمذاهب التي نشأت في المنطقة وكانت تلك استنتاجات أولية يمكن اعتبارها كمقدمة لما سيأتي لاحقاً والتي ستكون بمثابة وضع الاصبع على الجرح، أو بالأحرى منهجاً علمياً رصيناً يضع النقاط على الحروف من أجل الخروج من دائرة العنف والتخلف السائدة في المنطقة واللحاق بركب الحضارة الحديثة.نأمل أن نستطيع تفكيك العديد من الالغاز غير الواضحه والمختلف عليه،ليس فقط في إتجاه منع العنف بل في حل مشاكل التخلف الثقافي والتربوي،وبالتالي الوصول على برالامان واللحاق بركب الحضارة الحديثة ليس فقط في بلاد الرافدين بل بالمنطقة العربية ككل.

الفصل الأول

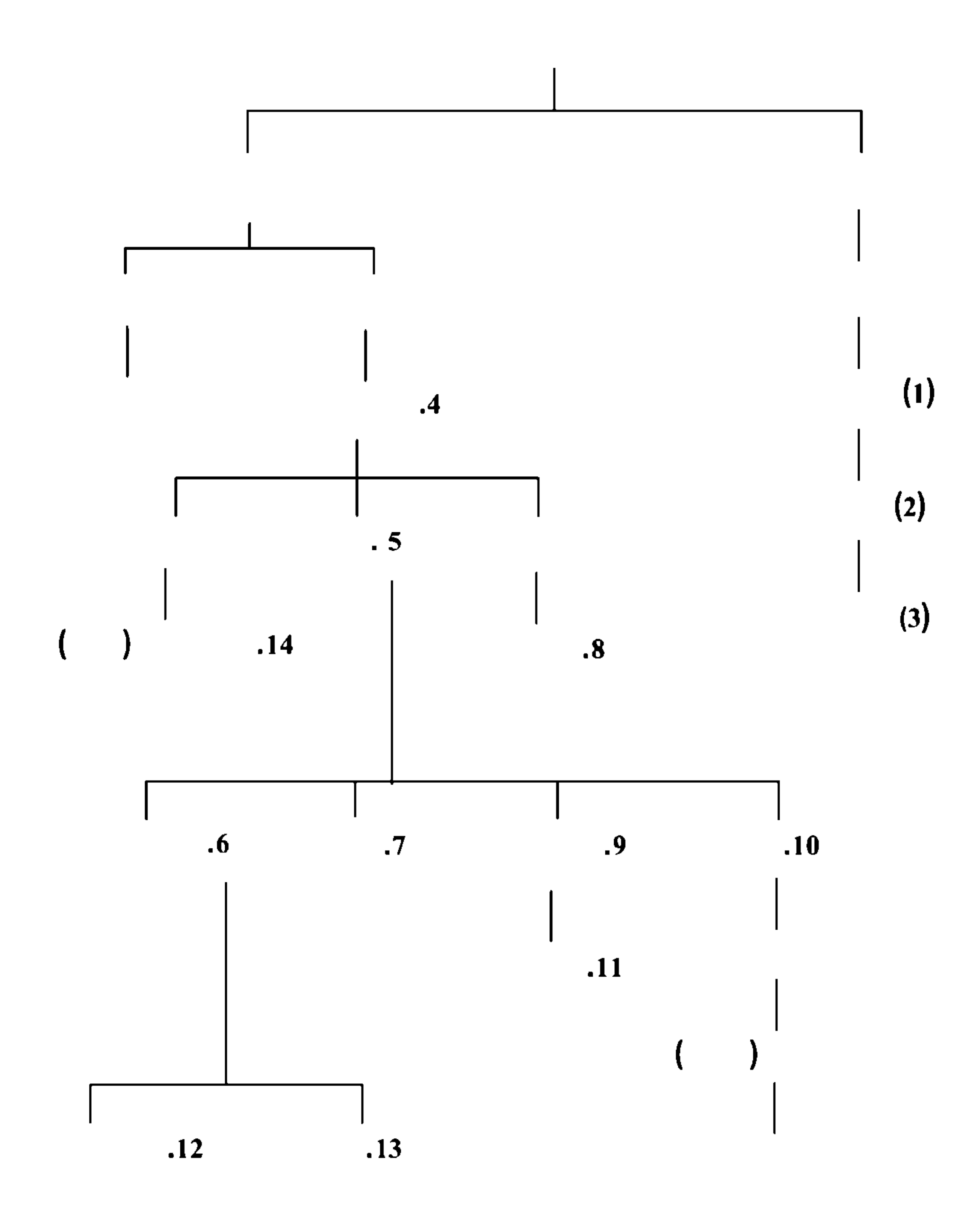
عصــر الدولة الأمويـــة

تبرز أهمية هذا العصر ضمن سياق البحث من خلال ما حصل من تغيير في نظام الحكم في سيطرة العشيرة أو القبيلة (بني أمية) وعودة العصبية القبلية إلى نظام الحكم السياسي العربي بعد كل الإنجازات التي حصلت في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين من بعده. وبروز أكبر إمبراطورية إسلامية في العالم في تلك المرحلة التاريخية التي كانت تعيشها أوروبا ضمن العصور المظلمة الوسطى (من عام 661م أي منذ تولي معاوية بن أبي سفيان الحكم إلى نهاية الدولة الأموية عام 748م)، وسنحاول التعرض لأبرز ما حصل فيها من ثورات وحركات سياسية، كثورة الحسين بن علي بن أبي طالب. وثورة عبدالله بن الزبير في الحجاز وغيرها من الحركات السياسية وانتهاءاً بثورة العباسيين التي بدأت في إيران وأطاحت بالحكم الأموي.

وأهم من ذلك كله العنف السياسي الذي مورس ضد العراقيين من قبل الولاة المرسلين من سلاطين الأمويين إلى العراق وبالأخص الحجاج بن يوسف الثقفي، وكذلك أهم الانقسامات والفرق الإسلامية التي بدأت بذورها تنمو وتتجذر بمرور الزمن والتي لا نزال نعاني منها إلى يومنا هذا وبشكل بارز وعنيف. لكي نستطيع الاقتراب من فهم الأسباب والدواعي لكل هذه الانقسامات من خلال الاطلاع على النشأة الأولى لها، وما أدت من أعمال عنف وقتل طيلة تلك القرون الغابرة.

وهذا يتطلب أيضاً التطرق إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية والفكرية من خلال دراسة كل ما يتعلق بالمسببات والدواعي التي أدت إلى استعمال تلك الانقسامات بينما لا يهمنا الدخول في تفاصيل تاريخية عن حكم الخلفاء الأمويين وأعمالهم وما إلى ذلك من سرد تاريخي يمكن الرجوع إليه في المصادر التاريخية المتخصصة في هذا الموضوع.

ونكتفي بوضع خارطة جدول للخلفاء لتوضيح تسلسل الخلفاء في توليهم الحكم، وكما هو موضح في الشكل (1) عن كتاب استانلي لين بول (تاريخ الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء (ترجمة مكي طاهر، عباس اقبال. الدار العربيّة للموسوعات ـ بيروت (2006).



شجرة تسلسل خلفاء الدولة الأموية

1. الفتوحات العربيّة الإسلاميه :

تم الفتح العربي بسرعة أدهشت الفاتحين أنفسهم، ولم يكن الغرض من هذه الحروب في الأساس سوى الغزو[1] تحت راية نشر الدين الجديد (الإسلام) إلى كل أرجاء المعمورة، فجاء الاصطدام يكشف عن عورات الخصم والضعف الذي انتابه،وتحولت الفكرة الأولى، الغزو إلى فتح ساعد عليه وسهل أمره الحماسة التي جاء بها الفاتحون المسلمون الملهمون بالعقيدة الإسلامية منذ عهد النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ويكمن الضعف بالأساس في ضعف الامبراطوريتين البيزنطية في الغرب، والساسانية في الشرق، وهزيمتهم أمام مقاومة المسلمين بل أن قسماً من سكان البلاد تعاون معهم وعمل على نصرتهم، وبشكل خاص المناخق الشمالية من الجزيرة العربيَة التي كان يقطنها أكثرية عربية، وتتميز بطبيعتها الصحراوية الحارة المشابهة لظروف قلب الجزيرة العربيَة، فقد تم فتح سوريا سنة 636م بعد أن بوشر به عام 633م، وقد بوشر بفتح العراق في الوقت ذاته وتم نهائيا عام 637م.

أما فتح مصر فقد تم بين عامي 639م و 642م، وقد تم فتح إيران نهائياً باستثناء بعض المقاطعات الدائرية عام 651م، وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية، على تنظيم شيء من الدفاع (الوطني) خلافاً للأمر في الولايات البيزنطية، إذ ما كادت جيوش العرب تطل على هذه الولايات حتى راح حكامها يخلونها بسرعة، ويفرون إلى

---

(1) الغزو: في تعريف علماء اللغة تعني الطلب. وهو مورد من أهم موارد الرزق عند الأعراب، لا سيما في سني انحباس السماء وانقطاع المطر، وقد يقع الغزو لأسباب أخرى لا علاقة لها بانحباس المطر بل بسبب تجمع القبائل بعضها ببعض والعادة أن القبائل القوية تطمع في القبائل الضعيفة لتأخذ منها ما عندها من رزق ومال فتغزوها لتستولي على ما تجمعت به. أنظر جواد علي (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) ج5. ص333.

القسطنطينية إن لم يتواخؤا مع المسلمين الفاتحين، وقد بات من الصعب على المسلمين بعد أن خفت حماستهم وخف اندفاعهم أن يفتحوا آسيا الصغرى بعد أن فشلت محاولتان لهم للاستيلاء على القسطنطينية، وبسط سيطرتهم على آسيا الوسطى، حيث أصبح نهر السيرداريا منذ أواسط القرن الثامن، الحد الفاصل بين الامبراخورية الإسلامية وبين المقاخعات الواقعة تحت سيطرة الصين، وقبائل البدو الرحل من تتر ومغول، وكذلك لم يكن فتح شمالي افريقيا بالأمر الهين لشدة مقاومة البربر لهذا الفتح، ولم يستقم الأمر للمسلمين إلا بعد مساهمة هؤلاء البربر في فتح اسبانيا ثم صقلية بعد ذلك بنحو قرن من الزمن، وكانت معظم هذه الفتوحات قد تمت في العصر الأموي.

أما بالنسبة للأقاليم الجبلية التي يقطنها الأكراد في الشمال فلم يدخل الإسلام إليها إلا بعد قرون بسبب وعورة المناخق الجبلية التي يقطنونها، ولم يتم ذلك بالسيف والإكراه ولكن بالاقناع والاقتناع، كما كان الحال في أغلب مناخق الشرق.

وهكذا دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين أقاليم شاسعة امتدت من نهر الهندوس شرقاً إلى نهر التاج في اسبانيا غرباً، ومن بحر أورال شمالاً إلى أقليم السنغال جنوباً (افريقيا)، وكلها مناخق تأتلف مع خبيعة العرب، وتتوافق عاداتها ومعايشها ومفهومهم للأمور المعاشية، من حيث احتياجاتهم اليومية التي لا تختلف عند الكثيرين من سكان هذه البلاد الأصليين، عن احتياجات العرب ومطالبهم الأساسية، ولكن هناك أمران مهمان في الجغرافيا والتاريخ، جعلت الفرق كبيراً بين هذه البلدان، لابد من التنويه عنهما هنا، وهذان الأمران هما أنه بعد الفتح جرى تنظيم هذه البلدان في إخار وحدة فضفاضة على أساس من الاتفاقات المشروخة لتأمين خضوع السكان واستسلامهم، ففي تلك الحقبة التاريخية لم يكن هناك وسائل اتصالات متطورة، كما هو عليه الحال في عصرنا الحالي، وبالتالي يمكن تصور صعوبات الإدارة ونشر الدعوة الإسلامية بالشكل

الذي فهمها العرب بالجزيرة العربيّة من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية والتي كانت بلغتهم المتداولة. وبدلاً من أن يذوب الفاتحون العرب بين أكثرية سكان البلاد الأصليين، مع ما بين الجانبين من فوارق العادات والأخلاق نراهم ينزلون في مخيمات عسكرية خاصة بهم في مقاطعات لم تأخذ بعد تماماً بأسباب الحضارة والتطور، فإذا بسكان البلاد يغدون على هذه المحميات التي لم تلبث أن أصبحت مدناً عامرة كالكوفة والبصرة مثلاً في جنوب العراق، والفسطاط (القاهرة حالياً) في مصر، والقيروان في المغرب، وكلها مراكز زراعية عامرة تقع على مقربة من الصحراء في الداخل، بعيدة عن البحر ومواصلاته إذ لم يكونوا قد خوعوه بعد، ولا ألفوا ركوبه، أما الجيش الذي كان يتألف من كل من يستطيع حمل السلاح المؤلف من السيف والرمح، وينال من الخصم، فينقسم إلى فرق تتمركز في مقاطعات عسكرية تعرف عندهم باسم (جند الإسلام) تجري عليها الأرزاق والمرتبات من الاسلاب والمغانم الحربية كل بحسب مرتبته، أو من الرسوم والضرائب المفروضة على الذميين وعلى من يدخل منهم في خاعة المسلمين مستأمنين وغير ذلك من الضرائب كالزكاة التي تفرض على التجار والأغنياء، وتبقى القبيلة وحدة لها شأنها الاجتماعي بالرغم مما تتعرض له من انقسامات تقتضيها مستلزمات الفتح العسكري، تحت إمرة الخليفة ومن يعاونة من الصحابة والأنصار والتابعين، وكثيراً ما أدت العصبية القبلية التي منعها الإسلام إلى الاقتتال والتناحر بين قبائل الشمال والجنوب مناصرة منها للحزبية الناشطة التي دعا إليها الوضع الجديد في العالم العربي والإسلامي، فمزقت شمله وفرقته شيعاً وأحزاباً أدت إلى إشتباكات دامية استمرت قرناً وأكثر [1].

وسنأتي إلى تفاصيل وأسباب التناحر في الفقرات اللاحقة.

---

(1) ادوار بروي ــ تاريخ الحضارات (القرون الوسطى) ــ ج2 ــ (1986) ــ ص 113.

2. أزمات الحكم الداخلية:

لقد كان لزاماً أن تفضي الأوضاع الجديدة بعد هذه الفتوحات الواسعة التي ساعدت على حل أزمة خلافة النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم إلى أزمة جديدة أخول وأكثر تعقيداً، فقد واجه تنظيم الدولة الجديدة مشكلات ضخمة لم تكن بالحسبان ولم تكن لتخطر على بال أحد، منها مثلاً قضية الحكم، والتي انطلقت من صميم هذه الفوارق والاختلافات الجذرية التي تلازم اختلاف المصالح والأهواء الشخصية في الظاهر، والتي أقامت الجماعة وأقعدتها، بعد أن زال الجيل الأول الذي صحب النبي وناصره أو لم يبقى منه إلا نفر قليل ممن أصبح شيخاً كبيراً أو عاجزاً عن حمل السلاح. والملاحظ أن وسط وجنوب الجزيرة العربيّة، قد أصبح هادئ بعض الشيء إلا أن الخلافات أخذت أوارها في شمال الجزيرة بقسميها الشرقي المتمثل في العراق والغربي في بلاد الشام (سوريا وفلسطين) وتعود الأسباب في ذلك إلى ما يلي:

1. أن الطبيعة الجغرافية مختلفة بعض الشيء عن شبه الجزيرة العربيّة الرعوية ذات القبائل المرتحلة والتي تمارس الرعي بينما تجد في العراق والشام مناخق زراعية ومدن مستقرة وذات حضارة قديمة ومتصلة بالثقافات الشرقية والغربية على حد سواء.
2. إن انتشار الإسلام بسرعة البرق وما فيه من أفكار وقيم أخلاقية سامية لم يفسح المجال لتطوير الإدارة في أساليب الحكم، بالشكل الذي يلبي فيه حاجات ومتطلبات الأقوام والمجتمعات الأخرى. بينما ظهر ما هو عكس ذلك في بروز هيمنة قبيلة الأمويين على جميع مقدرات تلك الجماعات وكانت تزاول القسر والاضطهاد والتعسف لهم.

إن مجرد الخبرة البسيطة والمتواضعة لدى الأمويين والتي جاءت من خلال سيطرتهم وهيمنتهم غير المعلنة في الجزيرة العربيّة لا تنسجم مع متطلبات المرحلة

الجديدة في ولادة امبراطورية كبيرة وواسعة ولا يمكن أن يديرها شخص واحد مهما بلغ من دهاء وقوة. فقد أصبح معاوية بن أبي سفيان أول خليفة أموي، المرجع الوحيد الذي تؤول إليه الكلمة في المنطقة ويدير أمورها منذ توليه الخلافة وإلى مماته، وكيف يمكنه أن يدخل أفكار جديدة في الأذهان دون أن تصطدم مع الأفكار القديمة التي كانت راسخة منذ ألاف السنين؟ وتنتج عنها أفكار مختلفة قد تتسبب في إثارة مشاكل وصراعات دموية لا يستهان بها. ويمكن أن تعزى هذه الاختلافات إلى اعتبارات قد تبدو غريبة في نظر البعض والتي يمكن ردها أصلاً إلى هذا الترابط الداخلي القوي الذي يشد العقيدة الدينية إلى النظام الاجتماعي والاقتصادي على حد سواء.

فالتكتلات السياسية التي ظهرت إذ ذاك لم تلبث أن أصبحت أحزاباً وشيعاً لها عقائدها وتعاليمها اللاهوتية[1] التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من وضعها السياسي والديني.

2 ـ 1 الصراعات الداخلية في بداية نشوء الدولة الأموية :

إن الدولة الأموية قد بدأت أول الأمر منذ تولي عثمان بن عفان الخلافة، فقد هيأ الأجواء من خلال تعينه لعدد من عماله الموالين له والذين ساروا بالامبراطورية إلى حالة من الصراع الطبقي بين من استحوذ على المال وآخرين محرومين، إلى أن آلت الأمور إلى ما آلت إليه من ثورة عارمة في مقتل الخليفة الثالث وتولي علي بن أبي طالب زمام الأمور، وهنا برزت للعيان ثلاثة نزاعات لا بد من الوقوف عندها، فمنذ البدء نرى فئة الذين يراودهم الحلم المعسول، الصعب المنال، الذي يتبدى لكل دين جديد والذي يرجى للمحافظة على مظاهر الحياة البدائية وإحيائها، ممثلة خير تمثيل (بقدامى المسلمين)،

---

(1) اللاهوتية: مصطلح يطلق على كل علماء الدين المتخصصين لجميع الطوائف والأديان وبذلك يشمل القساوسة والكهنة والحاخامات والفلاسفة والمتكلمين وغيرهم.

والفئة الأخرى التي تتألف من هذا الفريق الجرئ الذي يعمل على الإفادة من الظروف القائمة وتسخير السلطان لمصلحته ومنفعته الشخصية، وبعبارة أخرى بين من يقول بالتقية ويتمسك بأهداف الدين الحنيف، وبين هؤلاء الحكام الإداريين ممن يتولون تصريف الأمور ومعظمهم من آل قريش الذين يهمهم في الدرجة الأولى أن يسترجعوا في الامة النفوذ الذي كان لقريش في مكة قبل الإسلام ويعيدوا إليها السيادة والنفوذ والذي تمتعت بهما من قبل، وبالتالي العودة إلى حكم القبيلة، ولكن بسطوة أكبر ونفوذ ومال أعظم باسم العقيدة الدينية الجديدة.

وقد كان يتزعم هذه الفئة معاوية بن أبي سفيان الذي تولى أمر الشام منذ عهد خلافة عمر وأسس خيلة فترة توليه أمر الشام مع مجموعة من مناصريه جيشاً لا يستهان به، وحاول من خلال وجود العداء بين القبيلتين العربيتين الكبيرتين الكلبية (القادمة في الأصل من اليمن) والقيسية التي تقطن المناخق الشمالية من الجزيرة، أن يميل إلى الكلبيين ويكسبهم إلى جانبه في جميع معاركه. وقد تمكن أيضاً من خلال انتمائه للدين الإسلامي أن يجعل من القرآن الكريم والسنة النبوية دستوراً لامبراخوريته يحكم باسمها، كما حكم من قبله القيصر (قسطنطين الثاني) الامبراخورية الرومانية من خلال تمسكه بالإنجيل والديانة المسيحية ليبسط بها سيطرته عليها. لقد اتخذ معاوية القرآن الكريم والسنة النبوية دستوراً لدولته بالاسم في الغالب، بينما كان حكمه يرجع في الأساس لخبرته القبلية الأولى. كما أنه استقر في دمشق وجعلها عاصمة لملكته، مكرساً بذلك ما كان لابد منه وهو تحول مركز الخلافة من الجزيرة العربيّة إلى الشام، مؤذناً بانتهاء الدور التاريخي الذي لعبته مكة والمدينة بإعطاء العالم ديناً جديداً وجيشاً سعى للتوسع إلى خارج الجزيرة العربيّة. وقد أضفى انتقال مركز الخلافة إلى دمشق أهميه متزايدة لعرب الشام فأصبحوا عماد الدولة الجديدة وذخرها، وأصبحت الشام في المنزلة الأولى بين الأقطار الإسلامية تفضلها جميعاً،

ولا سيما العراق حيث كان أنصار أهل البيت أقوياء يتخذون من الكوفه مركزاً لدعايتهم ولدعوتهم[1]. واضطرت الدولة الناشئة أن تعتمد في إدارتها على أهل الشام الذين أصبحوا عماد الدولة فأمدوها بالعمال والموظفين من أبناء البلاد، وهكذا رجحت كفة التقاليد البيزنطية في الشام على التقاليد الساسانية المتمثلة في الجانب الشرقي (العراق). وتألفت إدارة الدولة من قطاعين، ينتظم الأول سياسة المسلمين فينتظم منهم شؤون الحرب والسلم وأمور العبادات ويؤمن أقسام المرتبات والاعطيات وجمع الزكاة ويتولى شؤون هذه الإدارة في عاصمة الخلافة دمشق، وفي الأقاليم موظفون عرب. أما الثاني فيعنى بشؤون البلاد، ولا سيما تنظيم الضرائب وجبايتها ويتولى القيام بها، والإشراف عليها عمال وموظفون من أهل البلاد يتولون كتابة الديون، وضرب السكة بلغة البلاد، وغير ذلك من أمور الإدارة التي لا علاقة لها بشؤون الدين. ونرى في القطاع الأول يزداد التباعد أو الانفصال بين الدولة والدين. فالدين ينظم مبدئياً كل شيء في الحياة العامة والخاصة بحيث لا يمكن إدخال أي تغيير عليها أو تعديلها وقد انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الأصليين بسهولة كلية وفقاً لروح القانون المعمول به في البلاد، والنظام الساري المفعول كما هو الحال مع كل فتح جديد، وبقيت كل ملة او طائفة محتفظة بقانونها الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على شؤون البلاد عندها، باستثناء ما كان منها تابعاً للحق العام، فمرجعه الحكومة. أوما تعلق بالعلاقات الخاصة بين هذه الطوائف بعضها ببعض، فكان أمره متروكاً للقضاة الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال بالنسبة للحكومة، مع أنها هي التي تتولى أمر تعيينهم وتأمين مرتباتهم، ويسهرون على تطبيق قانون لم تكن الدولة قد أصدرته. ونلاحظ تطوراً ملحوظاً يطرأ على وضع النصارى بعد أن احتفظت بيعهم بجانب من ممارسة العدالة في الأمور الخاصة، ولا سيما في الأمور العائلية منها. وهكذا برز البطاركة والأساقفة والرؤساء الأعلون لطوائفهم تعلو سلطتهم

---

(1) ادوارد برودي (تاريخ الحضارات العام)، ج2 ، القرون الوسطى، ص118.

الموظفين الإداريين المحليين حتى أن اليهود أنفسهم لم يجدوا بأساً في الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين وبربانتهم وبحاخامهم الأكبر في منطقة فلسطين والشام.

يقول هادي العلوي في كتابه فصول من تاريخ العرب السياسي :

(ولما استتب أمر الخلافة لمعاوية، وبعد أن قام أهل العراق بإعلان أن الحسن بن علي خليفة شرعي للمسلمين، لكن معاوية تمكن من جعله يتنازل وأوعده بالولاية من بعده، ثم ما لبث أن تمكن عن طريق زوجته جعدة ابنة الخائن المحترف الأشعث بن قيس من دس السم إليه. وقد انزوى الحسن مكتفياً بهبه سنوية منحه إياها معاوية نفسه، حتى مات مسموماً وهو في الخامسة والأربعين من عمره.

لم يكن الصراع متكافئاً بين معاوية والحسن، فقد كانت الخبرة المتراكمة لدى معاوية والتي حصل عليها من والده أبو سفيان وأسلافه الآخرين أيام العرب الأوائل قبل الإسلام وما يتمتع به من أساليب الدهاء والفتك والحنكة، وكانت لديه كل الأسلحة القادرة على القضاء على أي معارضة، ولكنه لم يدخل مثل هذه المعارك غير الضرورية محاولاً جذب كل القوى لدعم حكمه، مجهزاً على خصومة بطرق قاتلة سرية لا تثير غضباً اجتماعياً. ثم واصل دفع ذلك التيار الحربي السياسي القوي، وهو تيار الفتوحات الذي كان دائماً الجاذب الأكبر للقبائل العربية والذي يشغلها عن الصراع السياسي، ويملأ أيديها بالغنائم).لقد حقق معاوية في ذلك الأمر حلم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في الهيمنة على بلاد المشرق (الدولة الساسانية) والمغرب (الدولة البيزنطية) خلال فترة حكمه،كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يوعد العرب قبل إسلامهم بأنهم سوف يسيطروا على تلك البلدان، إذا ما اتبعوا دين الإسلام، وآمنوا بالله ورسوله أيام كان في مكة، ومنذ بداية الدعوة الإسلامية[1].

---

(1) كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية)ترجمة منير بعلبكي، وبينه أمين، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت (1977).

فقد دخل معاوية بالاضافة لذلك قبائل الشام العربية والمسيحية في الفتوحات محولاً إياها إلى الإسلام فغدت الدعوة القبلية لحكمه، مشعلاً الخلاف بين القيسيين والقحطانيين، كما ذكرنا، وكان منتظماً جدياً لأدوات التحديث، كإنشائه الجيش المنظم والاسطول البحري وإنشائه مصلحة البريد الهامة، وديوان التسجيل..الخ. وهكذا تحولت الخلافة التي كان يراها المسلمون بأنها استمرار للنبوة، وأن يحكم الخليفة بلا امتيازات، وأن لا يسكن في قصر ويأخذ من بيت المال راتباً يكفيه لمعيشة وسط إلى أن أصبحوا ملوك. وقد قال أبن كثير في (البداية والنهاية): (أن السنة أن يقال لمعاوية ملك ولا يقال خليفة)[1]. والأمر الآخر الأهم من كل ذلك هو أن يولي يزيد ابنه إلى الحكم من بعده، وبالتالي تحول النظام الإسلامي من نظام شورى إلى نظام وراثي للأبناء، وكان ذلك انقلاباً مدوياً، فقد أخيح هنا بحكم الشورى، ودخلت الدولة في الملكية المطلقة، ولم يعد ثمة أهمية للقب أمير المؤمنين أو الخليفة الذي يموه كلمة الملك، وهذا تبدل جذري حصل منذ تولي يزيد بن معاوية مقاليد الحكم، واستمر في ذلك إلى نهاية حكم الدولة العثمانية دون منازع، مما يدل على تأثير الموروث التاريخي والعوامل الجغرافية والاقتصادية وغيرها في تجديد شكل الإدارة في المنطقة، وفي التمسك بالاعتقاد بأن الملك أو الحاكم يستمد سلطته من السماء. لقد جرت عمليه الانتقال هذة بعد كبار الخلفاء، ووقعت في حضن مراهق نزق هو يزيد بن معاوية الذي تراكمت في يديه كل نتائج تطور جهاز الدولة، وأدوات القمع وشراء الذمم من أسلافه، وكانت النتيجة لهذا الانتقال، تعرض الإمام الحسين بن علي في الواقعة المؤلمة الكبرى الدموية بمعنى الكلمة، مما ترك آثار مأساوية لا تمحى في ذاكرة المسلمين[2]. وفي معرض بحثنا في العنف السياسي وجذوره

---

(1) (محطات في التاريخ والتراث)، هادي العلوي،المصدر، ص115.

(2) عبدالله خليفة (الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية)، ط1، ج1، (2005)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ص139.

التاريخية، لابد لنا من تسليط ضوء بخصوص حادثة استشهاد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ولنبدأ هنا أولاً بما جاء على لسان طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى)، وكذلك آراء بعض الكتاب والمستشرقين الغربيين الموضوعيين والبعيدة عن الانحياز لطائفة دون أخرى نظراً لأهمية هذه الحادثة في تاريخنا القديم والحديث والتي لا زالت آثارها تعيش فينا نحن العراقيين شئنا أم أبينا وكما يلي:

2ـ2 حادثة استشهاد الإمام الحسين بن علي:

(أقام الحسين بن علي بمكة رافضاً بيعة يزيد، وبدءت الرسل تتواصل بينه وبين شيعة أهل البيت في الكوفة وهم يمثلون أكثرية السكان هناك، وقد استجابت هذه الشيعة للحسين إماما لهم، فدعوه إلى أن يأتي الكوفة لكي يساعد في خلع يزيد، وإخراج عاملهآنذاك النعمان بن بشير. وقد كثرت هذه الكتب حتى منحها الحسين كثيراً من عنايته، واراد أن يستقصي أمر هؤلاء الناس، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة ليلقى أهلها ويعلم علمها، فإن أنس منهم نية صادقة وعزيمة مصممة على الخروج، حتى إذا رأى أن قد بايعه منهم من يستطيع أن ينهض بهم إلى ما يزيد من خلع يزيد كتب إليه بذلك ليرحل إلى الكوفة، فمضى الفتى إلى الكوفة، ولكنه اضطر أن يستخفي بأمره عند بعض أهلها، وجعلها وجوه الناس ورؤساءهم حتى إذا استوثق منهم جعل يأخذ البيعة عليهم للحسين. وفي هذه الأثناء ولى يزيد أمره الكوفة إلى عبيد الله بن زياد عامله على البصرة بدلاً من النعمان بن بشير لكونه أكثر صراماً وحزماً للأمور الخطيرة المقبلة. وكان مسلم بن عقيل قد أخذ البيعة على أكثر من ثمانية عشر ألفاً وكتب بذلك إلى الحسين وألح عليه بالقدوم إلى الكوفة ولم يكد أبن زياد يستقر في سلطانه الجديد حتى طلب مسلماً سراً وعلانية وجدّ في الطلب حتى عرف مكانه عند رجل

يدعى هاني بن عروة، فلم يزل بهاني هذا حتى أحضره بين يديه، ثم لم يزل به حتى قرر بأن مسلماً مختبئ في داره، ثم حبسه وهاج الناس لحبسه فلم يبلغوا بهياجهم شيئاً. وثار مسلم آخر الأمر ونادى بشعاره، فثارت معه العرف من أهل الكوفة، فمضى حتى بلغوا المسجد ولكنهم لم يثبتوا، ولم يكد الليل أن يتقدم حتى كانوا قد تفرقوا عن الفتى وتركوه وحيداً، وقد جئ به عبيد الله بن زياد آخر الأمر، فقتله في أعلى القصر وألقى رأسه، ثم ألقى جسمه إلى الناس. وقتل هاني بن عروة وصلب القتيلين معاً. وقد وصل كتاب مسلم إلى الحسين بمكة فجعل يتأهب للمسير إلى الكوفة وجعل الناس يلحون عليه أن لا يفعل ذلك ويذكرونه بأس يزيد وبطش أبن زياد، وغدر أهل الكوفة، وقد مضى مع الحسين نفر من بني أبيه ومن بني أخيه الحسن، واثنان من بني عبيد الله بن جعفر ونفر من بني عمه عقيل، ورجال آخرون حرصوا على أن ينصروه. ولما رأت الأعراب قدومه إلى العراق منابذاً ليزيد خمعوا في صحبته وانتظروا منها الخير، فتبعه منهم خلق كثير، ولكنهم تفرقوا عنه بعد علمهم بأنها الحرب بينه وبين خصمه زياد حال تقربه من العراق. ثم ندب ابن زياد لحرب الحسين رجلاً من أقرب الناس إليه وهو عمرو أبن سعد بن ابي وقاص، وأرسل معه جيشاً من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، ومضى عمرو حتى لقى الحسين فسأله فيم قدم؟ فقال له الحسين، كتب إليَ أهل المصر يستقدموني ويبذلون لي نفرهم وأظهر كتبهم لعمروا فأنكرها، وقد عرض الحسين على عمرو أن يختار خصلة من ثلاثة، فأما أن يخلو بينه وبين خريقة إلى الحجاز ليعود إلى مكانه، وأما أن يسيروه إلى يزيد بالشام، وإما أن يخلوا بينه وبين الطريق إلى ثغر من ثغور المسلمين، فيكون هناك كواحد من الجند الذين يرابطون بإزاء العدو،له ما لهم من العطاء وعليه مثل ما عليهم من الجهاد، وقد رضى عمرو بن سعد لهذه الطلبات لكن ابن زياد رفض ذلك وأرسل مع كتاب الرفض شخص يدعى شمر بن ذي الجوشن. وهكذا زحف عمرو بجيشه على الحسين وأصحابه وكانوا اثنين وسبعون رجلاً فقط. فقاتلوهم أكثر من

نصف نهار وقتلوهم جميعاً بأبشع أشكال القتل وحملوا العديد من رؤوسهم المقطوعة على الرماح، وذهبوا بهم إلى عبيد الله بن زياد في الكوفة، وأرسلهم مع النساء وبقية العيال إلى الشام، وقدم رؤوس القتلى مع سائر أهل الحسين إلى يزيد. وقد دخل به على يزيد فوضع رأس الحسين أمامه، وعند دخول السبي على يزيد أغلظ لهم أول الأمر، ثم لم يلبث أن رفق بهم وعبرهم وأدخلهم على أهله، ثم جهزهم بعد ذلك إلى المدينة، وودهم إليها كراماً. ويزعم الرواة أن يزيد تبرأ من قتل الحسين على هذا النحو، وألقى عبء هذا الإثم على ابن مرجانة (والدة عبيد الله بن زياد) ولكنه لم يعاقبه أو يعزله عن عمله كله أو بعضه، مما يثبت عدم صحة ادعاءه أو ادعاء الرواة.

لم تكن حادثة مقتل الحسين بن علي بالحادثة الاعتيادية عند العرب كغيرها من الأحداث، فقد أحدثت شرخاً كبيراً لم يلتأم لحد الآن، ويذكر التاريخ تفاصيل الحادثة أكثر من أي حادثة أخرى، ولم يكن مقتل شخص ورفع رأسه فوق الرمح والتجوال به لمسافات شاسعة بالأمر الهين، فهو عمل يصطفى ضمن عملية التمثيل بالميت، وهذا محرم بالإسلام حيث أوصى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم (إياك والمثلى ولو بالكلب العقور (فكيف يعمل بالإمام الحسين وهو ابن بنت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وابن الخليفة علي بن ابي طالب. لقد أحدث هذا إلى دفع المسلمين على الكثير من الشر والعنف والتي لم تنقضي بقتل الحسين ولا بموت يزيد،ولا حتى بانتهاء الدولة الأموية، وإنما استمرت بعد ذلك دهراً طويلاً، وبقيت آثارها في حياة المسلمين إلى الآن، فلم يكن ما وقع من شر إلا طغياناً وإسرافاً في التجبر والبغي، وكان ابن زياد ظن أنه سيجتث الفتنة من أصلها بقتل الحسين بن علي، فيوئس الشيعة من أمرها، ويضطرها إلى أن تنحرف عما كانت تعلل نفسها به من الآمال والمنى، إلى الإذعان لما ليس بد من الإذعان له. ولكن ابن زياد لم يزد الفتنة إلا استعاراً، وأن الشر يدعو إلى الشر، والدماء تدعو إلى الدماء، وهذا الإسراف في القتل والتنكيل بالمقتولين وبمن تركوا من الأطفال والنساء، فقد سلب القتلى

وفيهم ابنة فاطمة (زينب بنت علي) وسلب أبناء علي وغيرهم من أصحاب الحسين، ونزع من النساء كل ما كان معهن من حلي وثياب ومتاع واضطر يزيد بعد ذلك إلى أن يعوضهن ما أخذ منهن. لقد تمت بهذه الواقعة محنة لعلي بن أبي طالب في أبنائه، لم يمتحن مسلم قط قبل هذا اليوم. فقد قتل من بنيه الحسين والعباس وجعفر وعبد الله وعثمان ومحمد وأبو بكر، فهؤلاء سبعة من أبنائه قتلوا معاً في يوم واحد. وقتل علي بن الحسين الأكبر وأخوه عبد الله وقتل عبد الله بن الحسين وأخوه أبو بكر والقاسم، وهؤلاء الخمسة من أحفاد فاطمة بنت الرسول، وقتل من بني عبد الله بن جعفر الطيار محمد وعون. وقتل نفر من بني عقيل بن أبي طالب في الموقعة أيضاً، بعد أن قتل مسلم بن عقيل في الكوفة قبل ذلك بحين، وقتل غير هؤلاء من الموالي والأنصار، فكانت محنة لأبناء فاطمة خاصة، ثم كانت محنة للإسلام نفسه، خولف فيها عما هو معروف من الأمر بالرفق والنصح وحقن الدماء إلا بالحق، وانتهكت بها أحق الحرمات بالرعاية وهي حرمة رسول الله، والتي كانت تفرض على المسلمين أن يتحرجوا أشد التحرج، ويتألموا أعظم التألم قبل أن يمسكوا أحداً من أهل بيته. وهكذا آلت الأمور، وهكذا فقد بذروا بذوراً لا يفنى، كان قد ألقيت في الأرض لتزيد من قوته تأثيرات أخرى، فنبتت في المستقبل حصاداً روحياً لا تزال ملايين البشر تتغذى بها حتى يومنا هذا. وهكذا آلت الأمور إلى ما آلت إليه أيام معاوية وابنه يزيد إلى شر ما كان يمكن أن تصير إليه الأمور في بدايات تولي يزيد زمام الأمور (السنة الأولى لحكمه). فقد انتهت محنة الحسين بصدمه كبرى لأهل الحجاز وللصالحين في كل مكان في البلاد الإسلامية، وأصبح سلطان يزيد قد أمعن في نظرهم في الخلاف عن أمر الله فلم تصبح طاعته لازمه، بل أصبح أمر الخروج عليه واجباً حين يتمكن الناس من ذلك)، ويجدر الإشارةهنا إلى أن هذا الإحساس بالغضب على الأمويين لم يقتصر على الشيعة (شيعة علي) في ذلك الزمان فحسب، بل شمل كل المسلمين، وحتى المسيحيين منهم.وقد ساهم نفرٌ من المسيحيين معة في القتال في كربلاء).

لقد برزت مفاهيم مخطوءه عبر الزمن، بأن أهل السنة كانوا ولا زالوا مع يزيد في حربه ضد الإمام الحسين، وهذا خطأ فادح وتجني كبير على أبناء السنة، فلم يكن في ذلك الحين الاستقطاب الحاصل الآن بين الطوائف المسلمة، وهناك أدلة عديدة على صحة ذلك، فقد كان العباسيين الذين سكنوا إيران يحرضون المسلمين ضد الخلفاء الأمويين، وقاموا بثورة كبرى ضدهم وهم من أبناء السنة في حينها، وكان أول ما يستشهدون به في تحريضهم هذا ضد الأمويين هو قضية استشهاد الحسين.

يقول عبد الله خليفة في كتابه :أتجاهات مثالية في الفلسفة الإسلامية:[1] [إن هذا المصير المتضاد بين الخلفاء الأئمة (ويقصد الحسين) وبين الملوك الأمويين، بين النهج الوسط المعتدل القريب للجمهور، ونهج الأشراف العفيف، الذي يعبر عن الانتقال العنيف والسريع للبنية الرعوية من خلال الأصول الرعوية لعرب الجزيرة إلى الفتوحات العظيمة، والثروة المتراكمة لعائلة بعد كل ذلك القحط، دون وجود مراحل وسط، وبدون فسح مجال لتراكم المنجزات الحضارية فكرياً في قلب الجزيرة العربية القائدة، ويعكس الصراع غياب السياسة عند الجيل الجديد، فالضروف الموضوعية للثورة والتهيئة النضالية الطويلة وقراءة الأصول المادية للناس، كلها تغيب عن نظر الجانب المكافح من هذا الجيل، في حين تغيب عن القسم الآخر الحكمة وبعد النظر وحلول العنف اللامبرر. وهكذا دفعت تلك النتائج الأجيال القادمة (التي تلت تلك الأحداث) بالاستقطاب إلى فريقين، فريق أهل البيت ومحبيهم في الغور في الدين والغيب بصورة أكبر، والاتصال بالسماء تعبيراً عن خرق جديدة في العمل السياسي بينما تمادت الفرق التائه في الابتعاد عنه، والاهتمام بأمور الدنيا][2].

---

(1) عبد الله خليفة (المصدرالسابق نفسه) ص 138.

(2) عبد الله خليفة، المصدر السابق، ص139.

وهكذا كانت فرق المسلمين بعد حادثة استشهاد الحسين مباشرة، لكنها زرعت بذرة أو أصبحت بمثابة قطعة الثلج المتدحرجة من أعلى الجبل لتكبر وتتفاقم في النهاية إلى فريقين رئيسيين هما السنة والشيعة.

أما دوزي [1]، فقد قال بهذا الصدد ما يلي :

(إن انتصار بني أمية كان في حقيقة الأمر نفراً لفرق تعادي الإسلام من كل قلبها، وبسبب هذا الانتصار أصبح أولاد أقدم أعداء الرسول وأشدهم كراهية له ــ دون أن تتغير قلوبهم ــ يدعون خلافة الرسول والنيابة عنه ــ وباتوا يسكتون بسيوفهم من يجرأ على معارضة بدعهم، ولن نذهب بعيداً للبحث عن أسباب المعارضة والاستياء حتى في خلافة معاوية، فقد أنشأ معاوية بلاطاً فخماً في دمشق وخلق حاجزاً بينه وبين الطبقات الفقيرة، وبدلاً من أن يُقتدا بنواب الرسول الأول (الخلفاء الراشدين) اتخذ من بلاط أباطرة الروم الشرقية وملوك إيران قدوة يحتذى بها. وبنفس الروح، اختار ابنه يزيد للخلافة وقد فرض هذا الاختيار البغيض بالقوة على أهالي المدينتين المقدستين مكة والمدينة) [2].

لقد كانت ام يزيد بدوية [3]، وتربى في جو الصحراء الطليق الحر، ويطرب للصيد، ويفرح وينشد الأشعار اللطيفة [4]، ويلعب نرد العشق، ويعشق الشراب والموسيقى، ويميل

---

(1) دوزي: (تاريخ الدولة الإسلامية)، طبع لندن، (1863)، ترجمة فكتور شوون، القاهرة.

(2) ادوارد راون، (تاريخ الأدب في إيران)، الباب الأول والثاني، ص336، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، (2005).

(3) طباطبا (محمد بن علي المعروف بأبن الطقطقي)، (الفخري في الأدب السلطانية والدول الإسلامية)، القاهرة، (1938)، ص316.

(4) طباطبا، المصدر السابق، ص137 ــ 138.

إلى اللهو واللعب، ولا يعير للدين اهتماماً. ورغم ما أتسم به من إعراض عن ربه وطيش وإسراف وتبذير، فإنه لو لم يكن الوصمة السوداء التي اقترنت باسمه - ونعني بها فاجعة كربلاء - لجاز لنا بسبب جمال محيّاه[1]، وأشعاره العذبة، وصفاته الملكية واللذة التي كان ينالها من سعيه وراء مباهج الحياة.. أن نعدل عن رأينا الذي كوناه عنه، ونخفف من حكمنا عليه).

وفي كتاب الفخري جاء بخصوص حادثة مقتل الحسين:

(استمر حكم (يزيد) ثلاثة سنوات ونصف، في السنة الأولى قُتل الحسين بن علي، وفي الثانية هاجم المدينة وسلب كل ما بها في ثلاثة أيام، وفي الثالثة هاجم الكعبة، ونتيجة لهذه المصائب الثلاثة، وخاصة قتل الحسين تملكت العالم الإسلامي بأسره رعدة الخوف والنفور والبغض، إن من إوتي ولو قدراً ضئيلاً من الإحساس، لابد وأن يتأثر لدى سماعه تلك القضية المحزنة، إن حادث كربلاء ليست جريمة فحسب، بل هي خطأ جسيم، فيزيد وأتباعه - أمثال ابن زياد وشمر وغيرهم - قد تسببوا بفعلتهم هذه - في أن يتخلى أحباب الرسول وأتباع دينه عن تفاؤلهم واغضائهم الضمني عن تصرفات الأسرة الأموية، لقد صار مجرد تذكر صحراء كربلاء الملطخة بالدماء - حيث هلك حفيد الرسول عطشاً، ووجد جسده بين أجساد القتلى - كافياً لإثارة مرجل الغضب والهياج في قلب أبرد الناس وأقلهم اهتماماً. وسيطر الحزن والهم على النفوس، وعرَجا بالروح في مدارج الكمال، فصار التعب و إلا لم والخطر والموت بالنسبة لها أمراً تافهاً.

فما إن يأتي العاشر من شهر محرم من كل عام حتى يتذكر الشيعة أينما كانوا في إيران، والعراق، والهند، وباكستان، وأواسط آسيا وغيرها - مصيبة كربلاء - ومن الذي يستطيع أن، يرى طقوس العزاء الشيعية - ولو كان ينتمي لمذهب آخر - ولا يؤثر في

---

(1) خباخبا، المصدر السابق، ص67.

وجدانه على نحو ما.. مع صدق ما تعبر عنه هذه الطقوس من مشاعر مذهبية جياشة سامية؟ أي قلب لا تؤثر فيه عبارات التعازي الشيعية؟ والآن وقد قمت بشرح تلك القصة، تتجسد أمام عيني تلك الأفكار والخواطر وأسمع أشعار العزاء والبكاء والنحيب، وارى مواكب المعزيين والأكفان البيضاء التي يصبغها الشيعة باللون الأحمر من دمهم وحالة السكر التي تتملكهم نتيجة غرقهم في الهموم والأحزان).انتهى كلام كتاب الفخري.

وهكذا أضافت تلك الأحزان وذلك الهم والخوف والتشاؤم إلى الإرث التاريخي القديم في بلاد الرافدين الزاخر بالأحزان والمصائب وجسمت شخصية الفرد الرافديني المتسمة أصلاً بالحزن والتشاؤم(*).

وها هو الفخري[1] يبدع في هذا الموقف فيقول: (لا أريد أن أسترسل في الكلام حول تلك الفاجعة فهي مثيرة للهم والغم إلى حد كبير، مولدة للخوف والنفور، فالواقع أنه لا توجد في الإسلام فاجعة تجلب العار كما تجلبه هذه الفاجعة، لقد كان مصرع الإمام علي خامة كبرى ولا شك، لكن هذه الواقعة كانت أشد وأقسى، فقد ارتكبت فيها مذبحة شنيعة، وقتل فيها عدد من الأسرى، وعذبوا واوذوا إلى حد يبعث الرعدة في أوصال السامعين، لكني أفضل القول لسبب آخر، وهو أن يقف كل شخص وقوفاً شاملاً على أخبار تلك البلية الكبرى والمصيبة العظمى. إن كل من شارك في هذا العمل أو أمر به أو سرته نتيجته بأية صورة يلعنه الله ولا يقبل توبته ولا فديته، ويحشره في زمرة أشد الناس إضراراً بالناس، وهم الذين يفنون عمرهم سعياً وراء الحياة الدنيا الفانية.. ظناً أنهم يحسنون صنعاً).

---

(1) أنظر الفصل الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب، (العنف السياسي في بلاد الرافدين)، ص 280 لتوضيح ذلك.

أما سير وليم موير فيقول: (لم تحدد فاجعة كربلاء مقدرات الخلافة ومصيرها فحسب، بل حددت مقدرات مماليك الامبراطورية الإسلامية ومصيرها لفترة طويلة بعد انقراض الخلافة وزوالها.. من الذي يرى مراسم العزاء وما يسودها من صخب وضجيج، ويعلم أن مسلمي العالم يدقون صدورهم كل عام ويصرخون في حزن وجنون، ويرددون كلاما موزوناً ويقولون دون كلل وملل (الحسين..الحسين) من الذي يرى كل هذا ولا يتخيل الحربة المشرعة والسيف البتار اللذين وضعهما الأمويين في يد أعدائهم؟ إن الانتصارات التي أحرزها عبد الله بن الزبير بعد تمرده وعصيانه، والسنوات الثلاثة التي شغل فيها منصب الخلافة مستقلاً في المدن المقدسة شأنها شأن ثورة المختار الخطيرة المخيفة (683 ـ 687)، كانت تستند من حيث المبدأ إلى الانتقام العام من قتلة الحسين وآله، ولم تكن فرقة الشيعة وحدها في ذلك الحين المساهمة في طلب الثأر بل ساهم معهما الكثير من أهل السنة، وحتى الخوارج الذين ساهموا في قتل أبيه علي)[1].

وهكذا بقيت قصة مقتل الحسين تتداول عبر الأجيال واستغلت من قبل الرواة الذين بدأو يزيدون في آلام الناس من خلال الوصف الحزين أولاً، ويزيدون البطولات الأسطورية للإمام الحسين وجماعتة، لأن ذلك يضيف قدسية أكبر من خلال موروثهم التاريخي الذي يكمن في (أن الحق والعدل مع القوي)، إلى أن وصلت بعض القصص والروايات في يومنا هذا إلى الحد الذي لا تجده سوى في قصص الأطفال الأسطورية من بطولات وهمية تنسب إلى الجماعة التي ناصرت الحسين، ومنها بالذات إلى أخيه العباس، فقد أصبحت تلك القصص وسيلة يعتاش منها البعض، وقصة البطولات التي تنسب إلى العباس، وهو أخو الحسين من أبيه، وكانت والدته من أصل بدوي مما يدل على اعترافهم بقوة البدو وصلابة موقفهم القتالي.وقد استمرت رهبة وسطوة العباس في قلوب الناس

---

(1) وليم موير (المرجع السابق) ، ص223.

إلى يومنا هذا،فلا يحلف الاعرابي الشيعي في أمر مشكوك فيه أمام قبر العباس توقياً من ضربه غيبيه قد تأتي منه حتى وهو في قبرة في كربلاء منذ زمن بعيد.وهكذا إنتهت حادثة مقتل الحسين بن علي والتي كان سببها تمسك الرعاة القادمين من قلب الجزيرة العربية بالسلطه والجاه والمال ولا يبالون من عمل كل شيئ للحفاظ على تلك السلطة، وفي الطرف الآخر أصبحت تعبيراً عن هموم وأحزان المستضعفين من الناس، كوسيلة للترويح عن النفوس إضافاً إلى اعتبارها جزءاً من طقوسهم الدينية المذهبية.

2 ـ 3 ثورة عبدالله أبن الزبير:

ننتقل إلى المصيبه الآخرى التي قام بها يزيد في السنة الثانية لخلافته، فقد جاء في كتاب (الفتنه الكبرى) لطه حسين: (لقد عظم في الحجاز أمر عبدالله بن الزبير وكثر أصحابه وأشياعه، وجعل يزيد يجد في أن يفرغ منه كما فرغ من أمر الحسين وانتهى الخبر إلى يزيد بأن أمر المدينة قد اضطرب، وقد وصلت الأحاديث إلى عبدالله بن الزبير بمكة بثورة أهل المدينة وخروجهم عن عامل يزيد، فأرسل يزيد إليهم جيشاً قوامه اثنا عشر ألف من أهل الشام يأمره مسلم بن عقبة المريَ، ورسم له خطه أولها حق وآخرها باطل، وهي أن يأتي المدينة فيدعو أهلها إلى الطاعة ويعذر إليهم وينتظر بهم ثلاثاً. ولم يكتفي بهذا الحد، وإنما مضى إلى الباطل من خطتة، فأمر مسلماً إذا انتصر على خصمه من أهل المدينة، أن يبيحها ثلاثاً لأهل الشام يصنعون بها ما يشاؤون وينهبون أهلها من أموالهم ومتاعهم ما يحبون، وقد جاء مسلم إلى المدينة فقاتل أهلها وقتل منهم خلق كثير، ثم أباح المدينة ثلاثاً لجنده فقتلوا ونهبوا واستباحوا من محارم الناس ما عصم الله. ثم أخذ من بقي من أهل المدينة بالبيعة ومن أبى منهم هذه البيعة ليزيد أمر به فضربت عنقه، ثم تحول الجيش إلى مكة فحاصروا فيها ابن الزبير ومات مسلم في الطريق، فقام بأمر الجيش بعده الحصين بن نيمر السكوني [1]، وقد شدد أهل الشام الحصار على مكة،

---

(1) طه حسين، (الفتنة الكبرى) ، ج2، ص246.

ثم لم يقفوا عند ذلك، وإنما رموها بالمجانيق، وحرقت الكعبة واتصل الحصار حتى جاءهم موت يزيد، فقفلوا راجعين إلى الشام دون أن يلقي أبن الزبير منهم كيداً. والغريب المنكر من هذا كله، هو تجاوز الحد والغلو في الإثم، فقد كانت السياسة تقتضي أن يقاتل الخارجون على يزيد حتى يقتلوا أو يفيئوا إلى الطاعة. فأما المثلة وانتهاك الحرمات ففظائع لا ينكرها الدين لوحده، وإنما السياسة والتقاليد العربية الأصيلة، وهي بعد ذلك تملي القلوب ضغينة وحقداً. وهكذا مات يزيد ولما يملك إلا ثلاث سنوات ونصف من تسلمه السلطة بعد وفاة أبيه معاوية، وذلك من خلال مسابقة مع قرد أسقطته عن فرسه سقطه كانت نتيجتها الموت).

لقد أصبح للمسلمين بعد موت يزيد مثل من هذه الأمثال العليا الكثيرة التي دعا إليها الإسلام، وجعلت الفتنة تدور حول هذا المثل الأعلى لتبلغه فلا تظفر بشيء مما نريد، وإنما تسفك الدماء، وتزهق النفوس وتنتهك المحارم وتفسد على الناس أمور دينهم ودنياهم. وهذا المثل الأعلى هو العدل الذي سيملأ الأرض وينتشر فيها الإسلام والعافية والذي تقطعت دونه أعناق المسلمين قروناً متصلة دون أن يبلغوا منه شيئاً حتى استيأس من قربه الشيعة ولم يستيئسوا من وقعه، فاعتقدوا بأن إماماً من أئمتهم سيأتي في يوم من الأيام فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. لقد حصل هذا الاعتقاد وزاد ترسخاً بعد العديد من الثورات الأخرى التي قام بها زيد بن علي بن الحسين وغيره من الثائرين، والتي لم توصل جميعها إلى النجاح في التخلص من حكم الظلم والجور في العصر الأموي أو العباسي أو غيره).

إن الانتصارات التي أحرزها عبدالله بن الزبير، والتي أدت إلى أن أغار جند يزيد على المدينة (682م) فقتلوا ثمانية عشر رجلاً من أصحاب الرسول وأكثر من سبعمائة من حفظة القرآن الكريم، فزاد قتلهم وعدم احترام مكة نار الغضب، والحقد إشعالاً، وتصاعدت فكرة الانتقام، فانتقم المختار انتقاماً هائلاً من أجل كربلاء (686م)، وعذب

وقتل ابن زياد وشمر وعمرو بن سعد والمئات ممن يقلون عنهم شأناً.. لأنهم شاركوا في هذا الأمر، ثم قتل مع سبعة آلاف من مرافقيه ـ خلال أقل من عام على يد مصعب بن زبير (أخ عبدالله بن الزبير)، وفي شهر يونيو 688، تصاعدت خلافات العالم الإسلامي بصورة ملحوظة.. حيث شارك أربعة من الرؤساء المتناحرين في أداء شعائر الحج كل على رأس خائفته، وهم عبد الملك الخليفة الأموي، ومحمد أبن الحنفية (بن علي)، وابن الزبير، ونجده من الخوارج.

وحركة المختار هذه هي حركة شيعية، تصاعدت فيها صرخات المطالبة بالانتقام للحسين وأصحابه، واستهدف المنادون بها الحصول على حق ابن الحنفية[1]. وكان بين أتباع المختار عدد كبير من أصل غير عربي يطلق عليهم الموالي.. ومعظمهم من الإيرانيين.. وكان بين جنوده البالغ عددهم ثمانية آلاف ـ وهم الذين سلموا لمصعب بن الزبير ـ أقل من العشر (حوالي 700 جندي) من أصل عربي[2]. وفي دراسات ممتازة قام بها فن فولتن حول أسباب اشتراك المسلمين من غير العرب في جيش المختار[3]، نجد تفاصيل أكثر عن حركة المختار هذه.

2 ـ 4 ثورة زيد بن علي أبن الحسين:

في عهد الخليفة هشام أبن عبد الملك، كان خالد بن عبد الله القسري والياً على العراق، الذي جاء بعد الحجاج، وما كان العراق أن ينجو من قبضته الحديدية حتى زايله الاستقرار والأمن، فخرج في الكوفة زيد أبن علي أبن الحسين بن علي مطالباً بحق بيته في الخلافة، فبايعه الناس وعلى الرغم من أن أمير العراق يوسف بن عمر الثقفي، استطاع

(1) تاريخ اليعقوبي، خبع هو تسما، ج2، ص308.

(2) موير، ص336، (تاريخ الخلافة) ، المصدر السابق نفسه.

(3) Van voltan،Recherches surla Domination Arabe، etc:

أن يخمد الثورة في غير صعوبة بعد أن قتل زيداً في معركة دارت في الشوارع، فالحق أن ثورة زيد هذه كانت فاتحة سلسلة طويلة من الحركات الشيعية التي أدت آخر الأمر إلى سقوط الأمويين، وفي القرن التاسع، أسس اتباع زيد بن علي بن الحسين هذا دولة في اليمن ثبتت على زعازع القرون المتطاولة، فكانت الدولة العلوية الوحيدة التي لا تزال آثارها ومريديها متواجدون إلى اليوم. وتذهب الزيدية إلى أن للقيادة الروحية (الإمامة)، دون غيرها يجب أن تكون في آل علي، وتنكر المتطرف في العقائد الشيعية، ومن هنا لم يكن الخلاف بينهما وبين الأكثرية السنية حاداً جداً، ولا تعتبر الزيدية من الشيعة الاثني عشرية[1].

2 ـ 5 ثورة البربر:

كان أهل أفريقيا الشمالية من البربر يظهرون الاستياء وعدم الرضا، وذلك لأنهم كانوا يعاملون معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية، على الرغم من كونهم مسلمين ومقاتلين متحمسين في الحرب المقدسة (الجهاد)، واندلعت في أفريقيا نيران ثورة هائلة، امتدت من مراكش إلى القيروان، وكان الولاة الأفريقيون أعجز من أن يخمدوا هذه الثورة العارمة، بالرغم من أن عقبة أمير الأندلس قد هرع لنجدتهم من اسبانيا، ومن هنا تعين على هشام عام 741م أن يوجه لقتال البربر جيشاً سورياً يقوده كلثوم بن عياض، ولكن هذا الجيش نفسه سقط دون الغاية في وجه شجاعتهم الفائقة، والواقع أن معركة كبرى نشبت بين الفريقين على ضفاف نهر (نوام)سنة 741م دارت الدائرة فيها على العرب فقتل قائدهم كلثوم، واضطر نسيبه بلج بن بشر إلى أن يقاتل أشرس قتال ليشق طريقه إلى الأندلس بثلث جيشه الباقي، فلم يوفق إلى ذلك إلا في عسر كثير. ولقد كان على العرب أن ينتظروا عاماً واحداً حتى يحرزوا نصراً يضمن لهم على الأقل الاستيلاء على القيروان لكن هذا لم يحصل.

---

(1) كارل بروكلمان، (تاريخ الشعوب الإسلامية)، ترجمة منير بعلبكي، (1977)، ص157.

3. الاغتيال السياسي في العصر الأموي :

في إطار البحث في (العنف السياسي وجذوره التاريخية) لابد لنا أن نعرض بعض النماذج عن الاغتيال السياسي الذي حصل في العصر الأموي، وكما جاء في كتاب هادي العلوي عن (الاغتيال السياسي في الإسلام) نورد ما يلي:

لقد مورست ظاهرة الاغتيال السياسي في العصر الأموي بشكل واسع يمكن أن نستقصي أشهر الاغتيالات منها:

3 ـ 1 اغتيال الحسن أبن علي :

ثمة ما يشبه الإجماع على أن الحسن مات مسموماً مع الميل إلى تحميل زوجتة بنت الأشعث أبن قيس الكندي مسؤولية ذلك. ومن بين الذين أكدوا تسميم الحسن (المدائني)[1] وهو من أقدم كتب السير. وتفيد بأن الحسن توفي بعد مرض دام أربعين يوماً وأن معاوية دس له سماً على يد جعده بنت الأشعث زوجته وقال لها إن قتلتيه بالسم فلك مئة ألف درهم، وأزوجك من يزيد ابني، فلما مات الحسن وفي لها بالمال ولم يزوجها من يزيد لعدم اخمئنانه إليها. وقد ورد في رواية ابن عساكر[2] ان الحسن بعد السم كان يوضع تحته خست ويرفع نحو من أربعين مرة إشارة على ما أحدثه السم في بطنه من تأثير قوي، وكذلك ذكر ابن عبد البر في كتابه (الاستيعاب)[3] وأورد آخرين ان جعده سمته بتدسيس من معاوية. وأشار إلى موته مسموماً كلاً من ابن حجر في (الإصابة) وفي (تهذيب) وابن الأثير في (أسد الغابة). كما روى أبن كثير في (البداية والنهاية) (حوادث 49) ان الحسن مات مسموماً بتدبير من معاوية وأن دس السم كان من قبل خادم له، وفي

---

(1) المدائني، المجلد4، ص5.

(2) ابن عساكر، (تهذيب تاريخ ابن عساكر)، دمشق، ج4، ص229.

(3) ابن عبد البر، (الاستيعاب)، الترجمة 555، الحسن بن علي، ص389.

روايات أخرى زوجته جعده، وربط ابو الفرج الأصفهاني مشروع البيعة ليزيد بن معاوية بالتخليص من شخصيتين مهمتين هما الحسن بن علي وسعد بن ابي وقاص، وكان سعد من بين القلائل الذين تبقوا من قادة الإسلام الكبار عاصروا خلافة معاوية.

إن لجوء معاوية إلى السم للتخلص من المناوئين قد أشار إليه أبن أبي أصيبعة لدى ترجمته للطبيب السرياني ابن أثال، فقد جاء في (عيون الأنباء) [1] أن ابن أثال كان متخصصاً بالسموم وأن معاوية كان يقربه لذلك كثيراً. وقد مات في أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسم. وكان من بين تلك الشخصيات سعد بن ابي وقاص، ولكن لم يهتم المؤرخين في تفصيل حادثة تسمم سعد مثل اهتمامهم في حالة الحسن، ويمكن أن نستنتج أن من أسباب اهتمام معاوية بمسألة التخصص في تحضير السموم هو إنتاج سموم لطيفة لا يظهر لها أثر ولا يمكن متابعة الفاعل. ويذكر أن موت الحسن قد جاء بعد سقية السم لمرات عديدة، ولم يظهر لها مفعول إلا بعد استعمال وصفه أشد مفعولاً هي التي قتلته، وكانت الأولى مبالغ في لطافتها. وكان الهدف واضحاً في موت الحسن فقد بدأ معاوية بعدها بمساعيه العلنية لمبايعة ابنه يزيد ولياً لعهده، وكان هذا حدثاً فاصلاً في التاريخ الإسلامي من خلال تحول الخلافة إلى ملكية وراثية بدلاً من الاختيار بالشورى، كما كان معمولاً بها أيام الخلافة الراشدة، فإن موت الحسن أفسح المجال لمبايعة يزيد حيث اتخذ تحول الخلافة إلى ملكية شكله الرسمي كما ذكرنا سابقاً.

3 ـ 2 اغتيال عبد الرحمن بن خالد أبن الوليد:

بعد أن أحرز عبد الرحمن نجاحات كبيرة في حروبه لإخراج البيزنطيين من الشام والتي جلبت له شهرة واسعة أضيفت إلى رصيده الموروث من والدة، حتى أخاف معاوية من تأثيره عندما قدم من بلاد بيزنطيا إلى حمص، فأمر ابن أثال المتخصص في

---

(1) ابن أبي أصيبعة، (عيون الأنباء، في طبقات الأطباء)، ط بيروت (1965)، ص11.

صناعة السموم ان يحتال في قتله، وقد دس إليه ابن اثال شربه مسمومة وفيها عسل فمات منها.

وكافأ معاوية ابن أثال بإعفائه من الضرائب طيلة حياته، وتعيينه واليا على خراج حمص[1]. [2] كانت هذه شخصية أخرى قد تكون منافسة لمبايعة يزيد بالخلافة من بعد معاوية[3]. تمت عملية اغتيال عبد الرحمن بن خالد بسهولة أكبر بالقياس إلى اغتيال الحسن، ذلك لأن عبد الرحمن لم يكن بحاجة إلى التحفظ من خطر كهذا، نظراً لعلاقاته الطبيعية مع معاوية، وقد حدثت قبل اغتيال الحسن، وقبل شيوع الحديث عن بيعة يزيد، لكن العملية انكشفت بعد وقوعها، وأدت إلى ردود فعل مباشر انتهت باغتيال الطبيب ابن أثال، وقد قام بذلك ابن المقدور ابن أخيه، وتفيد الرواية التي أوردها أبو الفرج الأصفهاني أن هذا الشخص (ابن أخ عبد الرحمن) كمِن لإبن أثال في مسجد دمشق، وكان يمشي مع معاوية فلما خرج من القصر حاذاه ووثب عليه فقتله، وقد اعتقله معاوية وأمر بجلده مئتي سوط وأغرمه الديه ألفي دينار، وبقي في السجن حتى وفاة معاوية، وكانت تلك العقوبة خفيفة بسبب كون القتيل طبيبا غير مسلم وأن مكانه القاتل بوصفه حفيد خالد بن الوليد ذات شأن كبير في الشام[4].

3 ـ 3 اغتيال عمر بن عبد العزيز:

تتجه معظم الروايات إلى القول بأن عمر بن عبد العزيز مات مسموماً في عُمرٍ لم يكمل الأربعين. وقد أورد الطبري في (حوادث 99)التي أعقبت استخلاف عمر بن عبد العزيز (وذلك بعد أن استعرض مفاوضاته مع وفد من الخوارج. أن بني مروان بن الحكم

---

(1) الطبري، (التاريخ الأمم والملوك)، حوادث سنه 46، ط الاستقامة، القاهرة (1939)، ج5، ص227.

(2) ابن أبي اصيبعة، (عيون الأنباء)، ص174.

(3) أبي الفرج، الأصفهاني (الأغاني) ج16، ص140، ط بيروت، بلا تاريخ.

(4) ابن عساكر (المصدر السابق)، ص95.

(خافوا أن يخرج ما عندهم من أموال فدسوا إليه من سقاة سماً)، وذلك بعد أن توصل الوفد إلى اتفاق وشيك بين الخليفة والخوارج يعلن فيه الخوارج تأييدهم له مقابل خلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد، وكان يزيد ولياً لعهد عمر بموجب وصية سليمان بن عبد الملك. وقال الكتبي في (الوفيات) [1]: سقاة بنو أبيه السم لما شدد عليهم وانتزع كثيراً مما بأيديهم من أموال). وقد أورد الغزالي في إحياء علوم الدين (إن أعراض تسمم ظهرت في مرض عمر الذي توفي فيه، وقد اكتشف ذلك خبيب وأخبره بها فقال عمر أنه قد أحس بالسم حين وقع في بطنه)[2]. وقد وردت وفيات مشبوهة أخرى في العصر الأموي وجاءت فيها روايات اغتيال غير مقطوعة يمكن وضعها في نفس العداء ومنها:

3ـ 4 وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية :

شاب تولى الخلافة بعد والدة، ويتردد المؤرخون بين وصفه بالضعف ووصفه بالورع وعدم الرضا عن سياسة أبيه وجده، وقد تنازل عن الخلافة بعد أربعين يوماً أو ثلاثة أشهر واعتكف في منزله، ومات وهو في الثالثة والعشرين من عمره، وتقول رواية أنه مات مسموماً وذلك بعد تنازله واعتزاله السياسة، وهناك مصادر تشير إلى أنه مات في الطاعون.

3 ـ 5 وفاة مروان أبن الحكم :

يقال أن مروان قد تزوج أرملة يزيد بن معاوية بقصد إذلال وشتم الإبن الثاني ليزيد بن معاوية واسمه خالد، فقد انتقلت الخلافة بتولى مروان بعد معاوية بن يزيد

---

(1) الكتبي (الوفيات)، ط بولاق، 1282هـ، ج20، ص105.

(2) (الحلبي (كتاب (الموت)، ج4، ص465 (1296هـ) أيضا ابن الجوزي (سيرة عمر بن عبد العزيز)، القاهرة (1331هـ) ص277.

من آل بني سفيان إلى آل الحَكَم. ويقال أنه شتمه مرة فقال له (يا ابن الرخبة!) فأبلغ خالد أمه ولامها على الزواج من مروان، فحميت ووعدته بالانتقام منه. وفي الليل انتهزت فرصة نوم مروان وتواخأت مع جواريها، فألقت مخدة على عنقه وقعدت عليها حتى اختنق. بينما أورد اليعقوبي رواية تفيد أن أم خالد سقته سم في اللبن[1]، بينما ذكرت بعد المصادر أنه مات بالطاعون وهو بالسبعين من عمره.

ومن القصص والروايات المشكوك في أمرها، هي وفاة علي بن الحسين وابنه محمد الباقر، وكذلك وفاة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، وغيرهم مسمومين، وهم جميعاً (عدا الإمام زين العابد ين علي بن الحسين)،قد توفوا وهم في أعمار الشباب، ولم يتجاوزوا الخامسة والعشرين من العمر. أما الاغتيالات التي تمت من جانب المعارضة للأمويين، والتي تتألف من الشيعة والخوارج والقدرية وجمهور الفقهاء والمتكلمين، فقد شملت المختار بن يوسف الثقفي في الكوفة، وابن الأشعث في العراق، والحارث بن سريج في خراسان، وقد تخصص الخوارج دون غيرهم بأسلوب قريب من حرب العصابات، يعتمد على القواعد المتحركة والهجمات الخاخفة التي تقوم بها مجموعات صغيره، وكان من المتوقع للخوارج أن يتبعوا تكتيك الاغتيال الذي يعتمد في المعتاد على الضربات المباغتة والانسحاب السريع، وقد انفرد الخوارج بهذا الأسلوب إذ لم تحدث أية عملية مماثلة في هذه الحقبة على يد الشيعة أو القدرية أو المثقفين الذين أيدوا العمل المسلح وشاركوا فيه[2]، لأن هذه الأخراف اتبعت نهج الانتفاضات في محاولاتها لاستعادة السلطة من أيدي الأمويين. ولم يكن الخوارج أقل تمسكاً بقواعد الأخلاق المرعية في المجتمع العربي/ الإسلامي في ذلك الوقت من أقرانهم في جبهة المعارضة، ومما

---

(1) اليعقوبي (التاريخ الإسلامي)، ط النجف (1358هـ)، ج3، ص4، المصدر السابق.

(2) هادي العلوي (الاغتيال السياسي في الإسلام)، (ص2004)، دار المدى، ص79.

يدل على ذلك تجنبهم استعمال السم في الاغتيالات واقتصروا على الاغتيال بالسلاح، مكرسين بذلك نهج القوى المعارضة التي تقاتل من أجل قضية تراها عادلة من وجهة نظرها، ضد سلطة ظالمة، حيث تغلب سيكولوجيا الشجاعة المقترنة بأخلاقيات العنف الثوري على سيكولوجيا الغدر المقترنة بأخلاقيات العنف القمعي، مما يرسم خطاً فارقاً بين اغتيالات الأمويين، واغتيالات المعارضة.

ولم تستعمل الاغتيالات لتحقيق الوصول إلى السلطة لأنها لم تطل الخلفاء، بل طالت أعوان السلطة ممن قام منهم بأعمال قمع ضد الفرقة، فاتخذت الاغتيالات لذلك شكل الرد الفوري غالباً، بقصد الانتقام والتأديب وقد أعطت بعض المفعول حين جعلت هؤلاء يحجمون أحياناً عن تنفيذ المهام الموكلة إليهم ضد الخوارج، تحسباً من الرد.

وفي كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري: (أن عبيد الله بن زياد حاكم الكوفة أعرب عن حيرته أمام الخوارج لأنه كلما أمر بقتل رجل منهم اغتالوا قاتله)، كما حصلت عمليات اغتيال أخرى خارجية (أي من أشخاص خارج الدولة والمعارضة) فمثلاً: أسر عبيد الله بن زياد خارجياً وأمر بإعدامه علناً في أحد ميادين المدينة، وقد أوكل لهذه المهمة رجل يدعى المثلم بن مشرح البابلي، وكان جلاداً محترفاً شديد السطوة.. ووضع الخوارج خطة لقتله مقابل صاحبه، وذلك باقتياده عن طريق إغرائه بشراء لقحة (النوق الغزيرة اللبن)، فلما دخل وتوغل في الدار أغلق الباب من ورائه وباغته رجلان من الخوارج فقتلاه. وبعد قتله شقوا بطنه، ووضعوا في داخلها دراهم كان يحملها معه ثم دفنوه في نفس الدار.

كما قتل (أبو بلال مرداس بن عمرو) وهو من وجوه الخوارج في الكوفة، وذلك إثر خروجه مع جمع من الخوارج وإعلان العصيان على حاكمهاآنذاك، وهو (عبيد الله بن زياد)، فأرسل إليه الأخير جيشاً بقيادة رجل يدعى (عباد بن أخضر) فاشتبكوا مع الجيش في معركة غير متكافئة انتهت بقتلهم جميعاً بما فيهم مرداس، وقد تم قتل

(عباد ابن أخضر) هذا بخطة من الخوارج بعد فترة وجيزة انتقاماً لفعلته هذه، وقد قام الخوارج بآخر وأكبر تحرك لهم ضد الأمويين في خلافة مروان الحمار آخر خلفائهم، وقد أخذ هذا التحرك شكل انتفاضة واسعة شملت اليمن بما فيها حضر موت، وامتدت إلى الحجاز. وكانت بقيادة أبو حمزة، فعين مروان لإخماد الانتفاضة قائداً يدعى (أبو عطية) وأرسله مع جيش كبير فاحتل مكة والمدينة، وقضى على الخوارج الذين كانوا فيها. وقد قتل (أبو حمزة) في المعارك التي خاضها ضد الجيش الأموي مع جميع أصحابه واستسلم من تبقى منهم وعددهم (400) مقاتل فأعدمهم (أبو عطية) جميعاً، ثم اتجه إلى اليمن فهاجمها وسحق حركة (طالب الحق) وأباد من معه من الخوارج، وأقام بعد ذلك في حضر موت، ولكنه قُتِل في كمين نصبه الخوارج أثناء رحلته للحج إلى مكة، وعند اقترابه من الكمين خرجوا عليه وقتلوه مع حراسه التسعة عشر.

ويصف ابن أبي الحديد مقتله على الوجه التالي: (كان الكمين بقيادة أخوين من كندة، فبارز أحدهم فضربه بسيفه ضربه كادت أن تقضي عليه، لولا أن عاجله الآخر، فطعنه برمحه فصرعه.. ونزل إليه الأول وقعد على صدره. فقال له أبو عطية: هل لك في أن تكون أكرم العرب أسيراً؟ فرد عليه: يا عدو الله أتظن أن الله يهملك أو تطمع في الحياة وقد قتلت (طالب الحق وأبا حمزة)، ثم ذبحه ذبحا[1].

استمر الخوارج في استخدام أسلوبهم هذا حتى في الخلافة العباسية ولكن بوتيرة أقل، ومن أشهر ضرباتهم آنذاك، كانت اغتيالهم (معن بن زائدة)، أحد كبار القادة المخضرمين.

---

(1) ابن ابي الحديد، ج1/ ص463.

3 ـ 6 التعذيب السياسي في العصر الأموي:

لقد مورس التعذيب السياسي منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان، بقصد توفير الردع الذي يمنع المقت الشعبي دون أن يتحول إلى تحرك يهدد سلطة الحاكم، وكان معاوية يملك قاعدة شعبية متينة في الشام ساعدته على أن يشتهر بالحلم المأثور عنه، لكن استقلاله بالسلطة بعد تنازل الحسن بن علي أثار في وجوه عدة، إشكاليات منها: أن موقف جمهور المسلمين الذين اعتادوا حكم الخلفاء المقيد بالشرع الإسلامي قد تم تجاوزه من قبل معاوية، من خلال إنفراده بالسلطة، وأن موقف العرب الذين لم يتعودوا أصلاً الخضوع لسلطة مركزية من خلال الموروث الجاهلي أيام كانت القبائل في صراع دائم فيما بينها، قبل أن تتوحد في عصر الفجر الأول للإسلام، بالاضافة إلى معارضة أهل العراق المتمسكين بالولاء لعلي بن أبي طالب وأولاده وظهور الخوارج الذين لا يؤمنون إلا بحكم الله وحده، والذي جعل من العراق مركزاً للنشاط المعارض للحكم الأموي الجديد، فلم يستطع معاوية من السيطرة على المعارضة، وقد لجأ أول الأمر إلى المدارات، فولى المغيرة بن شعبة، أحد دهاة العرب لحكم العراق، ولكن دهاء المغيرة لم يكن كافياً في تخفيف حدة المعارضة، فعزل بوالي آخر هو زياد بن أبيه، وقد أظهر زياد مواهب إرهابية نادرة في ذلك الوقت، وصار قدوة لمن جاء بعده من الولاة والحكام المسلمين وكان مشرع لعدة قوانين سارت عليها السلطة الإسلامية فيما بعد، فمثلاً منع التجول والقتل الكيفي والذي يعرف حالياً بالقتل على الهوية، وكان يعرف عندهم في ذلك الحين بالقتل على التهمة أو على الظن، وقتل البرئ لإخافة المذنب، فمثلاً قتل فلاح خرج ليلاً للبحث عن بقرته الضائعة خلافاً لقرار منع التجول في الليل من أجل إخافة الأقوياء في عدم مخالفتهم لأوامره [1]. كذلك قتل النساء وهو أمر غير مألوف عند العرب. يذكر الطبري

---

(1) هادي العلوي (من تاريخ التعذيب في الإسلام)، دار المدين (2004)، سوريا، دمشق، ص9.

أن وكيل زياد على البصره وهو الصحابي (سمره بن جندب) أعدام ثمانية آلاف من أهلها تطبيقاً لمبدأ زياد في القتل على التهمة أو الظن[1] .

ويروي السمعاني في (الأنساب) أن زياد أمر بقطع لسان رشيد الهجري[2] وصلبه لأنه تكلم بالرجعة[3] .

إن الحكم بقطع اللسان تطوير مبكر لفن التعذيب، يدل على السرعة التي تقدمت بها الدولة الإسلامية في طريق تكاملها كمؤسسة قمعية لا تراعي حقوق الإنسان واستمرت في نهجها هذا إلى عصرنا الحاضر، فقد مورست هذه العقوبة بكثرة لمن تكلم سوءاً بنظام الحكم السابق في العراق مثلاً، وقد كان الحجاج بن يوسف الثقفي نسخة متطرفة من زياد، فقد تمت على يده فرض حالة من الإرهاب شملت الناس على اختلاف فئاتهم ولأسباب مختلفة، منها سياسية، وأخرى عادية، وقد أنشأ سجن الدعاس المشهور، وكان بلا سقوف، وقدر عدد من كان فيه عند وفاته بعشرة آلاف من الرجال والنساء. وكان التعذيب يطبق على الأسرى والمعتقلين تبعاً لحالاتهم، ولكن الشكل السائد لإرهاب الحجاج كان القتل الكيفي بوسيلته الشائعة، وهي قطع الرأس بالسيف، وأضاف الحجاج الصلب بعد القتل للأشخاص الذين لهم وزن خاص في حركة المعارضة أمثال ميثم التمار، صاحب الإمام علي بن أبي طالب ومن المقربين له، وكذلك فعل في الصحابي سعيد بن الجبير، وسنأتي لاحقا إلى تفاصيل ذلك الفعل في فقرة الحجاج.

استمرت سياسة التعذيب لأجل الإرهاب طيلة فترة الحكم الأموي عدا استراحة قصيرة في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز، فقد أخذت مدى جديد على يد هشام بن

---

(1) الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، طبعة القاهرة (1939)، ج4، ص176.

(2) رشيد الهجري: صحابي يوجد له مقام حاليا في الكوفة، بالقرب من مسجد الكوفة الكبير.

(3) أبن الأثير السمعاني (اللباب في تهذيب الأنساب) القاهرة (1357هـ)، ج2، ص85.

عبد الملك في الشام وولاته في الأقاليم، ومارس هشام بنفسه طريقة القتل بقطع الأيدي والأرجل أولاً، والقتل بالآخر، كما في بعض الحالات المشدده مثل إعدام (غيلان بن مسلم الدمشقي) بتهمة القول بالقدر، وبنفس التهمة أعدم (خالد القسري) الذي كان عامله في العراق (الجعد بن درهم)، وقد نفذ الإعدام ذبحاً، ولإعدام هذين الرجلين ملابسات سياسية معروفة في تاريخ القدرية (أو المعتزلة)[1] وكانت في بدايات نشأتها كما سنأتي لشرحها لاحقا.

أما خالد القسري فكان والياً على الحجاز قبل ذلك وأصدر حينذاك تحذيراً لمن يطعن في الخليفة أن يصلبه في الحرم، أي في داخل بيت الله الحرام في مكة، وكانت الشريعة قد حرمت قتل حتى الحيوان في هذا المسجد المقدس، واختلف الفقهاء في جواز قتل الأفاعي والعقارب فيه. ويروي الطبري أن الإحراق استخدم في خلافة هشام لإعدام داعية من غلاة الشيعة هو المغيرة بن سعد العجلي، وكان قد خرج على الدولة في ظاهر الكوفة أيام ولاية خالد القسري[2]، لقد كانت خلافة هشام صحوة الموت للأمويين خاصة بعد أن استنشق الناس بعض الإصلاحات الإنسانية التي أدخلها عمر بن عبد العزيز، وذاقوا طعم العدل والإنصاف في إسلوب الحكم، وقد ورثه خلفاء قصار العمر لم يستطيعوا من تثبيت أركان دولتهم وسط الاضطرابات المتلاحقة والتي انتهت بانتصار ثورة العباسيين التي

---

(1) القدرية: فئة من الناس ظهرت في ذلك الزمان تقول بالقدر ضد إجبار بني أمية في حكم الناس، وكان لغيلان موقف سياسي ضمن المعارضة الإسلامية للحكم الأموي، وقد انضم إلى عمر بن عبد العزيز فعينه لبيع الأموال المصادرة من الأمويين وكان ينادي عليها في المزاد متشفياً، واختفى بعد وفاة عمر إلى أن قبض عليه هشام وأعدمه.سيأتي تفصيل اكثر في هذة الفئة في الفصل الثاني.

(2) الطبري (تاريخ الامم والملوك)، المصدر السابق نفسه القاهرة (1357هـ)، ج4، ص442.

قضت على مروان بن محمد (الملقب بالحمار) [1]، وبويع لأبي العباس السفاح كأول خليفة عباسي.

وظهر التعذيب أيضاً في معاقبة الهاربين من الجيش بشكل ملفت للنظر في ايام خلافة عبد الملك بن مروان، وتتم بإقامة الهارب حاسراً في مكان عام للتشهير به، وقد أضاف مصعب بن الزبير والي العراق إلى نزع العمامة وحلق الرأس واللحية، وكانت هذه العقوبة مهينة جداً في ذلك الحين، وفي ولاية (بشر بن مروان) ـــ شقيق عبد الملك ـــ للعراق فرض التعذيب الجسدي، فكان الهارب يرفع عن القاع ويسمر في يديه مسماران في حائط ــ على طريقة صلب المسيح ــ ويترك لشأنه ربما يبقى معلقاً حتى الموت أو يخرق المسمار كفه ويسلم [2].

أما حمل الرؤوس المقطوعة على الرماح والتي تدخل في باب المثلة بالميت، فقد بدأها الأمويين في زمن معاوية، ويقال أن أول رأس حمل في الإسلام هو رأس (عمرو بن الحمق (أحد أتباع علي بن أبي طالب وقد قتله زياد بن أبيه، وكان ذلك قبل حمل رؤوس الحسين وأصحابه بعد معركة كربلاء [3].

ومن أساليب التعذيب التي تستحق الذكر هنا، هي التبريد بعد الجَلد، فإن عبد الملك بن مروان عندما خطب ابنة التابعي (سعيد بن المسيب)، وكانت مشهورة بجمالها

---

(1) يقال أن لقب (الحمار) الذي أطلق على الخليفة مروان كان بسبب مجيئة في السنة التي دارت على الحمار حسب التقويم الصيني، ولذلك لقب بالحمار ولا علاقة لها بصفات الخليفة كما تشير أغلب المصادر المعتمدة بهذا الخصوص. بينما تشير مصادر أخرى عن قوة صبرة ودماثتة و لا يوجد رأي قاطع بهذا الخصوص.

(2) ابن الأثير (الكامل في التاريخ في أخبار الحجاج).

(3) هادي العلوي (تاريخ التعذيب في الإسلام)، المصدر السابق، ص21.

لإبنه الوليد، رفض سعيد تلك الخطبة لورعه ومعارضته لسياسة الأمويين، فأمر عبد الملك بتأديبه فضرب مئة سوط في يوم بارد وألبسه جبة صوف ثم صب عليه جرة ماء بارد [1].

ويُذكر أن (خالد القسري) الذي كان والياً على الحجاز ثم على العراق أيام هشام بن عبد الملك، وقد عزل خالد وأبدله بيوسف بن عمر الثقفي، ثم قتل بسبب مخالفات صدرت منه ضد الخليفة وكانت طريقة قتله كما يلي:

وضع عمود غليظ على قدميه وقام عليها عدد من الجلادين فكسرت قدماه، ثم وضع العمود على ساقيه فكسرت بنفس الطريقة، ثم نقل إلى فخذيه ومنهما إلى حقوبة وانتهى العمود إلى صدره وعندها مات، وكان خلال ذلك ساكتاً لا يتأوه [2]. أما طريقة التعذيب بقلع الأظافر، فيذكر أن وليمة قريشية قد أقيمت وحضرها هشام بن عبد الملك حين كان أميراً مع أحد الوجهاء ويدعى (عماره الكلبي)، واقتضى ترتيب الوليمة أن يجلس عمارة فوق هشام، فاستكثرها منه وآلى على نفسه أن يعاقبه متى أفضت إليه الخلافة، فلما استخلف (أي صار خليفة على المسلمين كافة) أمر أن يؤتى به وتقلع أضراسه وأظافر يديه ففعلوا به ذلك [3].

أما التعذيب بالقصب فيذكر أن (فيروز بن حصين) الذي كان قائداً في انتفاضة ابن الأشعث ضد الحجاج في العراق قد أسر بعد فشل انتفاضته وأمر الحجاج بتعذيبه فعري جسده ولفه في قصب مشقوق ثم أخذوا يجرون القصب فوق جسده، ولزيادة إيلامه كانوا يذرون الملح ويصبون الخل على الجروح التي يسببها القصب، وبعد أن يئس الحجاج من انتزاع اعترافاته قطع رأسه.

---

(1) مصعب الزبيري (نسب قريش)، ج2، ص240، كذلك الزبيري بكار (نسب قريش)، ج1، ص380.

(2) الطبري، المصدر السابق، ج5، ص536.

(3) أمالي القالي، بيروت، ص57.

يتضح مما تقدم أن التعذيب قد تفاقم في أيام الأمويين وكان ذلك متلازماً مع تحول دولة المدينة البسيطة إلى امبراطورية تعد من أكبر الامبراطوريات في العالم آنذاك، وكل تلك الامبراطورية يحكمها شخص واحد هو الخليفة حكماً مطلقاً لا يخالفه الرأي أحد، بالإضافة لذلك فإن التعذيب لم يكن من صنع الأمويين أولاً بل سبقوهم في ذلك آخرين أيام الخلافة الراشدة، ولكن بدرجة أدنى. وباستثناء عمر بن عبد العزيز الذي حكم فترة تقل عن ثلاثة سنوات ويزيد الناقص الذي حكم حوالي ستة أشهر، فإن الباقون كانوا قمعيين بدرجات متفاوتة، وظهرت ملامح نزعة سادية لدى بعض الولاة والقواد مثل زياد بن أبيه وابنه عبيد الله ومسلم بن عقبة المري والحجاج وقرة بن شريك، وبشر بن مروان ويزيد بن المهلب وخالد القسري وأخوه أسد، واشتهر الحجاج من بين هؤلاء رغم أن فيهم من لا يقصر عن شأوه وتقول رواية شعبية أنه كان إذا أعدم أحداً يستتمي على نفسه، وهذا دليل على اقتران الحالة السيكولوجية بين الجنس والعنف والتي تعرف في عصرنا بالسادية[1].

لقد خلفت لنا تلك الأحداث آثاراً لا يستهان بها من التطبيع على أساليب فرض السلطة بالبطش بالناس، دون الاكتراث في الاعتبارات الإنسانية الأخرى، ومن الجدير بالذكر هنا، أن فقهاء المسلمون لم يتطلعوا يوماً لإلغاء عقوبة الإعدام في عصرنا هذا لأن ذلك يعتبر من العقوبات الأبدية المفروضة على الإنسان كما جاءت في القرآن الكريم وهو كتاب الله لا يستطيع أحد أن يجتهد فيه أو يحوِّره أو يبدله، وإنما يمكن الاستدلال على تخفيف العقوبة من خلال الحديث النبوي (اعف الناس قتله أهل الإيمان) أي أن المؤمن إذا اضطر إلى القتل نفذه بأقل الوسائل إيلاماً، وقد استنتج (ابن تيميمه) من هذا الحديث

---

(1) هادي العلوي، المصدر السابق، ص11.

(2) ابن تيمية (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، ص77 ــ 78.

(أن القتل يقصد أسرع بحيث لا يتعذب المحكوم به[2]، ويبني على ذلك أن الإعدام يجب أن ينفذ بالسيف ونحوه لأن ذلك أرحم أنواع القتل ويقصد هنا أن المحكوم به لا يتعذب ما دامت الوسيلة الأقل إيلاماً، فإذا وجدت وسيلة أخرى حلت محله، ولكن ذلك لا ينطبق على وجود نصوص أخرى في القرآن الكريم تقترن بالتعذيب مثل قطع اليدين والرجلين والصلب والرجم بالحجارة للزاني والزانية المحصنين (أي المتزوجين وهي وسيلة كانت مطبقة لدى السومريين والبابليين كما ذكرنا في الجزء الأول من الكتاب، وقد انتقلت إلى الإسلام عن طريق التوراة).

لقد كانت عقوبة الزانية المحصنة هي الحبس في منزلها حتى الموت حسب الآية (15) من سورة النساء، ثم نسخت بالرجم، وقد أثار حكم الرجم التباسات ناشئة عن شناعته من جهة وعدم النص عليه في القرآن من جهة أخرى فأنكره فريق من المسلمين بينهم الخوارج وتساهل آخرين في تنفيذة، ولكن هذا الأمر لا يزال معمولاً به في بعض الدول الإسلامية إلى يومنا هذا.

والأمر الآخر هو أن في معارك المسلمين أيام الفتوحات: كان يتحارب الجيشان المتخاصمان وعند حلول الانتصار تبدأ عملية السلب والنهب واغتصاب النساء وهذا أمر محلل اعتادوا عليه مذ عصر الجاهليه، وتحدثت المصادر الإسلامية عن شخصية نموذجية من هذا النمط هو (مسلم بن عقبة المري)، وكان من قواد يزيد بن معاوية، وقد أرسله يزيد على راس جيش لتأديب أهل المدينة الذين أعلنوا عليه العصيان، وبعد أن اقتحمها مسلم أباحها لجنوده ثلاثة أيام، قتلاً ونهباً واغتصاباً للنساء، ويروي أن المغتصبات ناهزن السبعة آلاف تم إحصاؤهن على أساس الولادات الغير شرعية التي حصلت في المدينة بعد تلك الحادثة، ويستدل من هذا الرقم على فظاعة ما جرى حينذاك، ولو أننا لا نستطيع أخذه على علاقة مع احتساب العدد الكلي لسكان المدينةآنذاك، ومهما يكن من مبالغة في الأرقام، فلا بد أن يكون هناك عملاً بشعاً قد

حصل بأقل تقدير، والغريب أن القائد مسلم بن عقبة المري هذا قد قام بهذا الفعل من منطلق تدين بحيث أنه مات مقتنعاً بنوال رضا الله وغفرانه [1]، لأن خروج أهل المدينة على الخليفة هو عمل سياسي أي دنيوي، والتعاليم الإسلامية التي نصت عليه هي تعاليم سياسية تتحدد خارج العلاقة الدينية التي تجمع بين المسلم وربه.

والإسلام كما نعلم هو حركة دينية سياسية، إن هذا الشكل من الاتهامات يقترن دائماً بالخلافات بين أبناء الملة الواحدة، وهو جزء من العقلية الدينية التي تحدد التدين في إطار مذهبيتها الخاصة بها وتنفيه عن كل ما عداها، لقد حكم الحجاج وفقاً للشريعة وهو نفسه الذي كان يعتبر بطل الإرهاب في عصر فجر الإسلام، وكان دائماً مضطراً إلى الرجوع للشريعة ويستفسر من أنس بن مالك، وفي أخبار الحجاج في (مروج الذهب) للمسعودي يلقي الضوء على هذه الحالة فيقول : (جئ برجل من بني عامر من أسرى الجماجم، فقال له الحجاج والله لأقتلنك شر قتلة، فقال الأسير (والله ما ذلك لك (قال ولم؟ قال: لأن الله يقول في كتابه (إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب..حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها)، وأنت قد قتلت فأثخنت وأسرت فأثخنت، فأما إن تمن علينا أو تفدينا عشائرنا، فتراجع الحجاج أمام النص وأخلق الأسير. ووفرت الثقافة الأدبية للحجاج رادع آخر عدا الرادع الديني، فكان البعض يتخلصون من القتل بعبارة يطرب لها فيعفوا عنهم، وتدخل في باب البلاغة مواقف مصارحة تعجبه فيفرج عن أصحابها، ويمكن القول: أنه لم يكن للحجاج فلسفة تنظر للعنف الدموي الذي مارسه طيلة حياته، فيما عدا الخلفية الدينية التي استمد منها إسوة بغيرة من المتدينين حتى يكون في السلطة مقومات وجدانه القمعي، والحجاج

---

(1) البلاذري (أنساب الأشراف)، ج2، ق2، ص46، الجامعة العربية، القاهرة، 1959 (أحمد بن يحيي بن جابر).

كان من المتدينين كما تشير إلى ذلك كل سيرته الشخصية، سوى أنه كان يؤمن فوق ذلك ويبالغ في إيمانه بالحق الأموي للخلافة، وكانت أديولوجيتة تتكرس في الحق الأموي المصعد إلى مرتبة الحق الإلهي، وكان يؤمن بالخليفة الأموي إيماناً دينياً هو الذي جعله يتوغل في العنف والإرهاب.[1]

لقد ظهرت العديد من الدراسات والأطروحات التاريخية تشير إلى قدرة الحجاج على الخطابة والبلاغة وتمجد من إنجازاته العمرانية والاصلاحات الإدارية وفي إدارة الجانب الشرقي برمته للامبراطورية الإسلامية، لفترة ليست بالقصيرة وتشير أيضاً أنه مؤمن بدين الإسلام من الطراز الأول ولا يهمهم كل أعمال القمع والتعسف والقتل التي قام بها، لأن الإيمان يسبق الأفعال ولا علاقة بكل أفعاله بإيمانه، وهكذا يتم عندهم تقييم كل الطغاة والمستبدين عبر التاريخ من هذه النظرية، إن ظاهرة الحجاج تحتاج لفقرة مستقلة قادمة سنتناولها على انفراد لما لها من أهمية في تاريخ العنف السياسي في العراق.

4. الحجاج بن يوسف الثقفي:

لعل واحداً من أبرز الشخصيات التي اشتهرت في القمع والاستبداد في العصر الأموي، وربما في تاريخ العراق عموماً هو الحجاج، وأصبح رمزاً ومضرباً للأمثال لا يمكن أن يغيب عن البال[2]، ومن هذا المنطلق ونحن نبحث في الجذور التاريخية للعنف السياسي في العراق، لابد لنا من زيادة المعرفة عن هذه الشخصية التي طبعت بصماتها في تاريخ العراق عبر القرون، ولا يزال الناس يتذكرونه ويتذكرون أفعاله كلما مرت بهم مصيبة من حاكم مستبد.

---

(1) هادي العلوي (تاريخ التعذيب في الإسلام)، ص93.

(2) هادي العلوي (تاريخ التعذيب في الإسلام)، ص93.

الحجاج بن يوسف بن الحكم، ولد في الطائف عام 40هـ، ونشأ فيها وهو من قبيلة ثقيف الحجازية، التي استوطنت الطائف في العصر الأموي، ويرجع تسمية ثقيف لهذه القبيلة لكثرة اهتمامها بالمعرفة واقترن اسم الثقافة باللغة العربية من خلالها، وكانت هذه القبيلة قد هجرت البداوة واشتغلت في الزراعة باستقرارها في الطائف، وهي بلدة تمتعت بوفرة المياة فكانت من الأرياف العربية المتميزة في الجاهلية، وقد استزرعوها بني ثقيف وقريش، التي اعتمدت في معيشتها على البلدة، فاتخذت فيها البساتين والمزارع وصارت لها منتج ومصيف، واشتهرت بالكروم وحدائق الزهر، وكان استقرار ثقيف في بيئة زراعية سبباً في التحول في تكوينها الاجتماعي والذهني بالمقارنة مع قبائل عربية أخرى في الحجاز، والتي كانت موغلة في البداوة، وقد ولد الاستقرار الزراعي هذا إلى توجه أفراد من بني ثقيف إلى تحصيل المعرفة، فعلى سبيل المثال سافر (الحارث بن كلده) إلى إيران في مدرسة جنديسابور الطبية التي كان يديرها السريان. وهو مصدر مهم من مصادر تاريخ العلوم العربية وطبيب العرب الأول، وقد عاصر النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعارضه ولم يؤيده، وبقي على حالة هذه بعد استكمال أسلمه الجزيرة العربية وعاش إلى عهد خلافة معاوية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه المرضى للاستطباب عند الحارث، ولابد من ذكر شخصيات أخرى من ثقيف ساهمت مع النبي صلى الله عليه وسلم في التأسيس من جوانب الدولة الإسلامية العسكرية والسياسية مثل المغيرة بن شعبة الثقفي، كأحد دهاة العرب، وقد استعان به النبي صلى الله عليه وسلم في المهام الجليلة والمواقف الصعبة، وكذلك التمع المختار بن عبيد الثقفي، ومحمد بن قاسم الثقفي، الذي قاد جيشاً من المسلمين نحو الشرق، ووصل السند والهند وكان عمره يقل عن العشرين عاماً، وفي مجرى التفاقم اللاحق للاستبداد الأموي حظيت هذه الدولة بزعيمين من ثقيف تمثلت فيها حاجة المستبد إلى أدوات قمع مكافئة لمتطلبات الحرب الأهلية التي استقرت في خلافة عثمان الأموي، واشتد أوارها مع انفراد بني أمية

بالخلافة وهما الحجاج ويوسف بن عمر الثقفي، وقد كان الأخير رديف لهشام بن عبد الملك كما كان الحجاج رديف لوالدة عبد الملك، وقد كانت بداية خدمة الحجاج في الجهاز الأموي هو اشتغاله شرخياً بإمرة (روح بن زنباع)الذي كان بمثابة وزير لعبد الملك، وظهرت كفاءته في الجهاز مبكراً فعهد إليه عبد الملك بقيادة جيش جرار إلى الحجاز للقضاء على أنفصال عبد الله بن الزبير، وأنجز مهمته على الوجه المطلوب فأعاد الحجاز إلى الطاعة، وورد عنه في أثناء ذلك ما يدل على المعية تقتضي أن لا يخضع في أدائه السياسي لوساوس العقيدة، فقد حاصر ابن الزبير في الكعبة وأمر برميها بالمنجنيق، وحدث أن تجمعت غيوم راعدة فنزلت صاعقة على جيش أهل الشام وقتلت عدد منهم، فتطير الشاميون واعتبروا ذلك رد إلهي على قصف الكعبة [1]، فأوضح لهم الحجاج (أنا أبن تهامة وهذه صواعقها) وخلب إليهم التريث حتى يصيب عدوهم ما أصابهم..وفي اليوم التالي نزلت صاعقة على جيش ابن الزبير وقتلت عدد منهم.. وبذلك استطاع تجاوز الأزمة في معسكره، وعينه عبد الملك بعد تصفية ابن الزبير والي على الحجاز، ثم ولاه على العراق فصار الحجاج حاكم البقاع الممتدة من العراق إلى نهاية الثغور في آسيا الوسطى والهند، حيث كان الوالي على العراق يتولى شؤون المشرق الإسلامي برمته [2].

ومثلما كان الوالي الأموي ينظم نشاطات المشرق السياسية والعسكرية، كان المعارضون من الشيعة والخوارج ينظمون حركة المعارضة في الولايات والأطراف مع الامتداد شرقاً. وقد ترتب على الحجاج وهو يواجه مسؤولياته الجسام في إدارة امبراطوريته لحساب الأمويين أن يتعامل مع حركة المعارضة بالقمع الدموي المنفلت.

---

(1) ابن عساكر (من تاريخ دمشق)، دار المسيرة، بيروت، (1979).

(2) لم تكن هناك حدود فاصله بين العراق والمشرق الإسلامي كما هي عليه الآن.

لقد اتبع الحجاج سياسة قمع استثنائية في تاريخ الإسلام ولا شك انه اتصف بخصائص جلاد متميز من بين الجلادين المسلمين، وقد بدءت تلك الحقبة التاريخية كأنها بداية لتأسيس الاستبداد الإسلامي بهدف تثبيت أركان الامبراخورية التي أصبحت واسعة الأخراف وعالية المقام في العالم،لقد تبلور في الوعي الإسلامي زمن الحجاج نوع متميز من القمع الدموي والنظر إليه من هذه الناحية يمثل نظرة الناس إلى حكامهم بوصفهم من ورثه الحجاج، وفي خطابة الأول حينما وصل الكوفة يوم استلم ولاية العراق كان له قول مأثور لا يزال يتردد على ألسن الناس، فقال الحجاج عبارته المشهورة (إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان وقت قطافها) ويعتبر الحجاج خطيب من البلغاء حيث وصفه الحسن البصري بقوله (ما سمعت الحجاج يخطب إلا وظننت أن أهل العراق يظلمونه!)، وقد جمع بين رؤوس البشر وعناقيد الكروم التي اعتاد على قطفها عند النضج أيام كان في الطائف. لقد استعان الحجاج في سعيه إلى بلورة سياسته القمعية من خلال ما وجد من تفسيرات القرآن والسنة النبوية، واستقصى الحجاج سيرة زياد بن أبيه للاستفادة من تجاربه، ولعلة تعرف على تجارب أقدم الملوك البيزنطيين والساسانيين، وألتمس له سنه من السنن فسأل الصحابي أنس بن مالك عن أقصى عقوبة عاقب بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فحدثه حديث العرنين، وهم جماعة وفدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم متظاهرين بالإسلام فتقبل إسلامهم ولما خرجوا ارتدوا ولقوا في خريقهم راعيا كان يرعى الغنم للنبي صلى الله عليه وسلم فمثلوا به وغرسوا الشوك في عينيه فوجه إليهم قوة ساقتهم إليه ففعل بهم مثلما فعلوا بالراعي، ونزلت الآية الكريمة بحقهم وهي:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ ﴾[1]. وكان أنس يداري الحجاج وغيره من أهل

---

(1) سورة المائدة، الآية رقم 33.

السلطان لتمشيه أموره المعيشية، ويوضح له بأن النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك على سبيل المقابلة بالمثل (العين بالعين والسن بالسن..الخ)، وقد استخدم الحجاج أكثر وسيلة للقمع عن طريق الإعدام بقطع الرأس بالسيف. ويقدر المؤرخون عدد الذين أعدمهم في غضون عشرين سنة التي حكم فيها العراق والمشرق ما بين مائة ألف ومائة وثلاثين ألف. وبالرغم من المبالغة في الرقم إلا أنه يفوق أي عدد في تاريخ الإسلام إلا عدد الذين أعدمهم أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية. واقتدى بزياد بن أبيه في إعدام النساء واقتبس طريقة زياد أيضاً في توسيع المسؤولية الجنائية لتشمل أقرباء المطلوب من الأبرياء[1]. كما اتبع سياسته في منع التجمهر، ومن أبشع إجراءاته القمعية كانت إنزال الجنود مع العوائل بدلاً من أن يبني لهم معسكرات خاصة بهم يعيشون فيها، وكان هذا الإجراء من أسباب ثورة عمت العراق والمشرق هي ثورة الفلاحين (لابن الأشعث)، أما الأسباب الأخرى المساعدة على تلك الثورة فقد كان توسع الحجاج في أعمال السخرة التي استخدمها معاوية فكانت معظم منشأته ومشاريعه تبني بتسخير الفلاحين النبط، فبدأ الفلاحون يهجرون قراهم إلى المدن، وسببت الهجرة انخفاض مريع في الانتاج الزراعي فشن الحجاج حملات لإعادتهم إلى الريف واستئناف الزرع، وكانت هذه المظلمة سبب آخر لوثبة ابن الأشعث التي ساهم الفقهاء في تأجيجها إلا أنه مع كل ذلك القمع الوحشي، فقد استطاع أن يحقق عدداً لا يستهان به من المشاريع الاروائية والزراعية المهمة منها نهر حفره من الفرات عند بابل وسماه نهر النيل مضاهاة لنيل مصر وبنى حول النهر مدينة سماها مدينة النيل استمرت عامرة عدة قرون ثم تقلصت بتمصير الحلة المزيدية في أواسط القرن الخامس الهجري، وقال (ياقوت الحموي) عن النيل انه

---

(1) هذه العقوبة طبقت على العراقيين في أيامنا، في فترة حكم صدام حسين عندما كان يريد أن يرغم أحد على الاعتراف فيرسل على أقارب المطلوب ويعذبهم أيضاً.

خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير. وحفر الحجاج نهر آخر من دجلة في جنوب وسط العراق سماه نهر العين، ونهر ثالث هو نهر الزاب (غير الزاب الموجود في كردستان) واستزرع البقاع المحيطة بهذين النهرين وفي بنائه لمدينته واسط أظهر الحجاج خصاله الشخصية كحاكم متمدن كان الغرض من بناءها هو الابتعاد عن الكوفة المعادية له.

وأخيراً كان آخر ضحية للحجاج هو سعيد بن جبير وهو فقيه حبشي تتلمذ على يد ابن عمر وابن عباس في المدينة وأقام في الكوفة ثم انضم إلى حركة ابن الأشعث، وبعد اندحار الحركة لجأ إلى مكة فقبض عليه واليها الأموي وأرسله إلى الحجاج فقتله في واسط، وصادف أن مات الحجاج بعده بأقل من سنه.

4 ـ 1 تحليل ظاهرة الحجاج:

كتب ابن عبد ربه في (العقد الفريد) فصلاً بعنوان (من قال أن الحجاج كان كافراً) استوفى فيه أقوال الفقهاء وغيرهم في تكفير الحجاج والتكفير هنا لازمه عن سياسته لا عن عقيدته لكن الفكر الديني تحرج في إدانة الحجاج ونبه رجال الدين السنة إلى تدين الحجاج وإيمانه الصادق، وعند أهل الفقه أن المسلم إذا لم يكن من أهل الأهواء (خارجي أو معتزلي أو وباطني) فهو يستحق الغفران ولا يجوز لذلك الحكم عليه بشيء من أفعاله لأن الإيمان لا يضر معه شيء، وفي المذاهب السنية يوضع الإيمان قبل الفعل والإيمان مشروط عندهم بعدم الانخراط في مقولات أهل الأهواء وهم الخوارج والباطنية والمعتزلة والمتصوفة وفئات أخرى جنحت إلى التأويل، والحجاج عند أهل السنة يبرئ من جرائمة الدموية بسبب إنتمائه إلى الأمويين، أما الخوارج والمعتزلة فكانوا أقل تأدلجاً فيما يخص مدانيهم فالخارجي الفاسق يكفر ويخلع وكذلك المعتزلي عند أصحابه، ورأى الخوارج والمعتزلة في الحجاج متأثر بأفعالة أكثر مما بانتمائه الأموي، ولم يعرف الخوارج والمعتزلة اسلوب التبرير لجرائم المدانين إلا في مرحلة متأخرة من تطورها.

يقول (حسين مروة)في كتابه (نزعات مادية في الفلسفة العربية الإسلامية)[1] عن الحجاج ما يلي:

كان الحجاج أموي النزعة أولاً وقوي الشخصية ثانيا، جرئ في ضرب الخصوم بالقوة، ولأنه ثالثا خطيب ساحر العبارة يعرف كيف يتلاعب بنفوس سامعيه بلغة البأس والإرهاب.

بدأ الحجاج إقامته في الكوفة حاضرة العراق الأولى يومئذ، ومركز (الثورة المضادة) للأمويين من مختلف الفرق والمذاهب فضلاً عن كونها منبت الحركة الفكرية، ومبعث كل صراع (أيديولوجي) بين الأحزاب السياسية، استطاع الحجاج في البدء أن يدخل الرعب في نفوس الكوفيين، إذ جمع زعماءهم في مسجد الكوفة التاريخي، فخطبهم بلهجة القوة والتهديد فكان من تأثير خطبته الأولى المشهورة في تاريخ العراق الأدبي والسياسي لذلك العهد، إن لم يجرأ أحد من الحاضرين على إجابته بغير الصمت العميق، ولكن تأثير الخطبة لم يستمر طويلاً، فقد نشطت المعارضة السياسية من الشيعة والخوارج، نشاطاً لم يستطيع إرهاب الحجاج أن يقضي عليها، وهو في الكوفة، فقد أقلقه مكانه في الكوفه وفيها انتفاضات الخوارج، حتى اضطر أن يبني مدينةأخرى له آمنة سميت بمدينة واسط، لقد بسط الحجاج على العراقيين سيف البطش والإرهاب طوال عشرين عاماً وحين مات ترك في سجون العراق من المعارضين خمسين ألفاً من الرجال وثلاثون ألف من النساء كما يقدرها المؤرخون العرب[2][3][1]، وكانت استراتيجيته أن يأخذ أهل

---

(1) حسين مروة (نزعات مادية في الفلسفة العربية الإسلامية)، ج1، ط3، دار الفارابي ــ بيروت (1980).

(2) البلاذري (فتوح البلدان)، ص 294، 371، 374.

(3) المسعودي (مروج الذهب)، ج5، ص391.

العراق جميعاً بالارهاب الدموي دون تمييز، فقد كان حكمه أشبه بما نسميه في عصرنا بالحكم العرفي أو نظام الطوارئ المعمول به في أيامنا هذه، فكل مواطن هناك مذنب حتى تثبت براءته وكان الإعدام هو العقاب المفضل لدى الحجاج، كما ذكرنا سابقاً، وكان الفلاحون والمشتغلون في الزراعة والفقراء والكادحون في المدن هم أكثر من أصابهم الاضطهاد في عصر الحجاج، صحيح أنه عمل كثيراً لتوسيع الأراضي الزراعية، وتحسين وسائل الري في العراق، ولكن اضطهاده للفلاحين منع تحقيق الهدف من هذه الأعمال الإصلاحية، فلم تستثمر الأرض استثماراً يلبي حاجة الدولة من موارد الضرائب الزراعية على أقل تقدير، ولم تكن هناك تنمية بشرية لاستثمار تلك المشاريع، وتقلص الانتاج الزراعي من خلال هجرة أهل الريف الواسعة إلى المدينة، وبذلك عرقل تطور القوى المنتجة بل هددها بالانهيار(2).

لذلك كانت هناك انتفاضات للفلاحين على حكم الحجاج، وكانت دعوة الخوارج لقتال الأمويين تلقى استجابة واسعة لديهم، حتى استطاع الخوارج أن يقودوا بعض تلك الانتفاضات، غير أن أعمال العنف الدموي التي مارسها الحجاج خنقت كل الانتفاضات حتى لم يستطيعوا فيما بعد من تجميع قواهم، ولا أن ينتشروا، فلم يبقى منهم بعد الحجاج سوى فلول ضعيفة، ثم انقسموا فرقاً عدة فازدادوا ضعفاً، وقد انتهوا منذ ذلك الحين ولم يبق لهم أثر يذكر ليس فقط بسبب البطش بهم، بل لضعف الأسس النظرية التي قامت عليها حركتهم كما سنرى في فقرة لاحقة، ولم يكن بطش الحجاج بالخوارج هو وحده سبب إضعافهم، بل كان هناك سبب آخر أهم ينطلق من نظريتهم الإيمانية. فقد كان الشيعة خصومهم الألداء منذ البداية، وكما ذكرنا عن الضربة الموجعة التي

=

(1) المقدسي (أحسن التقاسيم)، خبع ليدن، 1887، ص137.

(2) البلاذري (فتوح البلدان)، ص371.

وجهها لهم علي بن ابي طالب في بادئ الأمر، فقد ظهر من بين الشيعة الحسن ابن الحنفية، وهو أحد أبناء محمد ابن الحنفية، أي أحد أحفاد علي بن أبي طالب،ولكن ليس من نسل فاطمة بنت النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فهو بذلك لا يعتبر من الأئمة المعصومين لدى الشيعة. فقد حارب الخوارج نظريا من خلال تعارض نظريتهم في الإيمان، فإذا كانوا هم يرون أن المعصية تبطل الإيمان فيصبح مرتكب المعصية كافراً، لأنه لا إيمان إلا بالعمل الموافق مع الاعتقاد عندهم، فقد واجههم الحسن أبن الحنفية بالمبدأ القائل أنه لا يضر مع الإيمان معصية، ذلك لأنه يرى (كما يرى أبناء الشيعة كافة) أن العمل ليس عنصراً مكونا لمفهوم الإيمان، فمرتكب المعصية أو (الكبيرة) مخالفا للشريعة، ولكنه يبقى مؤمناً ما دام باقيا على اعتقاده بالمبادئ الأساسية لعقيدة الإسلام.

لقد أبدى الحسن أبن الحنفية نشاطا كبيراً في مقاومة نظرية الخوارج، فأرسل العديد من الرسائل إلى الناس في مختلف البلدان والأمصار التي تمتد إليها سلطة الإسلام معلنا شجبه لنظرية الخوارج، داعيا إلى دحضها والأخذ بنظرية سائر المسلمين في التفريق بين الإيمان الداخلي والعمل، ويجدر الإشارةهنا إلى أن العديد من علماء الشيعة والسنة قد تصدوا لحرب الخوارج نظرياً وكان من أبرز هؤلاء أبا حنيفة النعمان المعروف بالمذهب الحنفي عام 767 أي في أوائل القرن الثاني للهجرة، وكان الرأي عند هؤلاء أنه لا يجوز الحكم بالكفر على مرتكبي الكبائر ولا الحكم بخلودهم بالنار)[1].

وهكذا ازداد الضعف لدى الخوارج وأخذوا يلجئون إلى الأعمال الانتحارية من خلال تبنيهم للاغتيال السياسي كما أشرنا إليه سابقا. إن أعمال العنف المتمثلة في اغتيال أطراف غير فاعلة في إدارة الدولة تنعكس دائماً على أصحابها، ويؤدي بهم إلى الهاوية، وإذا

---

(1) حسين مروة (النزاعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية)، ج1، ط3، (1980)، دار الفارابي، ص515.

ما قارنا أخراف المعارضة الأخرى للسلطة الأموية كالشيعة، نجد أنهم لم يتبنوا أعمال الاغتيال أو الغدر في أحلك الظروف، بل كانوا إما أن يتخذوا جانب الصمت،أو أن يثوروا بانتفاضة عارمة تؤول بالفشل على الاغلب، ومهما يكن من أمر فقد شمل الفكر الشيعي والفئة الشيعية، إحدى المكونات الأساسية للفكر والفرق الإسلامية والى يومنا هذا، بينما انقرضت فئات وجماعات أخرى اتخذت من الاغتيال والغدر وسيلة في عملها. وينطبق هذا المبدأ على الحركات السياسية غير الدينية أيضاً.

5. الجذور الفكرية الأولى للانقسام المذهبي في الإسلام في العصر الاموي:

لقد كانت مسألة الجدل في تكفير مرتكبي الكبائر أو عدم تكفيرهم إحدى الجوانب الأساسية في ظهور نظريات ومفاهيم ظلت تمتد وتتبلور ضمن البحوث الفكرية حتى عصر نشوء الفلسفة العربية، وكانت قد أدت لحصول الانقسامات الإسلامية منذ الفجر الأول للإسلام، وكما رأينا كيف نشأ الخوارج انطلاقاً من نظريتهم في هذه المسألة بعينها، إذ لم يحاربوا علياً والأمويين إلا بناءاً على الأصل النظري في مسألة (الكبائر) والذي حكموا بمقتضاه على علي والأمويين بالكفر ثم بوجوب مقاتلتهم، بينما هناك مواقف للشيعة ومواقف أخرى للسنة تختلف وتتباين، بشأن مرتكب الكبيرة، ومن هنا يتبين أن الجدل في هذه المسألة كان في أصل الانقسام المذهبي، ونشوء الفرق المذهبية الأولى. ويجدر الإشارةهنا إلى أن حركة المعتزلة التي ظهرت في العصر العباسي كانت هي الأخرى قد نشأت من خلال حركتهم ' إلى الاعتزال عن الحركة السياسية، وكان السبب يعود إلى الجدل الدائر بشأن مرتكب الكبيرة؟

ويرجع المحرك الأول لهذا الجدل إلى أول حادث تاريخي احتدم في الصراع السياسي بين الفرق والأحزاب مخضباً بالدماء، وذلك في حادث مصرع الخليفة الثالث عثمان بن

عفان، وانتقال الخلافة بعده ـ بحكم قاعدة الشورى ـ إلى علي ابن أبي طالب، ولم تتخذ تلك الحادثة مجالها النظري، إلا عند ظهور الخوارج، فهم أول من حاول تنظير المسألة في هذا النطاق، فعند خروج طلحة والزبير لقتال علي في حرب الجمل، كانت حجتهم أن علياً واحد من قتلة عثمان، فتمت محاربته لأنه قاتل، والقتل عند الإسلام إحدى الكبائر، إذن كان يدور في خلد هذين الصحابيين ما أفصح عنه الخوارج بعد ذلك بشكله النظري، وذلك يعني أن التذرع بادعاء أن علياً واحد من قتلة عثمان، وأن القاتل مرتكب لإحدى الكبائر هو المبرر لإشعالهما حرب الجمل ضد علي، ويمكن الاستنتاج من هذه المسألة أن مرتكب الكبيرة دخلت حلبة الصراع السياسي أولاً، من خلال عدم قناعتهم بتولي علي الخلافة السياسية ثم تحولت إلى حلبة الصراع النظري الفلسفي.

وهكذا الأمر بالنسبة للموقف من معاوية وعلي، فإن المطمع السياسي لمعاوية طوال العشرين سنة التي بقي فيها في الشام، قد بلورت مطمعه السياسي في الحكم متذرعاً بحجة القصاص من قاتلي عثمان، وأن من يشارك بسفك دم مسلم يعد قاتلاً أي مرتكباً إحدى الكبائر، وذلك يبرر محاربته والخروج على طاعة الخليفة المنتخب بطريقة الشورى، وأكثر من ذلك منازعته الخلافة للمسلمين كافة.

وكان هناك فريق آخر من الصحابة ممن لهم موقف سياسي معارض لعلي أيضاً ولكن أقل حدة من مواقف طلحة والزبير، لأن طموحهم لم يبلغ درجة التطلع إلى نيل منصب الخلافة، ولذلك كان لهم رأى في مسألة مرتكب الكبيرة يعبر عن الموقف السياسي الوسط، ونعني بهم سعد ابن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد ابن مسلمة وأسامة بن زيد وغيرهم من الذين وقفوا على الحياد من محاربة علي في حرب الجمل. ولم يكن لهؤلاء رأي قاطع لا في صحة الادعاء بأن علي قاتل ولا في صوابة، القول بأن مرتكب القتل (وهو إحدى الكبائر) تجب محاربته بالسلاح، أو قتله. أي أن هؤلاء (الحياديين) كانت حجة الحياد عندهم هي التردد بالرأي في مسألة ارتكاب الكبيرة، والتردد بالرأي كالجزم،

به نوع من الاجتهاد، وللمسلم أن يجتهد برأيه وأن يعمل وفق اجتهاده، ومن هذا المنطلق أيضاً أصر الخوارج على نظريتهم، بأن مرتكب الكبيرة كافر، وأن العمل جزء من الإيمان، وأن نتيجة كل ذلك توجب عليهم قتال كل من علي ومعاوية، لكي يبرروا موقفهم الذي اندفعوا إليه بعد حادث التحكيم في صفين، وقد ناضل الشيعة ضد الخوارج وهم يعلمون أن وراء هذه النظرية طعناً بموقف الإمام علي، بل وحتى طعناً بصحة إيمانه، أما علماء السنة الذين وقفوا الموقف نفسه في معارضة الخوارج، إنما كانوا يدافعون عن كل من تناله هذه النظرية من خلفاء المسلمين بالإساءة والطعن، وبغض النظر عما يفعله هذا الخليفة أو ذاك من كبائر.

5 ـ 1 تبلور الفكر الشيعي في العصر الأموي:

كما ذكرنا سابقاً أن ظهور الشيعة على مسرح السياسة الإسلامية يمكن اعتباره قد بدء منذ مقتل الإمام علي على أيدي الخوارج، فقد أخذت النظرية الإمامية والاثني عشريه خصوصاً تأخذ مكانها في الفكر الإسلامي، وخاصة في العراق وقد أصحبت الإمامة بالنسبة لهم حقاً إلهياً، لكون أن سلطتها مستمدة من سلطة إلاهية وليست سلطة دولة مستقلة عن الدين، ومن قولهم بعصمة الإمام، واشتراطهم أن يكون الإمام أعلم أهل زمانه إطلاقاً ويجب أن يكون من آل البيت أي ينتمي إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة بالتحديد. ولم يأتي هذا الاعتقاد اعتباطياً، فقد تعودوا أن يسمعوا أن حكم الإسلام من القرآن وهو كتاب الله المنزل عن طريق ملكه جبريل، والسنة النبوية التي يعتقد بأنه كان يوحى له بالقول والفعل، وليس من سلوك فردي منفصل عن السماء، فكيف يا ترى يمكن لهم أن يعودوا ليُحكموا بواسطة فرد ينتمي لقبيلة كانت هي المسيطرة على القبائل الأخرى أيام الجاهلية من أمثال بني أمية، وبالتحديد معاوية بن أبي سفيان المعروف بشغفه للأمور الدنيوية؟

إن معرفة الله وأسرار الكون والخليقة والروح، ومعرفة الشريعة التي هي قانون الله للناس، مرجعها النبي في حياته ويعتقدون بوجوب كون مرجعها بعد ذلك لعلي بن أبي طالب وأولاده من بعده، لاعتقادهم بأن في هؤلاء شيء من النبي محمد صلى الله عليه وسلم ينتقل بالوراثة جيلاً بعد جيل، فكل إمام في زمانه هو المرجع لإدراك هذه المعرفة، ولا مرجع غيره لأنه المخبر عن النبي، والنبي مخبر عن الوحي الإلهي[1]، وإذا كان للعقل من حق في هذا المجال فهو حق مقيد يجوز الكشف عما يؤيد المصارف الإلهية أو يبرهن عليها، وليس له أن يعارضها، لأنه عاجز أن يبلغ مبلغها من إدراك الحقائق الكونية وأسرار الوجود، فضلاً عن أسرار ميتافيزيقيا الكون والوجود، وهنا نرى أن المعرفة هذه مرتبطة بالإيمان الديني وتابعة له، وخاضعة لمعطياته لا تستطيع أن تتصرف إلا في حدودة*. وإذا كان الشيعة المعتدلة قالوا بالاجتهاد بالرأي في مجال التشريع الإسلامي ولم يغلقوا باب الاجتهاد في تاريخهم قط، ولا يزالون يعملون به إلى يومنا هذا، وبالرغم من أن المذاهب الفقهية الأربعة الرئيسة لأهل السنة قد أغلقت باب الاجتهاد منذ نحو القرن العاشر الميلادي، وإذا كان الشيعة المعتدلون قد عملوا بالاجتهاد في مسائل التشريع الإسلامي، فإن هذا لا يغير شيء من طبيعة نظريتهم الإلهية في المعرفة، لأن هذا الاجتهاد مقصور ومقيد في حالات لا يوجد فيها نص واضح وصريح من القرآن الكريم والسنة النبوية، وخاصة بعد مرور حقبة من الزمن، لابد وأن تستجد فيه مسائل فقهية لم تكن موجودة في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وقد يرجعوا إلى ما قاله أوسته أحد الأئمة الاثني عشر من خلال كلام أو سلوك موثق لأحد هؤلاء الأئمة يستندون عليه في

---

(1) حسين مروة، المصدر السابق نفسه، ص503.

* لا بد من الإشارة هنا إلى أن الفكر الشيعي تطور كثيراً منذ عصر الغيبة الكبرى إلى العصر الحديث عن طريق اجتهاد المفكرين كما يظهر في كتاب النائيني (تنبيته الأمة وتنزيه الملة) وغيره.

إخلاق الحكم على قضية مستجدة، ويكون ذلك الاجتهاد عبر إجماع لعدد من الفقهاء الحاضرين، وهذا الإجماع يعني بالنسبة لهم أن رأي الإمام الثاني عشر الغائب المنتظر والذي لا يزال على قيد الحياة، موجود بين تلك الآراء التي تحقق الإجماع عليها، لأن هؤلاء العلماء هم من أوصياء الإمام المنتظر، وهم وحدهم لهم الحق في الافتاء في أمور الناس عامة.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع في انقسام المسلمين إلى فرق وأحزاب منذ ذلك الحين فلابد لنا من زيادة في شرحة بتفصيل أكثر لما له من انعكاسات على واقعنا الحاضر، ولنبدأ أولاً بتعريف كلمة الشيعة:

يقول طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى) أن الشيعة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند الفقهاء والمتكلمين ومؤرخي الفرق، لم توجد في حياة علي وإنما وجدت بعد موته بزمن غير طويل، وإنما كان معنى كلمة الشيعة أيام علي هونفس معناها اللغوي القديم الذي جاء في القرآن الكريم في قول الله عز وجل من سورة القصص: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ ﴾[1]، وفي قول الله عز وجل في سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾[2]، فالشيعة في هاتين الآيتين وغيرها من الآيات معناها الفرقة من الأتباع والأنصار الذين يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيها، والرجل الذي كان من شيعة موسى عليه السلام كان رجلاً من بني إسرائيل، والرجل الذي كان من عدوّ موسى كان رجلاً من المصريين. بذلك قال المفسرون القدماء الذين تلقوا التفسير عن الفقهاء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وابراهيم كان من شيعة

---

(1) سورة القصص، الآية 15.

(2) سورة الصافات، الأية 83.

نوح، أي على سنته ومنهاجه يـرى رأيـه ويـدين بدينـه، فشيعه علي أثنـاء خلافتـه هـم أصحابه الذين بايعوه واتبعوا رأيـه، سـواء مـن قاتـل معـه ومـن لم يقاتـل، ولم يكـن لفـظ الشيعة أيام علي مقصوراً على أصحابه وحـدهم وإنمـا كـان لمعاويـة شـيعته ايضـاً، اي مـن الذين اتبعوه من أهل الشام وغيرهم ومن الذين كانوا يرون المطالبة بدم عثمـان والحـرب في ذلك الحين يقام الحد على قاتليه، وقد جاء في نص الصحيفة التي كتبت للتحكيم بـين معاوية وعلي بعد حرب صفين ما يلي: (هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضي علـى علـي علـى أهـل العـراق ومـن كـان مـن شـيعتهم مـن المـؤمنين والمسلمين وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كل من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين).

فلفظ الشيعة هنا لا يضاف إلى علي وجماعته من أهل العـراق لوحـده بـل لمعاويـة وأهـل الشـام ويريـد كاتـب الصـحيفة هـذه أن يـذكر مـن يناصـر عليـاً وأهـل العـراق مـن المؤمنين والمسلمين ومـن يناصـر معاويـة مـن أهـل الشـام مـن المـؤمنين والمسلمين أيضـاً، وبالتالي فإن الصحيفة تعـني لـزوم الفـريقين المختصـمين بمـا فيهـا ولا تلـزم هـذه الفئـة والقليلة من المعتزلة الذين أبوا أن يشاركوا أي من الفريقين في القتال، وهنـاك مثـال آخـر فقد حدثنا الرواة بأن العباس (عم النبي صلى الله عليه وسلم) قـد بسـط يـده لعلـي بعـد وفـاة الـنبي صـلى الله عليـه وسـلم ليبايعـه بالخلافـة، فـأبى علـي أن يحـدث الفرقـة بـين المسلمين، كما فعل أبي سفيان إذ أراد عليـاً علـى أن ينصـب نفسـه للخلافـة حتـى لا يخـرج الأمر من بني عبد مناف، فأبى علي على أن ينصب نفسه للخلافة في حينها، ولكن لا أحـد يقول بأن العباس وأبو سفيان كانا شيعة علي، وإنما عرض لهما هذا الرأي فلما لم يستجب لهم علي بايعوا أبا بكر، ودخلا فيما دخل فيـه النـاس، كمـا فعـل علـي نفسـه مـع الخلفـاء الثلاثة الذي سبقوه.

وخلاصة القول أن الإمام علي قتل وليس له حزب منظم ولا شيعة مميزة، بـل لم ينظم الحزب العلوي ولم توجد الشيعة المميزة إلا بعد أن تم إجتماع الأمر لمعاويه وبايعـه

الحسن بن علي[1]. وبعد أن رحل الحسن بن علي إلى المدينة، وقد ولى معاوية أمر الكوفة التي كانت مركز الخلافة الإسلامية أيام علي إلى المغيرة بن شعبة، كما ولى عبد الله بن عمر أمر البصرة، فغادر إليها بعد أن كان قد فارقها منذ مقتل عثمان، وعاد معاوية إلى الشام يدير أمر دولته في دمشق، وهكذا تولى معاوية خلافة المسلمين وصفى له الجو وتفرغ لاستعادة قواته لمواجهة البيزنطيين وغيرهم، وقد ذهب وفد من أهل الكوفة إلى الحسن بن علي في المدينة لاقناعه بالعودة إلى الحرب ضد معاوية، لكنه رفض وأقنعهم بالجنوح إلى السلم المؤقت حتى يستريحوا، ويحسنوا الاستعداد. ويعتبر لقاء الحسن بهذا الوفد هو اليوم الأول الذي أنشئ فيه الحزب السياسي المنظم لشيعة علي وبنيه. لقد تم تنظيم الحزب في المدينة المنورة إذن وفي قلب الجزيرة العربية في ذلك المجلس، وأصبح الحسن رئيساً له. وعاد أشراف أهل الكوفة إلى مَن وراءهم ينبؤونهم بالنظام الجديد والخطة المرسومة، كما سمعوها من الأبن الأكبر للإمام علي بن أبي طالب، وكانت خطة طويلة ومؤثرة تنبأ بولادة فرقة جديدة من المؤمنين وهم الشيعة، وكانوا يهيؤون الناس لهذا السلم الموقوت ولحرب يمكن أن تثار حين يأتي الأمر بأثارتها من الإمام المقيم في المدينة. وكان برنامج الحزب في أول نشأته يتمثل في طاعة الأئمة من بني علي والانتظار في سلم ودعة حتى يؤمروا بالحرب فيثوروا. ومضى أمر الحزب على هذا المنوال، فجعل الشيعة يلقي بعضهم بعضاً يتذاكرون أمورهم، ويسجلون على معاوية وولاته ما يتجاوزون به حدود الحق والعدل، وينتظرون أن يأمرهم الإمام بالخروج. ولكنه لم يفعل ذلك. ولم تكن شيعة أهل البيت مقصورة على الكوفة، ولكنها كانت منتشرة في آفاق البلاد تقل في بعضها وتكثر في بعضها الآخر. وكانت أمزجتها تختلف في معارضتها للسلطة القائمة (معاوية) باختلاف كثرتها وقلتها وباختلاف سياسة الولاة لها. وكانت

---

(1) طه حسين (الفتنه الكبرى) المصدر السابق ج 2، ص 175.

الرسائل التي تتداول بين معاوية والحسن تشير إلى خلافة الأخير لأمر الأمة بعد وفاة معاوية،وقد تمت مبايعة الحسن لمعاوية على هذا الأساس، إلا أن ذلك لم يحصل وخلف أبنه يزيد من بعده، وكان ذلك مثار غضب الناس في أرجاء البلاد الإسلامية كلها.

وهكذا انتقلت الخلافة ليزيد ابن معاوية وصارت رئاسة الشيعة إلى أبى عبد الله الحسين بن علي رحمه الله بعد وفاة أخيه الحسن، وهكذا كانت البذرة الأولى لنشأة الفرقة الشيعية في الإسلام. وهكذا أوضح (طه حسين) وغيرة من الكتاب المستنيرين البذرة الأولى لنشأة الفرقه الشيعيه في الإسلام،ليست كما يصورها البعض هذة الايام من أنها حركه صفوية الاصل أو غير ذلك.

5 ـ 2 ظهور الخوارج على المسرح السياسي الإسلامي:

أن كلمة الخوارج قد اشتقت لغوياً بمعنى كل من خرج عن الأصول الإسلامية الأولى،والخوارج هم الذين بالغوا بالغلو لعلي بن أبي طالب أمير المؤمنين رغم أنه كان يكره الغلو. وقد حاربهم في حرب ضارية كما أسلفنا في الجزء الأول من هذا الكتاب[1] وأحرق منهم ثمانية رغم أن عقوبة الحرق هي من صلاحية الله وحده، ولا يجوز لأحد غيره أن يمارسها. ويمكن أن يستدل عن رأي الخوارج من خلال ما جاء في ردهم حول مسألة التحكيم للخلافة بين علي ومعاوية لاعتقادهم بأن الله وحده هو الذي يحكم في الناس في الأمور اليسيرة والكبيرة فكيف يمكن أو يحق لأحد غيره أن يحكم بالأمور الكبار التي تمس اجتماع الأمة وحقن الدماء، وكما جاء في ردهم ما يلي:

(أن ما نص الله عليه من الأحكام لا تجوز المخالفة عنه، وما أذن للناس فيه في الرأي جاز لهم أن يجتهدوا فيه برأيهم. إلا ترى إلى أمر الله في الزاني والسارق وقاتل النفس

---

(1) أنظر الفصل الرابع، الجزء الأول من هذا الكتاب.

المؤمنة بغير حقها، فليس للإمام أن يخالف عن هذا الأمر ولا أن يغير فيه، وأمر الله في معاوية وأصحابه واضح في آية الطائفة الباغية، فلم يكن لعلي أن يغيره وإنما كان الحق عليه أن يمضي في قتال هؤلاء البغاة حتى يفيؤوا إلى أمر الله) [1].

فالخوارج إذن قد رأوا أن المؤمنين سواء فيما بينهم أصلاً، فإذا كان لابدلهم من أمير يتولى الأمر بينهم فأولاهم به من هو أقربهم إلى الله دون النظر إلى الأصل أو العرق مع وجوب محاربة من كان بين بينٍ في دينه ودنياه من المسلمين، باعتباره مارقا، خارجا عن جادة السبيل ومثل هذا الرأي يتفق تماماً والعرف التقليدي السائد في ذلك الحين عند العرب. من هنا يتبين تأثير الموروث التاريخي الثقافي للأمم في سلوكها ومعتقداتها. لقد كانت بلاد الرافدين منبعاً ومولداً للإرث الديني وكانت شدة ارتباط الناس بالعبادة الوثنية واللاهوت تشكل السمة الغالبة على حياتهم الاجتماعية والسياسية عموماً، ولما جاءت العقيدة الدينية الموحده من الجزيرة العربية والمتمثلة في الإسلام، وما جاء به من الآيات القرآنية المنزلة من السماء التي انتشرت بسرعة فائقة من خلال درجة ترابطها بالسماء، لأن كل ما جاء في هذا الدين مرتبط بالله وحده ولا يحق لأحد غيره أن يتلاعب أو يجتهد في أمورهم من خلال ما يراه مناسباً لهم، ناهيك عن معرفتهم بأن هذا الشخص المتمثل بمعاوية بن أبي سفيان رجل يعمل لدنياه أكثر مما يجب. من هنا يضهر إن من الصعب على القوم في ذلك الحين أن يؤمنوا بتنازل علي لمعاوية بشأن أمر ولاية الشام عن طريق التفاوض وفض النزاع حقناً للدماء.

أما الشيعة فإن التمسك بالإسلام الحنيف إنما يفي في نظرهم التمسك بعترة النبي ولا سيما أهل بيته وولده من ابنته فاطمة وصهره على بن أبي طالب فالأمر عندهم أكثر من مجرد مبدأ خلافة بشرية وهو الرفض بالتسليم بما يذهب إليه أهل السنة، بأن

---

(1) طه حسين (الفتنة الكبرى)، ج2، ص95.

صاحب الأمر الإمام أو الخليفة (أي خليفة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين)، ليس سوى حاكم يتصف بالحكمة والدراية والقوة والحزم في إدارة أمور الأمة. لقد احتفظ الشيعة عن يقين بأن الوحي المحمدي الذي كان ينزل عليه عن طريق جبرائيل أو يوحى إليه من الله لابد وأن يكون له بديل أو صدى، في أهل بيته بشكل غيبي لا نعرفه، وبذلك يبقى الخليفة الإمام الهادي المهدي في أمور الدين وبالتالي العزم على عدم التفريق بين الدين والسياسة وإدارة أمور الدولة إذ ليس من السهل عليهم أن يقبلوا في ذلك الوقت أن الخليفه هو مجرد حاكم منهم ليس لة صلة بالسماء بشكل أو بآخر وذلك من تأثير المروروث التاريخي الذي تكلمنا عنة سابقاً.

وهكذا أعتقد الشيعة بأن هؤلاء الأئمه المعصومين لديهم القوة الفوق بشريه.أو أنهم يختلفون عن بقية البشر بقربهم إلى الله عز وجل.

وهناك رأي آخر في أصل الخوارج: [1] (يعتبر أن الخوارج على عكس ما هو شائع لدى بعض المؤرخين، فهؤلاء لم ينشأوا في نشأتهم الأولى من حرب صفين ولا بسبب التحكيم الذي حصل بين جيش معاوية وعلي، بل أنهم سبقوا صفين والتحكيم، لقد كانت نشأتهم في العراق وإن لم يُعرفوا بهذا الاسم الذي لزمهم فيما بعد، حين ثاروا وخرجوا في صفين على الإمام بسبب قبولة التحكيم الذي كانوا أول القابلين به والداعين إليه. لقد كان هؤلاء الخوارج قد ارتبطوا بتنظيم قبل صفين والتحكيم وحين ساروا إلى صفين ساروا وهم يحملون فكراً وعقيدة غير ما يحمل جيش علي، وتصميماً على أن يجعلوا من ساحة المعركة في صفين التي جمعت ذلك العدد الضخم من المسلمين، سبيلهم إلى نشر فكرهم وعقيدتهم وجر المسلمين للانضمام إليهم وتبني دعوتهم. وعلى عكس ما يريد المؤرخون المحدثون تأكيده من أن الخوارج لم يعرفوا الحرية في تعاملهم، لا مع

---

(1) أحمد فرج الله (نظرة حديثه لقضايا قديمه في الإسلام ((2004)

المسلمين الآخرين ولا مع بعضهم بل لم يكن أشد عداء لحرية الرأي من هؤلاء الخوارج، سيما الأزارقة،منهم وهم أكبر وأشهر فرقهم، إذ كانوا متعصبين ويرفضون الآخر وكل من لا يشاركهم في عقيدتهم يعتبرونه عدواً لهم، يسري عليه ما يسري على عدوهم، لا يستثنون في حكمهم هذا أحداً. لقد كان السيف شعارهم ووسيلتهم إلى فرض عقيدتهم. وإذا كان السيف قد أرهب المسلمين وأخافهم لفترة، فما كان له أن يستمر في إرهابهم وإخافتهم، ولابد أن يأتي يوم يرتد فيه إلى من جردوه وهو ما حصل فعلاً، ذلك أن عقيدة الخوارج قامت على تكفير جمهور أئمتهم، وهذا ما لا يرضاه المسلمون، ولذلك وقفوا موقف الحياد منهم).

5 ـ 3 ظهور الطور الأول من الاعتزال (المعتزلة) في العصر الأموي:

اعتبرت حركة الاعتزال أهم حركة فكرية دينية إسلامية نشأت في القرون الهجرية الثلاثة الأول، وقد اعتبرها أغلب الدارسين المعاصرين بأنها حركة (العقل) للدين الإسلامي أو حركة (العقل المستنير) في الإسلام والمعتزلة بحق أسياد الوعي الثقافي في تاريخ البشر، وقد صدق (أحمد أمين) عندما قال عنهم في الضحى والفجر (مات العقل في الإسلام عندما مات المعتزلة)[1].

وقد وضع ميلاد خاص للمعتزلة الذين رفضوه البعض واعتبروا الخلفاء الراشدين من ضمنهم. فقد صور المؤرخون بزوغ المعتزلة حين اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري، وأجاب إجابة مختلفة عن سؤال مرتكب الكبيرة، هل هو فاسق أم مؤمن؟ وأجاب بأنه لا مؤمن ولا كافر. وكانت هذه الإجابة وذلك الانعزال عن حلقة الحسن البصري في مسجد البصره، يحددان لدى المؤرخين بداية تشكيل فرقة من أهم الفرق

---

(1) د.علي شلق (العقل الفلسفي في الإسلام)، ص112.

الفكرية السياسية، والتي ستلعب دوراً محورياً في تجديد الفرق المذهبية الإسلامية والتي ستساهم بقوة في تغيير نظام بني أمية، وانتشار (العقلانية الدينية) في العصر العباسي الأول، وسوف نأتي إلى تفاصيل ذلك في الفصل الثاني في شرحنا لظهور المذاهب الإسلامية في العصر العباسي. ويرى عبد الله خليفة في كتابه (الاتجاهات المثالية في الفلسفة الإسلامية) ولأجل القاء الضوء عن فلسفتهم مايلي: ـ حيث أنه على الرغم من ظهور الطور الأول من الاعتزال في العصر الأموي إلا أنه بطبيعه الحال لم يصل إلى حد التجريد الفلسفي للتوحيد الإلهي).وكل ما ينقل عن واصل بن عطاء مؤسس الفرقة: (إن واصلاً كان ينكر القول بقدم الصفات الإلهية القديمة ويقول برأي القدرية في القدر) [1]. لقد ركز واصل على المسائل الأخلاقية والسياسية وخرج المعنى العام للتوحيد الذي تمثل في قوله للإمام الصادق (جعفر بن محمد الباقر): (الحمد لله العدل في قضائه الجواد بعطائه المتعال عن كل مذموم والعالم بكل خفي مكتوم، نهى عن القبيح ولم يقضه، وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه). ثم يقول: (إن مواد العصر العلمية غير مسعفه في ردم الهوة بين التوحيد المطلق في العالم الغيبي وبين ما هو من صنع الإنسان والتاريخ، أي تأثيث الوجود البشري الطبيعي، أما الخيارات السياسية والأخلاقية فهي من صنع البشر)، وبطبيعة الحال هناك فجوات معرفة كبيرة، فالتاريخ هنا يصير الآهيا، وبالتالي فإن أي معرفة موضوعية به تبقى معدومه، فالتاريخ لا ينطبق سوى على الخيارات الراهنة الصراعية مع الدولة الأموية، وتبقى صيغة تدخل الله في التاريخ أو عدم تدخلة أمور غامضة وغير محلولة فكرياً، فإذا كان الله خارج الوجود الحسي، فكيف يمكن ان يتموضع في الوجود والتاريخ، ثم أين مسؤولية (المكلف) إذا كان التدخل الالهي شاملاً وكلياً؟ ولكن حتى في هذا المستوى فإن القرآن يطرح صيغة التدخل الالهي المستمر في

---

(1) د. علي شلق المصدر السابق، ص126.

الحياة التاريخية والسياسية المباشرة للافراد، فالله هو الذي شكل العالم في ستة أيام ثم استوى على العرش، وخلق آدم ووضع له جدول السلوك وكان خرقه لذلك هو الذي سبب النزول إلى الأرض ثم ظهرت النبوات لهداية البشر..الخ.

إن كل هذه المواد تثبت التدخل الحسي من الله في الوجود، وفي حياة البشر والمشاركة المباشرة في صنع التاريخ، فكيف يمكن التوفيق بين التوحيد الاعتزالي التجريدي ونفيهم للصفات، وبين صناعة الله للوجود والتاريخ؟)[1].

في مرحلة واصل بن عطاء لم تبحث مثل هذه المسائل ولكن مقدماتها موجودة، والتناقضات الوجودية والفكرية يتم تجاوزها باللغة الانشائية كقول واصل (الحمد لله العدل في قضائه، الجواد بعطائه..الخ)، فهذه اللغة التقديسية لن تجيب الأسئلة والتضادات، فهذا التصوير يتضاد بين الانفصال العادل عن الوجود والتدخل في كل شيء.

إن هذه المرحلة (التاريخية) التي لم تنمو فيها العلوم الإنسانية ولا الطبيعية المختلفة بالدرجة التي تكفي لأن تعبر بشكل واضح وصريح عن دور الإنسان وعقل الإنسان في تقدمه التاريخي، لكن التناقض الذي نشأ في مسألة التوحيد منذ ذلك العصر، قد ساعد المعتزلة في تشكيل أدوات جديدة في المرحلة الثانية من خور الاعتزال، وعلى كل حال، فلن يكون هناك انقلاباً في الرؤية بل هي تطورات محدودة لسد النقص بين الإله المتعالي المجرد، وبين المادة الطبيعية والاجتماعية، فسيغدوا الله علماً بذاته وحياً بذاته وقديماً في ذاته، ولكن الله مع هذه الهيمنة الشاملة في مفهوم المعتزلة لن يتدخل مع هذا في اختيارات الإنسان، و إلا لما أنزله إلى الأرض، وما بعث الأنبياء إليه، ووضع لحسابه الجنة والنار..الخ. ان هذا التدخل الالهي الذي هو ليس كلياً، حيث بقيت منطق إرادة الإنسان حرة، يبقى متضاداً مع تجريد الإله وعدم ماديته، فهذه الذات الالهية التي لا

---

(1) عبد الله خليفة (المصدر السابق)، ص226، ج1.

تتغير ولا تتحرك، الموجودة في كل مكان هي التي تصنع التغيير والحركة والوجود والمكان والزمان[1].

ومن الناحيه الفلسفيه فإن التوحيد الاعتزالي المعبر عن توحيد الذات الالهي يبدو فقيراً، متناقضاً غير قادر على خلق تماسك منهجي في تصوراته، وليس ذلك إلا بسبب الاضطراب في بنيته الفكرية بين المثالية الذاتية والمثالية الموضوعية. فقد كان حجم المثالية الموضوعية ضئيلاً في تصور المعتزلة الأوائل، وفي عدم التناسب بين الجانبين الذاتي والموضوعي، تكمن مسائل تخلف الوعي وغياب العلوم، وإحلال الذات الالهية في كل شيء تعبيراً عن عجز قراءة السببيات المختلفة.

لقد شكلت الحركة السياسية الاعتزالية في العصر الأموي نواة لجسم الحركة السياسية الاعتزالية في العصر العباسي، وهي تدخل ميدان الكفاح العملي والثوري بعد أن كانت فكراً نظرياً غير متكامل الأبعاد.

ويمضي خليفه بالقول بشأن العبودية المعممة في العراق منذ العصور القديمة كما يلي:

(إن تطور المدينة كحقل مملوك مشاعياً وكمعبد، يعبر عن الخصائص الجوهرية التي هي بمثابة قوانين موضوعية، كامنة في الخلية الأولى، حيث نرى العبودية في الحقل والمعبد ورموزه والمسيطرين على الرموز. وهذه السيطرة المطلقة التي لا تبدو مطلقة يوضحها التطور، حيث تتمركز السلطة المطلقة في الآلهة المحددين والملك، ثم تتسع الملكية وتتجذر مطيحة بالمدن الحرة، والفئات المستقلة والأنواع الثقافيه جاعلة كل شيء تحت سيطرتها. لهذا لا نجد مجالس شورى وحكام مستقلين في عهود حمورابي وسرجون ونبوخذ نصر. إن ابتلاع العبودية العامة للثروة المادية يقود إلى تدهور الأنواع الفكرية

---

(1) عبد الله خليفة، المصدر السابق، ص227.

والإبداعية المستقلة وتحول العلوم إلى ملاحق للقصور والمعابد، كما أن الإبداعات الدرامية والملحمية، التي حصلت على بعض البنود في أزمنة المدن الحرة تختفي كلياً، ولا يجد الوعي طريقاً لاكتشاف تناقضات الوجود الاجتماعي إلا عبر الدين، المؤسسة الفكرية الشاملة المرافقة للعبودية العامة ـــ . ولا يتعارض هذا مع الازدهار المؤقت للمملكة أو حتى الامبراطورية ـ فاتساع المملكة يترافق ونمو التجارة والعلوم والآداب الجزئية، ولكن الدولة المقامة على الغزو المستمر وتحويل الشعوب الأخرى إلى عبيد ليسوا سياسيين فقط بل عبيداً كاملين، يؤدي إلى زيادة النفقات العسكرية والبذخية والمنشآت (الأسطورية)، كالأهرامات وحدائق بابل (برج بابل) والقصور..الخ. ثم يؤدي إلى انتفاضات الشعوب الأخرى وحروبها المضادة، وانهيار الممالك المزدهرة.

وكما أن نمو وازدهار المجتمع يرتبط بنمو مؤسسة الملكية وتوسعها الجغرافي والتجاري والحرفي حيث البحث المستمر عن الخامات، فإن الانهيار مرتبط بهذه المؤسسة، حيث يغدو المجتمع كله تابعاً وعبداً، للملك، الإله، الرجل المعبود، للفرعون أو لنبوخذ نصر الذي ينحني ملوك الأرض كلها تحت قدميه.

إن هذه السمات تحدث في أول حضارة بشرية جنوب العراق، والتي يزداد عنفها مع تصاعد ونمو مؤسساتها الحاكمة، وتغلغل القبائل السامية البدوية في عروقها السومريه، وهي الحضارة المسالمة السابقة، وهي المماثلة للحضارة المصرية قبل أن يأتي الهكسوس، ويدفعونها للعنف المتزايد والتوسع واستئجار المحاربين والأنطفاء في خاتمة المطاف) [1].

إن العبودية المعمَمة هي إذن استعباد النظام السياسي للجمهور العامل، ولهذا نجد تلخيصها الرمزي في (الفرعنة)، ولكن لا يمكن تعميم سمات النظام في أول تشكله مع مساره القادم، حيث أن حرية القبائل العربية وهي تخرج من الجزيرة هي غيرها حين

---

(1) عبد الله خليفة، المصدر السابق نفسه، ص 229.

تنقطع جذورها الرعوية كلياً. إن جهاز الدولة إذن يسمح بالقفز على التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية وتجاوزها دون القيام بالمحو التام لآثار الماضي، وهذا الذي يطبع تطور العلاقات التاريخية في المنطقة، ولهذا ستتم التطورات بالطابع السياسي المهيمن والمراوحة بين الأغوار والتراجعات الحادة والقفزات. وستغدو التشكيلات متصفة بهيمنة الدولة، فالعبودية ستغدو عامة، أي عبر سيطرة الدولة، والاقطاع سيغدو مركزياً، أي تحت هيمنة الدولة المركزية الأموية ـ العباسية، وسيغدو لا مركزياً عبر سيطرة الدولة الأندلسية والايوبية.

يوضح خليفه هنا (علاقه الصراعات السياسية بالوضع الاقتصادي والاجتماعي والفكري للمجتمع الإسلامي في ذلك العصر (وسيتضح لدينا اكثر من خلال استعراضاً لذلك الوضع في الفقرة اللاحقه في الحياة الاقتصادية والاجتماعيه للعالم الإسلامي في العصر الاموي.

وأخيراً نقول: (إن هيمنة الرموز السماوية في الشرق هي التي راحت تتوجه للعالم المفارق معبرة عن وحدة صراعية خاصة بسبب عدم قدرة الناس على خلق تاريخهم بشكل عقلاني، أي ليست لديهم إمكانية مادية وفكرية للسيطرة على الطبيعة والمجتمع. والرموز السماوية هنا تعبيراً عن دور القوى الفاعلة المالكة والمثقفة في إدارة العمليات التاريخية الكبرى)، (غياب الديمقراطيه)وبالتالي صنع التاريخ بقرار الحاكم[1].

وسنأتي بتفاصيل أكثر عن فرقة المعتزلة في الفصل الثاني في البحث عن الطور الثاني للاعتزال. كما جرت العادة في تسميتها.

---

(1) من هنا جاء الموروث التاريخي في دراسة التاريخ المؤخرأضمن تاريخ الملوك والخلفاء حسب في المناهج الدراسية في البلدان العربية مهملين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والفكرية للشعوب ودورها في صنع تاريخها.

6. أوضاع المسيحيون في الشام في العصر الاموي:

لا يمكن فهم تاريخ المجتمع دون الاخذ بنظر الاعتبار الديانات التي كانت سائده قبل وصول الإسلام اليه، لذلك فقد أصبح لزاماً علينا أن نلقى ضوء عن أوضاع المسيحيون في الشام في العصر الاموي. لقد أخذ المسيحيون الخارجون عن خاعة الإدارة المركزية في بيزنطية، ينضمون أحوالهم ويضبطون شؤونهم الدينية والكنسية الخاصة، بعد أن تخلصوا من مضايقات العاصمة وازعاجها، واقتصرت علاقتهم مع الامبراخورية البيزنطية في العصر الأموي على بعض الاتصالات الإنسانية، بالرغم من الحروب التي كثيراً ما شجرت بين المسلمين والروم، وقد راحت بيزنطية تشعر بالأسف المرير لفقدانها أغنى ولاياتها الروحية وكان واحد من كبار الموظفين في البلاط الأموي يدعى (يوحنا الدمشقي) قد كفر بالعالم وانقطع لعبادة الله راهباً في دير القديس سابا، القريب من القدس وكان من أشهر لاهوتي الكنيسة الشرقية الملكية في تلك الحقبة من الزمن، وقد لعب دوراً بارزاً في الجدل الديني الذي احتدم في بيزنطية حول تكريم صور القديسين[1]، وقد عرفت هذه الكنيسة بالملكية لبقائها على ولاء الملك أو الامبراخور وللعقيدة التي ترعاها القسطنطينية. كما لحقها أذى كبير من جراء فقدانها السلطة الكنيسية ولشغول كراسي بطريركيتها في المرحلة الأولى، ثم لتوليها فيما بعد من قبل بطاركة أكثر التصاقاً بمركز الخلافة الإسلامية ومنهم بطريركية القسطنطينية، وقد بقيت بالرغم من هذا نشيطة من خلال سيرة القديس يوحنا الدمشقي، وإلى جانب الكنيسة الملكية قامت الكنيسة المارونية التي أخذت أسمها من اسم راهب يدعى مارون، إلا أن ابتعادها عن بيزنطية وعدم الاستقرار في بطريركية أنطاكية (في تركيا) جعلها تتردى في الهرخقة

---

(1) أدور بروي (تاريخ الحضارات العام) (1986)، ج 2، القرون الوسطى، ص118.

المونوثولية[1] أو القول بمشيئة الواحد في السيد المسيح في الوقت الذي تنكرت لها كنيسة القسطنطينية وتحولت عنها، وقد أخذت هذه الكنيسة تنظم شؤونها في وضع بين بين، من الانشقاق والانفصال تحت إدارة بطريرك خاص بها، وبدون قصد معين، وبالرغم من عداوة أتباع عقيدة الطبيعة الواحدة الذين كانوا ينعمون برعاية الخلفاء وينالون حظوة في أعينهم، أخذ الموارنة يستقرون تدريجياً على سفوح جبل لبنان الغربية بعد أن أخذوا في حرثها واستغلالها، وبعد أن رأوها أمنع جانباً وأمن لسكانها من تلك الهضاب والنواحي الواقعة إلى الشمال من سوريا والتي لا يزالون يسكنوها إلى اليوم، أما أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة من يعاقبه وأقباط وأرمن ونساخرة، فقد استطاعوا في أول عهد السيطرة الإسلامية (الأموية) أن يحافظوا على عدد اتباعهم وكنائسهم، وقد وضع البطريرك أبشونيهب الثالث النسطوري[2] سلسلة من التشريعات الدينية والقانونية، ثم انصرف إلى التأليف في الأمور الرهبانية وسير القديسين والتاريخ الكنسي، بالإضافة إلى الحركة العلمية التي نشطت إذ ذاك ولا سيما الطب، كما برز عند اليعاقبة شخص يدعى يعقوب الرهاوي الذي كان أحد علماء زمانه في الأدب والشعر والتاريخ والتفسير والتشريع ويعتبر فيلسوف لاهوتي صاحب التصانيف العجيبة المفيدة. وبالرغم من موقفه المعادي لبيزنطية من الوجهة العقائدية فقد بقي عقله متفتحاً للقبس من التراث المسيحي اليوناني. وبالرغم من الفروق اللاهوتية التي قامت بين الكنيستين، فقد جمعها العداء ضد الكنيسة اليونانية، وتأثرت الواحدة منها بالثانية فاستعملتا في الطقوس الدينية لغة واحدة مع بعض الفوارق البسيطة، فقد آثر اليعاقبة تأثيراً بالغاً على الأقباط والأرمن، بينما تابع النساخرة جهودهم لنشر المسيحية في الأقطار الوسطى من آسيا.

---

(1) المونوثولية: شبيهة بالديانة التوحيدية المطلقة وبعيدة عن التثليث المسيحي.

(2) النسطورية واليعقوبية ـ خوائف مسيحية مذهبية نسبة إلى بطريركها المسمى نسطور ويعقوب وهكذا.

7. الحياة الاقتصادية والاجتماعية:

لم يطرأ على مجموع سكان الريف تقريباً ولا على السواد الأعظم من سكان المدن أي تغيير يذكر في سير الحياة، ونهجها، وهذا الاستمرار نراه قائماً في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، فقد وزعت الأراضي في الريف إلى قسمين متميزين: الأملاك الخاصة والأملاك العامة، ثم أضيف إليها الأملاك التي فقد أصحابها ملكيتهم لها، لفرارهم من البلاد عند الفتح الإسلامي أو لوفاتهم في الحروب التي دارت رحاهاآنذاك، فالقسم الأول من هذه الأراضي ترك أصحابها، شريطة أن يدفعوا عنها ضريبة عقارية هي الخراج التي كانوا يدفعونها من قبل الدولة البيزنطية أو الساسانية (حسب الموقع الجغرافي)، أما القسم الثاني من هذه الأراضي، فقد أجر إلى المزارعين أو المرابعين (إقطاع) ومعظمهم من العرب بقصد استثمارها واستغلالها وفقاً لعقود خاصة،وقد رأى فيها بعض الفقهاء من أهل البلاد استمراراً لنظام الحكم الذي عرفه البيزنطيون وعملوا له تخويلاً مع أن الدولة الجديدة التي لم تكن قد ألفت بعد مثل هذه الثروة اعتبرتها أملاكاً تشبه في ملكيتها تلك الأراضي المعمول بها في الجزيرة العربية قبل الفتح، فالإقطاع هو ملكية عقار يولي صاحبه جميع الحقوق الاقتصادية كيفما يشاء، فعلى سيد الأرض أن يدفع الضريبة المترتبة على كل مسلم ويجعل مما يتصدق به عشر ربحه أو مدخوله، فهو لا يتمتع بأي من الامتيازات التي تحقق قانوناً للسلطات العامة على الأقطاعيين أو المستأجرين، فسلطته عليهم أخف من سلطة أصحاب الأملاك على مزارعهم في عهد البيزنطيين والساسانيين، وعلى هؤلاء المزارعين أن يدفعوا رسوماً شبيه برسوم الخراج المترتبة على أصحاب الأملاك من الفلاحين.

وهكذا نرى أن هاتين الفئتين من الأراضي لم تخضعا لنظام اقتصادي يختلف الواحد عن الآخر اختلافاً جذرياً، وبالتالي فإن الفتح العربي للمنطقة لا يمكن اعتباره استعماراً أو سيطرة أجنبية إلا ما جاء به من استثمار أو استغلال للأراضي الغير قابلة

للحرث والزراعة. وهكذا نرى أن الفتح العربي كان أخف وقعاً بكثير على الأهلين، وكان شعورهم بالارتياح واضح بالمقارنة مع غزوات الجرمان واحتلالهم لاوروبا الغربية على سبيل المثال، لذلك استطاع معاوية بن أبي سفيان أن يكسب جموع الشام بسهولة ويسر بعدما كانوا يعانون من تسلط البيزنطيين لردح من الزمن. إن هرب أرباب الأراضي البيزنطيين من البلاد وحلول ملاكين عرب محلهم أقل دراية وخبرة منهم في تنظيم الإقطاع لم يجلب معه الحرية للفلاحين، وكان بالإمكان للعرب أن يصادروا أو يختلسوا أملاك سكان البلاد كما هو المعتاد في الأقوام المحتلة إلا أن ذلك لم يحدث في الواقع الفعلي، مما ساعد الشعور بالراحة والسرور من الخلاص من المحتل المستعبد المقيت. وكذلك فإن فقدان الإدارة والنظام الذي ساد البلاد في أول الفتح، قد ساعد بعض القادة العرب وزعمائهم (الأمويين) على اقتناء قرى وضيعات ضموها إلى ممتلكاتهم السابقة من الجزيرة العربية، واعفيت تلك الممتلكات من ضريبة الخراج، فلم تستفد الدولة منها إلا العشر، ومثل هذا الوضع لم يكن سائداً في جميع أنحاء الامبراطورية الإسلامية، ففي العراق وإيران مثلاً أسقط في أيدي أسياد البلاد وكبار الملاكين، وسدت في وجوههم منافذ البلاد فلم يستطيعوا أن ينجوا بأنفسهم، ولذا بقي عدد كبير منهم داخل البلاد لم يستطع النجاة بنفسه. وإذا رأى زعماء العرب أنفسهم بمعزل عن كل رقابة حكومية مباشرة (لبعد المسافة عن المركز) قاموا بعدد من التجاوزات التي حدث منها اضطرارهم للتغيب كثيراً عن أملاكهم بداعي الجهاد وعدم خبرتهم ودرايتهم بسياسة الأرض والعناية بها، وتمسك الفلاحين بالأرض وتعلقهم بها في عهد الإدارة الساسانية السابقة. ولذا كان لابد من الكشف عن الهاربين لإجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه عن أملاكهم في الريف من ضرائب ورسوم لأنهم لا يزالون مسؤولين قانوناً عنها أمام الإدارة المالية، ولذا نرى الوثائق البردية في مصر حيث كانت أعمال المراقبة المالية لا تزال فيها على أشدها. تأتي على ذكر هؤلاء الفارين، لدرجة أنها اصطلحت على تسمية ضريبة

الأعناق أو الجزية المستحقة عليهم بكلمة (جوالي) أي اللاجئين وهم أولئك الذين يترتب عليهم شخصياً دفع ضريبة الأعناق أو الجزية بقطع النظر عن الأراضي أو العقارات التي يملكونها. وهذه الضريبة الثانية أي الجزية التي فرضت على غير المسلمين لم تكن ضريبة جديدة فرضها الفتح الإسلامي عليهم، إذ كانت بيزنطية تفرضها على كل من لم يكن نصرانياً أو لم يكن حراً (كان نظام الأحرار والعبيد سائدة في العالم)، وهكذا فالحياة وخرق الجباة، بقي على ما كان عليه قبل الفتح ولم يتغير غير المستفيدين من هذه الضريبة، وهو أمر لم يكن ليكترث له الأهلون أو ليهتموا له بقليل أو كثير.

أما المؤسسات البلدية والخاصة في المدن فقد بقيت دونما تغيير يذكر وبقيت تعمل كالمعتاد في نظام سارت عليه الإدارة الجديدة.

أما في التجارة، فقد تم إلغاء الاحتكارات الرسمية كما نسخت سيطرة الدولة البيزنطية على الأسواق في مصر، وهي سيطرة كان يقصد منها تأمين أسباب تموين العاصمة القسطنطينية. أما في شمال الشام فقد خفت أن لم تكن قد توقفت تماماً الحركة التجارية لا سيما تصدير الزيت والزيتون إلى مقاطعات آسيا الصغرى (تركيا)، في حين حصل توقف أو انقطاع في حركة التصدير من مصر التي استمرت قائمة على أيدي بعض التجار. كما أن الانتاج بقي على وفرته حتى في حال توقف حركة التصدير، وتحولت إلى أسواق جديدة تتمثل في هذه المدن الواقعة على مشارف الصحراء، جديدة كانت أم قديمة وفي مقدمتها دمشق عاصمة الخلافة الأموية.

وخلاصة القول أن توحد البلاد وتوسع الفتوحات كان لها وقع خيب في الأوساط التجارية مع أن الناس لم يتحسسوا فائدة تلك الوحدة إلا بعد حين، وكان الجمل في الصحراء والخيول هي الواسطة الأكثر انتشاراً في نقل البضائع التجارية.

والمهم أن نلاحظ هنا على ضوء سوء فهم ناتج عن نظرية عرفت بعض الشهرة أنه لم يحصل تغيير كبير في التجارة البحرية لا في بحر الهند الذي سيطر الإيرانيون على

التجارة فيه ولا في البحر المتوسط، فالعرب لم يكونوا رجال بحر كما هو عليه الحال بالنسبة للبيزنطيين أو الأوروبيين وخاصة الإنجليز الذين اشتهروا منذ نشأتهم الأولى بسطوتهم على البحار والمحيطات في عصر القراصنة، وكانت واحدة من أسباب توسع آفاقهم و مخيلتهم الفكرية.

8. الحياة الفكرية والثقافية :

لقد تميزت حضارة العرب في القرن الأول للهجرة بالشعر العمودي، كما هو عليه الحال في العصر الجاهلي وبعد أن أخذ ينعم برعاية الأمراء والخلفاء الأمويين بعد أن كان محرما تقريبا في الفجر الأول للإسلام، فقد تلقى الأدب بموضوعات جديدة لم تكن مطروقة من قبل كمدح الأمراء لاستدرار عطائهم أو كتصوير حياة الأحزاب وغير ذلك من الموضوعات التي تصف لنا حياة الرعية والورع التي أخذ العرب بإسبابها عند دخولهم الإسلام، ومن بين الشعراء الذين برزوا في هذه الحقبة في المدح والهجاء ثلاثة هم أنبغ شعراء عهد بني أمية وهم الأخطل من قبائل الشام النصرانية، والفرزدق وجرير، وهناك شعراء غيرهم ساروا على عمود الشعر العربي فتغنوا في نظمهم، بمآثر الجيوش العربية في فتوحاتها المظفرة، كما نظموا في موضوعات شتى كالحماسة والموعظة والرثاء وفي العقائد وفقاً للأحزاب التي ينتمون إليها. وكذلك في التنسيب والتشبيب شعراً يلتهب حباً عذرياً، كما نرى في شعر مجنون ليلى أو يفيض أسى ولوعة فيضيف لنا محاسن دمشق والمدينة ومكة على أنغام المغنيين والمغنيات، وهكذا بالنسبة للنثر وهذا يزيد اللغة خواعية ومرونة ويسلس قيادها مع المفسرين والمحدثين لتصبح في أواخر القرن السابع لغة التدوين والدواوين، كذلك انتشرت حركة الترجمة ونقل العلوم الدخيلة كعلوم اليونان والفرس والهند إلى العربية، وقد التمع اسم المؤرخ الأرمني سبيوس والكاتب يوحنا نيكيو الذين عاصروا الفتح العربي وتركوا بعض الترجمات الأثرية في القرن السابع.

9. حركة البناء والعمارة:

اقتصرت الحركة المعمارية في ذلك الحين في بناء المساجد والاتساع بها من حيث المقاييس ونقوش الزينة من الداخل وتحليته بطراز مستوحاة من الطراز الوطني المعمول به في البلاد وهذا الاستمرار في الوسائل التقنية والمضي في استلهام الموضوعات والنماذج الأهلية يبرز أكثر في المباني المدنية بحيث أن نسبة قصر المشتى في الأردن تبقى أمراً مشكوكاً فيه ولا يمكن بالتالي التسليم به بصورة مطلقة، ومن أشهر الآثار الهندسية الباقية إلى يومنا هذا، مسجد عمرو بن العاص في مصر (الفسطاط) ومسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس، والذي بني في عصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في أواخر القرن السابع، وبعد ذلك بقليل المسجد الأموي الكبير في دمشق بناه الوليد بن عبد الملك، والذي كان أساساً كنيسة القديس يوحنا المعمدان، ولا يقل شهرة عن هذه المساجد مسجد القيروان الذي لم يبقى منه شيء يذكر، ولم نجد في عصر الخلافة الأموية ولا العباسية مباني أثرية باقية على حالها من قصور الخلفاء والمشاهير وهذه لها أسباب كثيرة فمن وجه نظرنا أولاً: إن الحاجات الإنسانية لهؤلاء لم يرتقي لدرجة تخليد الذات في صنع قصور دائمية ثابتة تبقى للأجيال لكونهم قد تعودوا على الترحال في الصحراء وترسيخ ذلك الترحال في أذهانهم كموروث تاريخي. وثانياً: لانشغالهم المفرط في الحروب والنزاعات الداخلية وتكريس اهتمامهم في السلاح والعدة وفي التحوط من أعمال الغدر والاغتيال، وربما هناك سبب ثالث في عدم وفرة المواد الأولية اللازمة لعمل النقوش والتماثيل الفنية أو قد تكون عملية نقلها صعبة ومرهقة، هذا بالاضافة إلى أن الدين الإسلامي قد حرم التمادي في مثل هذه الأعمال الدنيوية الصرفة، ولهذا نجد أن أغلب الخلفاء والسلاطين في الدولة الإسلامية وعلى مر العصور يتمادون في البذخ في المأكل والزواج في العديد من النساء والجواري و كل ما تيسر لهم ذلك لعدم وجود نص قرآني يمنع عليهم ذلك ولاشباع حاجة مادية أساسية من أولى الحاجيات التي يفكر بها الإنسان

أولاً، ولم تكن لتخطر ببالهم أن يخلدوا تحفاً فنية تستحق الذكر والتخليد للأجيال اللاحقة. وقد استمر هذا السلوك ليس فقط في العصر الأموي بل شمل العباسي وما بعده من خلفاء وسلاخين حكموا البلاد الإسلامية إلى بداية القرن العشرين.

10. بروز التميز العنصري والحركات القوميه داخل المجتمع الإسلامي :

إن المنافع المادية والأدبية والاجتماعية التي خمع بها المؤمنون الجدد في قطفها من اعتناقهم الإسلام، إذ أن اعتناقهم الإسلام ديناً لهم يجعلهم من أبناء الطبقة السائدة المهيمنة في الدولة ومن أعضاء المجتمع المسيطر، وهكذا فإن اعتناق الإسلام بالجملة كان في نظر القوم إشباعاً لِهمَ خبقي ولشهوة اجتماعية، وتحقيقاً لرغبة أو لحلم خالما راودهم بتحسين وضعهم الاجتماعي. ولم تأتي حركة انتشار الإسلام على نفس المستوى من الإيمان في كل مكان إذ بقي في بعض الأقطار أقليات دينية متراصة العدد، كما هو عليه الحال مثلاً مع الطائفة المارونية في لبنان والطائفة اليهودية في فلسطين، وقد كان المسيحيون على الإجمال أكثر تمسكاً بعقيدتهم ودينهم من الزرادشتية في العراق وايران مثلاً. ويعود السبب في ذلك إلى القوة الأدبية التي كانت تتمتع بها المسيحية لدى بعض المناخق التي نشأت فيها تلك الديانة أصلاً، وتغلغلت بين الطبقات الشعبية في المجتمع القائم، بالاضافة إلى تأثير المحتل البيزنطي الذي اتخذ من المسيحية منهجاً سياسياً له قبل دخول الإسلام إليهم،ويتضح من جهة أخرى أن العرب خلافاً لما سار عليه الفاتحون من قبل أخذوا يدعون سكان البلاد لاعتناق دينهم بينما اعتاد الفاتحون فيما مضى أن يقبلوا على اقتباس ديانه البلاد التي فتحوها. ومهما بلغ من حدة الجدل الديني وعنف الحرب التي قامت بين الإسلام والديانات الأخرى، فقد كانت هذه وتلك الديانات من نفس المستوى الذهني للمؤمن المتوسط، إذ كان من العسير على المؤمن أن يدرك أو أن يفهم كما يجب أو أن يميز بين رجال اللاهوت، فبعد أن ملَ النصارى وسئمت نفوسهم من

المناقشات التي أدت إليها الأديان والمذاهب المختلفة، وهذه الشروح والتفاسير والتعاليل الفلسفية اللاهوتية التي آلت إليها أو شجرت عنها فقد رأوا في الإسلام تبسيطاً معقولاً لمعتقداتهم غايته الاستمرار والتركيز، وهذا الإسلام الذي أقبلوا عليه واقتنعوا به كأنه لم يكن في نظرهم، ذلك الإسلام الذي خرج بين يدي محمد (ص) من مكة في قلب الجزيرة العربية. فهو دين طرأ على اتباعه تطوراً كبيراً منذ إن أصبح في تماس شديد مع الشعوب والبلدان التي تم إخضاعها، وبعد أن أدخل عليه معتنقوه من الأعاجم ما أدخلوا من رواسب تراثهم الروحي وبعد أن لقحوه بما لقحوا من صور ونماذج وقوالب جديدة. ولكي نفهم من جهة آخرى، حركة اعتناق الإسلام بالجملة علينا أن لا نسقط من حسابنا الفوائد والمنافع المادية والأدبية والاجتماعية التي طمع المؤمنون الجدد في قطفها من اعتناقهم الإسلام إذ أن اتخاذ الإسلام ديناً لهم يجعلهم من أبناء الطبقة السائدة المهيمنة في الدولة، ومن أعضاء المجتمع المسيطر، وهكذا فاعتناق الإسلام قد هوّن عليهم مورد الذل والهوان أكثر مما هو إرضاء لنزعة دينية صرفة، أو لمطلب أسمى من مطالب النفس البشرية السامية. فالمرتدون عن الإسلام لم ينالوا حالاً المساواة مع العرب من الوجهة الاجتماعية التي طمعوا بالحصول عليها. فالإسلام الذي اعتنقوه لم يكن دائماً هو الإسلام المتمثل في الحكومة والإدارة المركزية، فهو كثيراً ما كان إسلام هذه الملل والنحل الإسلامية المعارضة، وهكذا فلكي تقوي هذه الملل من جانبها المستضعف وتشد من أزرها أمام الإسلام الدولة أو الإسلام الرسمي، نرى اتباعها يقومون بجهد كبير لدى سكان البلاد الأصليين، لحملهم على اعتناق الإسلام وفقاً لتعاليمهم أو حزبيتهم الخاصة. فالدولة الأموية كرست سيادة العرب وسيطرتهم، ففي نظر الفاتحين، العربي والمسلم شيئان أو وضعان مترادفان. فالاقبال على الإسلام واعتناقه بالجملة من قبل سكان البلاد ميعان هذا الترادف وذهاب بهذا التوافق، إذ في مثل هذة الحركة تغليب عنصر على عنصر آخر وترجيح فريق مسلم على فريق مسلم آخر، والدين الجديد لا يقر مثل هذا الأمر أبداً،

فالذين اعتنقوا الإسلام من غير العرب الأوائل قد أنزلوا منزلة من القبيلة فجعلت منهم أشبه ما يكونون أبناءه بالتبني، ويسمون (بالموالي) بأخذ زعماء القبيلة لهم تحت رعايتهم وحمايتهم، وقد كان وضع هؤلاء الموالي دون مستوى أبناء القبيلة، وهو وضع تألموا له كلما ازداد عددهم، وكلما تباعدت عن الأذهان ذكريات الفتح، وأخذت الدولة الجديدة في تنظيم أمورها بعد أن أصبحوا ذخر الدولة ويرفدونها بالعنصر الإداري. وقد اقتصر وضعهم في الحرب على دور ثانوي، لا يخولهم أي حق بالغنائم والأسلاب التي يصيبها العرب في فتوحهم، وفوق هذا فلم يكن وضعهم بالنسبة لنظام الضرائب مرحب فيه. فاعتناقهم الإسلام كان يجب ان يؤدي في نظرهم إلى اعفائهم من الجزية المفروضة عليهم قبل اعتناقهم الإسلام كما كان يجب أن تحول ضريبة الخراج المترتبة عليهم إلى عشر فلم يحدث شيء من هذا عملياً، ولم يكن معقولاً لدى الدولة أن تقبل بمثل هذا الرأي وقد أوشكت حروب الفتح على الانتهاء، وإن تقبل بمثل هذا الفيء الذي يدمغ الذميين والخاضعين للإسلام، على أن تستبدل فيما بعد برسوم أخرى تحل محلها، وإن بقي تصنيف الأراضي من الوجهة الضرائبية على ما كان عليه منذ الفتح، فتبقى أرضاً يترتب عليها الخراج. هذه الأراضي التي يملكها صاحبها حتى بعد اعتناقه الإسلام، وهكذا استمرت هذه الظاهرة قائمه في عدم المساواة ممثلة خير تمثيل بالنظام المالي وجباية الضرائب ذلك النظام الذي سارت عليه الدولة الجديدة.

وأمام هذه الظاهرة من عدم المساواة قام المرتدون على الإسلام يطالبون بإجراء العدل بالسوية وتأميم المساواة بين المسلمين من أي جنس أو عرق كانوا، وليس بين العرب فقط، وهكذا فحركة التذمر التي ارتفعت إذ ذاك لم تتجه ضد سيادة الإسلام وسيطرته ولا ضد الديانة الجديدة فقد استهدفت إلى السيطرة على مركز الإدارة من الداخل وعلى هذا الأساس قامت الحركة في إيران والعراق وفي المغرب الأقصى بين البربر من سكان البلاد الذين راح العرب يحيلون فتيانهم عبيداً وبعد ذلك في إسبانيا بين

المولدين، هذه الطبقة التي تألفت ممن اعتنقوا الإسلام من السكان الأصليين. وقد بلغت أشد الحركات هذه في إيران، من خلال شعورهم بأن الأمويين اعتمدوا على أهل الشام وحدهم في تدبير أمور دولتهم الموحدة، بينما رأى سكان الولايات الأخرى أنفسهم يذهبون ضحية لهذا النظام، بالاضافة لذلك فقد كانت إيران من بين هذه الولايات القطر الوحيد الذي كانت له تقاليده الوطنية والقومية المتميزة قبل الإسلام، إذ كانت إيران مركز لامبراطورية الساسانيين الذين حكموا المنطقة لعدة قرون مضت وهكذا تلتقي في مجال نظام الضريبي جنبا لجنب مع القضية القومية والقضية الاجتماعية لتزيد في حجم المشكلة التي تعاظمت في ظل نظام الملكية التي عملت به الدولة الإسلامية. ففي إبان الفتح تركت للعرب الحرية في أن يقتنوا شراءاً أو غلاباً الأراضي التي كان على سكان البلاد مبدئياً أن يحتفظوا بها، إلا أنهم راحوا يوسعون من نطاق هذه الملكية عن طريق التلجأه وهي ضرب من التوحيد أو الارتفاق، يلجأ إليه المستضعفون من الناس ليأمنوا شر الجباة الشرهين، وسوء معاملاتهم أو عجزهم عن تأدية الرسوم المتأخرة عليهم من السنين المأجلة الدفع، فيطلبون الانضواء تحت حماية زعيم قوي بعد أن يجعلوا أملاكهم في استثماره وتحت تصرفه بصورة وراثية. أما في المقاطعات والولايات الواقعة على الحدود فكثيراً ما عمد العرب في غفلة من الخليفة أو الأمير إلى اغتصاب أملاك السكان الذين لا يزالون متخلفين في تطورهم ولم تتاح لهم الفرصة بمعرفة مإذا يجري في مركز الإدارة، وبعد أن يسيموهم الهوان ألواناً كما فعلوا مثلاً مع قبائل البربر في المغرب. أما في إيران فإن كبار الملاكين من سكان البلاد قد عقدوا صلحاً مع القادة من أمراء الجيش انطلاقاً من مبدأ استثمار الطبقات الشعبية السفلى. وهكذا نرى عدم المساواة تفرق بين النزعات الوطنية والنزعات الاجتماعية، وفي هذه المعارك التي لم تلبث أن قامت بين المسلمين نرى فيها كل فريق يضم بين صفوفه عرباً وغير عرب من الأنصار، أما على الصعيد العاطفي فقد وقع الاصطدام بين أشد العرب تمسكاً بالتقاليد وبين أشد سكان

البلاد ثورياً، فبينما راح الفريق الأول يطالب بالتطبيق الحر في للشريعه الإسلامية والتمسك بالتقاليد الإسلامية الأولى، ويعني هذا الوقوف ضد الدولة الأموية التي تعتبر في ذلك الحين نصف علمانية، بينما رأى الفريق الثاني في تطبيق الشريعة الإسلامية المساواة بين المسلمين على صعيد الأخر والأملاك ومراكز الإدارة العليا منذ بداية الفتح الإسلامي وبدون أن يوضحوا مطالبهم بدقة. ان الأهداف التي يرمون لها كلا الفريقين هو المطالبه بالأخذ بتعميم النظام الإسلامي وتوسيعه على أمثل ما يرام. وهذا التحالف التلقائي استطاع أن يجمع الناس على استبدال نظام بغيض استطاع أن يطفأ بالدم جميع الانتفاضات التي قامت ضده هناك، وباتحاد واسع وشامل، وهذا الاتحاد على ما حف به من غموض في الأهداف المستقبلية الغير معقولة قد أدى بهم إلى النصر المرتجع وأدى إلى سقوط الدولة الأموية ومطاردة الأمويين أينما وجدوا في أرجاء البلاد ولم ينجو منهم إلا نفر قليل ممن استطاع الهرب إلى اسبانيا (بلاد الأندلس) ليشكلوا دولة أموية سميت (بالدولة الأموية في الاندلس).

وسنأتي في الفصل القادم إلى كيفية ولادة الدولة العباسية وانتقال مركز الإدارة من دمشق إلى بغداد.

وهكذا نجد أن التوسع السريع في الفتوحات الإسلامية أيام الامويين لم يكن منسجماً مع تطور قدرتهم الاداريه المتمثلة بالخليفه لوحده. وقد خلف لهم مشاكل لم يستطيعوا من تجاوزها،وكانت سبباً رئيسياً لتدهور وانهيار الدولة الاموية برمتها. ولم تستطع الخبرة المتواضعه في الادارة القادمه من قلب الجزيرة العربيه في إدارة الامبراطورية الإسلاميه المترامية الاطراف، وبتلك الوسائل من الاتصال والتنقل المتخلف جداً في ذلك العصر.

الفصل الثاني

العصر العباسي الذهبي

بداية سيطرة بني العباس على السلطة (العصر العباسي الأول):

لقد اتخذت المعارضة للدولة الأموية أشكالاً شتى، واتسعت بشكل لم تستطع تلك الدولة الآيلة للسقوط أن تصمد أكثر مما يجب، وحتم عليها الظرف التاريخي بالانتهاء ومجيء سلطة ثانية، تتمتع بدرجة أكبر من القبول والشرعية ومن هذه الأشكال كان الخوارج قد نالوا تأييد مؤزراً في كل من إيران ومصر، وكذلك في المغرب حيث استفحل أمرهم وعظم شأنهم، بعد أن استجاب الأهلون من البربر لهذه الدعوة لترافقها مع النزاعات الفوضوية الدينية المتأصلة بينهم، غير أن بُعد بلاد البربر من جهة، وانقسام فِرق الخوارج على بعضها من جهة أخرى، إذ كانت طبائعهم طبائع أهل البادية الذين عُرفوا بالعُنف والتهور، كل ذلك حال دون أن يحققوا فوزاً فاصلاً .

وقد وجدت الثورة خير تعبير لها في فرقة الشيعة، أو بالأحرى في هذا الشعور العارم الذي كان الشيعة خير من يمثله، ألا وهي صورة سُلطة يلتقى صاحبها الأمر من الله رأساً، مناقب خاصة فكرة تستهوي معاً أصحاب النظرية التقليدية الذين يقدرون ما في رسالة محمد من قيمة سامية، كما تبسم للإيرانيين الذين ألفوا حكم الساسانيين وارتاحوا إليه وكان الشيعة يطالبون بأن يكون الحكم في أولاد علي بن أبي طالب وذريته، بينما راح غيرهم يتمسك بأسرة النبي دون أن يخصوا منها فِرعاً معيناً،وأظهروا استعدادهم لمناصرة أية حركة ذات شأن تخلصهم من حكم الأمويين .

وهكذا استطاع أحد أولاد العباس عم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بما تم له من دراية وحُسن سياسة أن يقيم له داعية في خراسان (مقاطعة تقع إلى الشمال الشرقي من إيران) هو أبو مسلم الخراساني، وأنه يوجه هذه المعارضة لمناصرة آل العباس وأن

يُسقطوا الخلافة الأموية عام (750) فيؤسسوا دولة جديدة ' استطاعت إن تستمر في الحكم شكلياً على الأقل إلى القرن الثالث عشر ميلادي [1] وهكذا لم تأت كل الشدة والقمع التي استخدمت من قبل بعض الخلفاء الأمويين بعلاج للمشاكل التي ظهرت بمرور الوقت، ومن بينها اعتناق الإيرانيين للإسلام بالجملة على أساس إن الحكم لله وحده، وعلى أساس لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى وإنصاف المسلمين ومعاملتهم بالتساوي دون تمييز بين العرب والقوميات الأخرى، وقد عرفت تلك الدعوى (بالشعوبية)، أي لا فرق بين الشعوب والقوميات من حيث الحقوق والواجبات، لكنها لم يُفد شيئاً ولم تجد فتيلاً في تأخير إعلان الثورة، ولا في إنهاء أجل سقوط الخلافة الأموية.

وكان العرب ينظرون إلى الموالي على أنهم حُقراء، يفضلون العبيد قليلاً عليهم ويقول (الطبري) المؤرِخ المعروف معلَقاً على ثورة المختار ما يلي : (لم يغضب عرب الكوفة من شيء قدر غضبهم من مطالبة المختار بسهم من الغنائم للموالي، وقد احتج أهل الكوفة قائليين :لقد أخذتم الموالي منا، بينما أعطاهم الله لنا غنيمة مع هذه الولاية بأسرها، وقد حرَرنا ابتغاء ثواب الله فلا تتبعوا أنفسكم ثانية، وتسعوا في أن يكون لكم نصيب في غنائمنا [2] وهكذا استفاد العباسيون في دعوتهم من العوامل العديدة التي نجم عنها رضا الناس وسرورهم من تقويضهم صرح قدره بني أمية وقلبهم قصر أسرتهم ـــ خلال ثلاثين عاماً ـــ رأساً على عقب .

وكان دُعاة هذه الدعوى يتميزون بالكفاءة والفدائية، ويبعدون عن الثورات الطائشة التي لا ثمر لها، ولكي ينجحوا في مسعاهم عمدوا إلى التضحيات، واستفادوا

---

(1) تاريخ الحضارات العام، ج 2، القرون الوسطى، أدوار برَوي، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، 1986، ص 125

(2) المصدر السابق ص 16

بصورة خاصة من مشاعر الخراسانيين وسخطهم على الأمويين، وقد أخذوا يدعون الناس إلى إتباع الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم (والد أبو العباس) واستغرق ذلك عامين من جانبهم، فلما عادوا إلى سوريا والتقوا بالإمام أخبروه بأنهم غرسوا غصناً في خراسان، وأنهم يأملون أن يثمر الغرس في موسمه .

وقد ولى الإمام محمد ولده الذي أسماه أبو العباس وقال لهم هذا مولاكم، وقد استغل الدعاة فرصة تعرض الإيرانيين للمهانة والظلم فاستظهروا بهم واستفادوا من عقيلتهم ودراستهم التي تأصلت فيهم من خلال ماضيهم[1] .

وهكذا استمرت دعوة العباسيين في صمت وجدية، وكانت الدولة تقتل دعاتهم في بعض الأحيان، وفي حدود عام (743م) مات محمد بن علي العباسي بعد أن أجلس ابنه إبراهيم مكانه وأختار من بعده ولديه الآخرين أبا العباس وأبا جعفر (المنصور) وفي حدود عام (48 ــ 747) م قتِل الابن الأول (إبراهيم) وبقي الاثنان الآخران ليستفيدا من ثمرات الكفاح المرير الطويل، والمتاعب الكثيرة التي قاساها الدعاة العباسيون ويؤسسا الخلافة العباسية. وفي نفس الفترة برز إلى الميدان رجل غير عادي يدعى أبو مسلم (الخراساني) وقد ساهم أكثر من غيره في انقراض بني أمية وانتصار العباسيين، ثم راح في النهاية ضحية حسد الذين يدينون لهمته ويطوق أعناقهم جميل شهامته[2] . لقد كان أبو مسلم أول من رفع علم العباسيين الأسود في تموز عام (747 م) في قرية سننبدج قرب مرو[3] .

---

(1) أدوار بروان (تاريخ الأدب في إيران (،ج 1، الباب الثاني، ص 351،ترجمة أحمد كمال الدين، المجلس الأعلى للثقافة ــ القاهرة

(2) بروان المصدر السابق، ص 354

(3) فن، فلوتن، المصدر السابق ص 65 ــ 63

وكانت الآيه الكريمه التالية مكتوبة على العلم وهي في الواقع شعار له معناه ومغزاه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [1].

ورغم هذا فإن حركة أبا مسلم لم تتجاوز حدود الشمال الشرقي لخراسان والأطراف. يقول فن فولتن (كان أبو مسلم شخص عبوسياً عنيداً قاسياً لا يهتم باللذائذ الدنيوية، وكان حب أصحاب العباءات السوداء له، وإقبالهم عليه يفوق كل حد، حتى أنهم يضعون رقابهم تحت إمرته، وكانوا لا يقبلون فدية أسير، ويقتلون عدواً دون أمر رؤسائهم، أما العرب القادمين من قلب الجزيرة العربية الذين اعتادوا على الترحال والاقتتال من أجل الحصول على الغنائم، فلم تتح لهم الفرصة في تبلور الإيمان بحب الوطن، والشعور بالانتماء اتجاه دولتهم التي كانت أساساً قائمة على الظلم والجور والطمع (عدا فترة حكم عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل).

وهكذا استمر الأمر موروثاً تاريخياً لا نزال نعاني منه إلى يومنا هذا، وكثيراً ما تتغلب الأنانية وحب الذات على كل شيء، من خلال الطبيعة البشرية في الصحراء .إن تنامي الشعور بحب الوطن والمواطنة، والتفاني من أجل الوطن، يحتاج للعديد من العوامل :أولها القناعة بأن رأس الدولة أو الحاكم يحصل على درجة عالية من الرضى وأنه واحد منهم، ويعمل لأجلهم، وكان هذا من النادر أن يحصل ولم يصلوا بعد إلى هذه المرحلة من التطور.

عودة إلى الثورة العباسية، فقد عهد (ابي العباس) عبد الله السفاح (الملقب بالمهدي) أول خليفة عباسي بدأ حكمه في 30 أكتوبر عام (749 م)، وألقي في اليوم المذكور الخطبة التي تلقى في هذه المناسبة، وكان النصر والفتح والتقدم نصيب أبي مسلم، وحليف سائر الأئمة العباسيين بصفة دائمة (وكان هو نفسه من أطلق على نفسه لقب السَفاح في تلك الخطبة) وهزم مروان بن عبد الله الملقب بالحمار هزيمة مُنكرة في 25 يناير عام 750 م،

---

(1) سورة الحج، الآية (39)

وبعد ثلاثة شهور سقطت دمشق عاصمة بني أمية على يد أعدائهم، ووقع مروان في الأسر ثم هرب، وكان متوارياً في مصر، وتمَ قتله في الخامس من أغسطس من نفس العام وأرسل رأسه إلى أبي العباس الذي أثبت أنه جدير بتسمية السفاح، فقد بدأ حكمه بقرارين ذات دلالات مهمة : القرار الأول هو أمره بإخراج جثث خلفاء بني أمية من قبورهم وجلدهم وصلبهم، وحرق جثثهم، ونثر رمادهم في الريح، فيقول أبن الأثير (الكامل في التاريخ) ما يلي : (فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته، وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فأنه وجد صحيحاً لم يبل منه إلا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح، وتتبع بني أميه من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذوهم ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب الأندلس ويروي المسعودي في (مروج الذهب) حكى الهيثم بن عدي الطائي بن عمرو بن هاني قال : خرجت مع عبد الله بن علي لنبش قبور بني أمية في أيام أبي العباس السفاح، فانتهينا إلى قبر هشام، فاستخرجناه صحيحاً ما فقدنا منه إلا خورمه أنفه فضربه عبد الله بن علي ثمانين سوخاً ثم أحرقه، واستخرجنا سليمان من أرض دابق، فلم نجد منه شيئاً إلا صلبه وأضلاعه ورأسه، فأحرقناه، وفعلنا ذلك بغيرهم من بني أميه، وكانت قبورهم بقنسرين، ثم انتهينا إلى دمشق، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً، واحتفرنا عن عبد الملك فلم نجد إلا شئون رأسه ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فلم نجد إلا عظماً واحداً، ووجدنا مع لحده خطاً أسود كأنما خط بالرماد في الطول في لحده، ثم أتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيهم منهم (إن دلالات هذا العمل يشير إلى أن القوم لا يزالون يعتقدون بعدم انتهاء حياة البشر وأعمالهم بعد موتهم ودفنهم في التراب لكنه ينتقل إلى العالم السفلي مثلما كان يعتقد سكان بلاد الرافدين القدماء. والطريف أن البعض رأى في ماوجدوه بالقبور معجزة آلاهية، فالجثة الوحيدة التي وجدت شبه كاملة ... وعذبت وصلبت

وحرقت ثم نثر رمادها في الريح هي جثة هشام بن عبد الملك، وقد رأى البعض في ذلك إنتقاماً إلهياً لهشام إذ خرج عليه زيد بن علي بن الحسين و قُتل في المعركة، ودفنه رفاقه في ساقية ماء، وجعلوا على قبره التراب والحشيش لإخفائه، فاستدل على مكانه قائد جيش هشام، (فأستخرجه وبعث برأسه إلى هشام، فكتب إليه هشام : أن أصلبه عرياناً، فصلبه يوسف كذلك، وبنى تحت خشبته عموداً ثم كتب هشام إلى يوسف بأمره بإحراقه وذروه في الرياح) [1].

وفي حادثة بشعة أخرى للسفاح ذكره ابن الأثير (الكامل في التاريخ) ما يلي : (دخل شبل بن عبد الله موسى بني هاشم على السفاح وعنده من بني أميه نحو تسعين رجلاً على الطعام وشاهد ما أمر به السفاح من الضرب بالعمد حتى القتل وبسط عليهم الانطباع (أي الفراش) فأكل الطعام عليها وهو يسمع انين بعضهم حتى ماتوا جميعاً (لقد أمر السفاح بضرب رؤوسهم بأعمده حديديه، بحيث تتلف بعض مراكز المخ، ويبقى الجسد حياً مصطرعاً بين الحياة والموت، وما أن يرى السفاح أمامه تسعين جسداً منتفضاً، تقترب مسرعة من الموت وترتفع أصواتهم بالنين، حتى يأمر بوضع مفارش المائده فوقهم، ثم يجلس فوق هذه المفارش، ويأمر بالطعام فيوضع أمامه فوق الأجساد، ويبدأ في تناول عشائه بينما البساط يهمد هنا ويهمد هناك، وبين همود وهمود، يزدرد هو لقمه من هذا الطبق ولقمه من ذالك، حتى همد البساط كله ففرغ من طعامه، وتوجه إلى الله بالحمد والى حراسه بالشكر والى خاصته بالتهنئة، ولعله قال لنفسه أو خاصته، والله ما أكلت أهنأ ولا ألذ ولا أخيب من هذا الطعام قط، فليس أقل من هذا الحديث وصفاً يلائم سلوك السفاح ذلك الذي يزورد اللقيمات على زفرات الأنين،

---

(1) مروج الذهب ــ السعودي ــ ج 3 ص 219.

ويساعده على الهضم صعود الأرواح*، والقرار الثاني الذي أصدره السفاح هو عدم احترام العهود والمواثيق والفتك بالأنصار قبل المناهضين، وقد فعل السفاح ذلك في واقعتين شهيرتين الأولى حين أعطى ابن هيبره قائد جيوش مروان بن محمد (الحمار) آخر الخلفاء الأمويين كتاباً يحمل إمضاءه ويتعهد له بالأمان، ثم قتله بعد أيام من استلامه، والثانية حين قتل وزيره أبا سلمه الخلال أحد مؤسسي الدولة العباسية في الكوفة، وتعمد أن يتم ذلك على يد أبي مسلم الخراساني المؤسس الأول للدولة حيث لا يعرف تاريخ الدولة العباسية في عهد السفاح فضلاً إلا لرجلين أولهما أبو مسلم الذي أسس الدولة في خراسان وثانيهما عبد الله بن علي عم السفاح وقائد جيوش العباسيين في موقعه الزاب التي إنتصر فيها على الأمويين انتصاراً نهائيا.

وفي العام التالي تعرَض أفراد الأسرة الأموية للقتل العام، في كل مكان وجُدوا فيه، وقد تمكن شخص يدعى عبد الرحمن حفيد هشام بن عبد الملك من الوصول إلى اسبانيا آخر الأمر، وقد رحَب العرب بقدومه، وأقام في هذه البلاد وأسس الدولة الأموية القرطبية التي استمرت ثمان قرون، وكانت تذم العباسيين بسبب احتقارهم خلفاء بني أمية في دمشق ونبش قبورهم[1] وكان يلقب بعبد الرحمن الداخل أو (صقر قريش).

وهكذا نجحت ثورة بني العباس بعد تهيئة وتحضير دام ثلاثين عام، تمت خلالها تهيئة الأذهان لقبول الوضع الجديد، وتهيئة جيش كبير قادر على حماية الدولة وكل ما يتطلب من مُستلزمات النجاح لها، رغم أن عملية التغيير، لم تغير من حياة الناس شيئاً ملحوظاً إلا بأمور بسيطة جداً وعلى العكس من الثورات السابقة ابتداءً من ثورة الحسين

---

* يقال أيضاً أن هؤلاء الأمويين الذين أمر أبو العباس بقتلهم كانوا قد جاءوا للتفاوض معه لإعلان الصلح والكف عن مطاردهم.

(1) موبر، المصدر السابق، ص 436 ـ 435

وحفيده زيد بن علي وعبد الله بن الزبير وغيرهم، فلم يحصل لها أن هيأت ما ينبغي كي تكلل بالنجاح وهذه حالة كل مُحاولة للتغير عبر التاريخ .

لقد جاءت دولة بني العباس بعد أن آلت الدولة الأموية إلى الأفول ولم تعد قادرة على البقاء أكثر من ذلك . يقول (الفخري) وهو كتاب التاريخ السحري[1]:

(وأعلم أن الدولة العباسية كانت دولة خِداع ودهاء وغدر، وكان قسم التخيّل والمُخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشد خصوصاً في أواخرها .فإن المتأخرين منهم بطلوا قوة الشد والتجدة وركنوا إلى التخيل والانخداع، إلا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن، جمة المكارم وأسواق العلوم فيها قائمة وبضائع الآداب نافقة، وشعائر الدين فيها معظمة والخيرات فيها دائرة، والدنيا عامره، والحُرمات مرعيَة، والثغور محصنة، وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها، فانتشرت الجبر وإضراب الأمر، وانتقلت الدولة (إن جَلّ ما يميز هذه الفترة هو نهاية عهد الفتوحات الإسلامية وحصول الاستقرار النسبي الذي أدى إلى ازدهار العلوم والمعرفة).

لقد غطت المؤلفات العديدة شروحاً وافية عن سير الخلفاء واستفاضة المكتبات بالدّراسات والبحوث فيما يخص الدولة العباسية .ولكي نُسهل على القرّاء عناء البحث في ذلك نورد هنا جدولاً باسماء الخُلفاء العباسيين الذين حكموا في أوائل هذا العصر، نقلاً عن كتاب ستانلي لين بول (تاريخ الخُلفاء والسلاخين والملوك والأمراء) [2] ابتداءاً من عبد مناف (قريش وإلى الخلفاء العباسيين الأوائل:

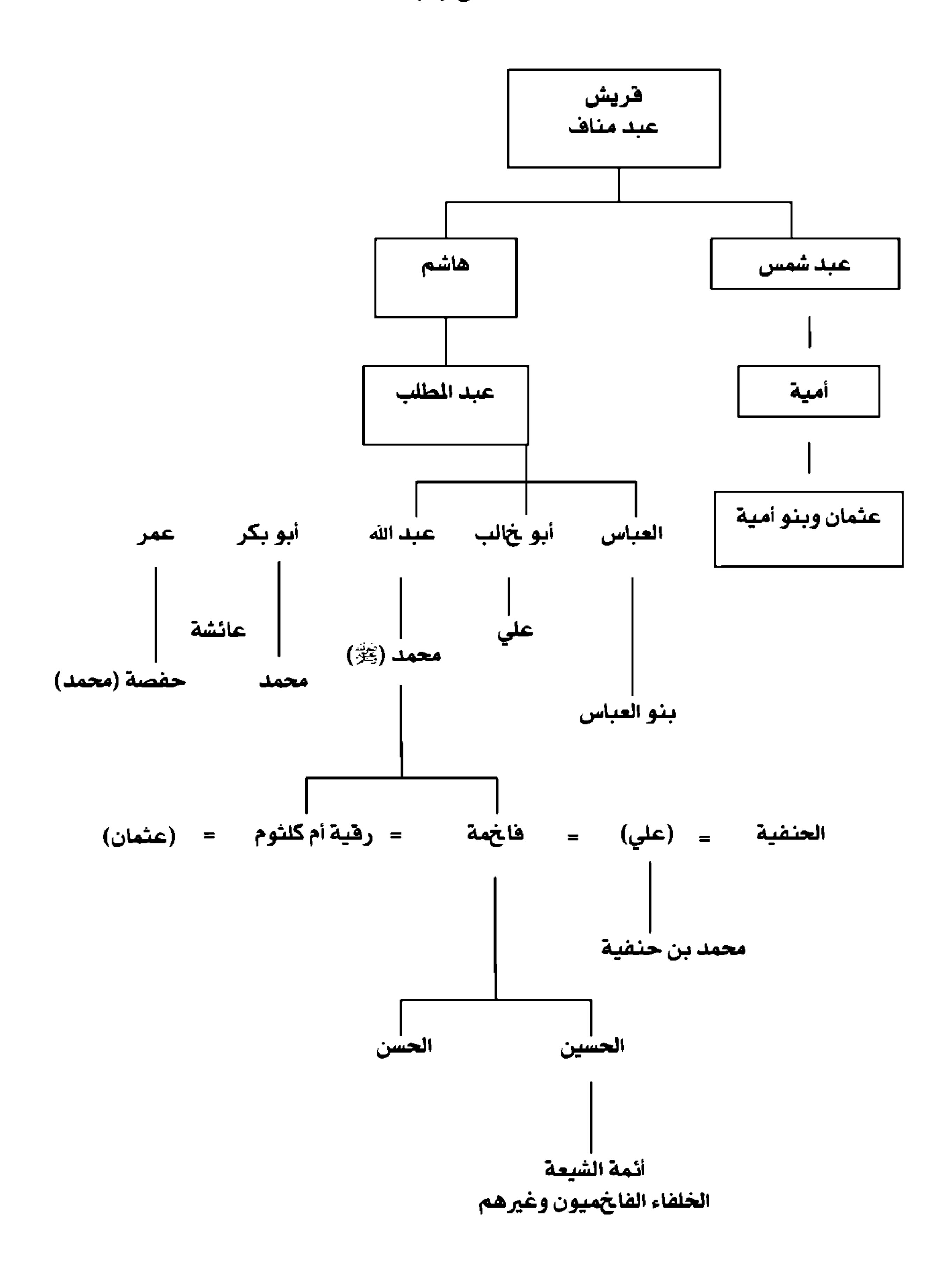
---

(1) محمد بن علي خبابا أو ابن الطقطقي (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية)مراجعة محمد عوض ابراهيم، خبع وزارة المعارف ـ مصر (1938)، ص 138 ـ 137 .

(2) ستانلي لين بول (تاريخ الملوك والسلاخين والأمراء (ترجمة مكي خاهر، عباس إقبال، الدار العربية للموسوعات، بيروت (2006)

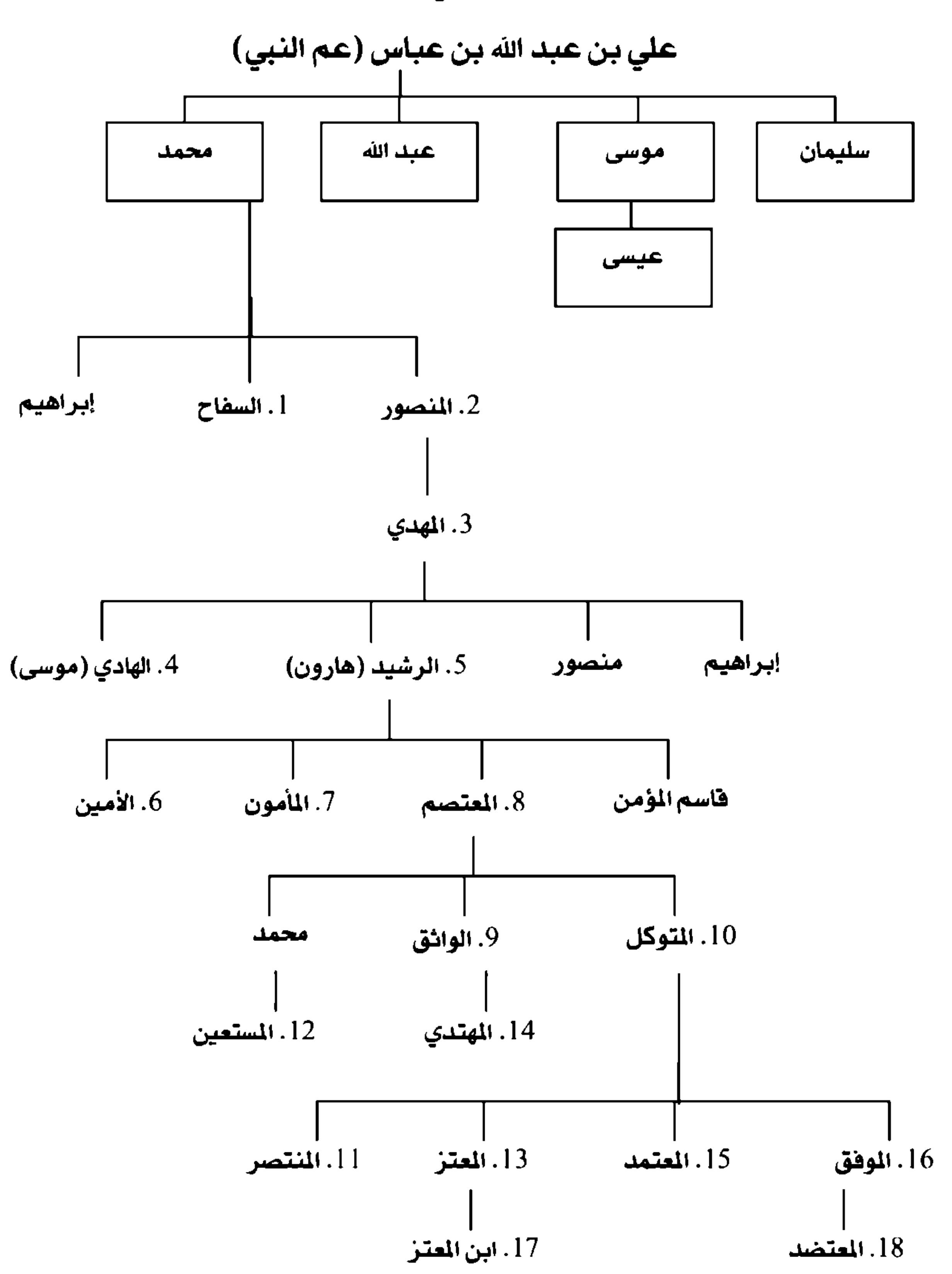
هذا الشكل يشير إلى العلاقة العائلية لبني العباس وعلاقتها بالرسول محمد (ص) وتمثل علامة = ابنه و () الزوج.

شكل (2)



شكل (3)

تسلسل سلالة بني العباس الأولى



لقد كان هدف العباسين المعلن في بداية دعوتهم، التمسك بأهداف الدين محل ما يسمونه (الإلحاد) الأموي، فالنظام القائم هو نظام إسلامي لأن صاحب الأمر فيه هو من سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فأتاح له ذلك أن يتمتع بوصفه الإمام بكل ما لهذا المركز من المهابة والجلال والوقار، دون أن تكون له القوة بالفعل، ليغير شيئاً من الشريعة أو أن يعدل فيها أو يكملها بما يتلائم ومتطلبات العصر وتوسع رقعة البلاد، وهذه الصفة الفائقة للبشر تجعلها أن تعيش في بذح كما كان عليه بلاط الخليفة وعزلته عن الناس، بحيث لا يتيسر لهم رؤيته إلا في المناسبات .

لقد اعتمدت الإدارة العباسية المناهج الإدارية التي عول عليها البيزنطيون و الساسانيون من قبل، وهي إدارة تتألف أصلاً من عدد من الدواوين المتلاصقة ــ ومن كلمة ديوان هذه اشتقت كلمتان فرنسيتان هما (Douane و Pivan) ــ ، ويشرف عليها موظفون إداريون كبار أشبه ما يكون ب (Sekreta) لدى البزنطيين، دون أن يتألف من مجموع رؤساء هذه الدواوين مجلس الوزراء[1] وكان الوزير يتعهد بتأمين العمل الإداري، مستعيناً بذلك على عدد من العمال يأتي بهم من بين أنصاره ورجاله، لذا كان يخشى من نفوذ سلطانه، وهذا ما حدث بالفعل للبرامكة[2]، هذه الأسره الفارسية التي أثارت بما

---

(1) تاريخ الحضارات العام (بروي)، المصدر السابق، ص 127.

(2) البرامكة: من آل برمك، الذي عهد لهم تصريف شؤون الدولة كلها تقريبا في عهد الرشيد والمنحدرين من أسرة كهنوت متقدمة في نوبهار، إحدى الصوامع البوذية في بلخ، وقد أدعت الرواية الفارسية في ما بعد بدوافع من النعرة القومية، إن هذه الأسر كانت من الكهنة الفرس، فقد استوزر أبو العباس السفاح خالد بن برمك أو عينه كاتبا أول حتى إذا كانت خلافة المنصور واحتفظ خالد بالأشراف على الشؤون المالية ولع اسمه بشكل خاص في بناء بغداد، وشغل مناصب عديدة واستحوذ على ثروة ضخمة، وتسلم ابنه يحيى ولاية أذربيجان وقد أستدعي هذا إلى بغداد في عهد خلافة المهد ي، وعينه هارون الرشيد رئيسا لأمناء سره.

بلغته من غنى وسؤدد وسلطان. هواجس الخليفة هارون الرشيد فنكبها شرّ نكبة، ونكّل برجالها وقضى عليها آخر أيامه، ومن أهم الدّوائر التي يهم الوزير انتظام العمل فيها، وهي دائرة جباية الرسوم والبريد، وديوان الرسائل، وكان البريد يؤمن، أحياناً نقل بعض الأمتعة الخاصة، إنما الغاية الكبرى منه، تأمين تبليغ العمال في الولايات، الأوامر والتعليمات الصادرة من الحكومة، كما يحل إلى الإدارة المركزية مطالب الأهلين في الملقات ومظالمهم.

فالبريد كان يلعب في هذا المجال دور الأمن العام في حكومات العصر. ويقوم بأعمال البريد سُعاة يستخدمون الخيل لقطع الطرقات، من خلال قطع أبعاد مُتساوية كمحطات خاصة لتأمين حاجة المسافرين، وتسهيل متابعة سفر البريد بالسرعة المرجوّه .

أما الدوايين القائمة بمعيّة الوزير، فكانت تقوم بإعداد الأمر وتعيين الموظفين الكتبة والعمال وتأمين المراسلات الديبلوماسية، بعد أن يمهرها الوزير بخاتم السلطان .

وهذه الإدارة التي عوّلت اكثر على الدّواوين، كانت تكثر من القراخيس والوثائق والمحفوظات، كما تكثر من السجلات الرسمية، وهي إداره مركزية قامت دوائرها الكبرى في العاصمة بغداد، وكانت هذه الدواوين تجمع في مكاتب الإدارة العامة ما تحتاج إليه من معلومات، كما كانت تشرف على إصدار الأوامر والتبليغات، وتؤمن استلام رسوم الجباية بعد حسم تكاليف الإدارة المحلية، وكانت إدارة الملحقات تمتاز هي أيضاً بالدّقة كالإدارة المركزية، وكان يقوم في الولاية قائد يمثل الخليفة، كما أن الوزير كان يتمثل فيها بحاكم مدني أو عامل، إليه أمر الولاية وضبط الإدارة، يستقل الواحد عن الآخر، يشرف الأول على الجيش كما يؤمن الثاني الولاء للخليفة والموارد المالية التي تحتاج إليها الإدارة، أما العدل الذي كان أمره أبداً على هامش الإدارة والحكم فقد بقي من اختصاص القاضي غير أن عدم كفاءة القانون أحياناً وعدم وجود الموجبات القانونية للمراجعة أو الاعتراض وعجز القاضي عن تنفيذ الأحكام التي كان يصدرها على الزعماء النافذين، كل هذا

أضرار الدولة لإيجاد دائرة خاصة يشرف عليها قاضي، هي (ديوان المظالم) الذي كان ينظر في أمور التجاوزات على حقوق الآخرين .

لم يكن استقلال القضاء عن السلطة المركزية قد وصل إلى مدارك المسؤولين بعد، واستمر الحال على ما هو عليه إلى يومنا هذا، حيث ورثنا حِملاً ثقيلاً من تدخل السلطة في القضاء، ومُحابات القضاء للمسؤولين الكبار، وإعطاء هؤلاء المسؤولين حصانة خاصة يفعل كل ما يشاء من مُخلفات قانونية دون رادع .

أما الفقهاء فكانوا يعملون بالتعاون مع القُضاة في كل ما يساعد على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وهكذا أستمر أخلال قضاء الدولة إلى جانب قضاء شرعي يمثله القاضي . بينما كانت دوائر الشرطة تسهر على تأمين الأمن وراحة العِباد، مستعينة في تحقيق ذلك على فِرقة من (الأحداث) أو الفتوة وتدعى باللهجة العراقية (الشقاوات) يتم اختيارهم من قبل رئيس الشرطة للتجوال ومُراقبة أحوال الناس داخل الأزقة والمدن الكبرى.

لقد اختلفت الإدارة العباسية عن روح الإدارة في دمشق في العصر الأموي، فلم يعد في ميسور عامة الناس أن يقربوا من الخليفة كما كانوا يفعلون زمن عبد الملك مثلاً .

فخليفة بغداد لم يكن بأي حال شيخ من شيوخ القبائل العربية، لكنه كان متأثراً بسلوك ملوك الفُرس الكبار الذين عاشوا في المدائن القريبة من بغداد، لحقبة طويلة من الزمن تركوا فيها طبائع وعادات، لابد وأن تبقى لها أثر في النفوس والعادات .

وفي السنوات التوالي، نشأ أسلوب التشريفات الذي كان يتبعه الساسانيون في طريقة مُحاكاة الملوك، فلم يعد التقدم في البلاط والمكانة في الحكومة امتيازاً وراثياً مقصوراً على الإشراف، بل أصبح الخليفة يقدم من يشأ ويؤخر من يشأ .

وانتهت الخلعة التي اشتقت منها كلمة (gala) بالفرنسية [1]، ولم تكن معروفة في زمن الأمويين الذين كانوا يكتفون في أغلب الأحيان بحاجب يُنيطون به أمر إدخال الناس عليهم، نجد أن عدد الحُجّاب والخدم في البلاط العباسي يزداد باطّراد، ولا عمل لهم إلا الحؤول بين الخليفة وأفراد الشعب، وإقامة العقبات بينه وبينهم.

وهكذا يمكن اعتبار أن الخُلفاء العباسين قد نفضوا أيدهم تقريباً من تصريف شؤون الدولة مُلقين عبء ذلك على عاتق الوزراء إلا في العقوبات التي تتصل بالموت والحياة، فقد كان الجلاد، (وهذه ظاهرة لم تعرفها الحضارة العربية من قبل) يلازم الخليفة دائماً، وكان النطع حاضراً أبداً قرب العرش لاستقبال الرؤوس المقطوعة من المغضوب عليهم .

كذلك هناك فارق آخر بين الخلافة العباسية والخلافة الأموية، في تقريبهم إلى البلاط علماء الفقه والحديث، وبالتالي تحقيق المثل الأعلى للسُلطة الثيوقراطية، خاصة بعد أن تولى آل البيت من مؤسسي أقدم المذاهب، والأمر الذي لا شك فيه إن اثنين من مؤسسي أقدم المذاهب الفقهية الباقية إلى اليوم، كانا يعطفان على العلويين، فأما أبو حنيفة مؤسس المذهب الحنفي، فكان جده عبداً أسيراً أثناء فتح كابل (عاصمة أفغانستان) ثم أعتقله سيده، وكان من بني تيَم الله [2].

فقد عاش أبو الحنيفة بوصفه مولى تيَم الله مُستغنياً عن الناس، عن طريق التجارة بالحرير في الكوفة. ولقد كان من مساندي زيد بن علي بن الحسين، وتوفي عام (767) في سجن بغداد، ودفن في الجانب الشرقي من دجلة (الأعظمية)، وكان يعقد حلقة للتدريس في الكوفة، ويفتي في المسائل الشَرعية، وهو في فتاواه يلزم السُنة (الحديث) لزماً

---

(1) كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية)، المصدر السابق، ص 179

(2) (أدوارد بروان) تالايخ الظادب في ايران، /ج1، الباب الثالث، ترجمة أحمد كمال الديسي، ص 90.

شديداً، ولا يُفسح المجال أمام الاجتهاد بأكثر مما فعل أي من أصحاب المذاهب الأخرى، كما وفق أبو يوسف بوصفه قاضياً للقضاة في الإسلام، إلى أن يظفر بإقرار رسمي لمذهب أبو حنيفة، كذلك وضع كتاباً أساسياً لهارون الرَشيد في الخراج، وقد أصبح هذا الكتاب بمثابة الدَستور الدائم للدولة، وسيأتي في فقرة لاحقة شرح لنشوء المذاهب في العصر العباسي.

إن ما يمتاز به العصر العباسي بصفة عامة بالمقارنة مع العصر الأموي كما يقول وليم موير[1]:

إن أبرز الاختلاف بين هذا العصر وسابقه يقع بثلاث نقاط :

أولاً: إن نفوذ الخلافة لم يعد مواكباً لنفوذ الإسلام (فإسبانيا لم تقبل حُكم بني العباس مُطلقاً وكان ولاء أفريقيا للخلافة مزعزعاً).

ثانياً: إن حماسة العرب الحربية قد فُترت، وحرارتهم المذهبية قد خمدت وباتوا لا يلعبون الدور الأول في تاريخ الإسلام كما كان شأنهم في السابق.

ثالثاً: إن نفوذ الإيرانيين في جهاز الدولة ـ (ومن بعدهم الأتراك منذ عصر المتوكل) ـ قد بلغ أوج الكمال، وكان مقر هذا النفوذ قد انتقل من سوريا إلى العراق)[2].

ويقول موير (وكما تزايد نفوذ الإيرانيين، تناقصت خشونة حياة العرب، وبدأ عصر الثقافة والانطلاق والبحث وبالفحص العلمي وأُثبتت الروايات الشفهية، واحتلت جانباً من الروايات التاريخية ـ وساد الميل إلى التحقيق والتقصي ـ من خلال الاحتكاك بالشَرق ـ في الإسراع بوجوب هذا التغيير، وربما كان الوَهن المتزايد في البناء الأخلاقي،

---

(1) أدوارد براون، المصدر السابق، ص 47

(2) (Sir William Muires : (Life Of Mohamed and History Of Islam)،(4Vols)، London (1858)

والسلوك البغيض المتفشي في البلاط، والعقائد والأفكار المتعالية التي اعتبرت الإمامة جماعة الأمر الإلهي، وفوق عقول البشر، والتقدم السريع في مضمار حرية التفكير، وإعطاء العقل البشري حرية أكبر في التفكير بعيداً عن القيود الدينية، ربما كان كل ذلك نابعاً عن نفس المصدر)[1].

ومن خصائص القرن الأول من العصر العباسي، رواج العِلم وإتقان صياغة الملحمة والطرفة في بلاط الخلافة، وسيطرة أصول عقائد المعتزلة سيطرة كاملة وهم ذوو الأفق الواسع والنظرة التحررية كما أشرنا لذلك في الفصل الأول من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ولكن في الجانب الآخر فإن العباسيين بعد عبورهم بحار الدم، ووصولهم إلى الخلافة بعد أن صاروا أصحاب النفوذ في إمبراطورية الإسلام الشرقية بلا مُنازع، لم يتمكنوا من بسط العدل في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وكانوا أبعد ما يكونون من تحقيق ذلك. وهكذا استولى اليأس التام على الكثيرين ممن عملوا بجدية من أجل الثورة، وبعد أن قامت الثورة[2]، وسيطر اليأس على الشيعة خاصة، لأن العباسين كانوا يصدرون دعايتهم باسم بني هاشم، واغفلوا الشيعة الداعين لأسر علي، وقد عرف الشيعة الحقيقة بعد فوات الأوان، وتنبهوا إلى أن لذرية الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بين بني أعمامهم الهاشميين أعداء يفوقون في عداوتهم بني أمية الذين لا تربطهم بهم صلة رحم قريبة، ولم يعف العباسيون حتى عن زعماء عمالهم الذين كانوا قد اختاروهم ليكونوا اليد المحركة، والمنفّذة لمخططاتهم قبل تحقيق نصرهم الكامل.

---

(1) Sir William Muires " Life of Mohammed and History of Islam " (4 Vols). 3d Edition (1895), (P _432 _430) London, (1858)

(2) كتب فن فولتن، المصدر السابق (ص 99)

فقد قتلوا أبا سلمة غدراً عام (749 ـ 750 م) ولقي أبو مسلم نفس المصير بعد أربعة أو خمسة سنوات (755 م) مع أن النّصر الذي ناله العباسيون كان يرجع في معظمه إلى همّة هذا الرجل ونبوغه ونشاطه وجديّته [1].

وحقيقة الأمر إن كفاءة أبي مسلم قد سبّبت في الجانب الآخر في قتل مائة ألف شخص غير من هلكوا في الحرب، كما قال الآخرون قتلوا (600) ألف شخص بدورهم [2]، لكنه مع ذلك قد ولد عند أتباعه شعور الفدائية على نحوٍ أقل نظيره.

وإن لم يكن قد نجم عن الثورة التي أوصلت العباسيين إلى سدّة الحكم أي أثر، فهي على الأقل غيّرت وضع الإيرانيين تماماً، ونعني بذلك أن القوم الذين كانوا تابعين يؤدون الخراج ويتعرضون للّعن والإهانات، قد ارتفعوا عقب هذه الثورة وشغلوا أكبر القيادات نفوذاً بفضل قوة السيف، وما لهم من إرث ثقافي عبر تاريخهم القديم في الأمور المذهبية والفكرية، ولما آلت الخلافة إلى الخليفة العاشر (المتوكل)، زاد نفوذ الأتراك وحلّ محل نفوذ الإيرانيين (وكان الأتراك يتصرّفون دائماً تصرفات همجيّة تبدو في أكثر من صورة ولا تتفق مع الأفكار الحرّة والآراء المستنيرة)، وقد اندثرت أصول العقائد التي قبلها عامة الناس في ذلك الزمان، ومنيت الدراسات الفلسفية بخسارة فادحة، وبرزت مشاعر عدائية على مسرح الوجود ضد التشيّع، واستمرت فترة من الزمن، ونتيجة لهذه الأوضاع انفردت الخلافة في بداية العصر العباسي بميّزة خاصة سواء من جهة السيطرة العنصرية أو من جهة الميول المذهبية المتعصبة.

وقد بلغت هذه الخلافة أوج عظمتها إبّان خلافة المأمون الزاهرة، فقد تميّز هذا الخليفة عن غيره من الخلفاء العباسيين بحبه وعشقه للعلم والعلماء وتشجيعه لهم من خلال تمسكه بأفكار المعتزلة.

---

(1) أدوارد براون (تاريخ الأدب في إيران)، المصدر السابق، ص 361.

(2) موير، هامش ص 446، المصدر السابق نفسه.

ومن بين التطورات الحاصلة في الإدارة هو تأسيس الوزارة، فلم يعد الخليفة العباسي منفرداً لوحده في إدارة شؤون الإمبراطورية بأسرها، فإن منصب الوزير وهو أحد مناصب جهاز الخلافة، ولفظ وزير مُشتق من الكلمة العربية (وِزر) بمعنى الكل والتعب، لأن حمل عبء مسؤولية إدارة شؤون المملكة الثقيل يُلقى على عاتق الوزير .

وقد جاء في كتاب ابن الطقطقي (الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية)[1] (إن الوزير هو الرابط و الوسيط بين الملك ورعاياه، و لذا ينبغي أن تتفق طباعه مع طباع الملوك من جهة وطباع العامة من جهة أخرى ليحسن التصرُف مع الجانبين بصورة يقبلها هذا وذاك ...).

ويقول اللغويون أن لفظ (وزَر) معناها الملجأ والملاذ، وإن وِزر بمعنى الحمل، وهذا يعني أن كلمة وزير إما أن تكون مُشتقة من وِزر (بكسر الواو) فيكون الوزير عندئذ الشخص الذي يتحمَل العبء الثقيل أو أن تكون مُشتقة من وَزر (بفتح الواو والزاي وسكون الراء)، فيكون الوزير عندئذ من يلجأ إلى رأيه وفكره وتدبيره.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا التطوَر في إدارة شؤون المملكة، يُعتبر طفرة تطوُرية كبيرة بالمقارنة مع ما كان عليه الحال في العصر الأموي، عندما كان الأمر والنهي يعود لشخص الخليفة فقط دون استشارة أحد فيما يخص البلاد التي تزيد مساحتها عن 20 مليون كيلو متر مربع . إن تعيين وزير للخليفة في العهد العباسي قد أتاح للخليفة التأني والتبصير في اتخاذ القرارات بأقل تقدير، ولكن لا تزال الكلمة الأولى و الأخيرة بخصوص الأمور المصيرية يكون مرجعها الخليفة نفسه، ولا يمكننا أن نتخيَل في استمرار التطوَر في تلك المرحلة التاريخية لتشمل مجلس شورى أو انتخابات أو أي شكل من أشكال المسحة الديمقراطية، كونها لا تزال تلك الأفكار بعيدة عن نمط التفكير القبلي المُثقل بأفكار العبودية والتسَلط.

---

(1) ابن الطقطقي (الفخري)، المصدر السابق.

ولكن هناك جانب سلبي في تعيين الوزير، هو انحراف مسار الدولة باتجاه تحيّز ذلك الوزير إلى أبناء قومه سواء أكان إيرانياً تركيا، وسنأتي لشرح ذلك بتفصيل أكثر في فقرة لاحقة.

1. بروز المعارضة واستخدام العنف في العصر العباسي الأول:

خلف أبو العباس أخوه المنصور ليكون هو المؤسس الحقيقي لسلطان بني العباس، وكان عليه أن يمكّن لنفسه بالقضاء على حركة عمه عبد الله بن علي الذي هبّ يطالب بالخلافة وكان يقيم في شمالي سوريا مع الجيش الموجه لقتال البيزنطيين، ولكن أبو مسلم الخراساني ما لبث أن هزمه، وكان أبو مسلم قد أظهر للمنصور كثيراً من الاستقلال والتفرد بالأمور، فكان همّ المنصور الأول أن يبعد أبا مسلم عن خراسان، وهي معقله ومستقر قوته وسلطانه، ولكنه رفض في تولي إمارة مصر، وقد سمح لنفسه بأن يستدرج إلى العراق حيث قُتل على عيني الخليفة قرب العاصمة القديمة (المدائن)، ولقد وجد من يثأر له في شخص (سنباذ الفارسي) الذي رفع راية العصيان في خراسان وتوغل حتى بلاد الجبال، وهناك بين همدان والرّي، هزمته جيوش الخليفة وقضت عليه[1]، والأمر الثاني هو إخضاع العلويين من الشيعة، فقد ثار العلويون (762) بقيادة محمد (ذو النفس الزكية) وهو أحد أحفاد الحسن بن علي من جهة أبيه، والحسين من جهة أمه، وكان ذلك في المدينة، المركز الرئيسي للبيت العلوي، والذي بدأ بأن عامل المنصور هناك قد سجن عدداً كبيراً من العلويين، وأخلق الثائرون سراح المعتقلين من ذوي قرباهم و لكن المنصور وجه الجيش الخراساني إلى المدينة للقضاء على الحركة وقاوم محمد مقاومة باسلة قُتل على إثرها و صودرت ممتلكات أسرته، وانتهت الحركة .

---

(1) كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية المصدر السابق، ص 175.

أما ثورة العلويين بقيادة إبراهيم أخو محمد في البصرة فكانت أعظم خطراً، وقد وفق في احتلال البصرة، واستطاع بما استخلصه فيها من أموال أ ن يكسب ولاء فارس والسوس، لكنه رفض أن يسير إلى الكوفة، حيث كان المنصور مُرابطاً بجيش هزيل، فما كان من قائد جند المنصور عيسى بن موسى الذي استطاع أن يخمد الثورة في المدينة قبل ذلك، إلا أن تقدَم إلى السوس في الحال فبسط سلطانه على البلاد، ولكن بعد قتال عنيف.

وأخيراً عزم إبراهيم على مُهاجمة الكوفة، ولكنه قُتل في معركة نشبت بينه وبين جنود عيسى في باخمري، جنوبي الكوفة عام (763).

2ـ 1 الثّورات التي قامت ضد نظام الحكم العباسي الأول :

كان بنو العباس يستهدفون بين الحين والآخر الخطر الذي يأتيهم من الثورات المذهبية المُضطرمة في خراسان الواقعة في أقصى الطرف الشرقي من الإمبراطورية الإسلامية، حيث احتك الإسلام بالعقائد البوذية والآراء السامانية التي انتشرت قبل الإسلام في أواسط آسيا، بحكم اتصالها المُباشر بالهند (الموطن الرئيسي للديانة البوذية)، بالإضافة للديانات الإيرانية القديمة التي ذكرناها سابقاً.

وكان ذلك كله مؤثراً في عقول الناس لرفضهم السيطرة العباسية بالشكل الذي كان عليه الحال من قهر وتسلط، وعدم تلمسهم روح التسامح التي جاء بها الإسلام، ومما لا شك فيه أن المنصور بعد تخلّصه من أبي مسلم عام (755)، قد أمر بالفتك ببعض المتعصبين ضدّه من أهل خراسان، حيث ظهر لهم رجل فارسي من مرو سنة (778) واسمه حكيم وادّعى أنه التجسد الجديد للذات الإلهية، بعد موت مولاه، وإذ كان يبرز دائماً للجماهير وعلى وجهه نقاب موشّى بالذهب يزعمون أن الغرض منه أن يحجب كنقاب موسى (عليه السلام)، بهاء الذات الإلهية عن العيون الدّنسة غير الجديرة بالنظر إليه، ولهذا السبب عُرف في التاريخ بلقب (المقنّع)، وفي قلعة سنام قرب كش في ما وراء النهر، استطاع هذا الثائر أن يخضع الإقليم كله، في حين كانت ثورة أخرى من ثورات

الخوارج تندلع نيرانها في خراسان .

والواقع أن الخليفة قد سير إليه جيوشاً عديدة فتغلب عليهم، وأخيراً وفق جند الخليفة إلى حصاره في قلعته فما كان منه إلا أن أضرم فيها النار، فالتهمته وزوجاته وأتباعه عام (780)، وكانت العقائد التي بشر بها مزدك في العهد الساساني، قد بعثت من جديد قبل عام واحد في مقاطعة جرجان، لتنفجر من جديد في شكل ثورة خطيرة على عهد هارون الرشيد.

أما في شمال أفريقيا فقد شبّت ثورة جديدة من ثورات البربر، ذلك أن هؤلاء القوم على الرغم من دخولهم الإسلام، ثبتوا في وجه جميع المحاولات الأموية إلى تعريبهم واحتفظوا بحس قومي لا يزال حياً إلى الوقت الحاضر، نجده أكثر بروزاً في الجزائر، حيث يطالبون حكماً ذاتياً بين الحين والآخر، وقد وجد الخوارج أرضاً خصبة لبث دعايتهم ونشر أفكارهم هناك.

وتوالت الانتفاضات على عمّال الخُلفاء العباسيين منذ عهد المنصور، واستمرت إلى عهد الرشيد من غير انقطاع . وهنا أعاد الأمن إلى نصابه بادئ الأمر، إبراهيم بن الأغلب الذي قُتل والده الذي كان أميراً على شمال أفريقيا ــ (وأصله من مرو الروذ) ــ في ثورة سنة (767) وفي سنة (795)، عهد إلى إبراهيم في الولاية على إقليم الزّاب الواقع جنوبي الجزائر على جانبي بسكرة، وبعد أن خرد الثوار خلف أبيه (محمد) ابن مقاتل هرع ابن الأغلب إلى نصرته سنة (799)، وببراعة فائقة أقر الأمن والنظام في تلك الأرجاء، فكافأه الرشيد على حسن بلائه بأن كتب له بالعهد إلى أفريقيا لقاء خراج سنوي قدره أربعون ألف دينار، وفي الحال شرع ابن الأغلب في إنشاء مدينة جديدة على ثلاثة أميال جنوبي القيروان (تونس) دعاها (العبّاسية) وجعلها قاعدة لإمارته .

3ـ 1 أساليب القمع ضد المعارضة:

إن الثورات المذهبية التي سبق أن أشرنا إليها، والتي اشتعلت في إيران، حملت الخليفة على أن يُراقب بشدة بالغة حياة رعاياه العقلية في قلب الإمبراطورية أيضاً، والواقع إن المانوية (لا الزرادشتية الخالصة) كانت لا تزال تفرض سُلطانها الكبير على أولئك الذين دخلوا حديثاً في الإسلام، ثم لم يرتاحوا ارتياحاً كلياً لشعائره الصارمة و ولأساليب تطبيق السلاخين الذين اعتبروا خلفاء الرسول أصحاب المركز الإلهي للكلمة في نظرهم، ووجدوا أن الأمر يُناقض بشكل كبير ما تعودوا عليه في الماضي في تعاليم المانوية بين الطبقات المثقفة (سابقا)، وكان من أول أعمال المنصور أن أمر بقتل عبد الله بن المقفع ـ الكاتب الإيراني المشهور ـ ، وكان اسمه بالفارسية روزبه، وهو ابن رجل كان يجمع الخراج في زمن الحجاج بن يوسف، وكان من أتباع عيسى بن علي عم السَفاح والمنصور وقد أسلم على يديه، ومن أبرز نشاطاته نقل تاريخ الفرس (خداينامة) إلى العربية والترجمة الفارسية لكتاب الأمثال الهندية الموسوم (كليلة ودمنة) [1] ووضع عدداً من الرسائل في الحِكمة السياسية على ما جاء عند الإيرانيين.

وكان سبب قتل المنصور له هو أنه بالغ وشدد في إعداد صيغة يتعهد بها المنصور بأن لا يغدر بأخيه أبو العباس إلا أن هذه التهمة مشكوك فيها، والسبب الحقيقي هو نشاطه السياسي الديني الذي أثقل كاهل المنصور .

وتشير مصادر أخرى إلى أن ابن المقفع أرسل كتاباً صغير الحجم للمنصور عظيم القيمة أسماه (رسالة الصحابة) نصح فيها الخليفة بحُسن اختيار معاونيه، وحُسن سياسة الرعية، وكان في نصحه رفيقاً كل الرفق، رقيقاً غاية الرقة، ولعله كان ينتظر من المنصور تقديراً أدبياً ومادياً يليق بجهده، ولعله لم يتصور أن مجرد إسداء النصح

---

(1) أدوارد براون، المصدر السابق وص 88، ج1، باب ثالث.

للمنصور جريمة، وأن غاية دور الأديب في رأي المنصور أن يمدح، ومنتهى دور المفكر أن يؤيد، وأن عقاب من يتجاوز دوره كما فعل ابن المقنع، أن يُفعل به كما فُعل بأبن المقفع، الذي قطعت أخرافه قطعة قطعه، وشويت على النار أمام عينيه، وأخعم إياها مجبراً، قطعة قطعة، حتى أكرمه الله بالموت في النهاية [1]. ولعله تساءل وهو يمضغ جسده بأمر أمير المؤمنين، أي أمير وأي مكافئة أتلقاها لنصيحتي هذه ؟ هذا نموذج واحد ذكرناه من بين العشرات من الأدباء والشعراء والفقهاء والعلماء الذين لم يكونوا أوفر حظاً من ابن المقفع، تمت تصفيتهم جسدياً في زمن المنصور.

في عهد المهدي لقي الشاعر صالح بن عبد القدوس الذي دعى في أحاديثه الدينية بالبصرة إلى الثنوية، والثنوية في إيران تعني وجود إله خير وإله شر، وهذا أمر مخالف للشريعة الإسلامية التوحيدية، وحاول أن يتفادى عاقبة النقمة التي أثارتها هذه الدعوة عليه في الأوساط الفقهية بالفرار إلى دمشق، إلا أن رجال المهدي تعقبوه ورجعوا به إلى عاصمة الخلافة، ليصلب سنة (783) بتهمة الزندقة [2].

وهكذا كانت نهاية هذا الشاعر المفجعة، كما كانت قبله نهاية ابن المقفع، والتي فتحت الباب في ملاحقة الزنادقة في عهد المهدي، والذي أوكل عامله الخاص ويدعى (العريف) الذي نشط في محاربة كافة الآراء المذهبية التي كانت تزعج الحكومة المركزية.

ويقال أن الزنادقة في عهد المهدي قد شكلوا نسبة كبيرة لا يستهان بها في بغداد، تم القضاء عليهم.

---

(1) المسعودي (مروج الذهب) ج 3 ص 309.

(2) الزندقة: لفظة شائعة على من ينسب له بدعة في ذلك العصر، وهذه الكلمة مشتقة من زند، وهي مختصر لكل من يجرء على تفسير (الابستاق)، تفسيراً جديداً وهو كتاب زرادشت، وكانت تطلق على أتباع ماني ومزدك على حد سواء أيضاً.

4ـ1 أساليب العنف بين الخلفاء الأخوة والأقرباء والمقربين:

من الجدير بالذكر هنا أنه بعد وفاة المهدي خلفه ابنه موسى سنة (785) متخذاً لنفسه لقب الهادي، وفي 15 أيلول عام 786 قتل الهادي وهو في دار حريمة قرب الموصل بتحريض من أمه (الخيزران)، التي سبق لها أن شاركت مشاركة كبيرة في تصريف شؤون الدولة إبان خلافة زوجها، وكانت في الأصل جارية بربرية.

ويقال أن موسى يكره أخاه هارون (الرشيد)، مما آثر أمه للتخلص منه، وتنصيب هارون على العرش بدلاً منه، وكانت هذه بداية للآفة التي أدت إلى هلاك الأسرة العباسية من خلال النزاعات الداخلية بينها وقد قتل موسى على يد هارون في مؤامرة بشعة. كما أن المنتصر تآمر في قتل أبيه المتوكل. ونفذت المؤامرة ليل التاسع من كانون أول سنة 1861 في الجعفري ــ وهو القصر الذي كان المتوكل قد أقامه على أبواب سامراء قبل ذلك بفترة غير طويلة[1]. وسنأتي لتفصيل ذلك في فقرة لاحقة.

والحادثة الأخرى التي تستحق الذكر هنا؛ وهي مقتل جعفر بن يحيى البرمكي في عصر الرشيد، مفادها كما وردت في الروايات أن خلافاً حصل بين الرشيد وجعفر، أحد أقرب وزرائه إليه بسبب حادثة غرامية، مفادها أن الخليفة عقد لجعفر على أخته العباسة عقداً صورياً حتى يكون في ميسورة أن يأنس بالاجتماع بهما في وقت معاً، ولكن جعفراً أساء اصطناع هذه الحرية التي تمت له، فلم تكد أم الخليفة (الخيزرانة) أن توفت سنة (790) حتى انتزع الرشيد خاتم الدولة من جعفر، وحول جزءاً من صلاحياته إلى خصمه وخلفه، الفضل بن الربيع، وفي أوائل عام (803) عندما ذهب الرشيد إلى الحج ــ وكان يتولى إمرته في أغلب الأحوال بنفسه ــ أمر بجعفر أن يُقتل في ليل 29 كانون الثاني، ويعلق رأسه على الجسر المركزي ببغداد ويقطع جسمه نصفين، يعرض كل منهما على واحد من الجسرين الآخرين، أما أبوه وأخوته فاعتقلوا وصودرت ممتلكاتهم.

---

(1) كارل بروكلمان (المصدر السابق نفسه) ص 214.

وهكذا انتهت نكبة البرامكة والتي اضطرت الرشيد من نقل مقره إلى الرقة على الفرات[1]، ولم يخل عهد الرشيد الذي اتسم بالهدوء والازدهار، وكان يعتبر من العصور الإسلامية الذهبية لم يخل من ثورات تعاقبت في داخل الإمبراطورية.

ففي سوريا اندلعت نار الخصومة القديمة بين عرب الشمال وعرب الجنوب سنة (796)، وفي دمشق اغتنمت السوقة فرصة الاضطرابات للإمعان في أعمال السلب والنهب، ولم يستتب الأمن إلا بعد خروج جعفر البرمكي بنفسه، وأمر بتجريد السكان من السلاح جميعاً.

واستمر القتال ضد بيزنطة خلال عهد الرشيد، ولكنه لم يؤت بنتائج مثمرة سوى زيادة في إكراه الإمبراطور (نقفور) بعد فتح هرقل سنة (806).

وكان ثمة اضطراب متصل في آسيا الوسطى أيضاً، إذ ثار (رافع بن ليث) في سمرقند سنة (805)، وبسط سلطانه على بلاد ما وراء النهر كلها (الهند)، مما اضطر الخليفة هارون الرشيد لتجهيز جيشه والسير بنفسه لمقاتلته، ولكن الأجل لم يمهله فما كاد الوصول إلى الطوس في خراسان حتى مرض وتوفي في يوم 24 آذار سنة (809).

5ـ 1 الصراع بين الأمين والمأمون:

كان الابن الأكبر للرشيد محمد الأمين ولياً للعهد وأميراً على سوريا، وكانت أمه زبيدة حفيدة المنصور، أما ولده الثاني عبد الله المأمون، فقد كان ولي عهد على الولايات الشرقية، وكانت أمُه أمة فارسية.

بعد أن نص على أن أي اعتداء يقوم به الأمين على حقوق أخيه يترتب عليه فقدان العرش، وكان الرشيد قد عيّن لولده الثالث القاسم أميراً على الجزيرة الفراتية، فتقلصت بذلك سلطة المأمون وضاقت، ومع أن الأمين تمكن أن يجعل إمارة القاسم

---

(1) كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص 187.

مقتصرة على قنسرين فقط، لكنه لم يجرؤ على التعرض لسلطة المأمون، على الرغم من تحريض وزير أبيه الفضل بن ربيع. ومن جهة أخرى اضطر المأمون بادئ الأمر إلى التسليم بحقوق أخيه، فيما كان وزيره الفضل بن سهل يستحثه على توحيد الإمبراطورية، إلا أنه كان يخشى الخطر الذي يتهدد الدولة من المشرق، فقد قدر لأهل التبت، إبان الفتوحات العربية في آسيا الوسطى، أن ينتصروا على سلسلة من المعارك ضد الصين، بمعونة عرب كاشغر ولكنهم (أي التبتيين)، انتهوا بعد أن استشعروا الخطر من تقدم القوى الإسلامية، ومن هنا ناصروا (رافع بن ليث) في ثورته في سمرقند، وأصبحوا يهددون بالهجوم على بلاد ما وراء النهر، وقد اضطر المأمون سنة (810 م) أن يلقي بالتحفظ عرض الحائط وقطع جميع علاقاته ببغداد، وعهد إلى قائد جيوشه علي بن عيسى في اتخاذ جميع الإجراءات الضرورية ضد أخيه الأمين، الذي كان ينوي إعطاء ولاية العهد لابنه موسى، بيد أن علياً هذا ما لبث أن قتل في موقعة جرت بين قواته وجيوش الأمين يقودها طاهر بن الحسين في الري. وإنما كتب النصر في تلك الواقعة لجند المأمون، فلم يكن من الأمين إلا أن بعث بجيش جديد كان نصيبه التشتت أيضاً، وعندما رفض الجند الذين وجههم إلى الشرق للمرة الثالثة أن يتقدموا إلى أبعد من خانقين على الحدود العراقية، فقد نشبت ثورة أخرى ضد الأمين في سوريا، وحوصر هو وأمه في العاصمة من قبل الحسين بن قائده علي الذي قتل في الري، ولكن نفراً من الذين أقاموا على الإخلاص له عادوا فأنقذوه من أسره، وهكذا تقدم المأمون نحو بغداد حيث تساقطت المدينة منطقة إثر منطقة، مما اضطر الأمين آخر الأمر إلى الاستسلام، ثم ساروا به من قصره في أواخر أيلول (813) وهاجمه رجال طاهر وقتلوه.

وهكذا استعادت الدولة وحدتها وكان المأمون قد مكث في بادئ الأمر في مرو، وقد خرج في هذه الأثناء محمد بن إبراهيم طباطبا في الكوفة أوائل عام (810) وادعى الخلافة، لكن هرثمة هزمه بسهولة ويسر، إلا أن (هرثمة) نفسه انتهى بعد هذا النصر

الجديد إلى أن يكون خطراً على الخليفة ووزيره، فأمروا به أن يعتقل بعيد دخوله مرو، وما هي إلا فترة وجيزة حتى أمر بقتله فقتل. أما طاهر بن الحسين وكان يستحق من الخليفة المثوبة بمقدار ما استحقها هرثمة، فقد أرسل على رأس جيش هزيل إلى الرقة على الفرات، حيث كانت الثورة تلي الثورة. وفي سنة (817) دعى البغداديون المنصور بن الخليفة المهدي، إلى تولي السلطة فلم يستجب لهم بل أقام على ولائه للخليفة وسعى إلى إقرار الأمن باسمه، وحسب المأمون أن باستطاعته اكتساب عطف العراقيين إذ عقد لعلي بن موسى الرضا على ابنه، وسماه ولياً للعهد، والواقع أنه أقدم على هذا العمل بإشارة من وزيره الفضل بن سهل، واستبدل رايات العلويين الخضر برايات العباسيين السود، ولكن العراقيين أبوا مبايعة علي، ونادوا بإبراهيم بن المهدي الموسيقي الهاوي خليفة عليهم، وفي 24 حزيران من سنة (817)، اضطر المأمون أن يتخذ إجراءات فعالة في مركز الإمبراطورية، ولم تكن الأحوال في الشرق أدعى إلى الاطمئنان من الأمور في العراق، ذلك أن العقائد التي بشر بها أبو مسلم الخراساني وتلاميذه أمثال (المقنع) والقائلة بتناسخ الأرواح وتجسد الذات الإلهية لم تلبث أن تكاثرت في أذربيجان على يد بابك (الخرمي) الذي اجتمع حوله خلق كثير، واتسع سلطانه حتى أوشك أن يعزل المقاطعات الفارسية عن الغرب. ومهما يكن من أمر فالواقع أن المأمون انطلق في سبيله إلى الطوس مباشرة ليستمد القوة عن طريق الصلاة على ضريح أبيه الرشيد، وبينما هو في بعض الطريق قتل وزيره، وهو في الحمام بمدينة سرخس. وفي طوس أيضاً توفي صهره عن طريق دس السم إليه، ودفن هناك بجوار هارون الرشيد، وكان قد رفعته الشيعة إلى مرتبة الشهداء، فإن المدينة الجديدة التي سميت المشهد قد أصبحت مزاراً مهماً لتحل محل طوس القديمة.

وإذ غلبت السوداء بعد ذلك على الحسن بن سهل أخي الوزير الفضل وأمير العسكر في واسط آنذاك، وكان العراقييون يكرهونه كرهاً شديداً، وتغير عقله حتى شد في الحديد

وحبس في أحد البيوت بحجة من الاختلال العقلي[1]، فقد خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي ودعوا المأمون بالخلافة، فدخل العاصمة في آب (819). ولم يكد ينسحب من خراسان حتى رفع الخوارج راية الثورة فيها، فعهد المأمون في إخمادها إلى طاهر الذي وفق خلال فترة قصيرة إلى إقرار النظام في المقاطعة كلها، لكنه استقل بعد فترة في تلك الولاية ليؤسس الدولة الطاهرية والتي أفقدت الإمبراطورية الإسلامية أقصى ولاياتها الشرقية، كما أفقدتها أقصى ولاياتها الغربية[2] في آن معاً.

ومن الجدير بالذكر هنا إلى أن نار الفتنة القديمة بين القبائل قد اندلعت مرة أخرى بين عرب الشمال وعرب الجنوب، إبَان الحرب بين الأمين والمأمون، فقد ناصر القيسية الأمين بينما ناصرت الكلبية المأمون، ولم تكد و حدة الإمبراطورية تستقر ثانية حتى اندلعت القلاقل مرة أخرى عندما أقبلت جماعة من الأندلس، واستولوا على الإسكندرية في مصر لكن عبد الله بن طاهر الذي تولى الإمارة بعد أبيه استطاع في فترة وجيزة إجبارهم على الانسحاب إلى أقريطش وإقامة الآلة الحكومية من جديد. وكان المأمون يعهد القيادة الحربية إلى كبار رجاله العسكريين، فقد واصل الحرب ضد البيزنطيين بنفسه، واشترك لثلاثة سنوات متعاقبة في حملات ضد البيزنطيين إلى أن التمس من الإمبراطور (توفيل) الصلح سنة (832) عقب سقوط (لؤلؤة) أمنع الحصون البيزنطية على الحدود قرب (طرسوس)، وفي آب سنة (833) توفي المأمون في (البدندون) قرب (طرطوس) في أثناء حملته الثالثة على البيزنطيين.

---

(1) كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص 200.

(2) (W. Rothstein (Zn asch ـ scha bustis Bericht uber der Tahiriden) Orietal Studies، Giessen (1906)، I، 155 ـ 170.

6ـ1 حركات العنف والأعمال الأخرى في خلافة المعتصم:

رقي العرش بعد وفاة المأمون أخوه محمد (وكانت أمه تركية) وكان أميراً على مصر متخذاً لقب المعتصم بالله، ذلك لأنه اعتصم ولم يتدخل بين خلافة الأخوة الأمين والمأمون.

ويعتبر عصره بداية لدخول الأتراك وتزايد نفوذهم في التاريخ الإسلامي، وكان ذلك في البداية حين استعان المعتصم بالأتراك الذين جاؤوا من أواسط آسيا، إما عن طريق النخاسة أو على سبيل الجزية يؤديها الأمراء الوطنيون إلى خزانة الدولة الإسلامية، وقد عهد المعتصم بتصريف شؤون الفرقة إلى رجال من غير الموالي، ولكنه لم يلبث أن ملأ مناصب القيادة بمواليه الخصوصين مبالغة منه في الحرص على سلامته الشخصية. والواقع أن هؤلاء الزعماء انتهوا في وقت مبكر إلى أن تكون لهم سلطة على الدولة حتى إذا انقضت فترة غير طويلة أصبحوا هم سادة الدولة الحقيقيين. وكان طبيعياً أن ينكشف خطر هؤلاء العبيد على العرب لبصائر الأذكياء، من الرجال منذ ذلك الحين.

وهكذا ألقى (ابن سعد) (الذي وضع كتبه في عهد المعتصم) على لسان أحد الأصحاب نبوءة مفادها أن الأتراك سيردون العرب في يوم من الأيام إلى بواديهم، (وقد تحقق لهم ذلك للأسف الشديد)، إلا أن أشهر قواد المعتصم ظل من دون شك، رجلاً فارسياً اسمه (حيدر ابن كاوس)، ويدعى بالافشين (وكان هذا منذ عهد المأمون الذي تعاطف مع الفرس في السنوات الأولى من خلافته)، وقد استطاع (الافشين) من القضاء على حكم بابك بأذربيجان بعد أن افتتح قلعته عنوة واستباحها في خريف عام (837).

ثم انقض (الافشين) على البيزنطيين الذين هاجموا في عهد الإمبراطور (توفيل) الجزيرة العربية وشمالي سوريا، ولكنه هزم على يد (الافشين)، بعد أن استولى الأخير على عامورية في غلاطية بعد أن لجأ إثر حصار متطاول إلى الخدعة، ولكن من الجائز

جبراً أن تكون هذه الانتصارات بالذات هي التي أثارت حسد الخليفة له، وعلى الرغم من أنه أحبط بعد رجوعه من حرب البيزنطيين، مؤامرة جديدة هدفت إلى تنصيب العباس بن المأمون خليفة بدلاً من المعتصم، لكنه اتهم بالارتداد عن الإسلام سنة (840)، وحبس في بناء خاص ثم منع عنه الطعام إلا القليل حتى مات، إذ لم يجرؤ أحد أن ينزل به عقوبة الصلب المألوفة، وذلك للرصيد الذي حصل عليه من الشجاعة في حملاته الحربية المتعاقبة.

عزم المعتصم على أن ينشئ سنة (836) مقراً جديداً لنفسه في سامراء، وعهد في بناءها إلى (أشناس) أحد قواده الأتراك، فأنشأ فيها قناتين متفرعتين من دجلة نحو الشرق، خلعتا على المدينة الجديدة، بالإضافة إلى نهر دجلة منعة حصين، وكانت المدينة تنظم من قبل بثمانية أديرة نصرانية، وقد شيد قصر الجوسق للمعتصم، أولاً حتى إذا جاء من بعده خلفاءه وكانوا سبعة حكموا خوال نصف قرن، زينوا المنطقة بقصور ومساجد جديدة.

وكان أبرز تلك الأبنية المسجد الكبير والملوية والتي كانت على غرار الأبراج البابلية، ذات السلالم، والذي يبلغ ارتفاعها (328) ياردة[1].

لقد كان القواد الأتراك قد انتبهوا في عهد ابن المعتصم (الواثق بالله) (847 ـ 842) إلى غاية في النفوذ في بغداد حتى اضطر الخليفة أن يخلع على (أشناس) لقب السلطان اعترافاً له بحقوق يعدو نطاق المهام العسكرية، حتى توفي (الواثق) أصبح هذا القائد مؤثراً بشكل يستطيع تنصيب من يرغب له كخليفة للمسلمين، وقد نصب محمد بن الواثق في بادئ الأمر، إلا أنه سرعان ما استبدل بعمه جعفر المتوكل على الله، وهو بداية عهد جديد للخلافة العباسية.

---

(1) كارل بروكلمان، (المصدر السابق)، ص 211.

2. بداية عهد الرجوع إلى السنة بخلافة المتوكل (862ـ 847) أو عصر انحطاط الخلافة العباسية الأولى:

يبدأ هذا العصر بخلافة المتوكل، وقد كان عهد خلافته طويلا نسبيا، وموجبا للأسف، وما يتعلق بهذا العهد من الوجهة السياسية هي سيادة الترك وقمع العرب وقمع الإيرانيين إلى حد ما، وكذلك رد الفعل الذي بدأ إزاء عقائد المعتزلة التحريرية وميول الخلفاء السابقين الفلسفية، والنفور والكراهية الناجمان عن التعصب لعلي وشيعته، واحتلال الترك من الجنود المنتفعين المشوشين مكان البرامكة وسائر الإيرانيين ذوي الأصل العريق.

إن هؤلاء الجنود هم في الأصل العبيد الذين أسرهم في الحروب الدينية ضد القبائل التركية الملحدة على حدود خراسان (تركمانستان حاليا)، وتنطبق أسماؤهم الوحشية تماما على أعمالهم الهمجية التي ارتكبوها، مثل بغا (بمعنى الثور)، وبغا الصغير، وبغا الكبير، وباغر، وأنمامش الذي وصل إلى الصدارة بعد قتل المتوكل بعامين أو ثلاثة، وبابياك، وكلبتكين، وأمثالهم.

ومع أن أمثال هؤلاء الجنود المأجورين قد اتخذوا لهم أسماء عربية فإن أصلهم ونسبهم يكشف حقيقتهم، فوصيف مثلا، وهو أحد رؤساء المتآمرين الذين قتلوا المتوكل اسمه كاشف، وقد كان في الأصل خادما[1]، ويقول موير[2]: (لقد ظهر تعصب المتوكل المذهبي ضد التشيع بصفة خاصة، وبدأ ضد اليهود والنصارى في كل القوانين والقرارات الغير مستقرة، وكان تعصبه هذا يعادل تماما ميله الطبيعي للترك، ولهذا تجد تشبيهه بسلطان أسود القلب متعصب من سلاخين العثمانيين، ومختلفا عن سابقيه كالمنصور والمأمون أمرا طبيعيا).

---

(1) Dozy، (Supplement aux Dictionnaires Arabes)، P 810.

(2) موير (الخلافة الإسلامية)، ط 2، ص 525.

لقد تصرف مع الشيعة على نحو نجم عنه سفك دم العديد منهم، ومن جملة من قتلهم معلم أبنائه (ابن السكين)، العالم النحوي المشهور (857)، وعيسى بن جعفر، فقد تم ضربه أمام الخليفة وبأمره (855) إلى أن أسلم الروح، وبدلاً من أن يوارى جسمه الثرى، ألقى به في نهر دجلة، وبهذا العمل وجه إنذاراً (وفق تصوره) لأهل البدع والضلال ممن يعادون جماعة المؤمنين[1].

بالإضافة لإراقة دم الشيعة وعدوانه على كبار أئمتهم، فقد وضع اليهود والنصارى موضع احتقار وإذلال، بعد أن كانوا موضع احترام الخلفاء السابقين، ففي أوائل خلافته (850) وبعد ثلاثة سنوات أصدر أمره ضدهم لأول مرة، وإلزامهم أن يلبسوا خيلساناً عسلي اللون، وأن يضعوا شارات ملونة وقلنسوة، وحزاماً على شاكلة السفلة، وأن لا يركبوا سوى البغل والحمار الأسود، وأن يختاروا عربات خشبية وسرج ذات رسومات عجيبة، وأن يعلقوا تصاوير الشيطان على أبواب منازلهم، وقد حطمت معابدهم الجديدة البناء، وأخذت شكل المسجد، وقد صدر الحكم بأن يكون سطح الأرض قبوراً لهم، ولم يكن مسموحاً لأخفالهم أن يتعلموا العربية والعلوم الأخرى لدى المعلمين المسلمين[2].

1 ـ 2 العصر العباسي الثاني:

في عام (861) قتل المتوكل أثناء سكره بيد حرسه من الترك وبتحريض من ولده (المنتصر) الذي لم يعش أكثر من عام بعد قتل أبيه، وقد بلغ مجموع سنوات حكم هذا الولد ـ قاتل أبيه ـ وثلاثة ممن خلفوه ـ وهم (المستعين) و (المعتز) و (المهتدي) ـ تسع سنوات فقط، وقد قتل الثلاثة الذين وردت أسمائهم ـ المستعين والمعتز والمهتدي ـ ، بصورة غاية في الوحشية والبشاعة على يد الأتراك الذين كانوا آنذاك في أوج اقتدارهم،

---

(1) تاريخ الطبري، ج 3، ص 1426 ـ 1424 .

(2) موير (كتاب الخلافة)، ص 521.

وقد أبدى المهتدي روحاً أعظم وأسمى لمساندة العرب غير أن الأجانب كانت لهم آنذاك الغلبة والتفوق من جهة العدد والانضباط[1]. لكنه على أي حال قد حاول بتعقل أن يخمد كبرياء هؤلاء المأجورين، ويقضي على نخوة هؤلاء المدعين سفكة الدماء، وعلى اندفاعهم وقسوتهم، وقد استفاد خليفته بشتى الطرق من ثمار مساعيه وجهوده.

وفي هذا العصر المضطرب بالهياج، ونتيجة لنشاطات (يعقوب بن الليث الصفار) من تأسيس دولة جديدة في إيران باسم الدولة الصفارية، وقد بدءت منذ ذلك العصر تتفكك الدولة العباسية إلى دويلات متعددة، نتيجة لضعف المركز، وعدم قدرة الإدارة من تطوير نفسها بشكل يسمح من السيطرة على كل أركان الإمبراطورية الواسعة، بالإضافة إلى صعوبة المواصلات والاتصالات في ذلك العصر، وكل المناطق غير العربية بدأت تبحث في إحياء قوميتها من خلال السيطرة والاستحواذ على الأراضي التي تقطن فيها، وقد بدأت أولاً في إيران، تلك البلاد الواسعة التي شعرت بالغبن والتغيُب عن صنع القرار منذ فترة طويلة، خاصة وقد كانت تلك الأمة تتزعم الإمبراطورية الساسانية قبل دخولهم الإسلام، وكان لديهم فكر وديانات قديمة عريقة مما جعل أمر سيادة العرب عليهم أمراً غير مقبول من وجه نظرهم.

ثاني حدث كبير حصل في هذا العصر، هو ثورة الزنج، تلك الثورة التي سببت الفزع والاضطراب البالغين لعاصمة الإسلام مدة أربعة عشر عاماً (883 ــ 869)، ومكان وقوع هذا الحدث وظهور هذه الثورة العنيفة، ــ التي كللت بالنجاح لفترة طويلة ــ هو المستنقعات (الأهوار) الواقعة بين البصرة وواسط، وكان زعيم هذه الثورة هو (علي بن محمد) من أهالي ورزين ــ قرب الري ــ إيران، وهو من نسل علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، وقد أعلن تمسكه بمبدأ الخوارج[2].

---

(1) موير (كتاب الخلافة)، ص 535، المصدر السابق نفسه.

(2) Noldke، Sketches from Easter Hestory (P ـ 146 ـ 175).

أما من ناحية مشاهير الكتاب والأدباء الذين اشتهروا في ذلك العصر فهم: أبو حاتم السجستاني (ت 864)، والجاحظ (ت 869)، والبخاري (ت 870) جامع الأحاديث الشهيرة المسماه باسمه (صحيح البخاري)، كذلك مسلم النيسابوري صاحب كتاب (صحيح مسلم)، والترمذي، والنسائي، وغيرهم.

والآن نصل إلى عام (874 ــ 873)، وهو العام الذي حصلت فيه أحداث مهمة كالآتي:

أولاً: غيبة الإمام الثاني عشر في مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، وكان ذلك حدثاً كبيراً بالنسبة للشيعة وضعتهم في حيرة كبيرة، وأدت بهم إلى الكثير من الانقسامات الفكرية، رغم توصيته بالرجوع إلى أربع مراجع كنواب عنه.

ثانياً: بداية تبليغ الإمامية السبعية أو الإسماعيلية التي تعد إحدى فرق الشيعة والتي انتهت مباشرة بقيام القرامطة، وتأمين الخلافة المنافسة للعباسيين، أي خلافة الفاخميين في شمال أفريقيا ومصر [1].

ثالثاً: استقرار الأسرة السامانية في خراسان، ورحيل العارف الكبير المتصوف (بايزيد البسطامي) عن الدنيا، وولادة (أبي الحسن الأشعري) ــ أحد علماء الدين ــ، الذي تسبب في توجيه ضربة قاصمة قاضية إلى نفوذ المعتزلة، وتفوقهم في العالم الإسلامي، وأفلح في تشكيل عقائد من كانوا يملكون محيط فكر أضيق، ويمارسون قدراً أكبر من التعصب، وأدخلنا في مرحلة صار فيها الدين الإسلامي ديناً ثابتاً يتصف بالشدة والصلابة، وسوف نتحدث عن هذه الأزمة الدينية في مكان آخر من البحث.

---

(1) أنظر أبو الحسن محمد النوبختي (فرق الشيعة)، النجف (1936)، وكذلك محمد رضا المظفر (عقائد الإمامية)، القاهرة (1961).

لقد استمر الحكم في سلسلة سامان حوالي 125 عاماً تقريباً في إيران والجانب الشرقي للأمة الإسلامية، إلى أن قوي الغزنويون واستطاعوا إسقاطهم[1].

لقد كان السامانيون في إيران بعد موت الخليفة المعتضد وجلوس ابنه المكتفي قد بلغوا ذروة قوتهم، بينما ثبت طائفة القرامطة المخيفة بقيادة (زكروية) الخبير الكفء أقصى درجات الرعب في القلوب في أنحاء بغداد والبصرة، وفي سوريا واليمن. ولا يمكن أن يقال أن هذا الرعب لا أساس له، لأنه في إحدى الغارات التي تعرضت لها قافلة من قوافل الحجاج، وفي أثناء عودتها من مكة، كان عدد أجساد الموتى التي بقيت ملقاة في الصحراء (كما يقال) عشرين ألفاً[2].

يقول (أبو منصور الثعالبي) في كتابه (الطوائف والمعارف)[3]: (من أعجب الحروب حربان: الأولى هي نفس المعركة التي دارت بقوة الصفاريين، واستطاع فيها الجيش المكون من 50 ألف محارب أن يلوذ بالفرار على الرغم من هزيمته، ونجا فيها كل الجنود ولم يقع في الأسر سوى قائد الجيش وحده، والثانية هي المعركة التي وقعت بين (العباس بن عمرو) والقرامطة في هجر، والتي هلك فيها جنود (العباس بن عمرو) كلهم وعددهم عشرة آلاف وفرَ قائد الجند وحده).

ونصل إلى فترة خلافة المقتدر، وهي فترة طويلة نسبيا (932 ـ 908)، وأهم حدث سياسي فيها هو استقرار الأسرة الفاطمية أو الإسماعيلية في شمال إفريقيا، وهي التي قامت ضد الخلافة العباسية، وقد اتخذت هذه الأسرة مدينة (المهدية) عاصمة لها (يقصد عبيد الله المهدي أول خلفاء هذه الأسرة)، وقد استمر نشاط القرامطة، ولم يتوقف على

---

(1) إدوارد براون (المصدر السابق)، ج 1، ب ب/3، ص 216 لتجد فيها تفاصيل أكثر عن هذا الموضوع.

(2) أدوارد براون، المصدر السابق، ص 223.

(3) أبو منصور الثعالبي (الطائف المعارف)، طبعة De long، ص 88.

الرغم من وفاة زعيمهم زكرويه والجنابي الأكبر، ودخلوا البصرة عام (924)، وفي العام التالي، أغاروا ثانية على قافلة الحج، ثم سيطروا على مكة نفسها عام (929)، وحملوا معهم الحجر الأسود، وأبقوه في ديارهم 20 سنة، وأثاروا بين كل المؤمنين الرعب والنفور مما يعجز البيان عن وصفه.

وفي السنوات الأخيرة من خلافة المقتدر، دخل القرامطة الكوفة، وسيطروا على عمان، إلا أن نشاطهم في تلك الأثناء بات محدوداً، ولم تكن تلك المحدودية اعتباطية، بل كانت فضيحة ظهور المهدي الكذاب سبباً في انتهاء نشاطهم.

والمهدي المدعي هو ابن أبي زكريا[1]، الذي ذكر أبو ريحان خلاصة تعليماته الكريهة والمثيرة للتشاؤم المنذرة بالنحس في كتابه (الآثار الباقية)[2]، وكان القرامطة بعد ذلك بعدة سنوات يأخذون من زوار مكة مبلغاً بصفة (خفارة) (ضريبة طريق)[3].

وسقطت الأسرة الصفارية تماماً بحدود عام (910)، وأن طاهر ويعقوب حفيدي عمرو قد وقعا في الأسر وأرسلا إلى بغداد، بينما ورث نصر الثاني العرش، والتاج الساماني وتوفي عام (942).

ولا بد أن نذكر أن المقام الأول بين علماء هذا العصر كان بدون شك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 932)* صاحب كتاب التاريخ الكبير. يقول ابن الأثير: (ولد هذا المؤرخ عام (839)، ودفن في منزله ليلاً لأن جمعاً من الناس تجمعوا وقالوا: أنه كان

---

(1) دوخوية (قرامطة البحرين)، ص 131.

(2) (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أبو ريحان، ترجمة زاخو، طبع ليبترج (1982)، ص 197 ـ 196.

(3) دوخويه، المصدر السابق، ص 140.

* نضع علامة الحرف (ت) وتعني سنة الوفاة فقد جرت العادة في العالم الإسلامي في ذلك الحين أن لا يعيروا اهتماماً بالميلاد لأي شخصية كانت وتاريخ الوفاة هو المعول عليه.

رافضياً (من الشيعة)، بل كان ملحداً حسب اعتقادهم، وعارضوا دفنه في النهار)، كما عاش في ذلك العصر الحسين بن منصور الحلاج، الذي حصل على شهرة وخيدة في التصوف، وقد قبض على ابن منصور في عام (913) بسبب تعاليمه المبتدعة التي شاعت في بغداد وضواحيها[1]، وقتل في عام (921) بقسوة بالغة، وما علق بالأذهان من الاتهام الذي وجه إليه هو أنه حال الجذبة كان يصرخ: (أنا الحق)، ويرى الصوفية أن قوله هذا ناجم عن الوجد والحال، فإن العارف في حال شهود جمال الحق يغيب عن نفسه، ولا يرى كل ما في الوجود من مظاهر خارجية وحقائق. ويرون أن ذنبه هو أنه أفشى الأسرار وأبداها ويعتبرونه أحد القديسين والشهداء. وقد ترك وراءه العديد من المؤلفات والرسائل الهامة[2].

ومن الشعراء (ابن علاف) (ت 930)، من أصدقاء ابن المعتز، فتل ظلماً ولم يتمكن الناس من إقامة العزاء له علناً بعد موته[3]. وهو من أشهر علماء المعتزلة في خورهم الثاني.

وقد نال منصب الخلافة بعد المقتدر ـ خلال مدة قصيرة ـ أربعة خلفاء هم: القاهر والراضي والمقتضي والمستكفي (946 ـ 932)، وتلقت قوة آل بويه وسيطرتهم النظر إلى حد كبير، وقد ورد الحديث عن بداياتهم، وبفضل مساعدة عسكر الديلمي والكيلاني، فإن أولاد بويه الثلاثة، أي عماد الدولة، وحسن ركن الدولة، وأحمد معز الدولة، أدخلوا في خاعتهم أصفهان وأرجان ونو بندجان، وكازرون وشيراز وكرمان والأهواز واحدة بعد الأخرى.

---

(1) الطبري (التاريخ)، ج 3، ص 2289.

(2) ابن خلكان، المصدر السابق، خبع دي سلان، ج 1، ص 401 ـ 400 .

(3) Lane (Mahamedin Dynasties).P. 139 ـ 144 أو (الخلافة الإسلامية)

وقد سيطروا أيضاً على بغداد خلال المدة القصيرة التي تولى فيها المستكفي الخلافة، وقد منح المستكفي أخاه الثالث منصب ولقب أمير الأمراء[1]، وكان البويهيون إيرانيون وشيعة، وقد اشتهروا في ترويج العلم والأدب وحماية العلماء بسخاء وكرم، وقد وجدت الفلسفة على الأخص روحاً جديدة في ظلهم، بعد أن تعرضت للخنق إثر تفوق الأتراك قبلهم (أيام المتوكل وما بعده)، وتعصب الحنابلة، وازدياد قوة الأشاعرة (أصحاب أبو الحسن الأشعري)، واتساع محيط انتشارهم، وسرعان ما ظهرت من وسط دائرة أهل المعرفة جماعة متآخية غاية في الأهمية تسمى (إخوان الصفا) في البصرة وهم مجموعة تنتمي إلى المذهب الإسماعيلي، وقد لخصت العلوم الطبيعية وعلوم ما وراء الطبيعة (ميتافيزقيا) الشائعة في ذلك العصر، في إحدى وخمسين رسالة.

ترجمت تلك الرسائل ضمن دراسات متعددة، وأصبحت في متناول يد الأوروبيين، وبالتالي ساهموا في نقل الإرث الحضاري البشري بين الأمم والحضارات المختلفة. وقد رأى علماء بغداد أن هذه الرسائل من قبيل الإلحاد فحرقوها عام (1150)[2] ولكن رغم هذا ظلت تتداولها الأيدي، وكان لها أثر شامل وعميق في الفلسفة الإسلامية واليهودية.

نصل إلى فترة خلافة المطيع الطويلة (بعد المستكفي) (974 ــ 946) فقد حصلت فيها تغييرات قليلة، إذ كان آل بويه يحكمون بغداد بصورة فعلية باسم أمير الأمراء، وفي السنوات العشر الأخيرة من هذه الفترة سيطر المعز (أبو تميم) على مصر، والمعز هو أحد الخلفاء الفاطميين الذين أسسوا الخلافة المنافسة المعارضة.

---

(1) ول ديورانت (قصة الحضارة) الجزء الثاني المجلد الرابع ترجمة محمد بدران (14 ــ 13) لجنة التأليف والترجمة ــ جامعة الدول العربية ــ القاهرة ــ ص 214.

(2) ول ديوارت (قصة الحضارة) (المصدر السابق نفسه)، ص 207.

وقد نقل المعز عاصمته من المهدية إلى القاهرة، فكانت القاهره من وقتها حتى انقراض تلك الأسرة عام (1171)، مركز القوة ومقر الحكم والنفوذ الإسلامي تقريباً. ففي نفس الفترة شب نزاع بينهم وبين القرامطة الذين كانوا يظاهرونها من قبل.

وفي حدود عام (971)، عقد القرامطة عهد اتحاد حتى مع العباسيين، ومن مشاهير العلماء والحكماء في ذلك العصر هم أبو نصر الفارابي (مات عام 950)، وعالم الجغرافيا أبي زيد البلخي، والشاعر الكسائي، وكذلك المسعودي المؤرخ الكبير صاحب كتاب (مروج الذهب) (ت 956)، والذي يقال أنه كان يميل إلى المعتزلة كذلك الزمخشري (959) صاحب كتاب (الكشاف)، وغيره. كما ولد عام (961)، أبو منصور عبد الملك الثعالبي مؤلف (يتيمة الدهر)، والعديد غيرهم. يتضح لنا أن كل فترة تاريخية يصاحبها الهدوء يبرز في الطرف الآخر العلم والأدب والفلسفة، ولا يفوتنا أن نذكر أن الشاعر العظيم المتنبي قتل عام (965)، وقتل أبو فراس الحمداني في الحرب عام (968)، وكذلك أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب (الأغاني) في نفس الفترة تقريبا، ويقال أنه كان عضواً في حاشية سيف الدولة[1].

وتعد السنة الأخيرة من خلافة المطيع سنة مهمة، لأن شخصين مهمين قد ولدا فيها هما أبو العلاء المعري، وأبي ريحان البيروني.

أما في خلافة (الطايع) (991 ــ 974)، فشهدت تلك الفترة ولادة الفيلسوف والطبيب الكبير أبو علي بن سينا، وفي عام (988) ألف أبو الفرج محمد بن اسحق النديم (الفهرست)، وهو واحد من أهم مصادر الدراسات التاريخية، والذي توفي بعد ذلك بستة أعوام، ولكن نهاية القرن العاشر التي اشتهرت في ميادين العلم والأدب والحركات المذهبية والفلسفية، قد بدأت معها من الجانب الآخر رجحان كفة أحد الأتراك، وهي فترة حافلة بالمخاخر بالنسبة للخلافة من جهة وحضارة الإسلام ومدنيته من جهة أخرى.

---

(1) إدورد براون، المصدر السابق، ص 240.

8ـ1 العصر العباسي الثالث:

بظهور تركي آخر فجأة على مسرح الأحداث تنتهي هذه الفترة تقريباً، وهذا التركي كان السلطان محمود الغزنوي الذي أبدى قوة لا حد لها، (تولى السلطنة عام (988) وتوفي عام (1030)).

وقد بدأ (محمود) سلطنته في إقليم صغير كان قد ورثه عن أبيه (سبكتكين)، وأسقط الأسرة السامانية المزعزعة وحارب الهند 12 مرة، وجعل هذه البلاد مسرحاً لكرهِ وفرهِ وهجماته، وقد وجه هذا السلطان ضربة إلى آل بويه واستخلص أصفهان من قبضتهم.

لقد قتل محمود من عبدة الأوثان عدداً يفوق الحصر، وخرب العديد من معابد الأوثان، وأدخل البنجاب في دائرة حكمه إلى الأبد، وسخر بلاد الغور، وضم ما وراء النهر إلى بلاده[1].

يتضح مما تقدم أن التقدم العلمي والأدبي الحاصل في البلاد الإسلامية، وهي مواريث مشتركة لكل الشعوب التي اعتنقت الإسلام، لم يكن لها حاضنة تحميها من هجمات القبائل المتوحشة المحيطة بها، وذلك يرجع للطبيعة الجغرافية المفتوحة دون حواجز منيعة رادعة لهجمات القبائل الهمجية، وكذلك عدم اكتراث الملوك والأمراء بتأسيس جيوش قوية قادرة على صد تلك الهجمات، ولم تكن كل تلك الخسائر والنهب والغارات الوحشية التي حصلت على الكتاب والأدباء إلا قبل فتنة المغول في القرن الثالث عشر، ولم تكن الخسائر والنهب والغارات الوحشية التي حصلت أثر هجوم المغول ـــ قد حدثت بعد ... لأن هذه القبائل الهمجية الكريهة كانت تلجأ إلى القتل العام حيثما حلت، وتشعل النار في المكان ـــ وبعد ذلك التاريخ لم تشغل علوم المماليك الإسلامية ـــ، في

---

(1) إدوارد براون، المصدر السابق نفسه، ص 246، ج 1، البابان الثالث والرابع.

العصور التي تلت ذلك إلا بصورة محدودة، ولما كانت بغداد قد خربت، والخلافة قد زالت، فإنه لم يعد هناك وجود لأي مركز من مراكز الثقافة والعلم والمعرفة، ولا لأي مركز لتوحيد جهود العالم الإسلامي العلمية، وتمركزها والخلط بينها.

وهكذا نجد أن ولادة النهضة العلمية في البلدان الإسلامية قد تم وأدها وهي في المهد، بسبب تفشي العنف وعوامل الخوف والتشاؤم الذي لم يفسح لهم مجالاً لتأسيس قاعدة ومرجعية ثابتة يمكن لها أن تنطلق، وتؤسس لمجتمع متطور لا يتقبل العودة إلى الوراء.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا الانقسامات المذهبية والطائفية التي ظهرت بعد غيبة الإمام المهدي، من الإسماعيلية (السبعية) والقرامطة. وكانت في الأساس تدعوا لدفع الغبن عن فئة كبيرة لم يصبها شيء من الثورة التي استحوذ عليها بنو العباس كما فعل قبلهم بنو أمية. يقول رينه دوسو عن الإسماعيلية ما يلي[1]:

(تسبب بعض المغالين في أن تكون هذه العقائد موضع نفور المتمسكين بالشرع من المسلمين، وهؤلاء أنفسهم هم قطعاً سبب إدانة تلك العقائد، إن علينا أن نعلم أن الإسماعيلية كانوا قد استعادوا الكثير من أحكامهم من المعتزلة، والمعتزلة ينكرون ــ ضمن ما ينكرون ــ صفات الحق، ويؤمنون بمبدأ الانتخاب والاختيار، ومع أن الإسماعيلية ــ من هذه الوجهة ــ لم يبتكروا شيئاً من عند أنفسهم إلا أن حكم علماء الغرب بشأنهم كان على ما يبدو قاسياً أكثر مما ينبغي. فإنه إن تخطئ هذه الفرق في حق بعضها، فتتعرض كلها مجتمعة لسهام التوبيخ، كما يتعرض علماء الإسلام عامة للذم، لخطأ ولا شك).

---

(1) رينه دوسو (تاريخ النصرية ومذهبهم)، طبع باريس (1900)، ص 49.

ثم يمضي فيقول في نهاية الصفحة: (حتى تلك الفئة الإسماعيلية التي كانت تسمى (بالحشاشين)، لم تكن أول جماعة استفادت من هذه الحرية، حرية الفتك الذي هو القتل، ويدعى الآن الاغتيال، إنها الحرية التي استخدمتها الأقلية المظلومة ضد المظالم والظالمين ــ وخبقاً لما هو سائد ــ يوصف شيخ الجبل نفسه، بأنه لم يكن ظالماً مجرماً، وقد أخلق اللفظ أي الحشاشون أو القتلة السفاحون في الأصل على هذه الجماعة نفسها)، وسنأتي بالتفصيل عن هذه الجماعة في مكان آخر من البحث.

وعودة إلى التاريخ، ففي عام (930) قام القرامطة بأكبر عمل لهم، ففي الأيام الأولى توجه أبو خاهر في جيش مكون من 600 فارس و 900 من المشاة إلى مدينة مكة المقدسة، وقام بالقتل والسلب، وكما هي العادةآنذاك عمد إلى الأسر الجماعي، ومما أوقع الرعب في قلوب المسلمين الأتقياء، إذ حمل معه الحجر الأسود* وسائر الآثار المقدسة باعتبارها من التراث الوثني (حسب عقيدتهم)، ويقال أن ثلاثين ألف مسلم قد قتلوا في هذه الكارثة العظيمة، وأن ألفاً وتسعمائة شخص من القتلى قد استشهدوا في حرم الكعبة، وكان مقدار الغنائم التي نهبوها عظيماً جداً، ولا يمكن وصف المشاهد التي اقترنت بهذه الأعمال النجسة الشريرة التي نجمت عن هتك حرمة الكعبة[1]، ولا داعي لأن نذكر تفاصيل بقية العمليات التي قام بها القرامطة، والتي تتمثل في السلب والقتل العام وتحصيل الضرائب من الزوار، تلك العمليات التي استمرت بلا انقطاع حتى وفاة أبو خاهر عام (944)، وكان أحد الخلفاء الفاخميين واسمه القائم أو المنصور، قد أصدر أمره إلى القرامطة بإعادة

---

* إن رفع الحجر الأسود من الكعبة الشريف كان انطلاقاً من تمسكهم بمعتقدات المتصوفة في ذلك العصر، من خلال الاتحاد مع الله، وأن الله ذات موجود في كل مكان وكل شيء وبالتالي لا داعي للحج ولا لوجود رمز مادي كالحجر الأسود. للمزيد من التفاصيل انظر كتاب (قصة الحضارة) لول ديورانت الجزء 13 صفحة 214 (التصوف).

(1) دوخوية: المصدر السابق، ص113 ــ 104 .

الحجر الأسود إلى مكانه، لكن نزاعاً نشب بين القرامطة والفاطميين، بعد أن سيطر الفاطميون على مصر (969)، وقد ثار بعض القرامطة ضد رؤسائهم القدامى بموالاة العباسيين، وذلك بعد عام أو عامين من تلك الحادثة [1]. لكن وعلى الرغم من ذلك تعتبر حركة القرامطة حركة اشتراكية لأنها كانت توزع الغنائم بالتساوي ... إلخ.

ويبدو أن القرامطة كانوا يجمعون بين مبادئ وقوانين متناقضة، بمعنى أنهم كانوا يعتقدون أن نبذ الإيمان أساس الخلاص والتحرر من القيود الأخلاقية، وكانوا يساندون نفوذ الناس وحكمهم من ناحية ويؤيدون السلب والنهب من الناحية الأخرى.

أما الفاطميون فكانوا يؤمنون بأمر الله، وسلطان رجال الدين ونفوذهم وحكمهم، وحسب رأي دوخويه: (كان حكم الفاطميين يقوم على أساس العدل والإحسان) [2]، كما قيل فإنه لا يعلم جيداً ماهية الروابط التي كانت بين القرامطة والإسماعيلية، وهذه النقطة مبهمة قليلاً، ومع أن الخلفاء الفاطميين كانوا ينكرون علاقتهم بالقرامطة أو يخفونها، لكن القرامطة كانوا يعترفون رسمياً بسيطرة الخلفاء الفاطميين الكاملة في شؤونهم المذهبية وغير المذهبية، لقد أخذت فرق الإسماعيلية اسمها ـ قبل كل شيء ـ من إمامها السابع (إسماعيل)، لكنها كانت إلى جوار تلك التسمية تسمى باسماء أخرى من قبيل السبعية، والتعليمية، والفاطمية، والقرمطية، والملاحدة، والحشاشين.

وسبب تسميتها بالتعليمية يعود إلى أنها كانت تعتقد أن التعليم الحقيقي يجب أن يؤخذ من الإمام وحده، وسبب التسمية بالفاطمية هو أنهم كانوا يؤمنون بأولاد وأحفاد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، زوجة علي بن أبي طالب، وسبب التسمية بالقرامطة هو أن حمدان بن قرمط (كان والده يوصف بالقرمط لقصر قامته)، وكان

---

(1) دوخويه، المصدر السابق، ص 401 ـ 399 ، وكذلك ص 178 ـ 177 .

(2) دوخويه (المصدر السابق) ص 178 ـ 177 .

هذا داعية فرقتهم ومبلغها، أما الملاحدة فقد أخلقه عليهم أعداؤهم، وكانت تسمية الحشاشين نتيجة لدعوة (حسن الصباح) وسوف نتحدث عنه بتفصيل أكثر في فقرة أخرى لاحقة.

إن عقلية هؤلاء القوم كثيراً ما كان محورها العدد (سبعة)، وقلما كان محورها العدد (إثني عشر)، وباتت هذه الأعداد تطبَق سواء في عالم الوجود أو في بدن الإنسان، بمعنى أن السماء بها سبعة كواكب سيارة، وإثنا عشر برجاً، وأن الأسبوع به سبعة أيام والعام فيه إثنا عشر شهراً، وأن الرقبة بها سبعة فقرات، والظهر في إثنا عشرة فقرة، وقس على ذلك.

وينطبق على ذلك أيضاً السماوات السبع والأراضي والأقاليم السبعة، وفتحات الرأس والوجه السبعة (ثقبا الأذن، محجر العين، فتحتا الأنف والفم)، ويتمثل الفاصل بين الله وخلق الإنسان بسبعة خطوات استوى في السابعة على العرش[1]، ولا يستطيع الإنسان أن يبلغ الحقيقة اعتماداً على سعيه وجهده دون تأييد إلهي، وهو بحاجة إلى التعليم، ويجب أن يأخذه عن العقل الكلي، ويتجلى العقل الكلي في صورة الرسول أو الناطق وهو يعلمه في كل مرحلة من مراحل التجلي على توالي الحقائق الروحية اللازمة لقيادة البشر وإرشادهم، بصورة أتم وأكمل، طبقاً لتحول فهم البشر وتكامله، ولا يتم ذلك إلا عن طريق من أوصى بهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ينتمي إليه نسباً، وللنبوة سبع دورات، ست منها ترد على النحو الآتي: (آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد وآخرون)، وأما الدورة السابعة فقد بدأت بظهور محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق القائم أو صاحب الزمان، وتظهر عقيدة الباطنية التي هي حالة الأنبياء الحقيقية والقلبية والكيفية الداخلية، والمفهوم الواقعي للشريعة لأول مرة

---

(1) إدورد براون، المصدر السابق، ص 300.

في تلك الدورة، ولكل واحد من الأنبياء أو الناخقين سبعة خلفاء، أو أئمة صامتون ويلقبون بالأساس أو السوس (بمعنى الجذر) والسوس هو جليس الناخق المقرب، ومحرم أسراره ومخزن تعليماته الباخنية[1].

4. شكل النظام الإداري والمالي العباسي:

لم يستطع النظام العباسي الجديد الرجوع بالنظام المالي إلى ما كان عليه الحال من بساخة في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ولا في عهد الخلافة الراشدة، فلم يدخل أي تغيير على نظام الخراج، ومع ذلك فقد كانت الدولة الجديدة تختلف كثيراً عن السابقة، فالفضل في النصر الذي حققه العباسيون، إنما يرجع أصلاً لعرب العراق الذين ناصبوا الأمويين في الشام العداء، وكانوا بذلك ذخر الدولة العباسية وسيفها المصلّط في بداية الأمر،[2] أما البدو من العرب فقد أبعدوا إلى الصحراء بعد أن يئسوا من تطويرهم وتكييفهم، كما أبعدو كذلك عن الجيش الذي تألفت صفوفه من الخراسانيين فأقبلوا ينخرخون في كتائبه، وأصبحوا العنصر الفني فيه، ورمزاً لهذه التغييرات الجديدة أو تكملة لها، وتأسست عاصمة جديدة للدولة العباسية هي بغداد، وقد انتقل معظم السكان في المدن الأخرى إلى العاصمة الجديدة، ونقلوا معهم عاداتهم وأعرافهم، وهكذا زالت سيادة أهل الشام وذهبت سيطرتهم على إرجاء العالم الإسلامي مع ذهاب سيطرة الدولة الأموية، فتحول قطب الجذب ونقطة الدائرة من الشام (دمشق)، القريبة من البحر المتوسط إلى بغداد، الأقرب إلى المحيط الهندي وبحر العرب.

إن انتقال المركز الإداري في ذلك العصر من مكان إلى آخر والذي كان من سمات الإمبراخورية الإسلامية له آثاره الكبيرة على سياسة وسيرة تلك الدولة في كل فترة من

---

(1) Sylvester de sacy (Expose) للمزيد من التفاصيل انظر الكتاب، المجلد الأول

(2) إدوارد بروي (تاريخ الحضارات)، ج 2، القرون الوسطى، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، 1986، ص 125.

خلال المؤثرات البيئية والمواريث التاريخية المتأصلة لأهل المنطقة والتي تنعكس بالتالي على سيرة الخلفاء ولقراراتهم المهمة. وبالتالي مستقبل النظام ككل.

5. أسباب الاضطرابات والثورات في العصر العباسي:

لم يستطع هذا النظام من أن يحل كل المشاكل العارضة أو أن يزيل أسباب شكوى الشاكين، أو الناقمين التي قامت عليها ثورة العباسيين، واستولت على السلطة على أساس أنها سوف تحل كل تلك المشاكل التي واجهت الدولة الأموية من قبل.

فالفوارق السياسية والاجتماعية لم تفقد شيئاً من حدتها إذ لم تؤخذ شيء من أصحاب الأملاك الكبيرة عرباً كانوا أم أجانب، لإرضاء هذه الطبقات أو للحد من المعارضة الدينية للدولة الجديدة.

إن عملية الإصلاح لا يمكن أن تتم بمجيء حاكم قوي دون أن يكون له حزب سياسي يمتلك الأيديولوجيا والمنهاج المتكامل للتغيير مستنداً في ذلك على تأييد أغلبية كبيرة من أبناء العامة، فكيف يمكن أن يحصل التغيير لمجرد انتقال السلطة من بني أمية إلى بني العباس، وتغيير مركز السلطة من دمشق صاحبة الإرث البيزنطي إلى بغداد القريبة من المشرق الساساني ؟ وكيف يمكن أن يرضى الشيعة مثلاً عن عهد ليس رجاله القائمون على أمره من أولاد الإمام على بن أبي طالب ؟ وهكذا بقيت الحزبيات والعصبيات راكدة تحت الرماد أو أنها انبثقت من جديد تحت مظاهر وأشكال جديدة، تظهر بشكل ثورات وانتفاضات كلما تهيأت لها الظروف بذلك[1]، وإذا كان الإيرانيون هم وقود ثورة بني العباس في خراسان، والتي اوصلتهم إلى السلطة فبقوا على تشكياتهم يتذمرون بمرارة. ولعلهم قابلوا بشيء من الأسف والحسرة، بروز بعض الأعراب الذي

---

(1) يشار إلى الثورات والانتفاضات في أغلب كتب التاريخ بالفتن ويشيدون بالخلفاء الذين يقضون عليها، دون الاكتراث للأسباب والعوامل المسببة لتلك الحركات والموقوف وراء مكامن الخلل في إدارة الدولة في ذلك العصر.

ساعدهم انتصارهم على الظهور فسارعوا بعد أن تمت لهم الغلبة للتخلص من بطلهم بالقضاء على أبو مسلم الخراساني الذي أمن النصر للعباسيين.

أن كل هذه الأمور تبقى غامضة مبهمة مجهولة تصعب معرفتها بالتفصيل المرتجى، إلا أنها واضحة في خطوطها الكبرى، بحيث نفهم جيداً وندرك تماماً أن هذا الغليان الفكري والاجتماعي والاقتصادي الذي هيأ للثورة العباسية لم يهدأ بعد أن تمت له الغلبة وحقق النصر، وهكذا نجد في التاريخ أن العباسيين لم يواجهوا استقراراً سياسياً في بداية الأمر وانقسمت الخلافة إلى ثلاثة مراحل على الأقل كانت المراحل الأولى منها تشهد اضطراباً وعنفاً ربما يكون أكثر مما كان عليه الحال في العصر الأموي.

هذا الاضطراب الذي ضرب سردقة عالياً في كل مكان:

1. في إسبانيا استطاع أحد الأمراء الأمويين بعد أن نجا بنفسه من المذابح التي أعدها لهم العباسيون، أن ينشئ له دولة مستقلة عن الدولة العباسية في المركز.
2. في المغرب كانت هناك نزاعات مع الخوارج نتيجة الصعوبات الناجمة عن الاتجار مع بيزنطية، وفي سوريا التي لم تغفر للعهد الجديد اغتصابه السلطة منها والاستئثار به دونها وانتقالها إلى عدوها التاريخي من أهل العراق، ومما هو أوقع مدلولاً من هذا كله، الاضطرابات التي شجرت في إيران نفسها، حيث نرى إخلاله لمظاهر دينية ومطالب أدهى وأكثر تعقيداً.

وملخص القول فهذه المنطقة الجبلية الممتدة بين خرسان وأرمينيا وما إليها من سكان سوادهم يعيشون في جوانب الإسلام في هذه المناخق الجبلية التي تشرف على بحر قزوين، تبقى أبداً في غليان من جراء الدعوات الدينية المتتالية التي أدت إليها بعض التعاليم الدينية الإسلامية وتصادمها مع ما هو مترسخ في عقول الناس في تلك المناخق من الديانات المانوية والزرادشتية والمزدكية، هذه القوالب الدينية التي ابتسمت إلى الديانة الإسلامية في بادئ الأمر ولكنها بقيت تحن إليها دوماً وبشكل خاص نفوس

الطبقات الفقيرة والشعبية في إيران القديمة لما تجد فيها من خقوس وتقاليد وتعليمات أقرب إلى قناعاتها الباخنية من التعاليم الإسلامية في تلك المرحلة التاريخية بالذات والتي لم يكن للإسلام من وسائل إيضاح وشروح بلغات تلك الأقوام تكفي لاستيعاب الدين الإسلامي وترسيخ تعاليمه، بفترة زمنية قصيرة.

وهكذا كشفت هذه الأقوام عن وجود معارضة قوية، قومية واجتماعية انتصبت في وجه هذه الأوساط الحاكمة التي ربطت مصيرها، في المجالين الديني والسياسي بمصير العباسيين، ومن أعماق بعض الانتفاضات انطلق عجيج المطالب الصاخبة، فرددت أصدائها خبقات الفلاحين الرازحين تحت جور كبار الملاكين، فراحوا ينزلونهم وفقاً لنزعتهم الدينية منزلة الغريب المغتصب.

ولعل أشهر هذه الثورات تلك الثورة التي قام بها الخرمية وانطلقت من مبدأ الخير والشر وأقرت عبادة أبي مسلم الخراساني، وقالت بتناسخ الأرواح وبما يشبه الإباحية الجنسية، وباستواء الأديان جميعاً، وذهبت للمطالبة بالمساواة الاجتماعية. والعرقية وعلى أساس إنصاف المسلمين ومعاملتهم بالتساوي دون تمييز بين العرب والقوميات الأخرى. وقد عرفت تلك الدعوة (بالشعوبية) في ذلك العصر.

وقد ذكرنا سابقاً عن حركة بابك الخرمي على سبيل المثال، فبعد أن هزم بابك الخرمي في مطلع القرن التاسع في أذربيجان، انضمت بعض فرقهم فيما بعد إلى الثورة التي قام بها مزيار [1]، وإذ ذاك صار الفلاحون يهاجمون الملاكين من العرب في هذه الأقطار الجبلية الواقعة جنوب بحر قزوين مهاجمة قاسية جداً، وبعد أن سيطر الخرميون وأتباع مزيار على المنطقة سيطرة تامة لفترة من الزمن، انهزموا شر هزيمة في عهد المعتصم على يد قائده (الأفشين)، كما ذكرنا سابقاً إلا أن إبادتهم لم تؤد قط إلى

---

(1) من تاريخ الحضارات، ج 2، المصدر السابق، ص 131.

أية تهدئة في المعارضة التي أخذت تعتمد منذ ذاك الحين على عناصر إسلامية خارجية.

صحيح أن العباسيين خرجوا من المعمعة ظافرين كاسبين، إلا أن المجهود القومي الذي بذلوه لم يبق بدون تأثير على هذه التغييرات العسكرية التي أفضت بهم إلى الهاوية بعد حين.

إن العنف السياسي في عصر الدولة العباسية يمكن أن ينقسم إلى ثلاثة أشكال:

1. حوادث القتل البشعة التي حصلت بين الخلفاء والأمراء العباسيين أنفسهم من أجل الاستحواذ على السلطة.
2. الحركات السياسية المعارضة من ثورات وانتفاضات ناجمة عن مطالبة مستضعفين بحقوقهم وعدم حصولهم على درجة الرضى من السلطة، ويسمي بعض المؤرخين تلك الحركات (بالفتن) حسب انحيازهم لهذه القضية دون آخرى.
3. حركات الجيوش والسلطات الأمنية في قمع المعارضة وكل ما هو خطر عليهم وأعمال الاغتيالات وأحكام القتل والغدر للمفكرين والعلماء ولأصحاب البدع والأفكار الغريبة التي كانت قد نشأت هنا وهناك.

لقد وجدنا تفاصيل عن كل تلك الأحداث الدموية في العديد من المصادر التاريخية التي تتمتع بقدر كبير من الموضوعية مثل كتاب هادي العلوي في هذا الخصوص[1] ننتقي قسماً من تلك الأحداث وغيرها، في الفقرة اللاحقة لكي نعطي نماذج من أشكال العنف السياسي الذي مورس في العصر العباسي الذهبي، والذي قد يفوق ما شهدناه في الفصل الأول من البحث.

---

(1) (هادي العلوي (الاغتيال السياسي في الإسلام) دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط 4، 2004.

6. الاغتيالات في العصر العباسي على يد السلطة :

6ـ1 اغتيال إدريس بن عبد الله من أحفاد الحسن بن علي :

الذي شارك في تمرد قاده أحد أبناء عمه بالحجاز في خلافة موسى الهادي أخ الرشيد، حيث هرب بعد سحق التمرد إلى مصر، ومن هناك واصل سيره إلى المغرب.

حيث بدأ بتنظيم حركة ناجحة ضد العباسيين، انتهت إلى إقامة أول دولة علوية في إفريقيا، وكانت حركة إدريس الثاني حركة انفصالية خطيرة ضد الخلافة العباسية بعد انفصال الأندلس بزعامة عبد الرحمن الداخل، وقد ارتأى الرشيد اللجوء إلى المكيدة لضرب إدريس وحركته، بدلاً من استخدام القوة العسكرية ويتفق معظم المؤرخين على أن إدريس مات مسموماً، وذلك عن طريق شخص مرسل من الرشيد، دس إليه السم عن غفلة [1]، ومات إدريس وكافأ الرشيد ذلك الشخص الذي دبر له هذه العملية بتعيينه موظفاً كبيراً في مصر.

وكانت لإدريس جارية حامل منه فانتظرها أعوانه حتى ولدت له ولداً سموه إدريس وتعهدوه ليكون وريثاً لوالده، واستمروا في هذه الأثناء يدبرون شؤون البلاد حتى بلغ الوريث سن الرشد، وقد استطاعوا بذلك صيانة الدولة إدارياً ومنعها من السقوط، فلم يتحقق للرشيد الهدف الذي كان يتوخاه من اغتيال مؤسسها.

6ـ2 تصفية الوزير ثم ولي العهد :

بعد أن انفرد المأمون بالخلافة بمقتل أخيه الأمين، وكان في خرسان استدعى الإمام علي بن موسى الكاظم (الرضا)، وهو الإمام الثامن لدى الشيعة، وقرر تعيينه ولياً للعهد، وقد سبب هذا الإجراء تمرداً في بغداد قاده عم المأمون إبراهيم بن المهدي، وتم فيه

---

(1) أبو الفرج الأصفهاني (مقاتل الطالبين)، القاهرة (1949)، ص 489، (الفصل المخصص لإدريس عبد الله).

خلع المأمون ومبايعة إبراهيم بالخلافة، وكانت أخبار التمرد تصل إلى الوزير الفضل بن سهل فيكتمها عنه، وكأنه كان يريد أن يعالج الموضوع بنفسه قبل أن ينتبه إليها المأمون، لكن الأمور تفاقمت وخرجت من يد الوزير، فاضطر علي موسى الرضا إلى مكاشفة الخليفة بتفاصيل ما يجري في بغداد، وبين له أن العباسيين وأنصارهم في بغداد قد خرجوا عن طاعته بسبب ولاية العهد، وأن الفضل يستر عنه الأخبار، وقرر المأمون أن يتوجه إلى بغداد لتدارك الأوضاع.

وفي مدينة سرخس كان الفضل بن سهل الذي رافق الخليفة في عودته يغتسل في الحمام، فشد عليه جماعة وتناولوه بسيوفهم فأردوه قتيلاً، وكان المهاجمون من حشد المأمون، فأمر بالبحث عنهم وجعل لمن جاء بهم جائزة قدرها عشرة آلاف دينار، فلما مثلوا أمامه قالوا: (أنت أمرتنا بقتله)، فأمر بإعدامهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل شقيق الفضل، وكان معتمد المأمون في واسط[1].

وقد بعث المأمون مع الرؤوس كتاباً يرثي فيه المغدور ويبكيه، ويخبر الشقيق انه قد صيّره مكان شقيقه، ويبدو أن المأمون من سلوكه هذا أنه سياسي بارع من طراز معاوية، ورجل دولة دقيق الحساب، وبعد مقتل الفضل في سرخس، واصل المأمون سيره إلى بغداد فنزل في طريقه بمدينة طوس، ليقيم أياماً عند ضريح والده الرشيد، وهناك مات ولي العهد فجأة (علي موسى الرضا).

وقد وردت روايات عديدة تشير إلى أنه مات مسموماً بأكل العنب أو بأخذ ماء الرمان عندما شعر بألم في أمعائه، ولكن تسميم الرضا غير متفق عليه من قبل جميع الرواة[2].

---

(1) أنظر الطبري (الكامل في التاريخ)، حوادث، 202 هـ.

(2) أنظر الطبري (الكامل في التاريخ)، حوادث، 203 هـ.

3ـ6 مقتل المتوكل:

قتل المتوكل بتدبير من ابنه المنتصر وحاشيته التركية، فقد باغته المسلحون وهم أنفسهم من أفراد القصر في حجرته، وخبطوه بسيوفهم جهاراً ودون أية تكتيكات، ويعود سبب غدر الابن بأبيه لأنه قدم عليه في ولاية العهد أخاه الأصغر، بالإضافة للأسباب الرئيسية الأخرى في كون أن المتغلبين الأتراك في عهد المتوكل قد اشتد بأسهم، وأخذوا يتأهبون للانقضاض على الخلافة وانتزاع السلطة الفعلية منها، وكان المتوكل قوياً مهاباً، والدولة في عهده لا تزال محتفظة بوحدتها وتكاملها المركزي، فلم يكن في ميسور أحد أن يتطاول على سلطته، فدبروا خطة لاغتياله، وانتهزوا فرصة تأخير الابن الأكبر لأداء المكيدة، والدليل على ذلك أنه بعد قتل المتوكل استخلف الابن بقوة الحاشية التركية خلافاً لعقد الولاية، وبهذا تمت للأتراك السيطرة على الخلافة العباسية بإزاحة آخر الخلفاء الأقوياء، ويمكن اعتبار السيطرة التركية على الأمة الإسلامية قد بدأت بوادرها تظهر منذ ذلك الحين.

4ـ6 اغتيال أبو سعيد الجنابي:

مؤسس الحكم القرمطي في شرقي الجزيرة العربية، حيث قتله خادمه في الحمام، ويقال أنه راود الخادم في الحمام فاضطر إلى قتله، وقد يكون الاغتيال نتاج خطة مدبرة في بغداد، لأن الخصم الأكبر للقرامطة يكمن هناك، ومما يعزز ذلك واقع الصراع الدموي بين العباسيين والقرامطة، ولم تترتب نتائج خطيرة على اغتيال أبو سعيد فقد استلم بعده ولده الأصغر أبو طاهر الذي واصل سياسة والده وبلغ فيها إلى مدى أبعد مما بلغه الوالد نفسه.

5ـ6 اغتيال علي بن الفضل ـ الزعيم القرمطي في اليمن:

حيث تقول الرواية أن (ابن أبي يعفر) شجع هذا الرجل على ما جاء من أجله من العراق إلى اليمن، وتعهد له أن يشاخره ماله، وعلى هذا الأساس ذهب الرجل إلى المذيخره

حيث يقيم علي بن الفضل، حيث استدعاه ابن الفضل ليفصد عرقاً له تسقى مبضعه سماً وأعده لهذا اليوم، فلما فصد العرق التهب جسم علي فمات.

وقد هرب الفاعل، ولكنه أدرك فقتل. أدى اغتيال علي بن الفضل إلى إضعاف الكيان القرمطي في اليمن ومع أن السلطة اشتدت، واشتدت بعده إلى ولده المسمى (بالفأفأ) فإن الكيان لم يصمد أمام هجوم موحد من بعض العشائر اليمينية بقيادة ابن أبي يعفر، وقد استطاع المذكور أن يبسط سلطانه على معظم اليمن ويعيدها إلى الخلافة العباسية[1]. يمكن الاستدلال من أن مصير هذه الدولة كان مرهوناً بقيادة مؤسسها، وأن عملية الاغتيال هذه قد لعبت دوراً حاسماً في القضاء عليها.

6ـ6 اغتيال ألب أرسلان:

أما اغتيال السلطان السلجوقي ألب أرسلان، فقد اغتالته زوجته زمرد خاتون لكي تولي ابنها الأكبر (تتش) السلطنة بعد وفاة والده الذي سممته هو الآخر في عنقود عنب، وقد قام بعده الابن الآخر (بوري)، ولم يعجبها فألحقته بأخيه وأجلست مكانه (شهاب الدين بن بوري) لكي تضمن لها التحكم في السلطة إلى أمد أطول.

كل هذه اغتيالات مارستها السلطة العباسية ضد المعارضة، أما المعارضة فقد مارست الاغتيالات التالية:

7. الاغتيالات على يد المعارضة:

اتسعت حركة المعارضة في الخلافة العباسية مع تفاقم وتعقد الأزمات الاجتماعية في عموم المجتمع الإسلامي، وحصلت في أثناء ذلك تبدلات في مواقع وفصائل الفرق

---

(1) حسين بن حمد العرش (بلوغ المرام)، القاهرة (1939)، ص 23، (كشف أسرار الباطنية)، أخبار علي بن الفضل.

المعارضة، فقد استمر الخوارج من خلال تشعباتهم المعروفة بحرب أشبه ما يكون حرب عصابات قبل انحسارهم في رقعة جغرافية ثابتة.

أما القدرية فقد تطوروا حينئذ إلى المعتزلة وحافظوا على نهجهم المعارض إلى عهد المأمون الذي تحالف معهم وجعل مذهبهم رسمياً للدولة، وقد اشتركت المعتزلة في أوائل العصر العباسي في حركة مسلحة كبرى قادها إبراهيم بن عبد الله الحسين في البصرة، وكادت أن تقضي على الخلافة العباسية، لكنها فشلت، ولم يظهر لهم نشاط سياسي هام بعد ذلك.

وقد ظهرت الزيدية من الشيعة وقاموا بنشاط ملحوظ متراوحاً بين الشدة والخفوت حتى انطفأت جذوره نهائياً بوصولهم إلى السلطة في اليمن، وفي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، بدأت الإسماعيلية الباطنية نشاطها السري الذي تطور إلى حركة كاسحة غطت العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، وكانت وسيلتهما العمل المسلح.

إلى جانب ذلك ظهرت حركات مسلحة أخرى أخذت شكل انتفاضات في أماكن معينة وعلى يد قيادات غير مرتبطة بتنظيم فرق، كان من بينها انتفاضة الزنج في جنوب العراق، والبابكية (الخرمية) في أذربيجان، وقد واصل الخوارج أسلوب الاغتيال ولكن على نطاق ضيق، والعملية التي قاموا بها هو اغتيال القائد البارز (معن بن زائده)، الذي كان من قواد الأمويين في أواخرهم، ثم انضم إلى العباسيين في عهد المنصور، وكان إرهابياً سفاكاً عينه المنصور والياً على اليمن، وكانت قد وقعت فيها قلاقل، فقمعها بوحشية وأباد الكثير من أهلها، ثم أرسله المنصور إلى سجستان، فأساء السيرة فيها، وهناك عزم الخوارج على تصفيته.

وكانت المجموعة الفدائية التي تكلفت بالعمل قد تنكرت في زي عمال بناء، وكان معن يبني منشآت في منزله، فدخل هؤلاء مع العمال وكانوا يدخلون إلى المنزل ويخرجون

عند انتهاء ساعات العمل ينتظرون الفرصة المناسبة في أثناء ذلك، وعندما استدعى معن حجاماً واختلى معه في غرفة ليحجم له، فأخرج الخوارج سيوفهم من مخابئها وداهموه في حجرته وهتف آخر وهو يخبطه بالسيف: (أنا الغلام الطاقي)، نسبة إلى قرية سجستان تسمى خاق[1].

وكانت الإسماعيلية قد ملأت الشاغر الذي تركه الخوارج وقد لجؤا إلى استراتيجية العمل المسلح في مرحلة الظهور، وقد تجلى ذلك أول الأمر في انتفاضات كبرى هي التي تمخضت عن الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا، والكيانات القرمطية في العراق واليمن وشرقي جزيرة العرب.

لقد بدأت الإسماعيلية بانتفاضات وإنشاء مواقع النفوذ ثم الكيانات لكنها انتهت إلى الاغتيالات، ويقترن هذا التحول عند الإسماعيلية بمقدمات دخولها مرحلة الأفول، متمثلة في انحسار الخلافة الفاطمية في مصر، وشروعها في التدهور، وانكماش الحركة القرمطية في شرقي الجزيرة ثم زوالها في أواخر القرن الرابع الهجري بعد أن صفيت تماماً في العراق والشام، وهكذا يمكن القول أن استراتيجية الاغتيالات السياسية لم يكتب لها النجاح لأي حركة مهما بلغت من سمو الأهداف فإنها تؤل إلى الأفول في نهاية المطاف.

ومن الناحية الدينية الإسلامية، فإن قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تحمل أبعاداً فردية وجماعية فإنها حسب تفسير الفقهاء، يتعين على المسلم أن يقاوم السلطة الجائرة بالوسائل المتاحة له، وحسب شروطها وظروفها، ومن ذلك استخدام السلاح سواء أكان هذا السلاح في حرب مكشوفة ضد السلطة، أم أعمال قتل متفرقة.

وقتل الحاكم الجائر مبدأ إسلامي قديم، فإن الإسلام لم يحرم الاغتيال السياسي، وإنما حرم الاغتيال الشخصي فقط.

---

(1) الطبري (الكامل في التاريخ) حوادث سنة 151 م، وفيات الأعيان ص 703.

وهكذا نجد اعتماد العديد من الفرق الإسلامية المتطرفة في عصرها مبدأ الاغتيالات السياسية كإستراتيجية عمل تبيحها الشريعة الإسلامية (حسب تفسيراتهم)، على أن التعليل الشرعي للاغتيال لا ينفي دلالته الإستراتيجية، بوصفه نتاجاً لحالة الانحسار التي أصيبت بها الحركة الإسماعيلية على سبيل المثال، وهو من هذه الناحية تعويض عن فشل الثورة. ولو كان عند الإسماعيلية تعويضاً باهظ الثمن للمعسكر المعادي، ساعد في بعض حالاته على انتقال سلطة أو انتهاء كيان كما أعطى الإسماعيلية وهي في مرحلة تراجعها هيبة في عيون أعدائها جعلت لها حضوراً مؤثراً في الأحداث. إن الإحباط والفضل في تولي السلطة يدفع مثل هذه الجماعات التمسك بأعمال العنف كي تكسبهم هيبة واحترام الناس تعويضاً عن الفشل حسب المفاهيم السائدة عندهم من خلال احترام المجتمع للقوي.

8. اغتيالات باطنية[1]:

1ـ8 قتل المقتدر بالله العباسي:

عاصر المقتدر نهوض الدعوة الإسماعيلية وتوخد دورتها في المغرب والحكم القرمطي في شبه جزيرة العرب، اغتيل المقتدر سنة (320 هـ)، حين كان يحارب مؤنس الخادم المتمرد عليه، وتوصف عملية الاغتيال بأن جماعة من المغاربة والبربر التابعة لقوة في ظاهر بغداد قد شهروا سيوفهم عليه حين انهزم فقال: (ويحكم أنا الخليفة)، فقالوا: (قد عرفناك يا سافل قد عرفناك أنت خليفة (إبليس) تبذل في كل رأس خمسة دنانير وفي كل أسير عشرة دنانير)، (يشيرون في ذلك للمكافآت التي كان يعطيها لمرتزقته عن كل قتيل أو أسير يأسرونه)، ثم ضرب أحدهم بسيفه على عاتقه فطاح على الأرض،

---

(1) المقصود بالباطنية هنا هي الحركات والتنظيمات السرية التي تشكلت من قبل الإسماعيلية.

وجلس الآخرون على صدره، وذبحوه ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنون.

إن اغتيال المقتدر هو من أوائل العمليات الكبرى التي نفذها الإسماعيليون، لكن مردوده كان ضئيلاً لا سيما أن مركز السلطة الفعلية كانت حينذاك بأيدي أمراء الحرب الأتراك المتسلطين على الخلافة (السلاجقة).

2ـ8 اغتيال أمير حرب تركي عام (440 هـ):

أي بعد أكثر من قرن على اغتيال المقتدر، وكان الهدف هو حاكم همدان الأمير آق سنقر، وقد جرى قتله في كمين نصب له في طريقه لزيارة أحد رجال الدين جرياً على عادة أمراء الحرب الأتراك في توقير هذه الفئة والعناية بشؤونها، وكان اغتيال هذا الأمير فاتحة عهد لموجة الاغتيالات التي نفذتها الإسماعيلية على امتداد حوالي القرن والنصف، وهذا يأتي مع ظهور القلاع الإسماعيلية في المشرق الإسلامي حيث أخذت الحركة بالانكفاء في مواقع نفوذ صغيرة كانت تنطلق منها لتنظيم الدعوة في الخارج، وفي هذه الحقبة من الزمن اتخذ الإسماعيلية هدفا آخر، حيث حدثت الحروب الصليبية، فقد صار الفدائيون الباطنيون مصدر رعب غير عادي لأولئك الغزاة، وكانت هناك حملة اغتيالات واسعة ضد الصليبين.

3ـ8 اغتيال نظام الملك:

وهو وزير مشهور في عصر السلاجقة، وكان بمثابة يد ضاربة للمعسكر السلفي الذي بدأ يستحوذ على العالم الإسلامي في ظل حكم الأتراك السلاجقة، ويتكرس ذلك من خلال كتابه (سياسة نامه) الذي ضمنه البرنامج السياسي للسلطة، وتم قتل نظام الملك بسبب قتله لنجار كان قد قتل مؤذناً من أهل أصفهان، كانوا قد عرضوا عليه الدعوة فلم يستجب، فخافوا أن ينم عليهم بعد أن كان قد عرفهم، وكان الذي تولى قتله نجار باطني، وقد قبض نظام الملك على النجار فأمر بقتله، فقتله تحت التعذيب، فقتل الإسماعيليون

نظام الملك إثر ذلك.

وهناك روايات عديدة أخرى في أسباب مقتل نظام الملك حسب ما تحدث به ابن الأثير، وكان مقتل نظام الملك ضربة موجهة لدولة ملكشاه، الذي توفي بعده بخمسة وثلاثين يوماً، فانحلت الدولة وعمتها القلاقل مما أعطى متنفساً للإسماعيلية، وصان (قلعة الموت) من الاجتياح.

4ـ8 مقتل ابن نظام الملك:

وكان يدعى (فخر الملك)، اغتالته الباطنية سنة (500 هـ)، ولم يذكر سبب معين لقتله، أما طريقة قتله، فقد كان خارجاً من داره إلى دار النساء عند العصر، فسمع في الطريق صياح رجل متظلم شديد الرقة، وهو يقول: (ذهب المسلمون فلم يبق من يكشف مظلمة ولا يأخذ بيد ملهوف)، فأحضر الرجل إليه فسأله عن أمره، فدفع إليه ورقة مكتوبة بمظلمته، وبينما فخر الدين يتأمل الورقة عاجله المتظلم بطعنة سكين فقضى عليه.

والمثير في هذه العملية أن الفدائي الإسماعيلي حين قبض عليه، واستجوب من جماعة من كبار المسؤولين، قال أنهم وراء خطة الاغتيال فأخذ هؤلاء وقتلوا جميعاً، ولم تكن لهم علاقة بذلك، وهكذا ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد.

5ـ8 اغتيال الآمر بأحكام الله الفاطمي:

تولى الآمر الخلافة بعد والده المستعلي الذي اغتصب الخلافة من أخيه الأكبر نزار بن المستنصر، وكان لنزار أصحاب من الإسماعيلين داموا على ولائهم له واعتبروا المستعلي وابنه غاصبين، وكان من مرتكسات هذه الخلافة ظهور الطائفة النزارية (نسبة إلى نزار بن المستغفر) التي استعصمت فيما بعد، (بقلعة الموت) تحت قيادة الحسن بن الصباح، وكان الآمر بعد أن اغتصب الخلافة لم يحسن سياستها مما جعله معزولاً عن جمهور

الدعاة مكروهاً من عامة الناس، فعزم النزارية على إنهائه، أما الطريقة التي استخدمت في اغتياله فتتلخص بما يلي:

خرجت مجموعة فدائية من عشرة أفراد إلى القاهرة، وبقيت هناك تتحيَن الفرصة لغرض الاغتيال، ومر وقت طويل نسبياً فتناهى خبرهم إلى الآمر فاحتاط لنفسه وأخذ في تعقبهم، ولما فشى أمرهم اجتمعوا للتداول، وكانوا يريدون أن يتأكدوا إن كانت السلطات في القاهرة قد استطاعت تشخيصهم، فاقترح أحدهم أن يقتلوا واحد منهم ويرموا رأسه في المدينة، فإن تعرفت عليه السلطات وجب على الباقين الانسحاب منها، فترددوا في بادئ الأمر من هذا الاقتراح لكن الذي اقترح ذلك قال لهم أليس من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته أن نفعل ذلك ؟ قالوا: نعم. فقال: وما دللتكم على نفسي، وأخرج سكيناً وطعن بها نفسه فمات بين أيدي أصحابه، فأخذوا رأسه ورموه في الليل في مكان محدد، وفي الصباح خرجوا متفرقين ليستطلعوا الحال فوجدوا الناس يبحثون في شأن الرأس وصاحبه دون أن يعرفه أحد منهم، وأيقن التسعة أن السلطات لم تتوصل إلى تشخيصهم فاطمأنوا إلى الإقامة في المدينة لأداء ما كلفوا به، وجاء يوم أحب الآمر أن يذهب للنزهة في جزيرة تسمى الروضة، وكان عليه للوصول إليها أن يمر على جسر ممدود من القاهرة إلى الجزيرة، وكان من عادة الخلفاء أن يعلنوا نيتهم في الخروج بين الحاشية حتى يكونوا متأهبين لما ينبغي من الخدمة، فسرى الخبر إلى المجموعة النزارية، فسبقوه إلى الجزيرة وكان في قبالة الجسر فرن فدخلوه ودفعوا إلى الفران دراهم وافره ليعمل لهم فطيرة بسمن وعسل، فأخذ الفران يخبز لهم وهو يأكلون، وكانوا في أثناء ذلك يتطلعون صوب الجسر حتى طالع الآمر منه، وكان الجسر ضيقاً ولا يسمح بمرور موكب فرآه منفرداً عن حراسه، فوثبوا عليه ومزقوه بسكاكينهم، ولكي يتأكدوا من الإجهاز عليه قفز أحدهم فركب وراءه وطعنه طعنات مميتة، وفي هذه اللحظات وصل الحرس إلى خليفتهم ولكن بعد أن كان قد انتهى غير أنهم أدركوا الرجال التسعة وقتلوهم.

6ـ8 اغتيال آمر الحرب الإرهابي:

كانت مدينة الموصل شمال العراق قد خضعت لأمراء الحرب الأتراك، الذين تداولوا السلطة بالوراثة أو التغلب. وكانت في ذلك الحين من مراكز النشاط الإسماعيلي، فتصدى لها أمراؤها الأتراك على خريقتهم، وكان أشدهم في ذلك أمير حرب متدين، يسمى قسيم الدولة آق سنقر البرسقي. يقول ابن الأثير[1]: (إن هذا الرجل قد تولى استقصاء الباخنية في الموصل)، فقبض عليه واستجوبه فلم يخبره بشيء، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه وعضوه التناسلي، ثم رجموه بالحجارة حتى مات، فترصد الباخنية لآق سنقر حتى وجدوا منه غفلة وهو يصلي الجمعة، فانقض عليه بضعة عشر رجل منهم بالسكاكين، وكان منفرداً عن حرَاسه فقاتلهم بنفسه وجرح ثلاثة منهم، لكنهم استطاعوا القضاء عليه.

9. التعذيب في العصر العباسي[2]:

نأتي إلى العباسيين فنجد أكثرهم دموية، وهم المهدي، وابنه هارون الرشيد قد عرفا بالتشدد في الدين، فالمهدي خاض في دماء المثقفين الذين مثلوا في عهده، منحى التنوير الإسلامي، بحجة مكافحة الزندقة.

وقتل على يده صالح بن عبد القدوس، شاعر الحكمة والداعي إلى الزهد، قالوا أنه شطره نصفين بضربة واحدة على هامته، وعلق جثته بنصفيها في إحدى ساحات بغداد، وكان قد شاخ وأدركه العمى، وأعدم بشار بن برد جلداً، وقد بلغ السبعين من العمر. ويشغل المهدي مكانة خاصة عند رجال الدين بسبب سلوكه هذا، وذلك في ملاحقته للزنادقة، التي تمت بدوافع سياسية لأنهم كانوا ضمن فئات المعارضة للعباسيين الأوائل كما أسلفنا سابقاً.

---

(1) ابن الأثير (الكامل في التاريخ)، حوادث سنة 520 هـ، المصدر السابق نفسه.

(2) هادي العلوي (التعذيب في الإسلام) دار المدة للثقافة والنشر، دمشق (2004).

إن إدارة عمليات الملاحقة على يد المهدي بالذات قد تمت بدلالة خاصة مستمدة من شخصية المهدي الذي عرف بشدة الغيرة الدينية، وتجسد طريقة إعدامه صالح وبشار، حقد العباسيين الدموي على المتنورين، أما الرشيد فقد عرف بكثرة سفره إلى مكة لغرض أداء فريضة الحج، ويقال أنه كان يحج سنة ويغزو سنة، وكان مولعاً بالمواعظ فكان يستدعي الواعظين أمثال (أبو العتاهية) ليتلوا عليه من زهدياته حتى يبكيه، ويقول ابن الأثير: (أنه كان يصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا) [1].

ومن بين آخر أعمال الرشيد إعدامه أحد الخارجين عليه في المشرق، ويدعى (بشير بن الليث)، وتبعاً لرواية الطبري في تاريخه، كانت طريقة إعدامه لهذا الرجل تعكس روح العذاب الأخروي ونزعة القريحة التي كانت معمولة في الأزمنة القديمة في تقديم البشر قرابين للآلهة، فقد استدعى الرشيد أحد الجزارين وأمره أن لا يشحذ مديته، ثم أحضروه فأخذ الجزار بقطع أوصاله بمدينة الكليلة حتى فصله 14 قطعة.

يلاحظ مما سبق بوجه عام أن أقل الخلفاء العباسيين تديناً وأبعدهم عن السلفية الدينية كان أقلهم إرهاباً فمثلاً كان المأمون قد مارس القمع بطريقة دنيوية، مقننة بالحفاظ على مصالح دولته، ولم يصدر عنه ما يدل على تعطش للدم أو نزعة غريبة تتلذذ بالتعذيب.

وكان المأمون في عداد الإسلامية المعتزلية، وكان سلوكه بشكل عام يعتبر في عداد جيل التنوير الإسلامي، الذي كان قد بدأ تألقه قبل زمانه بوقت طويل، ولكن رغم كل هذا فإن اعتباره إمبراطوراً طاغية، تأتي من خلال إمكانية السيطرة على بلاد تشكل مساحتها بحدود عشرين مليون كيلومتر مربع، ولا بد له إلا أن يكون كذلك، وإلا لم تستقيم له شؤون إدارة هكذا دولة في ذلك العصر بالذات. وقد دامت فترة حكمه عشرون عاماً.

---

(1) ابن الأثير (الكامل في التاريخ) حوادث 197 هـ، في الكلام عن الرشيد.

أما خلفه المعتصم الذي تابع خلفه المعتزلي فقد عرف بنزعة دموية كانت تقترن في نفس الوقت بعدم تمتعه بعنصر تنوير عقلاني من الطراز الذي عرف به المأمون. وكان المعتصم أقرب إلى السلفية منه إلى المعتزلة. ولم يكن استمراره في الخط المعتزلي إلا على سبيل الوراثة التي تسلمها من المأمون، أما الخليفة المعتضد، فقد تميزت سيرة حياته على دلالات مرضية واضحة، وقد تكون حالته استثنائية من الجذر الديني للتعذيب في الإسلام محكوماً بدوافع دنيوية من النمط المعتاد في تاريخ التعذيب عند الأمم أو الأفراد غير المنتمين لدين ـ أو دين سماوي على الأقل ـ . والمعتضد ظهر في أواخر فترة التغلب التركي على الحكم وكان مدفوعاً بالحرص على استعادة هيبة الخلافة من الأتراك، ويستفاد من وقائع التعذيب التي جربت على يديه أنها كانت موجهه في الأساس إلى أفراد حاشيته أو جيشه أو في الإدارة القريبة من ديوان الخلافه.

ويبدو أنه اتخذ الإرهاب وسيلة للسيطرة على المتغلبين الذين اتبعوا نفس الأسلوب مع أسلافه من الخلفاء المستضعفين، وربما كانت حالته المرضية نتيجة لإتباعه هذا الأسلوب وليست سبباً له.

ومن أهم المصادر التي تدخل في تفاصيل أساليب التعذيب في الإسلام والتي اعتمدناها:

1. (الصواعق المحقرة على أهل البدع والضلال والزندقة)، لابن حجر الهيثمي ـ (القرن العاشر الهجري).
2. (سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد)، لابن عصفور ـ (القرن 12 هـ)، في الرد على شارح نهج البلاغة.

يمكن الرجوع إليها للمزيد من التفاصيل.

10. ثورة الزنج في العراق:

إن جماعة من الزنج جاءوا من إفريقيا الشرقية، كانوا يعملون لمصلحة بعض المتعهدين البصريين في كسح السباخ العظيمة، القائمة قرب البصرة (الملح الذي يمنع الزراعة هناك).

فظهر رجل يدعى علي بن محمد، ينتسب إلى علي وفاطمة من خريق زيد بن علي بن الحسين، ودعا الزنج إلى الخروج على مستثمريهم.

وكان ينادي بالإصلاح في الأحوال الاجتماعية، ووعد الشعب المظلوم والعبيد وعداً فاخماً بتحسين حالهم وضمان الحرية والثورة لهم، وهو ما يصدر في دعوته، وعلى أساس من حقوق أسرته العلوية بل وأكثر من ذلك جاهر بعقيدة الخوارج التي ترفض كل تمييز قومي، والتي بدت سائغة عند أتباعه على الخصوص من الأعاجم وغير العرب. وقد ظهر علي بن محمد سنة (869)، وبعد فترة قليلة استولى على ضواحي البصرة، وسيرت إليه حكومة بغداد جيشاً بعد جيش، فهزمت جميعاً، خاصة وأن المرتزقة من الزنج انحازت عموماً إلى جانبه. وسميت الحركة باسمهم، وكذلك فإن سكان البصرة الذين نذروا أنفسهم لحربه في 23 تشرين أول (869) لم يجدوا خافة على الثبات في وجه شجاعة رجاله الضارية، وسرعان ما قامت على قاعدته الحربية الجديدة هذه التي كان يسهل الدفاع عنها بسبب من تعدد القنوات الصغيرة والمستنقعات القائمة حولها، بلدة جديدة هي المختارة، ولقد استعمل اللبن في بنائها السريع أولاً، ثم جهزت بالغنائم العظيمة التي استولى عليها، وهكذا بسط سلطانه على دجلة من مصبه ثم حمل على خوزستان[1].

---

(1) Th. Noldeke (Aservil war in the east) in Sketches from Eastern Hestoty، J.S. Black، 1892. 146 _ 172.

ولكن بعد تولي الموفق بالله آمراً لجيش الخلافة عام (870) بعد أخاه المعتمد بن المتوكل. سير جيشاً لقتال الزنج عام (871)، ولكنه لم يستطع أن يشتبك معهم في معركة حاسمة على الرغم من بعض الانتصارات الأولية التي تمت له، وكانت قبائل البدو الضاربة في الإقليم المجاور، قد انضمت بدورها إلى صفوف الثائرين. وفي أيلول (871) أوقع صاحب الزنج وأتباعه بالبصرة فنهبوا المدينة الغنية، عملوا السيف في رقاب أهلها، فمات منهم ثلاثمائة ألف على ما تقول أبعد الروايات عن المبالغة وأشعلوا النيران في مبانيها، وكان الموفق نفسه قد خاض المعركة ضد الثائرين في نيسان عام (872) فلم يقدر على شيء. وصادف أن برز من الشرق خطر جديد فاضطر الموفق إلى أن يترك الزنج وشأنهم فترة من الزمن كي يستطيع التفرغ نحو الشرق. وقد دامت سيطرتهم والقرامطة قرابة ثلاثين عاماً.

11. حركة القرامطة :

وفي عهد الخليفة المعتضد الذي خلف أباه الموفق سنة (891) ثم خلف عمه على العرش أصابت البلاد المحيطة بقلب الإمبراخورية هزة جديدة سببتها حركة دينية شعبية سياسية، فقد نشأ القرامطة كفرقة أول ما نشئوا في العراق سنة (890)، في المنطقة المحيطة بمدينة واسط. بعد أن أخمدت ثورة الزنج، فهناك نشأ رجل يدعى حمدان قرمط، مرتكزاً لأتباعه دعاة (دار الهجرة) هذا وكانت الألفة والشراكة في الأموال بين المجموعة أساساً لتجمعهم، وكانوا يقيمون الولائم التي يعتبرها المريدون بولائم المحبة ويتناولون فيها (خعام أهل الجنة) متبعين في ذلك على أغلب الظن مثل إحدى الفرق الصابئة (الغنوستية) الأصيلة في تلك الديار منذ القدم. ومن بين معتقداتهم التي تلاقحت بين المعتقدات القديمة والإسلامية وهي أن عبدان وهو صهر حمدان، قد وضع كتاباً شرح فيه خريق المريد أو الناجي إلى بلاغات الفرقة السبعية (الإسماعيلية).

والغاية من هذه البلاغات السبعة التي رفعت بعد إلى تسعة أن تنتهي بالمريد إلى أن يؤمن عن طريق الدراسة الدقيقة لمعتقده الديني بأن جمال العقيدة الكلي لما ينكشف له بعد، ومن ثم إلى أن يشك في أساسها.

وبذلك يصبح خاضعاً لسلطة الإمام المستتر وممثليه الذين بقيت أشخاصهم مكتومة عنه دوماً.

ويعلم أن كل ما أوحي به سابقاً من تنزيل وشرائع دينية إنما يمثل حجاباً لمعنى باطني لا يدرك إلا بالتأويل.

حتى إذا أعد المريد هذا الإعداد أخيراً بالطاعة العمياء للجماعة ولرؤسائه، وحرر من جميع القيود العقائدية، ومن جميع أغلال القانون في وقت معاً. ثم أن أحد الدعاة الرئيسين وهو (صاحب الناقة) (والآخر وهو صاحب الظهور) اللذين كان من المفروض أن يكونا مستقرين خارج العراق، استبدل بعبدان وهو داعية أعظم نشاطاً منه، ويدعى (زكرويه الدنداني) ووجهه إلى سوريا، فنجح سنة (900) في تحريك الأعراب من بني العليص للانتفاض على الدولة الطولونية[1] التي كانت قد انتهت آنذاك إلى حال من الضعف بعيد جداً.

وعاث القرامطة فساداً في جميع المدن السورية، ولم تسلم من وحشيتهم وتصمد لحصارهم غير دمشق وحدها، وفي سنة (901) توفي خليفتهم (أبي عبد الله محمد الذي زعم أنه من نسل الإمام علي) فقام بالأمر من بعده أخوه عبد الله أحمد (صاحب الخال)، ولكنه لم يلبث أن أسر بعد عامين وقتل في بغداد، وبعد فترة قتل زكرويه أيضاً.

---

(1) الدولة الطولونية: نسبة إلى أحمد بن طولون في مصر وهو مملوك تركي من بخارى، وكان قائداً لحرس الخليفة في عهد المعتصم، وكان قائداً عسكريا بارعاً، استطاع التصدي لهجمات البيزنطيين الشمالية، وأهم أعمالهم تأسيس جامع ابن طولون (المصدر السابق، ص 224).

وكانت حكومة بغداد قد سيطرت على سوريا بعد أن تم سقوط الطولونيين، وأصبح في ميسورها القضاء على القرامطة هناك وفي العراق، ولكنهم وفقوا في الذهاب إلى الإحساء والبحرين والمناخق المحيطة بالخليج، وتمكنوا من إنشاء دولة مستقلة هناك جعلوا عاصمتها (المؤمنيه) بدلاً من (هجر) العاصمة القديمة وتعرف اليوم بمدينة (هفوف) في السعودية.

وحكموا هناك بوصفهم مفوضين من قبل الإمام المستتر، واعتبروا في كثير من الفطنة التقليد الأعرابي القديم، فسمحوا لشيوخ القبائل بأن يشاركوا في اتخاذ القرارات السياسية.

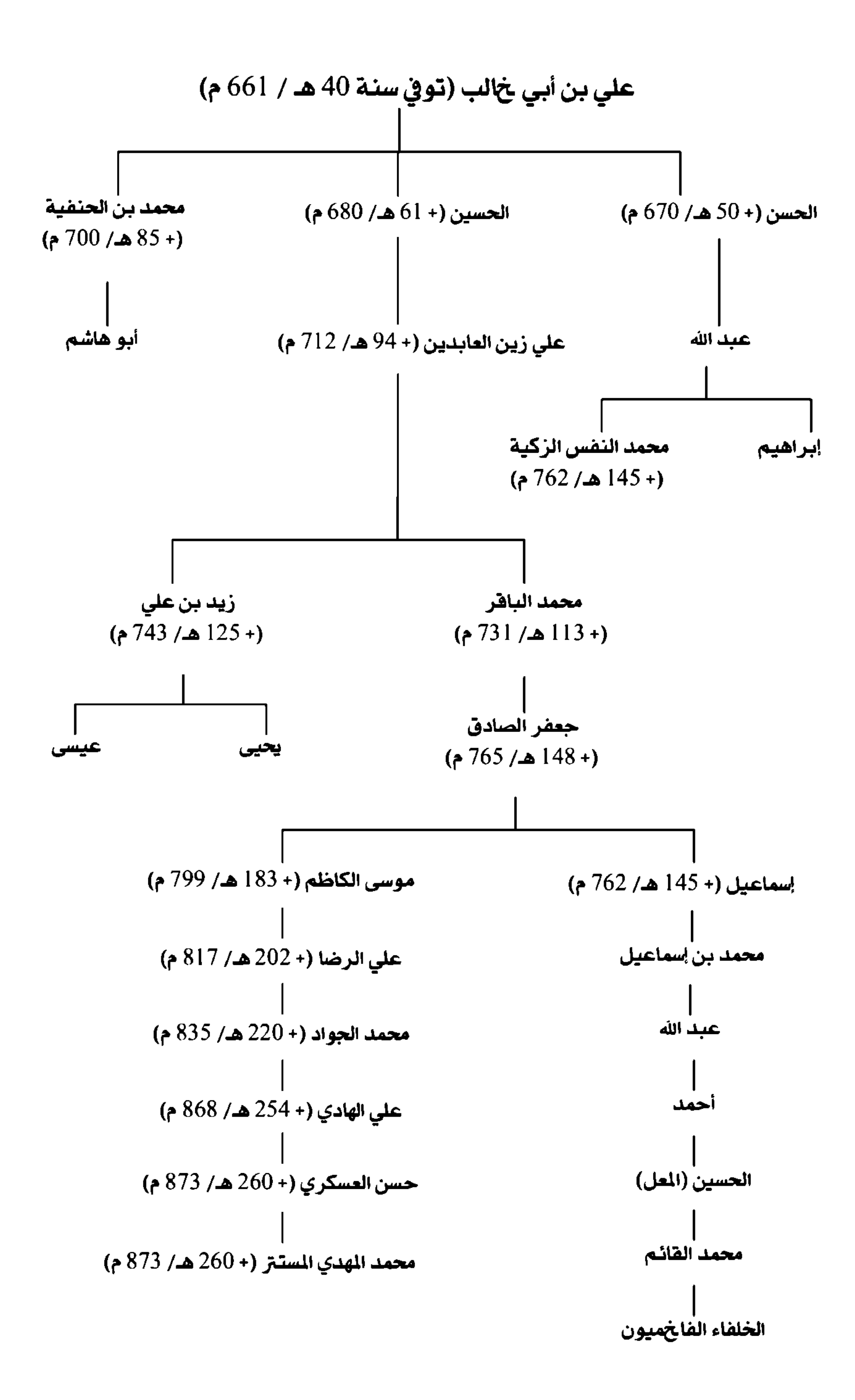
وقد قام (ابن أبي السعيد) وخليفته بالإغارة على العراق أكثر من مرة فسلب ونهب كما أغار على قوافل الحجاج (943 ــ 914) واستولوا سنة (930) على مكة.

لقد استغرقت الحرب على القرامطة في عهد الخليفة المكتفي بن المعتضد (908 ـ 902)، والواقع أن حرب الزنج وغارات القرامطة، عملت على شل حركة التجارة والمواصلات لسنوات متطاولة.

أما ترف الطبقات العليا فلم يكن بعد له من حيث التطرف والتناهي غير بؤس الطبقات الدنيا وفقرها المدقع على الرغم من الاقتصاد الذي اشتهر به الشرقيون آنذاك.

12. ظهور الفرق الإسماعيلية على المسرح السياسي الإسلامي:

لكي نفهم أساليب العنف الناجم عن الإضطاد السلطوي لا بد لنا من استعراض الأساليب التي استخدمت من بعض فرق الإسماعيلية لما لها من أهمية في عصرنا الحاضر، ولا يمكن فهم الإسماعلية إلا بعد معرفة سلالة علي لأن الفرق المختلفة سميت باسماء أبناء صهر الرسول محمد (ﷺ) وأحفاده، وكما في الشكل (4):



علي بن أبي طالب (توفي سنة 40 هـ / 661 م)
الحسن (+ 50 هـ/ 670 م)
الحسين (+ 61 هـ/ 680 م)
محمد بن الحنفية
(+ 85 هـ/ 700 م)
عبد الله
علي زين العابدين (+ 94 هـ/ 712 م)
أبو هاشم
إبراهيم
محمد النفس الزكية
(+ 145 هـ/ 762 م)
محمد الباقر
(+ 113 هـ/ 731 م)
زيد بن علي
(+ 125 هـ/ 743 م)
جعفر الصادق
(+ 148 هـ/ 765 م)
يحيى
عيسى
إسماعيل (+ 145 هـ/ 762 م)
موسى الكاظم (+ 183 هـ/ 799 م)
محمد بن إسماعيل
علي الرضا (+ 202 هـ/ 817 م)
عبد الله
محمد الجواد (+ 220 هـ/ 835 م)
أحمد
علي الهادي (+ 254 هـ/ 868 م)
الحسين (المعل)
حسن العسكري (+ 260 هـ/ 873 م)
محمد القائم
محمد المهدي المستتر (+ 260 هـ/ 873 م)
الخلفاء الفاطميون

لقد وجد الإسماعيلية مراكز وقلاع تحصنوا فيها في كل من سوريا وإيران، ونظراً لترابط المنطقة مع بعضها البعض، وعلاقة الحركات السياسية في المناخق المجاورة للعراق، لا بد لنا من استعراض بعض النشاخات الثورية التي قامت بها تلك الفرق في ذلك العصر، لما لها من دلالات كبيرة في الموروث التاريخي للعنف السياسي السائد في عصرنا الحديث.

ونورد أولاً (أسطورة الفردوس) كما رواها الرحالة الشهير (ماركو بولو)، فقد وصف (قلعة الموت) في شمال غرب إيران التي ظلت خويلاً مقراً للفرقة وكما يلي[1]:

أنهم يسمون شيخ الجبل في لغتهم الودين (علاء الدين) وقد قام بإغلاق وادٍ بين جبلين، وحوله إلى حديقة فيحاء أكبر وأجمل حديقة يمكن أن تقع عليها عين. وملأها بكل أنواع الفواكه، وأقام فيها قصوراً، ومقصورات من أروع ما يمكن تخيله، وجميعها مغطاة برسوم فاتنة ومموهة بالذهب، وجعل فيها جداول تفيض بالخمرو اللبن والعسل والماء، وأقام على خدمة الحديقة فاتنات من أجمل نساء العالم يجدن العزف على مختلف الآلات الموسيقية، ويغنين بأصوات رخيمة، ويؤدين رقصات تخلب الألباب، ذلك لأن شيخ الجبل كان يريد أن يوحي لشعبه بأن هذه هي الجنة الحقيقية، ولذا فقد نظمها بالوصف الذي جاء به القرآن الكريم للفردوس كحديقة جميلة تفيض بأنهار من الخمر واللبن والعسل والماء مليئة بحور العين.

ومن المؤكد أن المسلمين في هذه الجهات يعتقدون أنها الجنة حقاً، ولا يسمح لأحد بدخول هذه الحديقة إلا لهؤلاء الذين يراد لهم أن يكونوا حشاشين (Ashishin) وتوجد قلعة عند مدخل الحديقة تبلغ من القوة والمنعة أنها تستطيع مقاومة كل العالم، وليس هناك خريق آخر للدخول، وهو يحتفظ في بلاخة بشبان من أبناء المنطقة المجاورة

---

(1) برنارد لويس (الحشاشون)، تعريب محمد الغرب موسى، مكتبة مدبولي ط 2، (2006) القاهرة، ص 20.

تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، وهو السن الملائمة للجندية والمغامرة، وتعود أن يقص عليهم قصصاً عن الجنة، وهم يعتقدون فيه ثم يدخلهم حديقته في مجموعات من أربعة أو ستة أو عشرة أفراد كل مرة بعد أن يجعلهم يشربون مخدراً معيناً يسلمهم إلى نعاس عميق، ثم يأمر برفعهم وحملهم إلى هناك، وهكذا فإنهم عندما يستيقظون يجدون أنفسهم في الجنة !!.

وهكذا فإنهم عندما يستيقظون ويجدون أنفسهم في مثل هذا المكان الأخاذ يحسبون أنه الفردوس حقاً، وتغازلهم السيدات والفتيان بما يملأ قلوبهم حبوراً حتى يشبعن كل رغبات هؤلاء الشبان إلى درجة أنهم يتمنون ألا يغادروا هذا المكان أبداً.

والآن هذا الأمير الذي يسمونه الشيخ أقام لنفسه بلاطاً عظيماً رائعاً، وجعل سكان الجبل البسطاء يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه نبي عظيم، وعندما يريد أن يرسل أحد حشاشيه في مهمة فإنه يأمر بإعطاء المخدر الذي تحدثت عنه من قبل إلى أحد الشبان في الحديقة، ثم يحملونه إلى القصر، ولذا فإنه عندما يستيقظ يجد نفسه في القلعة وليس في الفردوس، ثم يؤتى به إلى حضرة الشيخ، فيركع أمامه في احترام بالغ، معتقداً أنه في حضرة نبي حقيقي. وعندما يسأله الأمير من أين جاء ؟ فيجيبه الشاب أنه جاء من الفردوس ! وأنه كما موصوف بالقرآن تماماً وهذا بالطبع يفعم الحاضرين الذين لم يشاهدوا ذلك المكان بأكبر رغبة في الدخول إلى هناك.

ولذا فإنه عندما يريد الشيخ أن يقتل أميراً ما، فإنه يقول لمثل هذا الشاب اذهب واقتل فلاناً أو فلاناً، وعندما تعود سوف أدخلك إلى الفردوس، وإذا مت أرسل ملائكتي لتحملك إلى هناك. وهكذا أجبرهم الشيخ على الاعتقاد، ولذا فإنهم يسارعون على تلبية كل أوامره مهما كانت عسيرة أو قاتلة رغبة منهم في العودة إلى الفردوس.

وهكذا أيضاً بث الرعب في قلوب جميع الأمراء يدفعون له الجزية من أجل أن يمنحهم السلام والمودة، وكذلك فإن الشيخ لديه أشخاص آخرون تحت إمرته ينسخون

أقواله وينصرفون تماماً كما يفعل، وقد أرسل واحداً منهم إلى إقليم دمشق وأرسل آخر إلى إقليم كردستان.

وهكذا تلت قصص أخرى عمقت تأثير الحشاشين السوريين في مخيلة أوروبا، فشاعت قصص عن حدائق الفردوس، ثم انتشرت في أدب التاريخ أو الرحلات إلى الشعر والحكايات والأساخير.

وهكذا اتخذت كلمة (Assassin) في أوربا لتعني (القاتل) وعملته (Assassination) وتعني الاغتيال في الإنكليزية والفرنسية، ولم تعد تستخدم للدلالة على أية علاقة محددة بالطائفة التي ينتمي إليها هذا الاسم في الأصل ويقول سلفستر دي ساسي في كتابه (تاريخ الحشاشين) ما يلي: (إن هذه الجماعة من السفاكين الذين سقط تحت نصال خناجرهم أسياد الدول ظلوا أقوياء، لأنهم ولمدة ثلاثة قرون استطاعوا أن يبنوا الرعب في قلوب الجميع إلى أن سقط وكر الوحوش في يد الخلافة التي كانت منذ البداية هدفاً للتدمير بأيديهم كرمز للسلطة الروحية والزمنية للمسلمين[1].

وأثناء الحكم الطويل للخليفة الثاني المستنصر (1094 ــ 1036) وصلت الإمبراطورية الفاطمية إلى أعلى ذراها ثم تهاوت إلى الانحلال السريع، ولدى وفاته تمزقت الرسالة الإسماعيلية في أكبر انقسام داخلي في تاريخها[2].

وفي بداية الدولة الفاطمية كانت للخليفة سيطرة تامة على كل الشؤون، ولكن منذ وفاة الحاكم بدأ العسكريون يزيدون من قوتهم على حساب المدنيين، بل والخليفة نفسه، والواقع أن النكسات والكوارث والانقلابات في أواسط القرن الحادي عشر، قد زادت من سرعة هذا التطور الذي بلغ أقصاه في عام (1074) عندما قام الخليفة المستنصر

---

(1) برنارد لويس المصدر السابق، ص 29.

(2) برنارد لويس، المصدر السابق، ص 59.

باستدعاء بدر الجمالي حاكم عكا العسكري للحضور إلى مصر بقواته ليأخذ بزمام الأمور، وسرعان ما أصبح بدر الجمالي سيداً للبلاد يحمل الألقاب الثلاثة التي منحها الخليفة له، وهي امير الجيوش وداعي الدعاة والوزير، دلالة على سيطرته على الفروع الثلاثة في مهمات الدولة وهي العسكري والديني والإداري، لكن أصبح يعرف باللقب الأول.

ومنذ ذلك الحين أصبح السيد الحقيقي لمصر هو أمير الجيش الذي يحكم البلاد عن طريق قواته، ثم أصبح وراثياً فخلف بدر الجمالي ابنه ثم حفيده ثم سلسلة من الأتوقراطيين العسكريين الآخرين، وكانت تلك نهاية حزينة لأسر حاكمة تدعي الزعامة الروحية والسياسية لكل العالم الإسلامي وانحطاطاً يناقض بصورة بارزة العقائد والآمال التي تتحلى بها العقيدة الإسماعيلية.

وكان حتماً أن يثير هذا التغيير السخط والمعارضة بين العناصر الأكثر تماسكاً ونضالية من أعضاء الفرقة، ومما زاد في معارضتها لما يجري من الأمور أن تلك الفترة شهدت تجدداً للنشاط بين الإسماعيليين في فارس.

غير أن هذه المعارضة لم تكن بذات بال، وكما لم يترتب على اختفاء بدر الجمالي، وحلول ابنه الأفضل محله عام (1094) أي تغير ذي بال في مجرى الأمور، وعندما توفي الخليفة المستنصر بعد ذلك بشهور واجهت أمير الجيوش الأفضل ضرورة اختيار خليفة له. لم يكن الاختيار صعباً، فمن ناحية كان هناك نزار الابن الأكبر الناضج الذي عينه المستنصر ولياً لعهده وقبله الزعماء الإسماعيليون بهذه الصفة، ومن جهة أخرى كان هناك أخوه الأصغر المستعلي، وهو شاب بدون حلفاء أو مؤيدين، وبالتالي على استعداد لأن يعتمد كلياً على نصيره القوي، ولا شك أن ذلك كان في ذهن أمير الجيوش الأفضل حين دبر زواج ابنته من المستعلي، ولدى وفاة الخليفة المستنصر أعلن الأفضل زوج ابنته خليفة، وفر نزار إلى الإسكندرية، حيث هب في ثورة محلية أحرزت نجاحاً مبدئياً، ولكنه لم يلبث أن هزم وأسر وقتل بعد ذلك.

وباختيار المستعلي خليفة، استبعد جميع أتباع الإسماعيلية في بلاد الإسلام الشرقية، وحتى داخل حدود الدولة الفاطمية التي ظهرت فيها حركات معارضة. وقد رفض الإسماعيليون الشرقيون الاعتراف بالخليفة الجديد وأعلنوا ولائهم لنزار وخطته وقطعوا كل علاقاتهم بالمؤسسة الفاطمية الواهنة في القاهرة، وهكذا تم الانقسام بين الدولة والعناصر الثورية، الذي بدأ ظهوره منذ بداية تكوين الدولة.

وفي عام (1130) اغتيل (الأمير) ابن المستعلي وخليفته بأيدي النزاريين، ورفض أتباعه أن يعترفوا بالخليفة الجديد في القاهرة، وتمت بينهم عقيدة بأن ثمة إبناً طفلاً ضائعاً للأمير، يدعى (الطيب) هو الإمام المخفي والمنتظر، ولن يكون هناك أئمة بعده، وحكم في القاهرة بعد ذلك أربع خلفاء فاطميين ولكنهم لم يعودوا أكثر من أسرة حاكمة مصرية محلية، بدون قوة أو نفوذ أو أمل.

في عام (1171) عندما كان آخر واحد منهم يرقد ميتاً في قصره أمر القائد الكردي صلاح الدين الذي كان في ذلك الوقت السيد الحقيقي لمصر، بالدعاء للخليفة في بغداد على أعواد المنابر، وهكذا أعلن رسمياً إلغاء الخلافة الفاطمية، التي كانت قد ماتت فعلاً كقوة دينية سياسية بين عدم الاكتراث المطلق للجماهير، وجمعت الكتب الإلحادية الإسماعيلية، وأحرقت وعادت مصر بعد أكثر من قرنين إلى حظيرة الجماعة السنية.

ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك إسماعيليون في مصر ولكن الفرقة استمرت في الحياة في بلاد أخرى بفرعيها الرئيسين اللذين انقسمت إليهما بعد وفاة المستنصر، أما أتباع المستعلي فقد ذهبوا إلى اليمن والهند ـ حيث لا يزالون هناك ـ وأصبحوا يسمون (بالبهرة) ويطلق على عقيدتهم أحياناً (الدعوى القديمة)، حيث أنها تسير على التقاليد الرئيسية للفترة الفاطمية، وبينما كان المستعليون يجنحون نحو الركود في المراكز البعيدة عن العالم الإسلامي كان منافسوهم النزارييون، أتباع نزار يدخلون في مرحلة من التطور النشط سواء في العقيدة أو العمل السياسي، ولعبوا لفترة طويلة قادمة دوراً مهماً ومثيراً في الشؤون الإسلامية.

في القرن الحادي عشر انكشف الضعف الداخلي المتزايد في العالم الإسلامي نتيجة تعرضه لسلسلة من الغزوات أهمها تلك التي قام بها الأتراك السلاجقة، حيث أنشأوا إمبراطورية عسكرية جديدة تمتد من أواسط آسيا إلى شواطئ البحر المتوسط، وواكبت هذه الغزوات تغيرات اقتصادية واجتماعية وثقافية مهمة كانت لها آثار عميقة في تاريخ الإسلام، فكما هي العادة بعد الغزوات اقتطعت أراضي شاسعة، ومنحت دخول مالية كبيرة لضباط الجيوش التركية المنتصرة الذين كونوا مع بني جلدتهم من المسؤولين والموظفين الأتراك نخبة حاكمة جديدة حلت محل الأرستقراطية العربية في الأزمنة السابقة، وذهبت القوة والثروة والمناصب إلى رجال كانوا في الحقيقة وافدين غرباء لم تمتصهم المدنية في الشرق الأوسط الإسلامي، وقد ازداد مركز الطبقة الممتازة القديمة ضعفاً نتيجة لعوامل أخرى منها هجرة البدو إلى المدن وتغيير طرق التجارة وبداية التغييرات الكبرى التي أدت إلى نهضة أوروبا والانحلال النسبي للعالم الإسلامي، وفي هذه الأزمنة من الاضطراب والخطر استطاع الأسياد الترك الجدد أن يحافظوا على قدر من القوة والنظام ولكن بثمن مرتفع تمثل في زيادة الإنفاق العسكري، وإحكام القبضة على الحياة العامة والتشدد الفكري.

ولم تعد القوة العسكرية التركية قابلة للاهتزاز، ولم تعد مدارس الفكر السلفي معرضة لتحد خطير، ولكن كانت هناك وسائل أخرى للهجوم، ومرة أخرى قدمت الإسماعيلية في شكلها الجديد نقداً مغرياً للمعتقدات التي تحميها إمبراطورية السلاجقة، وذلك بعد أن انتهجت إستراتيجية ثورية جديدة وفعالة.

لقد فشلت (الدعوة القديمة) للإسماعيلية، وأخذت الدولة الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة وظهرت الحاجة إلى (الدعوة الجديدة) وأسلوب جديد وهما ما قدمها ثوري آخر يدعى (حسن الصباح)، ولأهمية هذا الشخص لا بد من توضيح أعماله.

1ـ 12 حسن الصباح والدعوة الجديدة للإسماعيلية :

ولد حسن الصباح في مدينة قم، وهي إحدى المراكز الأولى التي استوطنها العرب في إيران. وكانت معقلاً قوياً للشيعة الأثنى عشرية منذ أن دفنت فيها فاطمة الملقبة (معصومة) ابنه موسى أبن جعفر (الإمام السابع) بعد وفاتها أثناء رحلة قامت بها لزيارة أخيها علي موسى الرضى في خراسان أيام الخليفة المأمون.

كان والد حسن الصباح من الكوفة، ويقال أنه من أصل يمني [1]، وكانت ولادة حسن في أواسط القرن الحادي عشر، وعندما كان طفلاً انتقل الأب بأسرته إلى مدينة (الري) ـ بالقرب من مدينة طهران الحديثة ـ وهناك تلقى تعليمه الديني، وكانت الري مركزاً لنشاط الدعاة الإسماعيليين منذ القرن التاسع، وكان تلميذاً لشخصية إسماعيلية معروفة اسمه (عميره زاراب)، وكذلك (عبد الملك بن عطاش) كبير دعاة الإسماعيلية في غرب إيران والعراق، ثم غادر الري عام (1076) وذهب إلى أصفهان ومنها سافر شمالاً إلى أذربيجان ثم إلى ميافارقين، حيث طرد من المدينة بواسطة القاضي، لأنه أي حسن أصر على أن الإمام وحده له الحق في تفسير الدين، نافياً بذلك سلطة علماء السنة، فواصل رحلته عبر العراق وسوريا حتى وصل دمشق ثم إلى مصر ووصل القاهرة في (1078) ومكث فيها ثلاث سنوات، ثم أبعد من مصر إلى شمال إفريقيا ولكن السفينة الإفرنجية التي كان مسافراً بها تحطمت وأنقذ، وحمل إلى سوريا وهناك سافر إلى حلب ووصل إلى أصفهان في (1081) وراح خلال السنوات التسع التالية يسافر في اتساع في بلاد الفرس ناشراً الدعوة الإسماعيلية، ومن وسط إيران عاد إلى أصفهان ثم اتجه جنوباً ليقضي ثلاثة أشهر في خوزستان[2]. بعدها أخذ يركز انتباهه على أقصى الشمال الفارسي على أقاليم الخزر كجيلان ومازندران وبالتحديد على الهضبة المعروفة بإقليم الديلم.

---

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص67.

(2) حسن الصباح (شذرات قصة حياتي).

وتقع هذه الأقاليم إلى شمال سلسلة جبال تحيط بالهضبة الإيرانية الكبرى. وكان يسكن تلك الأقاليم أناس شجعان محبين للقتال مستقلون عن بقية العالم حتى أن حكام إيران لم يستطيعوا إخضاعهم على نحو فعال. ولم يستطع حتى الحجاج بن يوسف الثقفي أن يدخل تلك المناطق بعد أن استعان بخريطة عن الممرات الجبلية، ولذلك لم ينتشر الإسلام في الديلم بالفتح العسكري ولكن بمرور الزمن، انتشر بالتغلغل السلمي كما هو الحال بالنسبة لإقليم كردستان الجبلي.

كان الديلم من آخر الخاضعين للإسلام في المنطقة. ومن أول من أكدوا ذاتيتهم فيه، سياسياً بقيام سلسلة من الأسر الحاكمة المستقلة، ودينياً باتخاذهم عقائد غير سلفية. ومنذ نهاية القرن الثامن عندما لجأ أعضاء من العلويين الهاربين من الاضطهاد الشيعي، واستطاع الديلميون أن يدافعوا عن استقلالهم بغيرة فائقة ضد خلفاء بغداد وغيرهم من الحكام السنة.

وأثناء حكم بني بويه نجح الديلميون في فرض سيطرتهم على معظم بلاد فارس والعراق، بل وأصبحوا لفترة أوصياء على خلفاء بغداد أنفسهم حتى وضع مقدم السلاجقة نهاية للحكم الديلمي والشيعي في الإمبراطورية الإسلامية وبدأ يضغط بشدة على الديلميون أنفسهم.

لقد لجأ حسن الصباح بين هؤلاء الأقوام الشماليين ــ ومعظمهم من الشيعة ــ ومتأثرون بالدعوة الإسماعيلية، وكانت لدعوته النضالية جاذبية كبيرة بين سكان جبال الديلم ومازندران المتمردين والمحبين للقتال، وكان حسن الصباح يتفادى المدن ويشق طريقه عبر الصحارى من خوزستان إلى شرق مازنداران.

وأخيراً استقر في دمغان حيث بقي ثلاثة سنوات، وقد أخذ يتنقل بين سكان الجبال لنشر دعوته، وسرعان ما لفت نشاطه انتباه، الوزير نظام الملك الذي أمر

السلطات في الري باعتقاله، ولكنها لم تنجح وسافر إلى قزوين التي كانت أنسب قاعدة لحملته في بلاد الديلم.

2ـ 12 (قلعة الموت) (Alamot):

وقع اختيار حسن الصباح على قلعة (الموت)، وهي حصن مقام فوق خنف ضيق على قمة صخرة في قلب جبال البورج (Al ـــ Borg)، وسيطر على واد مغلق صالح للزراعة وبارتفاع أكثر من (6000) قدم فوق سطح البحر.

وقد أصبح حسن الصباح سيداً (لقلعة الموت)، ولم يغادرها حتى وفاته بعد خمسة وثلاثون عاماً، وقد كانت المناخق الجبلية هذه ذات ميزة واضحة بالنسبة للتوسع الإسماعيلي، وكانت هناك مناخق أخرى مماثلة تقع في الجنوب الغربي من إيران في المنطقة بين خوزستان وفارس، حيث توافرت الشروط اللازمة للنجاح من بلاد منيعة وسكان قلقون ساخطون وتراث محلي قوي موالٍ للشيعة والإسماعيلية. وقد كان الزعيم الإسماعيلي في تلك المنطقة يدعى (أبو حمزة) وهو إسكافي من عرجان، كان قد ذهب إلى مصر، وعاد داعياً فاخمياً واستولى على قلعتين تبعدان عدة أميال عن عرجان استخدمها كقاعدة لمزيد من النشاط.

3ـ 12 العنف الإسماعيلي:

1. الحادث الأول أن مجموعة من ثمانية عشر إسماعيلياً أعتقلوا بأمر من آمر الشرخة لاشتراكهم معاً في صلوات خاصة، وكان هذا هو لقاءهم الأول، وقد سمح لهم بالانصراف بعد استجوابهم، ولكنهم حاولوا تجنيد مؤذن من سافا كان يعيش في أصفهان ولما رفض الرجل الاستجابة لندائهم خشوا أن يفشي بهم للسلطات فقتلوه.

يقول المؤرخ العربي ابن الأثير (أنه عندما بلغت أنباء الاغتيال الوزير نظام الملك، أعطى أوامره بإعدام زعيم الجماعة وهو نجار يدعى خاهر وكان ابن واعظ

تقلد عدة مناصب دينية قتله بعض الرعاع في تركمان بشبهة أنه إسماعيلي، وقد أعدم خاهر وجعل عبرة وأمثولة وسحلت جثته في ساحة السوق).

2. في عام (1092) قام السلاجقة بأولى محاولاتهم لمواجهة الخطر الإسماعيلي بالقوة العسكرية، فأرسل السلطان ملكشاه حملتين عسكريتين إحداهما ضد قلعة (الموت)، والأخرى ضد كوهستان. وقد أمكن صد الحملتين بمساعدة مؤيدي الإسماعيليين والمتعاخفين معهم من سكان رودبار وقزوين، ويروي المؤرخ الجويني (إن السلطان ملكشاة بعث في البداية أميراً يدعى أرسلان تاش، ونزل هذا الأمير بعسكره أمام (الموت) في نفس السنة، ولم يكن لحسن الصباح في (الموت) أكثر من ستين أو سبعين رجلاً وكان لديهم مؤن قليلة.

وقد عاشوا على القليل مما لديهم واستمروا في المعركة ضد محاصريهم إلى أن أقبل رجل يدعى (بو علي) الذي أرسل بدوره 300 رجل، وأسلحة ومعدات لمساعدة حسن الصباح وقاموا بمساعدة حامية (الموت)، وبتأييد من بعض سكان رودبار الذين كانوا متحالفين معهم خارج القلعة شنوا هجوماً مفاجئاً على جيش أرسلان تاش، وبتوفيق العناية الإلهية استطاعوا دحر الجيش فرحل عن (الموت)، وعاد إلى ملكشاه، ثم رفع الحصار عن المركز الإسماعيلي في كوهستان، عندما وصلت الأخبار بوفاة السلطان في تشرين ثاني (1092).

وهكذا أحرز الإسماعيليون أول نصر كبير لهم في الفن الذي صار ينسب إليهم، وهو فن الاغتيال السياسي، وكانت ضحيتهم المختارة الوزير نظام الملك نفسه، الذي أدت جهوده في بذر بذور الشقاق، ونشر جراثيم التعطيل بينهم، إلى جعله أخطر عدو لهم[1].

---

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص79.

وقد دبر حسن الصباح الاغتيال بعناية، ويقول المؤرخ رشيد الدين* : (إن سيدنا نصب الشباك والفخاخ من أجل أن يعد أول كل شيء هدفاً كبيراً كنظام الملك، ويجعله يسقط في شباك الهلاك والموت، وبهذه الأعمال ذاع صيته وعمت شهرته وأرسى أسس الفدائية، وقال: (من منكم يخلص هذه الدولة من شرور نظام الملك الطوسي ؟) فوضع رجل اسمه (بو طالب أراني) يده على صدره علامة الموافقة، وفي منطقة ساهنا من إقليم نهاوند تقدم الرجل وهو متخف في ثياب الصوفيين، إلى محفة نظام الملك الذي كان محمولاً من الساحة العامة إلى خيام حريمة وطعنه بسكين، وبذلك كان نظام الملك أول من قتله الفدائيون وقال: (مولانا ــ عليه ما يستحق ــ أن قتل هذا الشيطان هو بداية البركة).

وكانت تلك بداية سلسلة طويلة من الهجمات المماثلة، أدت في خلق رعب محسوبة إلى إنزال الموت المفاجئ بملوك وأمراء وقادة جيوش وحكام بل ورجال دين ممن أدانوا نظريات الإسماعيلية وأفتوا بقمع من يقول بها، إذ يقول أحد هؤلاء الخصوم الأتقياء (إن قتلهم أحلى من ماء المطر ومن واجب السلاطين والملوك أن يهزموهم ويقتلوهم وينظفوا وجه الأرض من دنسهم، ولا يجوز الاتصال معهم في زواج، وأن سفك دم ملحد منهم أكبر جزاءاً من قتل سبعين من كفار الروم).

كان الحشاشون يبدون في عيون ضحاياهم مجرمين متعصبين ضالعين في مؤامرة شيطانية ضد الدين والمجتمع، أما رفاقهم الإسماعيليون فكانوا ينظرون إليهم باعتبارهم (قوة نخبة) في الحرب ضد أعداء الإمام، وأنهم بقتلهم للطغاة والمغتصبين

---

* رشيد الدين: صاحب كتاب (جامع التواريخ) واحد من أشهر الكتب التاريخية عن تلك الفترة وهو رشيد الدين فضل الله من مدينة همدان الإيرانية. ولا يزال كتابه من المخطوطات النادرة غير منشورة ويصعب تداولها.

يعطون دليلاً ناصعاً على إيمانهم وولائهم ويحصلون على البركة الخالدة العاجلة، وقد استخدم الإسماعيليون أنفسهم تعبير (الفدائي) لوصف القاتل منهم، وحفظ لنا الزمن قصيدة إسماعيلية ممتعة تمتدح شجاعتهم وإخلاصهم وتضحياتهم، كما حفظت سجلات (الموت) المحلية التي استشهد بها رشيد الدين وكاشاني في قائمة شرف للاغتيالات، تسجل بها أسماء الضحايا وأسماء المؤمنين الثقاة الذين قاموا باغتيالهم.

4ـ 12 نظام الفرقة :

كانت الحركة الإسماعيلية من حيث الشكل جمعية سرية لها نظامها الخاص وقسمها وشعائرها، ولها درجات من الوظائف والمعرفة، وكانت أسرارها تحفظ جيداً فلا يعرف منها سوى شظايا متناثرة مضطربة، وقد كان الكتاب الإسماعيليون ينظرون إلى فرقتهم باعتبارها حفيظة على أسرار مقدسة وشعائر تقدمية لا يمكن للمؤمن بالعقيدة أن يطلع عليها، إلا بعد برنامج طويل من الإعداد والإرشاد. وكان التعبير الشائع الذي يطلق على تنظيم الفرقة هو (الدعوة) والقائمون بها هم (الدعاة) الذين يماثلون القسس المعينين، وفي المراحل المتأخرة انقسموا إلى مراتب عليا ودنيا مختلفة من المبشرين والمعلمين والمجازين، ثم المستجيبون وهو الطبقة الدنيا من أعضاء الفرقة وفوقهم يوجد الحجة وهو الداعية الأكبر، وكانت كلمة (الجزيرة) تستخدم لتدل على الاختصاص الإقليمي العرقي الذي يرأسه الداعي، وكان الإسماعيليون ــ كغيرهم من الفرق والطوائف الإسلامية ــ يسمون زعماءهم الدينيون بالشيوخ وكان الاسم الشائع لعضو الفرقة (الرفيق) ويتخاطب الأعضاء فيما بينهم كرفاق.

5ـ 12 الإسماعيليون في سوريا :

فيما كان حسن الصباح ما زال يحكم (بقلعة الموت) وكانت كلماته وأسلحته تحمل رسالته إلى سكان إيران وأمرائها، قامت ثلة صغيرة من أتباعه برحلة طويلة خطرة عبر

أراضي العدو نحو الغرب، وكانت سوريا هي وجهتهم وكان غرضهم نقل (الدعوة الجديدة) إلى الإسماعيليين القدامى في تلك البلاد وإمداد الحرب ضد السلطة السلجوقية التي أصبحت تفرض ظلها على كل المنطقة من آسيا الصغرى إلى حدود مصر، ولكن كان يوجد في العراق عدد من المتعاطفين مع الإسماعيليين، إلا أن طبيعة الوديان النهرية المسطحة لم تكن لتتيح سوى مجال ضئيل للاستراتيجية الإسماعيلية القائمة على التغلغل والتحصن والهجوم. أما سوريا فكانت شيئاً آخر إذ تمتد فيما بين جبال طوروس شمالاً وصحراء سيناء جنوباً أرض شاسعة تتخللها الجبال والوديان والصحاري التي تؤوي سكاناً يتباينون فيما بينهم تبايناً شاسعاً ولديهم نزعة محلية قوية للاستقلال. وخلافاً للمجتمعات النهرية المجاورة في العراق ومصر لم تعرف سوريا الوحدة السياسية إلا نادراً، كان نظامها السائد يقوم على التشذر الطائفي والإقليمي والصراع المتواصل والتغيير.

وبالرغم من أن السوريين كانوا يتحدثون العربية كلسان سائد إلا أنهم منقسمين إلى العديد من العقائد والفرق وبعضها ذات نزعة شيعية متطرفة، والواقع أن أول داعية شيعي ظهر في سوريا كان في القرن الثامن الميلادي، ومع انتهاء القرن التاسع وابتداء القرن العاشر كان باستطاعة الأئمة الإسماعيليين المختبئين أن يعتمدوا على تأييد محلي كاف ليجعلوا من سوريا مركزاً لمقرهم السري، ومسرحاً لأول محاولة يبتذلونها للوصول إلى السلطة وبعد إنشاء الخلافة الفاطمية في مصر وامتدادها إلى آسيا دخلت سوريا تحت حكم إسماعيلي متقطع في أواخر القرن العاشر، وخلال القرن الحادي عشر وفتحت البلاد أمام الدعاة الإسماعيليين وتعاليمهم[1].

لقد أدى دخول السلاجقة في سوريا إلى استجلاب كثير من مشاكل التغيير الاجتماعي والتوترات المألوفة في الشرق، كما أن صدمة الغزو اللاتيني الصليبي ضاعفت من هموم السوريين وشعورهم بالإحباط وجعلهم أكثر استعداداً للترحيب بحملة رسالة

---

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص 145.

تبشر بالأمل، لا سيما هؤلاء الذين أعدتهم معتقداتهم القائمة لقبول مثل هذه الرسالة، وكان الفاطميون في القاهرة لا يزال لهم أنصار في سوريا يعتنقون (الدعوة القديمة) للإسماعيليين، ولكن الضعف المخزي للنظام القائم في القاهرة وفشله في مقاومة الخطر التركي والغزو الصليبي على السواء دفع الكثيرين من أنصاره في سوريا إلى تحويل ولائهم إلى الفرع الإسماعيلي الآخر الذي كان أكثر نشاطاً وأكثر ميلاً إلى الجهاد وبالتالي بدا أكثر قدرة على النجاح.

حقاً لقد حافظ بعض الشيعة ومعظم السنة على ولاءاتهم القديمة، ولكن كان هناك الكثيرون ممن التفوا حول القوة الجديدة التي بدا أنها وحدها القادرة على تهيئة التصدي الفعال للغزاة القادمين من الخارج والحكام القابعين في الداخل.

6ـ 12 الإرهاب الإسماعيلي في سوريا :

قبل الختام لا بد لنا من إلقاء ضوء عما كان يجري من أعمال عنف في سوريا نظراً لأهمية تأثير الإسماعيليين في تلك المنطقة.

تبدأ القصة الأولى باغتيال مثير لجناح الدولة حاكم حمص في المسجد بالمدينة أثناء صلاة الجمعة، وكان قتلته فارسيين متخفيين في زي الصوفية وقد هاجموه لدى إشارة من شيخ كان يصحبهم وقام عراك دامٍ قتل فيه عدد من حراس جناح الدولة وقاتله ومما له دلالة خاصة أن معظم الأتراك في حمص فروا إلى دمشق عقب الحادث.

كما شن الإسماعيليون أول هجوم لهم في سوريا ضد أفاميا (Afamiya) في عام (1106) وكان حاكم هذه المدينة يدعى (خلف بن ملاعب) وهو شيعي وربما كان من أنصار الإسماعيلية في القاهرة.

وفي عام (1096) استولى على أفاميا من رضوان الحاكم السلجوقي لحلب، واستغل موقع المكان في استخدامه كقاعدة لحملات ناجحة واسعة النطاق لقطع الطريق. وقرر

الإسماعيليون أن أفاميا تخدم أغراضهم جيداً، ودبر أبو طاهر (زعيم الحشاشين)، خطة لقتل خلف والاستيلاء على قلعته، واشترك في المؤامرة بعض سكان أفاميا وكانوا من الإسماعيليين المحليين، وزعيمهم يدعى (أبو الفتح) وهو قاضي من سارمين (Sarmin) المجاورة، وقدمت مجموعة تضم ستة حشاشين من حلب، لتنفيذ الهجوم فاستولوا على حصان وبغل وتجهيزات تباعة للأفرنج بما فيها درع وسلاح وتقدموا بها من حلب إلى أفاميا، وقالوا لخلف: (لقد جئنا إلى هنا لندخل في خدمتك، وعثرنا بفارس من الإفرنج وقتلناه وجئنا لك بحصانه وبغله وتجهيزاته). فرحب بهم خلف ترحيباً كبيراً، وسمح لهم بالإقامة في قلعة أفاميا بمنزل ملاصق للسور، واستطاعوا أن يثقبوا ثغره في السور نفذ خلالها أنصارهم في أفاميا وقتلوا (خلف) واستولوا على الحصن).

حدث ذلك في (1106) ولم يلبث أن وصل (أبو طاهر) بنفسه من حلب لتولي القيادة، ولكن الهجوم على أفاميا لم ينجح بالرغم من بدايته فإن (تانكريد) (Tancred) الأمير الصليبي في أنطاكية المجاورة استغل الفرصة لمهاجمة أفاميا، وحاصر المدينة وأرغمها على الاستسلام وأسر (أبا الفتح السارميني) وعذبه حتى القتل وأخذ (أبا طاهر وزملائه كسجناء، ثم سمح لهم بافتداء أنفسهم والعودة إلى حلب.

كان هذا أول صدام بين الحشاشين والصليبين، إلا أنه لم يؤد إلى تحويل انتباه الحشاشين عن الأهداف الإسلامية إلى الأهداف المسيحية بل ظل صراعهم الرئيسي موجهاً ضد رؤساء الإسلام، وكان هدفهم المباشر الاستيلاء على قاعدة مهما يكن أصحابها، وكان غرضهم الأكبر ضرب السلطة السلجوقية أينما ظهرت.

وفي عام (1113)، أحرز الإسماعيليون أكثر ضرباتهم طموحاً حتى ذلك الحين بقتلهم الأمير مودود في دمشق، هذا الأمير السلجوقي حاكم الموصل الذي جاء على رأس بعثة عسكرية من الشرق إلى سوريا، بحجة مساعدة المسلمين السوريين في حربهم ضد الصليبيين، ولكن الحشاشين رأو في هذه البعثة خطراً واضحاً عليهم، ولم يكونوا وحدهم

في مخاوفهم تلك، فعندما وصل مودود وقواته إلى حلب عام (1111)، أغلق رضوان أبواب المدينة في وجههم وجمع الحشاشين حوله لمساعدته، وقد حدثت عام (1111)، محاولة أخرى فاشلة لاغتيال ثري فارسي مقيم بالمدينة ومن خصوم الإسماعيليين الأقوياء، وأدت إلى انفجار حملة سخط شعبي عليهم، والواقع أنه بعد وفاة رضوان اتضح خطر الحشاشين على نفوذ السلاجقة في الشرق عام (1113)، حيث خلفه ابنه ألب أرسلان (Alp Arsalan) الذي اتبع أول الأمر سياسة أبيه، وتنازل للإسماعيليين عن حصن على الطريق إلى بغداد، ولكن لم يلبث أن حدث رد فعل، فقد وصل خطاب من السلطان السلجوقي محمد إلب أرسلان، يحذره فيه من خطر الإسماعيليين ويحثه على تدميرهم.

وقام ابن البديع زعيم سكان المدينة وقائد حرسها الوخني بالتقاط المبادرة، وحث الحاكم على اتخاذ تدابير عنيفة ضدهم، (فاعتقل أبو طاهر وقتله، كما قتل إسماعيل الداعي وأخ الحكيم المنجم وزعماء هذه الطائفة في حلب واعتقل حوالي (200) منهم، وسجن بعضهم واستولى على ممتلكاتهم، وقد سمح فيما بعد بإطلاق سراح البعض بينما ألقى بالآخرين من سطح القلعة فقتلوا، وتمكن البعض من الهرب والتفرق في أنحاء البلاد).

ولكن الإسماعيليون استطاعوا أن يحتفظوا لأنفسهم بموضع قدم، وفي عام (1119) ثم طرد عدوهم (ابن البديع) من المدينة وهرب إلى ماردين، وكان الحشاشون في انتظاره، وهو يعبر الفرات فقتلوه هو وابنه، وفي العام التالي طلبوا من حاكم حلب أن يمنحهم إحدى القلاع، ولكن الحاكم كان غير راغب في ذلك ولجأ إلى الحيلة بأن دمر القلعة بسرعة متظاهراً بأن أوامر سابقة صدرت له بذلك، وقد اغتيل القائد الذي أشرف على تدمير القلعة بعد ذلك بعدة سنوات. ولكن نهاية نفوذ الإسماعيليين في حلب جاءت عام (1124)، عندما اغتيل الحاكم للمدينة العميل الإسماعيلي المحلي لكبير الدعاة، وطرد أنصاره الذين باعوا ممتلكاتهم ورحلوا.

كان يرأس الإسماعيليون في حلب في ذلك الوقت عميلاً محلياً وليس كبير الدعاة نفسه، وبعد إعدام أبو طاهر نقل خليفته (بهرام) مركز النشاط السياسي للفرقة إلى الجنوب، وسرعان ما بدأ يلعب دوراً نشطاً في دمشق، وكان بهرام كأسلافه فارسياً وهو ابن أخ الأسترابادي الذي أعدم في بغداد عام (1101)، وقد ظل لفترة من الوقت يعيش متخفياً في سرية تامة مخفياً شخصيته باستمرار مما كان يمكنه من الانتقال من مدينة إلى مدينة، ومن قلعة إلى قلعة دون أن يعرفه أحد، ويحكي المؤرخ كمال الدين ابن النديم فيقول: (إن كل الذين هاجموه قتلوا فيما عدا شاب واحد جاء من (كفر ناصح) من إقليم أزاز (شمال حلب)، وقد استطاع أن يهرب دون أن يصاب بأذى، وكانت له أم مسنة عندما سمعت بأن البرزقي قد قتل، وأن ابنها من بين قتلته ابتهجت وكحل عينيها وامتلأت سروراً، وبعد أيام عاد ابنها سليماً فحزنت ومزقت شعرها وسودت وجهها).

وفي عام (1126) قامت عصابات من الإسماعيلية من حمص ومن كل مكان بالاشتراك مع قوات (توتيجين) (الحاكم التركي لدمشق) في هجوم فاشل ضد الصليبين، وقرابة انتهاء العام ظهر بهرام علناً في دمشق، ومعه خطاب توصية من (الغازي) حاكم حلب الجديد، حسب المؤرخ الدمشقي (ابن القلانيسي)، وكان أول طلب له بعد استقباله في دمشق هو الحصول على قلعة، وقد منحه (توتيجين) (قلعة بانياس) على الحدود مع مملكة القدس الصليبية، كما حصل الإسماعيليون على بناية في دمشق أسموها القصر (وبيت الدعوة) واتخذوها مقراً لهم.

ولم يكن الحاكم التركي (توتيجين) محباً للإسماعيليين ولكن يتماشى معهم لأسباب تكتيكية حتى يحين الوقت كي يوجه إليهم ضربة حاسمة، أما المؤرخون الآخرون فإنهم يلقون بالمسؤولية الأساسية على الحاكم ويعززون ما فعل إلى تأثير (الغازي) الذي أنشأ معه بهرام علاقات حميمة عندما كان لا يزال في حلب.

وفي خلال تلك الفترة كان الحشاشون يكافحون عدواً آخر إلى جانب الترك، ففي نظرهم كانت الخلافة الفاطمية التي لا تزال تحكم في القاهرة غاصبة، ومن الواجب المقدس العمل على طردهم، وإنشاء إمامة من خط نزار محلها وخلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، نشبت في القاهرة أكثر من ثورة موالية للنزاريين وأمكن إخمادها، وبذل الحاكم في القاهرة اهتماماً كبيراً في مواجهة دعاية النزاريين بين المواطنين، وأصدر الخليفة (الأمير) مرسوماً خاصاً دافع فيه عن حقوق خطه الخاص في الخلافة ورفض دعاوي النزاريين.

وفي عام (1121) أغتيل (الأفضل) قائد الجيوش في مصر، والرجل المسؤول بصفة أولية عن خلع الخط النزاري، وقد سبق أن ذكرنا عن أسلوب اغتيال هذا القائد في فقرة سابقة.

وقد عرفت حالتان حدثت فيهما اشتباك بين قوات الحشاشين، والجيوش الصليبية كانت في حلب وقلعة بانياس، وفي السنوات العشرين التالية حدثت المرحلة الثالثة والناجحة، والتي استطاع فيها الحشاشون الحصول على قواعد قلاعية لهم في سوريا، وكانت في جبل البهرة إلى الجنوب الغربي من موقع محاولتهم الأولى في جبل السماق، وقد تمكنوا من ذلك بعد محاولة فاشلة قام بها الأفرنج للسيطرة على المنطقة.

ففي عام (1132) باع السيد (المسلم) في منطقة الكهف (قلعة قد موس Qadmus) الجبلية للحشاشين، وكان قد استعادها من أيدي الإفرنج في العام السابق، وبعد سنوات قليلة تنازل ابنه لهم عن منطقة الكهف كلها في سياق صراع مع أبناء عمومته على التملك، وفي عام (1137 ــ 1136) طردت حامية للإفرنج في الخوربية (Khariba) بواسطة جماعة من الحشاشين تمكنوا من إعادة سيطرتهم بعد أن طردوا مؤقتاً بواسطة حاكم حماه. أما مصيف (Masyaf) فقد استولوا عليها عام (1141 ــ 1140) من حاكم عينة عليها بنو منقذ الذين اشتروا القلعة عام (1128 ــ 1127)، وهكذا استطاع

الحشاشون الحصول على العديد من القلاع[1]، كانوا يحتمون بها إلى أن جاء المغول واحتلوا كل تلك القلاع وتم القضاء على الحشاشين في إيران قضاءاً تماماً. أما في سوريا فلا يزال قسم كبير ينتمون إلى الإسماعيلية دليلاً على جذورهم التاريخية المتبقية منذ ذلك التاريخ. وكما سيأتي ذكره في الفصل الثالث.

13. الحركة الفكرية وظهور المذاهب والفلسفات في عصر الإسلام الذهبي (العباسي):

لا بد لنا من البحث في الحياة الفكرية للناس في ذلك العصر وما كان يدور في أذهانهم من أفكار وفلسفات كنتاج للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة ولأهمية الموضوع على واقع حياتنا الحالية سوف نتطرق بشيء من التفاصيل عن ذلك.

لقد تميز هذا العصر بظهور المذاهب، وكانت أهم الفرق الإسلامية في البداية:

1. فرقة الخوارج ــ دعاة الجمهور.
2. فرقة الشيعة ــ ترى أن الإمامة من حق أسرة النبوة.
3. فرقة المرجئة ــ يغلب عليها الجانب السياسي.
4. فرقة القدرية أو المعتزلة ــ يغلب عليها الجانب الديني والفكر الفلسفي.

الصرف أكثرمن أي شيء آخر.

والمرجئة ــ كلمة مشتقة من الماد ة (أرجأ) بمعنى (أخر)، ويسمى القوم بالمرجئة. لاعتقادهم أن المسلم تؤجل عقوبته إلى يوم القيامة. وأن كل مؤمن ــ مهما بلغت درجة معصيته ــ يجب أن يكون ملعونا (كافرا) [2]، وكانت هذه الفرقة الإسلامية في الأصل ــ

---

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص 158.

(2) لين، (English Lexicon، Arabic،Lane) الكتاب الأول، المصدر السابق، ص 1033.

على خلاف الشيعة والخوارج ـ تقر الخلافة لبني أمية، أما من جهة الأصول العقائدية فإنها تتفق اتفاقاً تاماً مع أهل السنة والجماعة، وكان أفرادها يسعون جاهدين كما يقول فون كرمر إلى تلطيف الجوانب الموحشة وتخفيفها إلى أقصى حد. وكانوا يرون أن أي مؤمن لن يخلد في جهنم إلى الأبد [1]. وكانوا يقدمون الإيمان على العمل.

ولعلهم في ذلك يسايرون البلاط الأموي الذي لم يكن يتفق مع روح أي شيعي أو خارجي على الإخلاق، ويمكن وصفهم بأنهم مسايرون لعصرهم وأبناء وقتهم، ويعرف أن أبا حنيفة مؤسس أحد مذاهب السنة الأربعة قد خرج من بين صفوف هذه الفرقة[2].

وكانت فرقة القدرية أو المعتزلة تفوق سابقتها أهمية إلى حد كبير، وكانت تنادي بحرية الإرادة وتساند طريقة التفويض والاختيار، ويقول شتاينر في حقهم[3]: (وأفضل ما نصف به المعتزلة أن نقول أن ظهور هذا اللون من الفكر يعد بمثابة اعتراض دائم وجهة الفعل البشري السليم ضد الأحكام الظالمة والأوامر المقررة المقننة).

وكان المعتزلة يرون في أنفسهم أهل العدل والتوحيد أو أنصار العدل الإلهي والتوحيد، وكانوا يقولون أن الجانب الأزلي ـ وفقاً لأهل السنة ـ هو تحديد الله لمصير كل شخص مسبقاً، وهو سبحانه يعاقب على الآثام التي قد فرضها جبراً على البشر، وليس للبشر قدرة على مواجهة التقدير والمصير.

ويرى القدرية أن هذا اللون من الفكر مخالف للعدل الإلهي، كما أن أهل السنة يرون أن القرآن ـ شأنه شأن الحق الواحد ـ أزلي أبدي، ويرون أن صفات الحق منفصلة عن

---

(1) فون كرمر (تاريخ عقائد الإسلام المهمة الشائعة)، ص 25.

(2) فون كرمر، المصدر السابق، ص 6.

(3) شتاينر (حول المعتزلة)، ص 4.

ذات الحق أو هي قابلة للانفصال، لهذا فإنهم (مشركون) (بحسب رأي القدرية واعتقادهم باستحالة وجود شيء قبل الخلق الأولي سوى الله الواحد الحق).

لقد ظهر الطور الأول من الاعتزال في أواسط العصر الأموي، عندما اعتزل واصل بن عطاء في الإجابة الواضحة عن مصير مرتكب الكبيرة، وقال أنه غير مؤمن ولا كافر. كما ذكرنا ذلك في الفصل الأول (انظر صفحة 73).

واشتقت كلمة المعتزلة من اعتزال واصل عن المجلس، وهناك إجماع على صحة ما ذكرنا فيما يتعلق بأهل هذه الفرقة ونشأتها، وهو يدل على أن العراق كان مسقط رأس هذه الفرقة ومهدها، والعراق هو نفسه بابل القديمة التي كانت محل التقاء الجنسين السامي والسومري واختلاطهما، ولم يمض وقت طويل حتى صارت تلك البلاد مركزاً للعلم، ثم صارت بعد ذلك بقليل ــ في زمن الخلافة العباسية ــ مقراً للحكم[1].

لكن فون كرمر يقول: (أن محل تكوين معتقدات هؤلاء القوم، ومحل تكاملها كان في دمشق، حيث كانت تحت السيطرة البيزنطية، وكان من بينهم يحيى الدمشقي وثيودور أبو قرة)[2]. والاسم الآخر لهذه الفرقة هو (القدرية)، وهو ينبئ عن إيمانهم بحرية الإرادة[3]، أي أنهم قادرون من خلال إعطاء حرية للعقل من أداء أي عمل يشاؤون.

ويقول أشتاينر: (لإثبات وجود البشر قيل بوجود أصل آخر في مقابل إرادة الله، وهو إرادة البشر)، ومن بين أقوالهم التي ذكرها الطبري عدا خلق القرآن وأنه غير قديم، هو أن الله سوف لا يتجلى يوم القيامة لأعين خلقه[4]. وهذه الأمور محل موافقة الشيعة

---

(1) دوزي (Dozy)، (عالم مستعرب هولندي من أصل فرنسي)، دار المعارف البريطانية، الطبعة 14، المصدر السابق، ص 201.

(2) فون كرمر، المصدر السابق، ص 7 ــ 9 .

(3) أشتاينر، المصدر السابق، ص 28 ــ 26 .

(4) الطبري، ج 3، ص 1534 ــ 1533 .

والمعتزلة اليوم، ومعارضة أهل السنة المتمسكين بالنص القرآني بشدة. وبالسنة النبوية المتمثلة بأقوال الرسول محمد (ﷺ).

وربما كان تنبّه المعتزلة إلى هذا التفسير يجعل الدين بالضرورة محصوراً في دائرة ضيقة محدودة ثابتة جامدة، على نحو يقضي على إمكانية التعاخف والتلاقي مع الأوضاع الجديدة عبر الزمن، ولا يتيح الفرصة لإدخال العقيدة والإيمان في ذهن الأذكياء من الناس.

ولعلهم فكروا أيضاً في أن الإيمان بإمكانية رؤية جمال الحق تعالى يؤدي إلى تصور باخل، يلزم من وجوده أن تبدو ذات الله على صورة البشر، والمهم أن ما قررته تلك الطائفة وما لم تقرره كان علة انتصار المتمسكين بالموازين والمقولات العامة[1]، وسنأتي إلى المزيد من التوضيح لهذا الموضوع في الفقرة اللاحقة.

وقد شرح دوزي بوضوح واختصار مظاهر التقدم العديدة التي حققتها المعتزلة[2]، بقوله: (عدلت مبادئ عقائد المعتزلة، وانتشرت فيما بعد في صورة أكثر جدية، وفي ثوب آخر وصورة مختلفة، خاضعة لنفوذ فلسفة أرسطو، وخبقاً لما تقتضيه خبيعة الأشياء وماهيتها).

انقسمت فرقة المعتزلة بدورها إلى عدة فرق، لكنهم جميعاً كانوا متفقين في آرائهم، من حيث إنكار وجود صفات الحق وكل ما يخالف مبدأ التوحيد.

ولما كانوا يؤمنون بأن الله منزه ومبرأ عن أي عمل يخالف العدل، فقد اعتقدوا بأن الإنسان حر، وخير تماماً في سلوكه وعمله، وقد نصت إحدى تعاليم المعتزلة عن أن كل الحقائق اللازمة لخلاص البشر ونجاتهم من المعاصي ومن العقاب، مرتبطة بالعقل، وفي

---

(1) براون (تاريخ الأدي في إيران)، المصدر السابق، ص 112، ج 1 باب 3.

(2) دوزي، حول الإسلام، ترجمة شون، ص 205.

ظل العقل وحدة وبقوته وسلطانه، يمكن تتبع حقائق الأمور، ويصدق هذا الأمر قبل نزول القرآن وبعده، على نحو يقيد الإنسان بهذه الحقائق في كل زمان ومكان).

لقد اتبع المعتزلة طريقة العقل والاستدلال بفضل تدبرهم وتأملهم في أحكام الشرع. وعن هذا الطريق برزت إحدى مقولاتهم الأساسية، ومفادها (أن القرآن حادث لا مخلوق)، رغم مخالفة هذا الكلام لقول الرسول الكريم (ﷺ)، وكانوا يقولون أننا نعتبر القرآن ــ أي كلام الله ــ في زمرة المخلوقات، فلا يمكن اعتباره ــ بناء على ذلك ــ مرتبطاً بذات الخالق، لأن ذاته لا تتغير، وعن هذا الطريق تزلزل أساس نزول الوحي إلى حد كبير، وصرح العديد من المعتزلة علانية، بأن كتاباً نظيراً للقرآن ــ بل وأفضل منه ــ أمراً ممكناً، وكان اعتقادهم في الله أطهر وأسمى من اعتقاد أهل الشرع والمتمسكين بأوامر الله، والموازين الشرعية وأهل السنة، لأن المعتزلة لم يخضعوا قط للفكرة القائلة بأن خالق الدنيا يمكن أن يظهر على صورة جسمانية، بل ولم يكن لديهم استعداد لسماع هذا الكلام.

وقد ورد في الحديث أن الرسول الكريم (ﷺ) قال: (سوف ترى ربك يوماً كما رأيت قمر التمام في حرب بدر)[1]. ولما كان المتمسكون بالشرع يتلقون الكلام المذكور وفق منطوقه، فإن هذه المسألة كانت دائماً حجر عثرة في طريق المعتزلة، مما ألجأهم إلى التفسير والتوضيح، ومما قاله المعتزلة، أن الإنسان سوف يرى الله بعد الموت ــ يعني الروح المبصرة ــ أي بدليل العقل، كما أنهم أنكروا القول بأن الله الكريم هو خالق الكافرين، ولم تكن المعجزات الواردة في القرآن الكريم موضع قبولهم، فقد أنكروا أن يكون البحر قد جف ليعبره بنو إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام، كما أنكروا أن تتخذ عصا موسى

---

(1) شرح عقائد النسفي (للتفتازاني)، طبع مصر، ج 1، ص 140، (1936).

صورة الحية، وأن يُحيي عيسى عليه السلام الموتى بعد موتهم[1]. وغيرها من القصص التي يعتقدون أنها غير مقبولة عقلياً. وكان قسم منهم يعتقد بعدم وجوب الإنجاب غير المحدد أو اعتباره واجباً دينياً*.

لقد أعطت دراسات المعتزلة الفلسفية مساحة واسعة للعقل في التفكير بحرية في شتى المجالات الطبيعية والعلمية، وأنتجت في العصر الذهبي العباسي أيام المأمون وابنه الواثق عدداً كبيراً من العلماء، وكان أبرزهم (الفارابي) (توفي عام 950 م)، وابن سينا (ت 1037م)، وابن رشد (ت 1198م)، الذين كانوا من حكماء الفترة التالية، ويستحق كل منهم عن جداره أن يلقب بالحكيم، وقد أناروا الطريق أمام فلاسفة عصر النهضة الأوربية في مراحلها الأولى والتي بدأت عام (1453)، في إيطاليا بعد ترجمتها من العربية إلى اللاتينية عن طريق البيزنطيين، وكان ذلك يتمثل في إعطاء مساحة واسعة للعقل في التفكير لقهر الطبيعة وحل مشاكل الإنسان بنفسه بعيداً عن الاتكال على الأمور الغيبية ودون المساس بالاعتقاد بوحدة الخالق والديانات المختلفة، كلاً حسب اعتناقه وانتسابه الديني.

وقبل هؤلاء الحكماء عاش الكندي المتوفي عام (864)، الذي اهتم اهتماماً خاصاً بالمسائل التي شغل المعتزلة ببحثها، أما (ابن رشد) فلم يكتف بالسعي في إثبات أن الدراسات الفلسفية جائزة إنما تجاوز ذلك إلى محاولة إثبات أنها فرضية وأن القرآن الكريم قد حكم بذلك، وقد تبع نفس الطريقة وسلك نفس المسلك فيما يتعلق ببقية المسائل، واشتملت آثاره على موضوعات فلسفية وعلمية واسعة.

---

(1) أدورد براون (تاريخ الأدب في إ]ران)، ج 1، ب 3، المصدر السابق، ص 115.

* ولو كان قد طبق مثل هذا المبدأ منذ ذلك الزمان لكنا قد تخلصنا من أكبر مشكلة توجه الوطن العربي اليوم وهي الزيادة السكانية غير المسيطر عليها

وبهذه الطريقة أوجد (ابن سينا) صدعاً بين الفلسفة وأحكام الشرع، وكانت فرقة المعتزلة قد استنفذت قوتها في مشاحنات مدارس البصرة وبغداد، تلك المشاحنات المرتبطة بالموضوعات الدقيقة واللطيفة. وكل ذلك كان بعد اتصالهم بالفلسفات اليونانية بعد ترجمتها إلى العربية ودراستها بتفحص ودقة.

وقد كان أبو الحسن البصري ــ أحد معاصري ابن سينا ــ هو آخر من درس تعاليم المعتزلة مستقلة عن غيرها وأكمل بعض النقاط، وقد أورد (الزمخشري) في كتابه المشهور (الكشاف) (ت1144) التعاليم والعقائد المعتدلة التي اتبعها أسلافه بصورة مقبولة، ونعتها بكمال الذوق وطبقها في مهارة ودقة على تفسير القرآن الكريم، غير أنه لم يتمكن من بسط هذه التعاليم والتوسع فيها بالقدر المناسب[1]. والحق يقال أن كل تلك النهضة العلمية التي قامت في العصر الذهبي العباسي كانت بفضل تلك الباقة من العلماء والفلاسفة المعتزلة الذين شكلوا قاعدة فكرية للانطلاق نحو التفكير الحر.

ولكن يبدو أن الشعلة التي اتقدت في العالم الإسلامي لم يكتب لها البقاء والاستمرار لكي تضعنا في سلم التقدم والحضارة المستدامة، فقد جاء الخليفة المتوكل ووجه لها ضربة قاصمة، ويذكر دوزي جانباً من وحشية هذا الحاكم الظالم الذي لا يرعى الحق[2]، حيث قال: (.. ومع هذا كان المتوكل في خريق السنة ــ وبلا حدود ــ متمسكاً أو مشرعاً، ولذا فإن حكم رجال الدين عليه يختلف عن حكمنا تمام الاختلاف).

---

(1) الزمخشري: هو جار الله محمود بن عمر من إقليم خوارزم، وكان قد ولد في زمن ازدهار المعتزلة واعتنق مبدأهم وأقبل على دراسة العلوم اللغوية والدينية وأقام في بغداد وتوفي عام 1144. (عن تاريخ أدب إيران، ص 122).

(2) دوزي (كتاب الإسلام)، ترجمة (Chauvin)، ص 248.

ويعتقد ابن كثير (أبو الفداء) (أن المتوكل كان يغالي بعض الشيء في كراهيته لعلي بن أبي طالب، إذ أن أتباع السنة والجماعة يعززونه ويوقرونه إلى حد بعيد، باعتباره ابن عم النبي (ﷺ) وصهره، لكنه يعتبر المتوكل ذو مكانة عالية لأنه حرم الاعتقاد بحدوث القرآن، وكان الخليفة المتوكل يشرب الخمر وينغمس في الشهوات، وحين يعمد إلى الظلم يلجأ إلى الغدر، ويتحول إلى شيطان مريد، وكان لا يخاف من ارتكاب كل معصية، وكان حاد المزاج شديد الإصرار يعاقب كل من يفكر بأسلوب مغاير ويعذبه وينكل به باذلاً كل جهده في هذا السبيل، حريصاً على أن يهلك أمثال هؤلاء ويبطش بهم، وقد بالغ ــ بطريقة أسوأ ــ في إحياء ما كان قد صدر من قرارات في حق النصارى واليهود، وهي القرارات التي كانت في طي النسيان في عهد سابقيه من الخلفاء)[1]، ومن بين أعماله أنه خرب قبر الحسين بن علي شهيد كربلاء، وحرثت الأرض التي كان يقع عليها وزرعت ومنعت زيارته، كما وجهت الاتهامات إلى أسمى العلماء الربانيين مقاماً وأشرفهم منزلة، أمثال (البخاري)، المحدث الكبير ونسبت إليهم البدع الدينية.

ومن جانب آخر ظهر الأشاعرة (نسبة إلى أبو الحسن الأشعري)، بعد موت المتوكل باثني عشر عاماً الذين شنوا حملة ومقاومة مستميتة ضد آراء المعتزلة، وكان لأبي الحسن نشاط عظيم في الأمور الأدبية فبعد اصطدامه بأستاذه الجبائي ــ أحد علماء المعتزلة ــ وبعد اعتزاله إياه، كتب ما يقرب من مائتي رسالة رفض[2].

ولا بد من الإشارةهنا إلى أن آل بويه وهي أسرة شيعية إيرانية احتلت مكان الأتراك عام (945م) ولفترة من الزمن، وكانت هذه الجماعة التي تغلفها الأسرار ــ إلى حد ما ــ تواصل سيرة المعتزلة وتستهدف التأليف بين العمل والدين، وتطبيق شريعة

---

(1) الطبري، التاريخ، ج 3، ص 1389 وما بعدها وص 1419.

(2) دوزي، ص 81 ــ 62 .

الإسلام على أسس الفلسفة اليونانية، وتركيب العلوم الكلية في صورة دائرة معارف وقد أنتجت هذه الجماعة خمسين رسالة[1].

كذلك ظهر في بغداد حجة الإسلام الغزالي عام (1091) وتوفي عام (1111م)، ويرى أشتاينر[2] أنه كان يحس في قرارة ضميره أن الانتساب للإسلام يستوجب منه الدفاع عنه علمياً، كما يستوجب إقرار مباني الدين التي تعرضت للتهديد ــ بقوة البراهين والأدلة ــ وتشيدها مرة أخرى على أساس أكثر استقراراً وأدعى للطمأنينة، لقد أخذ من حكمة أرسطو، وتصوف المتصوفة أسمى ما فيها وأكمله، وطبقه على شريعة الإسلام على أساس من الحزم والاحتياط.

وفي ظل تعاليم (أخوان الصفا) ــ في بادئ الأمر ــ ثم في ظل (ابن رشد) (الحكيم المغربي)[3]، (صارت البلاد الإسبانية إحدى المراكز الفلسفية الرئيسية في العالم وفي القرون الوسطى أخذت أوروبا نور المعرفة عن إسبانيا، فيما يخص المسائل الفلسفية وبناءاً على قول ديتريس[4] فإن صراعاً قد دب في الوجود الذهني أو خارجه بين المذاهب نوعاً وجنساً، مما عرض دنيا العلم ــ عدة قرون للقلق والاضطراب، وخلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، تسبب الجدال بين المذاهب الفلسفية المذكورة في إثارة النشاطات الذهنية في المشرق بأسره).

وتجدر الإشارةهنا إلى أن مؤسسي المذاهب الأربعة ــ الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ــ قد شبوا جميعاً في عهود سيطرة المعتزلة وسيادتهم، ويتقدم أبو حنيفة

---

(1) إدورد براون، تاريخ الأدب في إيران، ص 130.

(2) أشتاينر (كتاب المعتزلة)، ص 12.

(3) عاطف العراقي (النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد)، القاهرة (1968).

(4) ديتربس (متون وتراجم ورسالات) (1858)، ص 161.

النعمان عن الباقين زمنياً، فقد ولد عام (700م)، وتوفي عام (767م)، بينما كانت ولادة مالك عام (713)، ووفاته عام (795م)، وكان المنصور يسيء به الظن ولما كان يعتقد أنه لا يحب الأسرة العباسية، فقد قام بجلده دون رحمة[1]. والشافعي ولد في نفس السنة التي توفي فيها أبو حنيفة وتوفي عام (820م) في مدينة القاهرة بمصر، بينما ولد أحمد بن حنبل وهو من أهالي مرو عام (780م) وعاش في بغداد وتوفي عام (855).

وهكذا يمكن القول إن ظهور المذاهب السنية الأربعة كان بمثابة ردة فعل مقابل ظهور المعتزلة للمحافظة على الأصول السلفية، وفي هذه الفترة أيضاً انشقت فرقة الشيعة إلى فرقتين الفرقة السبعية أو الإسماعيلية، والفرقة الإمامية الإثني عشرية، وبالنسبة لأصول إمامة كلتا الفرقتين يسود الاتفاق والاعتقاد بأن الرياسة الدينية السامية تصل إلى أحد أخلاف علي بن أبي طالب، وإن الإمام يختار من جانب سلفه، ويمنح سجايا فوق الطبيعة، (لا يتمتع بها البشر ــ خارق للعادة ــ)، بل ويمنح صفات شبه سماوية، أو بعبارة أخرى معصومين ولهم مكانة خاصة عند الله مختلفة عن غيرهم.

ويتفق قول الفريقين حول الأئمة الستة الأول، ويبدأ الخلاف بينهما عند الإمام جعفر الصادق الذي رحل عام (765م).

لقد عين الإمام جعفر الصادق ــ أول الأمر ــ ابنه الأكبر (إسماعيل) خليفة له، لكنه عاد فأخذ منه الإمامة وأسندها إلى أخيه الأصغر (موسى الكاظم)، وما لبث إسماعيل أن مات ــ فترك جسده ــ قبل إيداعه الثرى ــ تحت بصر العامة، وعلى مرأى منهم، حتى لا يكون هناك شك في وفاته[2]. لكن الإسماعيلية اعتقدوا بابنه محمد وبأنه لا يزال حي وسيظهر مرة أخرى عند الضرورة.

---

(1) ابن خلكان، ترجمة دي سلان، ج 2، ص 547، طبع بولاق (1866) القاهرة، (وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان).

(2) أدورد براون، المصدر السابق، ص 136.

كما ظهرت طائفة أخرى وهم الصوفية، وهؤلاء يميلون إلى وحدة الوجود أو الاتحاد بين الجسد والخالق إلى حد الإفراط، في نشاطاتهم الخارجية لنيل درجات دينية عالية، ويجاهدون في سبيل تهذيب أنفسهم وأفكارهم الداخلية، ومن أشهر هؤلاء أبو هاشم (ت 778)، وذي النون المصري (ت 860م)، والجنيد البغدادي (ت 910)، وإبراهيم بن الأدهم (ت 777)، وداود الطائي (ت 778)، وفضيل بن عياض (ت 803م)، ومعروف الكرخي (ت815)، وأشهرهم جميعاً الحسين ابن منصور الحلاج، ويدرج البعض الحسن البصري في زمرتهم رغم أنه أدرج أثناء البحث من مؤسسي المعتزلة، وذلك حسب قول دوزي بأنه كان يتباين بين المذهبين، وكذلك رابعة العدوية (ت 753)، التي قال عنها ابن خلكان[1]، بأنها قديسة تخوت تخريق الحقيقة بخطوات أفضل ونذكر من أقوالها: (من لا ينسى المه حين يفكر في مولاه لا يكون صادق الإيمان)[2]، ويرى فون كرمر (أن التصوف ــ بالمعنى الصحيح للكلمة ــ كما يبدو من تصرفات الدراويش المختلفة قد نشأ على أساس من عقائد الهند وأفكارها، ومبدأ التصوف ومبناه على الأخص أحد مذاهب الهند الفلسفية المعروفة بالفيدانتا (Vedanta)[3]. وأغلب المتصوفة كانوا من الإيرانيين ويعود السبب في ذلك لمحاذاتها للهند[4].

وقبل أن نترك موضوع المذهبية الخاصة بتلك الفترة لا بد لنا من الإشارةإلى الديانات الأخرى التي كانت سائدة في العالم الإسلامي، وفي العراق بالذات عدا اليهودية والمسيحية، والزرادشتية والمانوية، فقد كان هناك ولا زال المندائيون الصابئة الحقيقيون

---

(1) دوزي، طبعة ناسوليز، ص 319.

(2) فون كرمر (حول تاريخ تمدن الإسلام)، المصدر السابق، ص 67.

(3) وليم براندت، كتاب حول الفدائيين، ج 1، ص 100.

(4) ول ديورانت (قصة الحضارة) المصدر السابق، ج (14 ــ 13)، ص 214.

في الأهوار بين واسط والبصرة، وكانوا يشكلون مظهراً من مظاهر الحضارة البابلية القديمة في بلاد الرافدين، وكان العرب يسمون الماندائين (المغتسلة) إذ كانت هذه الجماعة تكثر من ممارسة آداب الاغتسال ومراسيمه ولم يفهم البحارة البرتغاليون ــ في القرن السابع عشر ميلادي ــ معنى هذا اللفظ ومغزاه، فأخلقوا عليهم بطريق الخطأ تسمية (نصارى يوحنا المعمدان)، واعتقد البعض بذلك خطأ أيضاً [1].

وقد جاءت تسمية الصابئة المندائيون خطأ منذ أيام خلافة المأمون بناءاً على الحدث التالي:

بينما كان المأمون في نهاية حربه مع البيزنطيين الشرقيين، يمر في ولاية حران، شاهد بين المستقبلين عدداً من الأشخاص ذوي أشكال غريبة غير معهودة، وشعور طويلة للغاية، ويرتدون عباءات ضيقة دهش المأمون لمرآهم وسألهم عن هويتهم، فأجابوا: (حرانيون)، وسألهم ثانية، فأجابوا: (لسنا مسيحيين ولا يهود، ولا مجوس)، وعندما حاول معرفة إذا كان لهم كتاب مقدس أو رسول، سمع منهم جواباً مبهماً، فأيقن آخر الأمر أنهم من الزنادقة أو عبدة الأوثان، وعندها أمر بأن يقتلوا أو يعتنقوا الإسلام، أو يدخلوا أي دين ذكره الله تعالى في كتابه الكريم (القرآن الكريم)، وأمهلهم حتى عودته من الحرب ليعطوه قرارهم، وقد أخافت هذه التهديدات الحرانيين وملأت قلوبهم رعباً، حتى أنهم قصوا شعورهم الطويلة، وخلعوا ملابسهم الخاصة، واعتنق الكثير منهم الإسلام أو المسيحية، وأن بقي بعضهم على دينه، وإزاء قلق الكثير منهم واضطرابه، أبدى فقيه مسلم استعداده لحل مشكلتهم هذه لقاء أجر ومكافأة، فنصحهم أن ينسبوا أنفسهم ــ حين يعود المأمون من سفره ويسألهم ــ إلى طائفة الصابئين، لأن الصابئة ذكرت في القرآن الكريم، ولما كانت الأخبار المتعلقة بهم قليلة، فإن تغيير الاسم لن يستلزم

---

(1) وليم برانت (كتاب حول الصابئة المندائية)، ص 100.

بالضرورة تغيير المعتقدات أو الآداب والمراسيم والطقوس التي تعودوا عليها، وداهم الموت المأمون قبل عودته من سفره، فترك أغلب الحرانيين ممن اعتنقوا المسيحية ـــ الدين المسيحي على الفور ـــ وارتدوا إلى دينهم السابق، ومن دخلوا الإسلام لم يجرؤ على الارتداد إلى دينهم السابق، لأن القتل في الشريعة الإسلامية جزاء المرتد.

وهكذا ومنذ ذلك الحين أصبح أبناء تلك الديانة محتفظين باسم (صابئ) لأنفسهم، وأصبحوا يدعون بالصابئة المندائيين[1]، والذين لا يزالون يشكلون أحد مكونات الشعب العراقي، لكن أصل ديانتهم هي البابلية القديمة، وقد أصبحوا يشكلون في العصر العباسي جماعة من المثقفين والعلماء. وسعوا لكسب العلم وشحنوا مؤلفاتهم العديدة بآداب السريانية والعربية، والحق أن السريانيين ـ بصفة عامة ـــ كانوا أفضل وسيلة لانتقال علوم اليونان للمشرق، ثم عادة هذه العلوم على يد العرب من المشرق إلى المغرب (أوروبا)، وكان من أشهر العلماء الصابئة الطبيب والرياضي المشهور (ثابت بن أبي قرة)، بينما اشتهر من بين المانويين (الزنادقة) في ذلك العصر، صالح بن عبد القدوس* ومطيع بن إياس، وكان المانويون يتعرضون للمطاردة والإيذاء إبان حكم المهدي والهادي (786 ـ 780)، وفي خلافة هارون الرشيد كان هناك قاض خاص يطلق عليه (صاحب الزنادقة)، وكان مكلفاً باكتشافهم ومعاقبتهم[2]، بينما لم يكن وضع الزنادقة يقابل في خلافة المأمون بنفس الدرجة من التشدد، لأن المأمون كان مولعاً بدراسة المذاهب السرية، ولهذا لقب (بأمير الكافرين)[3].

---

(1) أدوارد براون (تاريخ الأدب في إيران)، نج 1، باب 3، ص 1.

* اتهم الشاعر صالح بن عبد القدوس بالزندقة وإعدم على إثرها كما ذكرنا ولكن لا أحد يعلم إن كان فعلاً يعتنق المانوية أم لا، لأن هذه التهمة كانت تلصق بكل من يخالف الخليفة الرأي.

(2) فون كرمر، (حول تاريخ تمدن الإسلام)، ص 210.

(3) اليعقوبي، خبع هو تسما، ص 546.

وخلاصة القول، إن نشأة المذاهب والفلسفات وكل العلوم الطبيعية في العصر الإسلامي الذهبي، جاءت نتيجة لاستقرار الدولة، وانتهاء عصر الفتوحات والحروب، التي كانت قائمة بلا هوادة في العصر الأموي أولاً، وثانياً فإن تشجيع الترجمات والاطلاع على كال ما أنتجته الشعوب الأخرى من الهند والصين وإيران شرقاً، إلى اليونان والرومان غرباً، وجلب عمال من الصين لصناعة الورق في بغداد، قد شكل قاعدة أساسية للتدوين والتوثيق، وفتحت الباب أمام جميع المفكرين بتوفير كل المعلومات المطلوبة وساعدت العقل البشري في فتح نافذة أمام الاستقراء والتقصي من أجل الوصول إلى الحقيقة، ولم يعد للأفكار الغيبية والسحر والخرافات المكان الوحيد للهيمنة على عقول الناس، ولذا بدأ المفكرون يضفون إلى المذاهب والمدارس المختلفة حسب اطلاعاتهم على المؤلفات الجديدة وموروثهم التاريخي وبالشكل الذي يتلاءم وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من العوامل.

وقد بدءوا أول الأمر في علوم تفسير الحديث والقرآن الكريم، وتدوين الأحداث التاريخية ثم جاءت تلك القراءات من خلال انتماء تلك الجماعات واطلاعهم على الديانات القديمة، وحتى الوثنية منها بينما لم تتح لهم فرصة قبل ذلك للاطلاع على أفكار وديانات وفلسفات أخرى خارج الدين الإسلامي، وكان أول من ظهر هم المعتزلة بكل فرقها وأشكالها مما حدى بالآخرين في تصحيح المسار، حسب اعتقادهم من خلال التأسيس لمذاهب إسلامية متعددة منها مذاهب أهل السنة الأربعة.

إن جذور نشأة مذاهب السنة الأربع كانت في الأساس ترمي إلى تشريع قوانين ومبادئ تحافظ على الشريعة الإسلامية في ذلك الوقت الذي ظهرت فيه مذاهب وأفكار فلسفية متعددة أخذت تبتعد ــ حسب نظرهم ــ شيئاً فشيئاً عن الأصول الإسلامية، بالإضافة إلى أن حاجة الدولة في إيجاد صيغ تشريعية للمسائل المستجدة بعد مرور قرنين

أو أكثر على ظهور الإسلام أصبح أمراً ملحاً وضرورياً من أجل تسيير أمور الدولة بالاتجاه الصحيح. أما أبناء الشيعة، فكان لهم إمام يستشيرونه في كل صغيرة وكبيرة ويستعينون بأقوال وأحاديث الأئمة المتوفين منهم لحد تلك الفترة من الزمن، بينما حصلت إنشقاقات وفرق عديدة (40 فرقة كما يقل)، بعد غيبة الإمام الثاني عشر (المهدي)، وقد فتح باب الاجتهاد لكبار علمائهم للإجابة عن المشاكل التي يطرحها مريدوهم بعد غياب آخر الأئمة مما أدى إلى ظهور بعض الفرق التي كان أبرزها الفرقة الإسماعيلية. والتي تم شرح أصولها وسلوكها سابقاً.

كما ظهرت فرق أخرى في المشرق الإسلامي (إيران وأفغانستان وآسيا الوسطى وباكستان)، وقد أطلقوا على بعض تلك الفرق أسماء على ألوان الملابس أو الإعلام التي كانوا يرفعونها، فمثلاً (الحمرة)، كانت تطلق على أتباع بابك، أو (الخرميون) نسبة إلى (خرمة) زوجة مزدك التي فرت حين قتل زوجها مع شخصين من مريدية قاصدة الري، حيث قامت بالدعاية وحققت نجاحا، وسمى من آمنوا بدين زوجها (المزدكية) نسبة له، أو أطلق عليهم (خرمية أو خرم دينية) نسبة إليها [1]. كما أطلق اسم (المبيضة) على جماعة في ما وراء النهر (ذوي الملابس البيضاء)، وكل هؤلاء يعدون من غلاة الشيعة أصحاب المبادئ المبتدعة الأربعة وهي: التشبية، والبدء، والرجوع، (أي عودة المريد ثانية إلى الحياة ليكمل رسالته) والتناسخ (أي انتقال الروح من شخص إلى آخر)، ولا تزال تلك المعتقدات ومريديها موجودون إلى يومنا هذا في مناطق متفرقة من العالم الإسلامي.

---

(1) أدورد براون (تاريخ الأدب في إيران)، ج 1، باب 3، ص 163.

1 ـ 13 ظهور المعتزلة (كأحد المذاهب الإسلامية في العصر العباسي الأول) أو الطور الثاني للاعتزال:

لقد شرح لنا حسين مروة المبادئ الأساسية لمذهب المعتزلة بما يلي[1]:

(يبدأ عندهم البحث في التوحيد على أساس أن الله واحد، ولكن لا بالمعنى الأول الذي يأخذ به السلفيون (أهل السنة والجماعة) من المسلمين، بل بمعنى أن ذاته بسيطة، بالمفهوم الفلسفي لكلمة (بسيط)، أي غير مركبة فإنه يستحيل التركيب على الذات الإلهية، وذلك لأن التركيب يقتضي أمرين لازمين له أولهما عدم إمكان تحقيق (الكل) إلا بتحقيق كل (جزء) من أجزائه، وهذا يعني افتقار (الكل) إلى واحد من الأجزاء. فلو كانت (ذات) الله مركبة لكان الله مفتقراً إلى (أجزاء) تركيبه، في حين أن الله لا يمكن أن يكون كذلك، لأن الافتقار بذاته ضعف وعجز، وثانيهما أن التركيب يقتضي التعدد، والتعدد يناقض الوحدانية، وتوضيح ذلك أن التركيب يقتضي أن يكون كل جزء غير كل جزء آخر، وغير (الكل) أيضاً، وهذا التعدد، لأنه يحصل من ذلك عدة أشياء، الأجزاء كل واحد منها بذاته (شيء) غير الآخر، ثم (الكل)، وهو شيء أيضاً غير الأجزاء بذاتها، هذا ومن جهة أخرى، محذور الافتقار هنا أيضاً، لأن كل و احد من هذه (الأشياء) المتعددة، مفتقر في وجوده إلى وجود الآخر، ثم يمعن بالقول: (وبناءاً على هذه الملازمات المقترنة بمقولة (الكل والجزء) ينتفي التركيب عن ذات الله، وتثبيت لها (البساطة) التي هي جوهر معنى (الوحدانية)، فمعنى أن الله واحد، إذن هو كون ذاته لا كثرة فيها مطلقاً لا من حيث الكم، ولا من حيث (الماهية)، وهذا يعني ــ بالنتيجة ــ نفي كل عرض من أعراض الأجسام الطبيعية والبشرية عن ذات الله، أي نفي صفات التشخيص والعضوية وصفات

---

(1) حسين مروة (النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية)، دار الفارابي، ج 1، بيروت، (1981)، ص 649.

اللون والرائحة والأبعاد والجهات التي هي بطبيعتها تقتضي الجسمية، أي التركيب، وكون الله (واحد) لا تعني (الوحدة) العددية بمعناها الساذج الذي يفهم من اللفظية بدلالتها اللغوية، بل يعني أن (ليس كمثله شيء) كما جاء في القرآن الكريم[1].

فإن السلفيين كانوا يأخذون من آية (ليس كمثله شيء) معناها الإجمالي بصورة إيمانية مطلقة، كما يأخذون بالآيات والأحاديث النبوية التي تعارض هذا النص، أي التي بظاهرها على تشبيه الله بالكائنات العضوية، أخذاً إيمانياً مطلقاً دون محاولة للنظر إلى هذا التعارض أو تأويله، اعتباراً منهم أن القرآن الكريم كلام الله، فيجب الإيمان به وتصديقه، كما جاء من عند الله، وأن كل تأويل له يؤدي إلى الأخذ بالمعنى الذي يصل إليه أهل التأويل، لا بالمعنى الذي جاء من عند الله، هذا من جهة ثم أن التأويل من جهة أخرى عمل بشري يجوز عليه الخطأ، وهو باختلاف الآراء والمواقف، وخوفاً منهم من أن يؤدي ذلك بالخروج عن الدين والانحراف بعيداً في حالة التوغل أو التمادي في تأويل الآيات والأحاديث.

يقول حسين مروة في كتابه المذكور[2]: (لقد خالف المعتزلة هذا الموقف من جهتين: خالفوه أولاً: بالنظر العقلي في مفهوم الألوهية الخالقة للكون، وثانياً: بالنظر العقلي في النصوص الدينية الإسلامية التي وردت في تحديد ذلك المفهوم، أما من الجهة الأولى: فقالوا أن العقل بحد ذاته يحكم النفي كل ما يلزم منه (التركيب) في ذات الله، وكل ما تقتضيه ﺨﺒيعة (التركيب) من مستلزمات جسمية، كالأجزاء والأعضاء والأبعاد و الجهات والمكان والزمان والجوهر والطول والعرض، لأن كل شيء من ذلك ينافي (الوحدانية) الواجبة في ذات خالق الكون. فالوحدانية بهذا المعنى الذي ينزه الله عن

---

(1) سورة الشورى، الآية 11.

(2) حسين مروة، المصدر السابق، ص 652.

الجسمية، ضرورة في الخالق الأزلي. فإذا ثبت ذلك بحكم العقل، وجب أن تؤول الآيات تأويلاً يخضع الجسمية كالآيات التالية (يد الله فوق أيديهم) [سورة الفتح ــ الآية: 10]، (ويبقى وجه ربك) [سورة الرحمن ــ الآية: 27]، (وتجري بأعيننا) [سورة القمر ــ الآية: 14]، و (الرحمن على العرش استوى) [سورة طه ــ الآية: 5]، وكلها تظهر أن لله يداً ووجهاً وأعين وإثبات الجلوس المادي على شيء مادي (العرش، بمعنى الكرسي)، و (أأمنتم من في السماء) [سورة الملك ــ الآية: 16] الظاهر في إثبات (المكان) له، و (يخافون ربهم من فوقهم) [سورة النحل ــ الآية: 50] الظاهر في إثبات الجهة (فوقهم) ... إلخ.

وعلى هذا الأساس لجأت المعتزلة إلى تأويل هذه الآيات تأويلاً عقلياً ينبغي دلالتها المادية الظاهرة، فاليد ــ مثلاً ــ تشير إلى القدرة، والاستواء على العرش يشير إلى السمو والمهابة، والأعين إلى الرعاية والإدارة ... إلخ، وهذا النحو من التفسير قادهم إلى التفرد بالتزام وجهات نظر عقلية في عدة مسائل منها: مسألة الصفات ونظرية الكون، ومسألة رؤية الله، ومسألة خلق القرآن، والعديد من الفلسفات الأخرى.

لقد وردت في القرآن الكريم صفات أسندت إلى الله مثل: عالم، قادر، حي، سميع، بصير، متكلم، وكان السلفيون من المسلمين يقولون بأن هذه الصفات قديمة (أزلية) بقدم الله، لأنها ملازمة لذاته ما دامت ذاته قديمة صفاته قديمة. وجاء المعتزلة مثل (جهم بن صفوان)، زعيم الجبرية فأحدث القول بنفي الصفات عن الله، خلافاً لما اتفق عليه السلفيون قبله، لأن إثباتها لله يؤدي إلى تشبيهه ببعض المخلوقات كالإنسان، لأن الإنسان يوصف بأنه سميع، بصير، متكلم، ... إلخ، وكان قولهم هذا مستنداً على أساس ما أقروه من مفهوم التوحيد.

فما دام قد ثبت عندهم بحكم العقل أن (وحدانية الله) تعني أن ذاته (بسيطة) لا يجوز عليها التركيب بالمعنى الفلسفي للبسيط والمركب، فقد التزموا إذن بنفي كل صفة

قديمة من الصفات الزائدة عن الذات أو المغايرة لها، لأن الزيادة أو المغايرة تقتضي تعدد الآلهة).

وهكذا فقد وضع هؤلاء المفكرون (المعتزلة) بعد مطالعتهم كتب الفلسفة، وانتهى بهم الأمر في تعيين وحدة الصفات واكتفوا بصفتين إيجابيتين هي أن الله عالم قادر، لأن هذه الصفات ليست شيئاً آخر غير ذاته، فليس هناك شيء واحد هو (ذات) الله، وقد ظهرت اختلافات كبيرة فيما بينهم في العديد من المسائل الفلسفية لا مجال لذكرها هنا، ويمكن الرجوع إلى المصادر المشار إليها للمزيد من التفاصيل.

أما مسألة خلق القرآن الكريم، التي أثارت ضجة كبيرة في التاريخ، فمنشؤها يرجع إلى مسألة الصفات عند المعتزلة، فهم بعد أن قرروا وحدة الذات الإلهية وصفاتها، وقرروا بناءاً على هذا المبدأ نفي الصفات الزائدة عن الذات، كان لا بد لهم أن ينظروا ما ورد من هذه الصفات داخل النصوص الدينية، ليخضعوها للتأويل العقلي بما يوافق مقولتهم (التوحدية)، وخلال النظر في النصوص وجدوا فيها صفة (الكلام) منسوبة إلى الله، على نحو ما جاء في الآية القرآنية: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[1]، ووجدوا أن القرآن في هذه النصوص موصوف بأنه (كلام) الله على نحو ما جاء في الآية: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[2]، والمقصود بـ (كلام الله) في هذه الآية القرآن نفسه.

هنا إذن قد وصف الله بأنه (متكلم) ووصف القرآن بأنه (كلام الله)، فما موقف المعتزلة من هذه الصفة؟؟، فهل يقولون أنها من الصفات التي هي عين الذات؟ إذا قالوا بذلك كان عليهم أن يلتزموا بكون هذه الصفة ثابتة غير متغيرة، وفقاًلمبدأ المعادلة

---

(1) سورة النساء، الآية: 164.

(2) سورة التوبة، الآية: 6.

المطلقة بين الذات الإلهية وصفاتها. كما هو مقرر عندهم. وما دامت الذات غير قابلة للتغير بإتفاقهم جميعاعلى ذلك فإن الصفات يجب أن تكون كذلك. ولكن الالتزام صفة (الكلام) المنسوبة إلى الله ثابتة لا مُتغيرة، يصطدم بنصوص القرآن نفسها فإن هذه النصوص متنوعة ومتخالفة، فمنها الأوامر والنواهي، ومنها الوعد والوعيد، ومنها الكلام التشريعي والكلام الإخباري والكلام الوصفي فإذا كانت الصفة (المتكلم) عين الذات وإذا كان القرآن الكريم (كلاماً)لله، فقد لزم من تنوع هذا الكلام وتخالفه أن تكون الذات متنوعة متخالفة أي منقسمة أي متعددة. واللازم الأخير ينفي وحدانية الذات وهذا بالنتيجة ينفي أصل التوحيد عند المعتزلة، بل عند المسلمين جميعا[1].

من هنا لجأ المعتزلة إلى القول بأن كلام الله ليس (قديم) أي ليس من الصفات المعادلة للذات إنما هو حادث، فالقرآن ـ وهو كلام الله باتفاقهم ـ حادث إذن أي (مخلوق) ككل مخلوق في الكون، ومعنى كون الله متكلماً ــ إذن أنه خالق للكلام ــ وهكذا ذهب المعتزلة في إثبات أن القول يقدم القرآن الكريم وأزليته لا ينافي مبدأ التوحيد وحسب، بل ينافي كذلك العقلانية التشريعيةللقرآن الكريم، فإنهم قالوا: (إذا افترضنا أن القرآن الكريم كلاماً أزلياً، أي صفة للذات الإلهية الأزلية، كان معنى هذا أن الأوامر التي يشتمل عليها القرآن أزلية، أي صادره قبل أن يوجد المأمورون بها، أي أنها كانت غير ذات موضوع قبل البشر المكلفين بها، فإن البشر هم موضوع هذه الأوامر، فكيف يعقل أن يوجه الله أوامره إلى المعدوم؟.

إن ذلك نوع من العبث الذي لا يجوز على الله، بل مُحال وقالوا إن الكلام لكي يتحقق شرط وجوده يحتاج إلى مكلِّم (بكسر اللام) ومكلَّم (بفتح اللام) وقبل وجود

---

(1) حسين مروة، المصدر السابق،ص678 .

المكلفين ليس هناك سوى مكلَم من غيرمكلم، وبذلك يكون القول بآزلين القرآن نفياالعقلانية التشريع، وهو باطل[1].

ثم برهنوا على المسألة من وجه أخرى، فقالوا أن كلام الله (مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه، فإن ما وجد في محل عرض قد فنى في الحال)[2]، ويقول ابن الهذيل العلاف: (إن القرآن الكريم كلام إرادي تشريعي يقع في محل، فما هو هذا (المحل؟) يجيب العلاف: إن هذا المحل ليس ذات الله خبعاً، لأن ذاته لا يمكن أن تكون محلاً للأمر والنهي والأخبار، فلا بد أن يكون هذا المحل غير الله، وإذا كان القرآن الكريم كلاماً يقع في محل غير الله، فهو عرض مخلوق كسائر الأعراض).

من هنا برزت أهمية التأويل لكل النصوص القرآنية لكي تتماشى مع المنطق المعقول، وما وصل إليه الإنسان من تطور في عقله يمكنه أن يربط بين المفاهيم المختلفة ويطابق بعضها ببعض إلى أن يحصل على قناعة وإيمان بما يقال له ويسمع به، وقد نشأمبدء الإحتكام للعقل من موقف المعتزلة الذي أملته عليهم ظروف التطور الفكري والتكدس الثقافي لمجتمعهم في مرحلتهم التاريخية المتحركة بقدر ما ساعدت عليها ظروفهم الاجتماعية والسياسية التي انطلقت منها الأفكار الفلسفية التي أمدتهم بالوسائل المعرفية باستخدام البراهين الفعلية وأدواتها المنطقية لدعم مبادئهم. وكم نحن بحاجة اليوم للتأويل في النصوص القرآنية كي نعين الشباب في عدم الإنخراط في تيارات العنف التي تدعي الإسلام. لقد حصلت معركة خلق القرآن في عصر المأمون التي وضعت حدألعصر كامل، وأدوات مجيء عصر آخر، فهي إذ تمثل تتويجاً لكيفية القراءة الحديثة (للقرآن الكريم) (وهو كتاب المسلمين المقدس وأساس النهضة التحويلية الواسعة

---

(1) أحمد أمين (ضحى الإسلام)، ج3، ص 34 ــ 35 .

(2) الشهرستاني (الملل والنحل)، ج1ص49 .

العميقة في المنطقة. وتكوين مجموعات من القبائل والشعوب كأمم جديدة، فإنها تعبر كذلك عن صراعات إجتماعية (وقومية)، وعن عجز القوى القائدةالمنفذة عن فهم القرآن الكريم، وتشكيل معنى حديث ومنسق وشامل عنه.

ونحن نعيش في هذا العصر، ونرى كيف ينخرط الشباب إلى تنظيم القاعدة وغيرها من خلال سوء الفهم وعدم تأويلهم الآيات التي تمسّكوا بها واتخذوا منها ذريعة لأعمالهم العنيفة والدموية.

يقول عبد الله خليفة [1]: (إن عملية الترجمة الكبرى من الإغريقية إلى العربية، والذي يعني تلاقحاً كبيراً بين لغة كانت بدوية إلى مدى قريب، وبين لغة فكرية متقدمة،وتوجه الترجمة إلى قمتها في المنطق والفلسفة والتي تتداخل مع الرياضيات والفلك والطب....... إلخ، كانت تستهدف تطور المناخ الثقافي في العام، وعدم جعل أصحاب الثقافة التقليدية مهيمنين على الوعي، لكن ذلك لم يكن متبلوراًكسياسة ثقافية محدودة، ويُذكر هنا حلم المأمون ورؤيته لأرسطو، الفيلسوف اليوناني الأول، وأنه دعاه إلى فكره).

يعلّق (محمد عابد الجابري)حول هذا الحلم قائلاً: (إذن فحركة الترجمة تلك التي اتجهت إلى أرسطو بالذات كانت جزأ أساسياً ورئيساً من استراتيجية جديدة لجاأيها المأمون لمقاومة الأساس المعرفي لإيدولوجية خصومه السياسين) [2].

---

(1) عبد الله خليفة (الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية)، ط1، المؤسسة العربية للدراسات زالنشر، (2005)بيروت، ج2،ص473،ص475 .

(2) محمد عابد الجابري (بنية العقل العربي)، السابع 2004مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت،ص224.

(إن ملوك النهضة في منطقة الشرق الأوسط، كانوا يعتبرون هذه الفلسفة شرخاً ثقافياً مهماً للتقدم،وبمعنى ما، فإنها تتجاوز ثقافة الأديان التي كانت فكراً توحيدياً في البداية، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مذاهب تهدد بتفكيك تلك الامبراخوريات التي تربع على عروشها أولئك الأباخرة، متصورين أن اللجوء إلى الفلسفات المتقدمة يمكن أن يجنبهم مصير التفكّك المنتشر والمتفجّر، وهذا ما هيمن على وعي المأمون الذي تعطي سيرته هذه العملية المزدوجة المتناقضة أي عمليتي: الترجمة المتحضرة، وفرض تصوّر سياسي بالقوة في مسائل فكرية ودينية مقدسة ومحفوفة بالمخاخر.

لقد حصلت ثورات عديدة في عصر المأمون كان أبرزها الثورة الفلاحية في مصر، وثورة بابك الخرمي في الأقسام الشمالية من إيران ثم ثورة في الشام.....إلخ، وقبل أن تتجزّء البلاد، فقد وجد أن هناك حاجة ملحة إلى توحيد مُطلق وكلي وتجريدي للأدلة.

وبدأت بذلك مسألة خلق القرآن تختمر في وعي المأمون، بالتوافق مع حملاته العسكرية ضد تلك الثورات، وفي الوقت الذي فقد فيه العرب أهميتهم العسكرية في الجيش وتدفق فيه الأتراك والأكراد أو التركمان، فلقد بدأ بدو جُدد في الحلول محل العرب في تأدية وظيفتهم التاريخة، وبالتالي وجد نفسه مُرغماً في مُسايرة التطور الفكري المنسجم مع تلك الأقوام للمحافظة على وحدة البلاد والقصر من الثوارت والأخطار الأخرى، وإذا كان للمأمون مشروعه الفكري والسياسي بتركيز السلطة السياسية في العاصمة (بغداد)، وبين يديه وأسرته، واتخاذه معركة خلق القرآن الكريم وسيلة لتأكيد قيمته الفكرية المطلقة، ولتحديد ماهو الإيمان وما هو الكفر، فإن (سلطة) أخرى كانت تتشكل على مدى التاريخ الإسلامي السابق. إن رجال الدين المسلمين كانوا يتغلغلون في شرايين النظام الاجتماعي والسياسي عبر العقود الماضية، وقد بدأرجال الدين في العصر العباسي يتحولون إلى جزء من النظام، حين هزمت ا لثورة الزيدية الاعتزالية المشتركة،

وحين أخبقت الدولة بقواها العسكرية الهائلة على الأقاليم المختلفة، ولم تعد قوة معارضة يعتد بها في مركز السلطة وغدت السلطة ذات وجه ديني بارز، فلم يعد الخليفة سلطاناً وملكاً فقط، بل صار إماماً أيضافجمع في يديه كافة السُلطات، وتحول خليفة مثل المهدي إلى قائد ملاحقات فكرية اضطهادية، وأنشأ ديوان (الزندقة)، وعبرت ملاحقاته للمانوين عن الخوف من تمزيق الأقاليم المحكومة بواسطة العاصمة، وخاصة إيران المركز الأساسي للمانوية والزرداشتية والمزدكية، وهكذا تم تحويل الأهداف السياسية تحت ستارالدعوى الإيمانية إلى وسيلة قمعية لكبح جماح الفلاحين وغيرهم، وقد تبلور ذلك في ذهن المأمون لما يتمتع به من وعي فكري متميز، ووجد الايديولوجيا الاعتزالية التابع غير المستقل فكرياً وسياسيا [1] له.

أما عن أسباب تراجع فكر المعتزلة في العصور التي تلت عصر المأمون فيقول عبد الله خليفة [2] : (إن البنية الرعوية لا يمكنها أن تستوعب بشكل جماهيري العمليات الفكرية المجردة، وقد واصل المعتزلة إنتاج خطاب تجريدي عن الأدلة، دون ربط ذلك بقراءة الطبيعة والمجتمع، فلم يتوجه النظر إلا إلى ملاحظات جزئية عن الطبيعة، كالبحث في توالد الأسباب، وقد احتاجت العملية علاقة وثيقة بالتقنية وقراءة المادة، ودرس التاريخ بدرجة أوسع، إلا أن المعتزلة لم يقدروا على فعل ذلك، دفعة واحدة نظراً للاتجاه الغيبي المسيطر، ولغياب الإمكانات والموارد الفكرية لعموم الناس.

إن شكل الوعي الاعتزالي المرتبط بحاجة القصر هو مماثل للانتاج الحرفي المرتبط بالقصر، وذلك يتمثل بجمع المالية من كل الأقطار التابعة له، ولما كان القصر هو الذي

---

(1) عبد الله خليفة، المصدر السابق،ص478 .

(2) عبد الله خليفة، المصدر السابق،ص486.

يضع سقف التطور للانتاج الروحي (الديني)والمادي معاً، فمهمايشتغلان لحاجات بذخية، فينفصلان عن بعضهما، كما ينفصلان عن مسار تطور المجتمع وتلبية حاجاته الأساسية). وقد ظلت الأبحاث الفكرية مرهونة بحاجةالقصرالفكرية، بشكل ما أو بآخر.

إن البذخ الرهيب للموارد كان يقود إلى الإفلاس الفكري، وهو يبعث المستويات الايديولوجية لما قبل التراكم المالي المعرفي الراهن. فالعقل الاعتزالي يتوقف عن التغلغل في أسرار المادةالطبيعية والاجتماعية، مثلما لا يقوم رأس المال بتجاوز مرحلته التجارية (النقدية)، للصعود إلى رأسمال صناعي مثلاً في العصور المتقدمة.

إن الحديث عن القرآن الكريم مخلوق رغم جوانبه العلمية الإيجابية المفيدة إلا أن هؤلاء الأفراد من المعتزلة عبَروا عن انهيار حركتهم وتبدل مسار نضالهم الذي بدأ على يد واصل بن عطاء مستهدفاً مراقبة المال العام، والعدل وانتخاب الحاكم، فأخذوا هذا المسار إلى دهاليز القصور وأهدافها، وهذا لايعني أن الجماعة المضاده للاعتزال، كانت تقود المسلمين إلى الهدف الصحيح، فإنها كانت ترى القضية مجردة وفكرية مفصولة عن إعادة تشكيل حياة الناس، واعتبار الأمر بدعة، وهي تعيد الناس إلى حالة البنية الرعوية والمستويات الفكرية السائدة فيها. لقد كان المعتزلة يواصلون الدفاع عن وحدة الحضارة العربية الإسلامية عبر تأكيدهم الكلي على رمزها الوحيد الخالد الذي هو الله، وفي ذات الوقت كانوا يحاولون خلق حرية معينة للبشر في هذه الحضارة، عبر تلك الإزاحة الكلية للتدخل الإلهي المباشر في كل حياة البشر وفي العالم، لكنهم في نفس الوقت كانوا يفتقدون النسق الفلسفي الكلي المترابط والمتنامي بين صورة الآلهة وبين الطبيعة والحياة الاجتماعية، على مُستوى تراكم المعرفة العلمية بالطبيعة والمجتمع وعلى مستوى كفاحية تلك الفئات الوسطى للخروج من هيمنة الخلافة، وكلا الجانبين كانا مفقودين، وهكذا كانت (مؤسسة الخلافة) أيام المأمون تقوم بحركة تنوير ثقافي مفصول عن العمليات الديمقراطيه مثلاً أو أي عملية من شأنها أن تقوَض أو تضعف السلطة المركزية الفردية السائدة في ذلك العصر.

فتوجّه حركة الاعتزال نحو التأكيد الشديد على الوحدانية الإلهية وفصل القرآن عن تلك الوحدانية، وإضافة إلى كونها حركة فقه فلسفية نخبوية، فإنها حجّمت من العملية الديمقراطية التحويلية للحياة مقتصرة إياها على نشر تصورها عن الذات الإلهية، أي غدت العملية التنويرية مقتصرة على تفجر طاقات الثقافة العربية الإسلامية في خِدمة هدف استبدادي، مترافق مع إلحاق اضطهادي للأقاليم وإلحاق اقتصادي واجتماعي وفقهي لمثقفي الطبقة الوسطى ((إن وجد).

لكن استمرار الفكر التنويري على ما يبدو وبعد فترة طويلة من الزّمن، انتقل إلى أوروبا في بداية عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر، وفي تصاعد مُستمر إلى أن أوصلنا إلى ما نحن عليه من فكر وحضارة حديثة،وهذا يدل على أن العقل البشري مُترابط في كل أنحاء العالم. وبقينا نحن نتباكى على تلك الومضه البسيطة من جماعة المعتزلة في التنوير واعطاء الحرية للعقل دون فعل ايجابي مستمر آخر.

لقد تهيأت ظروف أكثر ملائمة للأوروبين في السير قُدماًنحو الاصلاحات الفكرية الفلسفية بعد فترة من الزّمن لعدم وجود قيود التمسك في النص أصلاًفي دياناتهم المسيحية وهذا عامل مُهم في حصولهم على طفرة كبيرة في مجال الإصلاح الديني بالاضافة للعوامل الاخرى التي لا مجال لنا في بحثهاهنا. أي لم تعتمد ديانتهم (المسيحية) على الاعجاز البلاغي اللغوي المنزل على يد (جبرائيل) بل جاءت تعاليم السيد المسيح عن طريق تلامذته الاربع، وهكذا أصبحت الاصلاحات البروتستانية على يد لوثر سهلة وأرست قواعدها لتكّون قاعدة فكرية للنهضة الاوروبية فيما بعد.

14. أهم رجالات الطور الثاني للاعتزال في العصر العباسي :

اعتمد معتزلةالطور الثاني على الأسس الفكرية التي تمت صياغتها في الطور الأول، فقد ظلّت تحكم بحث المعتزلة الجدد، وأدخلت عناصر مكتشفة جديدة في عباءة

المبنى الفكري الجديد، ومن أبرز شخصيات المعتزلة في هذه الفترة هو أبـو هـذيل العـلاف، توفي في (235هـ)، في بداية خلافة المتوكل، وقد حدد العلاف العلاقة بين الإنسان والخـالق بوضع حرية للانسان بإعطائه إمكانية الحركة والسكون والكلام والمشاعر النفسية، وفي هـذه الإمكانـات تـبرز اختياراتـه وتتشـكل أغراضـه، أمـا الجوانـب الماديـة والموضـوعية الخارجية كألوان الجسم والأشياء وظاهرات الطبيعة المختلفة بما فيها الحياة والموت، فهي خارجة عن إرادة الإنسان.

إن العقل الاعتزالي هنـا يبحـث عـن فعـل الإنسـان الحُـر المـرتبط بهيمنـة الاهيـة، والإنسان هنا فرد خارج التاريخ وسيرورة الطبيعـة. فـالألوان البشـرية ـــ حسـب مسـتوى إدراكنا الآن ــ تدخل دائرة الصناعة التاريخية عبر تنقل البشر في أرجاء الكـرة الأرضـية، ولكن البشر يصنعون ألوانهم عبر علاقاتهم المتعددة بالبيئة.

ويمثل (ابراهيم بن سيار) الملقب (بالنظام) وقد لقب كذلك لأنه كان يحترف نظـم الخـرز في سـوق البصـرة في بدايـة حياتـه، أكثـر العقليـات الاعتزاليـة جُـرأةً واقترابـاً مـن الفلسـفة (وقـد مـزج في قـوة بـين كـلام الفلسـفة وأفكـار المُعتزلـة ومـال في آرائـه إلى كـلام الطبيعيين من الفلاسفة، وانفرد في نظرتـه،بأن الله لا يقـدر علـى فعـل الشـر وأنـه يفعـل الأصلح لعباده، وقوله بنفـي الجـوهر الفـرد أو الجـزء الـذي لا يتجـزأ، وقولـه أن الله خلـق الكائنـات دفعـة واحـدة، معـادن، ونبـات، وحيـوان، وإنسـان، غـير أن الله أكمـن بعضـها في البعض) [1].

وفي قوله أيضاً أن العالم الطبيعي والنباتي والحيـواني في تشكيلة واحـدة متفاوتـة التطور والزّمن، وبهذا فإنه يقترب من موضوعية الوجود، وإن صورة الخالق التي يشكلها هـي هيمنـة علـى الوجـود (كمـا يطـرح ذلـك أبـو الهـذيل العـلاف) لكنهـا في مسـألة الفعـل

---

(1) شوقي ضيف (العصر العباسي الأول)، دار المعارف،ط11،ص431 .

البشري غير مهيمنة، أي أن البشر أحرار فيما يفعلون ولديهم العقل القادر على التمييز بين فعل الخير وفعل الشر، إن النَظام يدفع الموقف التنويري إلى الأمام عبر إعادة النظر في الموروث الإسلامي ذي الطبيعة الخارقة، مُركزاً على العِلل المعقولة، واستباعده الجوانب السحرية والخرافية، ولهذا فإنه لا يعطي الجن إمكانية الظهور والتأثير في العالم، ويلغي مسائل الحظ و النجوم. من هنا غدا أنصار المعتزلة أكثر جرأةً في مواجهة مسائل الشعوذة، وأصبح أنصار الحديث يعتبرونهم الخطر الأكبر على الدين، إذن (فالنظام) يقبل بالإرث الديني السابق مع بعض التجديدات، وبغربلة النصوص الدينية، وبملاحظات إجتماعية نيّرة في أحيان عدة، فإنه يتجه نحو مُهمات فكرية تنويرية في ظل النظام القائم تقوده ظروفه المعاشية الصعبة إلى أن يقترب من السلطة، مُصارعاً قوى فكرية مختلفة وتقدمة في الحياة، هكذا يمكن اعتبار أن (النظام) صاحب فكر أكثر حداثة عما هو عليه الحال من بعض السلفيين في عصرنا.

وفي نفس تلك الفترة كان المعتزلي (معمر السلمى) (في مدينة لبصرة) يطرح أفكاراً جديدة توسع الطابع الفعلي في الوعي الفلسفي الديني، فهو صاحب فكرة (وُجد العالم بما لا يتناهى من المعاني) أي أن الكون مُتوحّد ومتوصل، وقد ظهر العديد من المعتزلة في العصر العباسي، نذكر منهم ثمامة بن الأشرس وهشام النوخي والجاحظ وأحمد بن داؤود وكلهم واصلوا العلاقة المفيدة مع الدولة، لكن بشر بن المعتمر لم يقل مثل هذه الصلَة وقد سجنه الرشيد، ومنذ ذلك الحين تعرّض قسم كبير من المعتزلة إلى القتل والتشرُد، لذلك بقي الفِكر محصوراً ومحدوداً بالشكل الذي لا يمسَ السلطة الحاكمة (القصر)، لكي يكون مقرباً منه، وكان من بينهم في عصور تلت ذلك علماء وأخباء وفلاسفة أمثال الفارابي وابن سينا، وابن رشد،وابن ماجه، وابن طفيل وغيرهم.

ورغم تعرض العديد من هؤلاء إلى الاضطهاد والتشرُد لكنهم استطاعوا أن يوصلوا رسالتهم إلى العالم الآخر (الغربي)، بعد قرون وبعد أن ترجمت أعمالهم إلى لغات عديدة. وقد تعرضت الكثير من مؤلفاتهم إلى الحرق من قبل الخلفاء في بغداد والاندلس[1] .

وقد ظهر خور ثالث من المعتزلة كانت في أواخر العصر العباسي شملت مجموعة من العلماء والمفكرين الذين قدَموا خدمات جليلة للفِكر والمعرفة الإنسانية، ولكن المعوَقات التي حالت دون الاستمرار وإحداث نهضة اجتماعية واقتصادية وعلمية مُستدامة كانت تكمن في بُعد هؤلاء عن الأغلبية السَاحقة من الجمهور وعدم توفر الظُروف والعوامل الأخرى كتلك التي توفرت للأوروبيين في بداية عصر النهضة.

يتضح من كل ما تقدم أن أصلاحاً فكرياً كان لابد منه في المفاهيم الدينية التي لم يتم تأويلها، وكان لا بد لها أن تستمر وتنشط لكي تعطي حريه فكرية أكبر، لأن الإعتماد الكلي في أبسط الاعمال واكبرها على القضاء والقدر وعلى الخالق يجعل الإنسان عاجزاً عن الابداع والعمل المفيد المثمر. وكان ذلك سبباً رئيسياً وراء تخلف العالم الإسلامي خيلة العقود الماضية، وإن الشعلة التي أوقدها المعتزلة في العصر العباسي كانت قد أنطفأت، ولابد لنا في العصر الحديث من إيقادها ثانية كي نواكب العصر في التطور والعمران، وبعد زيادة معرفتنا بمجتمعنا واحتياجاته، خاصة وقد أثبتت الأحداث أن مبدأ حرق المراحل لا ينفع، ولا بد أن نبدأ بالاصلاح الفكري أولاً وقبل كل شيء. قد تنفع وسائل الاتصال والتكنولوجيا الحديثة في تقليص الوقت لكن المراحل الهامه للتطور لا بد أن تؤخذ في نظر الاعتبار في رسم السياسة الستراتيجية المستقبلية لمغادرة محطة التخلف .

---

(1) ول ديورانت (قصة الحضارة) ج (13 ــ 14) ص197 .

الفصل الثالث

عصر المغول

لقد أصبح واضحاً للجميع أن حادث الهجوم المغولي، أصاب العالم الإسلامي في آسيا بضربة قاصمة، لم تستطيع أن تفيق من شدتها حتى الآن، فهم بتحطيمهم للخلافة العباسية في بغداد، قد قضوا نهائياً على وحدة العالم الإسلامي، وقد بدأ الهجوم المغولي بغارة (جنكيز خان) في بداية القرن الثالث عشر عام (1213)، بينما كانت الغارة على بغداد وقتل الخليفة العباسي (المستعصم) على يد (هولاكو خان) في سنة (1258)، وكان الخراب الذي أصاب الجزء الشرقي (الآسيوي)الإسلامي شديداً، فقد كانت جموع المغول كالذئاب المتعطشة إلى الدماء، فأخذوا يقتلون كل من يُصادفهم، ويحرقون ويدمرون كل ما يعترض سبيلهم، دون أن تأخذهم في قسوتهم رحمة، أو شفقة حتى آثر عنهم هذا القول المشهور بأنهم (جاءوا وخربوا وحرقوا وقتلوا وسلبوا وذهبوا)، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل أن هذه الكارثة كانت فعلاً الوحيدة التي سببت لنا كل ما ورثناه من تخلف عن ركب الحضارة، وابتعاداً عن كل تقدم علمي وأدبي وحضاري منذ ذلك الحين وإلى الآن؟ وهل كان التخريب الشامل الذي أحدثه المغول لنا وحدنا بهذه الدرجة من القسوة أم هناك مناطق وشعوب أخرى أصابها ذلك الدمار واستطاعوا أن يتجاوزوه؟ ولماذا لم يوضح لنا المؤرخون والكتاب في الكتب المدرسية عن تلك الفترة ما يكفي لتتضح لنا الصورة بشكل موضوعي نستطيع من خلالها أن نفهم ما نعاني منه من موروث لا يزال يؤثر فينا بهذا القدرأو ذاك؟.كل هذه التساؤلات سنحاول تفكيكها في هذا الفصل من خلال إلقاء ضوء على أهم الأحداث المؤثرة وبقدر ما متوفر من مصادر تاريخية عنها، وبمقدار مُساهمة تلك الأحداث في موروث العنف السياسي الذي تعاني منه المنطقة الشرق أوسطية حاليا.

لقد شملت الهجمة المغولية مناطق واسعة من العالم، فوصلت ما بين اليابان شرقاً، والصين والهند وأواسط آسيا برمتها إلى ألمانيا غرباً، وذلك يشمل أجزاءً كبيرة من روسيا وأوكرانيا ورومانيا وبولندا، وكل أوروبا الشرقية وإلى ألمانيا[1]. لقد أصابت الجنس البشري بكثير من الشرور التي لم تحدثها كارثة أخرى في تاريخ العالم المعروف ألا وهي كارثة (غارة المغول). فهذه الغارة أشبه بثورة جامحة من الثورات الطبيعية، ولكنها لا تشبه بشيء مما نعرفه من أحداث التاريخ الإنساني، لأنها امتازت بالمفاجأة، والتخريب الشامل، والقسوة النابية، والغلظة الجافية، والشدة التي لا تقاوم، والتحطيم الذي لا رحمة فيه، والدمار الذي لا مقصد من ورائه...!!

وقد قامت بهذه الأفعال جميعاً قبائل مُتوحشة لم يكن يعرفها أحد، حتى أشد الناس اتصالاً بهم من جيرانهم. لكن وكما هو معلوم فإن مناخق عديدة وصل إليها التدمير المغولي لكنها تجاوزت كل ذلك الخراب،واستطاعت أن تبني من جديد، ولا نريد الخوض في تفاصيل دقيقة عما قام به المغول من تخريب، ويمكن الرجوع إلى المصادر التي نخص بالذكر منها على سبيل المثال:

1. إبن الأثير (تاريخ المغول)، وكان معاصراً للأحداث.
2. ياقوت الحموي (تاريخ المغول)والذي عاصر الأحداث وكان صديقاً لابن الأثير.
3. دوسون (D'ohsson) (تاريخ المغول). (مؤرخ فرنسي معروف)
4. السير هنري هوورث (Sir Henry Howorth). (مؤرخ انكليزي معروف)
5.شهاب الدين محمد النسوي (سيرة السلطان جلال الدين المنكبرتي).

---

(1) خلب المغول من اليابان الخضوع لسلطانهم في سنة (1270) وهاجموها ثلاث مرات كانت الأخيرة منها في سنة (1283)، وقد حطم أسطول المغول في سنة (1280) كما حطمت الارماد الاسبانية تماماً، أما غارات المغول في أوروبا، فقد حدثت ما بين سنة (1236) وسنة (1241).

وغيرها من المصادر التي ذكرت تفاصيل يومية لمعظم الأحداث التي حصلت ورغم ما فيها من مُبالغة وتهويل في الأرقام إلا أننا نستطيع أن نفهم ما جرى من خلال الترابط والتحليل العلمي والعقلاني.

1. غارة المغول على خوارزم:

لا بد أولاً أن نعرف ما الذي ساعد في ظهور المغول البغيض، وما امتازوا به من عادات قبيحة كريهة على زيادة الفزع الذي استولى على القلوب، بسبب ما عرف عن غلظة لا تقف عند حد، وقسوة لا مزيد عليها، لقد وصف دوسون المغول [1]: (لقد فاقوا في قسوتهم أشد الشعوب همجية، فقتلوا جميع من وقع في أيديهم من أهل البلد التي فتحوها، ولم يبقوا على رجل أو أمرأه أو طفل وأحرقوا البلدان والقرى، وأحالوا الديار العامرة إلى مغازات مقفرة،ولم يكن يحفزهم على ذلك كله رغبة في ثأر أو حب لإنتقام فقلما كانوا يهتمون بالكشف عن هويتهم أو الوقوف على شخصيتهم).

ولربما ظنَ البعض أن التاريخ تغالى في وصف مآسيهم وفظائعهم، ولكن جميع المراجع التي دوّنت عنهم في بلاد مختلفة، تتفق تمام الاتفاق على ما امتازوا به من غلظة وعُنف، وكانت عادتهم أن يسترقوا البقية الباقية من أهل البلاد التي يفتحونها وأن يعذبوها أشد العذاب، بحيث كان من ينجوا برأسه من سيوفهم لا يستطيع أن ينجو بنفسه من عسفهم وظلمهم، وكانت حكومتهم تعمل على نشر الفساد فتقضي على كل من عُرف بالشرف والنبل، وتقرب لسادتهم من ذوي القلوب الغليظة بكل ما يتمنون من مال أو قوة أو سلطة، يستطعون بها، التعسف مع ذوي قرباهم وأبناء جلدتهم. وقد أصبح تاريخ المغول بما انفرد به من وحشية وعنجهية،سجلاً لكثير من حوادث الفزع والرعب،

---

(1) دوسون (تاريخ المغول من جنكيز خان إلى تيمور لنك (المجلدالأول،ص6، (مترجم من الانجليزية إلى العربية)،طبع القاهرة. .

ولكن دراسته على الرّغم من ذلك واجبة على كل من يريد تفهّم الحوادث الهامة التي وقعت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، خاصة وأن تاريخهم قد اتصل بتاريخ جمله من الممالك والامبراطوريات، والرأي السّائد أنه لم يكن هناك ما يحول دون وقوع غارة المغول، ولكنها من غير شك سهّلت وتيسّر حدوثها على العالم الإسلامي بواسطة ما عُرف من ملك خوارزم في ايران[1] المدعو (علاء الدين محمد) من طمع وخيانة وتردّد، فطمع ظاهر كما يقول ابن الأثير (في أنه استولى على البلاد وقتل ملوكهاوأفناهم، ليبقى هو وحده على مملكة نخرة هاوية، فلماانهزم أمام المغول، وفرّ أمام جيوشهم تاركاً بلاده للقدر يفعل بها مايشاء، لم تجد هذه البلاد أميراً إسلامياً واحداً يستطيع أن يلم شعثها ويوحّد جهودها أمام الجيوش المُغيرة من المغول. فقد كانت الامبراطورية الإسلامية ممزقة أصلاً إلى ولا يات ودول عديدة تصغر وتكبر بين فترة وأخرى.

وتظهر خيانة علاء الدين محمد هذا واضحة عندما قتل رُسل المغول وتجّارهم، فأعطى بذلك ل (جنكيز خان) الحجّة الدامغة لتبرير الهجوم عليه، ولإثبات أوجه الضّعف والخُذلان التي تسود الحالة في خوارزم، كذلك فإنه عند أول صدمة تلقاها من المغول أسرع إلى إظهار الفزع والخوف بدل ما كان يبديه من غطرسة وتحدّ، ولم تكد تنقضي سنتان على قتله لرُسل المغول حتى نجده في النهاية يموت شريداً طريداً في إحدى جزر بحر قزوين.

وهناك سبب آخر يرجع إليه ضعف المقاومة الإسلامية في وجه المغول، وهو الخلاف الذي نشأ بين ملك خوارزم (محمد) والخليفة العباسي (الناصر) في بغداد، فقد

---

(1) تقع مملكة خوارزم في الشمال الشرقي من إيران وقد توسّعت المملكة لتشمل أجزاء عديدة من أواسط آسيا وأفغانستان وإلى حدود الصين، كما كانت تضم عدة قوميات ولها حدود مجاورة مع منغوليا. .

كان هذا الخليفة يخشى ملك خوارزم، وازدياد قوته وخمعه في الاستيلاء على (بغداد)، فسعى كما كان يفعل الخلفاء المتأخرون إلى إضعاف مُنافسه والإيقاع به وتدبير المكائد له، وأخذ يُشجّع المغول على مُهاجمته، كما أشار (إبن الأثير) إلى ذلك، وكذلك صرّح (المقريزي) في كتاباته، ومن العجب أن أعقاب هذا الخليفة قد هلكوا على أيدي هؤلاء المغول الذين أبادوهم جميعاً وحطموا دولتهم واستولوا على بلادهم [1]، ويبدو أن الكارثة بدأت عندما علم ملك خوارزم عند استيلائه على مدينة غزنه [2] بأمر المراسلات المتبادلة بين الخليفة وحكّام (غزنه) من أعقاب (سبكتكين) [3]، بالاضافة للخلاف الحاد الذي نشأبين الخليفة العباسي في بغداد وملك خوارزم التي بلغت درجة عالية من التهيؤ لحرب بينهما، وكان السبب الآخر هو اشتداد البرد وقسوة الشتاء في ذلك العام بشكل سهّل على المغول الهجوم المباغت لأنهم اعتادوا عليه، بينما كان غريباً على أهل إيران، ومن المحتمل أن الحرب كان لابد لها أن تقع مهما اختلفت وتعددت الأسباب.

فقد رأى (جنكيز خان) أن يُرسل جماعة من التجار محملين بمصنوعات بلاده إلى مدينة حدودية إسمها (أترار)، وقد قتلهم حاكم أترار جميعاً بتحريض خفي من ملك خوارزم، بعدما ألقى في روعه أنهم ليسوا تجاراً بل جواسيس للمغول، فلما قتل هؤلاء التجار، أسرع (جنكيز خان) بإرسال بعثه إلى ملك خوارزم مكونة من عضويين مغوليين وثالث تركي إسمه (بغرا) وكلّفهم بأن يحتجوا لديه على ما أصاب رُسله من إهدار لحقوق الضيافة، وتضييع لواجبات المجاملة المتعارف عليها، وأن يطلبوا إليه أن يسلمهم حاكم

---

(1) دوسن (تاريخ المغول)، (المصدر السابق) ج1،ص211 .

(2) مدينة غزنة:إحدى المدن التاريخية المهمة،وتقع في الجنوب الغربي لمدينة كابل في أفغانستان حاليا، وكانت عاصمة للمملكة الغزنوية .

(3) أي الغزنويين، من أعقاب محمود الغزنوي بن سبكتكين.

(أترار) وإلا فليعد العدة لحرب طويلة قاسية، ولم يجبهم ملك خوارزم إلى ما طلبوا، بل على العكس من ذلك قتل الرسول التركي (بغرا)وأمر الرسولين المغوليين الآخرين بالعودة إلى مولاهم بعد أن حلق ذقنيهما، وثار (جنكيز خان) لإهانة رسله،فعقد جمعية عامة من المغول وقرر مهاجمة (خوارزم) [1] .

وبدأت الحرب بانتصار تافه فاز به (محمد خوارزمشاة) ولكنه بقي مع ذلك خاملاً مبتعداً بنفسه عن موقع الخطر تاركاً أمر المدافعة عن حدود بلاده التي أغار عليها المغول إلى حكامها، منتظراً لحظة مباركة يشير بها المتجمون ليبدأفيها منازلة خصمة، وكانت إثارة الحروب في ذلك العصر تظهر من خلال أسباب بسيطة وتبدأ بالإشتعال بعدما بيّت في أمرها المتجمون والسحرة، وهكذا بدأت الشرارة الأولى للهجمة المغولية، فقد عصفت العاصفة بشدة فيما وراء النهر (بخارى سمرقند وخوارزم وكافة مناطق آسيا الوسطى)،وسقطت مدينة (أترار) عام (1219)بعد حصار دام خمسة أشهر وقبض المغول على حاكمها الذي أمر بقتل تجّارهم، فأعدموه بأن صبّوا الفضة المصهورة في عينية وأذنية، ثم ساقوا أمامهم من نجا من غارتهم على هذه المدينة،فدفعوا بهم إلى مدينة (بخارى) لينتفعوا بهم ضد مواطنيهم وأهلهم.

وهكذا استمرت غارة المغول بالسيطرة على مدن خوارزم مدينة بعد أخرى، إلى أن وصلوا (بخاري) وعملوا الغارة فيها وأحرقوها وقتلوا عدداً كبيراً من سكّانها واستحيوا النساء وهتكوا الحرمات، وقد أثر الموت جهاداً جماعة من سكانها لم يرضوا بحياة العار والذل فاستشهدوا مقاتلين، وكان من بين هؤلاء القاضي (بدر الدين) و (ركن الدين) وابنه،وجاء التسلسل إلى (سمرقند) بعد ذلك فحاصروها المغول أربعة أيام خضعت لهم في النهاية، فأغاروا كعادتهم ونهبوها وقتلوا كثيراً من سكانها واستعبدوا من نجا من حد

---

(1) أدوارد براون (تاريخ الأدب في إيران)،ج2،ترجمة إبراهيم بن الشواربي،ص55القاهرة (1954) .

سيوفهم، واستمر (محمد خوارزم شاه) في التقهقر والتراجع، وأخذ ينصح سكان البلاد التي يمر بها أن يعملوا ما بوسعهم [1] لحماية بلداتهم. واعتقدوا أن المغول سوف لا يقدرون على عبور نهر جيحون فتوقف في مدينة (نيسابور)لكن لم تمض على ذلك ثلاثة أسابيع حتى سمع أنهم دخلوا خراسان، فأسرع إلىالهرب باتجاه قزوين، وعندما وصلها توجه إلى كيلان ومازندران، وهناك تركه أتباعه وكان مصيره إن مات في إحدى جزر بحر قزوين.

وهكذا سقطت مملكة خوارزم وكانت قد قاومت المغول مقاومة شديدة أثارت حفيظتهم، فلما وقعت في أيديهم عملوا سيوفهم في رقاب أهليها جميعاً،ولم يبقوا من سكانها إلا على أصحاب الحِرف والصناعات التي تفيدهم، وقد نقلوهم كعادتهم إلى (منغوليا)، وقد ذكر في كتاب (جامع التواريخ) أن الجيش المغولي كان يبلغ خمسين ألف مقاتل وكَّلَ لكل واحد من هؤلاء أن يقتل أربعة وعشرين رجلاً من الأسرى الذين وقعوا في قبضتهم بعد الاستيلاء على هذه الولاية، وكمثال على ما عمله المغول في هذه الولاية،أن عجوزاً في مدينة (ترمذ)ابتلعت جوهرة لتخفيها عنهم فأمروا جنودهم بإخراج القتلى وشق بطونهم بحثاً عن الدرر والجواهر ظناً منهم أن عدداً كبيراً قد كرر فعلةالعجوز قبل مماته.

وهكذا ازدادت قسوة المغول وغلطتهم كلما ازداد نجاحهم ونفوذهم وأخذت الغلظة والفظاعة تزداد أكثر فأكثر وتمسح الرحمة والشفقة حيال سكان المدن البائسة التي وقعت تحت أيدهم، بل أخذوا يبيدونهم عن آخرهم، كما فعلوا بسكان (بلخ) و (نصرت كوة) و (نسا) و (نيسابور) و (مرو) وأماكن أخرى كثيرة من المدن الإيرانية، وقد قدر ابن الأثير القتلى من أهل (مرو) بـ 700.000 قتيل، بينما قدرها آخرون بأكثر من ذلك

---

(1) دوسون، المصدر السابق، ج 2 ص 477.

بكثير، وفي نيسابور قطع المغول رؤوس قتلاهم، ووضعوها على هيئة أهرام عالية أحداها للرجال والأخرى للنساء والثالث للأطفال، وبذلك ضمنوا أن لا ينجو مخلوق من حد سيوفهم بادعائه الموت وارتمائه بين الأشلاء والجثث المترامية، (أي قد ينجو أحداً من الجرحى بعد أن يستفيق من جرحه ويظهر لهم ثانية وكان ذلك سبباً وراء قطع الرؤوس في الحرب كي يتأكد لهم الموت الحتمي).

لقد ثبت عبر التاريخ أن من يقتل بشراً بهذه البشاعة يتوغل بالقتل أكثر فأكثر بمرور الزمن، يزداد تعطشاً لسفك الدماء إلى النهاية. ولم يأل (المغول) جهداً في إيقاع الدمار والخراب بالأماكن التي اجتاحوها وكانوا يعمدون إلى إحراق الحبوب والغلال التي تزيد عن حاجتهم، وكثيراً ما كانوا يعودون إلى البلدان التي أغاروا عليها فيفتشونها من جديد ويقتلون البقية الباقية من أهلها الذين اختبأوا أثناء الغارة الأولى وأخذوا يخرجون الآن باحثين عن الطعام والشراب، وفعلوا ذلك مع أهل (مرو) واستطاعوا أن يقتلوا أثناء عودتهم خمسة آلاف رجل نجو في غارتهم الأولى.

وكانوا يلجأون إلى شتى الوسائل لتعذيب الأسرى للاعتراف بأماكن النقود والكنوز التي أخفوها..!! أما كنوز الآداب والفنون التي كانت تزخر بها المدن القديمة التي فتحوها فقد حطمت تمام التحطيم وكان هذا طبيعياً ومنتظراً من قوم يستهينون بكل ما هو إنساني[1].

وكانت أعمال المغول الإرهابية تلقي الفزع في نفوس سكان البلاد، التي ينوون الإغارة عليها وكانت قلوبهم تنخلع رعباً وفزعاً حينما يوجهون إليهم إنذارهم المعتاد: (لسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام لنا والله وحده هو الذي يعلم ما هو نازل بكم ..!!)[2].

---

(1) دوسون (تاريخ المغول)، ج 1، ص 350.

(2) دوسون، المصدر السابق، ص 394.

أما عن ديانتهم فقد كان المغول لا يعرفون الدين في بادئ الأمر، وكانوا يتساهلون في أمور الدين وقد ساووا بين رجال الدين في مختلف العقائد والمذاهب، وقد امتاز (جنكيز خان) على العموم بتسويته بين الأديان جميعاً دون أن يعتنق واحداً منها، أما من جاء بعده (قبلاي خان) وهو أحد أحفاده (1279 ــ 1257)، فكان أول من اعتنق البوذية، وأما أول من اعتنق الإسلام فهو (أحمد) تاكدار خان) (1284 ــ 1282)، ثم غازان خان (1304 ــ 1295)، ومنذ ذلك الحين بقي المغول يدينون بالإسلام، وقد ظهر كثير ممن اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من كبار المتفقهين في تعاليمه [1]، ومهما قيل عن غارة المغول، وأنها كانت كارثة كبرى أصابت صميم الحياة وأنها جنت على العلوم والمعارف الإنسانية، وخاصة الحضارة العربية التي استطاعت أن تحتفظ بكيانها سليماً معافى في إيران والعراق خوال القرون الستة التي تلت الهجمة المغولية الأولى، فإن هذه الغارة كانت مجلبة لبعض عناصر الخير بالرغم من كل ما عرف عنها من شدة ولغظة بصورة غير مباشرة ولا مقصودة وخاصة بالنسبة للغرب الأوروبي.

وربما كان من فضائلها أنها كانت سبباً في المزج بين شعوب العالم المختلفة المتباعدة، مما نتج عنه فيما بعد تجديد العقليات التي خال ركودها وخمولها، وإذ بقي الحال خاملاً في منطقة الشرق الأوسط لفترة خويلة بسبب تلك الهجمة الوحشية، وذلك لهشاشة بناء الدولة والوضع الاجتماعي والاقتصادي بما في ذلك من سوء في توزيع الثروة والمواريث القديمة في عقلية العبودية، وروح المقدس السمائي الذي يستمده الحاكم. لكن في أورابا اختلف الحال فقد كان تأثير المغول واضحاً عليهم، فقد أصبح حافزاً ومنبهاً للمفكرين والعلماء في التوغل لإيجاد فلسفة شافية تستطيع أن تسيرهم إلى الأمام بخطوات كبيرة، وكانت بداية عصر النهضة الأوروبية. لقد أثبتت الدراسات الحديثة أن روجر

---

(1) دوسون، المصدر السابق، ج 3، ص 651، ج 4، ص 79.

بيكون (1290 ـ 1210)، وعدد كبير من العلماء الأوروبيين ظهروا في ذلك العصر، وكانت فلسفاتهم مأخوذة من معلومات ترجمت من العربية إلى اللاتينية[1]. ويقول أدورد براون عن ذلك: (لقد كان المغول سبباً هاماً في حركة النهضة الأروبية، فهي التي دفعت بالأتراك العثمانيين إلى الزحف من خرسان (تركمانستان) إلى أبواب القسطنطينية (أسطنبول حالياً)، فكانت بذلك السبب المباشر والأخير في تحطيم الإمبراطورية البيزنطية وما نتج عن ذلك من انتشار المفكرين اليونانين وكنوزهم العلمية في مختلف البلاد الأوروبية وبالذات إيطاليا (فلورنسه) التي بدأت فيها أول نشاط فكري قاد إلى النهضة الأوروبية).

وقد استطاعت هذه الغارة أيضاً (أن تحطم الحدود والحواجز بين مختلف الأقاليم والمماليك، فمكنت بذلك لبعض الرحالة من أمثال (ماركوبولو) أن يجوبوا الأقطار النائية من آسيا وأن يجعلوا المعارف التي لم يكن بالمستطاع الوصول إليها لشدة المحافظة عليها (خاصة الصين)، وكما كانت سبباً في البداية في خلق التطاحن بين الفرس والعرب من ناحية، وبين الصينيين وأهل التبت من ناحية أخرى، فإنها كانت كذلك سبباً في إيجاد التوافق والتعاون بينهم، بمساواتهما بين (الفقيه المسلم) و (القس المسيحي) و (الديلالاما البوذي) و (البخشي المغولي)، وكل رئيس لدين آخر أو مذهب مخالف، وكانت هذه أول بادرة للمساواة بين الأديان التي كانت قبل هذا التاريخ سبباً لصراعات دامية[2].

وهكذا فإن عملية نشر وتمازج الثقافات بين الشعوب المختلفة تدعوا للحاجة إلى الإصلاح ومراجعة الذات، وهكذا ظهرت أول ما ظهر من إصلاح ديني هو دعوة لوثر في ألمانيا بإدخال إصلاحات إلى الديانة المسيحية (الكاثوليكية)، وكانت تلك الدعوة وغيرها

---

(1) أحمد صالح العلي (العراق في التاريخ)، دار الحرية للنشر، بغداد 1983، ص 483.

(2) أدورد براون، المصدر السابق، ص 563.

من الدعوات نواة تبلوت بعدها عملية الإصلاحات النهضوية خلال القرون التي تلت ذلك، وبالتالي نستطيع القول بأن الهجمة المغولية جاءت حافزاً لأوروبا، لكي تستفيق من سباتها في القرون الوسطى الآيل للأفول بالإضافة للظروف والعوامل الأخرى التي ساعدت على ذلك، بينما لم نستفيق نحن من تلك الصدمة وإلى الآن والسبب في ذلك هو ما سنحاول الاقتراب للوصول إلى تفسيره ضمن هذا البحث.

يقول أدورد بروي في كتاب (تاريخ الحضارات)، ج 3 [1]: (لقد برهن الإسلام في البلدان التي وقعت تحت الفتح المغولي بوجوه شتى في نشاطات وحيويات متنوعة، لم تقل فقط عما تم له منها في دول المماليك في مصر، فهؤلاء المغول الغزاة الذين سايروا جميع الأديان في بدء أمرهم، أخذوا في أواخر القرن الثالث عشر يعتنقون الإسلام، بتأثير مزدوج من السكان المسلمين الذين خضعوا لهم، وبدافع من التركمان الذين تمازجت معهم وانصهرت بينهم أولى القبائل المغولية التي دخلت إيران، فقد برهنوا عن تساهل عظيم أمام جميع الأديان والمعتقدات دون أن يفرقوا عند اعتناقهم الإسلام بين الشيعة والسنة، ولم يخل هذا الوضع بالذات من بعض الأثر على الإسلام، إذ فقد شيئاً كان يجعله في أعين الآخرين الدين المميز والمفضل، وهكذا عظم شأن الشيعة وكبر وتطور، بحيث أصبح التشيع بعد ذلك بقرنين المذهب الرسمي في إيران (أيام إسماعيل الصفوي).

ولم يتسبب غزو المغول عن أي تغيير يذكر في البلاد التي أخضعها لسيطرته من الوجهة الطائفية، فقد بقي الترك على الأثنية السنية، وقد دفع المغول أمامهم عدداً من الأقوام والشعوب التركمانية، لم يلبث أن ألف معظمها وحدات تمازجت بالجحافل المغولية الغازية التي غطت بمدها آسيا الصغرى وجنوب روسيا فأمدتها بموجة جديدة من

---

(1) أدورد بروي (تاريخ الحضارات العام) المجلد الثالث القرون الوسطى، ترجمة يوسف أسعد داغر، ط/2، (1986).

العنصر التركي وصبت فيها دماً جديداً، وقد استطاع التركمان أن يؤثروا على المغول تأثيراً كبيراً، وراحوا يمتصونهم، ولم يبق على نقاء وصفاء عملية التتريك سوى بعض الجاليات المعزولة.

وهكذا انتهت جالية المغول وحلت محلها أقوام أخرى عرفت في جنوب روسيا باسم التتر أو التتار، وهو اسم عنى به إذ ذاك وأريد به المغول، بينما هم بالفعل قوم من الترك لغة وعرقاً ولهجة، وهكذا يتضح لنا أن المغول والتتار هم أقوام رعوية واحدة تمازجت فيها بينها لأهداف الإغارة والهجوم على الأقوام المحيطة.

2. الإدارة والاقتصاد في الدولة المغولية :

إن الإدارة العامة بقيت في أيدي الوزراء وكلهم من سكان البلاد الأصليين، ومن كل المذاهب مثل رشيد الدين الخطيب، وهو يهودي أعتنق الإسلام، وفيلسوف تعاطى الحكمة وتولى الصدارة العظمى للالخان غازان[1] عام (1300)، أما السلطان فقد احتفظ لنفسه بقيادة الجيش، وبالقرارات السياسية المهمة مستعيناً في عمله بإرشادات المجلس الأعلى للمغول، وسار على قانون (جنكيز خان)، وقد لفت أنظار الناس إلى بعض الأشياء الخارجية التي استحدثها كالفرمان والأنواط المعدنية التي أنعم بها على بعض القادة، والخاتم الذي تمهر به أوراق الديوان (الطرة) والذي يشبه شبهاً كبيراً الصفراء عند السلاجقة، وبعد أن رسخ النظام واستقرت أسسه، كان على الدولة أن تسير وفقاً لمقتضيات الوضع الراهن. فالفرض الذي رمت إليه في الدرجة الأولى كان استغلالها للبلاد بالسيف والبطش والإرهاب، حتى إذا ما حل الرعب في قلوب السكان بعد أن اقفرت البلاد

---

(1) الاليخان غازان: لقد أصبحت تعرف المملكة المغولية في إيران بالمملكة الاليخانية في عصر المغول نسبة إلى هذا اللقب الذي يعني في لغتهم (الأسد القائد) أو ما يشبه ذلك (أدورد براون ـــ المصدر السابق).

وجف منها الزرع أخذت الحكومة المغولية تتبع نهجاً إدارياً أكثر انتظاماً من قبل. وقد وفرت الفتوحات للدولة الايلخانية ـ المغولية) على قدر ما سمحت به التقاليد المرعية أملاكاً واسعة وعوائد عينية وافرة، فالاصلاحات التي قامت بها (وكلها مستوحاة من مغول الصين أي من المناهج الصينية) ساعدت على وضع نظام مالي مبسط، ووفرت لها محصولاً أخيب من الواردات، وكل هذا لم يساعد في حل مشاكل الدولة التي تفاقمت عليها في أواخر القرن الثالث عشر نتيجة لحجم الدمار الذي أصاب البلاد. ولذلك حاولوا استخدام العملة الورقية كتجربة لتسير الأمور وإعطاء رواتب للجنود، لكن ذلك لم ينجح، ومنيت بالخيبة لقلة تجربة القوم، وعدم خبرتهم وعدم تهيئة الناس لمثل هذه التعاملات من قبل. ومن الفوائد التي أدت إليها الوحدة المغولية، إقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع جميع أرجاء آسيا، والتسامح الديني والسياسي الذي عرفت به هذه الدولة والذي مكن لعدد من المرسلين من رهبانيات الدومنيكان والفرنسيسكان أن يتوغلوا بعيداً في أواسط آسيا، وأن يقيموا لهم مراكز للتبشير من شواطئ البحر الأسود وحتى مشارف الصين. حتى إن القوافل التجارية للإيطاليين انضمتا لأول مرة في التاريخ إلى القوافل الآسيوية التي كانت تجوب أقطار الهند والصين، وتم تبادل الممثلين السياسيين بين بلاط المغول والدول المسيحية في الغرب، وقد نتج عن ذلك ولأول مرة في التاريخ، نوع خاص من اتساع الأفق أمام الاتصالات البشرية، كما وضع كثير من الرحالة الغربيين، أوصافاً مثيرة لهذه البلدان الجديدة التي وطأتها أرجلهم لأول مرة، والتي كانوا يجهلون عنها كل شيء، وظهرت كتب عديدة أمثال (جامع التواريخ) وغيره.

إن كل هذه الأمور وغيرها كانت واحدة من العوامل الهامة بعد مرور فترة زمنية قصيرة، وفي الدول الأوروبية بالذات إلى توسيع مدارك العقل البشري، وبدء التفكير بكروية الأرض ودوران الأرض حول الشمس وما إلى ذلك، إلى أن اندفع المغامرون في الرحلة المعروفة لاكتشاف طريق آخر للهند، وهو الذي أدى إلى اكتشاف القارة الأمريكية.

ولا بد من التنويه هنا إلى أن هذه التجربة لم تعمر طويلاً في آسيا، فلم يمر ثلاثة أرباع القرن حتى عادت آسيا إلى الانقسام، وأوصدت أبوابها في وجه الغربيين، ففي عهد الوحدة (الدولة الالخانية) لم تكن طرقها مأمونة المسالك، إذ أن الحروب التي قامت بين الممالك المغولية جعلت سالكيها في خطر، ومن بين الطرق التي فتحت للتجارة هو الطريق الذي يصل بين البحر الأسود والصين، ماراً بالأقطار الخاضعة للدولة الاليخانية، وكانت المنافسة بين هذه الطرق على أشدها، كما كانت على مثل هذا الوضع بين الممالك المغولية نفسها التي تسيطر عليها، وهذه المنافسة حالت دون حصول المماليك (في مصر) على ما يرغبون فيه من الرق من أسواق القوقاز، على طريق المضايق، وبالاتفاق مع بيزنطية، وعلى أساس من التعاون والتفاهم مع الجوالي الإيطالية المقيمة في شبه جزيرة القرم)[1].

ولكي نكون فكرة عن حجم التوسع المغولي، لا بد من الإشارةإلى أنه بعد موت (جنكيز خان) في الصين عام (1227)، وكان يبلغ من العمر الستة والستين عاماً، أنجب ابنه (أوكداي خان) الذي استطاع من غزو روسيا وبولندا ما بين سنتي (1236 و 1241)، وقد أبلى المغول من روسيا وبولندا بنفس الأهوال التي أبلو بها إيران فتحمل الكثير من مدنها شناعات المغول وخاصة (موسكو) و (روستوف) و (ياروسلاف) و (تفير) و (شيرنيكوف) و (كييف) و (كاراكاو) و (يست). وفي بولندا، وحدها جمع المغول (3) أكياساً ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم فبلغ مجموع ما جمعوه (270000) أذن أخذوها معهم ليلاً على ما كانوا يفتخرون به من بأس وسطوة ... ! وكان هذا الحاكم أقل قسوة ويوصف بحبه للشفقة والرحمة بالمقارنة مع أخيه الأكبر (جغتاي)[2]، وبعد وفاة أوكداي تولى ابنه كيوك السلطة ومات عام (1253)، وتولى ابن عمه (منكو) عرض المغول، وصار

---

(1) أدورد بروي، المصدر السابق، ص 555.

(2) أدورد برون، المصدر السابق، ص 576، وكذلك ناساوليز (طبعة القاهرة)، ص 396 ـ 380 .

إخوانه (قبلاي خان) حاكماً على الصين بينما أرسل (هولاكو خان)، لاحتلال بغداد وتولى الحكم في الولاية الغربية كلها، والذي سوف نتحرى عن حركاته لترابطها بالأغراض التي نصبوا إليها من البحث في الفقرة التالية:

3. وصول (هولاكو خان) إلى الحكم :

لقد توسعت الإمبراطورية المغولية ومات مؤسسها (جنكيز خان) وجاء الأولاد والأحفاد ليقسموا تلك المملكة الكبيرة بينهم، إلى تقسيمات إدارية لا علاقة لها بالمركز، فأصبحت إيران مستقلة عن المركز وموسكو ووارشو والصين والهند وغيرها، كلاً أصبح في مركز مستقل بذاته. وبعد صراعات دامية وصلت إلى قتل الأخ لأخيه والابن لأبيه للاستيلاء والحصول على السطوة والجلوس على عرش السلطة والتسلط لما فيها من جاه ومتعة، والتي أبقت تلك الحالة موروثاً تاريخياً لا يزال يلعب دوراً كبيراً في تاريخنا، وتاريخ غيرنا من الشعوب في البلدان المتخلفة والبعيدة عن الفكر الديمقراطي إذ أن من يصل إلى كرسي الحكم يجد في نفسه صاحب تفويض إلاهي لا يمكن انتزاعه بسهولة. ولكي نصل إلى موضوع احتلال بغداد على يد (هولاكو خان) أحد أحفاد (جنكيز خان)، لا بد لنا من متابعة مسار (هولاكو خان) منذ البداية فبعد أن خرج من عاصمتهم (قوقورم) عام (1253) مزوداً بتعليمات مشددة بأن يستأصل شأن (الحشاشين) في (قلعة الموت) الإيرانية وأن يتوجه نحو مركز الخلافة العباسية في بغداد، وكان يصطحب في حملته عدداً كبيراً من المهندسين ورجال المدفعية من أهل الصين (وكان ذلك بعد اكتشاف البارود في الصين وأول ظهور استخدام المدافع في الحرب، ولكن لم يذكر أي دور فعال في حسم معارك مهمة لأن المدفع لم يصل بعد لهذه الدرجة القتالية الفعالة بعد)، ليستعين بخبرتهم في أعمال الهجوم والمحاصرة، وكان سيره في البداية بطيئاً، وأمضى صيف عام (1254) في تركستان، ثم وصل إلى سمرقند في خريف (1255)، وبقي فيها أربعون يوماً، ثم توجه إلى إيران والتقى بحاكمها المغولي (أرغون) الذي تولى الحكم في

إيران والذي عين من قبل (منكو) أحد أحفاد (جنكيز خان)، وقد صحبه في أشد معاركه وحضر معه غارته على حصن قلعة (الموت) معقل الحشاشين، وبعد أن هيّئوا أنفسهم بعد مراسلات ومفاوضات واستخدامه التهديدات والوعود التي اعتاد عليها المغول، تم الهجوم على أكبر حصون الإسماعيلية (الموت) وقد استولوا عليها ثم اتبع ذلك بقتل جميع الإسماعيلين الذين سلموا معاقلهم له، ولم يستثن من ذلك أحداً منهم بل وقتل الأطفال في مهودهم ..!! واستيأس جماعة من أشداء الإسماعيليين من مقاومة المغول وحصل لهم (ركن الدين خورشيد) أحد قادة الإسماعيليين في إيران على عفو كتابي من (هولاكو خان)، ولكنهم استمروا في مقاومة المغول، واستطاعوا أن يقتلوا عدداً كبيراً منهم، غير أن هذه المحاولات جميعها لم تستطع أن تؤجل النهاية التي كانت تنتظر طائفة الإسماعيلية، حينما سلم (ركن الدين) نفسه إلى المغول سنة (1256)، وحينما استولى المغول على قلعتي (الموت) و (ميمون دز)، فعملوا فيها غارة كبيرة وأشعلوا النار بعد ذلك، واستولى المغول على بقية معاقل الإسماعيلية في إيران، وأخذوا ركن الدين إلى همدان وأحسنوا معاملته وسمحوا له بأن يتزوج فتاة مغولية، أعجب بها ومنحوه مائة من الجياد الفارهة كان يتسلى برؤيتها وهي تتعارك مع بعضها. هكذا، كان يفكر الغزاة فهم في أحلك الظروف قد يجدون قرابة مع أعدى أعدائهم، ويقيموا علاقات تناسب وصلات قرابة. وقد أرسله المغول إلى العاصمة (قراقورم) ليقدم نفسه إلى الإمبراخور الكبير في المركز، وكان في ذلك الوقت (منكو خان) وهو أكبر حاكم (إمبراخور المغول)، وقد أمر هذا الأخير بقتله بسبب استخدامهم خيول البريد في إيصاله، وهكذا قتل وهو في طريقه ولم يصل سوى بخارى، وأمر بعد ذلك بقتل جميع أتباعه حيثما كانوا، وكان العدد الذي هلك منهم كبير جداً[1].

---

(1) دوسن (تاريخ المغول)، المجلد الثاني، الفصل 4،5 .

ويذكر أن نظام استخدام خيول البريد بشكل كفوء كان قد استخدم لأول مرة من قبل (جنكيز خان) وقد اعتبره الكثير من المؤرخين السبب الرئيسي في انتصار المغول وتوسعهم في أرجاء آسيا وأوروبا، وهو ضمن الأعمال التاريخية المتميزة للقائد (جنكيز خان)، لذلك أصبح هذا العمل مقدساً لدى الأحفاد ووجب عليهم احترامه والمحافظة عليه.

4. الهجوم على بغداد :

إن قرار الهجوم على بغداد قد اتخذ من قبل الإمبراطور المغولي (منكو خان)، وأرسل (هولاكو خان) لهذا الغرض، وليس مجرد فكرة خاصة بهذا الأخير كما تعودنا أن نسمعها في كتب التاريخ المدرسية والتي تحاول دائماً الاقتضاب في الحديث عن تلك الفترة، وبشكل غامض يثير التساؤل لدى الكثيرين، فبعد أن تم القضاء على (الحشاشين) في إيران، فاز (هولاكو خان) بإعجاب أهل السنة في العالم الإسلامي، ولكن خطوته التالية اقترنت بكثير من الرعب، إذ أرسل (هولاكو خان) إنذاراً إلى ا (المعتصم) بأن يسلم نفسه إليه، ويسلم مدينة بغداد التي ظلت عاصمة للمسلمين خيلة القرون الخمسة الماضية، وبعد شهرين بدأ (هولاكو خان) معركته في تشرين ثاني سنة (1257)، وكان يصطحب معه جملة من أمراء المسلمين، وكان الخليفة العباسي قد بادر بإرسال (شرف الدين ابن الجوزي) إلى (هولاكو خان) في همدان، وزوده برسالة إليه، ولكن هذا القائد المغولي اعتبر رسالة الخليفة غير مرضية وغير قانعة، فأخذ يوجه الجزء الأساسي من جيشه إلى بغداد ليحيط بها من ناحية الشرق، وأمر جيشاً آخر بقيادة (بابوناويان) أن يتحرك من الشمال عن طريق (تكريت)، وأن يلتف حول المدينة من ناحية الغرب، وكان قوام الجيش

الأول يزيد على ثلاثين ألف محارب[1]، بينما تذكر مصادر أخرى أن قوام الجيش الثاني كان يبلغ ثمانين ألف جندي[2].

وتلاقت جيوش المغول مع جيوش الخليفة في تكريت، واستطاع جند الخليفة أن يحيطوا الجسر القائم على (دجلة) وكان القائد المغولي (بابوناويان) يريد عبوره ولكن انتصارهم هذا كان قصير الأمد، وما لبث المغول أن اندفعوا إلى (الدجيل) و (الاسحاقي)، ونهر الملك ونهر عيسى وأماكن أخرى كثيرة بالقرب من بغداد. واستولى الفزع على سكان هذه البلاد، فأخذوا يفرون أمام المغول ليذهبوا إلى عاصمتهم الكبرى بغداد، واستغل ملاحوا القوارب حالة الفزع هذه فأخذوا ينقلون الشخص من ضفة الشاخئ (دجلة) إلى الضفة الأخرى الأخرى لقاء أجر كبير (سوار ذهبي أو أمتعة ثمينة غالية)[3]، ثم تلاقى الجيشان (جيش المغول وجيش الخليفة المستعصم) بالقرب من الدجيل مرة ثانية في كانون الأول (1258) وتمكن جيش الخليفة بقيادة (مجاهد الدين أيك) الملقب (بالدويدار الصغير) والملك (عز الدين فتح الله)، من إحراز نصر بسيط رغم قلة الجند الذين كانوا تحت قيادتهم، ثم انتظر المغول قليلاً، واستعانوا بالمهندسين الصينيين الذين كانوا في رفتهم ثم غمروا معسكر المسلمين بالماء، فتمكنوا بذلك من إنزال الهزيمة بجيوش الخليفة ومن الإيقاع بالمشاة الأسرى الذين وقعوا في أيديهم بعد ذلك، وبهذا تيسر لهم خريق الوصول إلى بغداد بعد ذلك، وأصبح بيد المغول بعد أن هلك عدد كبير ممن نجوا من المعركة في الأوحال التي نتجت عن غمر الأراضي بالمياه، ولم ينج إلا من استطاع أن

---

(1) ابن الطقطقي (كتاب الفخري)، المصدر السابق ص 300.

(2) كتاب (خبقات ناصري)، ص 426، خبع (Nassan Less) لم يذكر اسم مؤلف الكتاب وقد يكون هذا الرقم مبالغ به كثيراً..

(3) ابن الطقطقي (كتاب الفخري)، المصدر السابق، ص 305.

يعبر النهر سباحة وأن يدخل البرية، ويمضي على وجهه إلى الشام، وقد نجا (الدويدار) مع جماعة صغيرة من أتباعه واستطاعوا أن يدخلوا بغداد، ثم أخذ هو (وعز الدين) يحرضان الخليفة على مغادرة بغداد والذهاب إلى البصرة، ولكن الوزير (ابن العلقمي) لم يوافقهما على هذه الخطة، وتردد الخليفة ولم يستطع أن يقطع برأي وإذا بجيوش المغول تحيط ببغداد من كل ناحية وتضرب عليها الحصار ابتداءاً من يوم 22 كانون أول وبدأ المغول هجومهم العام في الثلاثين من الشهر المذكور وبعد أربعة أيام أرسل الخليفة رسوله (ابن الجوزي) ثانية إلى هولاكو خان) ليقدم له في هذه المرة كثيراً من الهدايا القيمة مشفوعة برضاه بالتسليم ووقف القتال، ولم تمض على ذلك بضعة أيام، حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة فسلم نفسه إليهم مع ولديه الأكبرين (أبو العباس (أحمد)) و (أبي الفضائل (عبد الرحمن))، ولكن (هولاكو خان) سرعان ما أمر بإعدامهم جميعا دون شفقة أو رحمة، أما طريقة تنفيذ الإعدام فقد ذكر الشاعر الإنجليزي (Long fellow) أنهم حبسوا الخليفة في خزائنة وبيت ماله وتركوه هناك يموت جوعا[1]. بينما ذكر آخرون أنهم لفوه في سجادة ثم انهالوا عليه ضرباً بعصيهم ودبابيسهم حتى الموت، وهذا الاحتمال أقرب إلى الصحة لأنهم كانوا يحرمون إهدار دم ملكي، وكانوا إذا أرادوا إعدام أحد أمرائهم يتبعون طريقة وحشية اختصوا بها في إعدام الأمراء بدون إهدار دم بل يكتفون بكسر ظهورهم، أو ما شاكل ذلك دون أن يخرجوا الدم ..!!

لقد بدأت الغارة على بغداد في 13 شباط (1258)، واستمرت أسبوعا كاملا، أعدم فيه المغول عدداً يبلغ 800.000 من سكانها[2]، واستولوا خلالها على الكنوز المادية

---

(1) إدور براون، (تاريخ الأدب في إيران)، ج 3، ص 586، المصدر السابق.

(2) (كتاب الفخري)، المصدر السابق.

والأدبية والعلمية التي تجمعت في بغداد خلال القرون الطويلة والتي ظلت فيها بغداد عاصمة زاهرة للخلفاء العباسيين.

أما الخسارة التي أصابت الحركة العلمية الإسلامية فلا يمكن وصفها، ولم ينحصر أثر هذه الكارثة في خسارة العدد الكبير من الكتب القيمة التي أبيدت تمام الإبادة، ولكنها امتدت فأهلكت من رجال العلم عدداً كبيراً، ولم تبق منهم إلا على فئة قليلة مشردة الأذهان، ولم يحدثنا التاريخ أن مدينة زاهرة بالحضارة الإسلامية قد اختفت في مثل هذه السرعة التي اختفت فيها بغداد، وأصبحت طعمة تلتهمها النيران المستعرة وتغرقها الدماء المرهقة. ثم تبع ذلك أن اقتحم العسكر السلطاني هجوماً ودخولاً من القتل السريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة، فما بالك بالتفاصيل[1].

وقد استمرت الحملة في المدن الأخرى من العراق، وتهاوت وتساقطت كل المدن واحدة بعد الأخرى لمجرد سماعهم بسقوط المركز، واستمر هولاكو خان) بالزحف نحو الغرب واحتل بلاد الشام حتى أوقفها مماليك مصر في موقعة (عين جالوت) التي وقعت في 3 أيلول 1260، وفاز فيها المصريون فوزاً كبيراً اعتبر أول فوز أصابه المسلمون ضد (المغول) على مدى السنوات الثلاثين التي تلت موت (محمد جلال الدين خوارزمشاة)، ومنذ ذلك التاريخ انحسرت موجة العنف المغولي، وأخذ المسلمون يرون أن القول بأن أعداءهم لا يقهرون، كان مجرد خرافة وكذبة وهمية، فاستجمعوا قوتهم من جديد وتمكنوا من أن ينتصروا عليهم في كثير من المواقع الفاصلة وخصوصاً موقعة (عين تاب) في (1277)، عندما تمكن (الظاهر بيبرس) من هزيمة المغول، هزيمة نكراء واستطاع أن يقتل منهم في هذه الموقعة 6770 جنديا[2]. وربما كان فوز المصريين أكبر وأوضح في

---

(1) انظر كتاب (الفخري لابن الطقطقي)، المصدر السابق، ص300 فما فوق.

(2) أدورد براون، المصدر السابق، ص568.

موقعة (موج الصفر) بالقرب من دمشق سنة (1303)، فقد استطاع الملك الناصر أن يجلب عند عودته إلى القاهرة 1600 أسير مغولي مصفدين في الأغلال، وقد حمل كل واحد منهم رأس قتيل مغولي، تتدلى من سلسلة في عنقه وسار بهم في المدينة، يتقدمهم ألف فارس من رجاله، قد شهروا حرابهم، وعلى كل واحدة منها رأس قتيل مغولي جلبوه معهم من الموقعة ..!!

وهكذا بدأت تتقهقر إمبراطورية المغول في أوائل القرن الرابع عشر، ففي إيران تهدمت إمبراطوريتهم بموت (أبي سعيد) في سنة (1335)، وتهدمت إمبراطوريتهم في الصين بعد خمسين سنة من ذلك التاريخ، بينما ظلت في روسيا الجنوبية حتى نهاية القرن الخامس عشر [1]، وكانت آخر بقاياهم في خوارزم وبخارى (وقد فقدتا استقلالهما في سنة 1868) وكذلك في القرم التي زالت قبل ذلك في سنة (1783).

5. الحركة الأدبية في العصر المغولي:

رغم كل الدمار الذي لحق بالعالم الإسلامي في فترة الغزو المغولي وحرقهم للكتب والمخطوطات الثمينة، إلا أنهم لم يشكلوا خطراً على مسار الحركة الأدبية والعلمية. ولا بد من ذكر بعض مشاهير الكتاب والأدباء الذين عاصروا وكتبوا في تلك الفترة والذين خلدهم التاريخ وأهمهم: ابن الأثير، وابن عربي، والجرجاني والجويني، وابن خلكان، وابن أبي أصيبعه، وياقوت الحموي، وفخر الدين الرازي، وناصر الدين الطوسي، وابن ميمون، وابن البيطار وشهاب الدين السهروردي وابن تيمية وآخرون وكل هؤلاء من فقهاء وشعراء وكتاب تاريخ وأطباء وعلماء. وكان ناصر الدين الطوسي وهو أحد علماء الشيعة في القرن الثالث عشر (1274 ـ 1201) الذي أسس مرصداً فلكياً في مراغا بأمر من (هولاكو خان) وحمد الله المستوفي. لكن كل هؤلاء وغيرهم كانوا ثمرة لبذرة كانت قد

---

(1) دوسون، المصدر السابق، ج 2، ص 186 ـ 183 .

زرعت في العصر العباسي الذهبي، والدليل أنه لم يظهر مثل هؤلاء فيما بعد. وأمام نوائب هذا الزمن والمحن التي نزلت على الناس، كانت النتيجة أن الحياة الدينية مالت لدى القوم سنة وشيعة على السواء نحو التصوف، ليس على طريقة كبار المفكرين، بل عن طريق تكاثر رجال الدين والأولياء الذين راحت التقاليد والأساطير الشعبية تنسب إليهم المعجزات والخوارق، أو عن طريق حلقات الدراويش الذين حاولوا بأعمالهم وحركاتهم أن يتواصلوا بالألوهية مباشرة أو بوصفهم أعضاء في جمعيات الأولياء وأن يستغلوا شعائر الطبقات الشعبية البسيطة[1]. وهكذا ظلت المنتجات الفكرية والأدبية مبعثرة لم تتجذر في كل المراحل لعدم توفر المناخ الملائم بالإضافة للاحباط واليأس الذي حصل بعد سقوط الدولة العباسية.

وراح الإرث التاريخي في الاستعانة المطلقة بالآله ورجال الدين أيام المحن العصيبة كنتيجة حتمية للتخلص من مخاطر الانقراض والهلاك، ولم يكن لدى الناس ما يملكون لحماية أنفسهم سوى الدعاء والتمسك بالعبادة والمبالغة في تأدية الطقوس الدينية لدرء الأخطار وكان ذلك موروثاً تاريخياً منذ عصر السومريين والبابليين لدى العراقيين.

6. نهاية الدولة الأليخانية (المغول):

إن انقراض الدولة المغولية الذي جاء نتيجة لعوامل عدة منها الانقسامات الداخلية التي وقعت في قلب الدولة الأليخانية، فعطلت كل نشاط فيها، وشلت كل حركة، وعجزت عن صهر القبائل المغولية في بوتقة واحدة، بعد أن قل عددهم، فعادت إلى حياة البداوة القديمة، ولم يعد داع إلى الفتح يدعوهم للاتحاد مع عناصر السكان الأخرى. وقد حال الرجوع إلى حياة البداوة في بعض الولايات، دون الإبقاء على إدارة مالية صحيحة تؤمن جباية الضرائب والرسوم المفروضة على مرافق الزراعة، واكتسبت القبائل

---

(1) أدورد بروي (تاريخ الحضارات العام)، ج 3، المصدر السابق، ص 555.

التركمانية والمغولية والكردية نفوذاً فاق بكثير النفوذ الذي تمتع به (الجيش النظامي)، فإينما جاء المغول بأقل نسبة عددية، برزت المطالب القومية في الولايات، وقام يغذيها فريق من ذوي الأخماع. وهكذا لم تلبث الدولة الإليخانية أن توزّعت إلى دويلات وإمارات، صار قسم منها من أبناء البلاد، بينما ظلّ القسم الآخر من أمراء التركمان والمغول، فقد سيطر التركمان في الولايات الغربية، بينما أصبح العراق وأذربيجان وأرمينيا خوال قرن وأكثر مسرحاً للمنافسات الدامية بين الاتحادين المتخاصمين وهما: (الخروف الأسود والخروف الأبيض) [1]، فكان أحدهما على المذهب الشيعي، كما كان الآخر على المذهب السني، وهي منافسة احتدمت وخالت، فأثرت في بعض النواحي وساعدت في تكوين الدولة العثمانية في آسيا الصغرى (تركيا) والدولة الصفوية في إيران بعد أن حصل فراغ في السلطة في المنطقة [2]، وسيأتي الحديث عنها في القسم الثالث من البحث.

7. حالة الخوف والرعب وآثار هجوم المغول على أوروبا وآسيا :

لكي نفهم ما فعله المغول في بلادنا، لا بد لنا من تسليط ضوء على ما جرى من خراب في مناخق أخرى. ومما لا شك فيه أن حالة الرعب والخوف التي بدأت تصل أخبارها إلى بغداد منذ هجمة المغول على بلاد خوارزم عام (1219)، وتسرب تلك الأخبار التي تدعو للقلق والريبة والذي خلفه هؤلاء المتوحشون من منغوليا وتركمانستان وما وراء النهر (آسيا الوسطى) والتي تسببت في اضمحلال أسرة الخلافة العباسية (العربية) وهروب الأتراك العثمانيين من تركمانستان إلى آسيا الصغرى ثم دخول أوروبا (القسطنطينية).

---

(1) التسمية تعود إلى نوع الشعار الذي يرفعه كل خرف في الحرب.

(2) بروي، المصدر السابق، ص 556.

لقد كانت آثار أو نتائج هذا الهجوم المشؤوم والذي تكلل بالوحشية المفرخة، وكما يذكر دوسون المؤرخ في كتابه (تاريخ المغول)، فيقول: (كان ممكنا أن نتهم باخلا المؤرخيين الشرقيين بالمبالغة، والإغراق في وصفهم، وقائع العصر المغولي، وإن وصفهم في كل وقت لا يتفق والشهادة المباشرة للمؤرخين الغربيين تماما، إلا أن هؤلاء الغربيين قصوا بدورهم ما فعله المغول في الجنوب الشرقي لأوروبا بما يشبه رواية المؤرخين الشرقيين تمام الشبه، ولم يذكروا وحسب إغارتهم على روسيا وبولندا والمجر، بل في داخل سيليزيا ومرايا وذا الماسيا، حتى ما حدث في واقعة ليجنتز المهولة (في التاسع من إبريل 1241)، حين انهزم جيش مؤلف من ثلاثين ألف جندي ألماني ونمساوي ومجري وبولندي تحت قيادة هنري الملقب بالورع (Henry the Pious) دوق سيليزيا أمام الجيش المغولي، وقبل ذلك التاريخ بنحو عامين ظهر فزع واضطراب عظيمان بسبب هذا الجيش السفاح في أوروبا الغربية إلى حد أن المؤرخ الحولي لذلك العهد ماثيو باريس (Matthew Paris) ذكر في تاريخه ـ في ذيل وقائع عام (1238) أن صيادي الأسماك من أهالي جوث لاند (Goth Land) وفريز لاند (Fries Land) لم يجدوا جرأة على عبور بحر الشمال في يارموث (yarmouth)، ونتيجة لذلك زادت في ذلك العام سمكة منها بعملة فضية واحدة حتى في الأنحاء البعيدة عن شاخئ البحر. وفي تلك السنة نفسها قدم وفد من خرف الإسماعيلية أو فدائي قلعة (الموت) إلى فرنسا وانجلترا يطلبون مساعدة فرنسا والدول الأوروبية الأخرى ضد هؤلاء الأعداء المرعبين، لكن أسقف وينشستر (Bishop of Winchester) لم يجب خلبهم وقال في وصفهم: (علينا أن ندع هؤلاء الكلاب يبتلع بعضهم بعضاً حتى يفنوا يوهلكوا جميعاً، وإذ ذاك نبني فوق خرائبهم الكنيسة المقدسة وحينذاك، سوف تصير الدنيا بأسرها رعاية واحدة لها راع واحد) [1]. ومن المفيد أن

---

(1) دوسون (تاريخ المغول)، المصدر السابق، ص 7.

نـنقل هنا رواية ماثيو بشأن المغول حين يـذكر عـن وقـائع عـام (1240) مـا يلـي: (بمـا أن سعادة الإنسان الفاني لا يجب أن تـدوم وتبقـى ولا تـستمر السعادة الدنـيويـة بـدون محـن وآلام خويلة، ففي هذه السنة هاجم شعب مكروه منشأه شيطاني اسمـه (عسكر التتـار) الذي لا يحصـى مـا هـو خـارج بلادهـم الجبليـة، فشقوا الصخور الصمـاء (جبـال قوقـاز)، وهاجموا المعالم مثل شياخين جهنم (تارتاروس)[1] وعفاريتها، ولهذا، السبب نفسه يجب حقـا تـسميتهم التتـار، غطـوا البسيطة مثـل الجـراد وأحلـوا بـبلاد شـرق أوروبـا الشقاء الفظيع، وأحالوا هذه المناخق دماءاً ونيرانـاً، وبعـد أن عـبروا أراضـي المسلمين سـووا المـدن بالتراب، وخربوا الرياض والجنـان وأهلكـوا الحضـر والمـدر، وإذا مـا نجـا مـن حـد سـيوفهم مصادفة مسكينا استأسروه وأنزلوا أحـط درجـات العبوديـة، ووضعوه في الصفوف الأولى لقتال إخوته وجيرانه، أما من قصر عن الحرب، أو استتر أمـلاً في الحيـاة فقـد بحثـوا عنـه وأهلكوه، ومن حارب من أجلهم بشجاعة أو هزم لهم جيشاً أو فتح لحسابهم فتحـا عظيمـا لم يسمع منهم كلمة شكر توابا، وبخاصة أنهم كانوا يسلكون مع أسـراهم كـأنهم حيوانـات وبهـائم لأنهـم ليسـوا بشـراً بـل حيوانـات مفترسـة وضـارية وعفاريـت في صـورة بشـر، متعطشة للدم جعلوا من لحم الإنسان والحيوان غذاء لهم، لباسهم من جلـد البقـر المـدعم بأسـياخ الحديـد وأجسـامهم قصـيرة القامـة وسميكـة وقويـة لا تمـل أو تـتعـب أو تنهـزم، جردوا ظهورهم من الكسـاء ودرعـوا صدورهم بالـدروع، كـانوا يتجرعـون بلـذة وسـعادة دمـاء أبنـاء نـوعهم، خيـولهم عظيمـة وقويـة تأكـل الأغصـان بـل حتـى الأشـجار، وبمـا أن راكبيها قصار القامة فكانوا يمتطونها بمعونة سلالم. هؤلاء الناس يعدمون كـل القـوانين والقواعـد الإنسانيـة ولا يعرفون الراحة واللذة وأشد فتكاً من الأسود والدببة، لهـم قـوارب مصنوعة من جلود البقر، ولكـل عشـر أو إثنـا عشـر مـنهم قـارب واحـد، يتقنـون دقـائق

---

(1) ماثيو (Hakluyt Society) المجلد الرابع، ص 78 ـ 76 ، لندن (1900).

الملاحة والسباحة حتى أنهم يعبرون أعظم الأنهار وأسرعها بلا خوف أو وجل. إذا لم يتيسر لهم الدم يشربون الماء المخلوط بالطين، لكل منهم سيف له حد واحد والعديد من الخناجر، وهم رماة سهام مهرة لا يماثلهم مخلوق ولا يفرقون بين الشاب والعجوز والرجل و المرأة، هاجموا بسرعة البرق البلاد المسيحية، وثغورها وانصرفوا إلى حب الدم وسفكه وأحلوا في القلوب الرعب والفزع بما لا مثيل له، ولهذه الأسباب أراد المسلمون الاتحاد مع المسيحين على أمل أن يقاوموا هؤلاء الشياخين بقواتهم المتحدة ... إلخ).

لقد أصبح واضحاً الآن أن الهجمة المغولية لم تكن مقتصرة على بلادنا، بل أنها جاءت متأخرة إلينا من قبل (هولاكو خان) بعد أن أخذت أكلها في أنحاء مختلفة من آسيا وأوروبا. والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا استطاع الآخرون من تجاوز تلك الكارثة بينما لم يستطع العالم الإسلامي الشرقي (الجزء الآسيوي) من أن يستفيق منها ويحذو حذو الآخرين في السير قدماً نحو التقدم في طليعة العالم المتحضر، بل وأكثر من ذلك فإن الهجمة المغولية لم تصل إلى شمال إفريقيا والأندلس المسلمة ولم يمس تلك الأقسام أي تخريب أو أذى بينما ظلت تلك الأجزاء هي الأخرى متخلفة بنفس الدرجة. ولا نريد هنا أن نعيد ما نشر في كتب التاريخ الكلاسيكية التي تعدد الأسباب وتسطرها تسطيراً رتيباً في البحث عن أسباب سقوط الخلافة العباسية ابتدأ من ضعف الملوك وخيانة القادة والوزراء من أمثال ابن العلقمي وما شاكل ذلك من إلقاء اللوم على هذه الفئة أو تلك في التواطؤ مع العدو. إن السبب الرئيسي هو أن المسلمين لم يؤسسوا لدولة رصينة ثابتة مستندة على أسس ومبادئ تنسجم مع طبيعة المرحلة التي كان يعيشها الناس في ذلك العصر. ففي أوروبا مثلاً استطاعوا في ذلك الزمان أن يؤسسوا لفلسفة تربط العلاقة بين الفرد في المجتمع والحاكم، وقد استندوا منذ البدء على الأسس الفلسفية التي وضعها فلاسفة اليونان أمثال سقراط وأفلاطون، بينما بقينا على العقليات والمبادئ التي أملتها علينا مرحلة العبودية بما فيها من أفكار وعقائد لا تفسح مجالاً للإنسان في أن يستخدم

عقله في تفكير لحل مشاكلة بنفسه، وبقيت قيم البداوة وحكم القبيلة هي السائدة عبر التاريخ منذ عصر الجاهلية وما قبلها وحتى بعد تأسيس معاوية للدولة الأموية الإسلامية المستندة على الحكم الوراثي وتداول السلطة بالوراثة وحكم الخلافة لإدارة شؤون الإمبراطورية من قبل الخليفة دون الاستعانة حتى بمجلس شورى أو أي شكل من أشكال تبادل الآراء والخروج بصيغ صائبة، تستطيع أن تجنب البلاد من الكثير من المشاكل والمحن.

لقد وصل إلى السلطة رجال سمّوا أنفسهم خلفاء (بالوراثة)كان بعضهم لا يستطع من إدارة قرية واحدة[1]. لقد أثبتت حادثة الهجوم المغولي وزوال الدولة العربية الإسلامية، مدى هشاشة الإدارة وسلطة الدولة وتماسك المجتمع برمته. إن المجتمع المبني بهذه الهشاشة لا يستطيع استعادة كيانه مرة ثانية بسهولة، لقد حصل قبل هذا التاريخ حادث مماثل رغم اختلاف الظروف، وكان ذلك هو هجوم (القائد الفارسي) كورش من الشرق وتحطيمه للدولة البابلية وتوغّله نحو الغرب إلى مصر، وكان ذلك للسبب نفسه وهو اعتماد القوم على القضاء والقدر، وتمسّكهم باكتساب الحاكم (القدسية الآلهية) من خلال عقلية العبودية، التي مكّنت الأعداء من التوغّل وإنهاء حضارة بأكملها، لم يبق منها سوى الأحجار والصخور والمنحوتات والكنايات والكتابات المسمارية.

وهكذا نجد مرة أخرى كارثة تأتي من الشرق وتكتسح حضارة بُنيت على هشاشة وبدون ركائز وأسس متينة تمكّنها من استرجاع قوتها والمضي قُدما إلى الأمام بعد زوال تلك الكارثة إسوة ببقية الأمم التي أصابتها كارثة مماثلة وربما بدرجة أقوى وأكثر

---

(1) شاكر النابلسي (خلفاء المسلمين) (كتاب يبحث في سيرة الخلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين اشارة إلى القدرات الفردية لهم ضمن الفروقات في الفئات الغمرية أثناء توليهم سدة الحكم خاصة في المراحل الأخيرة من العصر العباسي.

عنفاً. هذا من ناحية، ومن جانب آخر فطالما نجد الأرضية الخصبة في العودة إلى البداوة وحياة الصحراء باقية كما هي، يصبح من السهل العودة إليها وترك متاعب المدينة المدنية، والذي لم يكن بنائها رصيناً و مستوعباً من قبل الأكثرية بحيث يصبح التمسك بتلك الانجازات أمراً حتمياً، ولا يزال هذا الموروث قائماً إلى يومنا هذا، إذ نجد القيم البدوية تتغلب كلما مرت البلاد في ظروف صعبة، ولا غرابة إذن في حجم التحطيم للبُنى التحتية الذي حصل بعد سقوط النظام الدكتاتوري عام (2003) في العراق الحديث، مباشرة بسبب هشاشة بناء الدولة في عصرنا الحاضر بالإضافة للأسباب الأخرى، وكان التدافع والتناحر من أجل السلطة الناجم عن الطبيعة البدوية واحداً من تلك الأسباب.

8. دخول (تيمورلنك) إلى بغداد :

بقي لنا في ختام هذا الجزء من البحث أن نلقي نظرة في مذبحة بغداد على يد غاز آخر هو (تيمورلنك). فقد ولد في 8 إبريل عام (1336)، تيمور الذي يعرف بلنج (الأعرج الطويل). وقُدّر له أن يصل إلى ما وصل إليه تقريباً (جينكيز خان) من العظمة والقوَة ويكوَن عقاباً مؤلما لمسلمي آسيا الغربية والوسطى[1]، بينما لا يزال يعتبر في مدينة (سمرقند) بطلاً قومياً من الطراز الأول.

لقد بدأت الهجمات الأولى لهذا القائد على إيران حيث جرت عام (1380) حينما فتح خراسان وسيستان بينما وقع هجومه الثاني على مازندران، واتسعت أعماله الحربية فوصلت أذربيجان وعراق العجم وجرجان وانتهت بفتح شيراز، وذبح سبعين ألفا في أصفهان وبدأ هجومه الثالث عام (1389)، على شيراز وهراه، وكانت كل تلك المناخق تحكمها أسر تسلطت نتيجة لوجود فراغ سياسي بعد انهيار المغول وزوالهم من

(1) ادوارد بروان، المصدر السابق، ج3، ص191.

المنطقة وكانت بغداد تحكم من قبل آل جلاير والمسمون (بالجلائريون) بينما كان آل المظفر يحكمون فارس وعراق العجم وكرمان، وهكذا فقد قدم في فترة انحطاط الدولة المغولية وزوالها رجلان اسمهما شيخ حسن لُقب أحدهما بالكبير والآخر بالصغير، أما الصغير فهو حفيد الأمير تشوبان، الذي تعالت عظمته وقوته عام (1319)، بسبب زواجه من ستي بيك، إبنة (أولجايتو) وأخت (أبو سعيد بهار) (المغوليين)، وكانت له بنت إسمها (بغداد خاتون)، وفي أواخر عام (1392) رفع تيمور رايته صوب جنوب إيران بعد أن عبر ولايات الدامغان وسمنان والريَ وقزوين والسلطانية وكردستان وبروجود في عام (1393)، وأهلك أثناء سيره جمعاً عظيماً من اللر (اللر هم أكراد كرمشاه وما جاروها)ووصل إلى دزفول، ودخل الشوش وتوجه إلى شيراز، وأثناء طريقه فتح القلعة المنيعة (قلعة سعيد)[1] وبعد ذلك قتل جميع الأسر المظفرية وأمر بترحيل أصحاب الحِرف والصُناع في بلاد فارس والعراق إلى سمرقند، ثم توجه إلى بغداد واستولى على قصر السلطان الجلائري (أحمد) بعد أن فرَ من أمامه ولحقوا به بالقرب من كربلاء وأسروا بعض نسائه وأولاده وعادوا بغنائم كبيرة. ولكن أحمد هرب بنفسه ونجا من الأسر، ثم فتح القلعة المعروفة في تكريت التي كان جنودها يدافعون عنها بشجاعة وأقام فيها بعض الوقت ثم عبر كركوك وأربيل والموصل. وقد قام تيمور بحروب عديدة حتى أنه اتجه نحو جنوب روسيا وفتح موسكو، وظلت هذه المدينة في ربقه سيطرته مدة تزيد عن العام[2]، وهاجم الهند بجيش مسلح بالنار والسيوف. ولا يهمنا تفصيلات حوادث هذه الحروب سوى معرفة المدى الذي توغَل إليه هذا القائد المغولي الذي يرجع

---

(1) شرف الدين علي اليزبدي (ظفرنامة)، ص619.

(2) شرف الدين المصدر السابق، ج1، ص761.

نسبه إلى (جنكيزخان) وهو حفيد (قبلان خان). وبعد فتحه لبلاد الشام بجميع الساحل السوري على البحر الأبيض إلى عكا عطف تيمور عنانه جنوب بغداد راجعاً إليها مرة ثانية وكانت عاصمة السلطان أحمد جلاير الذي فرَ في المرة الأولى وبعد فتحها عام (1401)، أقام مذبحة عظمى في بغداد فقتل آلاف الأشخاص لِقاء قتل بضعه من قواد جيشه، هلكوا في حصار تلك المدينة، وأمر كل واحد من جنوده بأن يسلم رأس رجل بغدادي، وقد ذكر ابن عرب شاه أن جيش تيمور في هذه الواقعة بلغ عشرين ألفاً، وكان على كل واحد منهم أن يسلم رجلين من بغداد، وذكر شرف الدين في هذه الواقعة: (راح سوق القتل إلى حد أن دلال الأجل كان يبيع بثمن واحد الشيخ ذا الثمانين عاماًوالطفل ذا الثمانية أعوام، واشتعل موقد الغضب إلى درجة أن كسوة وجود المتعم صاحب المال كانت تحترق على منوال واحد مع الفقير الرقيق الحال). وهكذا كانت الكارثة الأخيرة لبغداد التي حل بها الخراب أقصى درجاته، على يد القائد المغولي الأخير، وكان تيمور كعادته في كل موقعة يضع رؤوس القتلى على هيئة هرم أو منارة ويتركها ليبث الرعب في النفوس. وقد توجه بعدها إلى أنقرة في تركيا لقتال العثماني بايزيد بن عثمان مؤسس الدولة العثمانية هناك، وجرت الحرب التاريخية التي هزم فيها الأتراك العثمانيين هزيمة فادحة ووقع السلطان بايزيد الأول نفسه في الأسر [1]، واستمر تيمور في مقاتلة الأتراك العثمانيين في كافة أرجاء تركيا (آسيا الصغرى) ومات بايزيد عام (1403)، بينما لم يترك تيمور شهوته في السيطرة على العالم بحجة نشر الإسلام والقضاء على الوثنية [2]. وأعد العدة للهجوم على الصين لكن المرض هجم عليه وتوفي في 18 فبراير عام (1405)،

---

(1) للمزيد من تفاصيل المعركة راجع كتاب على الوردي (لمحات من تاريخ العراق الحديث)، ج1.

(2) براون، المصدر السابق، ج 3، ص 237.

وهو في الحادية والسبعين من عمره، وعيّن حفيده بير محمد ابن جها في خلافته. وبعد موت تيمورلنك جاءت العصور المضطربة والتي اتصفت بالفوضى والقلاقل، وقد ظلت بلاد الرافدين وإيران تحت حكم القرة قوينلو التركمان (دولة الخروف الأسود)، والآق قوينلو (دولة الخروف الأبيض). كما ذكرنا إلى أن انتهى قرن كامل من الزمان (1501)، الذي ظهر فيه الصفويون في إيران والعثمانيون في تركيا، بينما استمر التيموريون وأحفادهم في الهند بعد خردهم من إيران إلى عام (1857)، بعد ثورة الهنود عليهم، وجيء الاحتلال البريطاني للهند.

الخاتمة

الخاتمة

الخلاصة والاستنتاجات:

لعلنا بدأنا نقترب أكثر في فهم الشخصية العراقية، والفكر العراقي بعد هذا الاستعراض السريع لمراحل تكوين الدولة الاموية والعباسية والعصر المغولي، تلك المراحل الحساسة والهامة في حياتنا، والتي تركت بصماتها واضحة في حياتنا الحاضرة، من خلال ما ظهر فيها من انشقاقات مذهبية وطائفية وصراعات دموية، ألقت بظلالها على ترسيخ عداوات، لا يمكن إنكارها أو غض الطرف عنها لتطييب الخواطر. لقد كانت جولة في التاريخ صاخبة بالاحداث الدموية والصراعات العنيفة، ورُب سائل يسأل: إن كل هذه الحوادث والعنف السياسي المتمثل بالثورات والانتفاضات والاغتيالات ووسائل التعذيب، التي استخدمت وأكثر منها في مناطق عديدة من العالم، وتم تجاوزها والتغلب على آثارها بينما لم تستطع البلاد العربية والإسلامية من تجاوز ذلك، وبقيت متخلفة عن ركب الحضارة الحديثة..لماذا؟ للاجابة على هذة التساؤلات، لا بد لنا من استعراض سريع لكيفية حصول النهضة الاوروبية التي قادت العالم لكل ما نحن عليه من ازدهار حضاري عالمي في الوقت الحاضر،لا يوجد فيه وجه للمقارنه مع الحضارات القديمه.

أولاً:

كما قلنا في الفصل الثالث بأن الهجوم المغولي أتاح الفرصة للأوروبين التوغل في أنحاء آسيا وبالذات إلى الصين واستطاعوا من خلاله نقل العديد من منتجاتهم الفكرية ومخترعاتهم العلمية، بالاضافة إلى نقلهم العديد من المخطوطات العربية إلى اللاتينية ساعد في بلورة وتحديث فلسفات وأفكار تعطي حرية أكبر للعقل البشري في البحث والاستقراء والاستنتاج والتجريب وإلى حل المشاكل والمعوقات التي يواجهها المجتمع.

لقد استبقت الفلسفة الحديثة إلى الظهور عندما وحيثما بدأ كل شخص في التفكير بصورة مستقلة عن المعتقدات والديانات، التي كانت سائدة قبل ذلك، والتي كانت ضمن مرحلة العبودية والاقطاع منسجمة مع عقلية القوم في تلك المرحلة ناتجه عن ظروف تلك المرحلة الاقتصادية والاجتماعيه.

وبعد التطور الحاصل في المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ظهر جيش من المفكرين والفلاسفة الذين أسسوا لقاعدة تبنى بموجبها المجتمعات المتطورة. وقد كان في بدايتها الفيلسوف روجر بيكون[1] (1214 ـ 1294) وعلى الرغم من أنه لم يكن له سوى تأثير ضئيل على المفكرين الآخرين. فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن روجر بيكون وآخرون أخذوا كثيراً من علومهم من الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية[2]. وكان إحياء دراسة الأدب اليوناني والروماني في إيطاليا منذ عام (1440) في محاولة واعية لفهم الفلسفة اليونانية والتي بدءت بشكل فاعل عام (1453)، والتي اعتبرت بداية للنهضة الاوروبية بعد أفول مفاهيم القرون الوسطى، وذلك بعدما استولى الأتراك (العثمانيون) على القسطنطينية، وقضوا على الامبراخورية البيزنطية بالكامل على يد محمد الفاتح، حيث جاء معظم الباحثين اليونانيين إلى إيطاليا، وثارت فيهم الرغبة لفهم الفلسفة اليونانية القديمة من وجهة نظر علمانية. ولقد اعتبر هذا العام (1453) بداية لعصر النهضة الاوروبية من قبل المؤرخين. وكذلك لا بد أن نذكر أن المترجمات التي وضعت لمؤلفات العلامة المغربي (ابن رشد) وغيره من علماء الطور الثالث للمعتزلة، الذين ظهروا في العصر العباسي المتأخر كانت لها الأثر الكبير في ازدهار الفلسفة الحديثة

---

(1) روجر بيكون: هو ليس فرنسيس بيكون الذي ظهر في عصر العلم الطبيعي عام 1600، وكلاهما انكليزيان.

(2) (أحمد صالح العلي ((العراق في التاريخ (المصدر السابق نفسه (ص483).

في عصر النهضة الاوروبية[1]. إن حقبة الفلسفة الحديثة التي بدأت عام (1453)، قد اتخذت مراحل متعددة ولم تكن مجرد أفكار في مرحلة معينة، إذ أن كل مرحلة صاحبها تطور تقني في الجانب الآخر وقادها إلى مرحلة أخرى أكثر تقدما وهكذا. وتقسَم تلك المراحل كما يلي[2]:

1. الفترة الأولى ـ هي الفترة الإنسانية التي بدأت من عام (1453) حتى موت برونو (Bruno) عام (1600) وكانت قيادة الفلسفة في إيطاليا، وقد اتسمت ببعث الروح الفلسفية في دراسة الفلاسفة القدماء أمثال أفلاطون وأرسطو.
2. الفترة الثانية ـ فترة العلم الطبيعي :ـ ابتداء من عام (1600)حتى عام (1690) ويظهر فيها اهتمام كبير بما أنتجه العلم الحديث مثل اسحق نيوتن وغاليليو وكوبر نيكوس وغيرهم.

وقد لمع فيها فرنسيس بيكون، وتوماس هوبز في إنكلترا، وديكارت، واسبينوزا، وليبنس في قارة أوروبا، وقد قبل جميع فلاسفة تلك الفترة بوعي مناهج ووجهات نظر العلماء الطبيعيين المعاصريين لهم، ولم يترددوا في تطوير مذاهبهم بما ينسجم وتلك المخترعات العلمية، أمثال كروية الأرض، وأن الكواكب تدور حول الشمس، وقوانين نيوتن وغيرها من علوم الفيزياء والكيمياء والطب والاحياء والرياضيات والهندسة وعلم الجيولوجيا.

3. عصر التنوير ـ وتشمل الفترة بين (1690 ـ 1781) ومن أبرز المفكرين فيها: لوك، وباركلي وهيوم في بريطانيا، وفولتير وروسو في فرنسا: وقد اعتقدوا أن

---

(1) عبد الله خليفة (الاتجاهات المثالية في الفلسفة الإسلامية)، ج3.

(2) وليم كلي رايت (تاريخ الفلسفة الحديثة (ترجمة محمود سيد أحمد (المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة، (2005).

الموضوع المناسب لدراسة الجنس البشري هو الإنسان لا الكون، لقد كان هؤلاء الفلاسفة هادمين أقوياء للخرافة ومناصرين للحرية الشخصية وحقوق الإنسان، وقد حركت الثورة الانكليزية (عام 1688)، فكرهم، وكان تأثيرهم سبباً من أسباب الثورة الأمريكية (عام1776) والثورة الفرنسية (عام1789) التي أعلنت حقوق الإنسان علناً.

4. الفترة المثالية: وتشمل تلك الفترة ما بين (عام 1781) وحتى وفاة هيجل (عام 1831) ومن أبرز فلاسفة ذلك العصر هم: كانت وهيجل وفشته، ولقد قاد الألمان بأصالة تفكيرهم الفلسفي العميق العالم بالدرجة الأساس بينما عبَر شعراء إنجليز من أمثال: ورد ودورث وشيلي وكولبردج، وتينسون وبراوننج، بالإضافة إلى اميرسون في أمريكا، عن أفكار تشبه إلى حد كبير أفكار الفلاسفة المثاليين الألمان .

5. الفترة المعاصرة منذ 1831 وحتى الآن : لقد قدمت هذه الفلسفة قبول التطور قبولاً عاماً في علم الفلك والجيولوجيا والبيولوجيا، والتي أسهمت في تقبَل نظريَة التطور وأصل الإنسان لجارل دارون، وقدَمت منهاجاً مختلفاً من التفسير للتاريخ، والعلوم الاجتماعية المختلفة. وقد خلقت الفترة المعاصرة هذه المذهب الواقعي والبراجماتي، تلك المذاهب المميَزة للقرن العشرين في بريطانيا وألمانيا وأمريكا، ونذكر من بين فلاسفة هذه المرحلة: شوبنهور، وكونت، ومل وسبنسر، ونيتشه، ورويس وماركس وإنكلز، وجيمس، وبرجسون، وديوي والكسندر ورسل وغيرهم.

من هنا يمكن القول بأن النهضة الأوروبية لم تكن قائمة بمحض من مصادفة أو بين ليلة وضحاها، بل مرت بسلسلة من التطوَرات الفكرية المتراكبة مع بعضها البعض، كانت بمثابة مفاتيح تقود المجتمع والعالم نحو الرُقي، والتقدم ومواجهة المصاعب. وقد استغرق ذلك البناء الفكري فترة طويلة من الزمن، تم استيعابه عبر الأجيال ومنذ النشأة الأولى في مرحلة الدراسة الابتدائية فصاعداً، وبعد أن أصبح التعليم لديهم منتشراً بشكل

كامل، ليشمل معظم فئات وطبقات المجتمع. وقد استطاعت تلك الفلسفات أن تجد مناخاً للنمو والتجذر عندهم من خلال ملائمتها مع الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لديهم.

وفلسفياً تبدو للوهلة الأولى، أنها بسيطة وليست بذات أهمية، لكنها تلعب الدور الأكبر في قيادة المجتمع، نحو التقدم والسموّ، إذا ما تم استيعابها من قِبل الأغلبية ولتوضيح ذلك:

لا بد لنا من تلخيص أهم المبادئ التي جاء بها هؤلاء الفلاسفة المحدثين ولنبدأ أولاً بمرحلة العلم الطبيعي، لما لها من علاقة في واقعنا، وحياتنا الاجتماعية:

ففي مرحلة العلم الطبيعي ميّز فرنسيس بيكون بين أربعة أوهام وأخطاء تلازم عقول الناس، وتعوق سعيهم إلى الحقيقة وبحثهم عنها. وأول هذه الأوهام هي أوهام القبيلة (Idea of Tribe) التي يشترك فيها الجنس البشري كله، وتلازم طبيعة البشر الخالصة. ومن هذه الأوهام الميل إلى افتراض نظام واطراد في العالم أكثر مما هو موجود بالفعل، ولذلك اعتقد العلماء أن الأجرام السَماوية تتحرك في دوائر كاملة، وأن كثافة ما يسمى بالعناصر تساوي عشرة إلى واحد.

ومن تلك الأوهام أيضاً إذا تبنيّنا رأياً ما، فإننا قد لا ننتبه الا إلى الدَليل المؤيد له، ونهمل الدَليل المناقض له. وذلك يفسر اعتقاد الإنسان في الطالع والأحلام والتنجيم وخَرافات أخرى، وبوجه عام فإن الأمثله التي تؤيد رأياً ما ينتبه إليها في الغالب أكثر من الأمثلة السلبية، على الرغم من أنه يجب إعطاء كلتيهما أهمية مُتساوية. ومن تلك الأوهام أيضاً: أنَ الأشياء التي تداهم العقل وتدخل إليه متوائمة او متلازمة، وتملأ بالتالي الخيال، وتؤثر في النَاس بقوَة، حتى أنهم يقفزون إلى نتيجة مؤداها أن كل الأشياء الأخرى لا بد أن تكون مُتشابهه (وهذا ما يُسمى الآن بمغالطة التعميم المُتسرَع). إنَ

(الـذهن البشـري لـيس موضـوعياً غـير متحيـز (بـل) تخـيَم عليـه (سُحب الانفعـالات والرَغبات، حتى أن النّاس لديهم استعداد لأن يعتقدوا فيما يـرغبونـه، ولذلك يسـتعجلون ولا يتأنون في البحث، ويندمون بالتالي على وقائع حقيقية، تكمن وراء آمالهم، ويأسـفون عندما ينـاقض نـور التجربة كبريائهم، وغـرورهـم ويعوق الذهن البشري، علاوة على ذلك (بلادة الحواس، وعجزها وخداعها) حتى إن ما يمكن رُؤيتـه مُباشـرة يفـوق المبـادئ غـير المرئيَة التي تستنبط من استدلال قائم على تجارب. وكم كُنّا ولا زلنا نُعاني نحـن في بـلاد الرافدين، من هذه الأوهام ولا تزال تعيش فينا إلى اليوم شإنا أم أبينا.

وثاني هذه الأوهام، أوهام الكهف (Cave)، وهـي خاصـة بكـل إنسـان فـرد، لأن كُـلاً منـا يعيش في كهف صغير، أو يعيش في مغارة خاصة، وله طريقة خاصـة بـالتفكير تـرجـع إلى الوراثة والتربية والعادات والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي نعيشها.

ولـذلك يغـالي بعـض النّـاس في التشـابهات بـين الأشـياء، بينمـا يغـالي بعضـهم في الاختلافات بينها. ويحب بعضهم القديم بإفراط ويحترمون السابقين بشكل فوق المعتـاد، إنَ المبالغـة في حـب القـديم والقـدماء جعلـهم يتصـوَرون بـأنهم عمالقـة مـن نـوع خـارق للعـادة، فمـثلاً كـان يتصـوَر الـبعض أن القـدماء كـانوا طـوال القامـة، بحيـث إذا أرادوا أن يصطادوا السمك، يذهبون إلى البحر، ويمسكوا بأيديهم أية سمكة، ويدفعوها مقابـل عـين الشمس حتى تتحمَص، وتؤكـل مباشـرة[1]، وكمـا كنّـا نسـمع عـن عـوج بـن عنـق، ونحـن أطفال.

هذا التكبير والتهويل بمن يحبّون، يصل بهم إلى تصوَرات خياليـة في حجـم أولئـك الناس وسطوتهم، في حين وبالمقابل نجد أن بعض الناس أسرى لكل ما هـو جديـد . ونجـد

---

(1) طـه حسـين، (في الشـعر الجـاهلي)، دار المـدى للثقافـه والنشـر دمشـق (2001)، (الطبعـة الأولى، (1926))، ص 123.

مثالاً على ذلك، من يتغنى بكل ما يأتي من الغرب المتقدم ويعتبره مثالياً بالمطلق في عصرنا الحديث هذا.

وثالث هذة الأوهام، هي أوهام السوق (Market) حيث يتقابل الناس معاً، ويتفاهمون عن طريق اللغة، ولأن الكلمات يكون أصلها في عقل الإنسان العادي، فكثيراً ما لا تكون مناسبة لبحث علمي دقيق، فتكون النتيجة أنّ الناس يتجادلون حول الكلمات، يعجزون عن تعريفها بطريقة مناسبة، فبعض الكلمات موروثة من آراء غامضة من الماضي، ويمكن تجنبها عن طريق رفض النظريات التي أدت إليها، مثل الحظ، والمحرك الأول، وعنصر النار، وهناك كلمات أخرى، تضرب بجُذور عميقة في الاستعمال البشري، حتى أنه يصعب التخلص منها، مثل كلمة (رطب) وحديثنا مملوء بمثل هذه الكلمات، التي تؤدي إلى خلط لا حدّ له، فإذا لم يكن هناك اتفاق على تعريف لتلك المصطلحات يصبح الجدل فيها هراء وعبث.

وآخر هذه الأوهام، أوهام المسرح (Theatre) التي تتسرّب إلى عقول الناس من معتقدات الفلسفات المختلفة. فجميع المذاهب التي وصلت إلى عصر بيكون، لم تكن في رأيه سوى (مسرح كبير جداً يمثل عوالم من خلق (أناس) على غرار نموذج غير واقعي وخيالي).وتحت هذا النوع من الأوهام يرى أرسطو، من حيث أنه ممثل للفلاسفة العقلي، ولأنه حاول أن يقنع العالم في مقولات من اختراعه الخاص، دون أن يرجع أولاً إلى الطبيعة، ويلاحظ الوقائع الفعلية، بل حدّد من البداية نتائجه. ثم عاد بعد ذلك إلى التجارب ليؤكد ما قرّره سلفاً. لقد كان بيكون يعتقد أن بعض المعتقدات الدّينية، مثل وحدة الآلة، يمكن البرهنة عليها عن طريق العقل البشري، دون الحاجة إلى نزول وحي أو معجزات، ويندرج ذلك ضمن مجال الدين الطبيعي. لكن ما يعارضه بشدة هو محاولة إقامة أي شيء علمي أو فلسفي على تطبيق حرفي لتوكيدات الدين الموصى بها. إن إقامة مذهب للفلسفة الطبيعية، على الاصحاحات الأولى من سفر التكوين، أو سفر أيوب هي

كما يقول (بحث عن الميت بين الأحياء).وقد حاول بيكون أن يُحرر العلم والفلسفة من اللآهوت الدجماتيكي^. ولم نعد اليوم نتوقع أن يُدخل عالم من علماء الفيزياء أو عالم من علماء البيولوجيا، مُعتقدات دينية في دراسات علمية خالصة، ولا أن يشعر على أي نحو أنه مُلزم بأن يفسَر الطبيعة بطريقة تجعلها مطابقة للمعتقدات الدينية[1]. وهو ليس شاكاً دينياً، لأنه يعتقد أنه يمكن البرهنة على وجود الله من الناحية الفلسفية، وأن أركان الدين الموحى بها تقوم على الإيمان بسلطة الإنجيل والكنيسة، وليس بيكون شاكاً علمياً، لأنه يعتقد أن في الإمكان اللامحدود لتقدم المعرفة. ويعتقد أيضاً أنَ الواقع يوجد مُستقلاً عن أي شيء نُفكّر فيه، ولا يتأثر بما نعرفه عنه، وأنّه يجب علينا دراسة الطبيعة كما هي، لكي نسيطر عليها، وليست الحقيقة بأي معنى لها رهناً برغبتنا وإرادتنا[2]. ولا ندري كم هو حجم الاوهام التي تكبل عقول الكثيرين من الشباب في عصرنا الحاضر ونحن بأمس الحاجه لمن يزيلها ويخلصنا من الاقدام على بعض الاعمال الارهابية التي تؤدي إلى التهلكه والدمار وأهم من كل ذلك فإن بيكون رفع شعار (المعرفه قوة).

أمّا توماس هوبز (1588 ـ 1679) فيُعد أكثر الفلاسفة الإنجليز أهمية، في الفترة من بيكون إلى لوك، وهو صاحب العقد الاجتماعي المعروف. ويرى هوبز أن كل إنسان في حالته الطبيعية، تلك الحالة السابقة على تكوين الدولة السياسية* ، كان يبحث عن بقائه، وإشباع رغباته الخاصة بلذات أنانيّة، مثل المغنم والمجد. ولا وجود للأخلاق كما

---

(1) H.Hoffding، History of ModernPhilosophy، Vol. 1.

(2) William Kelley Wright (A history of Modren Philosophy،

^ الدجماتيكي ـ التقيد بالنص الروحي للامور الحياتية دون اللجوء للعقل .

* المقصود بالحالة الطبيعية في الزمن الذي يعيش فيه الإنسان القديم في العصور الحجرية الأولى وقبل نشأة التجمعات البشرية الأولى أي قبل أن يصبح الإنسان اجتماعياً.

نعرفها الآن. ولكل واحد الحق الكامل فيما يستطيع الحصول عليه، والمحافظة عليه، ولا وجود لشيء مثل القانون أو النظام. والنتيجة الحتميّة لذلك هي (حرب الكل ضد الكل)، لأن النّاس إما أن يكونوا في حالة حرب فعلية بصورة مستمرة، أو يكونوا في خوف دائم من أن يهاجم بعضهم بعضاً. لأن الحرب لا تكمن فقط في القِتال، بل تكمن أيضاً في الخوف الدائم والاستعداد للصراع. ولا تكمن الحرب في القتال الفعلي، بل في الميل للقتال في جميع الأوقات التي لا يكون فيها السّلم مضموناً، وليس هناك معنى للأمان، وليس هناك حافز على الصناعة، الكل في خوف وفقر دائمين. ولا بد أن تكون الحياة البشرية (مُنعزلة (فقيرة بدائيّة، وحشيّة، قصيرة الأمد[1].

هكذا كان هوبز يعتقد أن هذه الحالة كانت موجودة بالفعل، وأنّها حالة تاريخية، وهذه الحالة يمكن مُلاحظتها الآن بين (الهمج) ولكنها متضمنه في داخل النّفس البشرية المتمدّنة. وإذا كان هناك شك في ذلك فدعه يتأمّل ذاته، فهو عندما يقوم برحلة، فإنه يُسلّح نفسه، ويحاول أن يُسافر مع رفيق جيّد، وعندما يذهب إلى النوم يُغلق أبوابه بإحكام، وحتى وهو داخل منزله يغلق خزانته... الخ.

وفضلاً عن ذلك فإن العلاقات الدولية هي باستمرار في تلك الحالة (الطبيعية) ففي جميع الأزمنة يكون الملوك وأصحاب السلطة العليا في يقظة تامة، وفي حالة استنفار ووضع الجلاد شاهرين أسلحتهم مصوّبة تجاه بعضهم البعض، وأعينهم مركّزة على بعضهم البعض، أي أن حصونهم، وجنودهم وبنادقهم، متمركزة على حدود المملكة، وأعين الجواسيس مركّزة باستمرار على جيرانهم[2].

---

(1) وليم كلي رايت، (تاريخ الفلسفة الحديثة) ترجمة محمود سيد أحمد ط/2 (2005)، ص 69، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.)

(2) Hobbes (the thirteen Law of nature are stated and expounded in Leviatharn).

ثم يقول أن الناس يرغبون بصورة طبيعية في السلام والأمن، والهروب من البؤس والفزع من حالتهم الطبيعية هذه، فدفعهم ذلك إلى تأسيس دولة تقوم على رضى مُتبادل يوافق فيها كل فرد على طاعة أوامر صاحب السيادة، الذي يكون رجلاً واحداً وخلفاءه (النظام الملكي) أو مجموعة من الناس (الارستقراطية أو الديمقراطية وفقاً لحجم المجموعة)، وكان صاحب السّيادة في انجلترا فرد واحد، وسلطة صاحب السيادة المطلقة، وهو لا يمكن أن يرتكب خطأ يمكن أن يخضع بسببه للمسائلة من الناحية القانونية، فهو ليس مسؤولاً أمام الله وضميره فحسب، بل مسؤولاً أمام الناس يُحاسب ويُساق إلى المحاكم ويتلقى جزائه حسب حجم فعلته. وبالمقابل يتعهّد الآخرون بطاعته، وهو لم يتعهد لهم بشئ بل له سلطة من القوانين وتعيين القضاة، وإعلان الحرب والسلام وتوقيع العُقوبات وتحديد دين الدولة...الخ.

ولما كانت الدولة قد تكونت بوضعها مصلحة أنانية فردية فإن خضوع الرعايا لصاحب السيادة يجب أن يُفهم على أنه يدوم ما دام يملك من الفترة المستمرة ما يمكنه من حمايتهم، وليس أطول من ذلك [1].

من هنا يفهم أنّ فلسفة هوبز الأخلاقية والسياسية، تقوم على مذهبي الأنانية واللّذة تماماً، فالنّاس يسلكون ويجب أن يسلكوا وفقاً لمصلحتهم الخاصة فحسب. لقد كان للمرء في حالته الطبيعية حق طبيعي في أن يفعل ما يحلو له، وأن يمتلك ما يمكن أن يستولي عليه، ويحُوزه من الآخرين. غير أن القانون الطبيعي يختلف تماماً عن الحق الطبيعي.

---

(1) Hobbes،T، (Leviathan)،chap. xxi

فالقانون الطبيعي هو فكرة أو قاعدة عامة يكتشف الإنسان عن طريق عقله أن من مصلحته طاعتها، ومن ثم فهو مُلزم بأن يفعل ذلك (فالمصلحة والواجب الأخلاقي هما شيء واحد في هذا المذهب الطبيعي الأخلاقي).

والقانون الطبيعي والأساسي الأول هو أن الناس ينبغي عليهم أن (يبحثوا عن السَلام ويتبعوه (وينتج عن ذلك القانون الثاني وهو (ينبغي أن يكون لدى الإنسان الرَغبة في السلام، وعندما يكون لدى الآخرين نفس هذه الرغبة، وأن تكون لديه رغبة في الدَفاع عن نفسه، عندما يجد أنه لا بد أن يفعل ذلك، وأن يتنازل عن هذا الحق (الطبيعي) في ملكيته لجميع الاشياء، وأن يقنع بذلك القدر من الحرية، إزاء الآخرين الذي يسمح به للآخرين أزاءه). ويحدث التخلي المتبادل والإرادي عن الحقوق الطبيعية، عن طريق اتفاق أو عقد. ولذلك يعد هوبز واحداً من الأوائل الذين أعلنوا في العصور الحديثة أن الدولة تدين بأصلها إلى العقد الاجتماعي. من هنا يبدأ الفرق بالتفكير في مفهوم الدولة لدينا (وفي الشرق عموماً) وإلى وقت قريب من أن الدولة هي سُلطة مستمدة من المفاهيم اللاهوتية، وتحكم بحقٍ إلاهي مُنزل من السماء، ومن صُلب الواجب الديني، هو إطاعة الحاكم (بإعتباره ولياً للأمر)وظل الله في الأرض، وكانت تلك المبادئ هي من أولى البُنى الارتكازية، التي قامت بموجبها الدولة الإسلامية في العصور التي نحن بصدد البحث فيها. فلم نجد في تأريخنا عقداً أجتماعياً بنيت عليه دوله من دولنا الماضيه والى وقت قريب كالذي وضعه هوبز وبكلمه أخرى لم يكن لدينا دولة بالمعنى الحديث للدولة.

ومن جانب آخر فإن البداوة المحاذية للمدن العامرة، لديها مفاهيم خاصة لا يُدرك المرء فيها الحاجة إلى العقد الاجتماعي المتمثل بالدولة، وبحُكم معيشة المرء في الصحراء مُنعزلاً بنفسه بعيداً عن المدينة والتمدن، فإن القوانين التي تحكمه ويؤمن بها محصورة بينه وبين الأرض والسماء، ولا يشغل باله سوى التوسَع في الأراضي الرَعوية،

وتسهيل مهنة التجارة، التي هي الشُغل الشاغل لشيوخ القبائل[1][2]، وهكذا بقيت المنطقة مقيَدة بتلك القوانين دون تطوير. وأدت لحصول انفلات وحوادث غير مُنظمة وغير مُلتزمة وحروب كثيرة، وأعمال عُنف مروّعة. ولا يزال الموروث الثقافي المذكور يتحكّم بالكثير من الناس مؤثراً في سير الحوادث التي نعيشها في العصر الحديث.

أمّا القانون الثالث لهوبز فيقول (ينبغي أن يلتزم الناس بتنفيذ ما يبرمونه من عقود)، والتي بدونها تصبح العقود، بالطبع، عديمة الجدوى، ويتبع عشرة قوانين طبيعية أخرى وهي: (الالتزام بالإرادة الخيَرة، التكيَف المتبادل، العفو عن التائب، العقوبات لا تكون إلا من أجل إصلاح المعتدين لا لردع الآخرين، وليس من أجل الانتقام، الامتناع عن ازدراء أو كراهية الآخرين، الاعتراف بأن جميع الناس مُتساوون، امتناع الإنسان عن الاحتفاظ بأي حق لنفسه دون غيره، أي ينبغي على المرء أن لا يرضى لنفسه أن يحتفظ بأي حق لا يرضى أن يحتفظ به كل إنسان آخر لنفسه، التوزيع العادل أو بالنّسب الصَحيحة للخيرات التي تكون مُلكاً للجميع، السلوك الآمن، وحل المنازعات عن طريق الجهة القضائية. (والقوانين الطبيعية تلك قوانين ثابتة، وأبدية، لأنّ الظلم، ونكران الجميل، والتكبر والكبرياء والبغي والمحاباة وغيرها، لا يمكن أن تكون على الإطلاق أموراً مشروعة وقانونية، لأنه لا يمكن مُطلقاً القول بأن الحرب يمكن أن تحافظ على الحياه وأنّ السّلام يدمرَها)[3].

لقد وصل هوبز إلى تلك الأخلاق، لا عن طريق دراسة حركات في المخ والقلب، وإنما عن طريق تحليل البواعث البشريّة، من خلال الملاحظة والاستنباط، وصِياغة للسُلوك في سلسلة من قضايا تم استنتاجها من مُقدَمات الأنانية.

---

(1) جواد علي (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) المصدر السابق نفسه.

(2) ول ديورانت (قصة الحضارة) المصدر السابق جزء 14.

(1) توماس هوبز (المصدر السابق ((chaps.xiii.xiv)

وهكذا بدأت تتطور المفاهيم بشأن حق الناس ورغبتهم في أن يختاروا، ويغيّروا شكل حكومتهم في الدولة والكنيسة (الدين) بعيداً عن سلطة المؤسسة الإلهية. وقد أثبتت الثورة الإنكليزية (1688)، أنه يمكن للناس أن يغيّروا دستور الدولة دون أن يُسبب ذلك خلطاً واضطراباً عاماً، أي أنَ رعايا الدولة يكونون مسؤولين عن القواعد التي يمكن أن تقرّها من الناحية الأخلاقية، وأن الحريّة الفرديّة في مسائل الدين، والكلام والنشر والأنشطة الأخرى، يمكن أن يُسمح بها، ويجب أن يُسمح بها للمواطنين في أي بلد مستنير ومتحرر.

لقد قام هوبز بمجهود طيب لكي يخلص الأخلاق من اللآهوت، ويؤكد أنه يجب تعريف الخير والشر، عن طريق ما تحققه الرَغبات البشرية أو ما لا تحققه. لقد رأى أن الدولة تعبر عن مصالح بشرية مُشتركة واتفاق عام، حتى لو لم يقدّر النتائج الكاملة لهذه الحقيقة. وهكذا وضع الحجر الأساس لسلسلة من الأفكار والفلسفات التي قادت لتطوير مفاهيم الإنسان حول الأخلاق والقوانين، وما له وما عليه من التزامات إجتماعية، ضمن الرّقعة التي يعيش فيها، وبالتالي كانت تلك الأفكار بمثابة القاعدة التي قامت عليها حضارة الغرب الحديثة، بينما ظلّت مناطقنا بعيدة كل البُعد عن التقدم، وظلّ الإنسان أسير أفكار العبودية والإقطاع، خائفاً مُضطرباً لا يرى في حياته الدنيا أي لذة أو معنى مُتأملاً أن يلقي سعادته في الآخرة وبالتالي لا يمعن كثيراً في تحسين حاله في الدنيا.

إنَ ما وضعه هوبز وغيره من الفلاسفة في ذلك العصر، لم يقطف المجتمع ثمارها في عصره ولا حتى بعد موته، ولكنها كانت نواة تبلورت حولها أفكار ومبادىء لصالح المجتمع بعد قرون، وقد برزت ثمارها تشيع على الآخرين في القرن العشرين وما بعده، ولم تكن كل أفكار أولئك الفلاسفة على صواب مطلق، بل جرى تعديلها وتطويرها، وما زالت في طور النقد والتعديل، كلما ازداد تطور المجتمع، وازدادت حاجته لوضع أسس

تنسجم مع العصر بكل ما فيه من تغييرات اجتماعية واقتصادية، وأهم من ذلك التطور العلمي والتقني.

من هنا تتضح الإجابة على تساؤلاتنا التي طرحناها في الجزء الأول من هذا البحث، حول الأسباب الرئيسية وراء أحداث التخريب والدمار الذي حصل في العراق بعد سقوط النظام السابق في 2003/4/9 ولا زالت تحدث إلى حد كتاب هذا البحث.

فقد برز انعدام وجود أي عقد اجتماعي أو قيم أخلاقية أو دينية أوغيرها، بين الناس، فلمجرد شعورهم بزوال السلطة القسرية عادت الهمجية والسلوك الإجتماعي الأولى أيام الجاهلية الأولى إلى الوجود، وسادت وتغلبت على كل شيء، وبرزت صفة الأنانية الفردية على الغالبية من الشباب الذي يفتقر للوعي والثقافة، حتى إن كاتب هذه السطور كان شاهداً على الأحداث، وقد شاهدت واحداً من رجال الدين (المعمَمين) وهو يحمل قطعة مسروقة من إحدى دوائر الدولة معتقداً أنها غنيمة، ومن حقه الاستحواذ عليها.

وحدث شيء آخر، ذي دلالة هامة لابد من ذِكره هنا، وهو أن أحد خطباء المساجد كان ينادي بإعادة الممتلكات الحكوميَة إلى محلها، ولكنه يدعوهم بالاحتفاظ بالسَلاح والعتاد (المسروق من مخازن الجيش)! على اعتبار أنه يفيدهم في وقت لاحق، ويجيز لهم ذلك دينياً.وأن دل ذلك الكلام على شيء فانما يدل على درجة أهتمام القوم في السلاح والاستحواذ عليه بأي طريقه كانت.

من هنا تأتي أهمية أن يكون هناك عقداً اجتماعياً يتفق عليه الجميع يتم استيعابه من قِبل الجميع، ويرضى عنه الجميع، ليُحدد موقف الجميع من الوطن، وممتلكات هذا الوطن، وكيفية التصرُف بها بعيداً عن سلطة اللآهوت، أو أي سلطة أخرى، ويجب أن نبدأ به من الآن لأنه وحسب استعراضنا للفصول الثلاثة في هذا البحث،

لم يأتِ أحدلا من الحُكام ولا من المُصلحين من استطاع أن يـبني أساسـاً راسـخاً لهـذه الأمـة، تسـتطيع أن تـنهض وتـتخلَص مـن الهمجيـة في العقـل البـاطن والسُلوك الفـردي المُفـرط بالأنانيـة، فلم تؤسـس الدولـة الأمويـة ولا العباسـيـة، وسـقطت الـدولتان علـى يـد المغـول، واستمرت تلك الحالة فيما بعد أيام الدولة العثمانية، ولا نـزال نعـيش في مـوروث ثقـافي لا يؤسـس (للأسـف الشـديد) للحـرص علـى المـال العـام، ولا يكـرّس للمفـاهيم الديمقراطيـة الحديثة،وأصبح الفساد الاداري آفة يصـعب الـتخلص منهـا صـحيح أن الفسـاد الإداري قـد يتواجد في كل مكان في العالم لكن الملفت أن الفساد الإداري في بلادنا مختلفاً في جوهره من حيث مفاهيم الأنانية وعدم الإحساس بوجود عقد اجتماعي يـربط المـواطنين بعضـهم ببعض.

لم يكن ذلك السلوك من تخطيط وصنع أجنبي أو أي جهة مُعادية، بل كـان سُـلوكاً أصيلاً نتيجة للشُعور بالظُلم والغَبن، الذي أصاب المواطن العراقي طيلة الفترة السابقة.

وعودة إلى سلوك الفرد الابتدائي الغير منضبط بعقد اجتمـاعي في أذهـان النـاس، والهشاشة في البُنى والقِيم الاجتماعية والثقافية، فقد شمِل التخريب كـل شـيء، ولم يكـن لتلبيـة الحاجات الأساسيـة من غِذاء وأموال بل طال كل الهياكل الارتـكازية للحياة الحديثـة من مجاري المياة، والكهرباء، والآثار، ومكتبـات، ومُستشـفيات، ومـدارس، وحتـى المسـاجد ودور العِبادة وغيرها.صحيح أن هناك اسباب أخرى وممارسات وأخطـاء مـن المسؤلين، إلا أن حجم الدمار الذي حصل لا بد وأن يكون أنعكاساً لما يـدور في فكـر الإنسـان العراقـي ومـا كان يعاني منه من ظلم وما يحمله من قيم وأخلاق طارئه وغير أصيله وبدائيه.

ولا يـزال التخريـب ساري المفعول إلى ساعة كتابة هذا الجـزء مـن البحـث، فـإذا جـاء المغـول لبلادنـا في منتصـف القـرن الثالـث عشـر، وخربـوا كـل شـيء، لكـنهم جـاؤوا لآسـيا بـرمتها وشرق أوروبا، وخربوا أكثر مما خرّبوا عندنـا، ولكن الجميع اسـتطاع تـرميم كـل

ذلك الخراب، لكن هشاشة البُنى الارتكازيـة الاجتماعيـة والثقافيـة والسياسـية عنـدنا لم تكن كافية لاستعادة البناء المجتمعي السّليم، في ذلك الحين، نأمل أن نتجاوز ذلك في هـذا العصر وبعد أن يدرك المسؤولون هـذه الحقائق أولاً.كـثيرون هـم اللـذين القـوا اللـوم علـى المحتل في تغيبه للقوة الرادعه بينما ذهب آخرون إلى ظروف الحرب الـتي خاضـها العـراق في الفترة القريبة الماضية كانت وراء كل مـا حصـل لكننـا نبحـث هنـا بموضـوعية وأمانـه بهدف تشخيص الجذور التاريخية وراء هذا التصرف والسلوك الجمعي .

وهكـذا نجـد أن فئـة مـن الـداعين للعُنـف اسـتطاعوا ببسـاطة أن يكسـبوا الشـباب والأطفال (بـين سـن 14 ــ 20 عامـا) لينضـموا إلـيهم بـدعوى ومبـادىء سـلفية قديمـة، تدعوا لتحطيم كل ما هو حديث ومتطور، وتـريد بنـا العـودة إلى حيـاة القـرون البدائيـة المُظلمة، وقد لاقت رواجاً هائلاً لم تسـتطع أي قـوة مـن إيقافهـا بسـهولة للاسـف الشـديد . والملفت أن هؤلاء الشباب هم بأمس الحاجه لمـن ينقـذهم مـن الـوهم الـذي يعيشـون فيـه. فسرعان ما يتكلم معهم أحد ويقنعهم نجدهم يغيرون رأيهم رأساً على عقب. ويتحولـون إلى افراد طبيعيين.

المسألة هي بوضوح أننـا نعاني من خلل تـربوي وثقافي بالدرجة الأساس والتي يجب أن تكـون مُسـتندة لفكـر فلسـفي يفضـي لوصـول فهـم مشـترك للمجتمـع، لإيجـاد عقـد اجتماعي يـربط بـين النـاس. هـذا العقـد يختلـف عـن دسـتور الدولـة المعـروف.إنـه عقـد يعـيش في ضـمير النـاس منـذ الصـغر ويتولـد مـن جملـة ممارسـات تـربويـة مكثفـة منـذ الصغر ولكافة المراحل العمرية.

لم تكـن الحضـارة الأوروبيـة الحديثـة وليـدة يـوم وليلـة، فقـد ظهـرت النهضـة الأوروبية للوجود منذ سقوط القسطنطينية عام (1453)، ولا نسـتطيع هنا من الخـوض في تفاصيل كل الأسس والفلسفات، الـتي سـاعدت في بنـاء تلـك الحضـارة الدائمـة والـتي لا

يستطيع تنظيم القاعدة أو غيره من تحطيمها، وإذا استطاع أن يهدم بنى أو هياكل حجرية، فكيف يمكنه أن يحطم أسس ومبادئ راسخة في العقول. لقد مرت على أوروبا عصور مظلمه وعانوا الكثير من وسائل القتل والتعذيب لكنهم تجاوزوها.

ولا بد لنا أن نشير لبعض الفلاسفة الأمريكان الذين ساهموا في فترة الفلسفة المعاصرة في تكريس مفاهيم الديمقراطية، ونخصّ بالذكر منهم جون ديوي، فقد قدَم آراءه السياسية في كتابه (الجمهور ومشكلاته)[1] المنشور عام (1927)، وكما يلي: ــ (إن الوحدة الاجتماعية النهائية هي (الجمهور) أعني كل أولئك الذين يتأثرون بالخير والشر، عن طريق المصالح المشتركة ــ وقد اعتاد الجمهور أن يجد في لقاء المدينة وسيطاً، حيث يستطيع أن يعلن عن نفسه في مسائل ذات اهتمام عام، ويتخذ إجراءاً ذكياً.

والدولة السياسية إذا كانت ديمقراطية، فهي الجمهور الذي ينظّمه ويوجهه موظفون ممثلون يختارهم الشعب. وتصبح الدولة في الاتساع والتعقيد حداً يضيع معه الجمهور، ويشعر بحيره بالتأكيد، ولا يعرف هو نفسه أموراً معينة، ويوجه موظفيه الممثلين بفطنة وذكاء. ويعمل هؤلاء الموظفون استجابة لضغط مجموعات. ويوجه المجتمع في كل المسائل غير السياسية متخصصون مدربون. والمشكلة الجوهرية هي تطوير منهج النقاش، والحوار، والاقناع، حتى يحمل البحث والعلانية محل الكِتمان، والمُحاباة، والتمويه، والدعاية، والجهل المطلق، ويستطيع الجمهور أن يكوّن سياسات اجتماعية عن طريق التفكير التأملي.

إن الحياة المشتركة تمتلك شيئاً يشبه الذكاء (العقل)، (وهنا لدينا مثل شعبي يشير إلى أن رأى الجماعة أكثر رجاحة وذكاءاً من رأي الفرد الواحد).

---

(1) وليم كلي رايت (تاريخ الفلسفة الحديثة)، المصدر السابق، ص522.

ولا بـد مـن إسـتعادة هـذا الشـيء ولا بـد أن يمتـد إلى الأمـة وإلى العلاقـات الدوليـة. ولـدينا أمثلـة عديـدة مـن بلـدان تحولـت مـن النظـام الـدكتاتوري الفـردي إلى النظـام الـديمقراطي حديثا كاليابان وألمانيا، وكوريا الجنوبية، وماليزيا وغيرها.

ونجـد أن وتـيرة التقـدم أخـذت في التصـاعد شـيئا فشـيئا، مـن خـلال الممارسـة الديمقراطية في كل نواحي الحياة،في المنزل والمدرسة والجامعه وفي العمل بالاضافه للعمـل السياسي.

وقـد نشـر ديـوي كتابـه (الحريـة والثقافـة) عـام (1939)، يسـتبعد فيـه رفـض للتعميم المطلق الـذي جاءت بـه المـذاهب الدينيـة الـتي تؤكـد هـذه القـيم، وتنسـب إليهـا مصدراً وسلطة خارج الطبيعة، إن الدين في الغالب محافظ للغاية في وجـه نظـر ديـوي ولا يريد إعادة بناء متغير لكي يواجه ظروفاً جديدة.

ويعرَف ديوي من ناحية أخرى الخدمة التي أداها الـدين في الماضـي، والـتي تتجلـى في إحداث الوحدة، والإدارة المميزة، والتعاون في المجموعات الاجتماعيـة، وللـدين مكانـة في المستقبل، لو أنه اسـتطاع أن يـتعلم التخلـي عـن صـنوف المطلـق[1]، وينسـلخ عـن العـادات والتقاليد، والحرص على الدنيا، وربط الرجال والنسـاء معـاً في صـداقة مشـتركة، والعمـل من أجل إصلاح الجنس البشري وتقدمة.

إن مفهوم الله يمكن أن يبقى بناءاً على هذه الشروط، فالانتباه سيكون موجها نحـو حاجات بشرية وطموحات من أجل مجتمع أفضل معيشة في هذه الدنيا. وقـد كـان ديـوي باستمرار محبوباً مـن قبـل القساوسـة ورجـال الـدين، وكـان لـه تـأثير ملحـوظ علـى فكـر اللاهوتيين والليبراليين وفلاسفة الدين[2] . وقـد قـدم آراءه عـن الـدين بصـورة كاملـة في

---

(1) لتوضيح المقصود بالمطلق هنا كل ما لا يقبل النقاش والمجادلة حولة في الأمـور الحياتيـة والمعتقـد، ويشكل قيداً على العقل ومانعاً للتطور.

(2) وليم كلي رايت (تاريخ الفلسفة المدنية)، المصدر السابق، ص523.

كتابة (الإيمان المشترك)[1].

لم تعد الديمقراطية تعني حكم الشعب بالشعب وللشعب، وحسب بل تطورت إلى مفاهيم وقيم شاملة، فقد أصبحت صياغة معدلة تؤكد التنظيم الاجتماعي للظروف الاقتصادية، ولا بد أن تكون حرية التفكير والتعبير عن الرأي كاملة، ولابد أن تكون حرية الفعل غير مقيدة وتتفق مع الصالح العام، ويجب منع الأطفال من العمل المضني. ولابد من مراعاة تشريع المصنع في حماية العمال، ولابد من الدفاع عن المفاوضة المشتركة عن طريق نقابات العمال بناءاً على قوانين العمل، والتأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة، والمرض، والبطالة، وتوزيع الدخل بالتساوي، ويصبح التعليم في متناول الجميع، وإذا استطعنا أن نطلق على كل ذلك وغيره اسم (الديمقراطية)، فإننا ننظر إلى الديمقراطية على أنها قيمة سامية تتحقق عن طريق تفكير عملي، وتشمل المساواة بين البشر بدون تحفظ.

وهكذا نجد أنفسنا ونحن نعيش في الشرق الأوسط، ونقلب في صفحات تاريخنا القديم والحديث لنجد أننا بعيدون كل البُعد، عن تلك المفاهيم ولم تكرس من قبل مفكرينا وفلاسفتنا ومصلحينا أياً من تلك المفاهيم، وأكثر من ذلك كان هناك خنق لكل من حاول أن يشير لمثل تلك المفاهيم في العصور الماضيه.

وكان مصير كل من نادى بتلك المباديء القتل والتعذيب، وقد وجدنا مثالاً في المعتزلة أيام العصر العباسي الذهبي كيف أنه مجرد إعطاء فسحة بسيطة للعقل في التفكير بحرية استطاعت أن تنتج باقة من العلماء والمفكرين، الذين هم فخر الأمة واعتزازها، إستطاعوا نقل التراث الحضاري البشري من الشرق إلى الغرب وقدموا دعماً راسخاً لبناء الحضارة الإنسانية الحديثة.

---

(1) J.Dewey and Tufts، (Ethics) ،(1932) ed.، pp 280 _ 287.

ثانياً: انتشار صناعة الورق والطباعة في أوروبا

لقد كان انتقال صناعة الورق من الصين إلى بغداد أيام العصر العباسي ومنها إلى أوروبا عن طريق إسبانيا، الأثر الكبير في زيادة التدوين ونقل العلوم، وهنا نذكر مره سأل العالم الأمريكي المعروف توماس أديسون، ذلك المخترع الذي نوّر العالم بالمصباح الكهربائي، وغيرها من المخترعات، سأل تلاميذه في الجامعة:عن ما هو أهم اكتشاف في التاريخ الذي لعب دوراً أكبر في تطوير حياة الناس؟ وكانت الإجابة الصحيحة حسب اعتقادة والتي أجابها هو: إنه (الورق).

فقد كان الإنسان يدوّن على الرَقيم الطيني، أو قصب البردى أو جلود الحيوانات المعرّضة للتلف، وعندما انتقلت إلى الورق، فإنها كانت طفرة كبيرة، شكّلت مرحلة جديدة من مراحل التطور العلمي للإنسان، بالإضافة لذلك فإن اكتشاف آلة الطباعة في أوروبا (فرنسا)، قد ساهم في سهولة نشر المعلومة، وبالتالي أصبح بإمكان أكبر عدد ممكن من المجتمع أن يطلع ويقرأ ويتثقف.

وكان ذلك عاملاً أساسياً في النهضة الأوروبية الحديثة من خلال شمول أعداداً كبيرة من المجتمع بالثقافة والتفاعل مع المنتجات العلمية والفكرية المختلفة، بدلاً من قصورها على عدد محدود من الناس، كما كان الحال في الشرق في العصور المذكورةوكانت أولى نتائج النهضة الاوربية حصول الثوره الصناعية التي بدأت في انكلترا وانتشرت في أرجاء اوربا بسرعة أدت إلى تغيير جذري في أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية في فتره وجيزه. وفي المقابل حرمت الفتاوي الإسلامية شرعيه طباعة الورق بحجه الا يحرف القرآن من خلالها، وظلت الطباعه بعيدة عن المجتمع الإسلامي منذ عصر النهضة الاوربية في القرن الخامس عشر إلى دخول نابليون مصر في بداية القرن التاسع عشر. لقد تسببت تلك الفتاوي في حصول خلل كبير في نشر التعليم والتنوير وبقي المجتمع العربي والإسلامي في ظلام لفترة 350 عام من التوقف عن

الطباعة كانت بمثابة حجب الفكر والتنوير لعامه المجتمع بينما بلغت نسبة التعليم والقراءة في أوروبا وفي فرنسا بالذات 55٪ من المجتمع في عصر نابليون في حين لم نصل نحن لهذه النسبة الا في القرن العشرين، وقد لعب ذلك دوراًمهماًفي زيادة الفوارق المعرفية والحضارية بين الشرق الأوسط والغرب .لقد لعبت الفتاوي في حجب الادوات والوسائط المساعده في نشر الثقافة والمعرفة لأوسع شرائح المجتمع دوراًكبيراًفي حجم الفوارق الحضارية بين العالم الإسلامي والغرب .لقد وصلت عقوبة ممارسة الطباعة في أيام سيطرة العثمانيين على العالم الإسلامي حد القتل كما سنأتي لذكره في الجزء الثالث من هذا الكتاب . ان نشر المعرفة لأوسع شرائح المجتمع كان من شأنه ان يزيد فرصة التقدم من خلال ما يحصل من تطور فكري ومعرفه وزياده في المهارات وتبادل الخبرات وبالتالي النهوض بالمجتمع بأكمله إلى الأمام.

وهكذا بدأت تتسع الهوة بين المشرق والمغرب، ووصلت إلى حد أن كلَ مجتمع كأنه يعيش في كوكب مختلف عن الآخر، وإلى أن جاء احتلال نابليون لمصر في بداية القرن التاسع عشر وبعدها، وأخذت البعثات الدراسية التي توالت من البلدان العربية والإسلامية في محاولة للتأسيس لنهضة فكرية حديثة، كل تلك العوامل ساهمت في التقليص من الفوارق. وهناك اكتشافات أخرى انتقلت من الصين إلى أوروبا كانت مؤثرة في تطوير الحضارة الحديثة تلك هي إكتشاف البارود والمدفع الذي ساهم في تقليص الحروب والهمجيه. وكذلك التلقيح ضد الامراض الساريه كالطاعون والكوليرا والتي كانت بالأساس إكتشافاً صينياً.انتقل وتطور في أوروبا بعد فترة طويله.

ثالثاً: مارس الأوروبيون الملاحة البحرية بشكل واسع جداً في القرن السادس عشر

وكان ذلك ضمن موروثهم التاريخي فمنهم من كان في جنوب أوروبا، من أصل فينيقي أوشمالها من أصل أنكلو سكسوني، وكل تلك الأقوام كانت تعيش على سواحل

البحار، وكانت تلك الحياة والممارسة قد اكسبتهم حالة من عدم الشعور بالخوف، وأصبحوا يولدون ويموتون دون أن يدخل في قاموس حياتهم شيء إسمه خوف، لأن البحر فيه من المخاطر والكوارث ما يجعل القدرة والموهبة في مجابهتها، والتعامل معها بعقلية متفتحة وأفق واسع.

بالإضافة إلى ذلك فإن الذي يصول ويجول في البحار والمحيطات يكتسب سعة في الأفق، ويصبح متفتحاً عقلياً، لتفسير الظواهر المحيطة به بعيداً عن الخرافات والشعوذة، (إن الإنسان الخائف يصبح لقمة سائغة للخرافات والشعوذة، ولا يستطيع أن يعمل عملاً ناجحاً ومُثمراً). وكان ذلك أمراً مضافاً للإسراع في عجلة التقدم، وبالتالي ظهرت النهضة الأوروبية الحديثة منذ منتصف القرن الخامس عشر، واستمرت في التصاعد إلى يومنا هذا. بينما بقي الشرق الأوسط يواجه صراعاً عنيفاً بين المدينة والبداوة، وأصبحت المدينة تواجه هجمات الرعاة بين الحين والآخر، لتحقيق هدفهم في زيادة رقعة الرعي، وفي ممارسة التجارة والسيطرة على الطرق.

وهكذا بدأت عندنا ما يُعرف بصراع الحضارات، عندما أصبح الفارق كبيراً بين ما توصلوا إليه من علم وتقنية، وما نحن عليه من حياة بدائية تتطلب المزيد من الإصلاح لتقريب تلك الفوارق، إن الزيادة في الثروة الناتجة عن الإنتاج النفطي لبعض البلدان العربية والشرق أوسطية، لا تكفي لوحدها من تقريب تلك الفوارق كما يظن البعض بل هناك سلسلة من الإصلاحات التربوية والثقافية، لابد من العمل الدؤوب من أجل التوصل إلى حلول لها لأن التقدم الحقيقي لا يشترى بالمال وحدة. ومهما بلغت الاصلاحات العمرانية من أموال النفط فإنها تصبح هشه ما لم يصاحبها إصلاح وتنمية بشريه وفكرية .

لقد أصبح واضحاً الآن أن مُشكلاتنا في البلدان النامية تتعلق في نمط التفكير والمفاهيم التي نحملها والناجمة عن الموروث التاريخي القديم، والذي يحتاج إلى تحديث جذري وشامل لكل فئات المجتمع .

وهكذا ننهي هذا الجزء من البحث على أمل التواصل بهدف الكشف في المسببات الأساسية وراء التخلف ذي الخلفية التاريخية، ولكي نصل إلى المراحل الحديثة، وما سببته لنا من مشكلات معاصرة في المستقبل القريب إنشاء الله.

بقي لدينا مراجعة ما خلفته لنا الدولة العثمانية من مواريث وأحمال وصولاًالى العصر الحديث كي تكتمل الصوره.

إلى اللقاء في الجزء الثالث

المراجع

المراجع

- "الموسوعة الفلسفية العربية" رئيس التحرير معن زيادة، المجلد الاول، الطبعة الاولى (1986) معهد الانماء العربي دمشق ـ سوريا.
- H.steiner "المعتزلة أو ذوو التفكير الحر في الاسلام" طبع لايبزج (1865).
- ابن ابي أصبعة "عيون الابناء" في طبقات الاطباء"، طبعة بيروت (1965).
- ابن الاثير "الكامل في التاريخ" القاهرة (1938).
- أبن النديم (محمد بن اسحق) "الفهرست" مصر (1929).
- أبن حجر "الصواعق المحرقة" دار الكتب العلمية — بيروت.
- أبن خلدون — عبد الرحمن "مقدمة أبن خلدون" دار العلم — بيروت، لبنان (1978) الطبعة الأولى.
- ابن خلكان "وفيات الاعيان" طبع دي سلان، الجزء الأول مصر(1858).
- ابن عساكر "تهذيب تاريخ ابن عساكر" دار المسيرة، بيروت (1979).
- أبن قتيبة (عبدالله بن مسلم) "عيون الاخبار"، مصر (1960).
- أبن قيم الجوزي "زاد المعاد" غزوات الرسول، تحقيق شعيب وعبد القادر الارناؤوط، مؤسسة الرسالة — بيروت.
- أبي الفداء (الحافظ) إسماعيل ابن كثير "السيرة النبوية" (774 ـ 701هـ) تحقيق مصطفى عبد الواحد، الجزء الرابع (1976) دار المعرفة ـ بيروت وكذلك "البداية والنهاية" .
- أحمد أمين "زعماء الإصلاح في العصر الحديث" دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.
- أحمد سوسة "حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين" سلسلة دراسات 214، دار الرشيد للطباعة والنشر، بغداد، (1980).

- أحمد صالح العلي "العراق في التاريخ" دار الحرية للنشر والطباعة بغداد (1983).
- أحمد فرج الله "نظرة حديثة لقضايا قديمة في التاريخ الإسلامي" بغداد (2004).
- أخوان الصفا: "رسائل اخوان الصفا" القاهرة (1888).
- ادورد براون "تاريخ الأدب في ايران" 5 أجزاء ترجمة أحمد كمال الدين حلمي وآخرون، المجلس الاعلى للثقافة القاهرة (2005).
- أدورد بروي — تارخ الحضارات العام (القرون الوسطى) الجزء الثاني، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية (1986).
- ارنست غيلفر "ما بعد الحداثة والعقل والدين" ترجمة معين الإمام، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق (2001).
- آرنولد توينبي " مختصر دراسة التاريخ " ــ 4 أجزاء ترجمة فؤاد محمد شبل مراجعة محمد شفيق غربال لجنة الترجمة والتأليف والنشر—جامع الدول العربية (1966) القاهرة.
- أرنولد توينبي "مختصر دراسة للتاريخ" ترجمة فؤاد محمد شبل مراجعة محمد شفيق غربال، لجنة الترجمة والنشر والتأليف، جامعة الدول العربية القاهرة (1966).
- برناردلويس "الحشاشون " ترجمة محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، القاهرة (2006).
- بروناو (Brouno) "الخوارج" طبع ليدن (1884).
- البلاذري "فتوح البلدان وأنساب الاشراف" تحقيق محمد رضوان، الجامعة العربية، القاهرة (1959).
- التفتازاني "شرح عقائد النفسي" طبع مصر ، الجزء الأول (1936).
- الثعالبي (أبو منصور) "لطائف المعارف" طبعة Delong ، القاهرة (1934).

- جان بوتيرو "ولادة اله التوراة والمؤرخ" ترجمة جهاد الحواش، عبد الهادي عباس، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا ـ دمشق (1999).
- جميل صليبا "تاريخ الفلسفة العربية" دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ــ الطبعة الثانية (1973).
- جواد علي "المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام" مطبعة المجمع العلمي العراقي، 12 جزء بغداد (1965). الجزء الخامس.
- جورج روو "العراق القديم" ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، بغداد (1986).
- جورج كونتينو "الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور" ترجمة سليم طه التكريتي، وزارة الثقافة والأعلام بغداد (1997).
- جون ديوي "الديمقراطية والتربية" ترجمة متي عقراوي، وزكريا ميخائيل، لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ وزارة المعارف ــ بغداد (1946).
- حافظ وهبة "جزيرة العرب في القرن العشرين". الجزء الأول القاهرة (1946). الطبعة الأولى ــ مكتبة النهضة المصرية ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- حسام محيي الدين الالوسي "فلسفة الكندي وآراء القدامى والمحدثين فيه" بيروت (1985).
- الحسني (عبد الرزاق) "الصابئة قديماً وحديثاً "، القاهرة ــ مصر(1931).
- حسين بن حمد العرش "بلوغ المرام" القاهرة (1939).
- حسين مروة "نزعات مادية في الفلسفة العربية الإسلامية" الجزء الأول، والثاني، الطبعة الثالثة، دار الفارابي بيروت لبنان (1980).

- حنا الفاخوري — خليل الحرّ "تاريخ الفلسفة العربية" الجزء الثاني دار الجيل — بيروت لبنان — الطبعه الثالثه (1993).
- حنا الفاخوري وخليل الحر " تاريخ الفلسفة العربية " ج1، دار الجيل بيروت ط3 (1993).
- خزعل الماجدي "الدين السومري" دار الشرق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان (1998).
- خزعل الماجدي "متون سومر" الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان (1998).
- د.علي الوردي "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" مطبعة العاني، بغداد (1965).
- د.علي الوردي "وعاظ السلاطين" دار الورق للنشر، لندن، الطبعة الثانية (1995).
- دو خوين "ملاحظات حول قرامطة البحرين والفاطميين، لين (1886).
- دوزي "تاريخ الدولة الاسلاميه" طبع لندن، ترجمة فكتور شوون، القاهرة (1863).
- دوسون "تاريخ المغول من جنكيز خان الى تيمور لنك" المجلد الاول، القاهرة.
- دي ساس(سلفستر) "شرح عقيدة الدروز" طبع باريس (1874).
- رينه دوسن "تاريخ النصرية ومذهبهم" طبع باريس (1900).
- الزمخشري "الكشاف عن حقائق التنزيل" تفسير القرآن، الدار العالمية. بيروت (بدون تأريخ).
- الزمخشري (محمود بن عمر بن محمد جاد الله أبو القاسم) "الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل من وجوه التنزيل" مطبعة الاستقامة — بيروت (1947).

- ستانلي لين بول "تاريخ الملوك والسلاخين والامـراء"، تـرحمـة مكـي خاهر، عبـاس اقبال الدار العربيه للموسوعات ، بيروت (2006).
- ستيفن هيمسلي لونكريك "تأريخ العراق بين عام 1950 ــ 1900" ترجمة جعفر الخياط. الطبعة الرابعة، وزارة التربية، بغداد (1968).
- سلامة موسى "نظرية التطور وأصل الإنسان" نشر إلياس أنطوان إلياس، المطبعة العصرية — مصر (بدون تأريخ) ص 228.
- سنن أبن ماجه " كتاب الجهاد " دار الجيل — بيروت مجلدين (2001).
- سنن الترمذي، " فضائل الجهاد "، مكتبة المعارف - بيروت.
- السير وليم موير "تاريخ الخلافهة الأول" حياة محمد وتاريخ الإسلام "(في أربعة أجزاء) الطبعة الرابعة (1982).
- سيرة أبن هشام – عبد الملك أبو محمد بن هشام "السيرة النبوية" تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار الكتب العلمية — بيروت، الجزء الأول والثاني والثالث.
- السيرة الحلبية — علي بن برهان الدين: إنسان العيون في سيرة المأمون "أو السيرة الحلبية" دار أحياء التراث — بيروت (بدون تأريخ).
- شاكر النابلسي "المال والهلال" "الموانع والدوافع الاقتصادية لظهور الإسلام" دار الساقي، الطبعة الأولى بيروت — لبنان (2002).
- الشهرستاني ــ محمد عبد الكريم "الملل والنحل" مطبعة حجازي، القاهرة (1949) ج1، ج2.
- صباح زنكنة "قصة كتاب ظهور التلمود وأسباب حرقه" مقالة في جريدة الصباح العراقية عدد 488 في 2005/3/1 الثلاثاء.
- صحيح البخاري "كتاب المناقب"، وكتاب المغازي وكتاب الإيمان، عالم الكتب — بيروت (بدون تأريخ).

- صحيح مسلم "كتاب السلام" باب تحريم الكهانة، جزء من السنة النبوية الشريفة، عالم الكتب — بيروت (2000).
- خباخبا محمد بن علي المعروف "بأبن الطقطقي " الفخري في الأدب السلطاني والدول الإسلامية" القاهرة (1938).
- الطبري "تأريخ الرسل والملوك" الجزء الأول، دار الكتب العلمية — بيروت (1987).
- الطبري (محمد بن جرير): "تاريخ الامم والملوك" القاهرة (1939) 4 أجزاء.
- خه باقر "مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة" — الوجيز في تأريخ حضارة وادي الرافدين الجزء الأول، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والأعلام، الطبعة الأولى بغداد (1986).
- خه باقر "مقدمة في أدب العراق القديم" جامعة بغداد، كلية الاداب، دار الحرية للطباعة، بغداد (1979).
- خه حسين "الفتنه الكبرى" الجزء الاول والثاني، الطبعه السادسه، دار المعارف بمصر (1966).
- خه حسين "في الشعر الجاهلي" دار المدى للثقافه والنشر، دمشق(2001).
- عاخف العراقي "النزعة العقليه في فلسفة إبن رشد" القاهرة (1968).
- عبد الباقي سرور "رابعه العدويه والحياة الروحيه في الاسلام" القاهرة ـ مصر.
- عبد الجبار الراوي (البادية).
- عبد الرحمن بدوي "مذاهب الاسلاميين" الجزء الاول المعتزلة والاشاعرة ـ دار العلم للملايين، بيروت، ط 3 (1983).
- عبد العزيز سالم "دراسات في تأريخ العرب قبل الإسلام" مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (بدون تأريخ).
- عبد الله العلايلي "مقدمات لفهم التأريخ العربي" دار الجديد، بيروت (1994).

- عبد الوهاب حميد رشيد "حضارة وادي الرافدين" دار المدى للثقافة والنشر- الطبعة الأولى، سوريا، دمشق (2004).
- عبدالله خليفة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الاسلامية" الطبعة الاولى، الجزء الأول والثاني والثالث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (2005).
- العفيف الأخضر "سلسلة مقالات حول الدراسات الدينية في الوطن العربي" جريدة المدى، بغداد (2004).
- عمر فروخ "تاريخ الادب العربي" ط 2 دار العلم للملايين ـــ بيروت ـــ لبنان (1984).
- الغزالي(ابو حامد محمد) "احياء علوم الدين" القاهرة (1888).
- فؤاد عبد المعطي الصياد "المغول في التاريخ" الجزء الاول بيروت (1970).
- فاضل عبد الواحد علي "من ألواح سومر إلى التوراة" دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية (1989).
- فردريك كويلستون "تاريخ الفلسفة الحديثة" ترجمة محمود سيد أحمد "المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة (2005).
- فون كرمر "تاريخ عقائد الاسلام المهمة الشائعة".
- فون كرومر "لآثار التاريخية حضارة الممالك الاسلامية"، طبع لايبزج (1873).
- فون كرومر "تاريخ الفرق الاسلامية" طبع لايبزج (1868).
- فون كرومر "تاريخ وثقافة الشرق في عصر الخلفاء" مجلد عدد 21 (1877 ـ 1875).
- كارل بروكلمان "تأريخ الشعوب الإسلامية" ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين. بيروت (1977)، الطبعة الأولى (1939).

- الكتاب المقدس "العهد القديم والعهد الجديد" إصدار دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، لبنان (1995).
- كيفن يونغ " العودة إلى الأهوار " ترجمة حسن الجنابي، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، سوريا — دمشق (1998).
- لي أوينهايم " بلاد ما بين النهرين " ترجمة سعدي فيض عبد الرزاق، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد (1981).
- محمد الشهرستاني "الملل والنحل" الجزء الثالث، مطبعة حجازي، القاهرة (1949).
- محمد عابد الجابري "العقل السياسي العربي" مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، شباط (1990).
- محمد عابد الجابري "العقل السياسي العربي محدداته وتحليلاته" المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب (1990) الطبعة الأولى.
- محمد عابد الجابري "بنية العقل العربي" دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية" ط7 مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت (2004).
- محمد عابد الجابري "تكوين العقل العربي" الطبعة التاسعة، مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت (2006).
- محمد عبد الرحمن مرحبا "من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية" عويدات للنشر والطباعة، بيروت (2000) ج1.
- محمود شكري الآلوسي "بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب" .
- المس بيل "فصول من تأريخ العراق الحديث" ترجمة جعفر الخياط، الطبعة الثانية، وزارة التربية والتعليم، بغداد (1971).
- المسعودي "مروج الذهب" طبع باريس، 9 اجزاء (1877 ــ 1861).
- المظفر (محمد رضا) "عقائد الامامية"، القاهرة (1961).

- معروف الرصافي "كتاب الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس" منشورات الجمل، ألمانيا (2002).
- نائل حنون "العقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة" رسالة ماجستير، الطبعة الثانية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (1986).
- نظام الملك "سياستنامه"، طهران(1320 هـ).
- نهج البلاغة ــ مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي شرح محمد عبده (منشورات دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان، الطبعة الخامسة (2003).
- النوبختي(أبو الحسن محمد) "فرق الشيعة" القاهرة (1961).
- نولدكه "تاريخ الشرق" الترجمة الانكليزية، طبع لندن، وارنبور (1892).
- النويري (شهاب الدين احمد) "نهاية الارب في فنون الادب" القاهرة (1955).
- هادي العلوي "الاغتيال السياسي في الاسلام" دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، دمشق الطبعة الرابعة (2004).
- هادي العلوي "التعذيب في الاسلام" دار المدى للثقافة والنشر، دمشق (2004).
- هادي العلوي "خلاصات في السياسة والفكر السياسي في الاسلام" دار المدى للثقافة والنشر ـ دمشق، الطبعة الرابعة (2004).
- هادي العلوي "محطات في التاريخ والتراث"، دار الطليعه الجديده.
- هاري ساكز "الحياة اليومية في العراق القديم" (بلاد بابل وآشور) ترجمة كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد (2000).
- ول ديورانت " قصة الحضارة " ترجمة محمد بدران ج 14 ــ 13 جامعة الدول العربية القاهرة.
- وليم كلي رايت "تاريخ الفلسفة الحديثة" ترجمة محمود سيد أحمد" المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة (2005).

- وليم ويلكوكس "من جنة عدن الى عبور نهر الأردن" ترجمة محمد الهاشمي.
- ياقوت الحموي "معجم البلدان" دار الكتب العلمية — بيروت لبنان (2002) 7 أجزاء.
- اليعقوبي (أبن واضح) "تاريخ اليعقوبي"، النجف الاشرف (1883).
- Thomas Hobbes,"Latin works",edited by Molesworth,Vol–1,2.
- H.Hoffding History of Modern Philosophy , Vol . I .
- New Atlantis (in the works of Francis Bacon , edited by spedding Ellis and Health , Vol . III) . London ,
- Thomas Hobbes "leviathan" several edapters,works edited by Molesworth.
- Dewey J , "Experience and Nature" .
- Dewey J,Ethics (with James H.Tn fts) (1932).
- Phillip Hitti" History of the Arabs" Biruit–London (1968). AL–KASHAF House.
- (1971) London " First Great Civilization" Jaeqnetta Hawkes
- Nicholson "A Literary History of the Arab "
- W.Rothstein "znasch–scha bustis Bericht uber der Tahiriden"oriental studies,Giessen,I,(1906).